المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكّمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ والوثائق والمخطوطات والآثار

تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ـ دولة المقر

العددان : ٤١، ٤٢ السنة السادسة عشرة

١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م

المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ والوثائق والمخطوطات والآثار

تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ـ دولة المقر

العددان : ٤١، ٤٢ السنة السادسة عشرة
١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

تم طباعة هذين العددين من مجلة المؤرخ العربي على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال ولي عهد المملكة الأردنية الهاشمية المعظم.

طبع في مطبعة الجامعة الأردنية ـ عمّان

شروط نشر البحوث في المجلـــة

١ ـ أن يعتمد البحث الأسس العلمية في إعداد وكتابة البحث.

٢ ـ أن يكون منسجمـاً مع أهداف اتحاد المؤرخين العرب.

٣ ـ أن لا يزيد عدد صفحاته عن (٥٠) صفحة.

٤ ـ أن لا يكون قد سبق نشره أو قبل للنشر في مجلة أخرى، على أن يقدم كاتب البحث تعهداً يؤكد ذلك مرفقاً برسالة مع البحث موجهة إلى مدير التحرير.

٥ ـ تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية، وباللغتين العربية والانجليزية.

٦ ـ يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة، ويفضل أن يكون مختصراً، وثبت إسم الباحث أو أسمـاء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم.

٧ ـ يطبع البحث على وجه واحد من الورقة، وتأخذ كل ورقة رقمها الخاص، ويقدم بنسختين.

٨ ـ بالنسبة للبحوث المقدمة إلى المؤتمرات أو الندوات أو كان مستلاً من رسالة أو إشراف عليها مقدِّم البحث يؤشر ذلك في حاشية البحث.

٩ ـ لأمور فنية خاصة بالطباعة يجب أن توحَّد الهوامش الخاصة بالبحث من أول هامش في البحث إلى آخر هامش فيه، وتعطى تسلسلاً واحداً.

١٠ ـ يحال البحث المقدم للنشر إلى خبير مختص ويُعاد إلى كاتبه لإجراء التعديلات المقترحة إن وجدت على أن يُعاد إلى مدير التحرير في غضون خمسة أيام.

١١ ـ رتِّبت البحوث لاعتبارات فنية وهي تعبِّر عن آراء أصحابها مع التأكيد على أن مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى، والبحوث التي ترد للمجلة لا تسترجع إلى أصحابها في حالة عدم نشرها.

١٢ ـ يرجى تدوين إسم الباحث وعنوانه، وعنوان بحثه باللغة الانكليزية.

ترسل البحوث باسم مدير التحرير
ص.ب: (٤٠٨٥) بغداد ـ الجمهورية العراقية
مجلة المؤرخ العربي ـ اتحاد المؤرخين العرب
ت: ٤٤٨٠٠٦

الاشتراكات السنوية في مجلة المؤرخ العربي

١ ـ الدوائر الرسمية وشبه الرسمية في داخل دولة المقر (٥٠) ديناراً، وفي خارج دولة المقر (١٥٠) دولاراً أمريكياً.

٢ ـ للمؤرخين في داخل دولة المقر (٢٠) ديناراً، وفي خارج دولة المقر (٦٠) دولاراً أمريكياً.

٣ ـ لطلبة التاريخ في داخل دولة المقر (١٠) دنانير، وفي خارج دولة المقر (٣٠) دولاراً أمريكياً.

مجلة المؤرخ العربي
العنوان:
اتحاد المؤرخين العرب
ص . ب: 4085
العراق: بغداد

بطاقة الاشتراكات

150 دولار للمؤسسات الرسمية
60 دولار للمؤرخين
30 دولار لطلبة التاريخ

ارجوا قبول اشتراكي في مجلتكم لمدة سنة واحدة

يرجى ارسال قائمة بالحساب
تجدون طيا صكاً بقيمة .... دولار
الاسم: ....
العنوان: ....
المدينة: ....
القطر: ....
التاريخ: ....

Subscription Card

Please enter my subscription for

One year $ 150.00 for Institutions
$ 60.00 for Historians
$ 30.00 for Students of History

Please bill me

Check enclosed for $........................
Name........................
Address........................
City........................Country........................
Date........................

Address:

Union of Arab Historians
P.O.Box: 4085
Baghdad - Iraq

الهيئة الاستشارية لمجلة المؤرخ العربي

بسم الله الرحمن الرحيـــم

الافتتاحيـــة

يسرني بمناسبة صدور هذين العددين من مجلة المؤرخ العربي أن أتوجه بجزيل الشكر إلى صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال ولي عهد المملكة الأردنية الهاشمية المعظم لتفضله بطباعتهما على حسابه الخاص، وهذا أمر معروف عن سموه حيث يحرص حفظه الله على رعاية المشاريع الثقافية الوطنية العربية.

كما يسعدني أن أعبر عن شكري لكل من ساهم في اخراج هذين العددين و بخاصة العاملين في مطبعة الجامعة الأردنية والشكر أيضاً موصول لجميع الزملاء الذين قاموا بتدقيق وملاحقة النصوص في مختلف مراحل الطباعة. ونسأل الله أن يوفق اتحاد المؤرخين العرب لخدمة القضايا الأساسية في تاريخنا العربي.

والله ولـــي التوفيـــق

محمد عدنان البخيت

الأمين العام المساعد
لاتحاد المؤرخين العرب

عمان في ٢٨ ذو القعدة ١٤١٠ هـ
٢١ حزيران ١٩٩٠ م

محتويات العددين (٤١، ٤٢)

اولاً : بحوث التاريخ الحديث والمعاصر

● إشكالية تحديد السمات المنهجية لمدرسة تأريخية عربية — د. الحبيب الجنحاني — ١٧
● أهداف المؤرخ في الوضع العربي الراهن — د. عز الدين غربية، د. سليمان البدر، د. ميمونة الصباح — ٢١
● مشروع خطة عثمانية في التصدي للأطماع الإستعمارية بالخليج العربي أواخر القرن التاسع عشر — الكرّاي القسنطيني — ٢٥
● اولى الانتصارات العربية في العصر الحديث، طرد البرتغاليين من عمان ١٦٥٨م — أ. د. محمد محمود السروجي — ٤٧
● فتوحات الامام أحمد بن ابراهيم (جري) ١٥٢٧ - ١٥٤٣م في القرن الأفريقي — السيد أحمد جمالة محمد — ٥١
● رشيد رضا ومجلة المنار ما بين ١٨٩٨ و ١٩١٩ — د. محمد رجائي ريان — ٦١
● جذور المشكلة الأيرلندية — أ. د. نوري السامرائي — ٧٩
● الاعتماد الدولي المتبادل والمشكلات العالمية — د. عناد فواز الكبيسي — ٩٦

ثانياً : (بحوث التاريخ العربي الاسلامي)

● المخابرات الايوبية في مواجهة الصليبيين — أ. د. صلاح الدين البحيري — ١٠٧
● في الفكر الاقتصادي العراقي دراسة في كتاب الخراج لابي يوسف — د. أمل عبدالحسين السعدي — ١٢٤
● الدولة القراخانية — د. حسين علي الداقوقي — ١٣٤
● تشجيع الحكم المستنصر للحركة العلمية في الأندلس — د. خليل ابراهيم الكبيسي — ١٥١
● نظرات في منهجية اعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي — د. محمد جاسم حمادي المشهداني — ١٥٩
● جند الشام في الاندلس والتأثيرات الشامية (زمن الأمير عبدالرحمن الداخل) — د. يونس شنوان — ١٦٩
● ملامح من خطط صلاح الدين الايوبي العسكرية في ضوء المفاهيم العسكرية الحديثة — د. سوادي عبد محمد — ١٧٦
● ثورة الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون في العصر المملوكي ومظاهرها القومية — د. يوسف حسن غوانمة — ١٨٦

ثالثاً : بحوث التاريخ القديم والآثار

- دراسات في التصنيع والفكر العسكري الأشوري — د. فاروق ناصر الراوي — ١٩٥
- دراسة عن الدُمىٰ الفخارية النسوية من تل أسود — السيد أحمد مالك الفتيان — ٢٠٣

رابعاً : تحقيقات واستدراكات على الكتب

- تحقيقات واستدراكات واضافت على ما ورد في معجم الانساب لزامباور على ضوء نقود المغرب والاندلس ما بين القرن ٤ ـ ١٠هـ/ ١٠ ـ ١٦م — د. محمد باقر الحسيني — ٢٠٩

خامساً : عروض الكتب

- مراجعة كتاب الدولة العثمانية وقضية الموريسيكين الاندلسيين — أ. د. محمد عدنان البخيت — ٢٢٩
- دفتر مُفصّل لواء عجلون طابو دفتري رقم ٩٧٠ ـ استانبول دراسة وتحقيق أ. د. محمد عدنان البخيت والسيد نوفان رجا الحمود — عرض : أسامة يوسف شهاب — ٢٣٠
- الكشاف التحليلي للمؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام — اعداد : محمد تيسير سلامة عدول سلامة البخيت — ٢٣٢

سادساً : رسائل جامعية

الرسائل الجامعية التي نوقشت في الجامعة الاردنية للعام الجامعي ١٩٨٩/ ١٩٩٠ — ٢٣٤

سابعاً : مطبوعات

مطبوعات الجامعة الاردنية ومنشوراتها خلال (١٩٨١ ـ ١٩٨٩) — ٢٣٧

بحوث التاريخ
الحديث والمعاصر

اشكالية تحديد السمات المنهجية لمدرسة تاريخية عربية

د. الحبيب الجنحاني
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
جامعة تونس

أبادر إلى القول ان ورقة العمل هذه لا تطمح أن تضع اطارا نظريا منهجيا لرؤية قومية للتاريخ العربي منذ العصور القديمة الى العصر الحديث. بل ان مثل هذا الاطار يتناقض مع نظرتنا الى الدراسات التأريخية عامة، والى الدراسات العربية الاسلامية بصفة أخص، وانما هي تحاول من خلال طرح جملة من الاشكاليات والتساؤلات ان تسهم في تحديد بعض العناصر المنهجية حول هذه القضية الشائكة من جهة، وان تبرز الصعوبات الموضوعية لتحقيق هذا الهدف من جهة اخرى.

ان هذه الملاحظة تجرنا الى طرح تساؤل ذي شقين :

أ - لماذا برزت بالحاح في السنوات الماضية محاولات تحديد معالم مدرسة تأريخية عربية ذات توجه قومي وحدوي ؟ ماهي الدوافع، وما هي الأهداف ؟ وبالتالي هل من الممكن في الوضع المعرفي الحالي في الوطن العربي تأسيس هذه المدرسة ؟.

إن القوميات الكبرى قد بحثت دائما عن سند تاريخي لتحديد أهدافها، وبخاصة الهدف الوحدوي مع ملاحظة أن هذا السند التاريخي قد أدلج، واستغل استغلالا سيئا في كثير من الحالات، فلا بد - إذن - من التنبه الى خطر هذا المنزلق.

إنه من الطبيعي أن تبحث الأمة العربية عن عناصر القوة والمناعة والتقدم في تاريخها العريق، الحافل بالاحداث، محاولة توظيف العناصر الايجابية في تراثها الحضاري من أجل تحقيق النصر في معركتها الحضارية اليوم، وتزداد هذه الحاجة تأكدا والحاحا حين تتردى الأوضاع، ويزداد خط التجزئة والتبعية، كما هو الشأن اليوم في الوطن العربي.

قلنا : ما هي الدوافع، وما هي الأهداف ؟

اذا كان الهدف الاساسي تسخير الرؤية القومية للتاريخ العربي لدعم ايديولوجية فوقية ذات طابع «شعاراتي» فلا، ولا خير يُرجى من إرساء اسس مثل هذه المدرسة التأريخية العربية، أما كان الهدف خدمة المقولة التي نؤمن بها، ونسعى لتعميقها في نظرتنا للدراسات التأريخية، وأعني تعريف التأريخ بأنه علم التغيير، فنعم، ولكن كيف يتم ذلك ؟، انها الاشكالية التي تشغل بالنا في هذه الورقة.

ب - انني اميل الى الاعتقاد بأننا لا نملك سوى جزر صغيرة من الحقائق داخل محيط تاريخ المجتمع العربي الاسلامي، فهل من الممكن علميا ومنهجيا أن نؤسس مدرسة تأريخية قومية عربية في مثل هذا الحقل المعرفي الغامض ؟ هل ستساعد هذه الرؤية الجديدة التي نسعى جاهدين الى إرساء اسسها على تكاثر تلك الجزر، واتساع رقعتها، أم أنها ستؤدي الى التقوقع والجمود الايديولوجي، شأنها في ذلك شأن كثير من المدارس التأريخية التي أعاقتها الايديولوجيا وكبلتها ؟.

لا ينبغي أن يؤدي هذا التلميح الى الريبة في مشروعنا، ولكن لا بدّ من أن نضع نصب أعيننا هذا الخطر، ذلك أنه من العسير أن يفلت المشروع من محاولات الأدلجة هنا وهناك.

وأود التذكير في هذا الصدد بأنه قد تمت بعض المحاولات الجدية لربط التأريخ بالمشروع القومي العربي مكتفيا بالاشارة هنا الى تلك الأسئلة الكبرى التي طرحها المفكر العربي المعروف الأستاذ قسطنطين زريق قبل ثمانية وعشرين عاما، لما صدرت الطبعة الأولى (١٩٥٩) من كتابه «نحن والتاريخ» [١].

أين المنهجية التأريخية العربية اليوم من تلك القضايا الكبرى التي طرحت قبل أكثر من ربع قرن ؟انه ليس من المبالغة في شيء اذا قلنا هنا إن المنهجية قد عاشت تقلّصاً في الجامعات العربية، وفي كثير ممّا نشر من المؤلفات التأريخية، فقد أصبحت الدراسات

الجديدة والمجددة نادرة، وذلك يعود الى أسباب موضوعية متعددة ليس هنا مجال لشرحها، ولكن هذه الحقيقة تؤكد أن ظاهرة التردي التي تفشت في الوطن العربي في الفترة الأخيرة قد مست من قريب حقل العلوم الانسانية والاجتماعية بصفة عامة، وحقل الدراسات التأريخية الجدية بصفة أخص.

أما اذا تساءلنا أين الأساليب المتبعة اليوم في الحقل التاريخي في الوطن العربي تدريسا وتأليفا من التيارات المنهجية العالمية، فان الجواب سيكون في أغلب الحالات مخيفا، فهذه التيارات في واد، وتلك الأساليب في واد آخر، وشتان ما بينهما وأعني في مجال المقارنة التراكم المعرفي، والتقدم المنهجي، وليس رؤية المناهج المختلفة، فذلك موضوع آخر.

ان الحديث عن المدارس التأريخية العالمية لا يندرج ضمن أهداف هذه الورقة، ولكنني سأقتصر على اشارات موجزة الى بعضها فندرك عمق الهوة التي تفصلنا عنها، فأين المناهج العربية المتبعة اليوم من المدرسة التأريخية الفرنسية التي تزعمتها (Annales) وما تزال، مجلة «الحوليات»، غداة الحرب العالمية الثانية، وبرز من صفوفها مؤرخون عالميون أمثال «مارك بلوش» (Marc Bloch)، «لوسيان فافر» (Lucien Febvre) «ف. سريدول» (F. Sraudel)، «جا. لوفوف» (J. le Goff) وغيرهم كثير. وهي مدرسة تجاوز تأثيرها اوروبا ليغزو الولايات المتحدة الامريكية، وكثيرا من مناطق العالم، بل شمل تأثيرها أوساط كثير من المؤرخين في بلدان اوروبا الشرقية رغم التبني الرسمي للمدرسة التأريخية الماركسية الكلاسيكية.

إن مدرسة الحوليات ما فتئت تجدد أساليبها، و تفتح آفاقا جديدة في مجال التأريخ الجديد، وبالرغم من ذلك فقد بدأت أصوات تنادي في الأعوام الاخيرة بضرورة تجاوزها.

أين الأساليب العربية المتبعة اليوم من المدرسة التأريخية الالمانية الجديدة التي ظهرت خلال العقد الأخير على يد فئة من الباحثين الالمان في كلية التاريخ بالجامعة الجديدة في مدينة «بيلفلد»؟، ويمكن أن نواصل ضرب الأمثلة بالحديث عن مدرسة الماركسية الجديدة في الحس التأريخي، وعن تيارات برزت في كثير من جامعات أمريكا اللاتينية.

أود أن اركز فيما يلي على ابراز بعض الجوانب الجوهرية للاشكالية المطروحة:

أولا: هناك سؤال يطرح نفسه منذ البداية: هل نضع اطارا نظريا للرؤية القومية، أم نبني هذه الرؤية انطلاقا من تقدم الأبحاث في الحقل المعرفي التأريخي أم نحاول التوفيق بين الأسلوبين؟. أبادر قائلا: انني من انصار التوفيق بين الأسلوبين في المرحلة الحالية التي يعيشها الوطن العربي بشرط أن يفضي تقدم البحث التأريخي العربي خاصة، وتقدم البحوث الانسانية والاجتماعية في الوطن العربي بصفة عامة الى اعادة النظر في الاطار النظري للمنهجية العربية القومية، وفي أساليبها حتى لا تصاب بداء التحجر العقائدي.

إن الحديث عن تقدم البحث التأريخي العربي يجرنا الى التساؤل التالي:

أين الدراسات التأريخية العربية بصفة عامة، والدراسات القومية بصفة اخص من الأساليب الجديدة في معالجة القضايا التاريخية التي لم تغير الاتجاهات التقليدية في التأريخ فحسب، بل قلبتها ظهرا على عقب؟ وأين هي من الموضوعات الجديدة التي فرضت نفسها في حقل البحوث التأريخية؟.

هناك ـ اذن ـ:

- موضوعات جديدة مطروحة في مجال الحقل المعرفي التأريخي.
- وهناك قضايا جديدة
- وهناك ثالثا أساليب جدية تضع كثيرا من المسائل التاريخية القديمة التي نعتقد أنه قد قيل فيها القول الفصل محل تساؤل، بل تنسفها نسفا.

ألا يعني هذا أن يتم بالضرورة تعريف التأريخ تعريفا جديدا. وأن يقع النظر من جديد في المفاهيم التاريخية. إن الامر هيّن بالنسبة للتاريخ الغَرْبي مثلا، ولكنه معقد شديد التعقيد بالنسبة للتاريخ العربي الاسلامي، ذلك أن كثيرا من أساليبه القديمة (مشكلة الرواية والسند) ومن مفاهيمه مرتبطة بالرؤية الاسلامية، بل قل بالعقيدة ذاتها في كثير من الأحايين، كيف الحل؟.

ولنضرب بعض الأمثلة من الموضوعات الجديدة التي ينبغي أن تحظى بالبحث والدراسة مثل:

- تحكم الفضاء الجغرافي والزمن في سير كثير من أحداث التاريخ العربي.
- التاريخ اليومي، وتاريخ الاشياء الصغيرة التي لا يمكن بدونها

كتابة تاريخ المجتمع العربي الاسلامي. كيف يمكن ذلك، وأكثر النصوص المتوفرة لدينا تتحدث أساسا عن تاريخ طبقة الخاصة من حكام، وفئات اجتماعية أخرى عاشت تحت ظلال السلطة، وخصوصا بالنسبة للعصر الوسيط؟.

انني أؤمن بامكانية ذلك رغم الصعوبة، ولكن بشرط التجديد في المنهجية، وفي أساليب البحث.

- تاريخ الذهنيات.
- اشكال السلطة في التاريخ العربي الاسلامي وأنماط شرعيتها.
- ارتباط نشأة التأريخ الاسلامي بعلم الحديث والمغازي، وتأثير ذلك في محتوى النصوص التي نعتمد عليها لكتابة التاريخ العربي الاسلامي، وغيرها من الموضوعات التي ما زالت تعتبر جديدة في الدراسات التأريخية العربية بالاضافة الى القضايا الجديدة، وهي كثيرة ومتنوعة.

يجرنا الحديث عن الموضوعات الى اثارة قضية الأساليب الجديدة، وهو جانب مهم من جوانب الاشكالية المطروحة، ويمكن ان تكون نقطة الانطلاق في ذلك اعادة قراءة النصوص في ضوء الرؤية التاريخية العربية التي نريد ان نضع لها اطارا نظريا من جهة، وفي ضوء التراكم المعرفي في حقل الدراسات التاريخية العربية والعالمية، وبخاصة ما يمت منه بصلة الى الجوانب المنهجية.

ثانيا: إن القراءة الجديدة المقترحة ستواجهها صعوبة كبرى، ولا سيما في مرحلة العصر الوسيط، وكذلك بداية العصور الحديثة، أي قبل ظهور الطباعة في الوطن العربي، وأعني قضية النصوص، وما هي الطرائق المنهجية التي ينبغي علينا أن نستعملها خلال عملية القراءة الجديدة، وهي عملية معرفية معقدة، وتنطلق الخطوة الأولى بالتساؤل عن مدى صدق هذه النصوص، انها - في نظرنا - نصوص تحتاج الى تعديل وتجريح جديدين، فلا بد - إذن - من دراسة البيئة، وخصوصا المناخ الذهني التي كتبت فيه، ونقدها شكلا ومضمونا، وتحديد خصائص لغة الحقل المعرفي التاريخي، ولا بد أيضا من تأريخ التأريخ، إن التأريخ انتاج، فلا مناص - إذن - من التساؤل عن المنتج. فمن هو عمر بن شبة، وخليفة الخياط، والبلاذري، والطبري، وابن حيان القرطبي وغيرهم كثير، ولا أعني بذلك ترجمتهم الذاتية، بل ثقافتهم، ونزعاتهم المذهبية، والمناخ الذهني الذي أنتجوا فيه نصوصهم، وهذا يقودنا الى التلميح الى نقطة النصوص والايديولوجية.

ثالثا: هناك اختيار آخر أساسي لا بد للرؤية القومية العربية أن تحسمه منهجيا: الأختيار بين تأريخ حقبة أو نمط من التأريخ، وان حُدد زماناً ومكانا، ولكن المهم ان يكون نمطا معينا في موضوعه، لا يكون التأريخ للعصر الأموي أو السلجوقي، أو الموحدي، وانما تأريخ التجارة أو النقود الاسلامية، أو انتفاضات العامة في المدن، أو نظام الحسبة في المدينة الاسلامية، أو تأريخ صناعة النسيج، وصناعة الخزف، أو تأريخ المجتمع الريفي والعلاقة بين المدينة والريف... الخ.

إنني من أنصار تأريخ القضايا، وليس تأريخ الدول والعصور.

رابعا: إن الحديث عن منهجية إعادة قراءة النصوص في ضوء التطور الذي بلغته مناهج الدراسات التأريخية، وعن تجديد الأساليب، وتوسيع دائرة موضوعات البحث متصل وثيق الاتصال بمدى نجاحنا في الافادة من العلوم المساعدة للتأريخ، وهي علوم فرضت نفسها على الحقل المعرفي التاريخي، وأصبح كل عمل لا يعيرها اهتماما عملا منقوصا، رتيبا لا يمكن أن يحقق نتائج جديدة، وأن يسهم في تطور العلوم الانسانية والاجتماعية. وقد اتسعت دائرة العلوم المساعدة هذه فأصبحت تمتد من علم الآثار لتصل الى الرياضيات الحديثة والاعلامية مرورا بالجغرافيا، والديمغرافيا، والألسنية، وعلم الاجتماع، والاقتصاد السياسي، وعلم الاحصاء، وتاريخ الاديان، وتاريخ العلوم والآداب، وعلم النفس الاجتماعي، والتحليل النفسي، والدراسات الاثنية، والأسطورة، والفنون الشعبية، وعلم البيئة، وتحليل الصورة بالنسبة للتاريخ الحديث والمعاصر، وغيرها من فروع المعرفة المتصلة بالعملية التأريخية من قريب أو بعيد.

فلا بد من التساؤل، ونحن بصدد محاولة رسم السمات الأساسية للرؤية القومية للتاريخ العربي الاسلامي: أين موقف الدراسات التأريخية العربية اليوم من الاستفادة من هذه الحقول المعرفية المتنوعة والثرية؟.

ليس هناك - اذن - علم تأريخ مستقل بنفسه، وكي تنجح الرؤية العربية في الافادة من العلوم المساعدة، ومناهج بحثها المختلفة فلا بد أن تتحرر من فلسفة التاريخ، ومن الهيكلية. ومن الماركسية، والماركسية الجديدة، ومن الفيبرية، فلابد - في نظرنا -

ان تفيد من كل ذلك دون أن تقع أسيرة .

خامسا : إن تعريف التأريخ بانه علم التغيير ينبغي ان يكون الأس الصلد التي تُرسى عليه قواعد الرؤية القديمة .

إن هذا المبدأ يجرني الى الاشارة الى ايماني بضرورة توظيف التراث العربي الاسلامي ، وبخاصة التراث التاريخي في عملية العقلنة والتغيير، وخصوصا في المرحلة التاريخية الراهنة التي يمر بها الوطن العربي .

إن انتقاء الموضوعات الهادفة في مجال البحث التاريخي لا يتناقض مع الموضوعية العلمية ، ولكن عوض أن أدرس ظاهرة التصوف ، أو ظاهرة الدراويش في العهد العثماني أدرس المعتزلة واخوان الصفاء ، وفي تأريخ النصوص التأريخية أدرس ابن خلدون ، والمقريزي ، قبل السيوطي والقلقشندي ، وفي تأريخ العلاقة بين السلطة والمفكر أفضل دراسة دور القراء في صدر الاسلام باعتبارهم يمثلون النخبة المثقفة للأمة الجديدة وهي النخبة التي تعلقت بالمفهوم الجديد : الامة الاسلامية مقابل مفهوم القبيلة، وسعت عن طريق المفهوم الجديد أن تمس من سلطة قريش نفسها ، أدرس ذلك قبل دور الفقهاء في الدول المرابطية مثلا ، وغيرها من الموضوعات التي أميل الى الاعتقاد بأنها ما تزال قمينة بمزيد البحث والتمحيص في تاريخ المجتمع العربي الاسلامي .

سادسا : ان محاولة تحديد معالم الرؤية القومية للمدرسة التأريخية العربية لبنة أساسية في بناء صرح المشروع الحضاري العربي المستقبلي

(أ) ان قضية المنهجية التأريخية بصفة عامة ، ومحاولة تجديد كتابة التاريخ العربي الاسلامي بصفة خاصة قضية قديمة قد شغلت عددا من المفكرين العرب المعاصرين وتناولوها باساليب مختلفة ، فمنهم من كتب عنها من وجهة نظر منهجية ، أو فكرية بحتة ، ومنهم من ترجم اعمالا أجنبية جيدة، هادفا من وراء ذلك الى التعريف ببعض التيارات المنهجية الفكرية في الحقل المعرفي التاريخي . وهناك صنف ثالث قد قدم نموذجا منهجيا ملموسا من خلال تناوله بعض قضايا التاريخ العربي الاسلامي من زاوية منهجية معينة ، وكان المرحوم طه حسين من رواد هذا الصنف ، وخصوصا في كتابه الفتنة الكبرى (راجع دراستنا عن طه حسين المؤرخ، ضمن كتابنا : من قضايا الفكر، تونس ١٩٧٥ ، ص ١٥١ وما بعدها) .

ومن الملاحظ أن هذه المحاولات تعكس تيارات ونزعات فكرية متباينة تتراوح بين التفسير المادي الجدلي والتفسير الاسلامي للتاريخ، وبينها كتب ذات طابع تعليمي للمنهجية التاريخية مثل كتاب منهج البحث التاريخي لحسين عثمان .

أما المؤلفات الاخرى فنذكر من بينها :

- أزمة المثقفين العرب لعبدالله العروي .
- ثقافتنا في ضوء التاريخ ، لنفس المؤلف .
- الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية ، لعزيز العظمة .
- نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي ، لعبد الرحمن علي الحجي .
- الاسلام وحركة التاريخ ، لأنور الجندي .
- كلمة في تعليل التاريخ ، لعمر فروخ .
- التفسير الاسلامي للتاريخ ، لعماد الدين خليل .
- التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين ، لفاروق عمر .
- قضايا في التاريخ الاسلامي ، لمحمود اسماعيل .
- نحن والتاريخ ، لقسطنطين زريق .

أهداف المؤرخ في
الوضع العربي الراهن

د. عزالدين غربية
د. سليمان البدر
د. ميمونة الصباح
كلية الآداب/ جامعة الكويت

مقدمـــــة :

تعيش الامة العربية الآن فترة من أهم واخطر حياتها، فالوطن العربي يجابه في الوقت الحاضر تحديات كبرى تتمثل في التحدي الحضاري الذي يحاول طمس معالم الشخصية العربية الاسلامية، وإزالة معالمها، الى جانب تحدي الوجود العربي باغتصاب قلبه واقتطاع بعض اطرافه.

وتمثل الأوضاع الراهنة، بدون شك، النتيجة الحتمية للتردي والتخلف الحضاري الذي عانت منه امتنا طويلاً، بل وما زالت، على الرغم من الماضي الحضاري العريق لهذه الامة. ان انتكاس امتنا العربية في العصر الحالي، واضطراب عطائها الحضاري، وقعودها عن الابداع وتخلفها في المشاركة الفعالة في الركب الحضاري الحديث، يرجع الى اسباب عديدة تفرض على المؤرخ العربي ان يتبوأ دوره بفعالية من أجل العمل على تبصير الجماهير بواقعها الحضاري بايجابياته وسلبياته، والقاء الضوء على جذور هذا الواقع واسبابه والاستفادة من ذلك كله في التخطيط لمستقبل افضل لامتنا.

فالمؤرخ العربي يجب أن يكون باحثا عن الحقيقة التاريخية، في نطاق نشأتها، وعصرها وظروفها، ومن مصادرها الاصلية، وفق منهج علمي وموضوعي، بحيث يعمل على تقديم الحقائق التاريخية بكل امانة وصدق، وعلى اسس علمية بعيدة عن كل تأثير يتنافى مع منهج البحث العلمي.

لقد قاد الوطن العربي المسيرة الحضارية للانسان منذ أقدم العصور، فيه نشأت أقدم الحضارات الانسانية، وعلى أرضه ظهرت الديانات السماوية، كما كان في العصور الاسلامية مركزا للاشعاع الحضاري الانساني.

فامتنا العربية الاسلامية اعطت الامم الاخرى، انسجاماً مع اصالتها، وفي جميع المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، ونظم التعليم، والعقيدة، ودقة التفكير، وسائر مجالات النشاط الانساني الحضاري.

ان هذا الماضي العريق لامتنا المجيدة قد دعا بعض المؤرخين للمناداة في العودة للماضي والتراث، فالعودة الى تاريخنا القومي يجب ان تكون عودة صادقة أصيلة خالية من العواطف، تعتمد على فهم وادراك صادقين للحقيقة التاريخية كما حدثت، ثم الربط بين ماضينا وحاضرنا، وتوضيح ما ينبغي أن يكون عليه مستقبلنا، لا ان تكون هذه العودة للتغني بالماضي وامجاده مع تجاهل الوضع الراهن المؤلم.

ولا يخفى على المؤرخ المخلص الواعي، ان التوقف عند الماضي يعني اغفال التقدم الذي احرزته الانسانية في عصرنا الحاضر، اذ ان الماضي المجيد والروح الوثابة للامة العربية، وقوة نضالها لا تعني الاستكانة، أو الرضى بالواقع المجزأ للوطن العربي، بل يجب ان يكون الدافع القوي لهذه الامة كي تعاود مسيرتها الاولى، وتسترد مكانتها بين الامم المتحضرة.

ومن هذا المنطلق سنحاول القاء الضوء على ابرز المشكلات التي يعاني منها الوطن العربي، ومن ثم تحديد اطار عام للاهداف التي ينبغي ان يستنير بها المؤرخ العربي في بحوثه ودراساته لمسيره امتنا العربية في مجالاتها الحضارية ومراحلها التاريخية المتتابعة، من أجل القاء الضوء على الحقائق التاريخية، وتوضيح السبل امام

الجماهير وشحنها بروح البذل والعطاء والتضحية والنضال، من أجل رسم معالم مستقبل افضل.

المشكلات التي يعاني منها التأريخ العربي :

وفي محاولة لتحديد اطار عام لاهداف المؤرخ العربي في الوضع الراهن ينبغي القاء الضوء على ابرز المشكلات التي يعاني منها الوطن العربي، الذي يعيش واقع التجزئة الجغرافية والانقسامات السياسية والتباين الاجتماعي الصارخ، والتخلف الاقتصادي والعلمي، بما ينعكس على الوطن العربي بالشعور بالقلق، وعدم الاستقرار النفسي. وهذا يوجب على المؤرخ العربي ان يدرس هذه الظواهر باسلوب علمي مبينا نشأتها واسبابها التاريخية والعوامل الايجابية والسلبية المؤثرة فيها وفي تطورها، موضحا افضل السبل لمواجهتها.

ومن أبرز هذ المشكلات :

مشكلات تتعلق بفلسفة كتابة التاريخ ، وهي مشكلات يمكن بلورتها بالسؤال الرئيسي وهو لمن يكتب التاريخ، ويتفرع عن هذا السؤال اسئلة فرعية اخرى : لماذا يكتب التاريخ ؟ وكيف ؟ ومتى ؟.

فالتاريخ كما هو معروف الحياة بذاتها، هو الانسان بكل نشاطاته، وثقافاته منذ وجد على سطح الارض، وان دراسة هذا «المشوار» الطويل الحافل بالنشاطات التاريخية يعتبر من اهم اركان المعرفة الانسانية. فدراسة التاريخ توقف الانسان على حقيقة نفسه، كي يعرف طبيعته كانسان، وما يستطيع أن يعمل ويقدم للآخرين، وهذا غير ممكن، الا اذا عرف الانسان ماذا فعل، وما الجهود التي بذلها في ماضيه، ونتيجة هذه الجهود على الحاضر، وما يمكن ان يكون عليه المستقبل.

ولعل تحديد الاطار العام لاهداف المؤرخ العربي يعتبر خطوة اساسية لتحديد اهداف كتابة التاريخ وتدريسه، وبالتالي استخلاص الفلسفة العامة لكتابة التاريخ.

مشكلات تتصل بمناهج البحث، وهي عديدة ومتشعبة ويمكن انجاز ابرزها فيما يلي :

- قلة المصادر لوجود نقص واضح في علم الآثار، والاعتماد على البعثات الاجنبية في ذلك.
- صعوبة الحصول على بعض المصادر والوثائق لأسباب سياسية، أو مالية، أو اجتماعية.
- غزارة الانتاج الاجنبي، والاستعانة بدراسات المستشرقين. ولعل ابرز مثال لذلك الكم الضخم من مؤلفات المستشرقين في حقل الآثار والتاريخ العربي بعامه والفلسطيني بخاصة. فمنذ أواسط القرن التاسع عشر، اهتم الغرب بدراسة التاريخ العربي بشكل اكاديمي منظم، ولا ريب ان بعض هذه الدراسات ذو فائدة رغم عجز بعضهم عن النفاذ الى جوهر حضارتنا وتراثنا.

والاستشراق باهدافه المعلنة، وغير المعلنة، كثيرا ما يشوه تاريخنا العربي، فقد عمد بعضهم الى تغيير المصادر، أو تجييرها لخدمة اهداف وضعت مسبقاً، وكثيراً ما يهتم المستشرقون بموضوعات بعينها دون غيرها بحيث تخدم أغراضهم الخاصة اكثر مما تخدم الاهداف العلمية. كما اتجه الكثير منهم نحو الدراسات التي تبرز التناقضات في المجتمع العربي بغية استغلالها واستثمارها مثل الطوائف الدينية، وكل ما يدل على تمايز اقليمي، أو قطري، بما يغزى النزعات الاقليمية، ويعرقل بالتالي مسيرة الامة الحضارية.

ونتيجة لنقص المصادر العربية، ما زلنا نعتمد في كثير من الاحيان على دراسات المستشرقين، وقد تسربت العديد من الأفكار والآراء الى بعض المؤلفات العربية من خلال الترجمات والاقتباس.

- الافكار والايديولوجيات الوافدة من اهم المشكلات التي يعاني منها الوطن العربي بعامة، وبين صفوف المثقفين وبعض المؤرخين بخاصة، ممن يتبنونها بشكلها ومضمونها، مع اغفال ان للعالم العربي مكانة تاريخية متميزة ترتبط بانماط سياسية واجتماعية واقتصادية وبشرية تختلف تماما عما عرفه العالم في مختلف مراحله التاريخية والحضارية.
- التجاء بعض المؤرخين الى تقسيم تاريخ الامة العربية على اساس قطري، أو اقليمي، أو سلالي. وهذا الاتجاه من اخطر الاتجاهات المنهجية في كتابة التاريخ لانه يبتعد عن الدراسة الحقيقية المتعمقة التي تعتمد على تحليل العوامل الاجتماعية والفكرية والنفسية والاقتصادية والسياسبة التي دفعت الى

التجزئة، وتمزيق كيان الأمة، مع توضيح دور الاستعمار البارز في هذا المجال.

- بعض المؤرخين يغفل عوامل التخلف التي يتعرض لها الوطن العربي، ويبرز عوامل الازدهار ويبالغ فيها، ويبتعد بذلك عن موضوعية التاريخ.

وعلى الرغم من انشغال الوطن العربي بقضاياه التحررية والوطنية بمشاكله الاقتصادية والاجتماعية المتعددة، إلا أن القضية الفلسطينية تبقى هي القضية المركزية، وهي المحور الرئيسي لجميع تلك القضايا. ومعركة الوطن العربي مع الصهيونية ومؤيديها، تبقى معركة تحد حضاري ووجود للأمة العربية. فاغتصاب فلسطين، وأجزاء من الوطن العربي، وضرب وتدمير كل مجال تقدمي، أو حضاري مثل ضرب المفاعل النووي العراقي، واستنزاف ثروات الوطن العربي، وشل الحركة الفكرية، وبث الفرقة بين العرب، كل هذا يعتبر تأكيداً واضحاً لمفاهيم الصهيونية في تحقيق أهدافها الرامية الى قيام اسرائيل الكبرى.

ومن مهام المؤرخ العربي ان يتناول ابعاد هذه المشكلة الكبرى بالدراسة والتحليل وتوضيح ابعادها واخطارها في وقت يجمع فيه العرب على مقاومة هذا العدو المشترك، ويمكن للمؤرخ العربي ايضا ان يسهم بوضع استراتيجية موحدة للوصول الى هذا الهدف المنشود

ومن أجل التصدي لجميع هذه المشكلات، ينبغي على المؤرخ العربي دراسة تاريخ الأمة العربية بعلمية وصدق، بحيث يعتبر أرض الوطن العربي، هي المسرح الدائم والمتكامل لكل الوقائع، والمنجزات مع الابتعاد تماماً عن التقسيمات السلبية على أساس قطري، لأن ذلك يغذي النزعات الأقليمية، ويعرض مسيرة الأمة العربية للانقطاع بانقطاع مساراتها الطبيعية.

وفي ضوء ذلك كله، ينبغي ان يكون للمؤرخ العربي فلسفة وحدوية قومية واضحة واسلوب علمي في التأريخ وفق احدث الاتجاهات الحديثة، وبأقلام عربية جوهراً ومضموناً.

الاهداف التي ينبغي أن يستنير بها المؤرخ العربي:

ان النكبات التي تصيب الامم في التاريخ الانساني، ينبغي ان تكون حافزاً وباعثاً على التفكير في اعادة النظر باهدافها وبواقعها، والعمل على اسس علمية مدروسة، كما ينبغي ان يكون الوعي التاريخي مصدر قوة الانتفاضة لا مبعث هزات عابرة، كما يجب ان يكون عاملاً من عوامل الانتاج والبناء والخلق والابداع والاسهام بصورة فعلية في مسيرة الحضارة الانسانية.

ان طموحات المستقبل ينبغي ان تقوم على استراتيجية واضحة وتخطيط علمي سليم تستهدف القضاء على جميع المشكلات والسلبيات التي يعاني منها الوطن العربي في جميع المجالات، والعمل على تحقيق الوحدة العربية على جميع المستويات وتحرير ما اغتصب، من أرض العروبة.

وفي ضوء ذلك يمكن تحديد الاهداف العامة للمؤرخ العربي على النحو التالي:

- الانطلاق من خلال نظرة فلسفية واضحة التركيز على القومية العربية والوحدة العربية أساسين رئيسيين في التأريخ للوطن العربي وحضارة امته العربية.
- تحديد المقومات والاتجاهات القومية والوحدوية التي اسهمت في تطور الحضارة العربية وازدهارها، كذلك الاسباب التي ادت الى تخلفها في مراحلها المختلفة، مع ابراز مقومات القومية العربية، وعناصر وحدتها وامكاناتها في حياة الامة العربية.
- الاستفادة من تجارب الامة العربية عبر تاريخها في التأكيد على ان قوة الوطن العربي تكمن في كونه وطن واحد، فيه جميع الخصائص والمكونات التي تؤكد وحدة الامة، ووحدة الوطن التي تتجلى في الخصائص والسمات المشتركة والنشاط الحضاري. مع ابراز اهمية السعي نحو تحقيق التكامل بين جميع اقطار الامة العربية.

- التأكيد على ان القومية والوحدة، هما الاطار الذي يصهر ابناء الامة على مختلف طوائفهم ومذاهبهم في بوتقة واحدة، بما لا يدع مجالاً للطائفية والعنصرية بين ابناء الوطن العربي.
- ابراز اهم المشاكل التي يتعرض لها الوطن العربي في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، من خلال دراسات موضوعية لاسبابها وجذورها التاريخية، واستقراء تجارب التاريخ في مواجهة هذه المشكلات.
- ربط الانسان العربي باصول مجريات الامور والظواهر التاريخية السائدة، العربية منها والدولية، لكي يعرف مكانته الطبيعية،

وموقعه الحضاري بالنسبة لواقعه ووضعه الراهن ومستقبله .

ومن أجل تحقيق هذه الاهداف العامة ينبغي ترجمتها الى اهداف خاصة في كل مجال. وبمقدار ما يمكن تحقيقه من اهداف الامة العربية في التضامن والوحدة تتوفر الشروط الموضوعية الملاءمة لممارسة الانسان العربي لحريته السياسية والاجتماعية والحياة الأفضل .

ويمكن للمؤرخ أن يستعين بالطرق والوسائل التالية في سبيل تحقيق الاهداف المنشودة :

الالتزام بالمنهج العلمي في دراسة التاريخ، وتحليله، واستقراء نتائجه، بحيث يتخلص من الوصف والسرد ويتجه الى تحديد المشكلات، وفرض الفروض والتحقق من سلامتها عن طريق الرجوع الى الوثائق والمصادر الاصلية لاستخلاص الحقائق التاريخية .

الانطلاق من موضوعية الحقيقة التاريخية التي تشكل جوهر العلاقة بين الامة العربية وتراثها، لأن الانسان في أي مرحلة من تاريخه، لا يمكن ان ينفصل عن ماضيه وتراثه . وما لم تكن علاقة الانسان بتراثه قائمة على اساس علمي سليم فانها تتعرض للضياع . ومن هنا تأتي أهمية الانطلاق من موضوعية الحقيقة التاريخية وضرورة الاعتراف بجميع ايجابياتها وسلبياتها .

النظرة الشمولية في معالجة التاريخ العربي، بما يؤكد على ترابطه، وتسلسله وتكامله في جميع الجوانب الثقافية، والسياسية والاجتماعية، والاقتصادية والنفسية التي تضع هذا التاريخ .

التركيز على الدور الشعبي للامة العربية في حركة التاريخ، بحيث لا يرى التاريخ من وجهة نظر فئة معينة، لأن ذلك يفقده جوهره ويعطل دوره، وينأى به عن الالتزام والموضوعية .

فالتاريخ بمفهومه الحديث لم يعد تاريخ افراد، ولا تاريخ الفتوحات والهزات العنيفة، بل هو تاريخ الشعوب التي تحركها المباديء والقيم والافكار والدوافع العنيفة، المستمدة من التراث والتاريخ وتربط الانسان بأصوله وجذوره .

التأكيد على ان الحضارة العربية الاسلامية لها سمات ومقومات الحضارة الشاملة المتكاملة والمستمرة، وتحتل مكانتها الفكرية والثقافية في الحضارة الانسانية وفي التفاعل معها .

وفي ضوء ذلك كله، ينبغي على المؤرخ العربي أن يؤدي دوره في تحقيق الاهداف المنشودة من خلال الالتزام بالموضوعية، وتأكيد أهمية الوحدة والتكامل وابراز الحقائق التاريخية التي تساعد على تحقيق اماني الامة العربية وطموحاتها مع التأكيد على ايجاد مدرسة تاريخية عربية ذات فلسفة علمية وحدوية وقومية واضحة، وذات نظرة ابتكارية، ترتكز على اثبات الذات العربية وتعتز بالتراث العربي وتحافظ على الشخصية العربية، بما يفتح المجال امام الانسان العربي لتفجير طاقاته وحمل الرسالة من جديد للاسهام في بناء الحضارة الانسانية .

مشروع خطة عثمانية في التصدي للأطماع الاستعمارية بالخليج العربي أواخر القرن التاسع عشر

الكرّاي القسنطيني

كلية الآداب / جامعة تونس

يعتمد هذا البحث رئيسياً على الوثائق الموجودة بأرشيف رئاسة الوزراء باسطنبول (١) وخاصة على وثيقة تبدو ذات أهمية بالغة اذ هي عبارة عن تقرير مطول (صفحة من الحجم الكبير) كتبه أحد ممثلي الدبلوماسية التركية بلندن الى السلطان العثماني (٢) يعرض فيه المطامع الاستعمارية وبخاصة الانكليزية والروسية في الخليج العربي، ويقترح خطة عمل للتصدي لهذه الأطماع. وقد كتبت الوثيقة فيما بين 1897 — 1898، أي في فترة حرجة بالنسبة للامبراطورية اذ بدأت أركانها تتداعى، بل ان أواخر القرن مثّل مسرحاً لتنامي الشعور القومي وتطور الوعي بالذات، وعرفت الامبراطورية داخلياً وخارجياً هزات عنيفة كان التدخل الأجنبي وتكالب القوى الاستعمارية على تفكيك تركة «الرجل المريض» من أهم معالمه. ولئن لم تقدر الامبراطورية العثمانية على ايقاف الزحف الاستعماري على بعض الأقطار العربية التي كانت تحت نفوذها (احتلال الجزائر، تونس، مصر...) فانها رغم ذلك، لم تعدم الخطط التي تمكنها نظرياً على الأقل من المحافظة على بقايا العربية المرتبطة بها ولو اسمياً. فالى أي مدى يقدر الباب العالي على التصدي لهذا الزحف؟ وبأي الوسائل؟ وما مدى نجاعة أساليبه المعتمدة؟

I — الخليج العربي والصراع الدولي

تعتبر منطقة الخليج العربي من أشدّ المناطق حساسية من حيث موقعها كحلقة تربط ثلاث قارات فيما بينها وهي تبعاً لذلك محل اهتمام كل الأطماع الاستعمارية وقد تضاعفت هذه الأهمية منذ اكتشفت حقول النفط بالمنطقة فتزايد بذلك تكالب القوى الهيمنية للسيطرة عليها.

١ — الانكليز: الخليج العربي «بحيرة» بريطانية

لقد نجحت انكلترا الاستعمارية في أن تجعل من الخليج العربي «بحيرة» تابعة للتاج البريطاني، منذ أن أبعد البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون من المنافسة، ومنذ أن دخلت شركة الهند سنة 1616 الى السواحل لتقيم بها مراكز تجارية... وفي الواقع فان انكلترا ومنذ أن فتحت لها قنصلية بالبصرة (1764)، كانت تسعى الى ربط هذه المنطقة نهائياً بمصالحها الاقتصادية والسياسية. فهي لم تعد تمثل ذيلا ملحقاً أو زائدة هامشية في دورة المصالح البريطانية فتطور المعاملات مع سكانها ونمو تجارتها وأهمية موقعها الاستراتيجي كحلقة اتصال ضرورية بين انكلترا ومستعمراتها الشرقية (الهند...) وكمعبر ضروري وسريع لها نحو المناطق الأوروبية (اختصار المسافات...)..، كل هذا صير لها أهمية بالغة. فضلا عن ذلك فانّ الأرباح التي ضمنتها البرجوازية التجارية والصناعية الانكليزية — الهندية من مصالحها بالمنطقة قد ضاعفت هذه الأهمية اذ أصبحت 90٪ من التجارة الخليجية لصالح حكومة الهند منذ مطلع القرن التاسع عشر (٣) كما أنّ جل كميات اللؤلؤ المستخرج من مياه البحرين وغيره من الموانىء المطلة على الخليج يعرف طريقه الى الانكليز عبر الهند. ان هذه الأهمية هي التي تفسر الاهتمام الخاص الذي أولاه الانكليز للمنطقة، وشراسة دفاعهم المطلق عن امتيازات يعتبرون أنفسهم أحق بها. أفلم يخوّن كرزون (Curzon) — أشدّ الدبلوماسيين الانكليز دفاعاً عن الأفضلية البريطانية بالخليج، كل متسامح مع أية قوة أجنبية بالمنطقة؟ (٤) أفلم يبيّن أن وجود أي منافس للانكليز بالمنطقة سيحطّم

---

١. **ان فهارس هذا الارشيف متعددة واعتمدنا في بحثنا هذا على بعض التقارير الموجودة بارشيف قصر يلدز،** الذي يشمل التقارير والمراسلات المبعوثة الى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني.

٢. **ارشيف قصر يلدز،** قسم ١٤، أوراق ٢٥٥، ظرف ١٢٦، ملف ٨. «بصرة كورفزي وحكومت ينه ايله انكلترة نك مناسباتي حقندة به لايحة بندة طانه» كتب التقرير خليل خالد «لونده شهبندر وكيلي» في ٢١ شباط ١٣١٣ رومي (مالي) الموافق لنتصف فيفري ١٨٩٨م.

٣. هادي طعمة: **الخليج العربي في الاستراتيجيات الاستعمارية والبريطانية خاصة،** بغداد ١٩٧١، ص ١٩ — ٢٠.

٤. **C.N. Curzon:Persia and the Persian question London,** 1892, tII, p. 465

تجارة «بملايين الجنيهات الاسترلينية» (٥)؟

ولئن تركز نشاط شركة الهند الشرقية بصفة رئيسية على الساحل الايراني(٦) فان أهمية المنطقة تتجاوز بكثير بعض المراكز التجارية الحساسة لتتعلق «بأمن» التجارة في الخليج العربي بصورة عامة، وتبعاً لذلك صارت بريطانيا تربط الدفاع عن الجزء بالكلّ، وأصبح دفاعها عن هذه المراكز ونشاطها فيها يمرّ حتماً و بالضرورة عبر «سلامة» سفنها ومراكبها، ومن هذا المنطلق صار للخليج موقع خاص يتجاوز دور «الجزء الفرع» لكي يصبح مع مطلع القرن التاسع عشر كوحدة تقوم بذاتها، ونعتقد تبعاً لذلك أنه من «التجني» القول بأن الخليج لم يحظ بالأهمية لدى الدبلوماسية البريطانية الآ منذ فتح قناة السويس (1867) أو منذ احتلال مصر (1882) والحال أن العديد من المحطات في تاريخ الخليج أثبتت عكس ذلك.... أن عقد سلسلة من الاتفاقيات المهينة مع شيوخ الساحل العربي للخليج منذ أواخر القرن الثامن عشر(٧) ومع مطلع القرن التاسع عشر(٨) وفتح حكومة الهند وكالات لها بهذا الساحل في فترة مبكرة(٩) لم تمثل في الحقيقة سوى البوابة الكبيرة التي دخل منها الانكليز لتدعيم المسار التجاري الذي انطلق قبل هذا التاريخ. أضف الى ذلك أن انكلترا كانت ترفض السماح لأ ية قوة أجنبية بمنافستها الأفضلية في المنطقة، بل أن سعي السياسة البريطانية كان يتجه نحو رفض أحقية وجود بعض القوى الأخرى، فلقد قوبل بالرفض طلب الباب العالي (1848) مشاركة بريطانيا في مكافحة تجارة الرقيق في الخليج(١٠) وتشبّث الانكليز بأحقيتهم وحدهم في مراقبة السّفن ومعاقبة «الجناة».

وفي واقع الأمر فان القوى المهتمّة بشأن الخليج كانت تعلم أنّ ما تقدمه انكلترا من تعلاّت للتدخل وفرض هيمنتها على سكان المنطقة والحدّ من تجارتهم البحرية وتخويفهم لتستقيم. ان ادعاءات بريطانيا حماية المنطقة من القراصنة تارة ومنع الاتجار بالرقيق طوراً وايقاف نزيف الأسلحة الى بلدان الخليج تارة أخرى... لم تثن طموح البعض الآخر من الدول في التواجد بالمنطقة، ولذلك فان النصف الثاني من القرن التاسع عشر مثل فترة دقيقة بالنسبة للوجود البريطاني في الخليج، ومن المفارقة أن نقرّ أيضاً بأن هذه الفترة مثلت أهم فترة تحققت فيها سيادة بريطانيا بالمنطقة(١١) اذ أجبرت بريطانيا في اطار المنافسة العالمية، على تدعيم مواقعها أكثر فأكثر: فركّزت مقرّ الوكالة السياسية البريطانية ببغداد منذ 1869 (١٢) وقد كانت مقامة من قبل على سفينة قديمة من سفن أسطول ما بين النهرين، ورفعت سنة 1879 في درجة التمثيل البريطاني في البصرة من نائب قنصل الى قنصل(١٣) وصارت مسائل الخليج تحظى بأهمية كبرى لا سيما منذ أصبح التاج البريطاني يشرف بصورة مباشرة على المناطق الهندية. وازداد هذا النفوذ الانكليزي منذ أن نجحت الدبلوماسية البريطانية في فتح نهر قارون للملاحة (1888) و بدأ فوراً في تشييد طريق برّي يربط العاصمة الايرانية بنهاية الخط الملاحي(١٤) ان هذه «النجاحات» الانكليزية على الضفة الشرقية رغم منافسة «الدب الروسي» ستزداد رسوخاً بفعل انهيار السلطة المركزية في ايران لا سيما منذ وصول مظفر الدين شاه الى الحكم سنة 1896.

أما على الواجهة الغربية من الساحل الخليجي، فان بريطانيا ولئن كانت تراهن كذلك على ادخال بعض العادات الاستهلاكية الجديدة الى المناطق العربية حتى تصبح سوقاً رابحة لبضاعتها، فانها كانت تهتمّ أكثر في هذه المواقع بالجوانب الاستراتيجية والسياسية اذ لم يكن السوق العربي من حيث العدد بحجم السوق الفارسية، ورغم ذلك فان بريطانيا كانت حريصة على ربط هذه الدو يلات والمشيخات بعقود ومواثيق تضمن لها الولاء السياسي من جهة وتضمن امتيازاتها الاقتصادية الآنية والمستقبلية من جهة أخرى. فكانت سلسلة تلك المعاهدات الجائرة(١٥) التي تقيم صلحاً لا نهاية له. بل ان بريطانيا امعاناً في مزيد أحكام قبضتها على الساحل، فرضت على شيوخ المنطقة خلال سنوات 1891 و 1892 معاهدات تصبح بمقتضاها هذه الامارات تحت الامرة

---

٥. أرنولدت ويلسن: **الخليج العربي: مجمل تاريخي من أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين**، نقله الى العربية عبد القادر يوسف، الكويت، ص ٤١٦.

٦. محمد مرسي عبد الله: **دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها**. الكويت ١٩٨١، ص ٣٠

٧. حول اتفاقية انكلترا مع سلطان مسقط سنة ١٧٩٨. انظر مثلا، هـ، طعمة: **الخليج العربي**.... ص ٢٥.

٨. حول هذه الاتفاقيات ونصوصها، أنظر كذلك هـ. طعمة، المصدر نفسه ص ٣٠ وما بعد ذلك.

٩. فتحت وكالة لها بالشارقة منذ ١٨٢٣.

١٠. صلاح العقاد: **التيارات السياسية في الخليج العربي**. القاهرة ١٩٧٤، ص ١٦١.

١١. انظر في هذا الشأن: محمود علي الداوود: **محاضرات عن الخليج العربي والعلاقات الدولية (١٨٩٠ ــ ١٩١٤)**، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٨.

١٢. لوريمر (ج. ج): **دليل الخليج**، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، الدوحة: ١٩٦٧، ج ١، ص ٤٠٧.

١٣. المصدر نفسه ص ٤٣٣.

١٤. المصدر نفسه ص ٤٤٦.

١٥. كانت هذه الاتفاقيات تباعاً 1839 ــ 1847 ــ 1853 ــ 1856 ــ 1880، وقد سلبت القيادات السياسية بالمنطقة العربية بفعل هذه العقود حرية حركتها.

الفعلية للانكليز وإن حافظت اسمياً على استقلالها (١٦). فضلا عن ذلك فان بريطانيا بفعل هذه المعاهدات قد أعطت لنفسها أحقيّة التصرّف في مصير هذه الدويلات وتاريخها، بل أنها منعتها من الاتصال والتعامل مع قوات أجنبية عداها أو بدون مشورتها. زيادة عن ذلك فان انكلترا قد منعت أية امكانية لتسطير سياسة موحدة بين هذه الامارات المتفرقة وذلك بتأييد حالة الانقسام فيما بينها وحرمانها من أية امكانية لتأسيس كيان موحّد يسطر سياسة داخلية وخارجية مستقلة ومنسجمة مع ذاتها.

وفي واقع الأمر فان بريطانيا استطاعت باعتماد تكتيكين مزدوجين مختلفين (الترغيب والترهيب) أن تفرض نفسها كأعظم قوة في الخليج فتصير الدويلات العربية القائمة على سواحله خاضعة لنفوذها. أفلم يقدم البريطانيون اعانات مالية ومبالغ هامة الى سلطان مسقط منذ 1873 لقاء ولائه، وأنذروه بقطع الراتب عنه سنة 1895 إن هو تخلى عن تعهداته (١٨)؟ أفلم يضعوا على عرش مسقط السلطان «تركي» وكان مخلصاً للانكليز (71 ــ 1888) على حين غضّوا الطرف عن تقديم العون للسلطان فيصل حينما هزت عرشه انتفاضة 1895؟

على أن سيطرة الوجود البريطاني على الخليج لا سيما خلال العشرية الأخيرة من القرن التاسع عشر لم تمنع تزايد المنافسة الدولية على المنطقة بحثاً عن مواقع وملء لفراغات خلفتها بعض القوى التي بدأت تهترأ وتتآكل.

2 ــ روسيا: البحث عن منفذ نحو البحار الدافئة

لا بد أن نبرز في البداية، أن هذه القوى الهيمنية كانت ترنو الى الخليج وثرواته رافضة أن يكون للانكليز الاحتكار الكلّي والوحيد في المنطقة فالتنافس من أجل اقتسام العالم كان على أشدّه بين الدول الرأسمالية، كما أن البلدان التي وصلت متأخرة في مسارها التدريجي نحو مرحلة الامبريالية، دعت الى ضرورة اعادة اقتسام العالم حتى تتحصل على نصيبها من القسمة. وصارت هذه القوى الاستعمارية ــ التقليدية منها أو الحديثة العهد ــ تبعاً لذلك تتنافس على منطقة الخليج العربي وتنكر أن يكون لانكلترا أيّ «ظلّ حق» لتنصيب نفسها حارساً وحكماً في المنطقة (١٩).

وفي الواقع، فان هذه القوى شأنها شأن انكلترا لم تكن لتتقدم في مواقع نفوذها الجديدة الا بالقدر الذي يسمح به «اعتلال» الامبراطورية العثمانية وتقهقر النظام الفارسي وضعف الامارات العربية. بل ربما اعتمدت دول المنطقة تكتيكاً خاطئاً يقضي باستثارة الدول العظمى بعضها ضد بعض معتقدة أن في ذلك من الحنكة ما يجعل في صراع القوى الهيمنية مناعة لذاتها، والحقيقة أن هذه القوى، ولئن بدت تناقضاتها المصلحية كبيرة، الا أنها تبقى هذه دوماً ثانوية اذ مهما اشتد الخلاف بينها فانها تنتهي الى الاتفاق حول تقسيم التركة «وترتيب البيت» فيما بينها. وتبعاً لما تقدم فإن هذه القوى الاستعمارية كانت تتخذ لها مجالا للنفوذ بقدر الفراغ الذي تتركه دول المنطقة.

ولقد حاول قياصرة روسيا في هذا المجال البحث عن مجال حيوي يمكّن الرأسمال المحلي الروسي من التغلغل في أسواق جديدة، بفعل التطور الاقتصادي الحاصل بروسيا مع أواخر القرن التاسع عشر وخاصة بتنامي دور البرجوازية الرأسمالية الروسية المتحالفة مع الرأسمال العالمي. وقد تدعمت سياسة القياصرة خاصة منذ وصول (Witte) الى وزارة المالية وفتحه المجال واسعاً للتعاون مع الرساميل الأجنبية.

ولئن فشلت روسيا في الوصول الى البحار الدافئة عبر الامبراطورية العثمانية (عبر المضائق ــ عبر العراق) بسبب معارضة الدول الأوروبية، فانها كانت قد فشلت أيضاً من قبل في هذا المسعى لما حاولت اختراق آسيا الوسطى حيث دخلت في مواجهات عدة مع انجلترا (افغانستان...) وهو ما دفع بالروس الى التركيز أكثر على التوسع عبر بلاد فارس عملاً بوصيّة امبراطورهم بطرس الأكبر «توغلوا حتى تبلغوا سواحل الخليج (العربي) فتعيدوا الحياة الى الطرق التجارية القديمة مع الشرق الأدنى...» (٢٠).

وليس من باب الصدفة أن يتزامن التوجه الروسي نحو الخليج العربي والصدام الروسي العثماني في حرب القرم (53-1856) من جهة والمواجهة الروسية البريطانية في وسط آسيا من جهة أخرى وهو ما يجعلنا نعدّل بعض الآراء التي تقرن بين اهتمام روسيا بالمنطقة وفتح قناة

١٦. عقدت بريطانيا اتفاقاً مع سلطان مسقط في مارس ١٨٩١، ومع شيوخ أبوظبي، الشارقة دبي، عجمان، أم القوين، ورأس الخيمة في ٨ آذار ١٨٩٢، ومع شيخ البحرين في ٢٣ آذار ١٨٨٩، وسيتم عقد نفس الاتفاق مع شيخ الكويت فيما بعد سنة ١٨٩٩.

١٧. يتعهد السلطان أو الشيخ في هذه الاتفاقيات باسمه ونيابة عن ورثته، وخلفائه بأن:

ــ لا يدخل بأي حال من الأحوال في اتفاقية أو تراسل مع أية حكومة فيما عدا الحكومة البريطانية.

ــ لن يوافق على اقامة أي وكيل لأية حكومة أخرى في امارته بدون موافقة الحكومة البريطانية.

ــ لن يتنازل مهما كانت الأحوال ولن يبيع ولن يرهن أو عدا ذلك لن يقبل احتلال أي جزء من امارته الا للحكومة البريطانية. انظر النص في هـ. طعمة: **الخليج العربي**.. ص ٣١ ــ ٣٢.

١٨. محمد رشيد الفيل: «الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي، **الخليج العربي في مواجهة التحديات بمحاضرات الموسمين الثقافيين 1974 ــ 1975**. الكويت ١٩٧٥، ص ٤٦.

١٩. عن بيان من مجلس النواب الفرنسي لسنة ١٨٩٣ أورده أ. ويلسن: **الخليج العربي**، ص ٣٨٦.

٢٠. Sir Percy sykes: History of Persia, London, 1951, III, p. 254.

السويس فحسب (٢١) ذلك أن بداية الاهتمام بالحصول على بعض الامتيازات لاقامة خطوط سكك الحديد شمال بلاد فارس (٢٢) لم يمثل في واقع الأمر سوى تمهيداً لهذا التسرب الى منطقة الخليج .

وقد تكثف الاهتمام الروسي بصورة مباشرة بالخليج العربي منذ انشاء وكالة روسية ببغداد سنة 1881 (٢٣) وتتالي زيارات البحرية الروسية لموانىء المنطقة ، ذلك أن زيارة الضابط فنبلومر (Vomblumer) في ربيع 1887 لأصفهان وشيراز و بوشهر لم تكن سوى مدخلا لزيارات البعثات الروسية والقطع البحرية للخليج ، بل لقد اقترحت على الفرس اتفاقية منذ 1888 ومفادها اتخاذ موقف موحّد ضد بريطانيا (٢٤) وفي واقع الأمر فان النظام الايراني عجز عن المحافظة على لعبة الموازنة الخطيرة التي أراد تطبيقها ، فالتفويت في امتياز فتح نهر قارون للملاحة لصالح بريطانيا (1888) حتّم أيضاً التنازل للروس عن اقامة شبكة من خطوط السكة شمال بلاد فارس بل أن الروس قد تجاوز طموحهم هذه الحدود الى البحث عن قاعدة بحرية لهم لتموين سفنهم بالفحم بل ، ولما لا ، تركيز مركز تجاري للبيع والشراء ونقل البضائع والمعدات .

ومن البين أيضاً أن مثل هذا المطمح صار ممكن التحقيق منذ أن تدعم التعاون الاقتصادي الروسي ــ الفرنسي في مستوى الاستثمارات و برزت هذه الكتلة المعادية للأفضلية الانكليزية بالخليج ، وفي الحقيقة فان التعاون الفرنسي ــ الروسي في الخليج يتجاوز هذه الحدود الجغرافية والظرفية ليصل الى « تناغم » في المصالح أكثر اتساعاً وشمولية (٢٥) .

وقد تزايد قلق الانجليز بسبب الوجود الروسي في الخليج مع مطلع العشرية الأخيرة من القرن التاسع عشر حيث بدأت البواخر العسكرية تجوب بعض السواحل الخليجية اذ زار الطراد الروسي (Nizhay Novgorod) عمان سنة 1893 وقابل ضباطه الامام فيصل سلطان عمان ، بل أن السفن الروسية قد كررت الزيارات الى المنطقة مرات عدة (٢٦) . وتوجت هذه « الفتحة » الروسية بزيارة الروس الى جزيرة هرمز عبر بندر عباس وقيام ضابط مهندس بعمليات مسح للجزيرة في ربيع 1895 (٢٧) وتلميحهم بامكانية اقامة مخزن للفحم بالمنطقة ، وهو ما يمثل تهديداً للمصالح البريطانية نظراً الى أهمية موقع الجزيرة في مدخل الخليج ، بل أن بعض منظّري الدبلوماسية البريطانية اعتبروا أن منح أي امتياز للروس في أي موقع من منطقة الخليج يعني « اهانة عظمى » لبريطانيا لا يمكن السكوت عنها (٢٨) .

3 ـــ مطامع أوروبية أخرى

تزامنت هذه « الفتحة » الروسية وتعهدها فيما بعد (٢٩) وعودة بعض القوى الى الخليج واطلالتها مجدّداً عليه . فقد عاد الفرنسيون الى الاهتمام بالمنطقة (٣٠) مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر لا سيما منذ منتصف الستينات ، حيث تقدمت شركة فرنسية بطلب للحصول على امتياز حرية الملاحة بأنهار العراق على غرار ما انتفعت به انكلترا (٣١) كما كان لقناصل فرنسا ببغداد والبصرة دور هام في تثبيت النفوذ الفرنسي ودعمه بالمنطقة لا سيما عبر تشجيع الارساليات العلمية والأثرية بشكل خاص (٣٢) ، كما قدمت مشاريع عدة لتنشيط الميادين الزراعي والصناعي في اقليم الأحواز « و بدأ الوكلاء والتجار الفرنسيون بالاستقرار بالمحمّرة » (٣٣) على أن أهم النشاطات بالمنطقة ، كانت تلك التي تقوم بها فرنسا على ساحل مسقط وعمان حيث استغلت الاتفاق الحاصل بينها و بين انكلترا (1862) لكي تنشّط تجارة الرقيق والأسلحة النارية والذخيرة سامحة لأصحاب السفن من العرب برفع راية العلم الفرنسي فوق بواخرهم للافلات من الرقابة البريطانية .

وما من شك في أن معارضة بريطانيا للوجود الفرنسي ورفضها لأيّ توسع مستقبلي من أية دولة ، قد دفع البرجوازية الفرنسية الى العمل على تنسيق نشاطاتها بالمنطقة مع حليفتها الروسية من أجل فكّ الحصار البريطاني المضروب على المنطقة ، فضلا عن ذلك ، فان الدبلوماسية الفرنسية لا سيما منذ وصول هانوتو (Hanotaux) الى الخارجية الفرنسية

---

٢١ . محمد . ر . الفيل : « الأهمية الاستراتيجية ... ص ٥٥ .

٢٢ . انظر لوريمر : **دليل ...** ص ٤٢٤

٢٣ . المصدر نفسه ص ٤٣٨

٢٤ . المصدر نفسه ص ٤٥٢

٢٥ . نشير في هذا المجال الى بعض الاتفاقيات الاقتصادية والعسكرية والسياسية الموقعة مع مطلع التسعينات ونذكر منها خاصة اتفاقيات أوت ١٨٩١ ، أوت ١٨٩٢ وديسمبر ١٨٩٢ .

٢٦ . مصطفى عبد القادر النجار : **دراسات في تاريخ الخليج العربي المعاصر .** المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . القاهرة ١٩٧٨ ص ٧١ .

٢٧ . لوريمر : **دليل ...** ص ٤٧٧ .

٢٨ . C.N. Curzon; Persia ... op. cit.,p. 495

٢٩ . حول تواصل هذه المطامع الروسية انظر على سبيل المثال : نوري عبد البخيت : « روسيا ومشروع سكة حديد بغداد **المؤرخ العربي** ، عدد ١٥ ، ١٩٨٠ .

٣٠ . اهتم الفرنسيون بمنطقة الخليج منذ القرن السابع عشر حيث أسسوا سنة ١٦٦٢ « شركة الهند الشرقية الفرنسية » على غرار شركة الهند الشرقية البريطانية وقد تواصل هذا الاهتمام مع وصول نابليون بونابرت الى مصر ومحاولته تركيز موطأ قدم له بخليج مسقط وعمان .

٣١ . محمود علي الداوود : **محاضرات عن الخليج العربي ...** ص ٢٢

٣٢ . لوريمر : **دليل ...** ص ٤٢٩ .

٣٣ . المصدر نفسه ، ص ٤٣٤

(ماي 1894 ــ جوان 1898) صارت تعادي بوضوح الهيمنة البريطانية المطلقة وتلوّح في اطارتنا قضاتها معها الى ما أطلق عليه «بالبرنامج الكبير» وهو القاضي بمنازعة انكلترا امتيازاتها في المناطق العربية وافضليتها فيها لا سيما احتلالها مصر(٣٤) وأصبحت التحركات الفرنسية خلال كامل هذه الفترة مطبوعة بهذا التوجه باحثة لها عن موطأ قدم بالمناطق العربية و بداهة بالخليج العربي، فمنذ 1893 وقع التفكير في انشاء مخازن للفحم غير بعيد عن مسقط العاصمة(٣٥) وتدعم هذا المسعى بوصول العديد من السفن الحربية الفرنسية الى مرفىء مسقط واقامة وكالة قنصلية بها مجدداً في نوفمبر 1894(٣٦) واعطاء الجنسية الفرنسية لسكان منطقة صور ورفع راية العلم الفرنسي على سفنهم(٣٧) ولم تمنع الخلافات بينها و بين انكلترا حول هذه المسألة(٣٨) وغيرها ثَنْي عزمها على أن تبحث لها عن مكان تحت شمس الخليج العربي.

وخلال نفس الفترة تزايد الاهتمام بأمر الخليج العربي وأوضاعه فكثرت زيارات البواخر الأمريكية والايطالية والنمساوية له(٣٩) منذ أواخر الثمانينات وهو ما زاد في قلق بريطانيا على امتيازاتها. بيد أن هذا القلق صار الى خشية منذ دخول القوة الألمانية ميدان المنافسة في الخليج العربي وان كان ذلك بصورة متأخرة.

ولقد ساهم التقارب الألماني العثماني وتطور العلاقات بين البلدين لا سيما في ميدان الاستثمار (مد سكك الحديد...) والجيش، في فتح باب الخليج أمام البرجوازية الألمانية الناشئة، فمنذ 1894 افتتحت قنصلية المانية ببغداد وهي التي ستمثل رأس جسر نحو التسرب الألماني الى الخليج العربي، لا سيما بانجاز مشاريع تربط آسيا الصغرى بالمنطقة وذلك بمد خطوط سكة تمر عبر الأناضول، وتمثل سكة اسكدار ــ بغداد عمودها الفقري، كما قدمت مشاريع المانية أخرى يربط فيها خط حديدي المنطقة بالبحر الأبيض المتوسط، وقد تزامن هذا التسرّب من الأجزاء الشمالية الى الخليج العربي وتحركات الأسطول البحري الألماني بالأجزاء الجنوبية، حيث بدأت زيارات البواخر الى مسقط وأنشئت وكالة بحرية ألمانية بها، والحال أن عدد الرعايا الألمان لا يتجاوز ستة أنفار(٤٠). كما عرفت سنة 1895 انطلاقة قوية للمصالح التجارية الألمانية ببوشهر أين قام أحد تجار همبورغ ببعث مركز تجاري له، على حين فتحت احدى شركات برام (Breme) مصلحة لها لبيع الفحم والأسلحة والسكر والحديد... واقتناء القمح والشعير والجلود...(٤١) وقد تدعم هذا الوجود التجاري الألماني بتكثّف زيارات البواخر الألمانية لموانىء بوشهر والبصرة وذلك في اطار اثبات الوجود من جهة وتبيان أحقية التواجد من جهة ثانية.

وتبعاً لكل ما تقدم فقد بدت لنا منطقة الخليج العربي مع أواخر القرن التاسع عشر بؤرة للصراع بين القوى الهيمنية، وهو ما يفرض علينا الوقوف عند الملاحظات الهامة التالية:

* ان القوى الاستعمارية التقليدية منها (انكلترا، روسيا، فرنسا) أو الحديثة العهد (المانيا...) قد وجدت في منطقة الخليج العربي مجالا آخر للتنافس من أجل اقتسام أسواقه أو اعادة اقتسامها. وقد ازداد هذا التنافس حدة بفعل حصول بعض الدول على امتيازات داخل حدود الامبراطوريتين «المريضتين» وقد دعمت هذا المنحى التنافسي رغبة الدول الرأسمالية المتزايدة في الاستثمار بالدول المهيمن عليها وذلك نتيجة لتطور الرأسمالية العالمية النوعي.
* مثّل أواخر القرن التاسع عشر فترة حاسمة في تاريخ المنطقة وأخّر التنافس الشديد بين الدول الاستعمارية من أجل مناطق النفوذ والتمركز بها، عمليات التقسيم وذلك بصورة نسبية، فما كان يمكن بأي حال أن يعيقها.
* سيزداد نفوذ القوى الأوربية الهيمنية داخل منطقة الخليج العربي بفعل الامتيازات التي ستحصل عليها من القيادات السياسية المحلية بطريقة أو بأخرى (الترغيب ــ الترهيب) وهي امتيازات يتزايد حجمها حسب العجز عن التصدي لهذه القوى.
* لم تكن دول المنطقة بفعل عوامل تاريخية واقتصادية وسياسية... مالكة لزمام أمورها الداخلية والخارجية، وهذا ما لم ييسّر عملية التصدي والمواجهة. ولا يعني ذلك سوى الاقرار بتفاوت موازين القوى واختلالها في صالح الدول الغازية دونما تبرير أو تورية لذلك، اذ أن الغاية المثلى تكمن في فهم الأحداث وتفسيرها وليس في الاكتفاء بكشفها.

٣٤. حول «البرنامج الكبير» انظر: V. Bernard; Le sultan, l Islam, et les puissances, Paris, 1907, p.41

٣٥. أ. و يلسن: **الخليج العربي** ... ص ٣٨٦.

٣٦. لوريمر: **دليل** ... ص ٤٧٦.

٣٧. محمد مرسي عبد الله: **دولة الامارات** ... ص ٣٥.

٣٨. حول قضية الاعلام والخلافات في هذا الشأن بين فرنسا وانكلترا، انظر: م. ع. الداود: **محاضرات** ... ص ٨٧.

٣٩. لوريمر: **دليل** ... ص ٤٥٣.

٤٠. المصدر نفسه، ص ٤٧٩.

٤١. R. Vadala: Le golfe persique, Paris, 1920, p. 33.

* عمدت هذه القوى الأوروبية كذلك الى سدّ فراغات ــ والفراغات كثيرة! ــ خلّفتها القوى التقليدية بالمنطقة (الامبراطورية العثمانية ــ ايران) وهذه الفراغات كانت نتيجة حتمية نظراً للضعف الذي طبع الدولتين لا سيما انهيار أوضاع الباب العالي السياسية الاقتصادية وذلك أثر فشل محاولات الاصلاح.

II ــ العثمانيون والقوى الهيمنية في الخليج العربي أواخر القرن التاسع عشر

ان اعتبارات متعددة تجعل الامبراطورية العثمانية تهتم أواخر القرن التاسع عشر بالخليج العربي اهتماماً متزايداً. وهو اهتمام يتجاوز الروابط التقليدية المتعارف عليها بين بلد مهيمن و بلد مهيمن عليه، ولذلك فان لنا في ابراز خصائصها جوانب عميقة:

1 ــ موقع العثمانيين في الخليج العربي.

ترى الدبلوماسية العثمانية أن ما بين الخليج العربي والامبراطورية العثمانية من تجاوب يتعدى العلاقات الظرفية المؤقتة و يتعدى الانبهار بالجوّ اللطيف الذي يميّز المنطقة (٤٢)، ليقترن بأهمية المنطقة ديمغرافياً وتجارياً واستراتيجياً، فضلاً عمّا بين سكان المنطقة والامبراطورية من علاقات خاصة (٤٣).

فمن الناحية الديمغرافية تعتبر منطقة الخليج العربي خالية أو تكاد من السكان مقارنة ببقيّة مناطق الامبراطورية التي كانت تعرف مع أواخر القرن التاسع عشر ضغطاً ديمغرافياً لا سيما في الأجزاء الأوروبية (٤٤) واهتمام الدبلوماسية العثمانية بمنطقة الخليج من هذه الزاوية له أكثر من دافع: فهل وقع التفكير في عمليات تهجير جماعية الى هذه المنطقة أم في توطين السكان بهذه البقاع؟. مهما كان الأمر فان المنطقة كانت تغري، لا سيما أن نسبة الكثافة السكانية بها لا تتجاوز في أحسن الأحوال 13 ساكن بالميل المربع (٤٥) و يبدو أن الدبلوماسية العثمانية كانت تسعى الى استغلال هذا الفراغ السكاني (٤٦) لا سيّما أن برامج قسرية كانت أقيمت في عهد بعض ولاة البصرة أواخر القرن التاسع عشر غايتها توطين القبائل عنوة وهو ما يسمح بحصر السكان واخلاء بعض الفضاءات الفلاحية وتعمير بعضها لجلب أعداد جديدة من القبائل القابلة للاستقرار وفلح الأرض.

فضلا عن ذلك، فان اهتمام العثمانيين بالمنطقة، يرتبط بأهميتها الاقتصادية ولا سيما بأهميتها التجارية (٤٧) فهي القلب النابض في التجارة بين آسيا وافريقيا ذلك أنها من أهم مراكز المبادلات لكونها موطن التقاء القوافل والتقاء البواخر القادمة من القارتين والذاهبة اليهما. و يوليها الباب العالي أهمية خاصة لأنها تمكنه من الاشراف على هذه التجارة والاستفادة منها. و يتعاظم هذا الدور لدى الدبلوماسية العثمانية بالنظر الى الموقع الاستراتيجي للخليج العربي رابط بين العراق من جهة ومصر من جهة أخرى (٤٨) فهل هو الحنين الى خط تقليدي كان يربط منطقتي نفوذ عثمانيتين قبل احتلال مصر؟. لا نعتقد ذلك. انّ فتح قناة السويس قد جعل من الخليج العربي محطة ضرورية بل ورئيسية في المبادلات العالمية وهو ما استفاد منه جزئياً العثمانيون بُعيد 1869.

و بداهة يهتم الباب العالي بالخليج العربي وقضاياه لوجود جزء منه تحت الهيمنة العثمانية (٤٩) اذ يسيطر من خلال ولاية البصرة التي بعثت مجدداً سنة 1884 (٥٠) على قرابة ٣٠ ألف كلم² (٥١) بل ربما أكثر من ذلك (٥٢) مقسمة الى 4 سناجق وهي سنجق البصرة (20.000 كلم²) وسنجق المنتفك (20.000 كلم²) والعمارة (40.000 كلم²) وسنجق الاحساء أو نجد (50.000 كلم²)، وهذا السنجق يمتد جنوباً على الساحل الغربي من الخليج العربي لكي يضم مناطق نجد وقطر وقطيف حيث يتاخم في الجنوب ما اصطلح على تسميته في الأدبيات والمراسلات الرسمية البريطانية «بساحل القراصنة» أو فيما بعد بداية القرن التاسع عشر «بالساحل المهادن» (٥٣). و يتم تسيير المنطقة ادارياً من قبل والٍ

٤٢. بصرة كورفزي ... ص ١

٤٣. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٤٤. تتراوح الكثافة السكانية بالأجزاء الأوروبية حسب احصاء ١٨٩٨ فيما بين ٥٤ ساكن بالميل الواحد (البانيا) و ٤٢٠ ساكن بالميل الواحد (اسطنبول) الاّ أن المعدل العام بهذه الأجزاء يكون حوالي ٨٨ ساكن بالميل الواحد. انظر: **دائرة المعارف**: تأليف بطرس البستاني ١٩٠٠، مجلد ١١ ص ٧١٨.

٤٦. حسب احصاء ١٨٩٨، تعتبر ولايتي الحجاز (٣ ساكن بالميل الواحد) والبصرة (١٣ ساكن بالميل الواحد) أقل المناطق سكاناً مقارنة بمساحاتها. انظر المصدر نفسه، ص ٧٢٠ ــ ٧٢١

٤٧. بصرة كورفزي ... ص ١

٤٨. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٤٩. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٥٠. بعثت ولاية البصرة لأول مرّة، وانفصلت عن ولاية بغداد سنة ١٨٧٥، ثم اتحدت الولايتان سنة ١٨٧٩.

٥١. Vital cuinet:La Turquie dAsie, geographie administrative, Paris, 1893 t III, p. 216.

٥٢. أورد أدموف أن مساحة الولاية قد تكون ١٥٠ الف كلم². انظر: الكسندر أداموف: **ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها**. ترجمة هاشم صالح التكريتي. بغداد ١٩٨٢. ج ١، ص ١٠

٥٣. المصدر نفسه ص ٦٠

مقرّه البصرة وهو في نفس الوقت المسؤول عن سنجقها و يستعين بثلاثة متصرفين يرأس كل واحد منهم سنجقاً، وأحد عشرة (قائمقائم) يشرفون على الأقضية (ج. قضاء) ومديرين يشرفون على النواحي (ج. ناحية) (٥٤) و يعود كل هذا الاطار الاداري بالنظر ــ اسمياً على الأقل ــ الى الوالي باستثناء منطقة الكويت التي يتمتع المشرفون عليها (آل الصباح) بشبه استقلالية نسبية.. وفي اطار مزيد من الضغط على المتساكنين استحدثت منذ 1893 وظيفة جديدة وهي وظيفة «التحصلداريون» أو «المحصلون» ومهمة المكلّف بها الاشراف على «المختارين» ومراقبة صحة ورود الأتاوات واتخاذ الاجراءات القانونية لجباية الضرائب المتأخرة.... الخ (٥٥).

و يعتقد العثمانيون أن دورهم في المنطقة وتأثيرهم فيها يتجاوز الـ 935.000 ساكن عربي (56) المنظورين تحت نفوذها لكي يشمل بقية متساكني المنطقة من المسلمين (٥٧) وهو خلط مقصود بين الاسلام من جهة والمسلمين من جهة أخرى عمدت اليه الدبلوماسية العثمانية لتبرير هيمنتها على مناطق عربية باسم الدين، كما أنها محاولة لتوسيع جبهة التصدي للاستعمار الأوروبي المتكالب آنذاك على المنطقة الخليجية ومحاولة حشد أقصى ما يمكن حشده من متساكني المنطقة ضد المشاريع التوسعية لا سيما منها الانكليزية.

وفي واقع الأمر، فان الباب العالي وخصوصاً في عهد عبد الحميد خان الثاني، صار يلوّح بهذا الشعار ليس فحسب تصديا للقوى الأجنبية، وانما للقضاء على أي نفس قومي يطالب بالانفصال عن الامبراطورية من أجل ضمان استقلاله الذاتي. بل لقد استعمل هذا الشعار في أتعس فترات القمْع الحميدي ضد أي نفس اصلاحي أو مشروع لبيرالي متنوّر داخل الامبراطورية فصارت «الجامعة الاسلامية» «قميص عثمان» لتبرير عمليات القمع والهيمنة الحميدية..

ان القول بأن الدول الأوروبية ــ وخاصة انكلترا ــ تخشى تزايد نفوذ الخلافة الاسلامية وتأثيرها في المسلمين مستقبلا (٥٨) بدليل «ما أثارته الانتصارات العثمانية ضدّ اليونان (٥٩) من هيجان لدى المسلمين في بلوجستان وهندستان» (٦٠)... ان مثل هذا القول فيه الكثير من المغالاة، بل ربما يحمل الكثير من المغالطة كذلك، ذلك أن الأحداث الواقعة في الهند و بلوجستان لها أسبابها الخاصة بها (٦١) ولا يمكن بأي حال أن تعزى الى انتصارات الباب العالي الظرفية المحدودة في معاركه مع اليونان بجزيرة كريت. كما أن الدعوة الى الجامعة الاسلامية أو الى عصبة المسلمين، لم تمنع ــ ولن تمنع البتة ــ الدول الأوروبية من تقسيم «تركة الرجل المريض». فضلا عن ذلك فان هذه الدعوة لم تمثل لا في المستقبل القريب ولا في المستقبل البعيد خطراً على الدول الامبريالية التي كانت في نفس الوقت الذي تعمل فيه على تدعيم مصالحها بالمنطقة، تنفخ في تنّور الدعوة الى القوميات واذكاء النفس القومي الساعي الى الانسلاخ عن الباب العالي.

وفي الحقيقة فان الأيديولوجية العثمانية الرسمية قد وظفت لأغراض خاصة بعض تعاليم جمال الدين الأفغاني ومناداته بوحدة الشعوب الاسلامية، فدعت لاقامة دولة اسلامية يحكمها عبد الحميد الثاني نفسه بوصفه أميراً للمؤمنين، وفي هذا المجال فان الدول الاستعمارية لم تقلقها مثل هذه الدعوات بل أن انكلترا كانت تعتقد أنه من الطبيعي جداً أن يحاول السلطان العثماني أن يجعل من نفسه خليفة للمسلمين وأن ينظر اليه المسلمون كخليفة لهم (٦٢). وتبعاً لما تقدم ألا يمكن أن نبرّر سلوك الأرمن في تلك الفترة ــ وسلوك غيرهم من القوميات ــ التي لا تدين بالاسلام؟ وهل يمكن أن نتفهم المذابح التي أقيمت ضدهم خلال 1894 ــ 1896؟ بل كيف لنا أن نمنطق سلوك الباب العالي المزدوج تجاه جمال الدين الأفغاني نفسه، فبعد الحاح عبد الحميد عليه لقدوم اسطنبول وذلك تكريماً له (!!) منع حتى من حرّيته الشخصية ورفضت طلباته المتعددة لمغادرة الآستانة حتى وفاته.

2 ــ القوى الهيمنية في ميزان الدبلوماسية العثمانية

تركزت تقييمات الدبلماسية العثمانية عند الحديث عن الأوضاع بالخليج العربي على حقيقة تبدو لها بديهيّة، ومفادها أن سكان المنطقة كل السكان «يحبون البادشاه (السلطان العثماني) و يلهجون له بالدعاء» (٦٣) اذ كانت سياسته حكيمة تجاه كل المسلمين الا أن وجود

---

٥٤. حول التنظيم الاداري لولاية البصرة والمناطق التابعة لها. انظر:
V. Cuinet: La Turquie dAsie...op;cit.t111, p.217

٥٥. أ. أداموف: **ولاية البصرة**... ص ٧٩.

٥٦. المصدر نفسه، ص ١٢٩، وحسب كويني (V.Cuinet) يرتفع هذا العدد الى ٩٥٠ الف نسمة، انظر:
V. Cuinet, La Turquie dAsie,op; cit, t111, p. 220

٥٧. بصره كورفزي.. ص ١

٥٨. المصدر نفسه، ص ٤

٥٩. خلال سنوات ٩٦ ــ ١٨٩٧ قام نزاع بين الأتراك واليونانيين من أجل جزيرة كريت وقد حقق فيه العثمانيون في البداية انتصارات هامة ارجعها البعض الى تأطير الجيش العثماني من قبل الضباط الألمان.

٦٠. بصرة كورفزي... ص ٤

٦١. منذ ١٨٧٧ احتلت انكلترا منطقة بلوجستان (اليوم مقاطعة في الباكستان) وقد تطوّر النضال في الهند وفي بلوجستان مع أواخر القرن التاسع عشر بظهور بعض التيارات الوطنية الراديكالية الداعية الى اعتماد العنف وسيلة ضد الانكليز (قيادة Talak)

٦٢. جون كيلي: «**بريطانيا والخليج العربي (١٧٩٥ ــ ١٨٧٠)**». ترجمة محمد أمين عبد الله، عمان، ج ٢، ص ٦٤٠.

٦٣. بصره كورفزي... ص ١

دولتين متنافستين تنازعان الامبراطورية سلطتها على المنطقة، هو السبب في تأزم الأوضاع.

أ) الأطماع الانكليزية:

حسب المصدر الدبلوماسي الذي نعتمده، اتضحت مطامع انكلترا الاستعمارية منذ أواخر ستينات القرن التاسع عشر أي منذ 1869 يوم أحدث مقر للوكالة السياسيّة ببغداد يدار من الهند وقد بدأ تأثيرها يمتد الى منطقتي عربستان والبصرة وما حواليهما (٦٤) وقد ازدادت هذه المطامع رسوخاً منذ «سقوط» مصر بأيدي بريطانيا (٦٥) اذ كان المطمح الاستيلاء على البحر الأحمر من جهة وخليج البصرة من جهة ثانية.

وتعتقد الدبلوماسية العثمانية — عن صواب — أن هذه المطامع الانكليزية تتجاوز هاتين المنطقتين لكي تشمل مناطق أخرى أكثر أهمية واتساعاً، فلا تصبح منطقة الخليج سوى معبر هام ضمن مشروع ضخم لمد سكة حديد تربط مصر بالحجاز في اتجاه البصرة ومنها الى ايران و بلوجستان فبلاد الهند (٦٦).

وفي الحقيقة، فقد راود مثل هذا المشروع الأوساط المالية والسياسيّة البريطانية حيث عبّر عنه الكولونيل ميد (Meade) القيم السياسي البريطاني بالخليج العربي حينما دافع عن موقع الكويت متخوفاً من سقوطها بين أيدي قوى أجنبية أخرى غير الأيدي البريطانية، وقد اقترح آنذاك أن تكون الكويت نهاية مرحلة أولى لسكة تقدم من بورسعيد (٦٧)، فهل كان المقترح مجرّد مناورة انكليزية لمقاومة المشروع الألماني — الروسي؟ ترى الدبلوماسية العثمانية عكس ذلك مؤكدة أنّ الموضوع كان محلّ بحث مرّات عدة بلندن، كما أن الأمر يبدو لانكلترا من السهولة بحيث يكون أقرب للتحقيق (٦٨).

و يتدعم ذلك التوجّه تجاه انكلترا بالنظر الى الحملات التي كانت تقام بلندن ضد الحضور العثماني بالخليج العربي لا سيما من قبل مستشار الخارجية البريطانية كرزون الذي كان يوصي بلاده بأن تقف حاجزاً أمام التوسعات العثمانية في اتجاه دولة الامارات وخاصة في اتجاه سلطنة مسقط وعمان (٦٩).

وفي واقع الأمر، فان الدبلوماسية العثمانية كانت غير مطمئنة الى تعاظم دوربريطانيا في الخليج العربي بل وفي شتى البقاع التابعة للامبراطورية وتدخّلاتها المسترابة لا سيما منذ احتلال قبرص (1878) ومصر (1882)، بل ان الباب العالي كان محقاً في تقديراته القاضية بأن الاستراتيجية الانكليزية كانت تذهب أواخر القرن التاسع عشر في اتجاه الاطاحة بالامبراطورية العثمانية (٧٠) وتفكيكها وذلك للاعتبارات التالية:

★ ان الدولة العثمانية أصبحت من الضعف بحيث لا تقدر على الدفاع عن حدودها وهي بالتالي لا تستطيع أن تمنع توسعاً روسياً مرتقباً (٧١)

★ ان الباب العالي أصبح فاقداً لجيش قوي وأسطول بحري قادر على التصدي للتقدم الروسي في البحر الأسود في اتجاه المضائق (٧٢) ولعلّنا لا نجانب الصواب حين نبيّن أن عدم احتلال الروس لاسطنبول يعود في بعض المرات الى تدخل القوى الأوروبية الحاسم.

★ المساندة المطلقة التي تجدها بريطانيا من الرأي العام الأوروبي في محاربة القرصنة!! وتجارة الرقيق (٧٣) لا سيّما بمنطقة الخليج العربي وهي دعوى باطلة عملت الدعاية البريطانية على ترويجها، ففضلا عن قلة المؤسّسات القرصنيّة منذ مطلع القرن التاسع عشر وتقلّص نشاطاتها بالمنطقة فانّ بريطانيا قد نصّبت نفسها وصيّة وحدها على محاربة الظاهرتين والحال أن الباب العالي ذاته قد طالب مراراً بالمشاركة في ذلك دون أن يسمح له به.

★ المساندة البريطانية المطلقة للقوميات الموجودة تحت النفوذ العثماني ودعمها المستمرّ لانتفاضاتها، واثارة النعرات ضد الباب العالي لأنه حسب زعم الدبلوماسية الانكليزية «يمحو حرية الشعوب والأقوام» (٧٤)، والحال أن انكلترا كانت في نفس الوقت تقتحم أسواقاً وتحتل دولاً وشعوباً وتسعى لمزيد السيطرة والنفوذ في شتّى بقاع العالم.

★ قيام بريطانيا بحملة دعائية واسعة في أوساط المثقفين والرأي العام عموماً، «لكسر ناموس الدولة العثمانية» (٧٥) بدعوى «توحش الممالك العثمانية» وضرورة «نشر المدنية بها» (٧٦) فعاصمتهم اسطنبول «في خراب وفي غير نظام» (٧٧) والأتراك «ليس لهم أي نصيب من التمدّن» (٧٨) وما من شك في أن المدّ الاستعماري كان يحتاج الى وسيلة دعاية لتبرير تسلّطه على الشعوب واحتلاله أجزاء كبيرة من العالم. ولئن

٦٤. المصدر نفسه، ص ٢.
٦٥. المصدر نفسه ص ٥
٦٦. المصدر نفسه ص ٥
٦٧. أورده م. ع. الداوود: **محاضرات** ... ص ١١٧.
٦٨. بصرة كوفزي .... ص ٥
٦٩. المصدر نفسه ص ٦
٧٠. المصدر نفسه ص ٦
٧٣. المصدر نفسه ص ٤
٧٤. المصدر نفسه ص ٦
٧٥. المصدر نفسه ص ٤
٧٦. المصدر نفسه ص ٤
٧٧. المصدر نفسه ص ٣
٧٨. المصدر نفسه ص ٣
٧١. المصدر نفسه ص ٢
٧٢. المصدر نفسه ص ٣

كانت اسطنبول تعاني فعلا أواخر القرن التاسع عشر حالة اضطراب وفوضى نتيجة للارهاب السياسي الحميدي وايقاف العمل بالدستور وقمع الخصوم السياسيين وتدخّل الدول الأوروبية المباشر في مالية الباب العالي وهيمنتها المطلقة على جلّ الدواليب الاقتصادية العثمانية (ادارة الدين العثماني، وكالة التبغ...).... لئن كان هذا هو حال الامبراطورية، فان ذلك لا يعطي أي تبرير لأي تدخل أجنبي لاحتلال بعض المناطق والتوسع في مناطق أخرى. كما أنه لا يمثل بأي حال تعلة لاضفاء شرعية للتسلط على شعوب بدعوى «تحضيرها» و «تمدينها».

وعلى ضوء هذه المواقف والاعتبارات يتبيّن لنا أن الدبلوماسية العثمانية لم تكن غافلة عن النوايا البريطانية الحقيقية، بل إنها كانت تعتقد ـ عن صواب ـ أن تدخلات انكلترا في شتّى أطراف الامبراطورية، ومن ضمنها منطقة الخليج العربي، لا يعني في واقع الأمر سوى السعي الى الاجهاز على «الرجل المريض» حين تحين الفرصة. ومثل هذه النتيجة تحتّم تبعاً لذلك اتخاذ تدابير حازمة للتصدّي لهذه الأطماع والحيلولة دون تحقيقها خاصة أن الدفاع عن الامبراطورية يمر بداهة عبر الدفاع عن أطرافها.

ب) الأطماع الروسية

ان عداء الباب العالي لانكلترا لا يعادله سوى عداؤه لروسيا القيصرية التي كانت هي الأخرى تسعى الى الهيمنة على أجزاء هامة من الامبراطورية. ولئن بدت مساعي انكلترا غير شفافة ومقنّعة، فان مطامح روسيا ومطامعها لم تكن خفيّة عن الرأي العام العثماني والعالمي، وحروب روسيا مع الباب العالي وتدخلاتها في المناطق التابعة للامبراطورية معروفة وغير خفية وهدفها لم يتمثل الاّ في الحصول على أكبر حصة من «التركة» في اطار منافسة دولية حادّة من أجل هذه القسمة. وتعتمد الدبلماسية العثمانية للاقرار بهذه الحقيقة على المعطيات التالية: ـ

★ ان احتلال اسطنبول ومراقبة المضائق كان مطمح الروس منذ زمن بعيد(٧٩) وتاريخ الصراع بين الامبراطوريتين في هذا المجال طويل.

★ ان روسيا لعليمة بضعف الجيوش العثمانية وتحطّم اسطولها البحري فلن يستطيع الباب العالي تبعاً لذلك الدفاع عن سواحله لا سيما سواحل البحر الأسود(٨٠) أو عن أية منطقة حدودية أخرى.

★ ان العداء الذي طبع العلاقات بين روسيا وانكلترا قد انتهى منذ استيلاء انكلترا على مصر(٨١) ومنذ وقع السعي فعلياً الى اتحاد الكنائس بغاية استعادة أياصوفيا (القسطنطينية معبداً للنصارى(٨٢).

و يبدو لنا أن في مثل هذا القول مغالاة، ذلك أن تنافساً حاداً كان يوجد بين القوتين الانكليزية والروسية و يطبع العلاقات بينهما. بل إن الصدام كان قائماً بينهما في مناطق شتى من العالم، لا سيما بأجزاء من أوروبا الوسطى (مشكل الأقليات القومية، صربياً) وخاصة بالمناطق الوسطى من آسيا حيث كانت الحروب بينهما سجالاً حتى اتفاقية بلمير(٨٩٥) بل إنّ تنافراً في المصالح كان يطبع علاقتهما بمنطقة الخليج خاصة. بيد أن محاولة كل من القوتين التوسّع على حساب الامبراطورية وسعيهما الى الهيمنة على أطرافها قد جعل الدبلوماسية العثمانية تعتقد أن اتفاقاً مسبقاً حصل ويحصل بينهما من أجل الاجهاز على السلطنة.

★ ان روسيا تسعى لاثارة مسألة القوميات الموجودة تحت نفوذ الباب العالي، وتراهن على اثارة النزعات القومية لدى الأقليات العرقية، وآخر ما قامت به حثها الأرمن على الانتفاضة(٨٣)، اذ هي المتسببة في تأليبهم ضد السلطنة العثمانية(٨٤) وهو ما يساهم في نظر الدبلوماسية العثمانية، بطريقة أو بأخرى في التعجيل بتفكيك قوام الامبراطورية. وقد مثلت هذه المسألة (مسألة القوميات) رأس حربة اعتمدتها روسيا اذ جعلت من نفسها «حامية» هذه الأقليات داعية منذ مطلع القرن التاسع عشر الى «تحرير الأرمن» من عبودية الأتراك والفرس(٨٥) حاثة اياهم طيلة 1894 ـ 1896، رغم القمع الحميدي على مواصلة الانتفاضة ومنبهة الضمير العالمي الى الأوضاع السيئة التي يعيشونها والحال أن القوميات التي كانت ترزح تحت نظام القياصرة لم تكن بأحسن حال.

وتخصيصاً على منطقة الخليج، فان الدبلوماسية العثمانية كانت متنبهة الى النوازع التي تشد روسيا الى هذه المنطقة اذ هي «تريد عبر عجمستان (ايران) أو العراق أن تنفذ الى المحيط الهندي»(٨٦) أي اعتماد ما اصطلح على تسميته عالمياً بتكتيك الوصول الى المياه الدافئة، وهو ما كان يمثل في نفس الوقت خطراً على المصالح الحيوية للقوى الهيمنية في العالم وبالخصوص على انكلترا، وتبعاً لذلك فان الباب العالي

---

٧٩. المصدر نفسه ص ٣

٨٠. المصدر نفسه ص ٣

٨١. المصدر نفسه ص ٣

٨٢. المصدر نفسه ص ٣

٨٣. منذ مطلع سنة ١٨٩٦ تحدثت الصحف العالمية عن استعداد روسيا التدخّل في بلاد الأرمن لتفكيك الامبراطورية و بالتالي تقسيمها، انظر:
T.G. Djuvara: **Cent projets de partage de la Turquie (1281-1913)** Paris, 1914, p. 430.

٨٤. بصرة كورفزي...ص ٣

٨٥. منذ القرن السادس عشر كان الجزء الغربي من أرمينيا تحت النفوذ العثماني على حين كان الجزء الشرقي يخضع للفرس.

٨٦. بصرة كورفزي... ص ٥

يعوّل على معارضة هذه الدول لهذا المشروع، اذ أن خروج «الدب الروسي» الى البحار الدافئة واستيلائه على مناطق شرق آسيا العثمانية سيقلق أساساً انكلترا ومصالحها بحوض الخليج العربي(٨٧) و يضع أفضليتها في المنطقة موضع الشكّ.

ومن البيّن أن الباب العالي ولئن كان عارفاً بطموحات قيصر روسيا، الا أنه كان يعتمد على التنافس الدولي الحاد لابعاده عن المنطقة وافشال مشاريعه بها. بل أنه تكشّف حتى على مستقبل الأوراق السياسية في فسيفساء الرقعة الدولية وتنبأ بأن انكلترا في سعيها لابعاد الروس عن الخليج العربي وازالة تأثيرهم، ستستعد مجدداً لإثارة القلاقل داخل آسيا الوسطى عبر الهند وافغانستان حتى تجبر روسيا على تقسيم قواتها على كامل حدودها الجنوبية وهذا ما يساهم في تشتتها وهو ما يسمح بالتالي بسدّ الطرق والمنافذ أمام خروج روسيا الى الخليج العربي(٨٨) فهل يعدّ هذا من قبيل التقييم الصائب والدهاء المحنّك؟! أم هو حيلة من لا قوة له؟!

مهما كان الأمر فانّ الدبلماسية العثمانية تقرّ بأن الأمر خطير في منطقة الخليج العربي، وأنّ من واجب الباب العالي اثبات وجوده بالمنطقة وحاكميّته عليها، ولا يتم له ذلك الا بضبط خطة مواجهة للأطماع الأجنبية بالمنطقة. وتبعاً لما تقدّم، وعملا بمبدأ الاقصاء، يتبين لنا أن الدبلماسية العثمانية قد أقرت جملة من الثوابت، فاذا بالخطر الأكبر الداهم على الخليج العربي أواخر القرن التاسع عشر لا يتأتى من روسيا القيصرية (معارضة انكلترا لخروجها عبر الخليج للمياه الدافئة) ولا يتأتى من فرنسا (تطوّر برامج استثمار فرنسية بالامبراطورية(٨٩)، (خطة هانوتو) كما لا يتأتّى حتماً من ألمانيا (فترة صداقة وتعاون!!!) وانما الخطر، كل الخطر يتأتّى من انكلترا التي بدأت تزحف تدريجياً نحو المواقع التي سلبت سكانها حريّة التحرّك في الخليج، فكيف ستكون المواجهة؟ وكيف سيتم التصدّي؟.

III ــ خطة المواجهة العثمانية

يرد البعض اهتمام الدولة العثمانية المجدّد بمنطقة الخليج الى فترة انسحاب القوات المصرية من شبه الجزيرة العربية ــ 1840 ــ (90) اذ تبين للعثمانيين خطر اهمال هذه المنطقة البعيدة عن مركز الخلافة والحال أنها منطقة ذات موقع استراتيجي هام. فصارت عرضة لطموحات البعض (محمّد عليّ) وضغوطات البعض الآخر (انكلترا) و يبدو أن هذا الاهتمام قد كان محدوداً في الزمان والمكان ولم يتجاوز الطور الانفعالي الا بقليل، ذلك أن بريطانيا قد تقدمت أكثر في اتجاه ربط علاقات وطيدة جداً مع شيوخ المنطقة وسكانها واحكام قبضتها على الساحل الغربي للخليج بتوقيع اتفاقيات تضمن لها حرية التجارة ومقاومة القرصنة البحرية «المعيقة» لنمو تجارتها.

و يرى البعض الآخر أن اهتمام الامبراطورية بالخليج لم يتخذ شكلا اكثر جدية سوى سنة 1870 (٩١) اثر فتح قناة السويس اذ أصبحت المنطقة بفعل ذلك محطة هامة في التجارة العالمية، فضلا عن نمو التجارة بها، كما كان للتطورات السياسية الحاصلة داخل الامبراطورية (الاصلاحات، نمو الشعور القومي لدى الأقليات باورو با...) وخارجها (تطور المنافسة العالمية، موت فيصل بن تركي سلطان مسقط ومشكلة الاستخلاف...) الأثر في توجيه الاهتمام مجدداً نحو هذه المنطقة. وقد حاول العثمانيون خلال هذه المرحلة الثانية اعادة سلطتهم على بعض المناطق من الخليج. وكان منطلق ذلك تعيين مدحت باشا والياً على العراق (69 ــ 1872) ثم انشاء ولاية جديدة هي ولاية البصرة لأول مرة (1875) وذلك باقتطاع أقاليم من ولاية بغداد وضمّ اقليم الاحساء اليها وتعيين حاكم عربي المولد والقبيلة عليها (الناصر باشا) (٩٢)، الا أن تمرّد القبائل ضدّ السلطة المركزية في صائفة 1877، وانتفاضات بغداد شتاء 77 ــ 1878، والصراعات القبلية 78 ــ 1879 وحذف ولاية البصرة ــ 1879 ــ والصراع السياسي المفتوح بين الموظفين الأتراك على مراكز النفوذ(٩٣) ورفض التبعية العثمانية من قبل بعض المناطق(٩٤) كل هذه العوامل وغيرها جعلت العلاقات بين الباب العالي والخليج العربي تعود الى الفتور مجدداً بل تعرف شللاً وهو ما مثّل مدخلاً لبريطانيا لتدعيم مواقعها أكثر فأكثر.

و يقرّ جانب كبير من المؤرخين بأن مرحلة ثالثة في علاقة الباب العالي بالخليج انطلقت اثر احتلال مصر (1882) اذ تبيّن للباب العالي

٨٧. المصدر نفسه ص ٦

٨٨. المصدر نفسه ص ٦

٨٩. انظر حول تطور هذه الاستثمارات الفرنسية بالامبراطورية العثمانية:
J.Thobie : Interets et imperialisme francais dans Iempire ottoman (1895-1914) Paris, 1977

٩٠. مصطفى عبد القادر النجار: **التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي** البصرة، ١٩٧٥، ص ٤٩.

٩١. صلاح العقّاد: **التيارات السياسية**.. ص ١٧٣، ج، كيلي: **بريطانيا والخليج العربي (١٧٩٥ ــ ١٨٧٠)** ترجمة محمد أمين عبد الله، ج II ص ٥٨٤.

٩٢. لوريمر: **دليل**... ص ٤١٤.

٩٣. نذكر على سبيل المثال لا الحصر الحادثة التي وقعت بالاحساء سنة ١٨٨٠، اذ ألقى القائد العسكري التركي القبض على الحاكم المدني التركي وسجنه. لوريمر: دليل ص ٤٣٥.

٩٤. ان تاريخ منطقة الخليج بصورة عامة ملء بالانتفاضات المتكرّرة ضد الحكم العثماني.

طمع الانكليز في السيطرة على أجزاء من الامبراطورية بل أنه تيقظ الى مطامحهم في الاستيلاء أيضاً على أجزاء من الخليج العربي فكانت هذه المرحلة الدفاعية تحسّباً لتوسّع مرتقب. وقد انطلقت هذه المرحلة داخلياً ببداية اقامة بعض التحصينات الدفاعية و بناء بعض الاستحكامات العسكرية (انطلاق أشغال بناء قلعة الفاو 1883) والسيطرة على بعض الجزر في شط العرب، مروراً باعادة بعث ولاية البصرة، وتتويجاً بعودة المبادرات العثمانية الى التنسيق مع شيوخ المناطق والامارات. أما من الناحية الخارجية فقد عمدت الدبلماسية العثمانية في هذه الفترة الى ربط الصلة مجدداً بالمناطق التي فترت علاقاتها بها وفي هذا الاطار جاء مثلا دعمها لآل الرشيد، وتشجيعها اياهم منذ ثمانينات القرن التاسع عشر على الاطاحة بأسرة آل سعود الحاكمة بالحجاز اذ يعتبر العثمانيون أن لها ارتباطات مشبوهة ببريطانيا. فصار الباب العالي تبعاً لذلك يعمل على تحصين نفسه باقامة بعض الأسر الأكثر ولاء له، أو بالأحرى الأكثر وضوحاً في عدائها للانكليز.

ويمكن أن نعتبر فترة تسعينات القرن التاسع عشر تواصلا لهذه المرحلة الدفاعية السابقة الا أن الأحداث قد تسارعت فيها بدرجة لم يعد الباب العالي قادراً على مواكبتها ومجاراتها. فرغم التلويح بأحقية السلطان العثماني في ضم دولة البحرين، انكفأت في الواقع الامبراطورية الى مواقعها الترابية للدفاع عنها واتمام بعض الاستحكامات بها (اتمام حصن الفاو 1849) أو للمطالبة بها (كثرت خلال هذه الفترة المشاكل الحدودية مع ايران: المحمّرة، شط العرب...، وهي المشاكل المرتبطة حقيقة بفتح نهر قارون للملاحة البريطانية) أو لمزيد ابتزاز شعوبها والخيرات بها (منذ 1893 ايجاد وظيفة جديدة — «تحصلداريون» — لا حكام جمع الاتاوات والضرائب) على حين تنامي الشعور القومي لدى العرب برفض الهيمنة العثمانية اذ تكاثرت الانتفاضات المناوئة للأتراك (قبيلة أبو محمد 1892 والرافضة لسيطرتهم (انتفاضة قطر 1893) والمتبرمة من وجودهم (حب 1895) وهذا ما شجع أكثر الانكليز على التمادي في نهجهم ومواصلة سياستهم التوسعية فكبلوا الجماهير العربية بمزيد الاتفاقيات (اتفاقية مع مسقط 1891، اتفاقيات مع شيوخ الساحل المهادن 1892) بل سعوا الى مزيد من التوسع في المناطق التابعة اسمياً الى الباب العالي (سعي الى ضم قطر، بداية اتصالات مع شيخ الكويت 1895).

ومن الأكيد، أن الباب العالي الذي كان يعيش مشاكل مالية واقتصادية واجتماعية وسياسية لم يكن يعر أطراف الامبراطورية اهتماماً خاصاً الآ عند حدوث اهتزازات كبرى ولذلك انعدمت الخطط المبرمجة المنظمة كما لم تقدر السلطنة على ضبط توجّه حقيقي فعّال وناجز للتصدّي للأطماع الاستعمارية وهوما شجّع القوى الأوروبية خاصة منها انكلترا على مواصلة سعيها الى اكتساح مواقع جديدة على حساب الباب العالي وعلى حساب متساكني المنطقة العربية. فكان هذا التوسع الاقتصادي والسياسي البريطاني بالأساس مدخلاً لربط تاريخ المنطقة، ولأمد طويل، بتاج المملكة.

فضلا عن ذلك فان العثمانيين لم يستطيعوا تشريك سكان المناطق الخاضعة لنفوذهم في عملية المواجهة وربما هم لم يرغبوا في ذلك، فسهُل على القوى الاستعمارية الانفراد بالأتراك فكالوا لهم الهزائم السياسية والعسكرية. ومما زاد الأمر خطباً أن بعض المشاريع الاصلاحية التي واقع السعي الى تطبيقها بالخليج لم تكن في واقع الأمر سوى خططاً فردية المبادرة والانجاز يرتبط وجودها باسم بعض الولاة أو الأشخاص، فما أن يغيبوا أو يُغيّبوا حتى ينهار الصرح المنشود.

زيادة عن كل ما تقدم، فان هذه البرامج الاصلاحية والخطط التي أريد لها أن تكون عنواناً للمواجهة كانت بالضرورة محدودة النجاعة اذ هي لم تندرج في اطار مواجهة عامة للقوى الاستعمارية، فقد كان من العبث العمل على فتح السوق العثمانية للرساميل الأجنبية، وترك أمور خزينة الامبراطورية وماليتها وديونها في أيدي القوى الأجنبية من جهة، والدعوة الى التصدّي للأطماع البريطانية في الخليج، والمطامح الروسية في أرمينيا ووسط أوروبا، ورغبات فرنسا في احتلال بلاد الشام ونزوع ايطاليا الى التوسع في ليبيا..... من جهة أخرى.

ان القول بأن أخطاراً كانت تحدق بالامبراطورية ومتساكنيها يعني بالضرورة ضبط خطة شاملة كاملة، وهذا ما لم يتوفّر، و بقيت الخطط — ان وجدت — محلية التوجّه وفردية المبادرة وآنية النتائج ومحدودة المفعول. ومن البيّن أيضاً أن بعض الخطط التي اقترحت (٩٥) لم تكن كافية بالمرّة. بل أن الدبلوماسية العثمانية بلندن ذاتها تقرّ بمحدوديتها فهي لا تتماشى وعظمة الامبراطورية رغم حسن النيّة والحماسة (٩٦) و يعني ذلك بداهة الاقرار بفشل التجارب السابقة والشك في نجاعة المشاريع المستقبلية ما لم تتزامن مع الأخذ بأساليب التقدّم واكتساب القوة الكافية والضرورية. ولا تتأتّى هذه القوة الا بتعلّم فنون الدفاع الجديدة وحذقها

٩٥. انظر: **ارشيف قصر يلدز:** قسم ١٤، أوراق ٤١٣، ظرف ١٢٦ بملف ٩ وكذلك بنفس الأرشيف قسم ١٤، أوراق ١٠/٨٨، ظرف ٨٨، ملف ١٢ تحت عنوان «بصرة سنجق احتياجات واصلاحات دائر لائحة در».

٩٦. بصرة كورفزي... ص ١ و٢.

وامتلاك التجهيزات العسكرية الحديثة على غرار ما يوجد في أوروبا (٩٧) واعتماد التطور التقني والعلمي المعمول به بهذه البلدان (٩٨). ومثل هذا القول يؤكّد أن بعض المتنوّرين كانوا موجودين داخل الهياكل المسيرة للامبراطورية وأنهم ما فتئوا يدعون الى ضرورة تجاوز العقم الذي طبع أوضاع الباب العالي وتحركاته

ولا غرو في أن نقرّ بأنّ منصب الدبلوماسية العثمانية بلندن كان يفسح مجالا واسعاً للاطلاع على واقع الدول الأوروبية المتقدمة وخلق مجال للمقارنة والتشوّف. وتبعاً لذلك يعتبر منصب لندن من أدقّ المناصب وأخطرها لا لاشرافه على المسائل الدولية فحسب، وانما أيضاً لأنه يمكّن من القيام بدور فعّال في توجيه السياسة الخارجية والداخلية للامبراطورية (٩٩) ومن الطبيعي أن يكون المشرف على هذا المنصب ملمّاً الماماً كبيراً بالأوضاع الدولية وتطوّرها من جهة وعارفاً بخبايا الأوضاع الداخلية من جهة أخرى وهذا ما يعطي لمواقفه، ومقترحاته مصداقية تتفاعل فيها المعطيات الداخلية مع الأحداث العالمية ومتغيراتها، وتندرج هذه الخطة حسب رأينا في هذا الاطار. ولئن بدت الخطة متكاملة، ترتبط عناصرها بعضها بالبعض الآخر، الاّ أننا لأسباب منهجية قسّمناها الى محاور متعدّدة يستقيم كل واحد منها عنصراً تاماً.

1 ـ العمل على تطوير التجارة

يعتبر الخليج العربي محوراً هاماً للتجارة العالمية بالشرق الآسيوي، وقد تعاظمت هذه الأهمية منذ فتح قناة السويس، حيث صارت البواخر المحملة بالبضائع تقدم على الموانىء لتفرغ حمولتها من البضائع وتبتاع ما ترغب في اقتنائه، و يكفي الاطلاع على مختلف كتب الرحّالة والتجّار ومراسلات القناصل، حتى نتكشف عن أهمية التجارة بهذه المنطقة ودورها في تنشيط بقية القطاعات الاقتصادية. ولسنا نجازف أن صرحنا بأنّ القطاع التجاري أصبح يتحكّم في بعض القطاعات في أواخر القرن التاسع عشر (١٠٠).

على أننا لا بدّ أن نثبت منذ البداية، أن التجارة الانكليزية كانت تحتكر كلياً أو تكاد نشاط الخليج العربي، وأبْعد التجّار العرب والأتراك عن هذا القطاع تدريجياً، ففي الأقطار العربية غير الخاضعة للعثمانيين، سيطر الانجليز تقريباً على النشاط التجاري تاركين للتجّار والملاّحة العرب بعض الفتات، وقد مثلت هذه السيطرة البريطانية تتويجاً لمسار كان البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون وغيرهم ضحيته. فلم ترس بميناء مسقط من السفن العربية سنة 1893 سوى 268 سفينة والحال أن عددها كان قبل خمس عشرة سنة (1877) يربو على 790 سفينة (101) و يعني ذلك أن التجّار العرب بدؤوا يفقدون تدريجياً ما حذقوه وتفننوا فيه على مدى قرون عدّة. واستعاضت الشركات والمؤسسات التجارية في نقل بضائعها عن السفن العربية بالبواخر البريطانية التي كانت أكثر صلابة (صارت حديدية) وأكثر حمولة. ففقدت الدول العربية بذلك قدرتها على المنافسة والوقوف عن كفاءة أمام أساطيل الدول الأوروبية، فاذا بالأسطول البحري العماني يفقد 3/4 قطعة فيما بين 75-1895 (102) و يعود ذلك أساساً الى بداية اعتماد الانكليز على السفن البُخارية منذ مطلع ستينات القرن التاسع عشر واتخاذ بعض المراكز العربية (البحرين) محطّة بريطانية لتجميع البضاعة واعادة تصديرها من جديد بكامل مناطق الخليج العربي (١٠٣).

أما بالمناطق التي كانت تحت النفوذ العثماني، فان الأوضاع التجارية لم تكن بأحسن حال: فقد هيمنت بميناء البصرة مثلا ثلاث شركات بريطانية (١٠٤) على الجانب الأكبر من التجارة حتى مطلع

---

٩٧. المصدر نفسه ص ٤

٩٨. المصدر نفسه ص ١٢

٩٩. لقد كان منصب لندن محبّذاً ومقبولا عليه لأنه يفتح مجالا واسعاً للدخول الى الميدان السياسي من بابه العريض. أفلم يكن رشيد رضا صانع فرمان التنظيمات سفيراً بلندن!

انظر حول أهمية هذا المنصب:

Ahmet Ali: **Developpement economique en Turquie,** Paris, 1981, p. 30.

١٠٠. حول التجارة وأهميتها بمنطقة الخليج والبصرة، انظر: حسين محمد القهواتي «أضواء على تجارة البصرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر». **الخليج العربي** مجلد ١٢ عدد ٢ ـ ١٩٨٠، وكذلك مصطفى عبد القادر النجارة «شركة الهند الشرقية ملامحها وأبرز سماتها في الخليج العربي» **مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية** عدد ١٥ (السنة الرابعة)، ١٩٧٨، وكذلك خالد خليفة الخليفة: «تجارة البحرين منذ فتح العتوب وحتى ظهور النفط، **الوثيقة** عدد ٧ السنة الرابعة ١٩٨٥، وكذلك محمود طه أبو العلا» أهمية النشاط البحري لدول **الخليج العربي في مواجهة التحديات. محاضرات الموسمين الثقافيين السابع والثامن ١٩٧٤. ١٩٧٥.**

١٠١. **Landey, R.G.: Oman since 1856, Princeton, New-Jersey 1967, pp. 125- 131.**

١٠٢. **محمود طه أبو العلا: «أهمية النشاط.» ص ٦٥٤.**

١٠٣. خالد خليفة الخليفة: «تجارة البحرين».. ص ٤٠.

١٠٤. انظر اسماء هذه الشركات في: Cuinet La Turquie d Asie, op. cit tIII: V. pp. 246-247.

تسعينات القرن واستحوذت 4 مؤسسات أجنبية أخرى (١٠٥) على قسط آخر من هذه التجارة على حين لم ينتفع 4 تجار عرب الا بالفتات اذ كانت تجارتهم تقوم حسب العادة لا غير.

بالاضافة الى ذلك فان الحركة التجارية ذاتها أصبحت تضمنها بالميناء السفن والبواخر الأجنبية :

	عددها	نسبتها	وزن حمولتها (طنة)	نسبته
السفن الانكليزية	١٢١	١٣ر٩٪	١١٨٨٥	٢٥ر٩٠٪
سفن الساحل الشرقي من الخليج	٣٨٥	٤٤ر٣٪	١٩٤٥٠	٤٢ر٣٩٪
سفن عثمانية	٣٦٣	٤١ر٧٧٪	١٤٥٤١	٣١ر٦٩٪
الجملة	٨٦٩		٤٥٨٧٦	

حركة السفن الشراعية بميناء البصرة ـــ 1891 ـــ (106)

ان السفن الشراعية الأجنبية مثلت قرابة 5 / 3 من السفن النشيطة بالميناء (٥٨ر٢٢٪) فضلا عن أنها تكفلت بحمل أكثر من 3/2 حجم المبادلات مع العالم الخارجي (68,30٪).

و يزداد البون اتساعاً حين نتبين الحركة التي تقام بالبواخر اذ لم ترتد ميناء البصرة خلال نفس السنة سوى باخرة عثمانية واحدة حملت 1326 طنة، على حين ارتادت الميناء نفسه خلال السنة عينها 136 باخرة انكليزية حملت 122.540 طنة وهو ما مثل 98,92٪ من مجمل حمولة البواخر النشيطة بالميناء، وأن لفي ذلك أكبر دليل على التباين الواضح في مستوى المعاملات التجارية : ففضلا عن تأخر العدد الجملي للسفن والبواخر العثمانية (18ر36٪) ولا سيما البخارية منها (0,09٪) فان طاقة حمولتها(9,34٪) لا تنبوء الا بالانخرام في موازين القوى التجارية، وهو احتلال انتفعت منه القوى الأجنبية والانكليزية خاصة (79,19٪) من مجمل الحمولة :

	عددها	نسبتها	وزن حمولتها (طنة)	نسبته
السفن والبواخر الانكليزية	٢٥٧	٢٥ر٥٤٪	١٣٤٤٢٥	٧٩ر١٩٪
السفن والبواخر الخليجية	٣٨٥	٣٨ر٢٧٪	١٩٤٥٠	١١ر٤٥٪
السفن والبواخر التركية	٣٦٤	٣٦ر١٨٪	١٥٨٦٧	٩ر٣٤ ٪
الجملة	١٠٠٦		١٦٩٧٤٢	

جملة حركة السفن والبواخر بميناء البصرة ـــ 1891 ـــ (107)

والى جانب الأسباب التي سبق ذكرها، يعود هذا الاختلال أيضاً الى اعتبارات متعددة (تخلف تقني، نقص، تشجيع ...) لعل أهمها وأخطرها ما يتعلّق بالرسوم القمرقيه حيث كانت تعفى الصادرات العثمانية التي يشتريها التجار الانكليز من الرسوم اعفاء كاملاً على حين لا يدفع التجار أنفسهم على البضائع التي يبيعونها سوى ٣٪ وهي نسبة «أقل من 7٪ التي يدفعها التجار العثمانيون على بضائعهم التي سيبيعونها» (١٠٨)

ان هذه الأوضاع التجارية السيئة بالخليج لا سيما هيمنة الانكليز وغيرهم من التجار الأجانب على هذه التجارة هي التي حفزت الباب العالي والدبلوماسية العثمانية على النظر في الأمر بحزم. وتعتمد الخطة أول ما تعتمد على الدعوة الى تطوير التجارة بمنطقة الخليج، والاهتمام بهذا القطاع الحيوي لكسر الهيمنة البريطانية وتنشيط الحياة الاقتصادية بالمنطقة وتقوم مبادىء الخطة على تشجيع كل من يرغب في ارتياد الميدان التجاري وتسهيل الامكانيات له، وحماية التجار واعانة المتاجرين وازاحة كل ما من شأنه أن يعرقل هذا النشاط (١٠٩) كما نادت الخطة بالتخلي عن «البغضاء والحسد» الذين يعتبران السببين المانعين من تكوين الثروات الشرعية المشروعة (١١٠).

وفي الحقيقة، ففضلا عن طابع الخطة الاخلاقي، فانها لم تقدم عملياً الأدوات الفعلية التي يمكن أن تنمي التجارة بالخليج العربي وتطورها. فأية وسائل وطرق يتم اعتمادها ؟ وما من شك في أنّ انصباب اهتمام الدبلوماسية العثمانية بالنتائج قد أنساها الانكباب في البحث عن الوسائل. ان ما كان يلفت نظرها أكثر هو ثراء السكان و«اذا ما أصبح السكان أغنياء تصبح الدولة أكثر ثراء» (١١١) بفضل ما توفره لها شتى أشكال الضرائب والأتاوات.

٢ ــ من أجل ادارة عادلة ومنظمة

تكاثرت الانتفاضات في المنطقة العربية ضد الحكم العثماني مع أواخر القرن التاسع عشر تبعاً للعداء الذي طبع الصّلات بين العرب والأتراك ونتيجة لاعتماد سياسة قمعية تجاه كل نفس قومي ولتصفية الخصوم السياسيين، ولا نغالي اذا قلنا ان الولايات العربية كانت تعيش زمن السلطان عبد الحميد II في حالة غليان وفوضى زادها تعفّناً سلوك بعض الولاة العثمانيين وتعنّتهم وسوء تصرّف الموظفين وأخلاقيتهم المشينة. ولعلنا لا نخفي سراً حين نعلن أنّ هزّات عنيفة قد بيّنت سوء العلاقة بين الأتراك والعرب في الفترة الحميدية ولا سيما في العشرية

١٠٥. المصدر نفسه ص ٢٤٦ ـــ ٢٤٧.
١٠٦. المصدر نفسه ص ٢٤٩
١٠٧. المصدر نفسه ص ٢٤٩
١٠٨. هادي طعمة: الخليج العربي في الاستراتيجيات الاستعمارية والبريطانية خاصة: ص ٢١.
١٠٩. بصرة كورفزي ... ص ٧
١١٠. المصدر نفسه ص ٧
١١١. المصدر نفسه ص ٧

الأخيرة من القرن التاسع عشر: فمع مطلع التسعينات (١٨٩١) نشبت في اليمن انتفاضة شعبية كبيرة ضد السيطرة التركية وقد قاده الامام محمد بن يحيى وهو أحد ممثلي الأسرة الزيدية (آل حميد الدين) وقد تمكّن المنتفضون من محاصرة العاصمة صنعاء وخاصة الحامية التركية بها. وقد أجبرت النجدات التركية على الانتقال الى اليمن لفكّ الحصار(١١٢).

وقد عرفت قطر ما عرفته اليمن أثناء انتفاضتها ضد الحكم العثماني سنة ١٨٩٣ تحت قيادة قاسم بن محمد بن ثاني. وقد أجبرت القوات العثمانية على الانتقال الى شبه الجزيرة بقيادة والي البصرة نفسه في محاولة لاخماد الانتفاضة. الاّ أن انهزام الجيوش التركية جعل الباب العالي يعدّل من مواقفه فيبعث بممثلين عنه لتقصّي الأوضاع وتقديم تقرير في هذا الشأن(١١٣).

وفي واقع الأمر فان العشريّة الأخيرة من القرن التاسع عشر مثلت منعرجاً حاسماً في الشعور القومي العربي، اذ تعاظمت انتفاضاتهم المحلية (قبيلة أبو محمد ١٨٩٢ ... وغيرها) والجهوية (حلب ١٨٩٥) والقطرية (اليمن، قطر...) في محاولة لاثبات الذات أمام القمع الحميدي، ومنفذي الخطط الحميدية في الأقطار العربية.

ويعتقد واضع مشروع الخطة التي نحن بصدد دراستها، أن هذه الأوضاع السيئة لا بدّ لها من الزّوال. اذ لا يمكن أن تدار الولايات العثمانية «بالأمنيات» لا سيما الولايات البعيدة نسبياً عن مركز السلطنة مثل ولايات اليمن وطرابلس الغرب والعراق وضواحيها(١١٤) وترى الدبلماسية العثمانية في هذا الشأن أنه لا بد من القطع مع العنف نهائياً حتى يؤخذ السكان باللين والطواعية والعدالة والمساواة(١١٥) و يتخذ صاحب الخطة انكلترا نموذجاً له اذ هي «تسيّر أمور الطوائف والعشائر والبدو في مناطق متعددة بلين ولطف تاركة لهم الحرية التامة دون عراقيل ولا تدخلات»(١١٦) فهل اتعظ الباب العالي بدروس الماضي وحصيلة الحاضر؟ أم هو يرغب في تجنّب المشاكل التي يخلفها القمع المتتالي للمناطق التي هي تحت نفوذه؟ أم هو تكتيك لجلب أكبر قدر من المتعاطفين للتصدّي للأطماع الاستعمارية الأوروبية؟

وبداهة، لا بد من أن نتبيّن في هذا المجال التجديد في الخطاب السياسي العثماني وهو تجديد فرضته أوضاع الامبراطورية الداخلية وعدم قدرتها على صدّ النفس القومي الذي بدأ يتبلور أواخر القرن التاسع عشر، وهو نفس وان كان يرفض تسلّط الأتراك وهيمنتهم فانه يرفض في نفس الوقت الاحتماء بالمظلة الانكليزية (موقف قاسم بن محمد بن ثاني سنة ١٨٩٣ مع الانكليز، موقف محمد الصباح مع مقترحات الانكليز سنة ١٨٩٥).

كما فرضت هذا الموقف الأوضاع الدولية العالمية، اذ كانت الدول الأوروبية ولا سيما انكلترا تتحيّن الفرص للانقضاض على الأقطار الخليجية مستغلة أخطاء الدولة العثمانية من جهة وأخطاء ممثليها في هذه الأقطار من جهة ثانية. وتبعاً لما تقدم كانت دعوة الدبلماسية العثمانية تقضي أيضاً باعتماد الموظفين سلوك مثالي ومحترم.

و يبدو أن الادارة العثمانية كانت تشكو هي الأخرى، أوضاعاً سيئة، تمثّل السرقات(١١٧) والرشوة(١١٨) وتجاوز السلطة(١١٩) أحد أعمدتها الرئيسية ... وغير ذلك كثير(١٢٠). و يظهر أن بعض الموظفين السيئي السلوك، كانوا يرغبون في العمل بولايات البصرة والعراق لبعدها النسبي عن مركز السلطة والمراقبة (اسطنبول) حتى يتمكنوا من تغطية سرقاتهم(١٢١).

وفي واقع الأمر فانّ العديد من الوقائع والأحداث تثبت لنا صحّة مثل هذا التمشّي: فتؤكّد لنا بعض المصادر على تفشّي الرشوة مثلا في دار القمارق بالبصرة والعراق(١٢٢) وفي غيرها من الأماكن، اذ كان بالامكان ابتياع ضمير أي واحد من أصحاب الذوات حتى السلطان نفسه(١٢٣) كما تشير بعض المصادر الأخرى الى استبداد الولاة(١٢٤) واستنكار الأهالي لأعمالهم(١٢٥) بل أن البعض الآخر أقرّ نهائياً بأنّ الادارة في العراق كانت سيئةً «فلم يفدها تنبيه أو تهديد لا في أيام (بشري باشا) ولا في أيام غيره من الولاة»(١٢٦).

ونعتقد من ناحيتنا أن سوء أوضاع الادارة بالعراق، و بالبصرة (أثر انفصالها عن ولاية بغداد) لا يمثل استثناء فالادارة بالأقطار التابعة

١١٢. حول اليمن وانتفاضة ١٨٩١ ــ ١٨٩٢، انظر: فاروق عثمان أباظة: **الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٢ ــ ١٩١٨)** القاهرة، ١٩٧٥، ص ١٢٧.

١١٣. **أرشيف قصر يلدز**، قسم ١٤، أوراق ٢٥١، ظرف ١٢٦، ملف ٨ «قطر حادثة سنك وأسباب وصورت وقوعي» وكذلك. أحمد العنابي «الوجود التركي في قطر من ١٨٧١ ــ الى ١٩١٥» «**المؤرخ العربي**» عدد ١٢ ــ ١٩٨٠ ــ

١١٤. بصرة كورفزي... ص ٨

١١٥. المصدر نفسه ص ٨

١١٦. المصدر نفسه ص ٨

١١٧. المصدر نفسه، ص ٧

١١٨. المصدر نفسه، ص ٧

١١٩. المصدر نفسه، ص ٨

١٢٠. المصدر نفسه، ص ٧

١٢١. المصدر نفسه، ص ٧

١٢٢. حسين أحمد القهواتي: «أضواء»... ص ٢٩

١٢٣. لوتسكي: **تاريخ الأقطار العربية الحديث**. موسكو، ١٩٧١ ص ٣٨١.

١٢٤. عباس العزّاوي: **تاريخ العراق بين احتلالين (العهد العثماني الأخير)** بغداد، ١٩٥٦، ج ٨، ص ٨٣

١٢٥. المصدر نفسه، ص ٣٤.

١٢٦. المصدر نفسه، ص ١١٣.

للامبراطورية العثمانية كانت تعيش تقريباً نفس الأوضاع اذ يشير «بول كومبون» سفير فرنسا الى وزير خارجيّته سنة 1894 في معرض حديثه عن المسألة الأرمينية قائلاً... أنهم (الأرمن والجالية اليونانية، والألبان، والعرب..) جميعاً يشكون من فقدان العدالة ومن فساد الموظفين الحكوميين، ومن عدم الأمان الذي يهدد سلامة السّكان (١٢٧) وعلى الرغم مما يبدو في هذه الاشارة من تحامل غير خفي، الاّ أنّه لا بدّ من الاقرار بسوء وضعية الادارة العثمانية، وهو ما يتطلّب الاصلاح والتغيير.

وتقر الدبلوماسية العثمانية، هي الأخرى، بهذه الأوضاع السيئة وتعمل على تجاوزها في اطار هذه الخطة. فتدعو الى وقوف السلطة بحزم ضد سلوك الموظفين السيء لتلافي السرقات (١٢٨) والتعديات (١٢٩) حتى لا يجد الأوروبيون وخاصة انكلترا «عدو الامبراطورية الأكبر» تعلة يستغلونها للدعاية (١٣٠) بل ان الخطة تقضي أيضاً بأن يصبح الموظفون الأتراك مثالا للعمل والعدالة وتطبيق القوانين وهو ما يمكّن الامبراطورية من الاشعاع (١٣١) بالمناطق تحت السيادة العثمانية و بالمناطق المجاورة لها مثل مسقط و بلوجستان (١٣٢).

ولئن بدت اعترافات الدبلماسية العثمانية شيئاً ايجابياً في حدّ ذاته، اذ هو اقرار بمختلف الأخطاء التي ارتكبتها الادارة العثمانية في حق جماهير المنطقة الا أن الحلول لم تخرج عن الطابع الأخلاقي ذلك أن نداء الاصلاح هذا يصطدم في الحقيقة بواقع حياتي يعيش على الرتابة فضلا عن اصطدامه بقوى تسعى للحفاظ على مصالحها بمحافظتها على الوضع الراهن.

٣ ـ توجّه جديد في العلاقات مع العرب

لقد كانت وضعية مناطق مسقط وعمان بدرجة أولى ومنطقة الامارات العربية بدرجة ثانية مثار قلق الدبلماسية العثمانية، اذ يتبرم الباب العالي من عزوف هذه الامارات عن الدخول تحت حمايته. وفي الواقع، فقد حرصت هذه المناطق على استقلاليتها لولا الضغوط التي كانت تعيش والمتأتية من قبل الدول الهيمنية، على أن ضعف الامبراطورية وعدم قدرتها على ملء الفراغ الذي كانت تشكوه المنطقة، قد جعلها مسرحاً لتهافت القوى الاستعمارية، وقد حرصت انكلترا على ربط هذه المناطق بها حسب عقود واتفاقيات سلبتها حريّة تصرفها وألزمتها الامتثال الى ضوابط يحددها التاج البريطاني. وتعتقد الدبلماسية العثمانية أنه من المفارقة حقاً «أن تعادي البلدان المسلمة دولة الاسلام (أقرأ السلطنة العثمانية) على حين تقبل بعدو الاسلام (اقرأ انكلترا) صديقاً لها (١٣٣)».

وفي واقع الأمر، فان المسألة تتجاوز التجاوب الديني والميولات العاطفية لكي تنبني على قدرة هذه الدول على مواجهة التحديات الاستعمارية بذاتها ولذاتها، وعلى مدى مساهمة الامبراطورية في هذه المواجهة. انّ بلدان هذه المنطقة كانت تعيش تشتّتاً سياسيّاً زادته الخلافات الداخلية في صلب الأسر الحاكمة تأزماً، وهذا ما كان يقعدها فعلياً عن المواجهة. بل لقد وجد البعض منها في المظلة البريطانية ملجأ لفضّ قضايا التوريث والاستخلاف. ان تدخل بريطانيا المباشر في حلّ قضايا داخلية قد سمح لها فيما بعد بالظهور بمظهر الحكم بين الأفْرقاء بل والوصي عليهم وقد اتّسم موقف الباب العالي في هذا الخضمّ اما بمزيد تأجيج للفتن تارة أو بالصمت المشفوع بالتسليم بالأمر الواقع تارة أخرى، ولم يتبيّن للباب العالي من مواقف حازمة تجاه العنجهية البريطانية عدا بطاقات الاحتجاج ترسل بين الفينة والأخرى الى الخارجية البريطانية عند ما لا تحسن الدبلماسية الانكليزية تغطية تعدياتها بالمنطقة. وقد شجّع مثل هذا الوضع الانكليز على مواصلة غزوهم للمنطقة واخضاع شيوخها بالقوة أحياناً (حملات ارهابية..) و بالأساليب الدبلماسية أحياناً أخرى (دعم مالي، اتفاقيات...) مع الايهام دائماً باستقلالية السلطة المحلية عنها.

وفي واقع الأمر، فان الدبلماسية البريطانية، ولئن كانت تقرُّ رسمياً بأن حدود السيادة العثمانية تمتد على طول الساحل من البصرة الى القطيف (١٣٤) فانها تعتبر عملياً كامل منطقة الخليج العربي منطقة نفوذ بريطانية مواجهة في ذلك كل القوى الطامحة لاثبات مصالح لها بالمنطقة. أفلم تحاول بريطانيا ضمّ قطر الى دائرة النفوذ البريطاني والحال أنها كانت تخضع آنذاك (1893) للادارة العثمانية (١٣٥).

ان العجز الذي طبع التحركات العثمانية مثّل عاملا اضافياً سمح بتسرب بريطانيا الى بعض المناطق. بيد أنّ المسؤولية تبقى للقيادات السياسية بالأقطار العربية. فقد عاشت مثلا مسقط وعمان صراعاً أثر سنة 1856 بين أبناء سعيد بن سلطان وهو ما مكّن

---

١٢٧. أورده: Baron Ludovic De Contenson: Les reformes en Turquie dAsie: la question armenienne, la question, syrienne, Paris, 1913, p.3

١٢٨. بصرة كورفزي.. ص ٨

١٢٩. المصدر نفسه،ص ٨

١٣٤. لوريمر: **دليل**:.. ص ١٥٢٥ ــ ١٥٢٦ ــ (مراسلة سفير بريطانيا في الاستانة الى الخارجية العثمانية).

١٣٥. هادي طعمة: **الخليج العربي**... ص ٣١ ــ ٣٢.

١٣٠. المصدر نفسه ص ٧

١٣١. المصدر نفسه ص ٨

١٣٢. المصدر نفسه ص ٨

١٣٣. المصدر نفسه ص ٨

بـريـطـانـيـا مـن الـتـدخـل بـدعوى فضّ الخلاف (١٣٦) وقد تعهدت بـريـطـانـيـا فـيـمـا بعد (منذ 1873) بدفع مقادير مالية الى سلطان مسقط تـعـويـضاً عن ايقاف تجارة الرقيق وكوسيلة ضغط تعتمدها بريطانيا كلّما عنّ لها ذلك. وقد أبـقـت بـريـطـانيا في هذه المنطقة على الأسر الحاكمة الـعـربـيـة الـنشأة والمولد، بل وأقرت باستقلال نفوذها (اتفاقية 1862 مع فـرنسا) شريطة توقيعها على اتفاقيات تسلب هذه الأسر تصرفها السياسي. كـمـا لـم تـتـوان في التدخل مع مطلع السبعينات لتضع على العرش أحد المخلصين لها السلطان «تركي» (1871 ـــ 1888).

ان الدبلوماسية العثمانية التي كانت دوماً تعتبر منطقة مسقط وعـمـان دولة مـسـتـقـلـة عن الخلافة (١٣٧) أصبحت ترى مع أواخر القرن الـتـاسـع عشر ضرورة جلب هذه السلطنة الى دائرة التأثير العثماني. فما هي أسباب هذا التعديل؟ وما هي وسائل ذلك؟

ان الـبـاب الـعـالي أصبح يرى من الضروري تجميع كل القوى لمواجهة الهيمنة البريطانية وللوقوف ضد توسع نفوذها ولا يتأتى له ذلك الا بـتـألـيـب كـلّ القوى ضدّ السيطرة البريطانية المطلقة بالمنطقة. فضلا عن ذلك فانّ الباب العالي ما انفكّ يلمح الى ضرورة تجميع كلّ المسلمين رافعاً شـعـار «انما المسلمون أخوة» للتصدي للقوى الغربية «المسيحية» ولا يتمّ له ذلك الا باستفزاز مشاعر السكان الدينية منبهاً الى «خطر المسيحية على المنطقة ودور المبشرين وفساد الرهبان وتجاوزاتهم (١٣٨).

وفي الـواقـع فـانّ الدبلوماسيـة العثمانية كانت ولا شكّ على علم بأوضاع سلطنة عُمان السياسية و بالتنافس الحاد بين فرنسا و بريطانيا على المنطقة وهو ما حفّز الباب العالي على طرح هذه الورقة مجدّداً: ففي فيفري 1895، اسـتـطـاعـت انـتـفـاضـة عارمة احتلال العاصمة مسقط لمدة أسابيع وتـهـديـد عرش السلطان «فيصل»، الذي ما إن مرّت «العاصفة» حتى عـاد بـالـلائـمـة على الانكليز متهماً اياهم بالتقصير و بوقوفهم موقفاً حيادياً أثـنـاء الأحـداث (١٣٩). ومـا مـن شك في أن الدبلماسية العثمانية كانت تحاول استغلال هذا «البرود» في العلاقات بين السلطان والانكليز لكي تـدفـع الـسـلـطـان لاعـادة الـنظر في اتفاقياته مع بريطانيا وعلاقته المتميزة معها.

وتـقـتـضي الخطة محاصرة بريطانيا في مناطق جنوب الخليج العربي أيضاً ورفع «النجمة والهلال (العلم العثماني) بهذه المنطقة» (١٤٠) وذلك بـاقـنـاع سلطان عمان بالانضمام الى الامبراطورية برتبة حاكم على المنطقة عن رضى منه (١٤١).

و يـتـبـين لنا عند النظر الى هذا المقترح، أن الدبلوماسية العثمانية قـد تـكـون اتـعـضـت فـعـلـياً بدروس الماضي، ذلك أن تدخّلاتها المباشرة بـصـورة عـنـيـفـة في فترات سابقة لم تكسبها المهانة فحسب (أحداث قطر لـيـسـت ببعيدة، وهزائم الجيش العثماني أثناءها...) بل أورثتها ضغينة الـسـكـان وحـقـدهـم كذلك فضلا عن الخسارة السياسية. فمن الأكيد أن الـبـاب الـعـالي أصبح يقرّ بأن أحسن الوسائل التي تحفظ له ماء الوجه من جـهـة، وتمكنه من الابقاء على النفوذ المعنوي ودعم جبهة التصدي للوجود الـبـريـطـانـي في الخليج العربي من جهة ثانية، تتمثل في استدراج شيوخ الخليج وأمرائه وسلاطينه تحت المظلة العثمانية مع المحافظة على استقلاليتهم وذاتيتهم.

ومـن الأكـيـد أن مـثـل هـذا الـمـشـروع، ولـئن بدا منطقي المنهج متعضاً بالتجارب السابقة الا أنه لا يخلو من مثالية عند الانجاز. فهل كان يـكـفـي «تـأثير الـسـلـطـنـة المعنوي» لاعادة أقطار المنطقة الى الحضيرة الـعـثـمـانـيـة؟ وهل كان من الممكن أن تتخلى انكلترا بسهولة عن مناطق نفوذها التقليدية؟ لا نعتقد ذلك. فقد كان من باب «استسهال» الأمور وتـبـسـيطها اقرار الخطة بأن وضع بعض الموظفين النزهاء «ونظيفي اليد»، في المـنـاطـق يكفي وحده لاعادة التأثير العثماني عليها. فالتجارب المعاشة والسيرورة التاريخية كانت أفصح من الأمنيات.

٤ ـــ ايجاد قوة بحرية في الخليج

لـئـن بـقـي الجـيـش الـبـرّي الـعـثـمـاني منظماً ومهيكلا في سبعة ألـويـة (١٤٢) حـتـى أواخـر القرن التاسع عشر، فان البحرية العثمانية قد بـدت هـزيـلـة وغير ذات قيمة بفعل الضربات التي تلقتها أثناء حروبها الأخـيـرة مـع روسيا ومع اليونان (حرب كريت). فلا يتجاوز عدد جنود الـبـحـريـة ثـلاثين ألـف في أقصى الحالات اضافة الى عشرة آلاف من الـنـوتـيـة، ذلـك أن أغـلـبـيـة التجهيزات البحرية كانت ما تزال شراعية تـقـلـيـديـة. فضلا عن ذلك فان جلّ هذه السفن كان معطباً وغير قادر على النشاط. ولم يكن مرفأ اصلاح السفن الوحيد الموجود باسطنبول قادراً على تـشـغـيلها. وما من شكّ في أنّ الحروب المتتالية والخسائر العسكرية المنجزة

١٣٦. مثلت بريطانيا دور الحكم في هذا الخلاف حيث أسندت الى ثويني مسقط على حين احتفظ أخوه خالد بجزر زنجبار (التي كانت تحت نفوذ مسقط) على أن يدفع الثاني لأخيه تعويضاً مالياً سنوياً.

١٣٧. ج. كيلي: **بريطانيا**... ص ٦٣٩.

١٣٨. بصرة كورفزي... ص ٩.

١٣٩. لوريمر:... **دليل**... ص ٤٨٠.

١٤٠. بصرة كورفزي.... ص ٩.

١٤١. المصدر نفسه ص ٩

١٤٢. ان القوات العسكرية بالخليج تنتمي الى لواء بغداد. انظر حول القوات البريّة بالخليج:

V. Cuinet: La Turquie dAsie, op. cit III, pp. 216-217

عنهـا، وعدم القدرة على تجديد الأسطول وتعويض قطعه، قد جعلت منه اسطولا محدود الفاعلية وهذا ما دفع بالبعض الى القول بأن الامبراطورية لئن كانت تملك تجهيزات بحرية فانها لا تملك اسطولا (١٤٣).

زيادة على ذلك فان الأسطول العثماني المتكون من بعض الوحدات كالحرّاقات وسفن النقل، والمدرّعات والطرّادات، (وهي المانية وانكليزية الصنع) لم يكن مجال اهتمامه يتجاوز مضيقي البوسفور والدردنال وربما بعض الموانيء المتوسطيّة (ازمير) و يعني ذلك أن نشاط هذه الوحدات لا يشمل أطراف الامبراطورية الا لماماً. فلم تعرف منطقة الخليج تبعاً لذلك قوة بحرية عثمانية حقيقية وثابتة، ووقع الاكتفاء بارسال بعض الزوارق الخفيفة التي لا يمكن لها بأي حال مجابهة البواخر الانكليزية ووحداتها الضخمة. لقد طمأنت هذه الوضعية الانكليز فلم يروا لهم من منافس سوى القوى الاستعمارية الأوروبية. وقد تكشفت الدبلماسية العثمانية عن هذه الثغرة مأخراً فأقرت بالأوضاع السيئة لأسطول الخليج العربي(١٤٤)، وتبعاً لذلك اقترحت التفكير بجديّة في بعث اسطول بالخليج العربي يتكون من بعض الزوارق الجديدة السريعة وبعض القطع الحربية الموجودة بالمنطقة بعد ترميمها (١٤٥) و يسهم مثل هذا المسعى بتعزيز شعور الاطمئنان لدى السكان في اطار الخطة «المبرمجة» اذ سيتنبهون الى أن «رعاية السلطان تحرسهم (١٤٦) اذ تقوم هذه الوحدات بزيارات الى الموانيء العثمانية وغيرها من موانيء الخليج وتعمل كذلك على التنقّل حسب المواسم حتى الى بحر الهند رافعة العلم العثماني. كما تقوم هذه الوحدات بحراسة السفن التجارية من القراصنة (١٤٧) ومن الجائز أن يكون اعتماد مثل هذه التعلة الأخيرة للاستهلاك الدعائي فحسب.

يبقى أشكال اخير ماثلا وهو الخاص بامكانيات الباب العالي في اقتناء بعض الوحدات. فهل كانت امكانياته المالية تسمح له بذلك؟ وهل كانت له الكفاءات القادرة على تسيير هذه الوحدات؟ أم أنه سيضعها بين أيدي الضباط الألمان كما حدث في حربه الأخيرة مع اليونان حول جزيرة كريت. ان الوثيقة التي بين أيدينا لا تجيب عن ذلك.

٥ ــ العمل على تطوير منطقة الرافدين وشط العرب

مثلت منطقة الرافدين وشط العرب مركز صراع دولي لا سيما بين بريطانيا والباب العالي وأصبحت الدبلماسية العثمانية تعتقد ــ عن صواب ــ أن قضية الرافدين وشط العرب هي قضية مصيرية للوجود العثماني بالمنطقة وهذا ما يفسر أهمية المسألة القصوى (١٤٨).

و يتكون شط العرب من اقتران نهري دجلة والفرات في القرنة، فيجري من هناك في اتجاه الجنوب الشرقي لكي ينصب في الخليج العربي. وقد كان هذا الشط ــ وما يزال ــ مثار اهتمام القوى بالمنطقة لا سيما أنه يرتبط بأنهار قامت فيها تجارة نهرية متطورة. فقد سمح فرمان سلطاني منذ 1834 بانزال باخرتين بريطانيتين الى نهر الفرات. و بغضّ النظر عن الملابسات الجغرافية والقانونية (١٤٩) فان شركة «لنج» قد أصبحت تحتكر التجارة عبر النهرين منذ تأسيسها 1862 ــ تحت اسم «شركة دجلة والفرات للملاحة التجارية» (١٥٠) مستعملة باخرتين تربطان البصرة ببغداد ذهاباً واياباً. وقد اتسعت نشاطات هذه الشركة منذ فتح نهر قارون للملاحة (1888) فصارت الشركة نفسها صاحبة الامتياز في استغلاله.

ومن الأكيد أن الحكومة البريطانية كانت ترى بعين الرضى توسع نشاطات الشركة واتساع نفوذها ومشمولاتها. بل أن الحكومة البريطانية كانت تقدم للشركة اعانات مالية حتى تواصل عملها (١٥١) ذلك أن انكلترا تعتبر أن وجود هذه الشركة وغيرها من الشركات المستثمرة ستفتح الطريق أمام جيوشها عند الحاجة. وتبعاً لأهمية المنطقة، تواصلت المفاوضات بين بريطانيا وتركيا أكثر من خمس عشر سنة (١٥٢) حول المسألة وهو ما دفع الباب العالي مؤخراً الى اقامة بعض الاستحكامات الدفاعية على الشط في منطقة الفاو (1883 ــ 1894) والدعوة الى اعادة النظر في الامتياز السلطاني الذي أسند للشركة.

ان هذه الاعتبارات وغيرها قد تكون حفّزت العثمانيين أيضاً على الاهتمام بالنشاط التجاري على الرافدين وفي منطقة الشط. ففي نفس السنة التي باشرت فيها شركة «لنج» عملها بالأنهار، انشأت الحكومة العثمانية خطوط بواخر منتظمة بين بغداد والبصرة (١٥٣). كما تشير بعض المصادر الأخرى الى تأسيس شركة ملاحة عراقية برأس مال

---

١٤٣. H.Mathieu:La Turquie et ses differents peuples, Paris,II, p. 291

١٤٤. بصورة كورفزي.... ص ١٠

١٤٥. المصدر نفسه ص ١٠

١٤٦. المصدر نفسه ص ١٠

١٤٧. المصدر نفسه ص ١٠

١٤٨. محمود علي الداود: **محاضرات عن الخليج العربي**... ص ٤١.

١٤٩. انظر في هذا الشأن: ج. أ. القهواتي: «أضواء.... ص ٢٤.

١٥٠. أرنولد و يلسن: الخليج العربي... ص ٤٢٤.

١٥١. لوريمر: **دليل**.... ص ٤٩٠.

١٥٢. م. ع. الداود: **محاضرات**... ص ٣٩.

١٥٣. لوتسكي: **تاريخ الأقطار**... ص ١٧٢.

محلّي وحكومي بدأت نشاطها بين البصرة و بغداد منذ 1859 ، الا أن نشاطها كان محدوداً اذ اقتصر على نقل المسافرين والبريد (١٥٤) . ثم أعيدت التجربة مجدداً سنة 1867 باستخدام شركة الادارة النهرية لثلاث سفن (١٥٥) على أن مصير أغلب هذه الشركات كان الأفول : فالبواخر كانت بطيئة في تنقلها مقارنة بالبواخر الانكليزية ، وكانت كذلك قليلة الحمولة ومنعدمة التعهّد اضافة الى منافسة السفن الشراعية المحلية (800) التي كانت تقوم بالتجارة على السواحل (156) لها .

وقد عمل الباب العالي مجدداً بمعيّة السلط الجهوية العثمانية على بعث شركة ملاحة تضاهي الشركة البريطانية وتنافسها فأعلن سنة 1892 عن انشاء شركة عثمانية للملاحة التجارية في نهر دجلة (١٥٧) بتزكية من السلطان العثماني ذاته و برأس مال يناهز مليوني فرنك (١٥٨) الا أن العقبات أرجأت المشروع وربما أوقفته (١٥٩) .

وتدعو الخطة التي نحن بصدد عرضها الى انشاء شركة ملاحة نهرية على النهرين وشط العرب وهي في ذلك تجدد العهد مع مختلف المشاريع السابقة . وتعتبر بالانعكاسات الاقتصادية الطيبة لمثل هذه المشاريع كازدهار النشاط الفلاحي ومن ثمّة تكثيف مداخيل الدولة (١٦٠) اضافة الى امكانية تنشيط العلاقات مع المناطق المجاورة لا سيما المناطق المحاذية لنهر قارون ومدينة المحمّرة (١٦١) على أن أكبر اهتمامات الدبلماسية العثمانية ساعتئذ تتمثّل في فتح النهرين وشط العرب للنشاط الحربي العثماني حيث يمكّن النهران من نقل العتاد والجيوش من المناطق الداخلية (فيلق بغداد) الى خليج البصرة بأسرع وقت (١٦٢) و يبدو أن التوجه لم تفرضه الظروف الجغرافية وصعوبة التنقل البرّي فقط ، وانما الظرفية السياسية كذلك . ان كثرة الانتفاضات ضد الوجود العثماني بالمنطقة ، والتسرّب البريطاني بالمناطق المجاورة (نهر قارون) قد حفزا الباب العالي والدبلماسية العثمانية على استنباط وسائل للاسراع بتحويل الجيش الى المناطق الساخنة عند الحاجة .

ومن الأكيد أن الدبلماسية العثمانية العارفة بتدهور أوضاع المالية العثمانية قد أخذت بعين الاعتبار هذه المعطيات فقامت بدراسات متعددة حتى تتبين الأنسب من البواخر لاعتمادها في هذه التجربة الجديدة فاختارت أقلّها تكلفة وأكثرها ملاءمة لحمل الجنود ـــ أولا ـــ (١٦٣) والأمتعة والحيوانات والمسافرين ، وتعلن أن ثمن الواحدة لا يمكن أن يتجاوز ألفاً الى 1500 ليرة عثمانية على أن يتم اعتماد مرحلية في بنائها . فتصنع أولا 5 سفناً مزودة بمدافع و15 سفينة عادية (١٦٤) وفي ذلك كفاية ـــ حسب واضعي الخطة ـــ لتنشيط المنطقة ، ومراقبتها على أن تعود السفن بالنظر الى وزارة المالية (١٦٥) .

ان هذه المسألة وان بدت واضحة في توجّهها عملية في انجازها ، الا أنها محدودة في امكانياتها : فهل يكفي 1000 ليرة لاقتناء بواخر تنافس البواخر البريطانية ؟ وهل يمكن لهذه البواخر أن تكون متعددة النشاطات والاختصاصات ؟ فلئن أقرت الدبلماسية العثمانية بأن الباب العالي وتخصيصاً وزارة البحرية لم يفعلا شيئاً من أجل المنطقة (١٦٦) فهل تقدر مثل هذه المؤسسة المزمع بعثها القيام بكل شيء ، وفي نفس الوقت ؟ ان حجم المواجهة يفترض في نظرنا حسن تدبير يتم ربطه أكثر بالواقع .

٦ ـــ تطوير المواصلات بين الخليج العربي ومركز الخلافة

لقد مثّل ربط مركز الخلافة بأطراف الامبراطورية هاجس الدبلماسية العثمانية نظراً لأهمية طرق المواصلات البرية من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، ولعلنا لا نذيع سراً حين نبين أن القوى الهيمنية قد استغلت هذا الانحلال في العلاقات بين الامبراطورية و ولاياتها لكي تتسرّب تدريجياً الى المنطقة . ولا بد لنا أن نقرّ أيضاً بأن طرقاً بريّة كانت تربط هذه المناطق بعضها بالبعض الآخر (طريق التوابل والحرير تربط اسطنبول بمناطق الشرق القديم) الا أن استعمال هذه الطرق كان غير قار ، فكان يحصل أن تتحوّل مواقع هذه الطرق واتجاهاتها حسب الفترات الزمنية ، من ذلك مثلا أن طريق الهند الذي يعتبر أهم المسالك على الاطلاق ، اتخذ مسلك الهضبة الايرانية في البداية لكي يغيّر اتجاهه فيما بعد نحو العراق عبر الخليج العربي ، ومنها الى الأناضول في اتجاه اسطنبول (١٦٧) ، الا أن هذا الممرّ ذاته لم يحافظ على نشاطه منذ فتحت قناة السويس وربما حتى قبل هذا التاريخ ، اذ أصبح طريق الهند بحرياً يمرّ بالخليج فالبحر الأحمر ثم الى البحر الأبيض المتوسط عبر القنال .

وفي محاولة لتنشيط الطريق التقليدية وربط مركز السلطنة بمنطقة الخليج العربي تقترح الخطة تعهّد الطريق «تيمور ـــ الأناضول» واتمامه

١٥٤ . ج . أ . القهواتي : «أضواء.... ص ٢٥ .

١٥٥ . المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

١٥٦ . V. Cuinet: La Turquie dAsie, op.cit, III, p. 244

١٥٧ . لوريمر: دليل ... ص ٤٦٠ .

١٥٨ . V. Cuinet: La Turquie dAsie, op. cit, III, p. 246

١٥٩ . لوريمر: دليل ... ص ٤٦٠ .

١٦٠ . بصرة كورفزي ... ص ١١

١٦١ . المصدر نفسه ص ١١

١٦٢ . المصدر نفسه ص ٨٨

١٦٣ . المصدر نفسه ص ١٠

١٦٤ . المصدر نفسه ص ١٠

١٦٥ . المصدر نفسه ص ١٠

١٦٦ . المصدر نفسه ص ١١

١٦٧ . Afet Inan: Apoercu general sur lhistoire economique, de lempire Turc-Ottoman, Ankara, 1976 (2 edition), p.81

لكي يصل بغداد فالبصرة (١٦٨) وترى الدبلماسية العثمانية ــ وهي محقّة في ذلك ــ أن تعهّد هذه الطريق سيمكّن من ربط أجزاء الامبراطورية بعضها بالبعض الآخر و يعيد لحمة الامبراطورية فضلا عن الامكانيات المتاحة لتنشيط الاقتصاد والمعاملات التجارية. وقد راهنت الدبلماسية العثمانية على أن الخط الرابط بين مركز الخلافة من جهة والخليج من جهة ثانية سيكون له أهمية قصوى لا تعادلها سوى أهمية الطريق الرابط بين منشوريا و بحر الصين مروراً بسيبيريا (١٦٩).

وفي نفس هذا التوجه، اقتضت الخطة العمل على تطوير الطرق الحديدية لا سيما أن الامبراطورية كانت ساعتئذ حضيرة كبيرة وضخمة لانجاز مشاريع سكك الحديد، وهي مشاريع كانت تصوغها بالأساس القوى الاستعمارية الأوروبية لفائدتها الخاصة ولم يكن الباب العالي يجني منها سوى النزر القليل، بل ربما لم تستجب هذه المشاريع بالضرورة لصالح الامبراطورية (١٧٠).

و بغضّ النظر عن مختلف الملابسات الحافّة بانجاز السكة الحديدية أو أيّة مرحلة منها، والظروف التي تمّت فيها، و بغضّ النظر عن المنافسة الدولية بين القوى الأوروبية من أجل الفوز بامتياز اقامتها، فان طول مسافة هذه الخطوط (2542 ميل حتى 1898) عبر مناطق الامبراطورية، يكشف عن اصرار القوى الهيمنية على تكثيف تدخّلها عبر هذا المنفذ وحرصها على تثبيت مصالحها بالامبراطورية. ومن الحريّ بنا أن نبيّن كذلك أنّ مدّ سكة حديد من الخليج العربي في اتجاه اسطنبول أو البحر الأبيض المتوسط قد كان محلّ صراع بين القوى الاستعمارية، وقدمت في هذا الغرض مشاريع دولية متعددة (١٧١) وتماشياً مع هذا التوجه العام تعتقد الدبلماسية العثمانية في ضرورة ربط المنطقة بالمركز (اسطنبول) وليس ذلك لاعتبارات اقتصادية فحسب، وانما أيضاً لاعتبارات سياسية وعسكرية، اذ يريد الباب العالي بفضل هذه السكّة أن يستعيد نفوذه بالمنطقة و يربط أطراف الامبراطورية بالسلطنة، فضلا عن الامكانات المتاحة لنقل العتاد والجنود عند الحاجة. وفي هذا الاطار يتنزل تأكيد الخطة على ضرورة انجاز سكة حديد (حيدر باشا ــ البصرة) (١٧٢). وفي واقع الأمر فان جزءاً من المشروع كان قد أنجز فعلياً منذ 1892 حيث قامت «شركة حديد الأناضول» بفضل امتياز حصلت عليه منذ 1888 بمدّ الخط ما بين حيدر باشا وازميت ومن ثمة الى أنقرة على امتداد قرابة 578 كلم (١٧٣) ثم انتفعت الشركة ذاتها بامتياز ايصال الخط نفسه الى قونية (535 كلم) وهو ما تم سنة 1895، وتزايدت المطامع الألمانية أكثر للحصول على امتياز نهائي يقضي بايصال السكة الى بغداد، وهو امتياز آثار منافسة حادة بين الدول مما أخّر العمل على انجازه.

ومن البيّن أن الدبلماسية العثمانية باقتراحها تدعيم طرق المواصلات البرية والحديدية مع الخليج، كانت ترغب في اثبات الحضور العثماني بأكثر كثافة في المنطقة وفي ربط المنطقة نهائياً بمركز الخلافة والعمل على ايجاد التجهيزات الأساسية التي تمكّنها فعلياً من نقل العتاد والجيش عند الحاجة بأسرع وقت. بيد أن مثل هذه المشاريع تتطلب بالضرورة استثمارات جدّ كبيرة لا يمكن للامبراطورية أن توفرها دون التعويل على الرساميل الأجنبية لا سيما الألمانية منها.

خاتمة

أخذت وضعية الامبراطورية العثمانية منعرجاً خطيراً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وخاصة منذ ارتقاء عبد الحميد II الى السلطة وايقاف العمل بالدستور اذ قصد الباب العالي صهر كل الطاقات في بوتقة واحدة وتذو يب كل نفس قومي واعتماد سياسة القمع لانجاز هذا التوجه. وما من شك في أن مثل هذا التوجّه سيجد معارضة كبيرة حاول الباب العالي تفكيكها بالدعوة الى ما اصطلح على تسميته بوحدة المسلمين في اطار «الجامعة الاسلامية». فمنذ أن اسندت الصدارة العظمى الى خير الدين التونسي (1879) تبين للجميع أن السياسة الحميدية كانت تراهن على دغدغة الشعور الديني حتى تلقى المساندة والدعم. فلئن كان عدد المسلمين بتركيا لا يتجاوز 18 مليون فرد مع أواخر القرن التاسع عشر، فان الخلافة كانت تطمح عند رفعها هذا الشعار الى مساندة 250 مليون مسلم من مختلف الجنسيات والقوميات لسياستها. فهذا الدعم هو الذي سيكفّل لها حسب اعتقادها التصدي للمطامع الأجنبية، لا سيما الانكليزية منها. أن المسار الذي اتخذه الباب العالي كان ينحو في الواقع الى تجميع كل القوى المعادية للغرب الاستعماري دون أن يقدم الى هذه القوميات ما كانت تتوق اليه من مساواة وعدالة

---

١٦٨. بصرة كورفزي..... ص ١١

١٦٩. المصدر نفسه ص ١١

١٧٠. Afet Inan: Apercu general sur lhistoire economique, op. cit. p. 85

١٧١. حول مختلف هذه المشاريع وما كان حولها من ملابسات انظر: م. ع. الداوود: **محاضرات**..... ص ١٨٨، وما بعد ذلك، وكذلك ع. نوار: **تاريخ العرب المعاصر: مصر والعراق**، بيروت، ١٩٧٣، ص ٤٣٥ ــ ٤٣٦. وكذلك نوري عبد البخيت «روسيا ومشروع سكة حديد بغداد» «**المؤرخ العربي**» عدد ١٥، ١٩٨٠.

١٧٢. بصرة كورفزي.... ص ١١

١٧٣. V. cuinet; La Turquie dAsie, op. cit. IV, p.336

وحرية .. وقد تجاذبت تركيا آنذاك ثلاثة تيارات فكرية : تيار يعتقد في ضرورة وحدة كل القوميات داخل الدولة العثمانية ، وهذا التيار لم يعد يحظى بالانتشار الذي كان عليه في الفترات السابقة . أما التيار الثاني وفيه أقليّة فقد بدأ يطالب في احتشام بطغيان القومية التركية القائلة بتفوق العرق التركي على بقية الأجناس . أما التيار الثالث وهو الأكثر رواجاً فيؤكد ضرورة اقامة صرح الدولة على وحدة المسلمين وتكاتفهم وان أدى ذلك الى قمع القوميات التي لا تدين بالاسلام (١٧٤) .

ولئن كشف الواقع التاريخي محدودية التيار الأول بل و بطلانه ، ولئن بدا طرح التيار الثاني حديثاً واقصائياً ، فقد عملت السلطة العثمانية على ترويج « العملة » الأكثر رواجاً وتداولا . وقد بهرت هذه « العملة » في البداية جزءاً من العرب المسلمين الا أنّه سرعان ما تبيّن زيفها اذ عجزت الامبراطورية عن القيام باصلاحات قد تعود على متساكنيها بالفائدة بل أن العرب قد عاينوا عجز الباب العالي عن الدفاع عن ذاته وردّ الطامعين في تركته .

أما العثمانيون، فقد ساير جلّهم هذه الدعوة واعتبروها خلاصاً لأركان الامبراطورية وتتنزل هذه الخطة في هذا الاطار، حيث أصبحت الدعوة الى « لمّ المسلمين » وتوحيدهم تحت الراية العثمانية « الكلمة السحرية » التي ستنقذ الامبراطورية من التداعي . بيد أننا نجانب الصواب ان لم نثبت أن بالخطة تجديداً هاماً لا بد من اقراره . فهل كان الارتقاء الى منصب سفارة لندن وحده دافعاً لطرح بعض التجديدات ؟ وهل كان الوصول الى مثل هذه الرتبة الدبلماسية كفيلا بالاجتهاد في حدّ ذاته ؟ . ان المتأكد لدينا أنّ هذا المنصب كان يسمح بالاطلاع عن كثب على مجريات العلاقات الدولية وتطوراتها على أننا نعتقد أكثر أن الخطة تدخل في اطار هذه الموجة الجديدة للفكر الاصلاحي بالامبراطورية هذه الموجة التي ظهرت منذ ستينات القرن التاسع عشر وتدعمت مع أواخر القرن بانشاء فرع سالونيك (1895) وهي التي كانت نواتها تتمحور حول بعض الموظفين والضباط الأتراك و بعض المثقفين « الأحرار » ، فقد ساء هؤلاء ما وصلت اليه الامبراطورية من حالة سيئة وساءتهم هيمنة الدول الاستعمارية على أطراف الامبراطورية وتغلغل الرأسمال الأجنبي وانتفاعه بامتيازات مذلة للامبراطورية ، فبادروا بتأسيس جمعيات كانت ذات نفس ليبيرالي في البداية ثم تطوّرت مع مطلع القرن العشرين الى نعرة قومية تركية .

ان النفس الاصلاحي الليبرالي يمكن لنا أن نستشفه هي الخطة التي قدمت للباب العالي : اذ أنها تقضي في المستوى الداخلي بالعمل على تطوير الاقتصاد وذلك بالاعتماد على الامكانيات الذاتية وابعاد المنافسة الأجنبية في المستوى الاقتصادي وتنظيم الادارة ، والقضاء على الفساد فيها ، وتحرير التجارة من القيود التي تعيقها ... الخ ، أما على المستوى الخارجي فالخطة تدعو الى التصدي للقوى الهيمنية والتعامل بندية مع القوى العربية المحلية المستعدة لمواجهة هذه القوى الاستعمارية والتخلي عن أساليب العنف في التعامل مع المناطق التي يشرف عليها الباب العالي ... الخ أن مجمل هذه المقترحات لا تمثّل في واقع الأمر سوى صدى لمقولات « اليكي عثمانلر » (العثمانيون الجدد) بل أن البعض من هذه المقترحات قد شرع في انجازها لفترة وجيزة بعض ولاة العراق المحسوبين عادة على الاصلاح (مدحت باشا) .

١٧٤ . حول هذه التيّارات الثلاث وتطوّراتها انظر :

Francsis Georgeon: Aux origines du nationalisms turc: Yusuf Akcura, Paris, 1980, pp. 17-18.

قائمة المصادر والمراجع

١ . المصادر الوثائقية (وثائق غير منشورة)

أرشيف قصر يلدز (اسطنبول) .

ــ بصرة كورفزي وحكومة ينه ايله انكلترا نلك مناسباتي حقندة به لايحة بندة طانة» قسم ١٤ أوراق ٢٥٥ ظرف ١٢٦ ملف ٨ .

ــ بصرة سنجق احتياجات واصلاحات دائرة لائحة در «قسم ١٤ ــ أوراق ١٠/٨٨، ظرف ٨٨ ملف ١٢» .

ــ «قطر حادثة سنك وأسباب وصورت وقوعي» قسم ١٤ أوراق ٢٥١، ظرف ١٢٦ ملف ٨

٢ . المصادر باللغة العربية

+ أباظه (فاروق عثمان) : الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٢ ــ ١٩١٨) القاهرة ١٩٧٥ .

+ ابراهيم (عبد العزيز عبد الغني) : حكومة الهند البريطانية ــ الادارة في الخليج ــ دراسة وثائقية، الرياض، ١٩٨١ .

+ أبو العلا (محمود طه) «أهمية النشاط البحري لدول الخليج الخليج العربي في مواجهة التحديات. محاضرات الموسمين الثقافيين ٧٤ و١٩٧٥. الكويت ١٩٧٥ .

+ ادموف (الكسندر) : ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها. ترجمة هاشم صالح التكريتي بغداد، ١٩٨٢ .

+ أمين (عبد الأمير محمد) : المصالح البريطانية في الخليج العربي. ترجمة هاشم كاظم لازم البصرة، ١٩٧٧ .

+ البستاني (بطرس) دائرة المعارف بيروت ١٩٠٠ .

+ التكريتي (برازان) الصراع الدولي في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي وتأثيره على أقطار الخليج العربي. بغداد، ١٩٨٢ .

+ التميمي (حميد أحمد حمدان) «البصرة في عهد الاحتلال البريطاني (١٩١٤ . ١٩٢١) بغداد ١٩٧٩» .

+ الخترش (فتوح عبد المحسن) : تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية الكويت ١٩٧٤ .

+ الخصوص (بدر الدين عبّاس) : دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر. الكويت ١٩٧٨ .

+ الخليفة (خالد خليفة) تجارة البحرين منذ فتح العتوب وحتى ظهور النفط» الوثيقة عدد ٧ السنة الرابعة ١٩٨٥ .

+ الداوود (محمود علي) : محاضرات عن الخليج العربي والعلاقات الدولية (١٨٩٠ ــ ١٩١٤) القاهرة ١٩٦١ .

+ الداوود (محمود علي) : الخليج العربي والعلاقات الدولية القاهرة، ١٩٦٠ .

+ الزيدي (عبّاس ياسر) «القوى الاستعمارية والخليج العربي ١٦٠٠ ــ ١٩١٤» المؤرخ العربي عدد ١٢ ١٩٨٠ .

+ الشريف (وليد) «الاتحاد السوفياتي ومنطقة الخليج العربي «مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد ٥ ١٩٧٦ .

+ طعمه (هادي) : الخليج العربي في الاستراتيجيات الاستعمارية والبريطانية خاصة. بغداد ١٩٧١ .

+ عبد البخيت (نوري) «روسيا ومشروع سكة حديد بغداد» المؤرخ العربي عدد ١٥ ١٩٨٠ .

+ عبد الله (محمد مرسي) : دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها. الكويت ١٩٨١ .

+ العزاوي (عباس) تاريخ العراق بين احتلالين بغداد ١٩٥٦، ج ٨ .

+ العقّاد (صلاح) التيارات السياسية في الخليج العربي. القاهرة ١٩٧٤ .

+ العتابي (أحمد) «الوجود التركي في قطر من ١٨٧١ الى ١٩١٥ «المؤرخ العربي» عدد ١٢ ١٩٨٠ .

+ الفيل (محمد رشيد) «الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي» . الخليج العربي في مواجهة التحديات محاضرات الموسمين الثقافيين ١٩٧٤ و١٩٧٥. الكويت ١٩٧٥ .

+ القهواتي (حسين أحمد) «أضواء على تجارة البصرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر» . الخليج العربي مجلد ١٢ عدد ٢ ١٩٨٠ .

+ كيلي (جون) : بريطانيا والخليج ١٧٩٥ ــ ١٨٧٠. ترجمة محمد أمين عبد الله عمان .

+ لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديثة. موسكو، ١٩٧١ .

+ لوريمر (ج . ج) : دليل الخليج. ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر. الدوحة ١٩٦٧ .

+ النجّار (مصطفى عبد القادر) التاريخ السياسي لعلاقات العراق

الدولية بالخليج العربي البصرة ١٩٧٥.

+ النجّار (مصطفى عبد القادر): شركة الهند الشرقية ملاحها وأبرز سماتها في الخليج العربيّ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد ١٥ ١٩٧٨.

+ النجّار (مصطفى عبد القادر) دراسات في تاريخ الخليج العربي المعاصر القاهرة ١٩٧٨.

+ نخلة (محمد عرابي): تاريخ الاحساء السياسي. الكويت، ١٩٨٠.

+ نوّار (عبد العزيز): تاريخ العربي المعاصر: مصر والعراق. بيروت، ١٩٧٣.

+ ويلسون (ارنولدت): الخليج العربي مجمل تاريخي من أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين نقله الى العربية عبد القادر يوسف ـ. الكويت.

٣. المصادر باللغة الأجنبية:

— ALI (AHMET) : *Le Developpement Economique en Turquie.* Paris, 1981.
— Belgrave (Charles): *The pirate coust.* Beirut, 1972.
— BERNARD (V): *Le sultan, l'Islam et les puissances.* Paris, 1907.
— CUINET (Vital) : *La Turquie d'Asie, Geographie administrative.* Paris, 1893. T III ET IV
— Curzon (C.N): *Persia and The Persian Question* London, 1892
— De conten son (Barou Ludovic): *les Reformes en Turquie d'Asie, la question Armenienne, la question syrienne.* Paris, 1913
— De La Tour (J.I) : Les rivalites Internationales en perse et dans le golfe persique "*inrevue de Geographie.* Juilet Decembre 1902.
— DJUVARA (T.G) : *Cent projects de partage de la Turquie (1281 - 1913).* Paris, 1914.
— DUNN (A.J) "BRITISH INTERESTS In The persian Gulf" in *General Asian Society Journal,* 1907
— EARL (EDWARD) *Turkey and The Great Powers and the Baghdad Railway.* New-York, 1923
— GEORGEON (Francais) *aux Origines du nationalisme Turc: Yusuf Akcura.* Paris, 1980.
— Inan (Afet) : *Apercu General Sin l'histoire Economique de l'Empire Turc-Ottoman.* Ankara, 1976 (2e Edition)
— LANDEY (R.G): *Oman Since 1856.* New Jersey, 1967
— MATHIEU (H): *La Turquie et ses Differents Peuples, (2 Volumes)*
— Payen (F): "Les Rivalites politiques authour du Golfe persique" in *Annales des Sciences politiques,* 1901, XVI
— Sadun Are: "Le probleme de l'industrialisation dans l'empire Ottoman au XIX S" in *Economic et Societe dans l'empire Ottoman (fin XVIII - Debut XX Siecle).* Paris, 1983.
— SALGUR KANCAL; "La Conquete du Marche Interne Ottoman par le Capitalisme Industriel concurrentiel (1838-188 in *Economie et Societe dans l'empire Ottoman (Fin XVIII- debut XX Siecle).* Paris, 1983.
— SYKES (Sirpercy): *History of Persia* London, 1951
— TWEEDY (M): *Britain And the persian Gulf.* London, 1952
Thobie (J): *Interets et imperialisme Francais dans l'empire Ottoman (1895) - 1914).* Paris, 1977.
— VADALA (R): *Le Golfe persique,* Paris, 1920.
— Wilson (Sir Arnold): "Peoples of Persian Gulf" in *Geographical Journal,* 1927, LXIX.

اولى الإنتصارات العربية في العصر الحديث
طرد البرتغاليين من عمان ١٦٥٨م

د. محمد محمود السروجي
كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية

تعرض العالم العربي والاسلامي منذ أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر لموجة عاتية، تمثلت في طلائع الزحف الأوربي على الشرق. هذه الموجة التي اندفعت من البرتغال عقب خروج العرب من الأندلس، وما كانت تحمله في طياتها من حقد وما كان يشوبها من تعصب. وكانت تهدف الى تعقب العرب في شمالي افريقية وغربها، وضربهم في عقر دارهم، وانتزاع التجارة من أيديهم. ومما يدل على النزعة الصليبية لتلك الحملات البرتغالية ما كتبه الملك عمانويل ملك البرتغال في رسالته الى البابا يوليوس الثاني (عام ١٥٠٥) حيث يقول: «انه ليس عازماً على المضي في قتل التجارة المملوكية فقط، بل انه سيجاهد في سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفاً لمدافعه وجنوده» (١).

وقد تصدى لهذا الخطر الصليبي المماليك بوصفهم القوة الاسلامية التي تحكم مصر، والتي تمتد ممتلكاتها في البحر الأحمر لتشمل الحجاز واليمن. ومن ثم كان عليهم أن يواجهوه بحزم حفاظاً على مقدسات المسلمين في المقام الأول.

وفي الحقيقة فإن الدولة العثمانية التي كانت تمثل القوة الاسلامية الثانية في منطقة الشرق الأدنى، لم تكن بعيدة عن تلك المشكلة، فقد عاونت الدولة المملوكية في دفع خطر البرتغاليين والقضاء عليهم، من حملة حسين الكردي المملوكية التي تصدت لهذا الخطر في بحار الهند وهزمت في موقعة ديو البحرية ١٥٠٩.

وبعد ان فتح العثمانيون مصر ورثوا فيما ورثوه من ممتلكات مصر المملوكية، خطر التهديد البرتغالي للعالم الاسلامي، كان عليهم أن يتحركوا لمنع البرتغاليين من تطويق شبه الجزيرة العربية بعد أن سيطروا على الذراع الأيمن ممثلا من الخليج العربي، وتطلعوا غرباً للسيطرة على الذراع الأيسر وهو البحر الأحمر.

ويأتي البحر الأحمر في اهتمامات العثمانيين الأولى حيث توجد ممتلكاتهم في مصر والحجاز، فساروا على الاستراتيجية العسكرية التي وضعها المماليك لتأمين البحر الأحمر. على أن يستتبع ذلك تأمين الخليج.

وبعد أن ثبّت البرتغاليون أقدامهم على سواحل الهند بدأوا ينفذون خطتهم في تطويق شبه الجزيرة العربية من ناحية الشرق، أي من الخليج العربي، حيث استولوا على بعض الجزر وبدأوا في مهاجمة عمان.

وقبل أن أدخل في تفاصيل الأحداث أرى من المستحسن أن أتعرض لعمان في الفترة السابقة على الاحتلال البرتغالي والممهدة له. فتاريخ عمان فيما بين القرنين العاشر والسادس عشر، يسوده التعتيم وعدم الوضوح، بحيث أطلق على هذه الفترة «العصر المظلم» (٢) ويرجع ذلك لأسباب كثيرة منها ثورة الزنج (٢٥٤ ــ ٢٧٠هـ) وثورة القرامطة من منتصف القرن الثالث الى طليعة القرن الخامس الهجري، وما كان لهاتين الثورتين من آثار مدمرة على الأوضاع الداخلية في عمان.

ثم ابتليت البلاد بالصراع الذي نشب بين النزارية واليمنية، والتجاء الفريق الأول الى محمد بن نور عامل الخليفة العباسي المعتضد طلباً للمساعدة ضد خصومهم. وما أن استقر لهم الأمر حتى انقلبوا عليه فحار بهم ومزّق شملهم (٣).

كذلك قام محمد بن القاسم السلمي عامل المعتضد بالاستقلال عن الخلافة وإقامة دولة في عمان كان من ملوكها أحمد بن الخليل عام ٣٠٠هـ زد على ذلك النزاع الدائم بين الأئمة والسلاطين حول السلطة والحكم، وما ترتب عليه من تدهور في الأوضاع الاقتصادية والسياسية، وما أصيبت البلاد من ضعف واضطراب.

أغرت تلك الأوضاع الداخلية المتردية القوى الخارجية الطامعة في أرض عمان على مهاجمتها، وكان ذلك في عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م حين

١. محمد مصطفى زيادة، مصر والحروب الصليبية
٢. وندل فيليبس، تاريخ عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، نشر وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان (١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص ٣١.
٣. نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة آل عمان، مجلدان، تصحيح طفيس الجزائري، القاهرة، ١٣٤٧هـ ١/٢٠٩.

هاجم الفرس البلاد في عهد عمر بن نبهان. ولكن هذا العدوان لم يستمر أكثر من أربعة شهور وانحسر بعد ذلك.

تلت هذه الموجة العدوانية واحدة أخرى أشد عنفاً وعتواً، تمثلت في الزحف البرتغالي في أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، حين نجح البرتغاليون في الدوران حول افريقية والوصول الى الهند، ومن ايجاد حالة من الذعر والفزع في المحيط الهندي وبحر العرب، والخليج العربي.

انطلق البرتغاليون من قواعدهم على سواحل الهند الى الخليج لضرب القوى العربية هناك، لا سيما عمان حيث كان لها التفوق الملاحي والتجاري في المحيط الهندي(٤). فضلاً عن الخليج العربي والبحار الشرقية بصفة عامة(٥).

أصيبت قوة عمان البحرية بالضعف نتيجة الضربات البحرية التي نزلت بها من قبل البرتغاليين، ولسياسة الشدة والبطش التي انتهجها البرتغاليون في سبيل بسط سيطرتهم على طرق التجارة البحرية، وإغلاقها في وجوه التجارة العربية. هذا فضلا عن لجوئهم الى إغراقها وإحراقها والتنكيل ببحارتها.

ولما كانت حياة البلدان العربية الساحلية في الخليج تقوم على التجارة التي تدر عليهم الربح الوفير، فإن حرمانها من هذا المورد المالي — وهو عصب الحياة — إضعاف لهم، وكسر شوكتهم.

بدأ التغلغل البرتغالي في الخليج عام ١٥٠٧ حيث غزا القائد البرتغالي البوكيرك Pedro Albuqerque جزيرة هرمز، وأرغم أميرها على دفع غرامة حربية، بالاضافة الى ضريبة سنوية تقدم للسلطات البرتغالية(٦).

ولما خشي البرتغاليون من محاولة الفرس السيطرة على هرمز، وذلك للعلاقات الودية التي تربط أميرها بشاه ايران، فقد عاود البوكيرك غزو الجزيرة مرة أخرى، ورفع عليها علم بلاده، وقضى على سيطرة أمرائها على مياه المحيط الهندي والبحر الأحمر التي استمرت زهاء قرنين ونصف من الزمان(٧).

لم يكتف البرتغاليون بالاستيلاء على هرمز التي تسيطر سيطرة تامة على مدخل الخليج العربي، بل وجهوا نشاطهم العسكري الى عمان لزيادة إحكام السيطرة، ولايجاد موضع قدم لها في شبه الجزيرة العربية، فاحتلوا في عام ١٥٠٧ صور وقريات ومسقط وصحار. وكان الاستيلاء على صحار قد تم بمساعدة الشيخ عمير بن حمير مستغلاً ضعف النبهانية في ذلك الوقت. وبذلك سقطت جميع منطقة خورفكان في أيديهم(٨). ثم أخذ البرتغاليون في تحصين البلاد بسلسلة من القلاع والحصون التي ما زال بعضها قائماً حتى اليوم.

ومما يدعو الى الدهشة والتساؤل إهمال المؤرخين العمانيين ذكر تفصيلات المقاومة العمانية لعملية الغزو، وكذلك تفصيلات حركة التحرير التي قادها الامام ناصر بن مرشد وخلفاؤه من بعده، والاهتمام الزائد بذكر دقائق معاركهم القبلية المحلية. ولو وجه هؤلاء المؤرخون عنايتهم لما جرى على أرضهم من أحداث هامة، لتوفر لدينا مادة علمية جيدة لبيان كفاح أهل عمان البطولي في مقاومة الاستعمار البرتغالي ودحره.

وعندما احتل البرتغاليون مسقط «قبضوا على عدد كبير من أعيان المدينة ووجهائها، فجدعوا أنوفهم، وقطعوا آذانهم، ونهبوا المدينة وحرقوها بالنار كما أحرقوا قلها وطيوي ودارسيت(٩) ومدينة جلفار»(١٠) واستمروا في تقدمهم، فاحتلوا البحرين والبلدان المجاورة له حتى الكويت(١١).

اتجه البرتغاليون أيضاً الى البحر الأحمر لتنفيذ مخططهم في تطويق شبه الجزيرة، فحاولوا الاستيلاء على عدن أكثر من مرة، ولكنها استعصت عليهم، فعبروا مضيق باب المندب لتهديد البلدان الاسلامية المطلة على شواطئه حتى لا تتجاسر على مد يد المساعدة لإخوانهم في الخليج. فهددوا جدة، خربوا سواكن وزيلع ومصدع التي دخلت في حوزة العثمانيين لحمايتها، ولمنع وقوعها في أيدي البرتغاليين.

كما حمت دويلات الطراز الاسلامي المجاورة للحبشة، الحليف الوحيد للبرتغاليين في هذا البحر. وبإتمام هذا التحالف بدأت حرب صليبية جديدة بينهما وبين القوى الاسلامية، وأهمها المماليك، وحدثت بين المماليك والبرتغاليين موقعة ديو البحرية عام ١٥٠٩، ثم بين الأخيرين والعثمانيين (حملة سليمان الخادم عام ١٥٣٨).

---

٤. Wendell Philips, Oman, A History, Chapter II London 1968

٥. جمال زكريا قاسم، الادعاءات الايرانية في الخليج العربي — أصول المشكلة وتطورها التاريخي، المجلة التاريخية المصرية، المجلد العشرون ١٩٧٣.

٦. سيد نوفل، الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة، الطبعة الثانية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٦١ ص ٤٢.

٧. سيد نوفل، المرجع السابق.

٨.

٩. حرّف صاحب المخطوط هذا الاسم وصحته «ريسوت» (محمد السالمي وناجي عساف، عمان تاريخ يتكلم، ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣م ص ٨٨.

١٠. عبد الله صالح المطوع، عقود الجمان في أيام آل سعود في عمان، مخطوط، ورقة ١٧.

١١. نفسه، ورقة ١٨

واذا كان العثمانيون قد نجحوا بعد جهاد مع البرتغاليين استمر فترة من الزمن في اغلاق البحر الأحمر في وجه السفن البرتغالية، حماية للأقطار الاسلامية المطلة عليه، وللأراضي المقدسة في الحجاز، فانهم لم يفلحوا في تحرير البلاد العربية في الخليج من نير البرتغاليين.

ورغم أنهم أحرزوا نصراً كبيراً على الفرس حلفاء (١٢) البرتغاليين وقتئذ، مكنهم من الوصول الى الخليج العربي في يوليو ١٥٣٤، والاقتراب من البرتغاليين في الهند، مما يتيح لهم بناء قواعد عسكرية في الخليج يتخذونها منطلقاً لهم في مواجهتهم للبرتغاليين هناك. إلا أنهم لم يغيروا من استراتيجيتهم الثابتة التي تعتبر ميناء السويس القاعدة الأساسية التي تنطلق منها عملياتهم الحربية ضد البرتغاليين، وتعاونها الموانىء الأخرى في البحر الأحمر مثل الطور(١٣)، والعقبة، والقصير، وجدة، وزيلع، وسواكن، ومصوع وعدن.

كانت فارس تراقب ما يجري في الخليج بتحفز شديد، فعندما شعرت ببدء ضعف قوة البرتغاليين قامت بالاستيلاء على خورفكان بعد انتزاعها من أيديهم في عام ١٦٢٢. ولكن سرعان ما تمكن قائد الحامية البرتغالية في مسقط روى فريردي اندريد **Riy Freire de Andrade** الذي كان مجرد سماع اسمه يرعب سكان المنطقة ــ من استعادة خورفكان من الفرس في العام التالي (١٤).

كان سقوط هرمز نقطة البداية في الانهيار الكبير الذي أصاب الحكم البرتغالي في الخليج (١٥). إذ استطاعت بريطانيا أن تبعد فارس عن البرتغاليين، وأن تقوم بهجوم مشترك معها على هرمز في عام ١٦٢٤، وأن ينجح الطرفان بمعاونة العمانيين في استردادها. وبذلك خسر البرتغاليون أقوى وأهم معقل لهم في مدخل الخليج.

استغل عرب عمان فرصة خروج هرمز من قبضة البرتغاليين، وأعلنوا استقلالهم عن مملكة هرمز (١٦) وواصلوا الإعداد الجيد لطرد البرتغاليين المحتلين من البلاد.

كان قيام دولة اليعاربة في عمان (١٠٣٤ــ ١١٥١هـ/١٦٢٤ــ ١٧٣٨) (١٧) إيذاناً بأفول نجم البرتغاليين، إذ كانت المهمة الرئيسة للإمام ناصر بن مرشد بن سلطان (١٠٣٤ــ ١٠٥٩هـ/١٦٢٤ــ ١٦٤٩م) هي تحرير البلاد من الاحتلال البرتغالي البغيض. وأدرك الامام أن هذا العمل المجيد لن يكتب له النجاح ما لم تتوحد البلاد التي مزقتها المنافسات بين الحكام على السلطة.

هذا من الناحية الداخلية، أما من الناحية الخارجية فكانت الأوضاع الدولية في الخليج تسير في صالحه، إذ بدأت هولنده تدخل ميدان المنافسة مع البرتغاليين عن طريق شركة الهند الشرقية الهولندية، وتبعتها بريطانيا في هذا المجال، فشاهدت المنطقة منافسة شديدة بين القوى الثلاث للسيطرة عليها (١٨). فساعد هذا الموقف الامام ناصر، إذ شغلت المنافسة البرتغاليين عن التفرغ له كاملا لمواجهة حركة التحرير.

وكان الامام يدرك منذ بداية الأمر أن الحرب بينه وبين البرتغاليين حرب بحرية في المقام الأول (١٩). ولذا أخذ على عاتقه بناء اسطول عربي يعتبر «أول اسطول منظم أصبح في نهاية القرن السابع عشر السفن البحرية الأولى في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي» (٢٠).

وقد استغل الإمام ناصر هذه الفرصة المواتية واستعاد صحار وجلفار من أيدي البرتغاليين (٢١). ثم هاجم مسقط ـ وهي من أقوى معاقلهم ـ في عام ١٦٤٣ فاستعصت عليه، لأن حصونها كانت لا تزال منيعة، كما كان الأسطول البرتغالي يمدها عن طريق البحر بالمؤن والذخائر، وكذلك فعل بميناء مطرح.

ورغم عدم تمكن الامام ناصر من استرجاع المدينتين، إلا أن البرتغاليين دخلوا معه في مفاوضات للصلح، أسفرت عن قبولهم دفع جزية سنوية للإمام، مع هدم التحصينات التي شيدوها في قريات وسمد. وكذلك عدم التعرض للنشاط التجاري العماني. ويدل قبول البرتغاليين هذا الصلح ـ رغم عدم هزيمتهم ــ على أن قوتهم قد أخذت في الضعف، وأن مواصلة العمانيين في الضغط عليهم قد نال منهم كل منال.

كانت مهمة الإمام سلطان بن سيف خليفة الإمام ناصر أن يتم ما بدأه سلفه من قبل، وأن يعمل على طرد البرتغاليين من آخر معقل لهم في مسقط. فأعد لهذا الأمر عدته، ودخل معهم في مناوشات طويلة

١٢. صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٨.

١٣. وثائق دير سانت كاترين بسيناء، وثيقة رقم ١٧٠ بتاريخ ٢٠ رجب ١١٢٠هـ/١٧٠٨م.

١٤. Donald Howley, The Trucial States, London 1970, P. 75

١٥. محمود علي الداود، محاضرات عن التطور السياسي الحديث لقضية عمان، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٨.

١٦. جمال زكريا قاسم، الادعاءات الايرانية ص ١٦٥.

١٧. حميد بن محمد بن رزيق، الفتح المبين المبرهن سيرة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر مرسي، ص ٢٥٠.

١٨. لوريمر، دليل الخليج، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، الدوحة ١٩٦٨/٦٧ ١٦/١.

١٩. جمال زكريا، المرجع السابق ص ١٦٥.

٢٠. محمود علي الداود، المرجع السابق ص ١٨، ١٩.

٢١. Badger, G.P., History of the Imams and Sayyids of Oman, By Salil Bin Razik from A.D. 661 — 1856, P.C.

لاستنزاف قوتهم، ثم باغتهم بهجوم كاسح في عام ١٦٥٨، أرغمهم فيه على الاستسلام بشروط أهمها هدم قلاعهم في مسقط وصور وقريات، والاعتراف بحرية التجارة لجميع الأجناس.

وإذا أردنا أن نتعرف على الأسباب التي عجلت بانهيار نفوذ البرتغاليين في الخليج العربي نجد:

أولاً: ان طبيعة الاستعمار البرتغالي للمنطقة كانت ترتكز على سلسلة من القواعد العسكرية الواقعة على الطريق البحري بين الهند والبرتغال. فلم يتوغل البرتغاليون في عمق البلاد التي استعمروها ـ وما كانوا يستطيعون ذلك لقلّة عدد سكان البرتغال، ولا تساع امبراطوريتهم. وكان الابقاء على تلك القواعد في أيديهم مرهون بقوة البحرية البرتغالية، فلما ضعفت ضاع كل شيء.

ثانياً: كانت حركة المد البرتغالي تمثل الموجة الاستعمارية الأولى المتعطشة للغزو ونهب ثروات الشعوب، وكان الميدان خالياً أمامها، فلما دخلته قوى أوربية أخرى. أكثر منها قوة مثل هولندة و بريطانيا وفرنسا، ولا تقل عنها تطلعاً في أن يكون لها نصيب في الغنيمة يتفق مع ثقلها السياسي والعسكري، لم تقو البرتغال على الصمود.

ثالثاً: أحسن العمانيون اختيار الظروف الدولية المناسبة لتوجيه ضربتهم القاضية ضد الوجود البرتغالي في عمان، فالتنافس الذي ساد العلاقات بين البرتغاليين من جهة، والفرس والهولنديين والانجليز من جهة أخرى، ورغبة الفريق الثاني في القضاء على نفوذ البرتغاليين وابعادهم عن الخليج قد ساعد العمانيين الى حد كبير.

رابعاً: إن اتباع البرتغاليين سياسة الشدة والبطش في معاملتهم للشعوب التي حكموها، إضافة الى استنزافهم لثرواتها ومواردها، زاد في كراهية الشعوب لهم، وجعلها تتحين الفرص المناسبة للخلاص من نيرهم.

خامساً: ان أهم تلك الأسباب جميعها قوة العرب وثقتهم بأنفسهم وتفوقهم في الملاحة البحرية، إذ أدرك العمانيون حقيقة الصراع بينهم و بين البرتغاليين على أنه صراع بحري أولاً وقبل كل شيء. ولذا فقد أعدوا اسطولاً بحرياً مدرباً ومنظماً ومعداً أحسن إعداد، ومن ثم أمكنهم أن يتغلبوا على أهم نقاط القوة لدى البرتغاليين.

ومهما يكن من شيء فان خروج البرتغاليين من عمان قد أثر تأثيراً عميقاً في المنطقة، وترتبت عليه نتائج على درجة كبيرة من الأهمية، يمكن إجمالها فيما يلي:

أولا: إن نجاح العمانيين وحدهم في إجلاء البرتغاليين من أرضهم قد رفع من روحهم المعنوية، وأشعرهم بقوتهم، وبمدى ما يمكن أن يقوموا به، فهيأ لهم هذا الفرصة في أن يلعبوا دوراً بارزاً في النشاط البحري في الخليج، ولا سيما منذ منتصف القرن السابع عشر وحتى مطلع القرن التاسع عشر.

ثانياً: أفلح العمانيون في القضاء على سياسة احتكار التجارة التي انتهجها البرتغاليون، وحققوا مبدأ حرية التجارة لجميع الأجناس، فعاد الانتعاش الاقتصادي اليهم، وسيساعدهم هذا على أن يصبحوا قوة مؤثرة في منطقتهم، بل وفي شرق افريقيا كذلك.

ثالثاً: تطلع الفرس في أن يحلوا محل البرتغاليين، وأن تكون لهم الزعامة في الخليج، وساعدتهم بريطانيا على ذلك لأسباب عديدة، منها وجود مصالح هامة لشركة الهند الشرقية الانجليزية في فارس، وكذلك مساعدة الفرس للبريطانيين في القضاء على منافسة الهولنديين في الخليج. أضف الى ذلك عدم وجود تنظيمات عربية تستلفت انتباهها للدخول معها في علاقات مباشرة في ذلك الوقت. وترتب على ذلك دخول فارس في صراع مع العمانيين، وطلب الفرس المساعدة من القوى الاستعمارية الطامعة في الخليج.

رابعاً: إن زوال الوجود البرتغالي من عمان بخاصة ومن الخليج العربي بعامة قد أتاح للقوى العربية أن «تؤكد لنفسها زعامة الخليج» (٢٢). وهذا ما سنلاحظه بشكل واضح في القرن الثامن عشر.

خامساً: أعقب خروج البرتغاليين من الخليج العربي تحركات جماعية أدت الى وجود تشكيلات سياسية استقرت على السواحل الغربية للخليج، تل العتوب في الكويت وامتداد فروعهم في قطر والبحرين.

وخلاصة القول فإن مقاومة العمانيين للإحتلال البرتغالي طوال سني حكمه، ومحاولاتهم المتكررة للخلاص منه، منحتهم خبرة ودراية في معرفة نقاط القوة والضعف فيه، فتجنبوا نقاط قوته بالإعداد لها، واستغلوا مواطن ضعفه، ولم يهنوا ولا استكانوا الى أن فيض الله لهم القيادة الحكيمة الواعية التي أخذت بيدهم الى طريق النصر. فضربوا بذلك المثل ـ في مطلع التاريخ الحديث ـ أن الشعوب اذا ما حزمت أمرها، وجمعت كلمتها على التحرر، فلن تقف أمامها قوة مهما عظمت، وإن طال الأمد.

والله ولي التوفيق.

٢٢. جمال زكريا قاسم، المرجع السابق ص ١٦٨.

فتوحات الامام احمد بن ابراهيم (جرى) ١٥٢٧ - ١٥٤٣م في القرن الافريقي

السيد احمد جمالة محمد
كلية التربية/ جامعة الصومال الوطنية

ترتبط كثير من معارك الانتصارات العربية في التاريخ بظهور الاسلام ارتباطاً وثيقاً لما ترتب عليه من انتشار العرب في الارض فاتحين وناشرين نور الهدى والمعرفة في ارجاء المعمورة وساهموا في انشاء حضارة ذات طابع اسلامي، وأصبحت اللغة العربية دعامة هامة لنشر الثقافة الاسلامية.

لم تدخل منطقة القرن الافريقي ضمن مناطق الفتوحات الاسلامية الاولى إذ ركز الخلفاء الاولون جهودهم لكسر شوكة امبراطوريتي الفرس والروم، فصرفوا النظر عن منطقة القرن الافريقي التي اتصف الاتجاه الاسلامي فيها بطابع سلمي بحت، وتمت منذ فجر الاسلام هجرات عربية اسلامية اليها لاسباب دينية وسياسية فضلاً عن العامل التجاري الذي كان بارزاً في جميع الهجرات(١).

وفسر بعض الباحثين هذا الاتجاه بأنه كان نتيجة لضعف عرب شمال الجزيرة العربية - منبع ظهور الاسلام - في شؤون الملاحة والحروب البحرية، والا اتجهوا بادى ذي بدء نحو السودان والصومال، ولا نميل إلى هذا الرأي حيث كان للمسلمين - منذ عهد عمر بن الخطاب - قوة بحرية لا سيما وقد انضمت إلى حظيرة الاسلام شعوب بحرية مثل اليمنيين والمصريين والسوريين، ودافعت هذه القوة البحرية الاسلامية كما هاجمت القوة البحرية الرومانية(٢).

ترجع العلاقات والصلات التجارية بين عرب شبه الجزيرة العربية، وبين سكان شبه الجزيرة الصومالية، إلى ما قبل الأسلام حيث استفاد الاولون من متاجر مدن زيلع وبربرة وبندر قاسم وغيرها من المدن الصومالية التي كانت زاهرة آنذاك(٣).

وبعد ان ظهر الاسلام في قلب الجزيرة العربية، وتجددت في اوصال الدولة الاسلامية مسببات هجرات اختيارية سارت جنباً إلى جنب مع الهجرات الطردية، فقد خرج من الجزيرة العربية تجار ودعاة اسلاميون متطوعون حاملين معهم الدين ومبادئه السمحة، ويتاجرون مع سواحل الصومال ويستقرون فيها بصفة مستديمة او شبه مستديمة، حتى ظلت السواحل الصومالية مسرحاً للنشاط العربي الاسلامي، فاتخذوا بالترحاب الشديد من السكان الصوماليين وسيلة لبث الدعوة الاسلامية في اوساطهم، فانجذب الكثيرون منهم نحو الاسلام خصوصاً وقد لمسوا من هؤلاء التجار، وأولئك الدعاة، صفات حميدة، وأخلاق فاضلة اتصفوا بها(٤).

كان النشاط الاسلامي الديني والتجاري فيما يعرف حالياً بشمال جمهورية الصومال وجمهورية جيبوتى وارتريا والسودان، سبباً مهما لعزل الحبشة عزلاً تاماً عن العالم المسيحي الخارجي، لا سيما وقد استولى المسلمون على ميناء زولا كثغر وحيد لتجارة الحبشة الخارجية على البحر الاحمر(٥).

ومنذ القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي، تبرز في محيط الدولة الاسلامية تلك الاهمية التجارية والدينية لمدن قرن

---

١ - الشاطر بصيلي عبدالجليل، معالم تاريخ سودان وادي النيل، القاهرة ١٩٥٥، ص٨.

٢ - جورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى ترجمة د. السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٠٧.

٣ - عيد روس الشريف عيد روس، بغية الآمال في تاريخ الصومال، مقديشو ١٩٥٤ ص ٣٦/ الشيخ جامع عمر عيسى، مقديشو ماضيها وحاضرها، مقديشو ١٩٧٩، ص ٥١.

٤ - د. احمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامي، ج٦، القاهرة ١٩٦٨، ص ٦٦٥/ الشاطر بصيلي، مرجع سابق، ص٩.

افـريقيا مثـل زيلع بربرة وبندر قاسم ومقديشو. وزخرت كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين معلومات ذات قيمة تاريخية تناولت تلك المدن الواقعة على البحر الاحمر. ويذكر ابن حوقل (ت ٣٥٨ هـ ـ ٩٦٨م) بأن اكثر الجلود المدبوغة التي تصل إلى اليمن تأتي من ثغور الزيلع وبربرة[٦]. وكذلك يقول الاصطخرى (وما كان من النمور والجلود الملمعة وأكثر جلود اليمن ـ التي تدبغ للنعال ـ تقع منها إلى عدوة اليمن، وهم أهل سلم ليسوا بدار حرب، ولهم على الشط موضع يقال زيلع، فرضة للعبور إلى الحجاز واليمن)[٧].

أما المؤرخ والجغرافي المشهور بالمسعودي (ت ٣٤٦ هـ ـ ٩٥٦م) الذي جاب ورأى متاجر وسكان منطقة ما بين ساحل خليج عدن في شمال الصومال إلى مدينة سوفاليه (مزمبيق حالياً) يوضح بأن سكان تلك البلاد هم اصحاب جلود النمر الحمر، ومن ارضهم تحمل إلى بلاد الاسلام وهي اكثر ما تكون من جلود النمور وأحسنها للسروج، كما يصدرون إلى العالم الاسلامي جلود السلحفـاة التي تصنـع منها الامشاط، فضلاً عن جلود الزرافة واللبـان وكـل مظاهـر الـترف، وكذلك انتشر الاسلام في هذه البلاد[٨] ونتيجة لهذا النشاط الاسلامي في المدن الساحلية أخذ الاسلام ينتشر ويشق طريقه إلى داخلية البلاد وأحرز الاسلام تقـدماً كبيراً ونجاحاً منقطع النظير، حتى تحولت منطقة جوبا ـ اقصى منطقة داخلية في جنوب الصومال ـ إلى الاسلام حوالي سنة ١١٠٨م بل وامتـد منهـا الاسلام حتى تطرق منطقة البحيرات الكـبرى في شرق افـريقيا[٩]. ولم يذكـر ـ خلال هذه الحركة الاسـلامية السلمية ـ اي اصـطدام بين الحـركات والعصبيات المذهبية او الطائفية من شيعة وخوارج وسنية وفضلاً عن شافعية وحنبلية وغيرها، وانما نشر الاسلام وثقافته وفكره بصورة بعيدة عن التنافر والتنافس غير الشريف، وأدى هذا التفاعل بدوره إلى اختـلاط عنصري بين المهـاجـرين الجـدد، وبـين السكـان الاصليين، وشملهم روح الـدين الاسـلامي، وتقاليد واعراف وعادات وأهداف مشتركة[١٠]. وتحولت المدن الاسلامية الصغيرة التي كانت مراكـز الـدعـوة الاسـلامية إلى مدن اسلامية زاهرة اتسعت شوارعها وأصبحت مساكنها عبارة عن مبانى حجرية، ولابـوابهـا ونـوافذها الخشبية ظهر عليها الطابع والطراز العربي الاسـلامي[١١]. وكـان ذلـك نصراً مؤزراً احـرزه ابناء العروبة بمنـطقة القرن الافريقي، تتوارثه الاجيال على مر السنين بكل اعتزاز وافتخار. وان المؤرخ سير توماس ارنولد في كتابه (الدعوة إلى الاسـلام) يظهـر اعجـابـه الشـديد بالسرعـة التي تأثر بها الصـوماليون بالاسلام حيث يقول «كانت جموع كبيرة من تجار العرب تختلف إلى هذه البلاد الساحلية ولكن على الرغم من وجود صلة دامت قروناً بين اهلها وبين المسلمين كان تأثرهم (فيما عدا أهـالي الصومال) بالاسلام قليلاً قلة ملحوظة وحتى قبل مجيء البرتغاليين في القرن السادس عشر»[١٢].

قيام الممالك الاسلامية في الصومال

لقـد أدى انتشـار الاسـلام في الصـومال إلى قيام ممالك اسـلامية فيها منذ القرن الحادي عشر الميلادي، وأعطت تلك الممالك دفعة قوية لحركة نشر الاسلامي واللغة العربية لتشجيعها التعليم الديني والفكر والتراث الاسلامي، ونجح السلاطين في تزويد المجتمع بروابط الاخوة، والهوية المشتركة في وقت لم تكن العاطفة الدينية قد ظهرت بعد في نفوس الشعوب الاسلامية ولم يكن للفوارق اللونية اي أثر في المجتمع، وممنوعة شرعاً[١٣].

يمكن تقسيم الممالك الاسلامية في الصومال حسب الموقع الجغرافي إلى ممالك شمالية وجنوبية. وتركزت الممالك الجنوبية في ساحل بنادر المطل على المحيط الهندي وهي ممالك مقديشو وبراوه ومركا وورشيخ. وتولت مقديشو زعامة هذه الممالك التي تمتعت بالهدوء والاستقرار حتى مجيء البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي[١٤]. أمـا الممالك الشمالية السبعة فهي: اوفات، دوارو، هدية، دارة، ارابيني، شرخاً، بالي. وشملت هذه الممالك فيما يعـرف حالياً على ساحـل جمهـورية الصـومـال الشـمالي،

٥ ـ تريمنجهام، الاسلام في اثوبيا (بالانجليزية) لندن ١٩٦٤، ص ٢١٤.
٦ ـ ابن حوقل، كتاب صورة الارض، بيروت بلا تاريخ، ص٤٨/٤٩.
٧ ـ الاصطخري المسالك والممالك، تحقيق د. محمد جابر عبدالعالي، القاهرة ١٩٦١، ص٣٢.
٨ ـ المسعودي، مروج الـذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، القاهرة ١٩٥٨، جـ١، ص١٠٧، . جـ٢، ص٤، ٢٨.
٩ ـ د. ابـراهيم علي طرخـان الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة في العصور الوسطى المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثامن القاهرة ١٩٥٩، ص ٣١.
١٠ ـ بازل دافيد سن، افريقيا تحت اضواء جديدة (مترجم) بيروت ١٩٦١، ص ٢٧٨.
١١ ـ حمدي السيد سالم، الصومال قديماً وحديثاً، جـ١ مقديشو ١٩٦٥، ص٣٥٤.
١٢ ـ سير توماس ارنولولد، الدعوة إلى الاسلام، (مترجم) القاهرة ١٩٧٠، ص ٧٠.
١٣ ـ العمري بن فضل الله، مسالك الابصار في ممالك الامصار، جـ٢، (مخطوط) ورقة ١٥٣.
١٤ ـ ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، بيروت ١٩٧٠ ص ٦، ٨٢.

والصومال الغربي، وجمهورية جيبوتي، مع امتداد داخلي حتى حوافي مرتفعات شوا الشرقية في اثيوبيا[١٥]. وعرفت هذه الممالك الشمالية لدى مؤرخي العرب في العصور الوسطى باسم ممالك الطراز الاسلامي وأحياناً بممالك زيلع. واحتلت مملكة اوفات مركز الصدارة والزعامة لهذه الممالك[١٦].

لقد اتسم تكوين تلك الممالك الاسلامية بالطابع السلمي، ولم يكن في نشأتها وتوسعها - على الاقل في أول الامر - عسكرية. ولكن أدى تكوينها ونموها إلى تطويق مرتفعات الحبشة - من الشرق والجنوب - مركز المسيحية فأصبحت بذلك الممالك الاسلامية كالطراز الذي يحف بالهضبة الحبشية[١٧]. لقد أسس عمر الاصمعي أو ولسمع مملكة اوفات الاسلامية، ويقال ان اسرته الهاشمية قد قدمت من الحجاز واستقرت في بلاد زيلع حيث استوطنت في مدينة اوفات الواقعة في شرقي شوا. ويرجع تأسيس عمر ولسمع لهذه المملكة إلى القرن الثالث عشر الميلادي وحكمها مدة طويلة، كما رتب طريقة التوارث بين اولاده الاربعة او الخمسة على اختلاف الروايات، فتوارثوا السلطة بعده واحداً تلو الأخر حتى تولى اخرهم (صبر الدين) السلطة في حدود عام ٧٠٠ هـ ١٣٠٠م[١٨].

شرع عمر ولسمع بتوسيع نفوذ مملكته على حساب جيرانه من الممالك والمشائخ والسلطنات الاسلامية مثل مملكة عدل الاسلامية التي كانت مدينة الزيلع عاصمة لها. وكذلك اخضع إلى نفوذه سلطنات مورا، وهوبات، وجيداية وغيرها حتى سيطرت مملكته على مساحة شاسعة من القرن الافريقي فيما بين رأس جواردا فوى ومرتفعات شوا الشرقية، وخليج تاجورة، ويجري في هذه المنطقة اكثر الطرق التجارية أهمية وهي التي تربط داخل المنطقة بموانىء زيلع وبربرة وبلحار. ومنذئذ تألق نجم هذه المملكة في سماء منطقة القرن الافريقي حيث تولت مركز الصدارة والزعامة لممالك الطراز الاسلامي[١٩].

في الوقت الذي سيطرت فيه مملكة اوفات الاسلامية معظم الطرق التجارية الواقعة فيما بين شوا وسواحل البحر الاحمر، شهدت ساحة منطقة القرن الافريقي تطورات جديدة إذ خرجت الحبشة من متاعبها الداخلية لسقوط الاسرة الزجوية التي كانت تحكم مملكة الحبشة المسيحية العريقة، وانتقال السلطة إلى اسرة حبشية عرفت باسم الاسرة السليمانية التي كان اول ملوكها (يكونو أملاك) (١٢٧٠ - ١٢٨٥م)[٢٠] فاتخذ مدينة تجولات بمنطقة أمهرا عاصمة له، فبذلك انتقل مركز ثقل المسيحية من الشمال في مدن التجري الذابلة، إلى الجنوب في هضبة شوا وامهرا، في وقت شيد فيه المسلمون - كما راينا - صرح عدد من الممالك الزاهرة في مناطق السهول المحيطة للهضبة الحبشية. وحيث ان مملكة اوفات الاسلامية اقوى هذه الممالك فقد أصبح الاحتكاك والتنافس بين المسلمين والمسيحيين امراً لا مفر منه[٢١].

اهتم السليمانيون بنشر المسيحية بين سكان القرن الافريقي، وجمعوا حولهم عدداً من رجال الكهنوت، كما بنوا كثيراً من الاديرة والكنائس، كذلك اتخذوا خطة حاسمة لتدعيم نفوذ وتوسيع مملكتهم على حساب جيرانهم الصوماليين المسلمين الذين سيطروا سيطرة تامة على مراكز التجارة والموانىء مما يجعل علاقة الحبشة الخارجية تحت رحمتهم[٢٢].

أما مملكة اوفات الاسلامية فقد تزعمت حركة الجهاد الاسلامي ضد الحبشة حيث حاولت نشر الاسلام في بلاد الحبشة واستطاع السكان المسلمون تقوية مراكزهم الامامية. كما قامت مملكة اوفات بدور بارز في حركة نشر الثقافة والدين الاسلامي في البلاد، غير انه ما كاد يكتمل نموها وقوتها حتى خاضت غمار حرب طال امدها، ولكن انتشار الاسلام وحضارته وبقائه في منطقة القرن الافريقي توقف على ذلك الصراع الدموي بين مسلمي السهول احباش المرتفعات[٢٣].

وفي مطلع القرن الرابع عشر الميلادي بدأت الحروب بين المملكتين وامتد هذا الصراع إلى بعض العصور الحديثة، مما يثبت بلا ريب ان المنطقة قد صارت مسرحاً لحروب صليبية واسعة

١٥ - د. ابراهيم طرخان، مرجع سابق ص ٣٢ - ٣٣.

١٦ - القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٥ القاهرة ١٩١٥، ص ٣٢٤.

١٧ - د. ابراهيم طرخان مرجع سابق ص، ٣٣.

١٨ - المغزيزي الالمام باخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام، القاهرة ١٨٩٥، ص٩.

١٩ - د. جمال زكريا قاسم، الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، القاهرة ١٩٧٥ ص ١٢٥.

٢٠ - د. زاهر رياض الاسلام في اثيوبيا في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٤، ص١٢٥، ١٢٨.

٢١ - الشاطر البصيلي، مرجع سابق، ص، ١٠ - ١١.

٢٢ - تديسى تمرات، الكنسية والدولة في اثيوبيا ١٢٧٠ - ١٥٢٧ لندن ١٩٧٣ ص ٧٢.

٢٣ - حسن احمد محمود، الاسلام والثقافة العربية في افريقيا القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٣٩ - ٤٠.

النطاق، استمدت اسبابها من قوى عالمية خارج الحبشة، لها اهداف محلية وعالمية، مخفية حيناً، ومعلنة حيناً آخر، ولكنها على أي الاحوال تدفع الحبشة نحو التحامها بممالك الطراز الاسلامي وبالذات مملكة اوفات حتى تخضعها، ويتسنى لمسيحية الحبشة السيطرة على منافذ البحر الاحمر الجنوبية، وبالتالي تستطيع ان تنفذ اهدافاً صليبية عامة تمتد جذورها إلى منطقة الشرق الاوسط[٢٤].

واتسمت الحروب بين الهلال والصليب بطابع القسوة والشدة. واستمرت الحروب على هذا المنوال بقرون، تهدأ حيناً، وتنهض احياناً اخرى حسب الظروف من قوة وضعف حكام الجانبين. وفي سبيل الحصول على المساعدات المادية والمعنوية تبادلت الحبشة رسائلها ورسلها منذ القرن الرابع عشر مع ملوك أوروبا وبابوات كنيسة روما الكاثوليكية على الرغم من أن الحبشة المسيحية كانت تابعة على المذهب الارثوذكسي وكرسيها في مدينة الاسكندرية[٢٥].

على ان ملك الحبشة (زرء يعقوب ١٤٣٤ ـ ١٤٦٨م) عند ما وجد خطر مملكة اوفات الاسلامية ماثلا غير منقطع بعد ان استولى سلطانها شهاب الدين احمد (٨٣٦ ـ ٨٤٩هـ ١٤٣٢ ـ ١٤٤٥م) على عدة بلاد حبشية، حينئذ فكر يعقوب في تكثيف اتصالاته بالعالم المسيحي الخارجي، وحملته الرغبة في القضاء على خطر مملكة اوفات إلى العمل على الاتفاق والارتباط بكنيسة روما، بل رأى بربط كنيسة الحبشة بروما في نظير مساعدة البابا روحياً، ومساعدة بعض الدول الاوروبية الكاثوليكية مادياً[٢٦]. ومما يدل على نجاح مساعيه هذه، فقد دعت الدول الاوروبية والبابا الحبشة إلى اشتراك المجمع الكنسي «مجمع فلورنسا» المنعقد في الفترة ما بين (١٤٣١ ـ ١٤٤٥م) برئاسة البابا (ايوجين الرابع) وحضر هذا المجمع راهبان حبشيان شرحاً للمجتمعين بأن عقيدتهم، الارثوذكسية لا تخالف شيئاً عن العقيدة الكاثوليكية. وكان هذا المجمع يرمي إلى رأب الصدع الكنسي بغية توحيد الكنيسة المسيحية في العالم[٢٧].

وفي الحقيقة انه كانت تعترض امام فكرة التحالف الحبشي الاوروبي عدة صعوبات من بينها: بعد المسافة بينهما، وصعوبة المواصلات، ومبدأ مصر بتحريم ارتياد الاوروبيين لمنطقة البحر الأحمر حيث شددت حراستها على تلك المنطقة لئلا تتعرض الاراضي المقدسة إلى تخريب صليبي[٢٨].

ويعتقد الدكتور زاهر رياض ـ لاسباب تبدو واهية ـ بأن القصد من مبدأ الحرمان المصري هو ان يكتم المماليك عن تجار اوروبا مصادر التجارة الشرقية حتى اعتقدوا بأن التوابل تأتى من الجنة ومن اجل ذلك كانوا يسمون نهر النيل باسم نهر الجنة. وشجع المماليك على رواج هذه الخرافات لغرض آخر ألا وهو اخفاء خبر ملك مسيحي في الجنوب هو ملك الحبشة، حتى لا يقوم بينه وبين ملوك اوربا اتفاق لا يأتى الا أبلغ الضرر على مصر الاسلامية التي تقع بينهما[٢٩].

ظهور الامام احمد على مسرح الاحداث

منذ اواخر القرن الخامس عشر الميلادي اشتدت الحروب التي كانت سجالاً بين الطرفين، مما أدى إلى حدوث تغييرات سياسية واجتماعية في داخل مملكة اوفات الاسلامية. فقد انقسم سكانها إلى جيل قديم محافظ يقوده سلاطين تقليديون يستمدون سلطانهم من ملك وراثى، وتساندهم طبقة ارستقراطية تهتم بالتجارة اكثر من اهتمامها بالجهاد والفتوحات الاسلامية، وعلى هذا فقد جنح السلاطين إلى انتهاج سياسة مبنية على السلم والتعاون مع الاحباش. وجيل جديد اكثر تحمساً للجهاد من الجيل السابق، لذلك لم يلق موقف السلاطين ترحيب ورضاء الاغلبية من المسلمين اذ كان يقود هذا الجيل الجديد أمراء متحمسون لنشر مبادىء الاسلام وثقافته وتساندهم معظم القبائل والعلماء والفقهاء. وحينئذ مثل هؤلاء الامراء والقواد دور الحركة الشعبية الدافقة حتى تجمعت معظم السلطات الاجتماعية والحربية والسياسية في ايدي مجموعة الامراء مثل الامير محفوظ في زيلع والجراد ابون في هرر[٣٠].

---

٢٤ ـ صبح الاعشى، جـ٥، ص ٣٣٢ / حسن احمد محمود، مرجع سابق، ص ٤٤١ ـ ٤٤٢.

٢٥ ـ د. ابراهيم طرخان، مرجع سابق، ص ٦٢ ـ ٦٣.

٢٦ ـ نفس المرجع والصفحة / تريمنجهام، مرجع سابق، ص ٧٦.

٢٧ ـ د. احمد دراج، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، القاهرة ١٩٦١، ص ٥٠.

٢٨ ـ د. محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة ١٩٤٧، ص ٢٤٥.

٢٩ ـ د. زاهر رياض مرجع سابق ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

٣٠ ـ حسن احمد محمود مرجع سابق ص ٤٦١.

نتج عن انقسام المجتمع إلى الجيلين السابقين الصراع على السلطة السياسية مما أدى إلى مقتل السلطان محمد بن أظهر الدين في سنة ١٥١٨م، وبلغ الصراع الداخلي إلى الذروة في عصر السلطانين فخر الدين احمد وعلي ابن فخر الدين اللذان توليا السلطة على التوالي بعد السلطان محمد بن اظهر الدين، غير انهما لم يتمتعا بالسلطة معاً غير ثلاث سنوات ونصف، مما يدل على التدهور وسؤ الاحوال الداخلية التي تعاني بها مملكة اوفات التي كانت واحدة من أعرق ممالك الطراز الاسلامي في القرن الافريقي[٣١].

وفي حطام هذا التنافس الداخلي، وفي وقت كانت فيه الحبشة تدق بشدة على ابواب المملكة، ظهر احمد بن ابراهيم (جرى) الذي حول الهزائم إلى انتصارات رائعة بل وتطلع إلى فتح الحبشة ونشر الدين الاسلامي في ربوع مرتفعاتها الحصينة والمانعة، فاحرز في هذا المجال انتصاراً كبيراً يمكن اعتباره من اهم الانتصارات العربية في القرن الافريقي وفي النصف الاول من القرن السادس عشر الميلادي.

ولد احمد بن ابراهيم سنة (٩١٢هـ ١٥٠٦م) في مدينة هوبات الواقعة شمالي مدينة هرر وتربى فيها تربية اسلامية رفيعة المستوى وعلى يد مربية (عدل) كما انضم إلى الجيش الاسلامي في فترة مبكرة من حياته حتى عينه قائد عام الجيش إلى رتبة نائبه لما رأى فيه من النبوغ والمهارة العسكرية.

وبعد مقتل هذا القائد (جراد ابون) في الصراعات الداخلية رشحت الاحداث احمد بن ابراهيم لتزعم حركة الفتوحات الاسلامية في الحبشة، والتف حوله الانصار من جنود وقبائل وعلماء وفقهاء إذ توسمت فيه صفات جعلته احد أولئك الافذاذ ذوو الشخصيات النادرة الذين جمعوا في سن مبكرة مواهب الجندي والقيادي ورجل الدولة[٣٢]. وبجانب ذلك ساعده اتعاظ الروح الديني في شعب المملكة هذا الروح الذي كان وما زال وقاداً حتى في اصعب اوقات الشدة التي تعرضت لها البلاد، كما ساعدته الميزة الاستراتيجية والاقتصادية التي تمتعت به المملكة وخصوصاً مدينة هرر التي اتخذها عاصمة له، ولهذه الاسباب قاد احمد بن ابراهيم شعبه من نصر إلى نصر مؤزر[٣٣].

وببزوغ نجم احمد كقائد عام للقوات الاسلامية، أطلق عليه العلماء والفقهاء باسم الامام احمد وامام المسلمين، كما اطلق على نفسه «لقب الغازي»[٣٤].

لقد كان الامام احمد صوماليا يعوض خسائره في غزواته وفتوحاته بالصوماليين ويجد فيهم موارده الاساسية حيث كان الصوماليون القوة المحركة للشعوب الاسلامية هناك[٣٥]. وعلى انه يجب أن نضع في الاعتبار بأن حركة فتوحاته كانت دينية اكثر من انها قومية إذ انخرط فيها للدفاع عن حوض المسلمين جميع أولئك الذين اعتنقوا الاسلام دينا وعقيدة، مما جعل سيطرة المسلمين على الاحباش امراً محتوما، فداست خيولهم بلاد هضبة الحبشة التي لم تمسسها يد فاتح قبلهم، وملكوا بسرعة عجيبة نواصي الحبشة[٣٦].

نستمد معلوماتنا حول فتوحات الامام احمد بن ابراهيم من كتاب (فتوح الحبشة) لعرب فقيه، الذي كان مع الجيش الغازي مما يجعله مؤرخاً معاصراً للاحداث التاريخية. وقد استطاع الامير احمد بمدة وجيزة تأمين الجبهة الداخلية التي كانت مفككة ونهض من كبوتها الوقتية استعداداً لفتوحاته الاسلامية في الحبشة. وقبل ظهوره على مسرح احداث قرن افريقيا، تعرضت بعض مدن الثغور الاسلامية للغزوة الحبشية حتى بلغ بها الامر إلى حد اضطرت بعض هذه المدن الاسلامية إلى دفع الاتاوات السنوية إلى ملك الحبشة، وعندما تولى الامام احمد سلطة قيادة الجبهة الاسلامية امر هذه المدن بالامتناع عن دفع مثل الاتاوات المذكورة[٣٧]. مما كان سبباً مباشراً لانفجار الموقف بين الامام احمد وبين ملك الحبشة لبنا دنجل، (١٥٠٨ - ١٥٤٠م) إذ سرعان ما قام قائد حبشي بالهجوم على الثغور الاسلامية لاجبار سكانها على دفع الاتاوات فتصدى الامام احمد بن ابراهيم وجرت معركة كبيرة على ضفاف نهر (عقم) التي انتصر فيها المسلمون بكل جدارة وافتخار[٣٨].

٣١ - عرب فقيه شهاب الدين احمد الجيزاني، فتوح الحبشة (محقق) القاهرة ١٩٧٢، ص ٦، ١١٣.

٣٢ - دائرة المعارف الاسلامية جـ١ مادة احمد جران ص ٢٨٦.

٣٣ - تريمنجهام مرجع سابق ص ٨٧.

٣٤ - فتوح الحبشة ص ١٤.

٣٥ - نفس المرجع ص م.

٣٦ - لوثروب استوارد الحاضر العالم الاسلامي (مترجم) المجلد الثاني بيروت ١٩٧١، ص ٨٥.

٣٧ - فتوح الحبشة ص ١٨.

٣٨ - نفسه ص ٧ - ٩.

وبعد فترة وجيزة من هذه الموقعة قام الامام احمد بفتوحاته الكبيرة مركزاً هجماته الاولية على مناطق السهول ومنحدرات الجبال ثم تطلع إلى المرتفعات الوعرة، حيث كانت اولى غزواته الحبشة في عام ٩٣٤هـ ١٥٢٧م وهو اي الامام بن الحادي والعشرين من عمره واحرز نصراً كبيراً في معركة «الدير» التي قتل فيها عدد كبير من الاحباش كما أسر اخرون(٣٩). لقد قام الامام بعد رجوعه من هذه المعركة إلى مدينة هرر العاصمة، باستنفار القبائل الصومالية حيث ارسل إلى كل قبيلة اميرا من اهم امرائها، ولاقت من قبلهم هذه الدعوة الخاصة بالجهاد الديني قبولاً لا نظير له، إذ ما لبثت قوات من المجاهدين القادمين من مختلف القبائل الصومالية تتدفق على مدينة هرر، ومعها عتادها الحربي فانضمت إلى صفوف الجيش النظامي الذي اكتسب مزيداً من الطابع الشعبي، وفي حماس ديني حتى حدث التحام بين الجيش النظامي والمتطوعين الجدد(٤٠).

اطلق الامام احمد الغازي هذه القوة الاسلامية العظيمة على بلاد الحبشة لنشر نور الاسلام وثقافته فيها حتى يحل محل الثقافة المسيحية والوثنية. وفي سنة ٩٣٥هـ ١٥٢٨ / ٢٩م التقى الامام احمد ولبناد نجل في موقعة اخذت اسمها من السهل الذي لطخت فيه دماء ها وهو سهل «صمبركوري» في شوا. وكان مع لبنا دنجل جيشاً بلغ تعداده ستة عشر الفاً من الفرسان، يساندهم اكثر من مائتي الف من المشاة المسلحين بالترس، والسهام المسمومة، والحراب والقس. وقد يكون تعداد هذا الجيش مبالغاً فيه، غير ان عرب فقيه قد وصف جيش المسلمين يومذاك بانه كان «كالشامة البيضاء في جلد الثور الاسود» إذ كان جيش المسلمين عبارة عن حوالي خمسمائة وستين فارساً، واثنا عشر الفاً من المشاة. ويدل هذا التعداد الحبشي بانهم قد عقدوا العزم على صد الجيش الاسلامي مهما كان الثمن فخرجوا عن بكرة ابيهم(٤١).

لقد جرت العادة ان يقوم الامام بتشكيل جيشه عند المعارك إلى ميمنة وميسرة وقلب، وكل منها مقسمة إلى فرق والوية، يتولى قيادة هذه الفرق أمراء يعقد لهم اعلام مختلف الالوان والاشكال. وفي قلب الجيش يتولى الامام القائد القيادة العامة ولديه علم المملكة الابيض اللون، وباطرافه الحمراء كتبت عليه ايات قرآنية وابيات من الشعر منسوبة إلى الخليفة علي ابن ابي طالب(٤٢). وبما ان فرقة رماة السهام وفرقة الفرسان يمثلان اهم عدة في الجيش، فقد كانت الفرقة الاولى توزع بين الفرق الاخرى كما تقسم الثانية إلى هجومية تدخل المعركة في الوهلة الاولى، ودفاعية تحمى ظهور الجيش الاسلامي وقد تدخل المعركة عند عجز قسم الهجوم عن خرق دفاعات العدو وتحصيناته(٤٣).

بدأت معركة صمبر كوري على هذه الشاكلة من التنظيم وفي الجو الذي عرفناه، وفي ساعاتها الاولى وبعد قتال ضار، انهزمت ميسرة المسلمين التي اثخن فيها الاحباش ضربات سديدة مما أدى إلى استشهاد ثلاثة الاف شهيد، فاستدعى الامر إلى رأب الصدع واعادة تشكيل الميسرة مرة اخرى لكي يتسنى لها الصمود امام ضربات العدو القوية. وبما ان المعارك تقدر قيمتها بالنتائج الاخيرة التي تتحتم عليها في نهاية المطاف، فانه بعد معركة شرسة دامت من الضحى الى العصر، دارت الدائرة على الاحباش، الذين لقوا هزيمة منكرة إذ قتل فيها الالاف من امهر القواد والجنود والبطارقة، كما وقع في الاسر الاف اخرى كان من بينهم صهر الملك. وهكذا بعد ان كان النصر قاب قوسين او ادنى من الاحباش في المراحل الاولى للمعركة، انقلب الموقف رأساً على عقب(٤٤).

وكانت هذه المعركة الحاسمة عبارة عن مذبحة مروعة، ابيدت فيها تقريباً القوات الحبشية عن بكرة ابيها، حتى هرب لبناد نجل مع عدد من نبلائه، كما تركت معركة صمبر كوري اثاراً سيئة في نفس لبناد نجل فأصبح منذ ذلك الوقت حريصاً كل الحرص على ان يباعد بينه وبين مواطن الخطر، ومن اجل ذلك لم يشهد ولم يشترك بعدها - مختاراً - في معركة حربية امام الامام الغازي احمد بن ابراهيم منذ كارثة صمبر كوري، وانما اكتفى بارسال البطارقة والقواد إلى ميادين القتال، ومواجهة الامام الغازي وانقاذ ما يمكن انقاذه من فتوحاته وويلات حروبه التي لم

٣٩ - دائرة المعارف الاسلامية، مادة الحبشة، ص ٢٨٤ / فتوح الحبشة ص ٢١ - ٢٢.
٤٠ - فتوح الحبشة ص ٣٦ - ٣٩.
٤١ - نفسه ص ٦٨.
٤٢ - نفسه ص ٤١ - ٤٣.
٤٣ - احمد عبدالله ريراش كشف السدول عن تاريخ الصومال وممالكهم السبعة مقديشو ١٩٧١، ص ٣٦/ فتوح الحبشة ص ١٧٣.
٤٤ - دائرة المعارف الاسلامية مادة احمد جران، ص ٢٨٦.

تشهد الحبشة مثيلاً لها عبر تاريخها الطويل[٤٥]. قررت ـ على ما يبدو ـ موقعة صمبر كوري مصير الصراع الحبشي المسيحي في المنطقة وعلى هذه الفترة الحرجة في التاريخ. واعتقد الامام الغازي ان معركة صمبركوري لها ما بعدها وستتبعها انتصارات اخرى، فقضى السنوات الاربع عشرة التالية يجتاح الحبشة حتى التجرى شمالاً، والـد اموت غربا، وتخوم مجاري نهر هواش شرقا[٤٦]. وفي سنة ٩٣٧هـ ١٥٣٠م منى الاحباش بهزيمة قاصمة اخرى في موقعة (انطاكية) التي يقال ان المسلمين استخدموا المدافع لدك حصون الاحباش فاضطربت صفوفهم وتهدمت حصونهم المنيعة[٤٧].

لقد فقد ملك الحبشة كل امل في المقاومة، فتحصن في عاصمته الواقعة في منطقة وعرة وحصينة حيث تحيط الجبال بها ولها خمسة ابواب غير ان الامام وجيشة الجبار توجه إلى عاصمة الحبشة نفسها في عام ٩٣٨هـ ١٥٣١م، وأسرع الخطى نحوها قبل ان تصل اخبار زحفه إلى ملك الحبشة، وسرعان ما ضرب حصاراً حول العاصمة وعلى ابوابها جرت معركة (جبل واصل) التي فرضت على القوات الحبشية الانسحاب الفوري من المواقع الامامية بعد ان اشيع اثناء الموقعة خبر مقتل الملك، ولكنه نجا من الاسر باعجوبة مختفياً في الغابات الكثيفة حتى حلول الظلام وهطول الامطار الغزيرة وعندئذ هرب إلى منطقة جوجام يطارده الخوف وشبح الامام احمد الغازي[٤٨]. وبحلول عام ٩٤٠هـ ١٥٣٣م تمكنت قواة المسلمين من بسط سيطرتها على اقليمي امهر ولا ستا، وعبرت وحدات اخرى من الجيش النيل الازرق، مكتسحة اقليم جوجام الوعر ومواصلة سيرها عبر سهول دمبيا متجهة نحو جندر، وحينئذ يهرب الملك وبطانته من هناك بحثاً عن ملجأ يلجأون اليه[٤٩].

وفي نفس العام المذكور قاد الامام جيوشه الغازية إلى الشمال لفتح اقليم التجري، الذي لم تمنع وعورته الشديدة ومقاومة سكانه المستميتة من احتلال جيش المسلمين على مدينة اكسوم التاريخية التي ما لبث علم اوفات الابيض يرفرف في سماء هذه المدينة التي كانت العاصمة الدينية للحبشة يومذاك[٥٠] نظراً لأن التجري يسود فيها القحط وقلة المؤن الغذائية للجيوش الاسلامية، ونظراً لانتشار الطاعون في صفوف جيش المسلمين حتى مات بجرائه عدد كبير منهم، فقد صرف الامام النظر عن هذا الاقليم حيث نقل مركز عملياته إلى اقليم بجمد يرا شمالي جوجام[٥١]. وفي عام ٩٤٢هـ ١٥٣٥م استنجد لبنا دنجل ـ بعد عجزه في التغلب على قوات المسلمين او على الاقل صدها ـ بالبرتغاليين، ولاظهار جديته للحصول على مساعداتهم العسكرية، قام بتعيين المبشر البرتغالي جون برمودز، الذي كان في الحبشة منذ عام ١٥٢٠م مطراناً على الكنيسة الحبشية على الرغم من ان هذا المطران الجديد كاثوليكي متعصب لمذهبه. ولطلب النجدة وجذبها إلى الحبشة سافر هذا المطران إلى البرتغال في السنة المذكورة، ولكن لبناد نجل قد هلك قبل وصول النجدة المرتقبة إلى بلاده[٥٢].

بلغت الفتوحات الاسلامية في عهد الامام احمد ابراهيم القمة في عام ١٥٤٠م، ونلاحظ في هذه الحركة ونجاحها الباهر وانتصاراتها الرائعة فيما يلي :ـ

أولاً : لقد غير الامام الخطط الحربية التقليدية بين الدولتين، والتي كانت قبله عبارة عن غارات يقوم بها الجانب القوي على الحدود مع تفادي ـ الا في حالات محدودة وبسيطة ـ عن التوغل او الاستقرار في بلاد العدو[٥٣]. أما الامام فقد نقل معظم قواته وأسرها واتباعه إلى مرتفعات الحبشة للاستقرار فيها وحتى يتسنى لهذه القوى الاسلامية نشر الاسلام في البلاد المفتوحة. ويوضح اهدافه هذه من الفتوحات الاسلامية في رسالة بعثها إلى ملك الحبشة مبيناً فيها ان المسلمين لن يثنون عن عزمهم في فتح الحبشة حتى يفتح الله لهم اويموتوا دونها[٥٤].

ثانياً : كانت الحروب التي سبقته سجالاً بين الطرفين بينما

٤٥ ـ رونالد اوليفر افريقيا في العصور الوسطى (بالانجليزية) لندن ١٩٨١، ص ٥٣.

٤٦ ـ نفسه ص ٥٣.

٤٧ ـ فتوح الحبشة ص ١٢٤.

٤٨ ـ نفسه ص ٢١٤ ـ ٢٢١.

٤٩ ـ نفسه ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

٥٠ ـ د. الامين عبدالكريم الصراع بين القوى الاسلامية والمسيحية في اثيوبيا، مجلة دراسات افريقية، العدد الاول، الخرطوم، ١٩٨٥، ص ٥٥.

٥١ ـ فتوح الحبشة، ص ٣٣٠ ـ ٣٣٣، ٣٣٩ ـ ٤٠.

٥٢ ـ فتحى غيث، الاسلام والحبشة عبر تاريخ، القاهرة بلا تاريخ، ص ١٥٣.

٥٣ ـ فتوح الحبشة، ص ٤٧ ـ ٤٨.

٥٤ ـ نفسه ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

كانت حروبه وفتوحاته حرباً من جانب واحد حيث استطاعت جيوشه الاسلامية اجتياح الحبشة الوعرة في مدة بسيطة، ومن جنوبها الشرقي حتى شمالها الغربي، وعبرت نهر هواش، والنيل الازرق، تنهار امامها الجيوش الحبشية، ويفر الملك من وجه الجيوش الفاتحة مما يدل على روح اليأس التي استولت على الحبشة وفقدها كل أمل في امكان المقاومة(٥٥)

ثالثاً : قوة الدافع الديني في الجيش الغازي وتجسمه فيهم، كما انضمت إلى هذه الجيوش جيوش مسلموا الممالك الاسلامية التي خضعت لفترة من الفترات إلى حكم الحبشة(٥٦).

رابعاً : لقد ساعد تكوين الحبشة على ان تلعب الكنيسة دوراً قيادياً لانها كانت تدير ثلث الاراضي الزراعية في البلاد مما يجعلها اكبر مالك في جهاز الدولة. وتولى البطريق السلطة الدينية بجانب السلطة الزمنية للمقاطعة حسب ما كان يقتضيه النظام الاقطاعي في الغرب خلال العصور الوسطى. اما في الحبشة وهي بلاد وعرة وصعبة المسالك فهي ايضاً حصون طبيعية منيعة يلجأ اليها الهاربون والمضطهدون، وقلما يكون سكانها شعباً واحداً، بل يختلفون في الصفات والميول والاغراض والشعور. ومن الصعوبة بمكان - في هذه الحالة - تكوين وحدات سياسية تخضع لحاكم واحد، وسلطة مركزية، لتأصل روح الوحدة والعزلة فيهم، فالعامل الوحيد الذي يمكن ان يجمع شتات هؤلاء القوم هو الغزو الواقع عليهم أو محتمل الوقوع، ويلتفوا عند ذلك حول رجل الساعة، وتزول وحدتهم بالزوال الخطر المفروض عليهم. وحتى اندامت هذه الوحدة - لسبب من الاسباب - فهي واهية العرى والاوصال. فبهذا التكوين السياسي والجغرافي والعنصري للحبشة اصبح البطريق الحبشي زعيم المقاطعة دينياً وسياسياً في آن واحد ولا يدين للنجاشي الا طاعة اسمية فقط(٥٧). وهكذا فانه لا يمكن تفسير الهزيمة الكاملة لجيوش الاحباش الجبليين المقاتلين، تحت ضربات جيش الامام الغازي، بانها كانت لمجرد الروح الحماسية لقيادة الامام، ومقدرته على التنظيم وحثه القبائل الاسلامية على الجهاد فحسب، بل يجب ان نضع في الاعتبار بالحقيقة القائلة ان الجيوش الحبشية قد ضعفت للتراخي العميق في اخلاقها، والدكتاتورية الفردية للاحباش، بينما رأوا عن قرب تلك الروح الاسلامية التي ظهرت بصورة جلية على المشورة بين جميع افراد الجيش الاسلامي عند ما يهمهم امر ذوبلل، ولم يستطع الاحباش حينئذ كبح جماح بطارقة الاقطاعيات الذين رأوا وايقنوا ان عرش الاقطاعيات والكنيسة قد سقطتها على عروشهما(٥٨).

خامساً: يرى بعض المؤرخين ان الدولة العثمانية قد قامت بمساعدات الامام في فتوحاته الخالدة ولكن ذلك لا يمكن ان يثبت امام البحوث التاريخية الحقة ذلك لان الدولة العثمانية التي بلغت اوج عظمتها وقوتها في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) قد ضعف مركزها في البحر الاحمر في السنوات الاولى من امتداد حكمها اليه. وكان العثمانيون يشعرون بالمسؤولية امام معاصريهم من المسلمين، وتزايد الخطر البرتغالي في البحر الاحمر والمياه الشرقية، مما يمثل تهديداً مباشراً للنفوذ العثماني في البحر الاحمر، وتهديد الحرمين الشريفين اللذين دخلا في نفوذ الخلافة العثمانية. ولهذه الاسباب كان العثمانيون مضطرين إلى تقديم يد المساعدة لفتوحات الامام احمد بن ابراهيم حتى يتمكن من اجهاض حركة التعاون الحبشي البرتغالي الصليبي الذي ظهر في مسرح الاحداث في منطقة القرن الافريقي. الا أن العثمانيين كانوا يعانون من تعدد الجبهات في اوروبة وفي الشرق الادنى لذلك لم يستطيعوا أن يقدموا اية مساعدات إلى الامام الذي لم يطلب منهم بدوره اية مساعدات مادية او معنوية حتى قبل ظهور الجيش البرتغالي المسلح باحدث اسلحة في

٥٥ - د. زاهر رياض مرجع سابق ص ٢٠٩.
٥٦ - فتوح الحبشة ص ٢٨١، ١٤٠.
٥٧ - حسن محمد جوهر، الحبشة، القاهرة ١٩٤٧، ص ٣٦.
٥٨ - تريمنجهان مرجع سابق ص ٩٠.

ميدان الحروب في سنة ١٥٤٢م. وكان ذلك بعد ان فتح المسلمون معظم اراضي الحبشة مما يجعلنا نستطيع القول بأن اتباع الامام قد اعتمدوا على مجهوداتهم الذاتية في فتح هذه البلاد، كما أنه لم يتغير وضع العثمانيين في البحر الاحمر الا بعد الحملة العثمانية بقيادة سليمان الخادم في سنة ٩٤٥هـ ١٥٣٨م الذي استكمل فتح اليمن فقوى مركز العثمانيين عند ذلك في سواحل البحر الاحمر الآسوية فقط(٥٩).

لقد تم للبرتغاليين ـ كما هو معروف ـ السيطرة على المياه الشرقية، وكذلك نجحوا في الاتصال مع الحبشة بغية تنفيذ اهداف صليبية. وفي بعض الاوقات حمل المماليك في مصر لواء الجهاد الاسلامي التي كانت مضادة في الحركة الصليبية في المياه الشرقية، ثم جاء دور العثمانيين بعد دخولهم مصر في عام ١٥١٧م. وحاول البرتغاليون القضاء على القوة البحرية العثمانية في البحر الاحمر. وفي عام ١٥٤١م ارسل البرتغاليون مساعداتهم العسكرية إلى الحبشة التي تمثلت في حملة عسكرية بقيادة (كر يستوفر داجاما) وكانت الحملة مكونة من اربعمائة جندي مجهزين باحدث الاسلحة والمعدات الحربية الاخرى ومن بينهم سبعون عاملاً فنياً ممن اعدوا في الهند للاقامة في الحبشة. ووصلت تلك الحملة إلى ميناء مصوع في التاسع من شهر يوليو من العام المذكور(٦٠). ونجح القس (جون برمودز) الذي كان مع الحملة القادمة من البرتغال في تحريض جنود الحملة على الدخول إلى الحبشة للتمتع بالحياة الناعمة فوق هضابها، أو بالجنة المنتظرة هناك(٦١) لقد حاول الامام احمد ابن ابراهيم ان يحول دون وصول القوات البرتغالية إلى عمق الحبشة فالتقى بها عند بحيرة أسالي في شمال منطقة الدناكل، وتبادل القائدان احمد وكريستوفر الرسائل وتوضح محتويات رسالة الامام بأن الحبشة قد خدعت البرتغاليين وانه مستعد من اجل الشفقة والرحمة للشبان البرتغاليين ان يعطيهم المؤنة والمياه واذن مرور مجاني دون تعرض لهم حتى يمكنهم الرجوع إلى ميناء مصوع. اما كريستوفر فقد اجاب بأنه وجموده قد جاءوا لنصرة الحبشة ومساعدتها من اجل اخراج جنود المسلمين من بلادها، فعلى الامام احمد ان يختار بين ملاقاته في ميدان المعركة وبين استسلام. وأثار هذا الرد ثائرة الامام الذي نهض بسرعة وشن هجوماً ـ وهو في حالة غير طبيعية ـ على القوات البرتغالية التي بلغت ثلاثمائة وخمسون جندياً، وجرت هناك معركة أسالي التي لم تشترك فيها اية قوات حبشية وسرعان ما سقط المغاربة التسعة الذين كانوا يشتغلون في سلاح المدفعية في الجيش الاسلامي، كما جرح الامام احمد جراحة طفيفة، فانهزم الجيش الاسلامي بقادة الامام فانسحب المسلمون إلى جبل زابول على سهل دناكل، وشرع الامام بتنظيم قواته وعلى ضوء التطورات الحديثة وبصورة تتوازن مع الجيش البرتغالي(٦٢).

لقد سارع الامام في هذه اللحظة إلى طلب المساعدات العسكرية من العثمانيين في زبيد، فارسل اليه مصطفى باشا النشار ـ اول ولاة العثمانيين في اليمن ـ حملة مكونة من خمسمائة وقيل تسعمائة جندي مزودين بالبنادق وعشرة مدافع كبيرة. كما تلقى الامام احمد مساعدات حربية من شريف مكة قوامها حوالي الف محارب، وعندئذ اتخذ الصراع المحلي في منطقة قرن افريقيا صفة الصراع الدولي ذلك لوقوع الصراع واحتدامه بين العثمانيين والبرتغاليين في هذه المنطقة(٦٣).

وبهذه المساعدات انتصر الامام احمد انتصاراً ساحقاً على الجيش الصليبي في معركة «افلا» او «وفلا» ولقى حوالي مائتين من زهرة الضباط والقوات البرتغالية حتفهم، حتى هرب القائد كريستوفر دا جاما وحفنة من جنوده الباقية من ميدان المعركة. واستولى المسلمون على العتاد الحربي للمقاتلين البرتغاليين، كما اكتشفو القوات الاستطلاعية بعد المعركة بقليل مكان اختفاء القائد الهارب وعند مثوله امام الامام الغازي فقد كلفت ردوده غير المهذبة على حياته(٦٤).

في الواقع لقد ارتكب الامام القائد المجاهد احمد بن ابراهيم خطأً جسيماً وقاتلاً في آن واحد في تقدير الحسابات وتقييم الظروف الدولية والمحلية وقت ذاك اذ انه بعد هذه المعركة اذن لفرقة العثمانيين بالانصراف والرجوع إلى مدينة زبيد، وكان ذلك

---

٥٩ ـ د. السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الاول لليمن، القاهرة ١٩٧٤، ص١٣٨.

٦٠ ـ نفسه ص ٤٠١ ـ ٤٠٢.

٦١ ـ نفسه ص ٤٠٣.

٦٢ ـ سير ريتشارد بورتون، الخطوات الاولى في شرق افريقيا (بالانجليزي) لندن ١٩٦٦ ص ١٨٠.

٦٣ ـ حسن احمد محمد مرجع سابق ص ٤٦٧.

٦٤ ـ دائرة المعارف الاسلامية مادة احمد جران ص ٢٨٦.

في اعتقاده السليم بتحسن مركزه وان انتصاره هذا على القوات البرتغالية انتصار نهائي. وربما كان الامام احمد خائفاً على العثمانيين انفسهم الذين سيطروا على اجزاء كبيرة من العالم الاسلامي تحت ستار خلافة اسلامية لم يكن الامام مستعداً للدخول إلى احضان هذه الخلافة العثمانية خصوصاً وانه يحمل لقب امام المسلمين في منطقة قرن افريقيا[٦٥].

استشهاد الامام احمد (جرى)

رجع الامام احمد بعد انتصاره في المعركة المذكورة وطرد العثمانيين - إلى مركز عملياته قرب بحيرة تانا بينما ضم جلاوديوس ملك الحبشة فلول جيشه، وما تبقى من القوات البرتغالية وعقدت القيادة العامة لهذه القوات الصليبية إلى «بدروليونى» البرتغالي، وزحفت الجيوش الصليبية على معسكر الامام بصورة مفاجأة في عام ٩٤٩هـ ١٥٤٣م واحرزت انتصاراً ساحقاً في معركة عرفت باسم معركة وينادیجا قرب بحيرة تانا، واستشهد فيها الامام الغازي احمد بن ابراهيم ذلك البطل العربي المغوار الذي طالما نشر الاسلام وانتصر في معارك كثيرة[٦٦].

وهكذا نجح البرتغاليون - حملة لواء اهداف استعمارية وصليبية - في القضاء على المجاهد العربي الاسلامي الكبير احمد ابن ابراهيم (جرى) ولكن ذلك لم يكن قضاء على النفوذ الاسلامي في هضاب الحبشة بجوندر وجوجام والتجرى وبيجمدير التي ما زال فيها المسلمون، وكان ذلك بفضل فتوحات الامام احمد بن ابراهيم الغازي.

٦٥ - د. السيد مصطفى، مرجع سابق ص ١٤٣.

٦٦ - د. جمال زكريا، مرجع سابق ص ١٣١ / تريمنجهان مرجع سابق، ٨٩.

رشيد رضا ومجلة المنار
ما بين ١٨٩٨ و ١٩١٩

د. محمد رجائي ريان
كليــة الآداب
جامعة اليرموك

مقدمة :

ان الفترة التي تتناولها هذه الورقة ما بين ١٨٩٨ و ١٩١٩، فترة هامة في التاريخ العربي الحديث، برزت فيها احداث اثرت على الحياة الفكرية وبالتالي على التكوين الفكري في الوطن العربي، وهي الفترة التي لم تدرس بعد بصورة منهجية استناداً إلى الصحافة العربية الغنية جداً، وهي صحافة لعبت دوراً حاسماً في الحياة الفكرية العربية وفي السياسة، طوال العشرين سنة الأولى من القرن العشرين لاسيما في سورية ومصر[١].

ومن هنا جاء الهدف الاساسي لهذه الدراسة، دراسة فكر محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار، حيث بث فيها في تلك الفترة آرائه التي تتعلق بالاصلاح الديني والاجتماعي والتعليمي، ومن آراء سياسية برزت خلال مواقف واحداث سياسية حدثت في تلك الفترة أيضاً.

ولما كان من الصعب الفصل بين حياة محمد رشيد رضا الأولى وتعليمه وتربيته حيث تم صقل شخصيته مع تأثير الأساتذة الذين اتصل بهم فأثروا في تلك الشخصية وتلك الآراء المتعددة الجوانب التي جاءت على شكل فكر مميز على صفحات مجلة المنار، فقد تم تقييم الدراسة في هذه الورقة كما يلي:

(١) حياته الأولى وتعليمه وتربيته

محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس بن محمد بهاء الدين القلموني البغدادي الأصل الحسيني النسب[٢]. ولد في قرية القلمون على الشاطىء الشمالي في جبل لبنان الذي يحف بمياه البحر المتوسط، وهي تبتعد عن مدينة طرابلس ـ الشام زهاء ثلاثة اميال وذلك عام ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م[٣].

ومعرفتنا بطفولة محمد رشيد رضا وتعليمه وتربيته وحتى تصوفه، جاءت في رواية رشيد رضا في كتابه المنار والأزهر، حيث أحس بحاجة ملحة ليتكلم عن ذلك ليصور الظروف التي كونت شخصية ونسق افكاره وتطلعاته في الحياة، وكان مبعث هذه الحاجة في نفسه تصوره أن حياته الأولى في قرية القلمون ومدارس العلم التي ارتادها في طرابلس والعلماء الذين ذاكرهم لم تعد شأناً خاصاً به وأياماً خالية تتعلق بشخصه، بل «هي مادة من تاريخ الاصلاح الاسلامي في ذلك العصر الذي عاش فيه»[٤].

---

(١) نقصد بسورية، سورية الطبيعية أي بلاد الشام، والتي شكلت عدة ولايات في العهد العثماني إلى أن هزمت الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، فجزئت إلى الاقسام المعروفة بسورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي وفلسطين والاردن تحت الانتداب البريطاني.

(٢) خير الدين الزركلي، الأعلام، مجلد (٦)، (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٨٤)، ص١٢٦.

(٣) الحسيني النسب جاءت من قصة تاريخ العائلة المتناقل إلى آل البيت فرع الحسين بن علي، وكان هذا الانتساب يحدد موقعاً في الهرم الاجتماعي في الدولة الاسلامية يسمح بممارسة سلطة دينية تطال مجالات سلطوية عديدة. راجع: وجيه كوثراني، مختارات سياسية من مجلة المنار، (بيروت : دار الطليعة، ١٩٨٠)، ص٥. وايضاً ابراهيم احمد العدوي، رشيد رضا الامام المجاهد، (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة د. ت) ص١٩.

(٤) محمد رشيد رضا، المنار والأزهر، القاهرة ١٣٢٣هـ / ١٩٣٤م، ص ١٩٤.

أما عائلته فيحدثنا رشيد رضا عن موقعها بقوله «وأهل بيتنا ممتـازون فيهم بأنهم أهـل العلم والارشـاد والـرياسـة ويلقبون بالمشـايخ للتمييز وجـدي الثـالـث هو الـذي بنى لهم المسجـد المعروف الآن بجانب بيتنا القديم الذي ولدت فيه. وكان لهم مسجد قديم هدم وتقاسم حجارته ولغلبة الجهل عليهم، فأحيا جدنـا الدين ببناء المسجد واقامة الشعائر فيه من امامة وخطابة وتدريس، وكان عالماً صالحاً مشهوراً بالكرامات، وقد أنعم عليه السلطان العثماني ببراءة سلطانية»[٥].

وفي موضـع آخر يقول عن عائلته «بيت كرم وضيافة كما كتب على لوح الرخام الذي على الباب الكبير الذي بناها جدي الثاني، يقبل الضيوف من جميع الملل ويؤوي أبناء السبيل من جميع الاقطار، وعهدي بأكبر علماء طرابلس وحكامها ووجهائها يغشون دارنا في أيام الصيف ويقيمون فيها اياماً»[٦]. ثم يجمل رشيد رضا وصف أسرته فيقول، وجملة القول «أنني نشأت في بيت شرف وكـرامـة ودين وتقوى وعزة نفس، يعتقد الناس تسلسل الولاية فيه ويتبركون بكبار رجاله، وفي سلسلة نسبنا عدة رجال كانوا يلقبون بالصوفي، وكان عندنا خزانة كتب موروثة فيها كتب نادرة في جميع العلوم حتى علم الفلك»[٧].

أمـا بالنسبـة لتعليمـه، فقـد التحق أولاً بكتـاب قرية القلمـون، وكان والده يماطل في ارساله إلى طرابلس ليتعلم في مدارسهم خشية تعرضه لتجربة الفساد في معاشرة أهل المدينة، ولم يبـدأ طلب العلم في مدارس طرابلس الا بعد أن بلغ سن الـرشـد ووثق والده بدينه واخلاقه[٨]، فدخل المدرسة الرشدية بطرابلس لمدة سنة فقط، ثم تركها لعدم رغبته في العمل لدى الحكومة، ثم انتقل إلى المدرسة الوطنية الاسلامية، ويقول رشيد رضا في صدر ذلك «أنها أرقى من المدرسة الرشدية، وكان استاذنا العلامة الشيخ حسين الجسر الأزهري هو المدير لها بعد أن كان هو الذي سعى لتأسيسها، لأن رأيه أن الأمة الاسلامية لا تصلح وتـرقى الا بالجمـع بين علوم الـدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصرية الأوروبية والاميركانية»[٩].

بقي رشيد رضا عدة سنوات في هذه المدرسة، حتى أقفلت لأن الحكومة العثمانية لم تقبل أن تعدها من المدارس الدينية التي بعض طلابها من الخدمة العسكرية، فكان ذلك سبباً لالغائها فحـرمت مدينـة طرابلس وملحقـاتهـا من فوائدها لجهل الدولة وغبـاوتهـا وتفـرق طلبتهـا فذهب بعضهم إلى مدارس بيروت المختلفة وانقطع بعضهم للطلب في المدارس وانا منهم»[١٠].

وكان تأثير المدرسة الوطنية الاسلامية بطرابلس في رشيد رضا كبيراً وهو تأثير ذو اتجاهين: الاتجاه الأول حيث كان التحاقه بها في عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م وكان إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمـره والتعليم فيها باللغة العربية واللغتين التركية والفرنسية، والاهتـمام فيهـا بالعلوم العـربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفـة والطبيعة، والاتجاه الثاني حيث أصبح الشيخ حسين الجسر مدير تلك المـدرسة الأستاذ الأول لرشيد رضا وصاحب الفضـل في توجيهه إلى كثير من المعارف والعلوم، وحتى عندما أغلقت هذه المدرسة لم يفقد رشيد رضا صلته باستاذه الأول وظل ينهـل الكثـير من علمه ويستفيد من خبرته، حيث اشتهر هذا الأستـاذ بالمـامه الواسع بالعلوم العصرية وكان يتحرى السهولة والبيان في كل ما يكتب ويتجنب المناقشات اللفظية وهي الأمور التي ميزته ممن تلقى العلم في الأزهر.

وظل رشيد رضا موضع تقدير أستاذه الشيخ الجسر ويجد منه كل تشجيع وتقدير فأتاح له أن يكتب في صحف طرابلس، وصار ما يكتب في الصحف موضع اهتمام القراء وعنايتهم[١١]. وكان أهم ما أخذه عن الشيخ الجسر العلوم الشرعية حيث يقول «تخرجت في العلوم العقلية على الشيخ حسين الجسر»[١٢].

أما عن الحديث، يقول رشيد رضا «أخذت الحديث وفقه الشافعية عن شيخ الشيوخ العلامة الشيخ محمود نشابه، وكان قد أقام في الأزهر، متعلماً ومعلماً ثلاثين سنة، وتلقى كتب الحديث المشهورة كلها»[١٣] وعن هذا الشيخ أخذ الاجازة في الحديث وبلغ

(٥) شكيب ارسلان، السيد رشيد رضا واخاء أربعين سنة، دمشق ١٩٣٧، ص٢٤.

(٦) محمد رشيد رضا، المنار والأزهر، ص ١٣٤.

(٧) المرجع ذاته، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

ويشير شكيب ارسلان في كتابه عن رشيد رضا، أن رشيد رضا عندما يكتب عن عائلته يكتب بما يشبه ان يكون تمدحاً وهو لم يقصد في ذلك الا تبديد الشبهات التي أثارها اعداؤه في حقه.

راجع: شكيب ارسلان، المرجع السابق، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٨) ابراهيم احمد العدوي، المرجع السابق، ص٢٣.

(٩) المنار والأزهر، ص ١٤١.

(١٠) شكيب ارسلان، المرجع السابق، ص ٢٤.

(١١) العدوي، ص ٢٤ ـ ٣٠.

(١٢) المنار والأزهر، ص ١٤١.

(١٣) المرجع ذاته والصفحة.

درجة عالية ساعدته على أن ينتقد مما في الكتب الاحاديث الضعيفة والموضوعة[١٤].

ويعلق رشيد رضا على اهتمامه بالحديث «وقد فتح لي الانتقال بالحديث رواية ودراية باب الانتقاد على كتب الوعظ والفقه والآداب ودواوين الخطب»[١٥]. وهذا الاهتمام كان له أثره في توجيه رشيد رضا نحو نزعة ابن تيمية في العودة إلى النصوص وتحقيقها.

وعن العلماء الآخرين الذين تأثر بهم، يقول رشيد رضا «لقد حضرت على العلامة الشيخ عبدالغني الرافعي قليلاً من كتاب نيل الاوطار للقاضي الشوكاني وتلقيت عن العالم المحدث العابد الشهير القاوقجي الكثير من الاحاديث المسلسلة وبعض كتابه المعجم الوجيز»[١٦].

لقد دأب رشيد رضا في هذه الفترة من حياته على حضور جلسات العديد من علماء طرابلس وأخذ يدلي برأيه فيها، ومنها حلقات الاستاذ محمد الحسيني ومناقشاته في كتب الأصول والمنطق مع الشيخ محمد كامل الرافعي، فكان رشيد رضا يسمع تحاورهما في ادق المسائل ويبدي رأيه فيما يتناقشان فيه[١٧].

أما مصادر تحصيله الثقافي فقد جاءت من الكتب التي قرأها وكانت كلها تقريباً من كتب التراث، فهو يحدد ميوله فيقول: «فكنت في أول النشأه صئوماً عبادة وتخلقاً مع ميل شديد إلى الأدب»[١٨]. وكان أول كتاب تأثر به كتاب احياء علوم الدين للغزالي[١٩]، يقول عن هذا الكتاب «اعجب كتب التصوف إلى، فهو الذي طالعته كله، وكنت أكثر مراجعته وقراءة بعض ابوابه عوداً على بدء، ثم صرت أقرأه للناس، وكان له أكبر التأثير في ديني واخلاقي وعلمي وعملي»[٢٠].

وحول الكتب التي تأثر بها يقول رشيد رضا «وكان يعجبني من كتب الشعراني» اليواقيت والجواهر «لقلة الخرافات فيه وكثرتها في سائر كتبه ولا سيما الطبقات»[٢١]. كذلك كتاب ميزان الاعتدال من الهند إلى طرابلس[٢٢]، وطالع كتاب «النقش في الحجر في مبادىء العلوم العصرية للدكتور فانديك، ثم مطالعة المجلات العلمية كالمقتطف والطبيب»[٢٣].

أما بالنسبة للنقد، فقد درس المصباح الكبير، وتلقى على أستاذه الشيخ حسين الجسر شرح ابن عقيل للألفية وحاشية الخضري على الشرح والأشموني وحاشية الصبان[٢٤].

وفي اعتقادي أن هذه الكتب المتعددة شكلت ثقافة رشيد رضا وساهمت في تحديد آفاق تحركه المستقبلي ومع تأثير استاذه وتربيته التي أحاطت بتعليمه حتى تلك المرحلة من حياته، من كل ذلك تشكلت أسس تكوينه الروحي.

وكان من الطبيعي ان يتصوف رشيد مع المتصوفين ويقول «ان الذي حبب اليه التصوف كتاب احياء العلوم لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي»[٢٥]. وفي التصوف سلك الطريقة النقشبندية التي جعلته في هذه المرحلة من حياته أن يقف على اسرار هذه الرياضة الروحية بمحاسنها ومساوئها، وهو الأمر الذي هيأها في المستقبل للمناداة باصلاح الطرق الصوفية[٢٦].

وكان لانخراط رشيد رضا بالصوفية سلبيات، لكن لذلك أيضاً ايجابيات، وهذا ما يؤكده لنا أنه في تلك المرحلة من حياته كان يدعو إلى الاصلاح الخلقي ويحض على الفضيلة وعلى التمسك بأهداف الدين، ودعوته هذه كانت تظهر على شكل مقالات في جريدة طرابلس الذي كان يكتب افتتاحيتها استاذه الجسر، كما عزز من ذلك كتابه «الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية»[٢٧]، وأهمية هذا الكتاب أنه يدل على مدى رفض رشيد رضا لبعض مزاعم المتصوفين والسياسة التي تدعو لهم[٢٨].

(١٤) العدوي، ص٣١.

(١٥) شكيب ارسلان، ص ٤١.

(١٦) المنار والأزهر، ص١٤١.

(١٧) العدوي، ص ٣١ - ٣٢.

(١٨) المنار والأزهر، ص ١٤٠.

(١٩) محمد بن محمد الغزالي الطوسي، حجة الاسلام، فيلسوف ومتصوف، له مئتي مصنف، أما كتابه «احياء علوم الدين» فقد طبع في اربع مجلدات.

(٢٠) المنار والأزهر، ص ١٤٠.

(٢١) المرجع ذاته والصفحة.

(٢٢) المرجع ذاته، ص ١٤٢.

(٢٣) المرجع ذاته والصفحة.

(٢٤) المنار والأزهر، ص ١٤٠.

(٢٥) المرجع ذاته، ص ١٤٣.

(٢٦) العدوي، ص ٣٦.

(٢٧) يذكر حسين ضناوي «أن هذا الكتاب لم يعرف النور مطلقاً»، بل نشرت بعض فصوله في المنار في المجلد الأول. راجع كتابه «السيد رشيد رضا، فكره ونضاله السياسي (طرابلس: دار الانشاء للصحافة والطباعة والنشر، ١٩٨٣)، ٤٩ - ٥٠.

(٢٨) حول تجربة رشيد رضا مع الصوفية، راجع: المنار، جزء ١١، (١٩٠٨ - ١٩٠٩) ص ٨٧٦ وأيضاً: العدوي، ص ٣٧ - ٤٠.

ونستخلص مما سبق أن رشيد رضا انحدر من بيت أهله أهل علم وارشاد ودرس على علماء أفاضل واحاط بكتب عديدة، فصقلت موهبته وروحه فاتجه نحو الاصلاح في سن مبكرة، ولذلك لما انخرط بالصوفية غلبت عليه ايجابياتها ونبذ سلبياتها، بل وهاجم تلك السلبيات بالوسائل التي أتيحت له.

ولكن كان لا بد من دخول مؤثرات حاسمة لتكتمل تلك الموهبة وتنطلق تلك الروح وكان هذا ما تم من جريدة العروة الوثقى أولاً ثم افكار اصحاب هذه الجريدة جمال الدين الافغاني ومحمد عبده، في المدى الذي تأثر فيه من هؤلاء.

العروة الوثقى: كان للعروة الوثقى وهي الجريدة التي كان قد أصدرها في باريس جمال الدين الافغاني ومحمد عبده(٢٩)، الاثر الحاسم في اثارة الأسئلة الكبرى في حياة رشيد رضا وممارساته حول الاسلام كدين ودولة.

في البداية نذكر كيف استطاع رشيد رضا العثور على اعداد هذه الجريدة، يقول «أني لا أزال أتذكر أنه كان بدارنا في القلمون بجوار طرابلس الشام (في سنة ١٣٠٢هـ) ضيوف من المصريين المنفيين بسبب الحوادث العرابية، فجاءت جريدة العروة الوثقى مساء، فأخذها الاستاذ الشيخ محمد عبدالجواد القاياتي المشهور، وقد وضع بين يديه مصباح من مصابيح زيت البترول، وانشأ يقرؤها بصوت جهوري كأنه خطيب، ويقف عند بعض الجمل، ليعبر عما يخالجه من شعور العجب، ولم يتركها حتى أتى على آخرها، ولم أكن في ذلك الوقت أعني بشيء من مثل هذا، بل كانت تلك السنة هي السنة الثانية لانشغالي بطلب العلم»(٣٠).

ويذكر أيضاً «أنه ظفر بنسخة من تلك الجريدة في أوراق أبيه، فأكد على قراءتها في شوق وتلهف، ثم أخذ ينتقل من نزل إلى آخر باحثاً عن الأعداد الباقية، حتى إذا وجدوها نسخها بيده واستطاع ان يكمل مجموعة الأعداد التي صدرت من نسخ كانت عند الشيخ حسين الجسر»(٣١).

اما تأثير العروة الوثقي بعد أن نسخ اعدادها تلك فيصفه بقوله «كان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال والاشتعال ما قذف بي من طور إلى طور ومن حال إلى حال»(٣٢). ويذكر ابراهيم أحمد العدوي «ان اتصال رشيد رضا بالعروة الوثقي أدى إلى دخوله في عهد جديد من حياته العلمية وكفاحه في ميدان الاصلاح»(٣٣).

والحقيقة أن دعوة العروة الوثقى التي اعتبرت العودة إلى قواعد الدين الاسلامي والأخذ بأحكامه العلاج الناجح للأمة الاسلامية(٣٤). وحددت منهاجها في العمل من أجل المقاومة ضد الغزو الأوروبي الذي هدد العالم الاسلامي وخاصة بعد احتلال الانجليز لمصر، هذا العلاج وذلك المنهاج في العمل تلاقت مع ما في نفس رشيد رضا من الرغبة إلى الارشاد والدعوة مما دفعه للخروج من الحلقة الضيقة التي كان يعمل بها في القلمون وطرابلس وربطت تطلعاته بالاصلاح العام(٣٥).

كذلك فقد استوعبت رشيد رضا دعوة العروة الوثقى إلى حث الشرقيين على التضامن ودعوتها الدولة العثمانية للدفاع عن مصر والعالم الاسلامي ضد الخطر البريطاني، والمقالات التي كتبتها العروة الوثقي في هذا الموضوع أصبحت الأساس الذي أقام عليه رشيد رضا سياسته فيما بعد تجاه العثمانيين(٣٦).

رشيد رضا ومحمد عبده:

بعد التقاء رشيد رضا روحياً وفكرياً مع العروة الوثقي تم اللقاء بين رشيد رضا ومحمد عبده، وكان هذا قد تم عندما زار الأخير طرابلس بعد رجوعه من باريس واقامته في بيروت يدرس

(٢٩) أصدرت الجريدة ثمانية عشر عدداً في ثمانية أشهر، العدد الأول منها في ١٥ جمادي الأول سنة ١٣١٠هـ، ١٣ مارس ١٨٨٤م، وظهر العدد الأخير في ٢٦ ذي الحجة ١٣٠١هـ - ١٧ اكتوبر ١٨٨٤، وخصصت في العدد الاول أغراضها، للاطلاع على ذلك راجع: حسين ضناوي، ص ٥٤ - ٥٥.

(٣٠) محمد رشيد رضا، تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده، مجلد (١)، القاهرة ١٩٣١، ص ٣٣.

(٣١) تشارلز آدمس، الاسلام والتجديد في مصر، ترجمة عباس محمود (القاهرة: لجنة دائرة المعارف الاسلامية، ١٩٣٥)، ص١٧.
ويذكر ابراهيم احمد العدوي، أن وجود اعداد العروة الوثقى عند والد رشيد رضا وعند الشيخ حسين الجسر، يؤكد انهم كانوا من اعضاء جمعية العروة الوثقى وممن ترسل اليهم جريدتها سراً وكذلك المصريون الذين نفوا بعد فشل الحركة العرابية إلى بيروت، انظر: العدوى، ص ٦٩ - ٧٠.

(٣٢) محمد رشيد رضا، تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده، مجلد (١)، ص٣٠٣ وما بعدها.

(٣٣) العدوي، ص ٧٠.

(٣٤) راجع: المنار، مجلد (١٣)، جـ١، ص ١١ - ١٢.

(٣٥) المصدر ذاته، ص ١٣ - ٢١.

(٣٦) العدوي، ص ٨٣ - ٨٤.

في المدرسة السلطانية، وإذا كان هذا اللقاء الأول، فان اللقاء الثاني تم أيضاً في طرابلس حين زارها محمد عبده اثناء اقامته في فصل الصيف في لبنان، وكانت زيارة محمد عبده لمدة اسبوع قضاها لدى الاستاذ عبدالعزيز سلطان صديقه وزميله في التدريس في المدرسة السلطانية وكان رشيد رضا يتنسم اخبار عودته كلّ يوم ويقول في ذلك «كنت الازمة مدة وجوده في طرابلس من أول النهار الى وقت النوم»[٣٧].

وفي هذه اللقاءات بين رشيد رضا ومحمد عبده على ارض سورية، تم تدارس الكثير من المواضع التي تطلبت بحثاً وخبرة وتعلقت نفس رشيد رضا بمحمد عبده تعلقاً اكبر من ذي مثل وبقدرته على أنه خير من يخلف جمال الدين الأفغاني في ميدان الاصلاح وايقاظ الشرق من سباته، كما انه بقي على اتصال معه حتى بعد مغادرته سورية إلى مصر.

وحاول رشيد رضا أن يتصل بالأفغاني لينهل من الينبوع الآخر الذي شكلت افكاره العروة الوثقى، وكان الأفغاني قد أخذ يطوف في بعض بلاد العالم الاسلامي والأوروبي قبل أن يستقر نهائياً في الاستانة والاقامة فيها في سنة ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م، لكن محاولات رشيد رضا باءت بالفشل بالرغم من محاولات اصدقائه ومنهم عبدالقادر المغربي وخطاباته التي ارسلها إلى الاستانة، ويصور أحد كبار المعاصرين لرشيد رضا وهو الامير شكيب ارسلان الجهد الذي بذله رشيد رضا في سبيل مقابلة الأفغاني وهي المحاولات التي لم تقف الا عند وفاة جمال الدين الأفغاني عام ١٨٩٦ في الاستانة[٣٨].

ومما لا شك فيه ان هذه اللقاءات الروحية والفكرية التي تمت بين رشيد رضا واستاذه محمد عبده عن طريق العروة الوثقى أولاً ثم الاتصال الشخصي ثانياً واللقاء عن بعد مع الأفغاني ساهمت في بناء شخصية رشيد رضا الاصلاحية فأكمل البناء الذي كانت قد وضعت اساساته قبل ذلك خاصة مما كان قد استمده في حياته الاولى.

لكنه ادرك بعد ذلك ان الآراء المشتركة التي كانت تجمع بين الأفغاني وعبده انفصم عراها بعد اغلاق جريدة العروة الوثقى، وبدأ منهج كل من هذين المصلحين يأخذ اتجاهاً خاصاً به، فجمال الدين الأفغاني ظل يرى الا سبيل للاصلاح والتجديد الا عن طريق السياسة، على حين نادى عبده بأن الاصلاح والتجديد يأتي عن طريق التربية والتعليم، أي أن الافغاني يرى أن تجديد الأمة باصلاح الدولة، بينما يرى عبده ان تجديد الدولة باصلاح الأمة.

وخرج رشيد رضا من كل ذلك بحقيقة واضحة وهي أن الاصلاح عن طريق السياسة ادنى واسرع وأن الاصلاح عن طريق التعليم أثبت وأدوم، ولكن كل منهما يفضى إلى الآخر، وقبل أن يحدد رشيد رضا منهجه الخاص على ضوء ما يرى، وقعت احداث دفعته إلى خضم الاصلاح العام وجعلته يمزج بين وجهتي نظر الأفغاني وعبده هذه الأحداث تمثلت بالجو الذي كان يسود سورية والذي لا يساعده على المضي في الاصلاح والمتمثل بضيق أفق السلطات العثمانية، ثم وفاة جمال الدين الأفغاني في سنة ١٣١٤هـ / ١٨٩٧م، ولم يجد رشيد رضا مخرجاً من ذلك سوى الهجرة إلى مصر ليلحق بمحمد عبده ويعمل فيها معه.

وفي اعتقادي أن وراء رحيل رشيد رضا إلى مصر عوامل عديدة بالاضافة إلى ما سبق ذكره. يقول رشيد رضا «ضاقت على المملكة العثمانية بما رحبت وعزمت على الهجرة إلى مصر لما فيها من حرية العمل واللسان والتعلم من مناهل العلم العذبة الموارد من طرق النشر الكثيرة والمصادر، وكان أعظم ما ارجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفاده الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة وخطة الاصلاح التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين وأن أعمل معه وبارشاده في هذا الجو الحر»[٣٩].

كذلك كانت مصر قد غدت المأوى الذي يتطلع اليه المفكرون العرب، فقد اجتذبت أرض مصر ضروباً متعددة من أبناء العرب من طلاب العلم والكتاب والمفكرين، وسبق رشيد رضا سوريون هبطوا إلى مصر ويأتي على رأسهم ابراهيم اليازجي الذي أسهم في ميدان الصحافة فيها، ثم رفيق العظم الذي التقى فيها بعد برشيد رضا في مصر وكان قد ذهب اليها في عام ١٨٩٤، ومن الشخصيات التي عاصرت رشيد رضا وهاجرت إلى مصر أيضاً ثم التعاون معه في ميدان الاصلاح السيد عبدالرحمن

---

(٣٧) المرجع ذاته، ص ٩٤.
وللاطلاع على تفاصيل هذه اللقاءات راجع: تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده. مجلد (١)، ص ٣٩٠.

(٣٨) راجع: العدوي، ص ٩٥ـ ١٠٤.

(٣٩) المنار والأزهر، ص ١٩١.

الكواكبي[٤٠].

استعد رشيد رضا للسفر إلى مصر[٤١]. واتفق مع فرح انطوان الأديب الطرابلسي على السفر سوية على باخرة واحدة، ووصلت الباخرة إلى شاطىء الاسكندرية في ٣ كانون الثاني يناير ١٨٩٨، ثم توجه رشيد رضا إلى القاهرة[٤٢]، حيث يقيم الشيخ محمد عبده، والتقى الاثنان ثاني يوم، وقال رشيد رضا «ان غرضه من الهجرة إلى مصر هو تلقي الحكمة عن محمد عبده»[٤٣].

المنار :

كانت اهم نتيجة لوصول رشيد رضا إلى مصر والتقائه بمحمد عبده عام ١٨٩٨ هي صدور المنار في نفس العام في القاهرة. كذلك اتفق معظم المؤرخون على أن أهم أثر من آثار رشيد رضا هو مجلة المنار[٤٤]، التي صدر منها ٣٤ مجلداً منذ ١٨٩٨/٣/١٥ حتى وفاة رشيد رضا عام ١٩٣٥ وكان صدورها على شكل جريدة، ثم عاد فاصدرها حتى اوائل عام ١٩٤١. ويصفها يوسف اسعد داغر في قاموس الصحافة اللبنانية انها مجلة علمية أدبية تهذيبية تبحث في فلسفة الدين وشؤون العرب[٤٥]. ويذكر أحمد الشرباصي، أن العدد الأول فيها صدر كجريدة اسبوعية من ثمان صفحات وفي السنة الثانية تحولت إلى مجلة شهرية[٤٦].

وحول موضوع صدور المنار يذكر حسين ضناوي، ان نية رشيد رضا في اصدار جريدة في مصر قد وصلت للامام محمد عبده قبل أن يفاتحه رشيد رضا بذلك، ولكن عندما كاشفه بذلك لم يجد لدى الامام موافقة او تشجيعاً وذلك للظروف السياسية التي كانت تعيشها مصر في ذلك الوقت وعدم التفات المصريين إلى الصحف التي تبحث في الموضوعات الأدبية كالتربية والتعليم وآداب اللغات، بل إلى أخبار الحكومة وما يقال عن الخديوي والانجليز».

ويضيف حسن ضناوي «ولكن وعندما شرح رشيد رضا كنه افكاره الاصلاحية وخطته في اصداره جريدة اصلاحية تقاوم الجهل والأفكار الفاسدة وافقه الشيخ محمد عبده شرط ان يلتزم بمنهاج يجب مراعاته في خطة الجريدة»[٤٧]. لذلك حدد لمنهاج هذه المجلة ثلاثة امور :-

(١) ان لا تتحيز لحزب من الأحزاب.
(٢) ان لا ترد على جريدة من الجرائد التي تتعرض للقائمين على أمر المجلة بذم أو انتقاد.
(٣) أن لا تخدم أفكار أحد من الكبراء[٤٨]

أما اختيار اسم «المنار» فقد تم بعد أن عرض رشيد رضا عدة أسماء على الشيخ محمد عبده، فاختار الأخير هذا الاسم[٤٩] وهكذا صدرت المنار، وفي مقدمة العدد الأول من المنار حدد رشيد رضا غايته من اصدارها فقال «أما بعد فهذا صوت صارخ بلسان عربي مبين ونداء حق يقرع من سمع الناطق بالضاد مسامع جميع الشرقيين ينادي من مكان قريب سمعه الشرقي والغربي، ويطير به البخار فيتناوله التركي والفارسي»[٥٠]. وكان يضطر رشيد رضا من آن إلى آخر أن يحدد مجدداً خطة المجلة وغرضه من اصدارها وهو «السعي في القضاء على الخرافات والاعتقادات الداخلية على الاسلام ومحاربة التعاليم الضارة والتفاسير الباطلة لعقائده ومحو الأفكار الشائعة عن القضاء والقدر ومحاربة التعصب لمذهب من المذاهب وما دخل على العقائد من

(٤٠) العدوي، ص ١١٩ ـ ١٢٠.
(٤١) كانت مصر قانونياً جزءاً من الدولة العثمانية والسيادة فيها للسلطان العثماني، وكان خديوي مصر يثبت في منصبه ويعزل قانونياً بفرمان من السلطان العثماني ولهذا كان الانجليز رغم احتلالهم لأرض مصر عام ١٨٨٢، عاجزين عن اعلان الحماية، واستلام السلطة القانونية مباشرة فيها خوف من الصدام المبكر وغير المرغوب فيه مع الدولة العثمانية، ولم تعلن الحماية الانجليزية على مصر الا عند نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤.
(٤٢) في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ارتقى الخديوي عباس حلمي الثاني عرش مصر عام ١٨٩٢ وسرت في اوصال الحركة الشعبية المعادية للانجليز الدماء إذ اصبح الخديوي محور الحركة الوطنية. للاطلاع على الظروف التي كانت في مصر في تلك الاثناء حيث وصل اليها رشيد رضا، راجع كتابه «تاريخ الاستاذ الامام، مجلد (١)، ص ٥٩٢ وما بعدها.
(٤٣) العدوي ص ١٢٧.
(٤٤) للاطلاع على آثاره الأخرى وهي كثيرة، راجع: الزركلي، الاعلام مجلد (٦) ص ١٢٦.
(٤٥) يوسف أسعد داغر، قاموس الصحافة اللبنانية، (بيروت: منشوات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٥)، ص ٢٧٣.
(٤٦) أحمد الشرباصي، رشيد رضا صاحب المنار، عصره وحياته ومصادر ثقافته، القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٣٦.
(٤٧) حسين ضناوي، ص ٦٥.
وأيضاً: الشرباصي، المرجع السابق، ص ١٧٦.
(٤٨) هذه الامور جاءت في: شكيب ارسلان، ص ١٧٦.
وايضاً: العدوي، ص ١٣٩.
(٤٩) حسين ضناوي، ص ٦٦.
(٥٠) للاطلاع على النص كاملاً، راجع: شكيب ارسلان، ص ١٧٥.
وأيضاً: العدوي، ص ١٣٦.

الاعتقاد بالأولياء، وما تأتيه طرق المتصوفه من بدع وضلالات ثم الحض على التسامح والتآلف بين الفرق المختلفة وترقية التعليم العام واصلاح كتب التدريس وطرائق التعليم وتشجيع التقدم في العلوم والفنون»[٥١].

وقد حدث انه لم تنتشر المنار بسرعة في السنوات الأولى من اصدارها، انها واجهت تجاهلاً من جهة ومحاربة صريحة من جهة آخرى، وكان موقف السلطات العثمانية منها عدائياً بالرغم من أنه جاء في افتتاحيتها «أنها عثمانية المشرب، حميدية اللجهة، تحامي عن الدولة العلية بحق وتخدم مولانا السلطان الأعظم بصدق»[٥٢] فمنعت دخولها إلى البلاد الخاضعة لها[٥٣]، لكن ما لبثت أن انتشرت وذاع صيتها وكثر قراؤها في مصر والبلاد العربية والاسلامية بعد أن دعمت تحريرها بالمقالات الاصلاحية التي كتبها محمد عبده وجماعة الدعوة الاصلاحية الاسلامية كالأمير شكيب الاسلان، ونشرت أيضاً كتاب عبدالرحمن الكواكبي «سجل أم القرى الاصلاحي» ونشرت تفسير القرآن مما جعلها محط أنظار القراء ومرجعاً اساسياً من مراجع الفكر الاصلاحي، بالاضافة إلى الدور الهام الذي لعبته في السياسة العربية القومية ابان حكم جمعية الاتحاد والترقي[٥٤].

ومن ناحية عامة، فان مجلة المنار لعبت مع غيرها من مجلات وجرائد الصحافة العربية في الفترة التي تتناولها هذه الدراسة دوراً هاماً واساسياً في نشر افكار الاصلاح الديني وأفكار التيارات السياسية بين الناس وتعميم الثقافة وايقاظ الفكر العربي واخصابه بما قدمته من نقد وبحوث ومناقشات، ولذلك يعتبر فيليب طرازي «مجلة المنار» التي أصدرها رشيد رضا مع مجلة الجوائب الاسبوعية التي صدرت في استانبول عام ١٨٦١ اهم هذه المجلات[٥٥].

ومن ناحية اخرى فان أهمية مجلة المنار تكمن في أنها تحوي سلسلة مقالات رشيد رضا طيلة هذه الفترة التي تشمل هذا البحث، وهذه المقالات بالاضافة إلى كونها محطات مهمة في مسار تطور فكر رشيد رضا ومرآه لانعكاس أحداث تلك المرحلة التاريخية المهمة، فانها تشكل أهمية ووثائقية باعتبار أن مؤلفات رشيد رضا الأخرى تجد منطلقاتها واحياناً نصوصها الأساسية في مقالات المنار نفسها»[٥٦].

لذلك فانه يمكن القول «أن المنار كانت منذ تأسيسها بمثابة سجل لحياة رشيد رضا وافرغ فيها تأملاته في الحياة الروحية وشروحه للعقيدة ومجادلاته اللامتناهية والعنيفة في هجومها ودفاعها على السواء وآراؤه في سياسات العالم وشروحه الكبرى للقرآن وهي الشروح التي سماها تفسير المنار «التي بناها على محاضرات محمد عبده وكتاباته»[٥٧].

وبناء على ما سبق فلا بد من الخوض في تلك المجلة لادراك ما حوته من آراء لرشيد رضا.

لقد مرت مقالات رشيد رضا في المنار في مرحلتين رئيسيتين :-

المرحلة الأولى :

من سنة المنار الأولى عام ١٨٩٨ وحتى عام ١٩٠٥ وهي السنة التي توفي فيها محمد عبده وقد تميزت بالاصلاح الديني والحذر من السياسة.

والحقيقة كانت وراء ذلك الحذر عوامل عدة: فربما يعود ذلك إلى الخبرة وخصوصاً إلى القناعة التي تولدت في نفس رشيد رضا من النتائج التي ادى اليها نشاط الافغاني فقد وصف عمل الأفغاني على تحقيق الجامعة الاسلامية بقوله «انه سعى اليها من الطريق الأقرب، طريق تنبيه الحكومات المسلمة المستقلة إلى الاتحاد، ولكن هذا السعي لم ينجح بل كرهها بعض الحاكمين، لأن في الاتحاد مضيعة لحكمهم واباها بعضهم الأخر، جهلاً أو كرهاً مع علمه بفائدتها»[٥٨].

كذلك فقد كان تأثير محمد عبده في منهجه الاصلاحي البعيد عن السياسة تأثيراً كبيراً، حيث أن رشيد رضا تبنى هذا الاصلاح الذي سار عليه محمد عبده بعد انفصاله عن الأفغاني

(٥١) المنار، مجلد (١٢)، جزء (١)، ص ١١ - ١٢.

(٥٢) المصدر ذاته، مجلد (١)، ١٧ آذار عام ١٨٩٨، ص ١٢.

(٥٣) للاطلاع على العوامل التي كانت تقف وراء موقف الدولة العثمانية من المنار ورأي رشيد رضا في ذلك، راجع: العدوي، ص ١٤٠ - ١٤٢.

(٥٤) حسين ضناوي، ص ٧١.

(٥٥) للتوسع في ذلك راجع: فيليب طرازي، تاريخ الصحافة العربية، بيروت، ١٩١٣.

(٥٦) وجيه كوثراني، المرجع السابق، ص ١٦.
وقد لوحظ ان رشيد رضا لم يكن يوقع مقالاته في المنار، والسبب في ذلك أنه كان يتولى بنفسه تحريرها، اما مقالات غيره فتحمل اسماء اصحابها.

(٥٧) البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول (بيروت: دار النهار ١٩٦٨)، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٥٨) المنار، مجلد (٢)، جزء (٢٢)، ١٨٩٩م / ١٣١٧هـ، ص ٣٧٧.

ورحيل الأخير إلى الآستانة واتصال رشيد رضا المباشر بمحمد عبده ثم توجه رشيد رضا إلى مصر.

ويمكن القول أن رشيد رضا في هذه المرحلة كان يسير نحو التركيز على الاصلاح الديني بجدية وعلى العمل السياسي بشكل مداور، لأنه كان يعتبر ان الاصلاح السياسي حرجاً أو ليس هدفاً مباشراً وانما هو هدف يأتي كنتيجة للاصلاح الديني ـ الاجتماعي، وينظر إلى الأمر السياسي بأن يتم عن طريق الاصلاح الديني التربوي. وهذا ما جعله شديد الحذر في دعوته للنهوض من السياسة وما هو سياسي وفي هذا يتبين موقف استاذه الامام محمد عبده، في الوقت الذي كان فيه رشيد رضا يحذر من الدعوة السياسية المباشرة لاقامة الجامعة الاسلامية سياسياً لأن في ذلك عداء لأوروبا قد يؤدي إلى مجابهة معها، ويحرك أحقاد غير المسلمين الذي يعيشون في الاقطار الاسلامية[٥٩].

ومن أجل ذلك أعلن رشيد رضا بصراحة في قوله «أنه أسس مجلة المنار لأحياء تعاليم العروة الوثقى، ويعني تعاليمها الاجتماعية وقواعدها التي وضعتها الوحدة الاسلامية مضيفاً إلى ذلك البحث في جزئيات البدع وتفضيل القول في التعاليم الفاسدة والعقائد الزائفة والتربية المفيدة»، وتوكيداً لذلك أشار إلى أن المنار تسير في طريق العروة الوثقى «الا ما كان فيها من السياسة التي تتعلق بالمسألة المصرية والتخليص على الانجليز، فان هذا أمر ذهب بذهاب وقته»[٦٠].

وفي البداية لا بد من الاشارة إلى المقصود بالاصلاح الديني عند رشيد رضا أنه لا يقصد أي نوع من اعادة النظر في الاسلام كدين وانما الذي يقصده هو ما يؤدي إلى المحافظة على الدين والعمل به وجمع المسلمين[٦١].

ولهذا الاصلاح في نظر رشيد رضا وسائل وطرق لا يتم الا بها، فهو مثلاً لا يتم بعمارة المساجد والتكايا ولا بالانعام على بعض الشيوخ أو أهل الحجاز بالرتب والرواتب والوسامات ولكي يتم حقاً لا بد من أعمال تناط بالحكام، وقوام هذا الاصلاح جمع كلمة المسلمين على عقيدة واحدة واصول أدبية واحدة وقانون شرعي واحد لا يحكم عليهم غيره في أي نوع من الانواع ولغة واحدة العربية[٦٢].

ولضرورة تحقيق هذا الاصلاح فان رشيد رضا يرى «تأليف جمعية اسلامية تحت حماية الخليفة يكون لها شعب في كل قطر اسلامي، وتكون عظمى شعبها في مكة المكرمة التي يؤمها المسلمون من جميع الأقطار، ويتآخون في مواقعها ومعاهدها المقدسة ولهذه الجمعية ثلاث مهمات: تلافي البدع والتعاليم الفاسدة قبل انتشارها واصلاح الخطابة، واخيراً الدعوة إلى الدين»[٦٣].

لكن هذا الاصلاح لكي ينجح لا بد أن تتوفر له شروط ثلاثة، فلا بد من أن يكون الحكم شورى[٦٤] ولا بد من تغيير افكار الأمة واخلاقها بالتعلم والتربية[٦٥]، وهذا لا يتم الا بالشرط الثالث وهو الطريقة الصحيحة المبنية على مستويين الظواهر والصور السطحية[٦٦].

وفي اعتقاد رشيد رضا ان هذا كله لا يتم الا إذا توفر داعية الاصلاح ويصفه بانه «الزعيم الداعي اليه عن طريقه الطبيعي مع الكفاءة والاضطلاع، ولا يعدو هذا الزعيم أن يكون أحد اثنين» اما داع ذو بيان يستصرخ الشعور والوجدان ويستنفر العقل والجنان، دالاً على طريق الاسعاد هاديا إلى سبيل الرشاد، واما ملك مستبد حكيم مستعد على أمة خاملة ورعية جاهلة يحكمها بالقهر والالزام على ما يطلب ويرام»[٦٧].

ان العلة الأولى لارتقاء الامم عند رشيد رضا هي الجمعيات، ولذلك نجده يقول في ذلك « لا ترتقي الامة الا بعد ان تنبه حوادث الزمان أفراداً من أولي الألباب فيها إلى وجوب السعي لترقيتها ورفعة شأنها لوساطة الجمعيات السياسية السرية والجهرية الدينية الخيرية والعلمية والفنية والمالية فهذه هي السبب الأول والعلة الأولى لكل ارتقاء، بها صلحت العقائد والاخلاق في اوروبا وبها صلحت الحكومات، وبها ارتقت علومها وفنونها وبها عزت وعظمت قوتها، وبها فاضت ينابيع ثروتها وبها انتشر دينها بين الخافقين وبها سادت على المشرقين والمغربين»[٦٨].

(٥٩) المنار، مجلد (١)، جزء (١٦)، ١٨٩٨م / ١٣١٦هـ، ص ٢٨٤.
(٦٠) أدونيس وخالدة سعيد، محمد رشيد رضا، ديوان النهضة، (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٨٣)، ص٧.
(٦١) المنار، مجلد (١)، جزء (٣٩)، ١٨٩٨م / ١٣١٦هـ، ص ٧٦٥.
(٦٢) المصدر ذاته والصفحة.
(٦٣) المصدر ذاته، ص ٧٦٥ ـ ٧٦٦.
(٦٤) المنار، مجلد (٢)، جزء (٢١)، ص ٣٢٧.
(٦٥) المنار، مجلد (٢)، جزء (١٠)، ص ١١٠.
(٦٦) المنار، مجلد (٤)، جزء (١٨)، ١٩٠١م / ١٣١٩هـ، ص ٦٨٢.
(٦٧) المصدر ذاته، ص ٦٨٣.

ولم يتـوقف رشيد رضـا عنـد هذا الحـد حول موضـوع الجمعيات، بل قال أيضاً «ان المدنية لم تكمل في الشرق، ولم تبن على قواعد تثبتها وتنميها ولذلك سقطت، ويعود سقوطها إلى أنها لم تكن عمـل جمعيات، بل عمـل افراد ويرى بالمقابل أنه لولا الجمعيات لما كانت مدنية الغرب الحديثة ارقى واكمل واجدر بأن تكون أثبت وأدوم»[69].

لذلك فان آراء رشيد رضا في الاصلاح لا تكمن في العمل السياسي، وهذا ما يفسر اعتداله في مفهومه الذي طرحه لما سمي بالجامعة الاسلامية وهو مفهوم يمكن وصفه بأنه فقهي، «خالص من السياسة ومصطبغ بالتسامح، لذلك تجده يقول «ان للجامعة الاسـلامية طرفـين: الأول يضم المعتقدين بالدين الاسلامي ويربطهم برابط الأخوة الايمانية حتى يكونوا جسماً واحداً والثاني هو الـذي يربط المسلم وغـيره من ارباب الملل برابطة الشريعة العادلة التي يحكمون بها جميعاً بالمساواة»[70].

كذلك فانه يمكن القول أن الاصلاح الذي دعا اليه رشيد رضا لم يكن غاية بحد ذاته، وانما كان وسيلة إلى صيانة الدين وتمكـين سيطرتـه بوسـاطـة الدولـة، والاهتمام بالسياسة آت من الاهتمام بضرورة وجود دولة اسلامية قوية تحفظ الدين الاسلامي وتدافع عنه، والحرص على الدين عند رشيد رضا هو الأساس الـذي يقوم عليه الاصلاح الذي دعا اليه ويتبعه بوجوب ايمان الجماهير بمبادىء هذا الدين ايماناً صحيحاً والعمل به[71].

ثم ان الاصـلاح في نظر رشيد رضـا يستند على العلاقة الجـوهرية بين الحقيقة الدينية والازدهار الدينوي، فاذا فهمت تعاليم الاسلام وقواعده الخلقية على حقيقتها، وطبقت بكاملها تؤدي إلى العلاج، اما إذا لم تفهم على حقيقتها او لم تطبق فانها تفضي إلى الضعف والفسـاد، ولذلك فانه يعيد سبب التخلف عند المسلمين هو «أن المسلمين قد فرطوا بحقيقة دينهم بتشجيع من حكـام سياسيين فاسـدين، فالاسلام الحقيقي ينطوي على أمرين: القول بالتوحيد، والشورى في شؤون الدولة»[72].

وممـا يجدر ذكـره أن من أهم الاسس التي يقـوم عليهـا الاصلاح في نظر رشيد رضا هو التربية والتعليم وقد جاءت اهمية ذلك من خطى استاذه الامام محمد عبده من ناحية، ولان التعليم هو البديل عن السياسة والأكثر عطاء وتأثيراً في التقدم والرقي من ناحية أخرى[73].

لقد كانت مسألة التربية والتعليم من المحاور الرئيسية التي شغلت فكر رشيد رضا حتى بعد انخراطه في امور سياسية، انه يسأل قارئه «ما الذي نهض بالأمة اليابانية حتى طارت مع الأمم الأوروبية في كل جو وسبحت معهـا في كل بحر، وضربت في الفنـون بكـل سهم، الجواب محصور في حكمتين (علم وعمل وجهل وكسل) فبالعلم والعمل كل تقدم ورقي»[74].

اما نوع التعليم الذي يفيد المسلمين في رأي رشيد رضا هو ذلـك التعليم الـذي لا يترك للحكـومـات ولا إلى الأفراد، بل للجمعيات، ولهـذا كان دائماً مشغولاً بانشاء الجمعيات الأهلية لانشاء المدارس للتعليم الديني والعصري، وموقفه هذا نابع من فهم خاص للدولـة ولدور الافراد في حقل التعليم، فهو يفسر مذهبـه قائلاً «ألا وأن أمر التربية هو أهم ما يجب أن يوكل إلى الجماعات، ولا يجوز ان يترك إلى الافراد ولا إلى الحكومات، لأن المـدارس للأفـراد دكـاكـين لكسب المال، وللحكومات معامل لسبك العمال، فكل من الفريقين يتوخى منفعة خاصة وان باينت مصلحة الأمة العامة، وانما تطلب الحكومة عمالاً لها كالآلات، لا ارادة لهم ولا رأي ولا استقلال، والأفراد يتبعون سننها ويسيرون على طريقها، وانما ربح تجارتهم برواج بضاعتهم في سوقها، وشر من ذلك ما ابتلي به جماهير المسلمين، من ترك تربيتهم النفسية والعقلية إلى خصومهم في السياسة والدين»[75].

ان موقف رشيد رضا من التعليم الحكومي كان ناجماً من التجربة التي كانت قائمة في مصر، فالاستعمار الانجليزي كان يوجـد التعليم إلى ما يضر بالامـة وبـالاستقـلال ويخلق اتبـاعاً

(68) المنار، مجلد (10)، عدد (50)، 1907م / 1325هـ، ص 342.

(69) المصدر ذاتة والصفحة.

(70) المنار مجلد (2)، جزء (21)، ص 326 - 327.

(71) للاطلاع على ذلك راجع: المنار مجلد (20)، جزء (1)، 1917م، ص 41 - 42.

(72) المنار عدد (9)، 1906 - 1907، ص 357 وما بعدها.

(73) المنار، مجلد (1)، جزء (15)، 1898م / 1316هـ، ص 257.

(74) راجع ما قاله حول ذلك في: المنار، مجلد (1)، جزء (15)، ص 257.

(75) المنار، مجلد (17)، جزء (1)، ص 7.

وموظفين للاستعمار لا رجال علم وادب وحرية[٧٦].

أما موقفه من التعليم الاجنبي وبخاصة المدارس الأجنبية التي شيدت في ديار الاسلام، فانه يمكن ادراك ذلك في خطاب القاه على طلاب الكلية الامريكانية من المسلمين في بيروت ونشر في المنار، لقد جاء في هذا الخطاب قوله «أليس منشئو هذه المدرسة يقصدون بها جعل العلم الذي ينفع الناس وسيلة لنشر لغتهم وبث تعاليم مذهبهم الديني في نفوس من يعلموهم وهو يجيب على ذلك «بأنه يدعو إلى عدم التخوف من تعلم الطلاب المسلمين في المدارس النصرانية، ومن النشاط التبشيري في اوساط المسلمين، الا أنه يحصر خطر التعليم الأجنبي على المسلمين في حدود المسألة الفقهية ما يخرج المسلم فيه عن دينه، وما لا يتعارض فيه مع البقاء عليه وهو يضطر بعد أن يعرض للحجة الفقهية القائلة «بأن الرضي بالكفر كفر، أن يميز بين أنواع المدارس التبشيرية بين المدارس الكاثوليكية والارثوذوكسية من جهة والمدارس الانجيلية الاميركية والانجليزية من جهة ثانية، ولكن رشيد رضا ذكر في نفس الخطاب انه يمكن التفاهم مع العقلاء المعتدلين من عمدة المدارس الاجنبية وخاصة المدارس الامريكية[٧٧].

ان الآراء التي اطلقها رشيد رضا والتي تقوم على أساس الاهتمام بالتعليم الديني في المدارس لم تمنعه من أن يدرك اهمية العلوم العصرية ووجوب التوسع في تعلمها، ويحدد هذه العلوم بحيث يتناولها كل فرد في الامة بما يتناسب مع ما تقتضيه حالة العصر[٧٨].

واخيراً وفي هذا المجال، الاصلاح والتربية والتعليم، فقد تبلورت مجهوداته في تلك السبيل في انشاء «جمعية الدعوة والارشاد» وكان ذلك قد نجم عن ادراك رشيد رضا لأهمية الجمعيات في ذلك وهو الجانب العملي والتطبيقي في عملية الاصلاح.

لكن هذا الجانب العملي لا يتم الا بانشاء مدرسة تحمل اسم الجمعية، وفي ليلة الاحتفال بالمولد النبوي سنة ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م افتتحت المدرسة رسمياً في جزيرة الروضة بالقاهرة، كما صدر النظام الاساسي لها، واهم ما جاء في هذا النظام ان «دار الدعوة والارشاد مدرسة كلية اسلامية تدرس فيها جميع العلوم والفنون التي تدرس عادة في الكليات مع التربية الدينية، وزيادة العناية بالعلوم الاسلامية وتنشأ أقسامها بالتدريج، يبدأ منها بقسم عال لتخريج الدعاة إلى الاسلام[٧٩].

وكانت فكرة انشاء هذه المدرسة قد اختمرت في رأس رشيد رضا منذ كان يطلب العلم في وطنه بمدينة طرابلس حيث كان قد تمنى للمسلمين جمعية وتنبثق عنها مدرسة، وحاول فيها بعد ان ينشأها في الاستانة، حيث أقام فيها مدة سنة لملاحقة المشروع ولكن زعماء جمعية الاتحاد والترقي ما طلوه وخربوا عليه مشروعه، فعاد إلى القاهرة حيث انشأ فيها مدرسة الدعوة والارشاد، واستمرت هذه المدرسة تعمل حوالي سنتين، غير انها ما لبثت ان اغلقت مع اعلان الحرب العالمية الاولى وخلع الخديوي عباس حلمي واعلان الحماية على مصر ولم تفتح ابوابها مرة أخرى[٨٠].

المرحلة الثانية : **الاصلاح السياسي والمسائل السياسية**

سارت المنار في سنواتها الأولى وحتى عام ١٩٠٥ في وجهه الاصلاح الديني الذي كان يشدد عليه الشيخ محمد عبده ولم تدخل في موضوعات السياسة المباشرة لا السياسة العثمانية ولا السياسة الانجليزية.

لقد كان عام ١٩٠٥ نقطة تحول في تاريخ مجلة المنار وصاحبها رشيد رضا ففي هذا العام توفي محمد عبده، فكان ذلك مدخلاً لانخراط رشيد رضا في ميدان السياسة من باب الدعوة إلى اصلاح اوضاع الدولة العثمانية ومحاربة الاستبداد الفردي، والدعوة إلى حكم الشورى والدستور، بعد ان كان محمد عبده يمانع في اقحام المنار مجال العمل السياسي المباشر، وفي هذه المرحلة كانت حركة تركيا الفتاة في اوج اتساعها في الخارج، وقد اشاعت حركة معارضة واسعة ضد الحكم الفردي الاستبدادي،

(٧٦) للاطلاع على ما ذكره رشيد رضا حول ذلك، راجع: المنار مجلد (٧)، جزء (١) ص ٨.

(٧٧) راجع: المنار، مجلد (١٢)، جزء (١)، ١٩٠٨، ص ٢١.

(٧٨) للاطلاع على هذه العلوم وكذلك الفنون التي يراها رشيد رضا ضرورية لنجاح التعليم والتربية في البلاد الاسلامية، راجع: المنار، مجلد (١)، جزء (٣٠)، ص ٥٧٣.

(٧٩) حول هذه المدرسة وغايات رشيد رضا من انشائها، راجع: يوسف أيبش رحلات الامام محمد رشيد رضا، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩)، ص ٧٤.

(٨٠) تعرض لهذه المدرسة الدكتور طه حسين، راجع كتابه الامام جـ٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤) ص ١٢ - ١٣.

وفي هذا الاطار تأسس في القاهرة لجنة أطلق عليها اسم جمعية الشورى العثمانية[٨١] تولى رشيد رضا رئاستها.

في ظل هذه الظروف بدأ رشيد رضا يكتب في المنار مقالات تتضمن افكار سياسية طابعها العام الاصلاح السياسي مغتنماً فرصة حصول احداث سياسية وما اكثرها في تلك الفترة التي لازمت تاريخ الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية، ومن هنا جاءت العلاقة المباشرة لهذه المقالات مع الدولة العثمانية والاتراك والتي تتصل اتصالاً عضوياً بالعرب ومصيرهم والتي تتمثل فيها فكر رشيد رضا في الاصلاح السياسي المتصل بالاطار الاسلامي لهذا الاصلاح.

ويمكن تقسيم الموضوع الذي اتصل بهذا الفكر ومن خلال مواقف رشيد رضا من تلك القضايا السياسية من خلال المحاور التالية:

(١) الهيمنة الاستعمارية.
(٢) الدولة العثمانية والاتحاديين.
(٣) ثورة الحسين بن علي في الحجاز.
(٤) الحركة الصهيونية.

أولاً: الهيمنة الاستعمارية

كان لرشيد رضا موقف من الاستعمار وخاصة الاستعمار الانجليزي، وهذا الموقف نابع من موقف استاذه محمد عبده، إلى أن وجدت ظروف موضوعية جعلته ينقلب على هذا الموقف.

لذلك يجدر بنا أن نحيط برأي محمد عبده وخاصة في الانجليز حكام مصر الحقيقيين، يقول محمد عبده «نحن لا نفكر أن بين الأمم الأوروبية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها، وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم وهي الأمة الانجليزية، فهي وحدها الأمة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره»[٨٢].

لقد كان هذا اساس موقف محمد عبده من الانجليز، لذلك كانوا راضين عنه ويشجعون الآخرين على أن يحذوا حذوه، وكان محمد عبده قد عمل على استغلال رضائهم هذا والاستفادة منه في استخدام سلطتهم وسلطانهم لتسهيل أعماله الاصلاحية في التربية والتعليم واصلاح المؤسسات الفكرية والاجتماعية ومن هنا كان لقاء محمد عبده ومدرسته وبين سلطات الاحتلال الانجليزية في مصر[٨٣].

لقد تأثر رشيد رضا بآراء محمد عبده، وتركت اثارها العميقه في فكره السياسي، وبدأت هذه الآثار تبرز واضحة حتى بعد وفاة محمد عبده.

لقد برزت آراء رشيد رضا السياسية في موقفه من الهيمنة الاستعمارية والتي تبلورت في سياسته نحو الانجليز لاتصاله المباشر بهؤلاء في مصر ولبلوغ المد الاستعماري الانجليزي ذروته في مصر وبشكل خاص ولتأثيره في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية بشكل عام.

السياسة التي اقترحها رشيد رضا نحو الاستعمار الانجليزي، تقوم على أساس الغاء الجانب السياسي في مقاومة الانجليز والغاء وسائل المقاومة الفعالة وبذلك كانت هذه السياسة تؤدي في النهاية لمزيد من السيطرة الأجنبية، ومنطقه يؤدي في الواقع إلى التحالف مع الدولة الانجليزية والانتظام في المشاريع السياسية والادارية لحكم البلاد في ظل السيطرة الأجنبية.

ويبدو أن الاستعمار الانجليزي قد أصبح على علم بآراء رشيد رضا السياسية ومن وجهة نظره نحوهم والتي اصبحت معروفة لدى هذا الاستعمار والقائمين على أمره من منفذي السياسة الانجليزية في مصر من كتابات رشيد رضا في المنار، ويقف على رأس هؤلاء اللورد كرومر عميد ذلك الاستعمار في مصر. واصبح كرومر اكثر رجالات الاستعمار الانجليزي ادراكاً لأهمية اتجاه رشيد رضا في بناء الدولة في مصر فهو اذ يكتشف هامشية المتفرنجين في علاقتهم بالشعب وعداء المسلمين المحافظين للغرب ويراهن على الاصلاحيين المسلمين التوفيقيين.

لقد وجدت آراء كرومر استجابة سريعة في المنار ويقوم رشيد رضا بعرض وجهة نظر كرومر في أحوال المسلمين فيقول «وقد ادرك اللورد كرومر بصائب فكره أن هذا القسم هو الوسط

(٨١) للاطلاع على نص مبادىء جمعية الشورى العثمانية راجع: حسين ضناوي، ص ١٩٧ هامش رقم (٢).

(٨٢) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده، جـ٣، جمع وتحقيق محمد عماره، (بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢) ص ٣٤٩.

(٨٣) للاطلاع على هذا الموضوع بالتفصيل، راجع: المصدر ذاته، جـ١ ص ٨٠ وما بعدها.

الـــذي يرجى خيره بين المتنــطعـين في جمودهم والمتهتكـين في تفـرنجهم، ويقارن بين اتجاه الشيخ محمد عبده في مصر واتجاه السيد احمـد خان في الهند[84]. وهي مقارنة يقتبسها من اللورد كرومر نفسه فيقول «ان مسلمي الهند لم يسبقوا مسلمي مصر إلى الاشتغال بالاصلاح وانما فاقوهم بمدرسة العلوم الكلية (مدرسة عليكـرة)[85] التي أسسهـا أحمد خان، وليعلم مسلمو مصر ان مدرسة العلوم في عليكرة لم تنجح الا لأن مؤسسيها كانوا من عهد زعـيمـهم السيد أحمــد خان إلى الآن على وفــاق مع السلطة الانجليزية وتحسين للظن بها فكانوا خيراً لملتهم ممن جعلهم سوء الظن والكره بين معاد لعلوم الافرنج النافقة وبين خائف من كل عمل نافع لملته، وأن الاستاذ الامام كان على هذا الرأي أي أنه لا بد لنا من العمل النافع للاسلام والمسلمين مع تحسين الظن بأن الانجليز لا يعارضوننا في ذلك ولا يمنعوننا مما ينفعنا الا إذا ادخلنا فيه السياسة وقصدنا مضارتهم ومقاومتهم، وحينئذ نكون أضر على انفسنا وانفع لهم كما هي سنة الله تعالى في كل جاهل ضعيف يقاوم عالماً قوياً»[86].

النقطة الهامة في موقف رشيد رضا هي مهادنة الاستعمار، وهذا الموقف يتكرر كثيراً في مرحلة ما قبل ١٩٠٨، لذلك ومع هذا المـوقف نجـده ينـبري للدفـاع عن دعم الانجليز للاتجاه الاصـلاحي الذي مثله محمد عبده، فينطلق معبراً عن رأيه في الاستعـمار ضمن ايديولـوجية معينة مبينة كنه هذا الاستعمار بما يتلاءم مع آرائه السياسية وضمن اسلوب اتخذه ليتم تنفيذ هذه الايديولوجية.

الاساس الذي يقوم عليه الاتجاه السياسي الاصلاحي عند رشيد رضـا النابع من اتجاه محمد عبده لا يبتعد في اصوله عن الفكـر الليبرالي العلماني والقـائم على ايديولـوجية الاستعـمار في توسعه والتي تمثل تمثلا يندمج مع الأفكار الوضعية والشمولية التي انتجها الغرب في ذلك الوقت وهذه الايديولوجيا كما تمثلت محلياً على المستـوى السياسي شكلت الايديولـوجيا السياسية المحلية الحليفة التابعة للغرب، وقد وضح رشيد رضا ذلك بمقالاته في المنار في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى، ومن الأمثلة على ذلك ما يقوله حول كنه الاستعمار، «ان غرض الاوروبيين من كل بلاد يدخلونها بالفتح او باسم الحماية أو الاحتلال المؤقت أو غير ذلك من الأسماء هو الكسب ولا ينمو الكسب الا بالعمران، فهم يرمون عمران البلاد التي يتبوأونها ومن ثم سموا ذلك استعماراً، وعمــران كل بلاد ينمــو ويعــظم على قدر اتفـاق أهلهـا مع المستعمرين عليه، وهذا الاتفاق يتوقف على أمور أولها في المرتبة معـرفـة كل من الفـريقـين للآخر ليكون في وفاقه وخلافه على بصيرة، ومن كان أعلم بالآخر كان أجدر بالفوز عند التنازع مع تساوي القوة فكيف إذا كان الأعلم هو الأقوى»[87].

والمنـطق النهائي في فكر رشيد رضا السياسي هو ضرورة ضبط الشعب وايجاد صمام أمن للسيطرة الانجليزية، من خلال تعـطيل الفكر الشعبي الديني وامتصاصه، والذي يعتبره رشيد رضا التعصب والجهل بعينه، يقول «ثم ان الأوروبيين يرون ان أعـظم مثار للفتن التي ربما تفضي إلى الخطر على موارد كسبهم الـذي يطلبونه بنشر مدنيتهم وباستعمارهم للارض هو ما عليه عوام المسلمين من الاستعداد للتهيج باسم الدين، ورب هيجة شؤمى يقوم بها بعض الدجالين الذين تعتقد العامة صلاحهم أو بعض زعماء السياسة تذهب بعمل سنين طويلة»[88].

أما الاسلوب الذي وضعه رشيد رضا من اجل وضع ما سبق ذكره موضع التنفيذ في مجال الاصلاح السياسي ومن خلال موقفه من الاستعمار الانجليزي ولتأمين مصالح الأوروبيين بعدم مقاومتهم هو ايجاد حزب معتدل له مهمات محددة يبرزها رضا من خلال قوله «لهذا كله كان من مصلحة الأوروبيين في بلاد المشرق ان يوجد حزب نير الفكر محب للاصلاح الذي يفرق العامة بقدر انفسهم وبنسبتهم إلى الاجانب الذين يعيشون معهم، ويزلزل التعصب الاعمى في نفوسهم حتى لا يغرهم الغارون ويدعوهم إلى أعـمال ان اضرت بالأجـانب قليلاً، فهي تضر بهم كثيراً،

---

(٨٤) احمد خان بن سيد محمد متقي خان، ولد في دلهي في عام ١٨١٧م، وفي عام ١٨٣٧ التحق بخدمة الحكومة الانجليزية، وكان اثناء فتنة عام ١٨٥٧ منصفاً في بجنور (Bignaur) فعمـل على انقـاذ الجـاليات الاوروبية، وكـوفيء على اخلاصه الشديد للحكومة الانجليزية بأن منح معاشاً ولقب «صاحب نجمة الهند». للاطلاع على مزيد من المعلومـات حول احمـد خان، راجـع: دائرة المعارف الاسلامية المجلد الأول، دار الفكر، الترجمة العربية، ص ٤٧٩.

(٨٥) هي كلية اسلامية شرقية انجليزية، افتتحها أحمد خان بالرغم من معارضة الكثيرين الذين كانوا يرون في ادخال نظم التعليم الغربي ما يخالف تعاليم الاسلام وفتحت الكلية ابوابها في عام ١٨٧٥.
راجع: المصدر ذاته والصفحة.

(٨٦) المنار، مجلد (٩)، جزء (٤)، ٢٤ آيار (مايو)، ١٩٠٦، ص ٢٧٦ ـ ٢٨٨.

(٨٧) المصدر ذاته، ص ٢٨٦.

(٨٨) المصدر ذاته والصفحة.

فالأجانب العقلاء العارفون بكنه الشرق، كاللورد كرومر واضرابه من ساسة الانجليز يحبون هذا النوع من الاصلاح الذي ينفع المسلمين لأنه ينفعهم هم ايضاً»[٨٩].

وهذا الحزب المصلح في رأي رشيد رضا له صفات معينة وطابع خاص، يقول رشيد رضا «لا بد من حزب وسط بين العامة وبين المتفرنجين، يكون له جانب إلى النظام والمدنية وجانب إلى الدين النقي السالم من الخرافات التي هي مثار الفتن والآفات». أما الاصلاح الذي سيقوم به هذا الحزب «هو اتقاء السياسة منه واجتناب مقاومة السلطة به وبجعل مداره على تربية النفوس بالدين وترقية شأن البلاد الاجتماعي والاقتصادي وترك السياسة لأهلها»[٩٠].

والحقيقة فان افكار رشيد السياسية والموقف الذي تبناه حيال الهيمنة الاستعمارية وخاصة الانجليزية ونظرته إلى الأوروبيين جعلته يقف في صف القوى المتعاونة مع الاحتلال، ولذلك فقد تعرضت افكار الاصلاحية للطعن والتشكيك في مراميها ولذلك فقد حاول دفع الشبهات عنه وجعل احياناً من المنار مجالاً لذلك الدفاع، فيقول «تلك الحقيقة وقد يتوهم ضعفاء العقول أن فيها مصانعة للمحتلين، وما انا بمحتاج إلى مصانعتهم لدنيا أريدها منهم، وهم أغني بقوتهم ويراعهم في استعمار البلاد وتدبير امور الأمم عني، ولو كنت اصانع لكنت احوج إلى مصانعة العوام بمجاراتهم على أهوائهم لتزاد مجلتي رواجاً فيهم أو بعض الكبراء الذين يبذلون الاموال لمن يواليهم على ما يريدون، وما كان هذا مني ولا ذاك ولن يكون انشاء الله تعالى»[٩١].

ويمكن ان نعطي حادثة ونشواي كمثال على الطريقة التي كان فيها رشيد رضا يدلي بدلوه في الاحداث التي تتم مباشرة مع سلطات الاحتلال الانجليزي في مصر، يقول رشيد رضا «يقول المنتقدون على الاحتلال ان هذا الحكم سياسي، ويقول من ينتصر للانجليز في كلّ شيء بل هو قضائي عادل وعندي ان الأولين هم المنتصرون، لأن القوم إذا كانوا يعتقدون ان الحكم القضائي العادل الذي هو القصاص بالمساواة في مثل هذه الواقعة، يجري الفلاحين على جيش الاحتلال لتعصبهم أو لخشونتهم، وان هذا الجيش إذا لم يكن مما لا تطمح النفوس إلى الجرأة عليه، فانه لا يمكن للمحتلين ان يقيموا في البلاد، وكانوا قد قسوا في الحكم للارهاب واقفال هذا الباب، فان السياسة المنيعة في كل زمان تقول لهم اصبتم في التنكيل ببضعة رجال، وعقابهم بأكثر مما تحكم به العدل في القصاص العادي لمنع حدوث الفتن»، ثم يضيف قائلاً «فاللائق بمقام الانجليز في الوجود ان يكون الحكم سياسياً، وان كانت السياسة جهولة للفلاحين ونسأل الله ان يوفق الحكومة والمسيطرين عليها إلى الطريقة المثلى لحفظ الأمن وتهذيب الفلاحين بمنع العدوان الذي تأصل في البلاد بضعف الدين وقوة الجهل، وزوال هيبة الحكومة، وأن لا يعود قبل هذا الخطأ في الفهم بين المحتلين والمصريين آمين»[٩٢].

ثانياً : الدولة العثمانية والاتحاديين

عرفت العشرون سنة الأولى من القرن العشرين أحداثاً هامة في تاريخ الولايات العربية العثمانية، كانت بعضها تطورات حصلت في الدولة العثمانية نفسها، من سياسة عبدالحميد الثاني الاستبدادية والانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨، إلى سياسة الاتحاد والترقي العنصرية وبعضها الآخر انعكاسات لهذه التطورات، من تدابير جمال باشا ضد الوطنين العرب وثورة الشريف الحسين بن علي بالاضافة إلى الحدث الهام وهو دخول تركيا الحرب إلى جانب المانيا.

كل ذلك تم خلال فترة قصيرة وبصورة سريعة جعلت فكر رشيد رضا السياسي الاصلاحي يتصدى لها ولكنه فكر متغير لتغير الاحداث والظروف التي احاطت بها ولذلك كان فكراً مرحلياً يوجد المبررات لتلك المواقف المتغيرة.

بدأ رشيد رضا حياته السياسية عثمانية السياسة والهوى، معتقداً كأستاذه محمد عبده أن الايمان بالدولة العلية ثالث عقائد المسلمين بعد الايمان بالله ورسوله.

ثم تكشفت له أمور، جعلت رشيد رضا يعادي السلطان عبد الحميد الثاني دون الدولة العثمانية، ويركز مطالبته في الاصلاح على الشورى في الدولة العثمانية، وهذا أزعج الحكام العثمانيين في بلاد الشام، فأحيل رشيد رضا إلى المحكمة في

(٨٩) المصدر ذاته والصفحة.

(٩٠) المصدر ذاته، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٩١) المنار، مجلد (٨)، جزء (٢)، ص ٨١٧.

(٩٢) المنار، مجلد (٩)، جزء (٦)، ص ٤٧٨.

طرابلس الشام وصدرت بحقه مذكرة القاء قبض بموجب حكم غيابي(٩٣).

ولمواجهة استبدادية عبدالحميد الثاني، والتركيز على الشورى، الف في مصر مع بعض العثمانين جمعية الشورى العثمانية واصدرت الجمعية جريدة باسمها «الشورى العثمانية»(٩٤).

وعندما حصل الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨ ازدادت دعوة رشيد رضا في محاربة استبداد السلطان عبدالحميد الثاني على قاعدة حكم الشورى في الاسلام ووجدت مجالاً رحباً للتوسع في ذلك واعتبر ما جرى خطوة هامة على طريق تأييد الحكم الجديد والتمسك بالرابطة العثمانية القائمة على الدستور، لذلك نجده يوم اعلان الدستور يكتب مقالاً تحت عنوان «عيد الأمة العثمانية بالدستور والحرية» جاء فيه «في هذا اليوم أحس العثمانيون بأنهم أمة لهم حقوق على دولتهم ومصالح يقوم عليها بناء وحدتهم وعليهم فروض وواجبات يؤدونها لحكومتهم ولهم قانون يساوي بينهم في معاملاتهم، وأن لهم بذلك جنسية جامعة لهم على اختلاف انسابهم ولغاتهم، وتباين مذاهبهم ودياناتهم»(٩٥).

وفي نفس المقال ادرك رشيد رضا المخاطر التي تتهدد العمل الذي تم بعودة الدستور فقال «الحق اقول انه لا يخشى علينا من سلب الحرية وانما يخشى علينا من سوء استعمال الحرية ومن الجهل بطرق المحافظة على الحرية، يخشى ان تدفع الحمية بعض الاحرار الظافرين إلى مثل اعمال المستبدين، وان تهبط العبودية الموروثة بكثير من الجاهلين إلى ان يكونوا عوناً على انفسهم للحكام الظالمين، يخشي ان تكون الحرية متاعاً للسفهاء يتسلقون بها مراتب العقلاء والفضلاء»(٩٦).

وادرك رشيد رضا خوف آخر على ما جرى وتحقق عام ١٩٠٨، يتعلق بالضباط العسكريين الذين يعملون في السياسة ويؤثرون على مجرى الاحداث خاصة عندما ادرك الواقع العثماني في العاصمة نفسها، حيث رأى جمعية الاتحاد والترقي تسعى جاهدة لتوسيع نشاطها داخل الجيوش العثمانية، يقول في ذلك «حمل الضباط في جميع البلاد على الاشتغال بالسياسة وجعل نفوذهم هو الأعلى في لجان الجمعية، وهذا خطر على الدولة، كان يجب التشدد في منعه والاكتفاء بأن يكون بين الجمعية وبين الضباط صلة خفية كما قلنا وانصراف كل إلى عمله، الضابط إلى العمل العسكري المحض الذي لا شائبه فيه للسياسة والجمعية لمراقبة سير الدستور في غير مشاركة الضباط في ذلك، فان ظهرت قوة تسعى لالغاء الدستور وابطال مجلس الأمة او الاستبداد والظلم جاز حينئذ استنجاد الجمعية بالضباط لمقاومة ذلك، وانه لا يختلف عاقلان من علماء الاجتماع في وجوب منع الضباط من الاشتغال بالسياسة والادارة»(٩٧).

وكان اعلان الدستور قد شجع رشيد رضا على زيارة سورية فأخذ يدعو إلى الاتحاد بين العنصرين العربي والتركي وينبذ التفرقة بينهما، فيقول «وكنت أبين لهم ولغيرهم ان تنفير العرب من الترك مفسدة من أضر المفاسد، واننا في اشد الحاجة إلى الاتحاد بالترك والاخلاص لهم لأن مصلحتنا ومصلحتهم في ذلك، على أننا احوج اليهم منهم الينا، فمن يسعى إلى التفرقة بيننا وبينهم فهو عدو لنا ولهم»(٩٨).

ومما لا شك فيه ان اعلان الدستور عام ١٩٠٨ اعطى رشيد رضا دفعه قوية للاعلان عن آرائه السياسية نحو الدولة العثمانية خاصة وقفته القوية في تأييد الدولة العثمانية ووضع الأسس الذي تبنى فيها العلاقة مع هذه الدولة بشكل عام وجمعية الاتحاد والترقي بشكل خاص، فنجده يقول « يجب ان يكون الاساس الذي نبني عليه في حاضرنا ومستقبلنا الاخلاص لدولتنا والاتحاد بالترك وسائر العناصر العثمانية ما دامت هذه العناصر متحدة بالدولة مخلصة لها وان نكون الآن من اشد الأعوان لجمعية الاتحاد والترقي على بث روح الدستور في جميع الطبقات ورقباء على الحكومة في سيرها واعمالها حتى ترسخ فيها الديمقراطية »(٩٩).

لكن هذا الحال لم يدم طويلاً، حيث أخذ جماعة الاتحاد والترقي يعتمدون على العصبية التركية خاصة بعد ان احبطت

(٩٣) للاطلاع على نص هذا الحكم راجع : المنار، مجلد (٩)، جزء (١٢)، ص ٧١٧، وكان قد نشر هذا الحكم أيضاً في جريدة بيروت الرسمية، عدد (٨٦٦)، ٢٨ محرم عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٥م.

(٩٤) صدرت هذه الجريدة في فبراير عام ١٩٠٧ وكان رفيق العظم يحرر القسم العربي منها. وحقي العظم القسم التركي.

(٩٥) المنار، مجلد (١١)، جزء (٦)، ٢٨ يوليو (تموز)، ١٩٠٨، ص ٤١٧.

(٩٦) المصدر ذاته، ص ٤٢٣.

(٩٧) المنار، مجلد (١٢)، جزء (٣)، ص ٢٣٦.

(٩٨) المنار، مجلد (١١)، جزء (١٢)، ٢٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٠٩، ص ٩٣٧.

(٩٩) المصدر ذاته، ص ٩٣٨.

محاولة ردة السلطان عبدالحميد عام ١٩٠٩ فدخلت العلاقات بين الاتراك والعرب في مرحلة جديدة خاصة منذ عام ١٩١٠ بالانعطاف والتحول نحو سياسة ابعاد العناصر غير التركية عن اجهزة الحكم «التتريك» فنشأت الأزمة بين العنصرين. وحدث في عام ١٩١١ الهجمة الاستعمارية الايطالية على طرابلس الغرب واحتلالها وهي احدى ولايات الدولة العثمانية، فكشف هذا العمل بصورة جلية مدى الضعف والتهاون الذي بلغته تلك الدولة في ظل حكومة الاتحاديين، فأخذ العثمانيون العرب يبحثون عن حلول تجمع بين حفاظهم على ولائهم للدولة العثمانية، وبين استعدادهم الواجب لدرء الخطر الأوروبي الماثل امامهم.

لقد حتمت هذه المرحلة على رشيد رضا الاشتراك في تأسيس حزب اللامركزية الادارية العثمانية عام ١٩١٢[١٠٠]، والذي تبلورت في برنامجه الاهداف[١٠١] والوسائل التي ميزت نشاط رشيد رضا السياسي على صفحات المنار وهو نشاط متعدد الجوانب.

ومن هذه الجوانب تصديه للاتجاه التتريكي قبيل الحرب العالمية الأولى وفي اثنائها وحتى بعد اعدامات جمال باشا وهو جانب ينطلق من قاعدة فقهية اسلامية «الحرص على وحدة الدولة الاسلامية التي توجب طاعة المتغلب بالقوه وان لم يكن حائزاً لغير الاسلام من شروط الخلافة الشرعية ومنها النسب القرشي»[١٠٢].

وجانب آخر وهو لوم الاتراك على عصبيتهم والمطالبة بحقوق العرب في انباء لغتهم والمشاركة في حكم الدولة فيقول «ولكن قد يحصل بها دون استقلال العرب بانفسهم دون الترك وان كان حصولاً ضعيفاً فلم يكن باعثاً على السعي إلى تأليف دولة عربية، بل إلى طلب اصلاح اضطرب في تحديده افرادهم وجماعاتهم وكان حزب اللامركزية اقصرها واشدها اعتدالاً»[١٠٣].

واضافة إلى هذا الجانب فقد اوضح رشيد رضا الأسباب التي جلعت العرب رغم بروز «العصبية التركية» لا تتصدى لانشاء دولة جديدة فيقول: «ان عدم تصدي العرب لانشاء دولة جديدة لم يكن سببه الخوف من قوة الدولة كما كان يتوهم الترك، فان العرب أقوى من اليونان والبلغار وغيرهما من الشعوب التي انفصلت من السلطنة العثمانية وصارت دولاً مستقلة، ولم يكن سببه تفرق العرب وتعذر اتفاق أمرائهم وزعمائهم كما يتوهم الكثيرون منهم، وانما كان السبب الصحيح لسكون العرب وسكوتهم عن طلب استقلالهم وتجديد دولة لهم هو الاسلام وأورويه»[١٠٤].

وهناك جانب آخر أخذ قدراً لا بأس به من نشاط رشيد رضا السياسي في هذه المرحلة وهو تعاظم شكوكه في الاتحاديين لدرجة انه اتهمهم بمساعدة أوروبا على احتلال الولايات العربية العثمانية والتقصير في عدم الدفاع عنها، «العرب هم الضحية في هذا العالم الكبير المتوحش فلاهم من المسيحيين حتى يمتنع الغرب عن احتلالهم ويسهم في ترقيتهم وتطورهم، وليست الدولة العثمانية بمهتمة في حمايتهم والدفاع عنهم بل تجردهم من السلاح ليكونوا لقمة سائغة في افواه الطامعين المستعمرين»[١٠٥].

ثالثاً: ثورة الشريف الحسين بن علي

بعد ظهور عجز الدولة العثمانية (دولة الاتحاديين) عن الوقوف في وجه الغزو الاوروبي للبلدان العربية الذي تمثلت خطوته الأولى في احتلال ايطاليا لليبيا عام ١٩١٢، تبنى رشيد رضا ثورة الشريف الحسين بن علي لأنها من جهة «ثورة على الاتحاديين الملاحدة» الذين خرجوا عن الاسلام الصحيح واتبعوا سياسة التنكيل بالعرب، ولأنها من جهة ثانية توفر امكان تأسيس دولة اسلامية بديلة «الاحتياط لما يجب إذا سقطت الدولة العثمانية»[١٠٦].

كان هذا هو الاساس لمنطلق موقفه من هذه الثورة، ثم يزيد موقفه منها بوضوح اكثر حيث يقول «ان العمل لانقاذ الدولة نفسها من الخطر قد اصبح فوق طاقته وطاقة غيره، فرأى أن يبدأ بالمستطاع وهو انقاذ الحجاز مهد الاسلام ومشرق نوره، مما نزل بـه من البلاء والشقاء، ثم انقاذ غيره ما يمكن انقاذه

(١٠٠) اشترك معه في تأسيس هذا الحزب شبلي الشميل، اسكندر عمون، حقي العظم، محب الدين الخطيب وآخرون يمثلون معظم بلاد الشام والذين كانون يقيمون في القاهرة.

(١٠١) للاطلاع على اهداف هذا الحزب، راجع: جورج انطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٢) ص ١٨٥.

(١٠٢) المنار، مجلد (٢٠)، جزء (١)، ٣٠ يوليو (تموز)، ١٩١٧.

(١٠٣) المصدر ذاته، ص ٤٤.

(١٠٤) المصدر ذاته والصفحة.

(١٠٥) المنار، مجلد (١٤)، جزء (١٢)، ص ٩٥٠.

(١٠٦) المنار، مجلد (٢٠)، جزء (٦)، شباط ١٩١٨، ص ٢٨١.

من البلاد العربية ليكون ذلك بيئة لحفظ الاستقلال الاسلامي وعدم زواله، مما يخشى ويتوقع ان يحل بالدولة العثمانية والعياذ بالله تعالى »(١٠٧).

بعد ذلك فان رشيد رضا فسّر ثورة الشريف الحسين بن علي لاستقلال الحجاز « بأنها خدمة للاسلام وليس بالضرورة عداء للدولة العثمانية ، يقول : كلنا نعلم انه لا يوجد في الدنيا كلها مكان يصلح لتأسيس دولة اسلامية ، تخلف الدولة العثمانية إذا وقع بها ما تخشاه الا جزيرة العرب وما يتصل بها من البلاد العربية »(١٠٨).

ان معنى تفسيره هذا ان في استقلال الحجاز « خدمة للاسلام » وهذا في رأيه لا يتعارض مع بقاء الدولة العثمانية ان سلمت هذه الاخيرة من السقوط، ومما يزيد هذه الصورة وضوحاً عندما يقول « ان الدولة العثمانية ان سلمت من السقوط وحفظ استقلالها لم يكن استقلال العرب في الحجاز وغيره مانعاً من ذلك ولا من تعاضد العرب والترك مع حفظ حقوق كل منهم، وان سقطت وفقدت استقلالها لم يكن هذا الاستقلال هو السبب فيه، ولكن يكون سبباً لحفظ استقلال الحكم الاسلامي في اشرف بقاع الاسلام »(١٠٩).

والحقيقة فان هذا الموقف الذي يقفه رشيد رضا من ثورة الحسين بن علي ثم تفسيره لتلك الثورة، جاء اساساً من الهاجس الفقهي الاسلامي في ضرورة حفظ الدولة الاسلامية أو من يمثلها وهو الهاجس الذي كان يسير معظم افكار رشيد رضا السياسية .

لقد اخذ رشيد رضا من خلال هذا الهاجس يدرك الخطر الذي يحيق بالاتراك بعد دخولهم الحرب، ولكن هذا الخطر يمكن تجنبه بالنسبة للعرب وذلك باعلان الاستقلال مسبقاً، وهو الاستقلال الذي تمثل بثورة الشريف الحسين بن علي.

يقول في هذا الصدد «لا يغيب عن اذهانكم أنه لولا اعلان هذا الاستقلال لترتب على سقوط الدولة العثمانية وقوع حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ غنيمة في أيدي الدولة الفاتحة، فان تركوهما بعد ذلك لنا كان لهم منه التصدق بهما علينا، والا كانا تحت سيادتهم والعياذ بالله تعالى، وبهذا يتبين لكم ان هذا العمل العظيم، الذي قام به هذا الزعيم العظيم قد أنقذ الحرمين الشريفين وما حولهما من هذا الخطر الجسيم، ووضع أقوى أساس لحفظ الاستقلال الاسلامي بانشاء دولة جديدة له»(١١٠).

وتعقيباً على موقف رشيد رضا من ثورة الحسين بن علي نقول: انه موقف وسط فهو يتأرجح بين دعاة الاستقلال العربي عن الاتراك وبين موقف الحريصين على استمرار الدولة العثمانية .

رابعاً : الحركة الصهيونية

يعتبر رشيد رضا من المفكرين العرب الذين وعوا الحركة الصهيونية واهدافها البعيدة لاحتلال فلسطين والبلاد العربية المجاورة والربط بين الاحداث التي كانت تجرى في الدولة العثمانية وبين المخططات التي كانت ترسم لانتزاع فلسطين من اهلها واعطائها للصهيونية .

ومن هذا المنطلق لاحق رشيد رضا محاولات الحركة الصهيونية ومساعيها للسيطرة على ارض فلسطين ، ولاحظ التطور الذي حدث داخل العاصمة العثمانية وجراء الصهاينة في السعي لاحتلال فلسطين فقال « بينما كانت في البداية تتظاهر بحب نقل فقراء اليهود المهاجرين والمنفيين إلى بلاد فلسطين ليعمروها ويعيشوا في ظل السلطان آمنين ، وكأنها وثقت بقوتها الآن فخرجت من مطبق الكتمان وقد بعثت منذ اشهر المستر (اسرائيل زنجويل) من لندرة إلى الآستانة للمساومة في شراء القدس الشريف »(١١١).

وكان لرحلة رشيد رضا إلى الآستانة بعد اعلان الدستور العثماني اهمية بالغة في اتضاح وعيه بالمسألة الصهيونية وتحسسه بالمخاطر الصهيونية التي تتهدد الدولة العثمانية بفلسطين، يقول في ذلك «إذا لم تتنبه الأمة العثمانية لكيدهم وتوقف حكومتها عند حدود المصلحة العامة في مساعدتهم، فان الخطر من نفوذهم عظيم وقريب»(١١٢). ويقول أيضاً «ان الخطر من الصهيونيين ينحصر عندي في شيء واحد وهو امتلاكهم للأرض المقدسة، فينبغي لكل من يقدر على حمل الحكومة العثمانية على منعهم من ذلك ان لا يالو فيه جهد ولا يدخر وسعاً»(١١٣).

---

(١٠٧) المصدر ذاته، ص ٢٨٥ .
(١٠٨) المصدر ذاته، ص ٢٨٧ .
(١٠٩) المصدر ذاته والصفحة.
(١١٠) المصدر ذاته والصفحة.
(١١١) المنار، مجلد (٤)، جزء (٢١)، عام ١٩٠٢، ص ٨٣٠ .
(١١٢) المنار، مجلد (١٣)، جزء (١٠)، ص ٧٢٥ .
(١١٣) المنار، مجلد (١٤)، جزء (٩)، ص ٧١٤ .

واستطاع رشيد رضا ان يصل بفكرة السياسي إلى كنه الصهيونية ويدرك مراميها البعيدة واخطارها خاصة تكوين دولة صهيونية كهدف سياسي للحركة الصهيونية فيقول « فأعجب ذلك كله تصدي جمعية من يهود أوروبه لتكوين دولة جديدة في البلاد المقدسة من هذه المملكة (العثمانية) ، تتألف من مهاجرة فقراء اليهود الممزقين في جميع أطراف الارض بمساعدة هذه الجمعية »[١١٤].

ثم يطلب من الزعماء العرب ان يدركوا هذا الخطر الحقيقي ، بعد أن توضحت أبعاد الصهيونية السياسية ويخاطبهم بقوله « يجب على زعماء العرب أهل البلاد أحد أمرين : اما عقد اتفاق مع زعماء الصهيونيين على الجمع بين مصلحة الفريقين في البلاد ان أمكن وهو مسكن قريب إذا دخلوا من بابه وطلبوه بأسبابه ، واما جمع قواهم كلها لمقاومة الصهيونيين بكل طرق المقاومة ، واولها تأليف الجمعيات والشركات ، واخرها تأليف العصابات المسلحة التي تقاومهم بالقوة وهو ما تحدث به بعضهم على أن يكون أول ما يعمل وانما هو الكي ، والكي اخر العلاج كما يقال »[١١٥].

وقبل صدور وعد بلفور أدرك رشيد رضا ان الخطر الصهيوني ليس على فلسطين وحدها ، بل على جميع البلاد العربية وان المعركة مع اليهود الصهانية معركة رئيسية ومتخذا من تاريخ اليهود واطماعهم دليل على ادراكه هذا فيقول « ليعلم من لم يكن يعلم دين هذه الامة وتاريخها ، ان الصهيونيين إذا تم لهم ما يريدون لا يتبعون في أرض الميعاد التي يؤسسون ملكهم الجديد فيها مسلماً ولا نصرانياً وليست ارض الميعاد أو فلسطين عندهم ما نسميه نحن الآن فلسطين فقط بل هي في عرفهم وتحديد كتبهم الدينية تمتد إلى سورية حتى النهر الكبير أي نهر الفرات فهذه بلاد لا يجوز عندهم ان يقيم فيها احد غير الاسرائيليين ، ولا بد من المسارعة الى تنظيم وسائل الدفاع ، ليعلموا أنه لا يكاد يوجد شعب من شعوب الارض غافل عن قوته واستعداده كالشعب العربي »[١١٦].

وبعد صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ ادرك رشيد رضا علاقة الاستعمار الانجليزي بالحركة الصهيونية والمشروع الصهيوني للسيطرة على فلسطين ، لكن الرقابة التي وضعتها بريطانيا على الصحف والمجلات منعت رشيد رضا من الكتابة حول هذا الموضع في المنار .

لكن ما أن رفعت الرقابة مع انتهاء الحرب العالمية الأولى بهزيمة الدولة العثمانية ، حتى اشتد عداء رشيد رضا للانجليز وتوضحت له أهداف الانجليز والصهيونية والمصالح المتبادلة بينهما ، فيقول « ان الانجليز قد استخدمت اليهود في الحرب العالمية الأولى لمصلحتها ، واعدة اياهم بجعل فلسطين وطناً قومياً لهم تمهيداً لامتلاكها وتجديداً لملك اليهود فيها تحت سيادتها »[١١٧]. بالاضافة إلى ذلك فقد حدد العلاقة بين الانجليز والصهاينة والأهداف الاستراتيجية التي دعت الانجليز لاقامة الوطن اليهودي في فلسطين فيقول « اننا نعلم الانجليز استخدموا اليهود لاضعاف العرب بايجاد عدو لهم في بلادهم ، يقطعون صلة بعضها ببعض ، ويشغلون كلا منها بالآخر متكلاً على الانجليز ، واقل فائدة لهم في ذلك ان يحولوا مقاومة العرب لاحتلالهم بلادهم إلى اليهود »[١١٨].

مما سبق ذكره وخلال هذا العرض لمواقف رشيد رضا السياسية ، فانه يمكن القول أنه بالرغم من تلك الاحداث المتلاحقة والسريعة ، فان رشيد رضا استطاع ان يعطي رأيه السياسي من خلال تلك المواقف فينمي الفكر السياسي في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية وان يواكب فكرة هذه المؤثرات الخارجية التي احاطت بتلك الولايات ويصبح هذا الفكر جزءاً من الحياة الفكرية في تلك الولايات .

(١١٤) المنار ، مجلد (١٧) ، جزء (٤) ، ص ٣١٩ .
(١١٥) المصدر ذاته والصفحة .
(١١٦) المنار ، مجلد (١٧) ، جزء (٩) ، ص ٧٠٨ .
(١١٧) المنار ، مجلد (٢٩) ، جزء (٦) ، ص ٤١٦ .
(١١٨) المنار ، مجلد (٣٠) ، جزء (٧) ، ص ٥٥٥ .

خاتمـــة

نستخلص من هذه الدراسة مايلي:

(١) عوامل عديدة ساهمت في بناء فكر رشيد رضا الاصلاحي، بدأت بعائلته وتربيته واساتذته، والكتب التي طالعها.

(٢) تم صقل هذا البناء الفكري في صورته النهائية بعد اتصاله بالعروة الوثقى وبفكرها المستمد من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وكان لمحمد عبده التأثير القوي والفعال في ذلك.

(٣) اصبحت المنار منذ صدورها عام ١٨٩٨ المرآة التي تنعكس عليهـا آراء رشيد رضـا الاصـلاحية من الناحيتين الدينية والسياسية ولتصبح جزءاً هاماً في الحياة الفكرية في الولايات العربية العثمانية في المرحلة التي تنتهي بنهاية الحرب العالمية الاولى.

(٤) تميزت آراء رشيد رضـا على صفحـات المنار بالاهتمام بالاصـلاح الديني حتى عام ١٩٠٥. والحذر في السياسة وابداء رأي فيها، والاصلاح الديني الذي دعا اليه هو ما يؤدي إلى المحـافظة على الدين والعمل به وجمع المسلمين ولهذا الاصلاح وسائل وطرق لا يتم الا بها ولتحقيقه لا بد من تأليف جمعية اسـلامية، كما ان لهذا الاصلاح شروط يجب ان تتوفر له.

(٥) وما بعد عام ١٩٠٥ انخرط رشيد رضا بالمسائل السياسية وأخذ يعطي رأيه فيها، وكانت الظروف بشكل عام والمسائل السياسية بشكل خاص عوامل جعلته ينخرط في مثل هذه الامـــور ويدلي بدلـــوه بها، لقـد كانت هذه الفـترة غنية بالمتغيرات والتقلبات السياسية، فبرزت أراء رشيد رضا في عدة مسـائل الهيمنة الاستعمارية، الدولة العثمانية وجماعة الاتحاد الترقي، ثورة الشريف حسين بن علي والحركة الصهيونية.

(٦) لقـد كانت آراء رشيد رضـا الاصلاحية بجوانبها المتعددة عنصراً هاماً في الحياة الفكرية في الولايات العربية العثمانية، مما أدى إلى تنمية الفكر في هذه الولايات، وهذا عنصر لا غنى عنه في دراسة الحياة الفكرية في هذه الولايات.

جذور المشكلة الايرلندية

أ. د. نوري السامرائي
كلية الآداب ــ جامعة بغداد

مقــــــدمــــــة

تقع جزيرة ايرلندا غربي انكلترا بين خطي عرض ٥١ ــ ٥٥ شمالا وخطي طول ٦ ــ ١٠ غربا «غربي كرنش» وتطل على المحيط الاطلسي، وتبلغ مساحتها (٨٤٤٢١) كم٢ ونفوسها حسب احصاء عام ١٩٧١ (٤٫٥٢٥٫٢٤٨) نسمة. مناخها معتدل رطب يفصلها عن انجلترا البحر الايرلندي الذي يتراوح عرضه بين ٢٠ ــ ١٢٠ ميلا، واضيق نقطة في هذا البحر تقع بين شمالي ايرلندا واسكتلندة، ارضها سهلية، تتخللها الكثير من المستنقعات، واشهر انهارها نهر شانون، وهي تشتهر بزراعة القمح والشوفان والبنجر البطاطا، وتملك ثروة حيوانية كبيرة من الماشية والاغنام وفيها مخزون كبير من المعادن مثل الفضة والرصاص والزنك، ولكنها تفتقر الى الوقود مثل الفحم والنفط.

من اقدم الاقوام التي وصلت الى الجزيرة هم الايبريون في ٢٥٠٠ ــ ٢٠٠٠ ق.م، كما نزح إليها الكلت من أعالي نهر الراين حوالي عام ٦٠٠ ق. م. ولم تتعرض للغزو الروماني الذي تعرضت إليه الجزر البريطانية منذ عام ٥٥ ق. م والذي استمر حتى نهاية النصف الأول من القرن الخامس الميلادي أي حوالي ٥٠٠ عام.

وقد نشط الرهبان الايرلنديون في مزاولة النشاط التبشيري في اسكتلندا ومقاطعة غاليا ــ فرنسا الحالية ــ خاصة في القرن السادس الميلادي.

يتكون المجتمع الايرلندي من اقوام متعددة اشهرها: الكلت والايبريين والنورمان والانكليز والسكسون، مقسمة على اساس القبائل والبطون، تسكن كل منها منطقة خاصة بها وتكون الارض فيها ملكا مشاعا لكل ابناء البطن او القبيلة، وهم يحترفون الزراعة وتربية الماشية والقرصنة.

يملك الشعب الايرلندي تقاليده القومية منذ اقدم الازمة، وتدل على ذلك مدارس الشعراء أو النظاميين التي حفيت بكثير من الثروة والمكانة الاجتماعية، اذ ان التقاليد الادبية للشعب الايرلندي تمتد جذورها الى العصور القديمة. وابرز مثال على ذلك، الملحمة النثرية «الساجا» العظيمة والتي ترجع الى اقدم العصور الكلتية وتشبه الملاحم الهوميرية.

وقد نجح احد زعماء القبائل الايرلندية المدعو «بريان بورديم» في عام ١٠٠١ م من بسط سيطرته على معظم القبائل الايرلندية حتى لقب نفسه بالملك واتخذ من مدينة «تريلي» الواقعة في اقليم مانستر عاصمة له، لكن هذه التجربة السياسية انتهت عام ١٠١٤ م بعد مقتل هذا الملك بالقرب من مدينة «دبلن» على يد النورمان وحلفائهم من زعماء القبائل الايرلندية. وعلى الرغم من مقتل الملك الايرلندي فقد فشل النورمان في بسط سيطرتهم على الجزيرة.

كانت جزيرة ايرلندا اول مستعمرة انكليزية، كما انها بقيت في ظل الاستعمار الانكليزي مدة طويلة، اذ استمر استعمارها منذ الثلث الأخير للقرن الثاني عشر حتى نهاية الربع الاول من القرن العشرين، ولا تزال بعض مناطق الجزيرة تابعة لانكلترا حتى الوقت الحاضر، ونعني اقليم اولستر الواقع في الشمال الشرقي منها.

حاول المؤرخون الانكليز اخفاء حقيقة اهداف انكلترا من سيطرتها على ايرلندا فقد وصفوا الشعب الايرلندي بانه عنصر متخلف لايملك مقومات الحضارة وان هدف انكلترا من سيطرتها على الجزيرة تحضير سكانها، ادعى ذلك بعض مؤرخي القرن التاسع عشر واشهرهم:

G. Smith- Irish history and Irish charactor L 1862.

R. Bagwell - Ireland under Tudor, Vol 1-III L 1485-1603

Tomas Makly - History of England, L 1906.

وقد اعتبر هؤلاء ان حكم انكلترا لايرلندا قدم خدمة كبيرة للشعب

---

١. د. سعيد عبد الفتاح ــ اوربا في العصور الوسطى، ج ١، التاريخ السياسي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٤، ص ١٧٦.

الايرلندي في عملية تحضيره. اما مؤرخو المرحلة المعاصرة فكانوا اكثر رجعية في تبريرهم الاحتلال الانكليزي لايرلندا ومنهم :

R. Dunlop - Ireland from the earlist Times, L 1922.

J. Black - The reign of Elizabeth, L 1936.

وقد انتهج هؤلاء المؤرخون المبدأ الشوفيني في تدو ينهم للتاريخ الايرلندي. فادعوا بان الشعب الايرلندي غير قادر على بناء حضارة خاصة به و يتصف بالشراسة والوحشية. وان هدف انكلترا من احتلالها الجزيرة هو تطبيع هذا الشعب وتحضيره وجعله في مجموعة الامم المتحضرة، و يستثنى من هؤلاء المؤرخين :

J. Morton. A poples history of England, L 1948. الذي كشف عن اهداف انكلترا الحقيقية من احتلالها الجزيرة، هي ضمها الى الاراضي الانكليزية وازالة السمات القومية للشعب الايرلندي.

الحملة الانكليزية الاولى على ايرلندا

بدأ الغزو الانكليزي لايرلندا في عهد الملك هنري الثاني ١١٥٤ــ ١١٨٩. الذي اعتبر من الشخصيات السياسية المهمة في العصور الوسطى كنموذج للملكية القوية المستبدة. فقد نجح في تأسيس سلطة قوية في انكلترا يدعمها جيش قوي من المرتزقة الموالين للملك. وفرض على النبلاء ضريبة سماها ضريبة البدل مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية. فاستغل هذا الجيش في القضاء على الفوضى الاقطاعية وتجريد النبلاء من الكثير من امتيازاتهم السياسية والقضائية، حتى قيل ان سياسته في القضاء على النبلاء كانت اخطر محاولة قام بها، لم تحاولها فرنسا الا في القرن السابع عشر على عهد رشيليو(٢). حتى تحولت تلك الطبقة من النبلاء الى طبقة من الاعيان المزارعين تحمل شيئا من المسؤولية العامة(٣).

و بعد نجاح هنري الثاني في احكام سيطرته داخل انكلترا، استغل هذا الجيش في توسيع نفوذه في الخارج، فتمكن من السيطرة على ساحات واسعة في اسكتلندا اضافة الى مقاطعة انجوومين ودوقية نورمندي في فرنسا. حتى اصبحت ممتلكاته في فرنسا تزيد على مساحة الاراضي التي تحت سيادة ملك فرنسا. ثم اتجهت انظاره نحو ايرلندا التي مزقتها الحروب الداخلية والتي هرب بسببها «درموت» دوق مقاطعة ليتستر الى جنب و يلزطالبا النجدة من بارون و يلز الذي يحمل لقب صاحب ــ القوس المنيع ــ فلبى طلبه بعد موافقة الملك هنري الثاني. فقاد بارون و يلز جيشا من المتطوعين الانكليز ونزل في ميناء «ووترفورد» الذي يقع في الجنوب الشرقي من الجزيرة، وتمكن من احتلال مدينة دبلن في عام ١١٦٩ م. ثم أبحر هنري الثاني بنفسه على رأس جيش الى مقاطعة دبلن في عام ١١٧١ م، غير ان جيش الملك كان يتقدم ببطء لشدة مقاومة القبائل الايرلندية، لذلك اقتصر في اعماله العسكرية على فرض سيطرته على مدينة دبلن وضواحيها، ثم كر راجعا الى لندن وترك امرادارة المدينة وضواحيها لدوق مقاطعة و يلز صاحب القوس المنيع.

استهدف الغزو الانكليزي المبكر في عهد الملك هنري الثاني الاقسام الشرقية والجنوبية الشرقية من الجزيرة متخذا منها قاعدة للتوسع والسيطرة التدريجية على اقاليم الجزيرة الاخرى، وكان مركز هذا الاقليم مدينة دبلن وسميت المنطقة التي سيطرت عليها الحملة الانكليزية في هذا الوقت المبكر بالقلعة او الحصن «Pale». وقد استغل الغزاة الانكليز الخلافات والمنازعات بين زعماء القبائل والبطون الايرلندية في تحقيق هذه الانتصارات المبكرة والتي كان من نتائجها بسط سيطرتهم على الاقاليم الشرقية من الجزيرة.

اسلوب الادارة الانكليزية للمناطق المحتلة

ترك الاحتلال الانكليزي اثارا سلبية على التطور التاريخي لا يرلندا، اذ عرقل عملية التطور الاصيل ــ القومي ــ فيها، والنهج السياسي والحضاري المستقل للشعب الايرلندي واخضعه للاسترقاق والاستعباد لمدة زمنية طو يلة جدا.

فقد طبق المحتلون الانكليز في ايرلندا نمط الانتاج الاقطاعي، اذ ازيحت القبائل الايرلندية عن اراضيها مع زعمائها وقتل بعضهم ووزعت اراضيهم على النبلاء الانكليز وقواد الحاميات العسكرية في المدن وكبار الموظفين الاداريين(٤). كان موقف الفلاح الايرلندي في ظل الحكم الانكليزي صعبا للغاية، اذ كان عليه ان يدفع الضرائب و يقوم باعمال السخرة في بناء الطرق والجسور والقلاع لحساب اللوردات الجدد من المستوطنين الانكليز(٥). يضاف الى ذلك عليه ان ينسى اصله ولغته

٢. د. نظير حسان سعداوي ــ تاريخ انكلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى. القاهرة، ١٩٥٨، ص٧٨.

٣. م. ل. راوس ــ التاريخ الانكليزي، ت د.. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٤٦، ص ٤٥.

4. E. Curtis - A history of Ireland, London, 1936, p 60.

5. E. Curtis - Irish historical documents, London, 1948, pp 47-48.

وعاداته وتقاليده، و يأخذ اللغة والعادات والتقاليد الانكليزية، فقد حاول المستعمرون الانكليز استئصال العادات والتقاليد الايرلندية والغاء القوانين والاعراف المحلية واحلال القوانين والاعراف الانكليزية محلها، واعتبروا مخالفة القوانين والاعراف الجديدة خيانة للحكومة، كما جاء ذلك في القانون الصادر عام ١٣٦٧ م في عهد الملك ادورد الثالث ١٣٢٧ ــ ١٣٧٧ م(٦).

وهكذا اصبح المواطن الايرلندي يعاني من الاستغلال القومي والاقتصادي، وعندما ظهرت الكنيسة الانكليكانية بعد حركة الاصلاح الديني في انكلترا والتي بدأت منذ عهد الملك هنري الثامن ١٥٠٩ ــ ١٥٤٧ م، اجبر الايرلنديون على ترك عقيدتهم الكاثوليكية واعتناق العقيدة الانكليكانية.

كانت التشريعات الجديدة التي وضعتها الادارة الانكليزية لحكم المناطق المحتلة اقسى بكثير من القوانين الايرلندية الملغاة، فقد كانت عقوبة القتل غير المتعمد والحرق والسرقة مثلا، الغرامة النقدية أو العينية، الا ان القانون الجديد جاء بعقوبة الموت لمثل تلك الجرائم.

وكان حكم المقاطعات وادارتها غير مباشر، اذ صدر في عام ١٥٤١ قانون في لندن اعتبر ملك انكلترا سيد ايرلندا وهو يعين نائبا عنه لحكمها يحمل لقب نائب الملك في ايرلندا واصبحت مدينة دبلن مركز الادارة الانجليزية ومنح نائب الملك صلاحيات واسعة جدا حتى اقتربت من صلاحيات الملك(٧). و بغض النظر عن تلك الصلاحيات، فان جميع التوجيهات كانت تأتي من لندن اذ اعتبر التاج ايرلندا تحكم من و يست منستر(٨).

وفي عام ١٤٩٥ صدر مرسوم ملكي بتشكيل البرلمان الايرلندي وقد جاء على غرار البرلمان الانكليزي اذ تكون من مجلسين، مجلس اللوردات و يتكون من ممثلي كبار النبلاء الانكليز وكبار رجال الكنيسة والقضاة وكبار الموظفين، ومجلس العموم و يضم ممثلين عن صغار النبلاء والفرسان وسكان المدن. و ينعقد البرلمان مرة واحدة كل سنتين، وسلطاته محدودة، اذ ان تشريعاته خضعت لموافقة مجلس ملك انكلترا الخاص الذي له الحق في تعديل التشريعات التي صوت عليها البرلمان(٩). ولا يتم انعقاد البرلمان في دبلن الا بموافقة الملك ولا يناقش الا المشاريع التي ناقشها البرلمان الانكليزي في لندن خاصة بالنسبة للقضايا المشتركة بين انكلترا وايرلندا(١٠).

الاحتلال الانكليزي للمناطق الوسطى

انقسمت ايرلندا الى مناطق نفوذ منذ بداية القرن السادس عشر وهي: --

١. منطقة القلعة «Pale» ومركزها مدينة دبلن وتتمثل فيها السيادة الانكليزية المطلقة وتشمل الاراضي الواقعة شرق الجزيرة.
٢. المنطقة الايرلندية وتخضع لسيادة زعماء القبائل والبطون الايرلندية.
٣. و بين هاتين المنطقتين ذلك القسم من الجزيرة الذي خضع لنفوذ طبقة اللوردات الانجلو ــ ايرلندية التي تكونت من خلال الاحتلال الانكليزي المبكر.

وتقسم منطقة القلعة الى اربعة مقاطعات وهي: دبلن، كيلدروميت الغربية ولاوت.

ومن الناحية الادارية انقسمت الجزيرة الى اربعة اقاليم وهي:

١. اقليم لينستر و يكون الاقسام الشرقية من الجزيرة واشهر مدنه دبلن.
٢. اقليم مانستر و يقع جنوب الجزيرة.
٣. اقليم كونوت و يشمل الاقسام الغربية من الجزيرة.
٤. اقليم اولستر و يضم المناطق الشمالية من الجزيرة. واشهر مدنه بلفاست.

وفي هذه الفترة حقق الاقتصاد الايرلندي نجاحاً ملحوظاً، اذ تطورت التجارة والحرف وظهرت المدن، لكن الغزو الانكليزي عرقل هذه المسيرة وترك آثارا سلبية على الاقتصاد الايرلندي، فقد منع قيام الوحدة الاقتصادية للجزيرة وتعرضت مواردها الطبيعية الفنية للاستغلال البشع.

وفي عام ١٤٨٥ اعتلى هنري السابع العرش الانكليزي، وهو اول ملك من آل تيودور، فبذل جهودا مضنية في سبيل بناء دولة قو ية، كما اتبع سياسة اقتصادية حكيمة اقتصد في النفقات وشجع الزراعة والصناعة واهتم بالتجارة الخارجية، فشجع الشركات الانكليزية التجارية وارسل البعثات الاستكشافية الى العالم الجديد، وكانت سياسته الخارجية قائمة على مبدأ السلام، فقد تجنب الحروب الخارجية.

وهكذا جعل آل تيودور من انكلترا دولة قو ية لها مصالح تجارية مهمة في اوروبا والعالم الجديد. كما انتهجوا سياسة استعمارية صارمة تجاه ايرلندا خاصة في عهد الملك هنري الثامن والملكة اليزابث، فقد حاولت

6. E. Curtis - Irish historical documents, p 52.
7. E. Curtis - Irish Historical documents, pp 10-11.
8. E. Curtis - A history of Ireland, p 75.

٩. د. نور الدين حاطوم ــ تاريخ الحركات القومية، ج ١، الطبعة الاولى، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧، ص ٨٦.

10. E. Curtis - Irish historical documents, p 83.

الحكومة الانكليزية في عهدها فرض سيطرتها التامة على الجزيرة وتحويلها الى مستعمرة بمعنى الكلمة، وقد ارتبطت هذه العملية بمرحلة التطور الاقتصادي في انكلترا في القرن السادس عشر والتي اعتبرت بداية التراكم المالي وولادة الاقتصاد الرأسمالي والمرحلة الاولى لنجاحاته، اذ ان البرجوازية الانكليزية الفتية والنبلاء الجدد طلبوا باصرار من حكومة آل تيودور ان تعمل للحصول على المستعمرات، وهذا مما جعلها تشدد من قبضتها على ايرلندا لكي تكون مصدرا يغذي التراكمات الرأسمالية الناشئة في انكلترا خاصة وان فيها موارد طبيعية ضخمة وتعاني من التجزئة السياسية وانها قريبة جدا من انكلترا ولا يفصلها عنها خاصة اقليم اولستر الا قناة ضيقة يبلغ اقصر بعد فيها ٢٠ ميلا بحريا.

اتبع آل تيودور شتى السبل في تحقيق سيطرتهم على ايرلندا، كشراء ذمم زعماء القبائل والبطون الايرلندية، او أثارة الخصومات فيما بينهم او التخلص منهم بالغدر والاغتيال او اعتماد اسلوب القوة.

وقد بدأت سياسة آل تيودور هذه منذ عهد هنري الثامن ١٥٠٩ ــ ١٥٤٧، الذي خرج على البابوية واعلن استقلال الكنيسة الانكليزية عن روما، وساعده على ذلك تذمر الشعب الانكليزي من الضرائب الكثيرة التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية على الشعب الانكليزي وتدخلها في شؤون انكلترا السياسية، يضاف الى ذلك رغبة النبلاء والمزارعين في السيطرة على اراضي الكنيسة، ثم الشعور القومي الذي انتشر في انكلترا بعد حرب المائة عام. وكانت الخطوة الثانية التي قام بها هنري الثامن هي حل الاديرة ومصادرة اراضيها وممتلكاتها. وبذلك يكون هنري الثامن قد استولى على ١/٥ الاراضي الزراعية في انكلترا(١١). ثم بيعها الى طبقة الملاك المزارعين وهذا ما ادى الى ثورة زراعية في انكلترا.

كما استغل هنري الثامن هذه الاموال في بناء اسطول قوي وتحصين الشواطيء وتدعيم الملكية، كما ادى ذلك الى ازدياد قوة الانتاج في الزراعة والصناعة والتجارة ونمو الثروة العامة. وقد اعلن هنري الثامن نفسه ملكا على ايرلندا في عام ١٥٤١م. كما سبقت الاشارة الى ذلك. واقر البرلمان الايرلندي ذلك في مدينة دبلن في جلسة حزيران عام ١٥٤١م(١٢). واستغل هنري الثامن حركة الاصلاح الديني لكي يكون رئيسا للسلطة الدينية في ايرلندا(١٣). وبذلك جمعت السلطتان في الجزيرة بيد الملك. اما فيما يتعلق بالاراضي فقد انتهجت السياسة الانكليزية اسلوب مصادرة الاراضي التي يمتلكها ابناء الشعب الايرلندي واعادة توزيعها على المستوطنين الانكليز والاسكتلنديين وقد اتخذت من حركة الاصلاح الديني حجة رئيسية اعتمدت عليها لتغطية جانب من سياستها هذه.

فقد استولت على اراضي الكنيسة الكاثوليكية في ايرلندا، وبذلك استغلت الاراضي العائدة للكنيسة الكاثوليكية في ايرلندا في هدف تقوية ملكية النبلاء الانكليز.

وفي عهد الملكة ماري ١٥٥٣ ــ ١٥٥٨م رغم عودتها الى الكاثوليكية حيث اصبحت انكلترا كاثوليكية رسميا بعد ان الغى البرلمان عام ١٥٥٤م جميع القوانين البروتستانتية التي صدرت في عهد اسلافها هنري الثامن وادورد السادس. فلم تلغ سياسة مصادرة الاراضي الايرلندية بل انها شجعت الادارة الانكليزية هناك على اتباع سياسة ادت الى مصادرة مساحات واسعة من الاراضي في اقليم اولستر. وثمة حجة اخرى اتخذتها انكلترا للاستمرار في مصادرة الاراضي، هي الخلافات القائمة بين الزعيمين الايرلنديين ــ اومور واوكنور ــ من جهة والادارة الانكليزية في منطقة الحصن او القلعة من جهة اخرى. فاعتبرت هذه الخلافات عصيانا وتمردا على الادارة المذكورة، فارسلت جيوشها الى ايرلندا مع اوامر مشددة بمصادرة اراضي الزعماء الايرلنديين. وكانت قد وضعت خططا للاستيلاء على الاراضي ومصادرتها قبل الاعمال العسكرية(١٤). اذ اصدرت الملكة ماري أمراً لمصادرة اراضي الزعماء الايرلنديين الذين وصفتهم بالمتمردين ثم توزيعها وفقا لنظام الايجار على اساس ٢/٣ مساحة الاراضي المصادرة يتم تأجيرها للنبلاء الانكليز والثلث الباقي للمزارعين الايرلنديين بشرط اعلان ولائهم لملكة انكلترا(١٥). فتم الاستيلاء على مساحات واسعة من الاراضي في مقاطعتي ليسك اوفال في اقليم ليستر وتم توزيعها على النبلاء الانكليز والاسكتلنديين بطريقة الايجار بسعر ٢ ــ ٣ بنس للايكر الواحد وقام هؤلاء بتأجيرها الى الفلاحين الايرلنديين وزعماء القبائل والبطون ولكن بسعر زاد على الضعف(١٦).

١١. م. ل. راوس، المصدر السابق، ص ٧٦.

11. E. Curtis - Irish Historical Documents,p 77.

13. Maxwell- Irish Historical from Contenperary Soources, L 1923 pp. 120-125.

14. Maxwell, pp 229-232.

15. Ibud, p. 229.

16. Maxwell, p 229.

احتلال الاقاليم الجنوبية الغربية

استقر النفوذ الانكليزي في الاقاليم الوسطى من الجزيرة في النصف الثاني من القرن السادس عشر واتخذ تلك الاقاليم رأس جسر لاحتلال الاقاليم الجنوبية الغربية، وفي هذه الفترة من حكم آل تيودور انتقل العرش الانكليزي الى الملكة الزابث «١٥٥٨ ــ ١٦٠٣» فعملت من اجل جمع شمل الشعب الانكليزي واعلاء مكانة انكلترا بين دول القارة الاوروبية، وكان لها دور بارز في التاريخ الانكليزي، حتى اعتبر عصرها، العصر الذهبي بالنسبة لانكلترا في القرن السادس عشر، فقد حطمت الاسطول الاسباني في حرب الارمادا عام ١٥٨٨، وبعدها اصبحت انكلترا اقوى دولة بحرية في العالم و بدأت في بناء امبراطوريتها الاستعمارية فوصل التجار الانكليز الى البرازيل وسواحل غينيا في غرب افريقيا للحصول على الذهب والرقيق، وفي عام ١٥٥٣ وصلوا مدينة موسكو بعد اكتشافهم السواحل الشمالية لاسيا واسسوا «الشركة المسكونية للتجارة» وافتتحوا طريقا بريا للتجارة بين روسيا و بلاد فارس عبر آسيا الوسطى، كما تم استعمار نيوفوندلاند وخليج هدسن في العالم الجديد.

اما موقعها تجاه المشكلة الايرلندية فقد اتخذت الملكة الزابث مختلف الاساليب السياسية والدينية لنشر العقيدة الانكليكانية وسط الشعب الايرلندي(١٧) فقد تمت مصادرة ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية الايرلندية والاديرة واصدرت الشرائع القاسية بحق اصحاب العقيدة الكاثوليكية فتحولت الكنيسة الكاثوليكية الى كنيسة سرية، وكانت هذه الكنائس السرية على شكل اكواخ بسيطة او آبار او مخازن(١٨).

ان اصلاح الكنيسة الايرلندية وقوة الجهاز البيروقراطي في ايرلندا كانا من اهم اوجه الضغط الانكليزي في ايرلندا، اذ لم تكتف الطبقات المتنفذة في انكلترا والمتعطشة للاستيلاء على اراضي الغير واستعمارها بالسيادة الانكليزية الاسمية على ايرلندا والمناطق التي تم احتلالها في عهد ملوك آل تيودور السابقين، بل انهم طالبوا بشدة بوجوب الاستمرار في سياسة الضغط القوي على الشعب الايرلندي، لذلك فان الحكومة الانكليزية لم تهدف الى اخضاع الكنيسة الايرلندية والسيادة التامة على ايرلندا فقط، بل عملت على تطهير الجزيرة من السكان الاصليين وتوطين الانكليز والاسكتلنديين مكانهم والعمل من اجل تنفيذ شعار «بناء ايرلندا جديدة انكليكانية مخلصة تكون انكلترا الثانية(١٩). وفي هذه المرحلة اتجهت الحكومة الانكليزية نحو اقليم مانستر الذي يقع الى الجنوب الغربي من ايرلندا، و بدأت بالتدخل في الشؤون الداخلية للاقليم وأثارة المنازعات بين زعماء القبائل المحلية، فادى ذلك الى ثورة الايرلنديين بزعامة «ديسموند» في عام ١٥٨١، وتم القضاء على تلك الثورة بكل قسوة، مما كلف الايرلنديين ضحايا كثيرة في الارواح والممتلكات قدرت بـ ٢٠ الف جنيه أو ما يعادل مليون جنيه في الوقت الحاضر(٢٠). اذ ان الامتعة والمواد التي لم يتمكن الجنود الانكليز من حملها تعرضت للحرق مثل الدور ومخازن الحبوب، حتى تحول الاقليم الى ما يشبه الصحراء، ثم تمت مصادرة اراضي ديسموند واتباعه البالغ عددهم ١٤٠ شخصا. وكانت مساحة الاراضي المصادرة في جميع مقاطعات اقليم مانستر اكثر من نصف مليون ايكر(٢١).

اعتبرت الاراضي المصادرة من ممتلكات التاج الانكليزي، وفي حزيران من عام ١٥٨٤ ارسلت الحكومة الانكليزية الى الاقليم لجنة ملكية لدراسة مشكلة هذه الاراضي والبت في مصيرها، واستنادا الى تقرير اللجنة الذي رفعته الى الملكة الزابث، صدر مرسوم ملكي في عام ١٥٨٦ سمي «خطة تعمير اقليم مانستر». وبموجب ذلك المرسوم تم تصنيف الاراضي المصادرة الى ثلاثة اصناف، مساحة كل صنف ١٢ الف ايكر(٭) و٦ آلاف و٤ آلاف(٢٢). وتم بيع هذه الاراضي الى الرعايا الانكليز بشرط استيطانهم في ايرلندا وان يدفعوا مبلغا رمزيا قدره ما بين ٢ ــ ٣ بنس للايكر الواحد(٢٣) وكان قصد الحكومة الانكليزية من وراء **هذه التسهيلات دفع أصحاب المشاريع الانتاجية والطموحين من الانكليز والاسكتلنديين للهجرة إلى إيرلندا. وقد اشترط على الراغب في الشراء أن يكون من أنصار العقيدة الانكليكانية**(٢٤).

وتعهدت الحكومة الانكليزية من جانبها بحماية المستوطنين الانكليز

17. E. Curtis - Irish Historical Documents, p 121.

١٨. د. نور الدين حاطوم، ص ٩٤.

19. E. Curtis - Irish Historical Documents, p 128.
20. T.A. Gekson- Pora urlandu Za nezavucimost, Moscow 1949, p 62.
21. C. Maxwell, Irish Historical Documents, pp 164-166.
22. Calendar of Stae Papers relating to Ireland L 1860-1912. Vol III P. 84. "C.S. P. Ireland".
23. Ibid P. 91.
24. Ibid P. 85.

٭ الايكر وحدة قياس للمساحة تساوي ٤٠٠٠ م٢.

في مستوطناتهم عن طريق بناء القلاع والحصون ووجود الحاميات العسكرية لصد هجمات السكان الاصليين، كما جاء في المنشور بان يسكن المهاجرون متجاورين، وان تحاط مساكنهم بلاسوار وان يتبع النظام الاقتصادي الانكليزي في استثمار هذه الاراضي، وهو ان يستغل القسم الاكبر من الاراضي كمرعى، ففي كل ٣٠٠ ايكر يسمح بزراعة ٤٠ ـ ٥٠ ايكر بالحبوب، اما الباقي فيستغل كمرعى للماشية والاغنام (٢٥). وقد استجاب لتلك الدعوة اعداد كبيرة من الانكليز وبخاصة من سكان المناطق الغربية من انكلترا، فوصل الى ايرلندا عنصر جديد من اصحاب المشاريع، من المغتربين الانكليز الذين يطمحون بالاثراء السريع عن طريق ميادين الاستعمار، وكان من بينهم المرابون والمضاربون والتجار والمقامرون، اضافة الى الموظفين الاداريين والقضاة والحكام الذين عينتهم الحكومة الانكليزية لادارة الاقليم.

وهكذا اصبحت تنمو في ايرلندا طبقة من ملاكي الاراضي من الانكليز الارستقراطيين المتكونة من كبار الموظفين في الادارة الايرلندية والحكام والقضاء وكبار رجال الجيش، وقد استحوذ على القسم الاكبر من الاراضي المصادرة الموظفون المحسوبون على البلاط الملكي، فحصل اللورد ادورد فيتون على ١٦ الف ايكر، والشاعر بيل على عشرة الاف ايكر (٢٦). وقد بلغت مساحة الاراضي المصادرة والتي تم تأجيرها حتى عام ١٥٩١، ٢٠٢٠٩٩ ايكر، واستلمت الخزانة الملكية عنها اجرا سنويا بلغ مجموعه ١٩٧٦ جنيها استرلينيا (٢٧). جابه المستوطنون الانكليز في اقليم مانستر صعوبات كبيرة، اذ انهم سكنوا في وسط اعداء متطرفين من ابناء ايرلندا الذين نظروا اليهم كمعتدين على ممتلكاتهم ومعتقداتهم، ونتيجة لذلك فقد تعرضت المستوطنات الانكليزية للسرقة بصورة مستمرة، كما نشبت الصراعات والخلافات بين المهاجرين الانكليز انفسهم، وهذا مما اوجد شيئا من الاضطراب وعدم الاستقرار في الاقليم، وكثيرا ما تدخلت المحاكم لحسم تلك المنازعات (٢٨).

لقد فشلت الخطط الاساسية للحكومة الانكليزية القائمة على اساس الاجراءات الاستيطانية الواسعة، ففي اقليم مانستر، كانت نتائج السياسة الانكليزية ايجاد عدد من كبار النبلاء والاقطاعيين من الانكليز والاسكتلنديين، ولم يتحقق هدف توطين اعداد كبيرة من الفلاحين الانكليز، اذ كان عدد المهاجرين الى هذا الاقليم من الفلاحين الانكليز والاسكتلنديين قليلا جدا، يضاف الى ذلك خرق اصحاب المشاريع شروط الاستيطان، اذ انهم لم يدفعوا المبالغ المتفق عليها كثمن للاراضي الى الخزانة الملكية، كما انهم اجروا قسما من تلك الاراضي الى الفلاحين الايرلنديين لقاء أجور عالية (٢٩).

الغزو الانكليزي للاقاليم الشمالية الغربية

وبعد ان تم الاستيلاء على اقليم مانستر، ركزت الحكومة الانكليزية نشاطها الاستعماري في الاقاليم الشمالية الغربية، فاستولت على اقليم اولستر في عام ١٦٠٣. لكن سكان هذا الاقليم وقفوا بكل حزم وشدة في وجه التسلط الانكليزي اكثر مما كان عليه الحال في اقليم مانستر، فنشبت ثورة الفلاحين الايرلنديين بقيادة الزعيمين تيرون وتيركونبيل، الا انه سرعان ما تم القضاء عليها باسلوب قاسي جدا.

وبعد تطبيق قانون المصادرات في الاقليم حصل التاج الانكليزي على مساحة ٨٠٠ الف ايكر من اراضي الكنيسة الكاثوليكية والنبلاء الايرلنديين. وتم ارسال لجنة ملكية الاجراءات الكفيلة في تقسيمها واسلوب استثمارها. وعلى ضوء توصيات اللجنة، تم وضع خطة لاستعمار اقليم اولستر بدقة اكثر مما كان عليه الامر في اقليم مانستر، اذ تم تقسيم الاراضي المصادرة الى قطع تتراوح مساحتها ما بين ٢٠٠٠، ١٥٠٠، ١٠٠٠ ايكر، اي اقل بكثير من المساحات التي قسمت اليها الاراضي المصادرة في اقليم مانستر، وتم استثمارها باسلوب التأجير الى موظفي الادارة الانكليزية في ايرلندا من قضاة وحكام اداريين وقواعد عسكريين واعضاء الحكومة الانكليزية (٣٠).

وكان سبب اتباع هذه السياسة في اقليم اولستر، هو اقتناع الحكومة الانكليزية بفشل تجربتها التي طبقتها في اقليم مانستر، اذ اتضح لها ان ايجاد اقطاعيات كبيرة في ايرلندا غير كافية لتحقيق هدف السيادة الاستعمارية وتحويل الجزيرة الى جزء من انكلترا بتغير معالمها الاجتماعية والقومية بعد توطين اكبر عدد ممكن من الفلاحين الانكليز والاسكتلنديين، ذلك لان الملاكين الجدد من اللوردات والنبلاء الانكليز قاموا بتأجير الاراضي الى الفلاحين الايرلنديين باجور عالية جدا دون ان يجلبوا فلاحين انكليز او اسكتلنديين الى ايرلندا، يضاف الى ذلك ان كبار هؤلاء النبلاء الجدد الذين هم من اصل انكيزي او اسكتلندي ربما

25. Ibid P. 85.
26. J. Colkin - Land - War in Ireland. L. 1870 p. 431.
27. C. Maxwell, p. 247.
28. C.S. P. Ireland, p. 430.
29. Ibid P. 451.
30. E. Curtis- Irish Historical Documents, p. 128.

يصبحون مصدر خطر على الحكومة الانكليزية في المستقبل اذا ما فكروا بالانفصال عن حكومة لندن.

لهذه الاسباب، قسمت الاراضي المصادرة في الاقليم المذكور الى اقطاعيات صغيرة، بحيث وزعت على اكبر عدد ممكن من المستوطنين الانكليز والذين لا يمتون بصلة الى النبلاء والاقطاعيين ولكن لهم علاقة بصورة غير مباشرة بالتاج الانكليزي. فاعطيت الاقطاعيات التي مساحتها لا تزيد على ٢٠٠٠ ايكر الى الاشخاص المقربين من الملك والتجار والمرابين واصحاب المشاريع الاخرى، اما القطع التي مساحتها لا تزيد على ١٥٠٠ ايكر فانها اعطيت الى قواد الحاميات العسكرية في ايرلندا والمنحدرين من اصل انكليزي فقط، اما التي كانت مساحتها ١٠٠٠ ايكر، فقد وزعت على النبلاء المولودين في ايرلندا من اصل انكلو ـ ايرلندي.

وكان الشرط الاساسي الذي يجب ان يتمثل في الشخص الراغب في الحصول على اقطاعية من الاراضي المصادرة هو ان يجلب فلاحين من اصل انكليزي او اسكتلندي لاستثمار هذه الاقطاعيات المتعاقد عليها (٣١).

واصدرت الحكومة الانكليزية تعليمات حول اسلوب استثمار هذه الاراضي، وكمية الاجور المطلوبة، فكان على الانكليز والاسكتلنديين ان يدفعوا خمسة جنيهات وستة شلنات وثمانية بنسات عن كل الف ايكر، وترتفع كمية الاجور الى ستة شلنات وثمانية بنسات عن كل ستين ايكر اخرى فيما اذا زادت مساحة القطعة (٣٢). وتبدأ عملية دفع بدل الايجار بعد مرور سنتين على تاريخ توقيع العقد. وعلى الشخص المتعاقد ان يوطن على ارضه في خلال ثلاث سنوات ٢٤ فلاحا لكل ١٠٠٠ ايكر اما من اصل انكليزي او اسكتلندي وان لا تقل اعمارهم عن ١٨ سنة، وان يتم تقسيم قطعة الارض التي مساحتها ١٠٠٠ ايكر الى عدة حقول كمايلي: حقل مساحته ٣٠٠ ايكر لصاحب المشروع وعائلته، ثم حقلان مساحة كل منهما ١٢٠ ايكر، وثلاثة حقول مساحة كل منها ١٠٠ ايكر، اما بقية المساحة وهي ١٦٠ ايكر فيجب ان يوطن فيها اربعة أو اكثر من المزارعين (٣٣). وفي كل الاحوال فان استثمار قطعة ارض مساحتها ١٠٠٠ ايكر يجب ان يسكن فيها مالا يقل عن عشرة عوائل. وعليهم تقوية الضيعة عسكريا ببناء القلعة المحصنة خلال سنتين من تاريخ توقيع عقد الايجار وان تكون بيوت الفلاحين والاتباع محيطة بالقلعة ومتقاربة من بعضها لكي يسهل الدفاع عنها (٣٤). وان يكون لدى صاحب الضيعة كمية كبيرة من السلاح والذخيرة الاحتياطية، وهناك لجنة عسكرية تقوم بالتفتيش عن تطبيق هذه الشروط كل نصف سنة. وعلى صاحب المشروع ان يؤدي قسم الولاء للعقيدة الانكليكانية قبل توقيع العقد (٣٥). وفي حالة اضطراره الى الاستعانة بالفلاحين الايرلنديين لاستثمار اقطاعيته.، فيجب عليهم تأدية يمين الولاء للعقيدة الانكليكانية ايضا (٣٦). ولا يسمح لصاحب العقد الغياب عن اقطاعيته الا بعد الحصول على موافقة مجلس ايرلندا والذي مقره مدينة دبلن، وان يترك وكيلا ينوب عنه في الضيعة مدة غيابه.

اما الامتيازات التي منحتها الحكومة لصاحب العقد فهي: يحق له تصدير منتجاته الزراعية والحيوانية الى خارج الاسواق الايرلندية وهي معفاة من الضرائب لمدة سبع سنوات من تاريخ توقيع العقد، كما يحق له الاستيراد من الاسواق الانكليزية وبدون ضريبة لمدة خمس سنوات، خاصة المواد المتعلقة بصناعة السلاح، ويكون صاحب العقد عضوا في المحكمة الاقطاعية للاقليم مرة واحدة في السنة (٣٧).

اما شروط التعاقد التي تخص العسكريين فهي اخف بكثير من الشروط المتعلقة بالمدنيين، فكان مبلغ الايجار السنوي لكل ١٠٠٠ ايكر من الارض الزراعية خمسة جنيهات وستة شلنات وثمانية بنسات، ويحق لهم التعاقد مع الفلاحين الايرلنديين بشرط ان تكون قيمة العقد ثمانية جنيهات لكل الف ايكر من الاراضي الزراعية وتكون هناك زيادة قدرها عشرة شلنات عن كل ستين ايكر زيادة عن الألف (٣٨). ويعفون من تسديد بدل الايجار لمدة سنتين من تاريخ توقيع العقد (٣٩).

31. C. Maxwell, p. 282.
32. C. Maxwell, p. 282.
33. E. Curtis- Irish Historical Documents, p 129.
34. C. Maxwell, p. 282.
35. Ibid P. 283.
36. Ibid P. 284, Curtis, Irish Historical Documents, p 130.
37. E. Curtis, Irish Historical Documents, pp 128-130.
38. C. Maxwell, p. 283.
39. Ibid P. 283.

اما في حالة التعاقد مع النبلاء الانجلو ـ الايرلنديين، فيكون بدل الايجار عشرة جنيهات وثلاثة عشر شلنا واربعة عشر بنسا عن كل ١٠٠٠ ايكر(٤٠). لكن الاراضي التي تعاقد عليها هؤلاء النبلاء كانت غير جيدة وكان عليهم دفع بدل الايجار بعد التوقيع على العقد ولم يمنحوا اية تسهيلات بالنسبة للتصدير والاستيراد، كما كان عليهم ان يستغلوا الارض وفقا لنمط الانتاج الانكليزي، وان يعتنقوا المذهب الانكليكاني ـ العقيدة الانكليزية ـ وان يطبقوا القوانين الانكليزية. وفي حالة ظهور اية بادرة للتمرد والقيام بالثورة فيحرمون من اراضيهم و يعتبر العقد غير قانوني(٤١).

وهكذا تمت عملية مصادرة اراضي اقليم اولستر لحساب التاج البريطاني، وتم تأجيرها على شكل اقطاعيات لا تزيد مساحة كل منها على ٢٠٠٠ ايكر، وذلك لتجنب قيام الاقطاعيات الكبيرة، و بذلك امتاز هذا الاقليم بنظام الملكيات المتوسطة والصغيرة عند مقارنته ببقية اقاليم ايرلندا.

لم تقتصر عملية المساهمة في استعمار ايرلندا على النبلاء ورجال البلاط والقواد العسكريين وكبار الموظفين والقضاة، بل انظم الى هذه المجموعة تجار مدينة لندن والصناعيين واصحاب الشركات، خاصة الشركات الزراعية.

وقد وجه الملك جيمس الاول عام ١٦٠٩ دعوة الى تجار مدينة لندن يحثهم فيها على استثمار الموارد الطبيعية في ايرلندا، ومما جاء في المنشور الملكي: بلاد طيبة فيها الكثير من الانهار والجداول والمحروقات من الاخشاب والغابات، وفيها مختلف انواع الاشجار المثمرة، وفيها كل المتطلبات الضرورية للحياة مما يكفي لتمويل مدينة لندن من لحوم الابقار والاغنام والخنازير والفول وجميع اصناف المواد الغذائية غير الموجودة في انكلترا، وسواحلها ملائمة للملاحة، وهناك مواد اولية جيدة لصناعة السفن، وان البحر والانهار غنية بالأسماك(٤٢).

و بتأثير هذا المنشور الملكي ارسل مجلس بلدية لندن في عام ١٦٠٩ اربعة لجان للاطلاع على احوال الجزيرة، وفي عام ١٦١٠ تم التعاقد بين التاج ومجلس مدينة لندن حول استثمار مقاطعة ديري الواقعة في الجزء الشمالي الغربي من اقليم اولستر. ومما جاء في احد بنود الاتفاق، تسمية مقاطعة ديري بـ «لندن ديري». وتم تأسيس شركة لندن لتزاول نشاطها الاستثماري للمقاطعة، ثم تغير اسمها الى شركة ايرلندا(٤٣).

وتعهدت هذه الشركة بنقل المهاجرين من الفلاحين الانكليز والاسكتلنديين وتوطينهم في تلك المقاطعة والقيام باستثمار الموارد الطبيعية هناك من زراعة وتربية الابقار والاغنام وقطع الاخشاب وصيد الاسماك، كما تعهدت بتوظيف مبلغ ٢٠ الف جنيه في مشاريع استثمار اربعة الاف ايكر من الاراضي الزراعية المحيطة بمدينة ديري وثلاثة الاف ايكر حول مدينة كولاراين، اضافة الى عشرة الاف جنيه اخرى لاستثمار مناطق اخرى في المقاطعة(٤٤). وتعهدت الشركة باعادة بناء مدينتي ديري وكولاراين و بناء ٢٠٠ بيت في مدينة ديري و١٠٠ بيت في كولاراين.

ومن الامتيازات التي حصلت عليها الشركة هو حق الاشراف على الكنائس والقضاء في المقاطعة وجباية الضرائب المفروضة على الصادرات والواردات في المقاطعة لمدة ٩٩ سنة(٤٥). كما يحق لها مزاولة التجارة بين انكلترا وايرلندا بكل حرية بالنسبة للصادرات والواردات. ولها كذلك حق صيد الاسماك في أنهار ايرلندا والسواحل الشمالية(٤٦). وتعهدت الشركة بتشكيل قوة امنية في المقاطعة للحفاظ على حياة وممتلكات المستوطنين الانكليز. وعليها ان تدفع الى الخزانة الملكية مكافأة سنوية قدرها ٦٦ شلن و٨ بنسات عن كل ١٠٠ ايكر من الاراضي الزراعية وضعت تحت تصرفها(٤٧). وبموجب هذا العقد بين التاج والشركة، تم استعمار خمس مقاطعات من مجموع ٣٢ مقاطعة في اقليم اولستر.

ان حصول شركة لندن على هذه الامتيازات الاقتصادية زاد من دور الرأسمال الانكليزي في استغلال ايرلندا اقتصاديا مما عرض مواردها الطبيعية للاستغلال البشع، فقد استورد التجار الانكليز من ايرلندا الاخشاب والاسماك والجلود والزيوت واللحوم والحبوب. وحققت البرجوازية الانكليزية الفتية ارباحا عالية من خلال مزاولتها النشاط التجاري بين ايرلندا وانكلترا، ونتيجة لهذه العملية، تأخر الاقتصاد الايرلندي واشتدت تبعيته للاقتصاد الانكليزي، وقد تزايدت هذه التبعية

40. Ibid P. 284.
41. Ibid P. 285.
42. C. Maxwell, pp. 285-288.
43. Ibid P. 254.
44. C.S.P. Ireland, pp 360-361.
45. Ibid P. 361.
46. Ibid P. 362.
47. C.S.P. Ireland, p. 362.

في خلال القرن السابع عشر. ان هذه السياسة الانكليزية لم تسمح لايرلندا لتكون بلدا متطورا اقتصاديا بل حولتها الى بلد زراعي تابع لانكلترا.

كفاح الشعب الايرلندي ضد الغزو الانكليزي لبلاده

ردا على سياسة الاستغلال الاقتصادي والاضطهاد القومي والديني الذي قام به المستعمرون الانكليز تجاه الايرلنديين، قامت عدة ثورات تحررية في القرن السادس عشر و بداية القرن السابع عشر والتي اعتبرت مرحلة البداية التي استمرت عدة قرون من كفاح الشعب الايرلندي من اجل التحرر من الاستعمار الانكليزي.

اتخذ كفاح الشعب الايرلندي لنيل الاستقلال اساليب مختلفة. ففي المرحلة الاولى للغزو الانكليزي للجزيرة، لم تكن حركة المقاومة للاحتلال منظمة وذات طابع جماهيري واسع، الا انها اتخذت في الفترة الممتدة في القرن الثاني عشر وحتى نهاية القرن الخامس عشر طابع حرب الانصار.

اما في القرن السادس عشر فقد اتخذت المقاومة شكل الثورات الشعبية، فنشبت عدة ثورات منذ النصف الاول من القرن السادس عشر اي منذ عهد هنري الثامن ١٥٠٩ ــ ١٥٤٧. و بعد حركة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر اخذ كفاح الايرلنديين من اجل الاستقلال يساهم في الصراع العالمي بين الكاثوليكية والبروتستانتية.

و بعد ان اعلن هنري الثامن استقلال الكنيسة الانكليزية عن البابوية، اشتد كفاح الايرلنديين ضد الوجود الانكليزي في الجزيرة واستمر تحت شعار الحفاظ على الكاثوليكية، وكان زعيم الكاثوليك في ايرلندا الاسقف «ارماج كرومر» قد اعلن ان ايرلندا لا يمكن ان تعلن ولائها لاية جهة عدا البابوية. وفي هذا الوقت اجرى الزعيم الايرلندي «ديسموند» محادثات مع الامبراطور المقدس للتحالف معه ضد انكلترا.

وفي عام ١٥٣٤ قامت اول ثورة شعبية في ايرلندا في اقليم مانستر يقودها «توماس شلكوف» لكن الخلافات بين زعماء الثورة ساعدت هنري الثامن في القضاء على الثورة عام ١٥٣٥ واعدم توماس شلكوف مع خمسة من اعوانه (٤٨). الا ان الثورات استمرت بدون توقف وكان اعنفها تلك التي اندلعت في عهد الملكة الزابث ١٥٥٨ ــ ١٦٠٣ م عندما اشتدت حركة مصادرة الاراضي الايرلندية وتحويلها الى مستوطنات انكليزية حتى بلغ عدد المستوطنين من الانكليز والاسكتلنديين ٣٠٠٠٠ مستوطن خاصة في اقليم اولستر. وكان اشهر تلك الثورات: ثورة اقليم اولستر ١٥٥٩ ــ ١٥٦٧ بقيادة اونيل، وثورة الزعيم ديسموند في اقليم مانستر ١٥٧٩ ــ ١٥٨٣. وثورة عموم ايرلندا بزعامة بترون ١٥٩٥ ــ ١٦٠٣. والثورة الكبرى بقيادة النبيل اورموند ١٦٤١ ــ ١٦٥١ (٤٩).

ثورة اقليم اولستر

كانت سياسة انكلترا الهادفة الى نشر العقيدة الانكليكانية في جميع ارجاء الجزيرة و بضمنها اقليم اولستر قد ادت الى اثارة الايرلنديين، فاستغل ذلك النبيل اونيل حتى اصبح احد زعماء ايرلندا المشهورين. وعندها قررت الحكومة الانكليزية وجوب التخلص منه، فدعته الى لندن تحت حجة اجراء المفاوضات (٥٠). ولما رفض الدعوة، ارسلت الادارة الانكليزية حملة عسكرية الى الاقليم بقيادة اللورد سيسكس عام ١٥٦٧، الا ان الحملة جوبهت بمقاومة عنيفة من جانب الفلاحين الايرلنديين الذين ايدهم سكان المدن الايرلندية. على ان مساندة الفلاحين للزعيم اونيل لم تكن بسبب استغلالهم من جانب النبلاء الانكليز فقط، بل بسبب انتشار الوعي المناهض للوجود الانكليزي في صفوفهم وفي وسط سكان المدن الايرلندية. فقام الفلاحون بحرب الانصار مستغلين الظواهر الطبيعية من جبال وانهار ومستنقعات في شمال ايرلندا، فاوقعوا في الجيش الانكليزي ضربات موجعة بعد ان نصبوا له الكمائن في الغابات والممرات الجبلية، فكان من الصعب على الجيش النظامي مجابهتهم في معركة كبيرة (٥١). لقد ازدادت شعبية اونيل في وسط الشعب الايرلندي حتى اصدرت الادارة الانكليزية بيانا منعت فيه ابناء الشعب الايرلندي من الاتصال به ومساعدته واعتبرت ذلك اعلى درجات الخيانة.

ولم تدخر الملكة الزابث اي اسلوب في سبيل القضاء على الثورة كاستخدام القوة واللجوء الى اساليب الغدر والخيانة و بث الخلافات بين زعماء الثورة. الا انها فشلت في كل محاولاتها حتى اصبحت هذه الثورة اصعب مشكلة جابهت انكلترا في طريق فرض سيطرتها على ايرلندا، ولم تسبقها مشكلة مماثلة من قبل (٥٢). فارسلت الملكة الزابث حملة جديدة بقيادة الجنرال سيدني، لكنه لم يتمكن من الاصطدام مع قوات الثورة بمعركة كبيرة، اذ اختفى الثوار في الغابات و بدأوا حرب الانصار ضد

48. Cambridge Modern History Vol III, p. 581-582.
49. E. Hull. A History of Ireland and her peoples to the close of Tudor Period, L 1926, p. 353.
50. I. Codkin, PP. 30-31.
51. C. Maxwell, p. 46.
52. Ibid P. 47.

الحملة الانكليزية وبعد ان فشلت الملكة الزابث في القضاء على الثورة بالقوة العسكرية لجأت الى شراء ذمم زعماء اولستر من الايرلنديين. وكان من جملة القواد المقربين الى الزعيم اونيل هو دانيل الذي سلك طريق الخيانة عندما هاجم قوات اونيل، وكان ذلك اكبر نصر حققته الدبلوماسية الانكليزية عندما نجحت في دفعها ذلك القائد للهجوم على قوات رفيقه في الكفاح اونيل. فاستغلت القوات الانكليزية ذلك الحادث وهاجمت اقليم اولستر مجددا ونجحت في سحق الثورة مما اضطر زعيمها اونيل على الهرب الى الغابات عام ١٥٦٧ م.

لم تعبر ثورة اونيل عن اهداف حركة التحرر الوطني في ايرلندا بصورة مطلقة، ذلك لان اونيل استهدف تحقيق مكاسب شخصية بالدرجة الاولى، فقد طالب الادارة الانكليزية بما يقوي سلطته ويحقق مصالحه الشخصية الضيقة (٥٣). ان طموحات اونيل في تحقيق مكاسب شخصية انعكست على اسلوب كفاحه ضد الوجود الانكليزي، فارتكب بعض الاخطاء. واخطرها عدم محاولته توحيد القوات العسكرية لتنظيم حلف شمال ايرلندا، مما ادى الى نتائج سلبية على الثورة وقاده الى منازعة اتباع خصمه دانيل وحرق قراهم ومزارعهم ونهب مواشيهم مما دفع بعض زعماء البطون والقبائل الى اتباع سياسة الغدر والخيانة والتعاون مع القوات الانكليزية.

على الرغم من السلبيات والاخطاء التي ارتكبها الزعيم اونيل، فقد كانت هناك بعض الجوانب الايجابية في ثورته. فقد كانت حركة واسعة اثارت الايرلنديين الشماليين ضد انكلترا العدو الحقيقي لايرلندا وكلفت الخزانة الانكليزية ثمنا باهظا اذ بلغت نفقات القضاء على الثورة ٢٣٠ الف جنيه استرليني. اضافة الى ٣٥٠٠ قتيل من الجيش الانكليزي (٥٤). واضطرت الملكة الزابث الى الاقتراض من الشركات والبيوتات التجارية في لندن لسد نفقات الاعمال العسكرية في ايرلندا (٥٥).

ثورة اقليم مانستر

ان القضاء على ثورة اقليم اولستر لم ينه كفاح الشعب الايرلندي، فبعد فترة قصيرة نشبت ثورة جديدة ضد التسلط الانكليزي في اقليم مانستر ونادت باستقلال الشعب الايرلندي تحت رعاية جيمس فيتموريس.

كان الموقف الداخلي في اقليم مانستر صعبا للغاية عند بداية الثورة، فقد اشتد الصراع بين عائلتي جيرالد واورمند وانقسم زعماء البطون والقبائل داخل الاقليم على انفسهم واندلعت الحرب الاهلية بين العائلتين المتناحرتين، ولعبت الدبلوماسية الانكليزية دورا فعالا في اشعال تلك الحرب الاهلية في عام ١٥٧٠، فاستغلت الادارة الانكليزية الموقف المضطرب في الاقليم وارسلت حملة عسكرية الى الاقليم واحتلت مدينة كيلمالوك وابقت فيها حامية عسكرية كبيرة لاهميتها الستراتيجية بالنسبة لمدينتي ليمريك وكورك، الا ان الثوار الايرلنديين هاجموا المدينة المحصنة بقيادة جيمس فيتموريس واحرقوها (٥٦). واستمرت الحرب بين الجيش الانكليزي والثوار. وتوجه زعيم الثورة الى اسبانيا وروما طالبا المساعدة، فاتخذت البابوية واسبانيا من الثورة الايرلندية وسيلة لاضعاف انكلترا. ففي عام ١٥٧٩ وصلت ميناء «ميرفيك» الايرلندي ثلاث سفن اسبانية تحمل المساعدات للثوار (٥٧). كما وصلت الجزيرة اعداد كبيرة من الآباء اليسوعيين اتباع روما واسبانيا. وجلب التجار كميات كبيرة من الكتب الكاثوليكية الى ايرلندا (٥٨). فانتشر اليسوعيون في معظم المدن الايرلندية خاصة مدينة «ووترفورد وليميريك» وبدأوا نشاطهم في حث الشعب الايرلندي على الاستمرار في الثورة ضد السيطرة الانكليزية على ايرلندا (٥٩).

الا ان تدخل البابوية واسبانيا في شؤون ايرلندا زاد من صعوبة الموقف دون ان يخدم مصلحة الشعب الايرلندي.

ان الاستمرار في سياسة الاضطهاد الديني وفرض العقيدة الانكليكانية ومصادرة الاراضي والقسوة التي اتبعها حكام انكلترا في ايرلندا ورجوع جيمس فيتموريس من اوربا الى ايرلندا مع المساعدات الاسبانية والبابوية، كل هذه الاسباب دفعت الايرلنديين الى الاستمرار في مقاومة الجيوش الانكليزية.

وفي عام ١٥٧٩ عمت الثورة كافة مقاطعات اقليم مانستر، وبعد مقتل الزعيم جيمس فيتموريس، تولى اخوه ديسموند قيادة الثورة. ففي خلال اربع سنوات ١٥٧٩ ــ ١٥٨٥ شن الثوار الايرلنديون حرب

53. I. Codkin, p. 46.
54. A. Pollard - The Political History of England L. 1910.
55. Calender of State, Foreign Series 1666-1568. pp. 146-147.
56. C. Maxwell, p. 168.
57. Ibid P. 170.
58. A. Pollard, p. 146.
59. C.S.P. Ireland p. 488.

الانصار ضد القوات الانكليزية متخذين من الجبال والغابات قواعد لهم ووجهوا ضربات قوية الى الجيوش الانكليزية، كما هاجموا الحاميات الانكليزية في المدن وقتلوا اعدادا كبيرة من جنودها (٦٠).

واستمر الثوار الايرلنديون بقيادة ديسموند في مقاومتهم للوجود الانكليزي على الرغم من القسوة والشدة التي اتبعتها القوات الانكليزية ضدهم من حرق المدن وتدمير الحقول والمزارع والاستيلاء على الماشية. وفي تشرين اول عام ١٥٨٠ وصلت الى ميناء ميرفيك الايرلندي قوة اسبانية قوامها ٧٠٠ مقاتل واحتلت المدينة، لكن القوات الانكليزية سارعت الى سحق تلك القوة الاسبانية.

اتبعت القوات الانكليزية اسلوب الحرق والتدمير للقضاء على الثورة حتى تمكنت من بسط سيطرتها على جميع مناطق الاقليم. وقد وصف هذا الاسلوب القاسي احد الضباط الانكليز الذين ساهموا في عملية تحطيم الثورة، كما جاء وصف كامل لصورة التدمير والجوع في قصائد الشاعر الانكليزي سبينسر (٦١). وفي عام ١٥٨٢ وصف احد موظفي الادارة الانكليزية في ايرلندا في مدينة كيرك تلك الحالة المأساوية التي حلت بالاقليم على يد جنود الاحتلال ومما جاء في وصفه: قام الجنود القتلة والسلابون بحرق مدن الاقليم وتدميرها تماما حتى توفي ٣٠ الف من ابناء الاقليم بسبب الجوع والمرض عدا المفقودين والمشردين (٦٢).

ثورة عموم ايرلندا عام ١٥٩٥ ــ ١٦٠٣

لم تتوقف حركة التحرر الوطني في ايرلندا بالقضاء على ثورة ديسموند في اقليم مانستر، ففي نهاية القرن السادس عشر اندلعت ثورة جديدة بقيادة الزعيمين تيرون وتيركونيل في اقليم اولستر ثم امتدت الى معظم الاقاليم والمقاطعات الايرلندية. وقد انتحل تيرون اسم الزعيم الايرلندي السابق اونيل. وفي عام ١٥٩٥ اصدرت الحكومة الانكليزية منشورا اعلنت فيه خيانة تيرون وجماعته (٦٣). ثم ارسلت تعزيزات عسكرية الى اقليم اولستر بقيادة اللورد «نوريس» مع تعليمات مشددة باستعمال كافة الاساليب الممكنة لسحق الثورة. لكن الثوار وجهوا ضربة للقوات الانكليزية في شتاء عام ١٥٩٥. وكان جيش الثورة يمتاز بتنظيمه الدقيق على الرغم من قلة عدده. وفي صيف عام ١٥٩٥ بدأ تيرون محادثاته مع ملك اسبانيا للحصول على المساعدات العسكرية.. وكان من مصلحة العرش الاسباني اضعاف انكلترا. وفي عام ١٥٩٦ وصلت المساعدات الاسبانية الى الثوار الايرلنديين تحملها ثلاثة سفن وتتكون من الاسلحة والذخيرة مع عدد قليل من الجنود، ووعد ملك اسبانيا مزيد من المساعدات الى الثوار.

وصل الوضع العام في ايرلندا الى درجة كبيرة من الخطورة عام ١٥٩٦، يوضح ذلك رسالة «هنري او يلون» الحاكم الانكليزي العام في مدينة دبلن والتي بعث بها الى لندن في ٩ شباط من عام ١٥٩٦، والتي جاء فيها: لم تصل الحالة في ايرلندا الى درجة من الخطورة مثل ما هي عليه اليوم، فقد توحد جميع زعماء اقليم اولستر تحت قيادة تيرون وامتد نفوذهم الى جميع المقاطعات الايرلندية، وامتاز جيشهم بتنظيمه الدقيق، حتى نجحوا في توجيه ضربات قوية وموجعة الى جيوش صاحبة الجلالة (٦٤). كان العنصر الاساسي في جيش تيرون من الفلاحين الايرلنديين ثم سكان المدن من ابناء ايرلندا، تمكن جيش الثورة من احتلال الكثير من المدن المهمة والتي اشهرها: موناجات، بروت مور وارماج.

وفي ١٦ آب عام ١٥٩٨ دار قتال عنيف حول مدينة ارماج قتل فيه القائد الانكليزي الجنرال بجنول واستولى الثوار على كميات كبيرة من المدافع والذخيرة وقتلوا اعدادا كبيرة من جنود الاحتلال الانكليزي، فدب الفزع في وسط موظفي الادارة الانكليزية في مدينة دبلن وارسلوا الى زعيم الثورة رسالة يطلبون فيها الرأفة ببقية افراد الجيش الانكليزي (٦٥).

لقد اثارت انتصارات تيرون روح الثورة وعجلت في انتشارها في بقية المقاطعات الايرلندية حتى اصبح تيرون وانصاره يتنقلون بحرية في معظم المقاطعات الايرلندية، وهذا دليل على شدة تأييد الشعب الايرلندي لهم. وفي ١٧ حزيران عام ١٥٩٨ بعث مجلس ايرلندا برسالة سرية الى الادارة الانكليزية في لندن جاء فيها: تصلنا يوميا اخبار عن نجاحات تيرون وانتصاراته والتي شجعت على انتشار الثورة في بقية الاقاليم، وقد انتشر انصاره فيها يحثون الفلاحين على الثورة ضد الادارة الانكليزية، **وأيدتهم**

60. C. Maxwell, p. 176.

61. Spenser - View of State Ireland, pp. 143-144.

62. I. Codkin, p. 84.

63. C. Maxwell, p. 157.

64. C.S.P. Ireland, p. 468.

6523. C.S.P. Ireland, PP. 288-289.

جوع غفيرة من الايرلنديين (٦٦).

و بعد فترة قصيرة، اندلعت الثورة في اقليم مانستر على الرغم من قوة الادارة الانكليزية في الاقليم المذكور، فهاجم الفلاحون المستوطنات الانكليزية والمدن والقلاع والحصون ودمروها. و يذكر احد موظفي الادارة الانكليزية في دبلن: ان الثورة انتشرت بسرعة البرق وفشلت كل الجهود للقضاء عليها (٦٧). وقد ساهم سكان المدن الايرلنديون في الثورة عن طريق تقديمهم المساعدات السخية للثوار، شملت الذخيرة والسلاح والمواد الغذائية وحيوانات النقل والسفن، على الرغم من الرقابة المشددة التي وضعتها الادارة الانكليزية واعتبارها ذلك خيانة لحكومة صاحبة الجلالة (٦٨).

لقد اشتدت حركة المقاومة للوجود الانكليزي في المقاطعات الشرقية من ايرلندا اكثر مما كانت عليه في المناطق الغربية وذلك بسبب شدة الاستغلال الانكليزي وتعسفه في المقاطعات الشرقية، فابيدت الحاميات الانكليزية بصورة تامة في معظم المدن الشرقية مثل حامية مدينة ليميريك (٦٩).

وكان تيرون قد اعلن اهداف الثورة في ٢٢ مادة، ومن اشهرها:

١. حرية العقيدة الكاثوليكية.
٢. الكف عن سياسة مصادرة الاراضي التابعة للكنيسة الكاثوليكية او لابناء الشعب الايرلندي.
٣. منح ايرلندا ادارة مستقلة.
٤. حرية التجارة بين ايرلندا والاقطار الاورو بية.

ان هذه الاهداف التي اعلنها تيرون كانت انعكاسا ساطعا لسمات التحرر القومي التي استهدفتها الثورة، كما انها حددت العنصر الاجتماعي الذي استندت عليه الثورة، و بذلك كان للثورة قاعدة شعبية واسعة فانضم اليها الكثير من زعماء القبائل والنبلاء الايرلنديين لان بعض اهداف الثورة اكدت على وجوب استرجاعهم لامتيازاتهم التي حصلوا عليها قبل ٢٠٠ سنة وهي مساهمتهم في ادارة البلاد اضافة الى محاولة استردادهم ما فقدوه من ممتلكاتهم.

اما مساندة سكان المدن للثورة فقد جاءت بسبب مطالبة الثورة بحرية التجارة بين ايرلندا والعالم الخارجي. واخيرا كانت مساهمة اكبر شريحة اجتماعية بالثورة وهي جماهير الفلاحين وابناء القبائل والبطون، وذلك لان الثورة استهدفت الغاء قانون مصادرة الاراضي والتخلص من تسلط طبقة النبلاء الانكليز والملاكين الجدد من موظفي الادارة الانكليزية وكبار القواد العسكريين. وكان العامل المشترك الذي جمع بين كل هذه الشرائح الاجتماعية التي ساهمت بالثورة، هو حرية العقيدة الكاثوليكية، وعلى هذا الأساس فان الشعور القومي والاجتماعي تحرك تحت شعار الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية لقد أصاب الثورة تطور شديد حتى عام ١٩٩٥ إذ اتخذ الكفاح طابعاً جماهيرياً بعد أن توسعت قاعدتها الشعبية ووصل تعداد جيش الثورة الى ١٦ ألف مقاتل وهذا مما زاد من شدة القلق لدى المسؤولين الانكليز، فأعدوا حملة عسكرية جديدة قوامها ٢٠ ألف من المشاة و٢٠٠٠ من الخيالة تحت قيادة الجنرال «ايسيكس» لسحق الثورة. وفي عام ١٥٩٦ وصل سبعة آلاف مقاتل من منتسبي تلك الحملة إلى إقليمي مانستر ولينستر، إذ قرر قائد الحملة تحقيق نصر كاسح في الأقاليم الجنوبية والشرقية من الجزيرة لحماية مؤخرة جيوشه عند توغله في قلب الجزيرة. لكن هذه القوة جوبهت بمقاومة عنيفة من جانب فرق الأنصار من الفرحين الايرلنديين، فعلى مقربة من مدينة «ميريبور» وقعت الحملة الانكليزية في كمين نصبه لها الأنصار وقتلوا منها ٥٠٠ جندي وفي حدود مقاطعة القلعة تحطمت مؤخراً الحملة الانكليزية على يد القائدين الايرلنديين «مورم وكونور».

وهكذا فشلت الحملة الانكليزية الجديدة في اداء مهمتها واستدعى قائد الحملة الى لندن عام ١٥٩٩ للتشاور معه.

وفي عام ١٦٠٠ م ارسلت الحكومة الانكليزية حملة جديدة الى ايرلندا تحت قيادة اللورد «ماونتجوى». و بعد وصوله الى ايرلندا قام ببناء الكثير من القلاع والحصون وطرق المواصلات عبر المستنقعات والغابات، كما حصن الممرات والمسالك الجبلية للحد من تحركات فرق الانصار، واشهر القلاع التي بناها قلعة «لوكفول» والتي حدت من نشاط زعيم الثورة تيرون (٧٠).

على الرغم من اتباع هذه الخطط والاجراءات فلم تحقق الحملة نصرا حاسما على الثوار، كما باءت بالفشل محاولات اللورد «ماونتجوى» اغتيال تيرون او تقديم مكافأة مالية كبيرة لمن يأتي به حيا او ميتا. وفي

66. Ibid P. 290.

67. C. Maxwell, p. 249.

68. C.S.P. Ireland, P. 181.

69. Ibid P. 181.

هذه الفترة طلب تيرون المساعدة من فيليب الثاني ملك اسبانيا بوساطة الاباء اليسوعيين. وفي عام ١٦٠١ وصلت ميناء «كينسال» الايرلندي قوة اسبانية قوامها خمسة الاف جندي واصدر قائد الحملة الاسبانية بيانا الى الشعب الايرلندي جاء فيه : ان هدف قواته ليس احتلال ايرلندا ولكن من اجل الدفاع عن العقيدة الكاثوليكيه وانقاذ الشعب الايرلندي من التسلط والاضطهاد الانكليزي الذي استمر منذ عهد بعيد... وفي الختام دعا البيان ابناء ايرلندا للوقوف في وجه العدوان الانكليزي (٧١).

وبعد وصول خبر الانزال الاسباني في ميناء كينسال الى القيادة الانكليزية توجهت قوة انكليزية وحاصرت الميناء، ولم يفلح جيش الثورة في فك الحصار عن القوة الاسبانية، فاضطر الثوار الى الانسحاب الى الغابات والمستنقعات القريبة من الميناءو بدأوا اعمالهم العسكرية من اجل قطع طرق الامدادات والتموين للقوة الانكليزية. وفي ٢٣ كانون اول عام ١٦٠١ كررت قوات الثورة الايرلندية محاولتها لفك الحصار عن القوة الاسبانية بناء على طلب الاسبان، فدارت معركة كينسال والتي اندحرت فيها جيوش الثورة وفقدوا ١٢٠٠ قتيل و١١٠٠ جريح توفي معظمهم (٧٢).

وبعد هذه المعركة بدأت القوات الانكليزية بمطاردة فلول الثوار فأسروا الكثير منهم، وكان القائد الانكليز مونتجرى شديد القسوة مع الثوار فقد أعدم كل الأسرى الايرلنديين على الرغم من استعداد الكثير منهم لتقديم الفدية (٧٣). أما القوة الاسبانية المحاصرة فوافقت على الاستسلام بشرط أن يسمح لها بالعودة إلى بلادها وأن لا تتدخل اسبانيا مرة في شؤون انكلترا.

وبعد معركة كينسال بدأت القوات الانكليزية عملية تطهير المقاطعات الايرلندية من الثوار حتى دمرت جميع المقاطعات التي ساهم ابناؤها في الثورة. ودمر كل شيء في ايرلندا حتى تحولت المزارع والحقول الى صحراء قاحلة (٧٤). لقد تم تدمير الشعب الايرلندي وممتلكاته بدرجة مفجعة، حتى ان قائد الحملة الانكليزية كتب الى الملكة الزابث : «ليس هناك حاجة بان تأمر جلالتك بارسال مزيد من الامدادات العسكرية الى ايرلندا، فلم يبق هناك شيء عدا جثث الخيول والرماد» (٧٥). نتيجة لهذا التدمير الشامل الذي حل بالمقاطعات الايرلندية اقتنع تيرون زعيم الثورة بان الاستمرار في مقاوم الجيوش الانكليزية غير مجد، فاضطر الى الجلوس حول طاولة المفاوضات مع ممثلي الحكومة الانكليزية، فاعلن خضوعه لانكلترا وتبرأه من اسم اونيل وتعهده بعدم تحالفه مرة اخرى مع العرش الاسباني والبابوية، بشرط ان لا تتعرض ممتلكاته الخاصة للمصادرة.

ان القضاء على ثورة تيرون كلف الخزانة الانكليزية اموالا طائلة، فقد اعلن اللورد بيرلي مدير الخزانة الانكليزية ان النفقات العسكرية للشهر الواحد بلغت ٨٥٦٠ جنيها وقد استنزفت الحرب كل محتويات خزانة دبلن ولم يبق فيها بنس واحد (٧٦). وكان مجموع نفقات الحرب في الخمس سنين الاخيرة من فترة حكم الزابث قد بلغت مليون و٦٠٠ الف جنيه، وهذا يعني ان تكاليف الحرب بلغت اكثر من ٣٠٠ الف جنيه في السنة، علما بان مجموع الايرادات الصافية للخزانة الانكليزية لعام ١٦٠٢ من انكلترا ومقاطعة و يلز كانت ٤٥٥٣٦٦ جنيه (٧٧).

اما مجموع النفقات العسكرية طيلة عهد الزابث فكانت خمسة ملايين من الجنيهات (٧٨).

وعلى الرغم من شروط الاتفاق مع تيرون فقد اصدر الملك جمس الاول ١٦٠٣ — ١٦٢٥ مرسوما ملكيا اعلن فيه عن مصادرة اراضي ايرلندية بلغت مساحتها ثلاثة ملايين ايكر تحت حجة منع المؤامرات والتمردات. واسكن فيها فلاحين من انكلترا واسكتلندا وردا على تلك الاعمال حاول تيرون اعلان الثورة مرة اخرى بالاتفاق مع البلاط الاسباني، لكن محاولته كان مصيرها الفشل.

ثورة عموم ايرلندا عام ١٦٤١

اندلعت الثورة مجددا في معظم الاقاليم الايرلندية في تشرين اول من

70. C.S.P. Ireland, P. 401.
71. C. Maxwell, pp. 193-194.
72. Ibid P. 194.
73. Ibid P. 196.
74. G.E. Afanref-History of Ireland, Moskow 1907.
75. F. Moryson Literary, pp. 76-77.
76. Queen Elizabeth and Her Times, A series of origiral letters, ed by T. Wright, Vol. II L 1838, pp 464-465.
77. "An Account of all Manors, Messages, Lands, Tenements and Hereditaments in the Different Counties of England and Wales, Held by Lease from Crown" L 1948, p. 70-80.
78. A.L. Morten, A Peoplès History of England, L 1948 p. 220.

عـام ١٦٤١ في عـهـد الملك شارك الاول ١٦٢٥ ـــ ١٩٤٩ . وكـانـت الاسباب التي ادت الى قيام الثورة هي استيلاء حكومة شارل الاول على مـسـاحـات جديدة من الاراضي في اقـاليـم : اولستر، ميـنستـر، ليـنستـروكـونـوت ، تحت حجة تدقيق سندات ملكية الاراضي وتثبيت عـائـديـتها . يضاف الى ذلك سياسة الشدة التي اتبعها «سترافورد» نائب الملك في ايـرلنـدا وعرقلته لصناعة الاقمشة الكتانية في المدن الايرلندية ، وهـذا ممـا دفع سكان المدن الايرلندية الى مناهضتهم للسيطرة الانكليزية . وكـانـت الظروف الداخلية في انكلترا صعبة للغاية نظرا للحرب الاهلية بـعد ان اشتد الصراع فيها بين الملك شارل الاول و البرلمان . وكان لرجال الـديـن الـكـاثـوليـك دورا بـارزا في الـتحـريض على الثورة . كما حظي الايـرلـنـديـون بالاسناد الاسباني والفرنسي (٧٩) . كل هذه الاسباب ادت الى اندلاع الثورة عام ١٦٤١ في معظم المقاطعات الايرلندية .

وقـد اشيع في انكلترا عن وحشية الايرلنديين وتدميرهم للمستوطنات الانـكـلـيـزيـة في الجزيرة وقتلهم للنساء والاطفال الانكليز، فقرر البرلمان الانـكـلـيزي رصد مليون جنيه لتغطية نفقات الحملة العسكرية الى ايرلندة لـسحـق الـثـورة . على ان يـتـم تـسـديـد هـذا المبلغ عن طريق بيع ما يبلغ مـساحته ٢،٥ مليون ايكر من الاراضي الزراعية المصادرة والعائدة ملكيتها للثوار بعد ان يتم القضاء على الثورة (٨٠) . ولم تتمكن جيوش الملك شارل الاول مـن القضاء على الثورة بصورة نهائية بل استمر الشعب الايرلندي في مـقـاومـتـه لاجـراءات مصادرة الاراضي واستمرت حركات الانصار ضد الحـامـيـات الانكليزية حتى اعدام الملك شارل الاول عام ١٦٤٩ ومجيء حكومة اولفر كرومل .

موقف جمهورية اولفركرومل من الثورة

تمسك الملك شـارل الاول بـنـظـريـة الحق الالهي في الحكم وفرض الـضرائب دون موافقة البرلمان ، بينما يرى البرلمان انه لا يحق للملك فرض الـضـرائـب دون موافقته ، وقد بدأ شارل الاول حكمه باعلان الحرب ضد اسـبـانـيـا وتـدخله في شؤون فرنسا ثم حروبه في اسكتلندا التي بدأها منذ عام ١٦٣١ . ولمـا طـالـب مـن البرلمان الموافقة على الضرائب الجديد لسد النفقات العسكرية رفض البرلمان ذلك .

وقـد ازدادت كـراهـيـة الشعب الانكليزي للملك بعد زواجه من اميرة فرنسية ، فارتاب الشعب الانكليزي من سياسة الملك وظنوا انه ينوي اعادة الـكـاثـولـيـكـيـة الى انـكـلـتـرا . وفي عام ١٦٤٢ ارسل الملك ثلة من الجند لاعـتـقـال زعـمـاء المعارضة داخل البرلمان ، لكنه فشل في مهمته ، فثار الـشعب في مدينة لندن واعلن البرلمان تمرده على سلطة الملك ، فاضطر الملك الى مـغـادرة مـدينة لندن متجها الى «نوتنجهام» شمال لندن والف جيشا للـقـضـاء على الـبـرلمـان . فالف البرلمان جيشا للدفاع عنه ، وهكذا انقسم الـشـعـب الانـكـلـيـزي الى حزبين : حزب الملك وحزب البرلمان ، فنشبت الحرب الاهلية في انكلترا ١٦٤٢ ـــ ١٦٤٩ .

كـان انـصـار الـبـرلمان من ابناء الطبقة الجديدة من التجار والمزارعين وصـغـار الـنـبـلاء والحرفيين من سكان المدن ، وقد تركز انصار البرلمان في المدن الـكـبـيـرة مثل يوركشا وليد سمث وهلفكس ولندن وجميع الموانيء الانـكـلـيـزيـة والقوة البحرية ، وهذا مما ساعد على قطع المساعدات الخارجية للـمـلـك ، خـاصـة المـسـاعـدات الـفـرنـسـيـة . وعرف جيش البرلمان بذوي الـرؤوس المستديرة ، ويمتد نفوذه على جنوب وشرق انكلترا وقاعدة عملياته مـديـنـة لـنـدن . امـا انصار الملك فهم طبقة الارستقراطية القديمة من كبار الـنـبـلاء والاقطاعيين ورجال الدين الكوثوليك و يسمى جيشهم بالفرسان ويمـتـد نـفـوذهـم على شـمـال انـكـلـتـرا وغربها ، وقاعدتهم مدينتي يورك واكسفورد .

وفي المـراحـل الاولى مـن الحرب كانت الغلبة للملك حتى هدد مدينة لـنـدن بـالـسـقـوط . ولم يتغير الموقف العسكري الا في عام ١٦٤٥م عندما ظهرت قيادة «اولفر كرومل» ، فحقق انتصارا ساحقا على الجيوش الملكية والـقـي الـقـبـض على الملك واعدم في ٣٠ كانون ثاني عام ١٦٤٩ ، و بعد اعـدام المـلك قرر البرلمان الغاء النظام الملكي في انكلترا ومجلس اللوردات واعـلان الـنـظـام الجمهوري والذي استمر من عام ١٦٤٩ ـــ ١٦٥٨ ، وقد منح كرومل لقب حامي الجمهورية .

اسـتـغـل الـشـعـب الايـرلـنـدي سـقوط النظام الملكي في انكلترا عام ١٦٤٩ ، فـاعـلـنـت معظم المقاطعات الايرلندية خروجها على سلطة النظام الجـديـد في انـكـلـتـرا ما عدى مقاطعتي دبلن و بري اللتين اعلنتا ولائهما للـنـظـام الجمهوري ، وقرر اتحاد الجمعيات الكاثوليكية في ايرلندا انفصال ايـرلـنـدا عـن انـكـتـرا . فـقـرر الـنـظـام الجـمـهـوري اعادة فرض السيطرة الانـكـلـيـزيـة على ايـرلـنـدا مجددا . وفي ٧ نيسان عام ١٦٤٩ قرر البرلمان الانـكـلـيزي رصد مبلغ ٥٤٠ الف جنيه لسد نفقات العمليات العسكرية في ايـرلـنـدا على ان يـتم الحصول على هذا المبلغ عن طريق القرض والذي يتم تسديده بعد بيع الاراضي المصادرة في ايرلندا .

79. C.S.P. Ireland, p. 137.
80. Journal of the House of Commons II, p. 435.

وفي حزيران من عام ١٦٤٩ قرر البرلمان رصد مبلغ جديد لسد النفقات العسكرية قدره ٤٠٠ الف جنيه (٨١). وقرر البرلمان ان يتولى اولفر كرومل بنفسه قيادة العمليات العسكرية في ايرلندا، فابحر في ١٣ اب ١٦٤٩ الى ايرلندا على رأس جيش قوامه عشرة الاف مقاتل من المشاة على ظهر ١٣٠ سفينة، وقد وصلت قطع المدفعية مع اكثرية الجيش في يوم ١٥ اب ميناء «براي» الذي يقع قرب مدينة دبلن.

وكان النبيل «اورموند» قد تزعم حركة المقاومة لنظام كرومل واعلن نفسه نائبا للملك شارل الثاني* في ايرلندا، فايده النبلاء المحليون الايرلنديون والفلاحون اضافة الى الانكليز المقيمين في ايرلندا والذين يدينون بالمذهب الانكليكاني. وقبل ان يبحر كرومل الى ايرلندا بعث بوكلائه الى زعماء المعارضة الايرلندية لتفرقة صفوفهم، فتمكن هؤلاء من كسب الانكليكان الانكليز والاسكتلنديين والذين كانوا بزعامة اللورد «بروكهل». وفي ٢٤ اب ١٦٤٩م، اصدر كرومل منشورا الى الشعب الايرلندي وعده فيه الحفاظ على ارواحهم وممتلكاتهم واعتبارهم من رعايا الجمهورية الانكليزية، كما منع جنوده الاعتداء على السكان المحليين الذين لم يشهروا السلاح في وجه الجيش الانكليزي (٨٢). وكان هدف اولفر كرومل من وراء هذا البيان كسب الفلاحين الايرلنديين الى جانبه او وقوفهم على الحياد ومن اجل عزل الطبقة المتنفذة الايرلندية والزعماء الايرلنديين عن جماهير الشعب الايرلندي. وقد حقق كرومل بعض النجاح في استمالة بعض الزعماء والفلاحين الايرلنديين الى جانبه.

استهدف كرومل في خططه العسكرية احتلال المدن الايرلندية الكبرى اولا ثم تطهير الريف الايرلندي من فرق الانصار الايرلندية. وفي ١٠ ايلول عام ١٦٤٩ تمكنت قوات كرومل من احتلال قلعة «دروجيده» الواقعة شمال مدينة دبلن على الساحل الشرقي بعد قتل ثلاثة الاف شخص من افراد القوة المدافعة عن المدينة و بضمنهم بعض رجال الدين الكاثوليك والسكان المدنيين، وقد اصدر كرومل امرا بان لا يرحم اي شخص يقبض عليه وهو حامل السلاح (٨٣). و بعد استيلاء قواته على المدينة عامل سكانها كرقيق وارسل معظمهم ال جزر بربادوس في البحر الكاريبي. وفي ١٤ تشرين الاول عام ١٦٤٩ تمكنت جيوش كرومل من احتلال مدينة «بيكسفورد» بعد قتل ما يزيد على ٣٠٠٠ مواطن من ابنائها في ساحة المدينة (٨٤).

لقد اعتقد كرومل بان اسلوب الشدة سيرهب الشعب الايرلندي ويحطم مقاومته بسرعة، ولكن على العكس فقد ظهرت في عمق ايرلندا مقاومة شديدة في وجه جيوش كرومل، ليس من جانب انصار الملكية الانكليزية في ايرلندا ولكن من جانب سكان ايرلندا الاصليين تحت قيادة زعماء من ابناء جلدتهم، لذلك عجزت جيوش كرومل من احتلال الكثير من المدن والحصون في الاقسام الوسطى والغربية من ايرلندا. فرجع كرومل مرة اخرى الى لاسلوب الدبلوماسي لخداع الشعب الايرلندي، فوجه بيانا لابناء الجزيرة في كانون الثاني من عام ١٦٥٠ تعهد فيه بحماية ارواح وممتلكات الايرلنديين الذين لا يشهرون السلاح في وجه الجيش الجمهوري، وهاجم البيان رجال الدين الكاثوليك واصفا اياهم «الحزب القتلة» ووعد البيان باقرار السلام في ربوع ايرلندا اذا خضعت كليا الى سلطة الجمهورية الانكليزية وتم طرد رجال الدين الكاثوليك من الجزيرة. ولم يتطرق البيان الى حرية العبادة الكاثوليكية في ايرلندا بل اكد على وجوب الاستمرار في الكفاح ضد البابوية وعدم السماح للارساليات الكاثوليكية بدخول المناطق الخاضعة لسلطة الجيش الجمهوري (٨٥).

ساعد هذا البيان على انهاء النزاع والخلافات بين كرومل والانكليز المؤيدين للملك شارل الثاني والمقيمين في ايرلندا. وفي ٢٠ نيسان عام ١٦٥٠ تم توقيع اتفاق بهذا الشأن بين ممثل كرومل عن الجالية الانكليزية في ايرلندا، وجاء في الاتفاق اعتراف المقيمين الانكليز في اقليم مانستر بسلطة الجمهورية الانكليزية لقاء حفاظهم على ممتلكاتهم في الاقليم المذكور. وهكذا بقي الايرلنديون يقاتلون لوحدهم بعد ان تم الاتفاق بين قيادة الجيش الجمهوري والنبلاء المولودين من اصل انكليزي ــ ايرلندي.

وقد ساعد هذا الاتفاق قوات كرومل على احتلال اكبر مدينة في جنوب ايرلندا وهي مدينة «كلونميل» في ربيع عام ١٦٥٠ بعد ان قتل ما يقرب من (٢٠٠٠ ــ ٢٥٠٠) من القوة المدافعة عن المدينة (٨٦).

لم يتمكن كرومل من احتلال كافة المقاطعات والاقاليم الايرلندية اذا استدعي على عجل الى لندن، فرجع اليها في مايس من عام ١٦٥١

81. Ab ptt- The Writing and Speech of Oliver Cromwell, Vol. II L 1649-1650, p. 841.

* شارل الثاني هو ابن الملك شارل الاول والذي اعلن نفسه ملكا على انكلترا بعد اعدام والده عام ١٦٤٩.

82. Abbott, p. 111-112.
83. Ibid, p. 126.
84. Abbott, p. 126.
85. Ibid, p. 146.
86. Ibid, p. 252.

وحل مكانه صهره الجنرال «ايرتون». وبعد وفاته في تشرين ثاني عام ١٦٥١ تولى قيادة الجيش الانكليزي الجنرال «فيلتفود» والذي بدأ حربا ضروسا ضد فرق الانصار من ابناء الشعب الايرلندي.

وفي ١٢ اب عام ١٦٥٢، اصدر البرلمان الانكليزي ما يسمى «قانون تعمير ايرلندا» والذي اراد عن طريقه احكام السيطرة الانكليزية على الجزيرة وتجريد الشعب الايرلندي عن اراضيه، فتمت مصادرة مساحات واسعة من الاراضي في معظم المقاطعات الايرلندية وتم بيعها الى قواد الجيش واصحاب القروض من تجار مدينة لندن والخزانة الملكية والنبلاء الانكليز. وكانت معظم الاراضي المصادرة في اقاليم: اولستر، لينستر ومنستر. واجبروا اعدادا كبيرة من الفلاحين الايرلنديين على الهجرة الى ما وراء نهر شانون في الجنوب الغربي من الجزيرة (٨٧).

وفي عام ١٦٥٣ قررت حكومة كرومل تهجير الف شاب وشابة من ابناء ايرلندا الى جزيرة جامايكا (٨٨)، كما هاجرت اعداد كبيرة من ابناء الطبقة العليا الايرلندية الى اوروبا. واذا كان سكان ايرلندا قبل عام ١٦٤١ مليون و٥٠٠ الف نسمة، فقد انخفض في عام ١٦٥٢ الى ٨٥٠ الف نسمة وبضمنهم ١٥٠ الف نسمة من المهاجرين الانكليز والاسكتلنديين (٨٩).

وقد شجعت السلطات الانكليزية الهجرة من ايرلندا الى اوربا والعالم الجديد كما عملت على تهجير الشباب القادرين على حمل السلاح الى جزر بربادوس. وعلى العكس شجعت هجرة الفلاحين الانكليز والاسكتلنديين الى ايرلندا وكان القصد من وراء هذه العمليات اضعاف العنصر الايرلندي وطمس معالمه القومية ثم تحطيم مقاومته السيادة الانكليزية وضم الجزيرة الى انكلترا في نهاية الامر.

لكن هذه السياسة جاءت بنتائج عكسية، اذ استمر كفاح الشعب الايرلندي ضد الدخلاء الانكليز اما بصورة علنية او سرية، وقد بلغت خسائر الشعب الايرلندي نصف مليون قتيل منذ بداية ثورة عام ١٦٤١ والتي استمرت لمدة عشر سنوات.

وهكذا فان الثورة البرجوازية في انكلترا والتي تزعمها كرومل عام ١٦٤٣ لم تتمكن من حل المسألة القومية بالنسبة لايرلندا، اذ انها حولت انكترا الى بلد الاسياد وايرلندا ال بلد المضطهدين.

اسباب فشل الثورات الايرلندية في القرنين السادس عشر والسابع عشر

ان القوة الفعالة لجميع هذه الثورات كانت جماهير الفلاحين من ابناء الشعب الايرلندي، فقد تشكل جيش الثورة بالدرجة الاولى من الفلاحين الذين هددوا بالطرد من اراضيهم وتحويلهم الى رقيق لخدمة الملاكين الجدد من النبلاء الانكليز والقواد العسكريين وكبار الموظفين والتجار. لذلك جابه الجيش الانكليزي في القرنين السادس عشر والسابع عشر صعوبات كبيرة في حربه ضد فرق الانصار من الفلاحين الايرلنديين. لكن حركة التحرر الوطني في ايرلندا دخلت مرحلة صعبة بسبب الخلافات بين الفلاحين الايرلنديين من جهة وزعماء القبائل والنبلاء الايرلنديين الذين تزعموا حركة التحرر الوطني من جهة اخرى. ذلك لان هؤلاء لم يستمروا في الكفاح من اجل تحقيق الاستقلال القومي لايرلندا، بل توقف بعضهم عن الكفاح ضد التسلط الانكليزي عند حد تحقيق مصالحهم الشخصية. علما بان هؤلاء الزعماء سلكوا طريق العصيان والتمرد ضد السيادة الانكليزية على ايرلندا، ولو لم تساندهم جماهير الفلاحين لما كان لهم اي دور في مقاومة التسلط الانكليزي على الجزيرة. ومما اضعف حركة التحرر الوطني في الجزيرة، كذلك الصراع بين زعمائها ذلك الصراع الذي ازداد قوة بمهارة الدبلوماسية الانكليزية.

على ان السبب الاساسي الذي ادى الى فشل الحركة في تلك الفترة التاريخية هو التمزق السياسي والاقتصادي للجزيرة، ومما اضر بالحركة ايضا وبدرجة قوية هو علاقة زعمائها باسبانيا الكاثوليكية، علما بان اسبانيا لم تقدم مساعدات جدية للثوار، وعلى العكس فان هذه العلاقة فسحت المجال بشدة امام التدخل الانكليزي، اذ حاول الانكليز تبرير تدخلهم في ايرلندا على اساس الكفاح ضد الخطر الاسباني.

وعلى الرغم من هذه الجوانب السلبية والانتكاسات فان لحركة التحرر الوطني في ايرلندا في القرن السادس عشر والسابع عشر دورهم، اذ ان استمرار الايرلنديين في مقاومة التسلط الانكليزي عرقل استعمار الجزيرة بصورة سريعة، حتى استغرقت عملية السيطرة الانكليزية التامة على كل اقاليم الجزيرة ٤٠٠ سنة، كما ان هذا الكفاح الطويل الأمد اضعف انكلترا ماليا، فقد بلغت النفقات العسكرية في عهد الملكة الزابث وللسنين الخمسة الاخيرة من حكمها فقط مليون ونصف جنيه (٩٠).

87. Acts and Ordinances of Interragment, ed by Firth, Vol II, pp 720-750.
88. Thurloe. State Papers, V, VI, p. 230.
89. A.L. Morton p. 220.
90. An Account of All manors, pp. 79-80.

وعلى الرغم من عدم التكافؤ بين امكانيات الشعب الايرلندي والحكومة الانكليزية فقد استمر الايرلنديون في تصديهم للهيمنة الانكليزية لفترة زمنية طويلة مقدمين التضحيات الجسام، حتى حققوا استقلالهم في ١٩٢٢، لكن ذلك الاستقلال كان ناقصا اذ لا يزال قسم من الجزيرة «اقليم اولستر» تابعا لانكلترا وهو الذي يكافح الجيش الجمهوري السري الايرلندي من اجل تحريره وضمه الى الوطن الام في الوقت الحاضر.

الاعتماد الدولي المتبادل
والمشكلات العالمية

د. عناد فواز الكبيسي
كليـــة القانون
جامعـــة البصرة

المقدمـــة

لم يظهر مصطلح «المشكلات العالمية» في الأدبيات العالمية إلا منذ فترة قريبة جداً حيث ظهر في نهاية الستينات من هذا القرن. والبوم تهتم بهذا الموضوع كل التيارات الفكرية والأبحاث في مجال العلوم الأجتماعية. لقد احتلت «المشكلات العالمية» دوراً كبيراً في وسائل الأعلام الجماهيرية، وغدا كثير من الشعوب على اطلاع واسع في هذا المجال.

مقـارنة بهذا الوضع العالمي نجد أن درجة الأهتمام بالمشاكل العالمية عندنا في العراق ما زالت قليلة. إذ يلاحظ بوضوح عدم نضوج الأبحاث العلمية وقلة الأعمال المنشورة. فضلاً عن عدم تجاوب المجتمع مع الموضوع. وتنقصنا أيضاً الترجمة لأهم المصادر الأجنبية في هذا الباب.

إن هذا الوضع غير مريح لسببين رئيسين ـ الأول: إن المعرفة الكاملة للمشكلات الدولية يمكنها أن تقلل أو أن تحل الكثير من المشكلات المشابهة التي قد تعاني منها في الداخل وكذلك تخدم في أبعاد المخاطر التي قد تظهر في المستقبل، وقد يكون اليوم أمراً غير ذي بال أن نسمـع عن نضوب الموارد الطبيعية أو عن الأزمات الأقتصـادية، لكن ذلك بالذات يمكن أن يصبح أمراً واقعاً في العراق يوماً ما.

أمـا السبب الثـاني فهو ذو طبيعة نظرية وعلمية. فالتحليل الجـدي للمشكـلات العـالمية يسمـح بالغوص عميقاًفي جوهر العناصر التي تحكم تطور المجتمعات وكذلك في الميكانيكية التي تحكم التطور الأجتماعي على النطاق العالمي. كما أن هذا المجال يشكل أمام الباحث في الظواهر والتحولات السياسية أهمية جوهرية.

ماهية المشكلات العالمية:

ماهي ماهية المشكلات العالمية؟ وما التفرد الذي تتمتع به بين الظواهر الأخرى للعالم المعاصر؟ في الأجابة عن هذين السؤالين يختلف الكُتّاب بعضهم عن بعض ويحددون بأساليب مختلفة مجال المشكلة العـالمية. إن إجـراء قائمـة دقيقـة وتصنيف واضـح للمشكـلات العالمية يصطدم بصعوبات كثيرة لأسباب سياسية وتقنية. وبـدون الدخول في الخلافات والمناقشات الدقيقة جداً يمكن ايراد ثلاث صفات أساسية تميز جميع المشاكل العالمية:

١ ـ النـطاق العـالمي: إن هذه المشاكل تمس البشرية جمعاء ـ وتتصف بكونها أشمل من الدولة وأشمل من الأقليم ـ وهي بدرجة ما تؤثر موضوعياً على تطور جميع المجتمعات.

٢ ـ الـوزن الكبـير: إن لهذه المشكـلات صفـة التهـديدات المصيرية وهي جوهرية أيضاً من وجهة نظر الجنس البشري وآفـاق تطوره. إذ تؤدي إلى ظهـور العـديد من الخلافات الخطرة التي يضع عدم مواجهتها بنجاح، مستقبل البشرية واستمراريتها تحت علامة استفهام.

٣ ـ اسلوب الحل: لكي تواجه هذه المشكلات بنجاح ينبغي أن يكـون هناك تعاون واسع ومحكم بين جميع الأطراف ذات العــلاقــة. وهــذا يعني عادة ضرورة توحيد كل جهـود

وامكانيات المجتمع الدولي لهذا الغرض.

إن استخدام الصفات الثلاث معاً يسمح بمعرفة أهم المشكلات العالمية في عالمنا المعاصر. وبالتالي إذا ما أريد معرفة تصنيفها فانه يمكن الاعتماد على عدد من المقاييس المختلفة. فعلى سبيل المثال يمكن تقسيم مصادر المشكلات العالمية على :
١ - التهديد المتأتي من نتائج الثورة العلمية والتقنية.
٢ - التفاوت الناتج عن التطور غير المتساوي للعالم.

ويحسب على المجموعة الأولى قبل كل شيء المخاطر النووية (مخاطر الكارثة الهيدروجينية) وكذلك المخاطر البيئية (مخاطر التدمير الشامل لبيئة الانسان الطبيعية).

في حين يوجد في المجموعة الثانية مسائل مثل الفجوة الاجتماعية - الاقتصادية بين الشمال المتطور والجنوب المتخلف، التفاوت بين الاستخدام العالمي للمصادر الأولية والطاقة واحتياطيها، غياب التناسب بين الزيادة السكانية وانتاج المواد الغذائية إلى غير ذلك. ومع ذلك واذا ماأخذ بنظر الاعتبار أن التفاوت السابق له صفة المخاطر أيضاً وإن المخاطر النووية والبيئية تنتج ايضاً من تجاوز بعض التفاوتات، فان ما قدمناه من تقسيم يبدو غير دقيق تماماً.

ويمكن تقديم تصنيف آخر يعتمد على مقياس أكثر موضوعية، فمن المعلوم أن هناك نظامين أساسيين يحددان نشاط البشرية : العلاقات بين الانسان والطبيعة، والعلاقات الاجتماعية. ومن الضروري ربط ظهور المشكلات العالمية مع التطور التاريخي للنظامين المذكورين. وهذا يعني في نفس الوقت تحسين أدوات العمل وكذلك التأثير المتزايد للانسان في الطبيعة . . . الخ. كما هو الحال مع التقدم الاجتماعي أي بالانتقال من مرحلة اجتماعية - اقتصادية إلى مرحلة لاحقة. إن البحث عن الطرق والوسائل للتغلب على هذه المشكلات يكمن في مجالين : المجال العلمي - التقني، والمجال الاجتماعي - السياسي.

ويمكن أيضاً وعلى غرار ما تقدم أن نقسم المشكلات العالمية على مشكلات تتعلق من ناحية بنظام العلاقات «الانسان - الطبيعة» ومن ناحية أخرى بمجال العلاقات الاجتماعية.

وهكذا ففي المجموعة الأولى من المشكلات نجد تلوث البيئة الطبيعية، وأزمة المصادر الأولية والطاقة، ومشكلة المصادر الغذائية. . . الخ. بينما نجد في المجموعة الثانية مشكلات تتعلق في نفس الوقت بالعلاقات الضيقة بين «الأنسان - الجماعة - المجتمع»، والعلاقات الواسعة بين المجتمعات أو أنظمة الدول. إن المشاكل من النوع الأول هي :- على سبيل المثال - الأنفجار السكاني، النتائج الأجتماعية للتقدم التكنولوجي، تخلف الأنظمة التربوية وحماية الصحة. أما المشكلات العالمية الصرف فيمكننا تعداد اثنين من أهم المشكلات العالمية اليوم : مشكلة الحرب والسلام ومشكلة التفاوت في التطور بين الشمال الغني والجنوب الفقير. وعلى الرغم من أن كل المشاكل التي ذكرناها هي مشاكل متداخلة وتؤثر بعضها في بعض ولها طبيعة متشابهة، فان استخدام التصنيف الذي لجأنا اليه له، كما نعتقد، قيمة جوهرية للتنظيم.

إن زيادة حدة الكثير من المشكلات العالمية جاءت مع نهاية الستينات وبداية السبعينات مثل أزمة الطاقة والبيئة، وزيادة مطالب دول العالم الثالث بخصوص زيادة المساعدات التي تقدمها الدول المتطورة وذلك في محاولة لتضييق الفجوة التي تفصلها إجتماعياً واقتصادياً. وفي نفس الوقت حدث في هذه الفترة ذاتها تطور سريع في الكتابات التي تتعرض للمشكلات العالمية. ومن بين العديد من الدراسات التي قامت في هذه الفترة والفترة اللاحقة لها تتمتع التقارير الخاصة بنادي روما بأهمية خاصة. إن هذه المنظمة الخاصة والتي تجمع مئة عالم وسياسي وصناعي من ما يقرب من أربعين بلداً، والتي أنشئت منذ سنة ١٩٦٨ قامت حتى الآن بوضع عشرات الدراسات من هذا النوع.

إن النشاط الذي يقوم به نادي روما في مجال الدراسات يعتمد المعرفة النظرية للمشكلات العالمية وإيجاد الحلول الناجعة لها، وكذلك توعية المجتمعات بالمخاطر التي تهددها. ومن الممكن ملاحظة التطور الخاص بالمشكلات العالمية التي يهتم بها النادي.

فبقدر ما كانت الدراسات الأولى تؤكد على الحدود الخارجية للتطور البشري (محدودية المصادر الأولية، والبيئة، وما شابه ذلك)، أكدت الدراسات المتأخرة على الحدود الداخلية الكامنة في ذات الأنسان أو في المباديء المنظمة للحياة الاجتماعية. إن هذا التحول من التحليلات المتعلقة بالحياة والطبيعة من جوانب المشكلات العالمية إلى فحص الظروف الأجتماعية - الأقتصادية بل وحتى السياسية مهم جداً. ويكفي لملاحظة هذا التطور بوضوح مقارنة التقرير الأول «حدود التطور الذي صدر عام ١٩٧٢»

والتقرير الثاني «البشرية في نقطة العودة عام ١٩٧٤» مع التقرير السابع «تعلم ـ دون حدوُد، عام ١٩٧٩» أو التقرير العاشر «الطريق إلى المستقبل عام ١٩٨٠».

إن التقرير الأخير يتضمن مسائل تخص الأنظمة حيث يحلل نتائج حركة المجتمعات والشروط التي تحكمها مثل نظام القيم العليا، والشكل السياسي للحكومات وحركة الاقتصاد.. الخ. ومما يتميز به هذا التقرير ما جاء فيه من تصوير لمفهوم الأمن العالمي، الذي يلغي أهم التهديدات العالمية ويفترض اعادة بناء الأنظمة الداخلية للدول بروح التقارب.

لقد أصبح النتاج العلمي لنادي روما موضوعاً لنقاش شامل على نطاق العالم وجاء تقويم قيمته النظرية والتطبيقية متنوعاً. وغالباً ما وجه الانتقاد إلى التقارير الأولى باعتبارها إفتتاناً مبالغاً فيه بالتقنيات والكومبيوتر والنماذج وكذلك الاستخدام غير المبرر أحياناً لعملية الأستقراء وهي الطريقة التي تعتمد على الاستنتاج الميكانيكي لبعض التيارات التي ظهرت في الماضي وسحبها على الظواهر والأحوال المستقبلية.

ويستخدم عدد من الكُتاب طريقة النماذج على ما فيها من نتائج غالباً ما تكون مشكوكاً فيها ومختلفة. ومنهم W. LEONTIEF, A. HERRERY, H. KAHN [1].

ومن الجدير ذكره هنا أن نوعية الأنموذج العالمي غالباً ما تؤثر فيها وبشكل سلبي قلة التحليلات النظرية للمشكلات العالمية. إن الكُتاب الذين يتصدون للبحث في نماذج النظام العالمي لا يمتلكون عادة أية نظرية للعلاقات القائمة على النطاق العالمي. وهذا سبب آخر يجعل من تطوير الفكر النظري في موضوع المشكلات العالمية أمراً مبرراً للغاية.

إن التحليل الكامل بجوهر المشكلات العالمية المعاصرة أمر غير ممكن دون التحليل العميق للنظام العالمي، وبعبارة أخرى، دون الفحص الشامل للعلاقات والتقنيات ذات الصفات العالمية. ولهذا الغرض يتحتم تحليل النظام الاقتصادي العالمي، والهيكل الاجتماعي العالمي، وكذلك العلاقات الطبقية على النطاق العالمي. وتوضيح هذه المسائل يمكن أن تقدمه الأجابة عن الأسئلة الآتية: من هو المالك الرئيسي ومن هو المسيطر على أكبر قسم من وسائل الأنتاج على النطاق العالمي؟ بأية طريقة تسيطر التقنية ذات الصفة العالمية على تقسيم العمل الدولي وتؤثر في التطور غير المتساوي للمجتمعات وتعمق التفاوت القائم؟ أي نوع من التبعية يربط الدول الرأسمالية المتطورة مع دول العالم الثالث وكذلك مع الدول الأشتراكية؟ أية فائدة يمكن أن تجنى نتيجة تقسيم العالم إلى متطور ومتخلف بالنسبة إلى تحليل هيكل وعمل النظام العالمي؟ وبالنسبة لهذه المسألة الأخيرة يجب القول أنه قد أصبح اليوم مفهوماً أن تأخر دول العالم الثالث إنما هو نتيجة فرض دور التابع عليها من قبل الدول الرأسمالية المتطورة، وعليه فانها تستطيع أن تقوم فقط بدور المكمل [2].

تقييم مناهج البحث في المشكلات العالمية وآفاقها:

من الممكن بل والمفيد أن نعامل مجمل المشكلات العالمية باعتبارها وحدة عضوية متكاملة. وترتبط بهذا فرضية تفسير العالم كلياً باعتبارها نظاماً متكاملاً. إن المدخل المنهجي يؤكد على الوضع المشترك لمختلف احتياجات ومصالح البشرية جمعاء. إن الاختلافات الجوهرية والتناقضات التي تميز الهيكل الاجتماعي للعالم، غير قادرة على شطب هذا النوع من الكلية التي لا بد منها للعلاقات العالمية والمشكلات التي تقوم على أساسها. ومن الجدير بالملاحظة أن الآفاق المعرفية التي ذكرناها جاءت نتيجة لفرضية معينة في عالم الوجود، ونعني بذلك مباديء وحدة الوجود.

إن المدخل المنهجي في بحث المشكلات العالمية يعتبر مثمراً من الناحية المعرفية، حيث يسمح بتوضيح العلاقات والميكانيكية التي تميز العالمية، بعبارة أخرى تلك التي تعمل على مستوى عريض بقدر الامكان. إن تحليل كل مشكلة على حدة يمكن أن يكون أكمل وأسهل إذا ما خضع النظام الذي يجمع كل عناصر هذه المشكلات المنفردة إلى تحليل مسبق. إن رحلة البحث المعرفي التي تبدأ من العام إلى الخاص تحمل في طياتها قيمة منهجية كبيرة.

أما المنهج الآخر للبحث في المشاكل العالمية فهو الاعتماد الجدلي. وهذا المنهج، منطقياً، ينتج عن الفرضية السابقة. فاذا

١ ـ ب. كامينسكي، ن. اوكولسكي: حدود النماذج العالمية، وارشو، ١٩٨٢ (باللغة البولونية).

٢ ـ إن هذه الفرضية قد أثبتها العديد من الباحثين ومنهم البرازيلي Celso Furtado في كتابه المترجم إلى اللغة البولونية تحت عنوان «خرافة التطور الاقتصادي»، وارشو، ١٩٨٢.

اعتبرنا أن المشكلات العالمية كما هو الحال مع العالم المعاصر، تشكل منهجياً وحدة في التعددية، فإنه بين عناصر هذا النظام تظهر مختلف أنواع التأثير المتبادل. وهكذا فإن المسألة السكانية، على سبيل المثال، ترتبط بإحكام بمسألة الغذاء، والمسألتان ترتبطان بمشكلة التطور غير المتساوي للشمال والجنوب، وبالتالي فإن مشكلة المصادر الطبيعية ترتبط بمسألة حماية البيئة الطبيعية.. وهكذا.. فان هذه نتيجة حقيقية لاعتماد مثل هذه المعادلات الاجتماعية - الاقتصادية الأساسية مثل الاقتصاد، السكان، الطاقة والظروف البيئية... الخ.

كما أن أقاليم الكرة الأرضية، والقارات والدول أصبحت تعتمد على بعضها أكثر فأكثر.. إن العالم المعاصر انكمش على نفسه وأصبحت عمليات التدويل متقدمة جداً. وقد حملت العلاقات الثانوية شبكة معقدة من الارتباطات الفرعية التي تتداخل بالتناوب في العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية والتقنية العالمية... الخ.

وفي النهاية فان هذا نظام معقد جداً يظهر فيه عدد غير محدود من الوحدات المتعاقبة، وإن بعض التوابع تكاد أن تلاحظ بصعوبة.

ويظهر مبدأ الاعتماد المتبادل بوضوح في تقاليد النظرية العضوانية ORGANICISM (النظرية القائلة بأن العمليات الحيوية تنشأ من نشاط أعضاء الكائن الحي كلها بوصفها نظاماً متكاملاً) المرتبطة خاصة بالفلسفة الوصفية وكذلك في مختلف أشكال النظرية الوظيفية FUNCTIONALISM التي تظهر سواء في نطاق علم الاجتماع أو علم العلاقات الدولية.

ومن ناحية أخرى فان مبدأ التغير الديناميكي يقضي بان المشكلات العالمية وكذلك هيكل العالم المعاصر يتصفان بالتغير. وتنتج، من هنا، الحاجة إلى مواكبة تعاقب المتغيرات. وهذا معناه ضرورة بحث المشكلات العالمية في ضوء تطورها المستمر. إن عدم الاستقرار في النظام العالمي وفروعه، والذي يميز القرن العشرين يتطلب بالمقابل تحليلاً ديناميكياً ويترتب على ذلك الكشف عن البدايات، التي هي مجال المؤرخين، واستشراف التوقعات من قبل المستقبليين.

وغني عن القول أن معرفة البدايات والتوقعات لا ينبغي أن تحجب بعض مؤشرات الاستقرار والتطور أو الاستمرارية التي تميز تلك الظواهر التي تظهر في عالمنا المعاصر. حيث ان أي تغيير يصيب المشكلات العالمية لا يمكن أن يكون بطريقة شاملة. غير أن من المهم إلى جانب ذلك تحديد المجالات التي تجري فيها التغييرات بصورة بطيئة وتلك التي تكون سريعة فيها، وفي أي المجالات لها صفة الدورة، وأين يتوافق التحول مع التقدم، وأين تكون مع الانكفاء والنكوص. إن الفرصة الجوهرية الأخرى تكمن في استباق بحث تطور العلاقات التي تربط كلاً من عناصر النظام بتحليل عميق للتغيرات التي تخضع لها هذه العناصر ذاتها.

إن المعرفة الدينامية التي تقضي ببحث الواقع في حركته الدائبة صفة تميز عدد من المدارس العلمية بدءاً من تعليمات هيرقليط. أما الفرضية المعرفية الأخرى الجديرة بالذكر فهي قاعدة التوازن. إذ أن من الضروري تحقيق استقرار التطور العالمي عن طريق السعي الواعي لضمان التوازن في العالم، الذي يجب فهمه بطريقة غير جامدة، ونعني به التوازن الديناميكي والمنظم. ومن المهم التأكيد إلى جانب ذلك، أنه في النظام العالمي لا يظهر تنظيم ذاتي. إن هذه النظرة تتعارض والمذهب الطبيعي المتطرف الذي يعتقد بان الأنظمة الأجتماعية تتطابق مع الأنظمة الطبيعية. إن ممثل المذهب الطبيعي، على سبيل المثال، هو أحد كُتاب التقرير الخاص لنادي روما (أهداف للبشرية ١٩٧٧) أرفين لاسزلو ERVIN LASZLO[٣].

كما أنه لا يوجد شبه مباشر بين الظواهر الاجتماعية والعمليات البايولوجية كذلك لا يظهر في الحياة الاجتماعية «توازن طبيعي». إن النشاط الانساني يؤدي إلى قيام العديد من حالات عدم

٣ - في كتابه المترجم إلى اللغة البولونية «الصورة المنهجية للعالم» يضع هذا الكاتب فرضية أن لكل من التطور الاجتماعي والتطور الطبيعي نفس قوانين التطور الموضوعية باتجاه قيام أنظمة أكثر تكاملاً كما أن برباره ماركس هبارد Barbara Marx Hubbard تعتبر إحدى ممثلي الطبيعيين، أنظر:

The Future of Futurism. Creating a new Synthesis. The Futurist, 1983, No. 2.

الانسجام في العلاقات بين الانسان والطبيعة، الانسان والمجتمع، المجتمع والمجتمع. إن العالم المعاصر لا يمثل الانسجام الكامل، إن مظاهر عدم التوازن المتعدد الجوانب تبرز على مستويات متعددة: اقتصادية (التطور غير المتساوي)، اجتماعية (عدم التساوي في اشباع الحاجات الاجتماعية في مختلف الأقاليم، عدم التوازن السكاني)، بيئية (تلوث البيئة)، عسكرية (التفاوت في القوة العسكرية)، إعلامية (عدم التساوي في امتلاك وسائل الاعلام الجماهيرية على نطاق العالم) وغير ذلك.

إن هذه المظاهر المتعددة لعدم التوازن لها خلفيتها العميقة في التناقضات والصراعات الطبقية التي تقسم النظام العالمي المعاصر - غير أن هذا لا يعني، على كل حال، أنه يمكن بناء اشكال ما للتوازن العالمي عند القضاء على جميع هذه التناقضات حسب ذلك لأن حدة وخطر العديد من حالات فقدان الانسجام في المشكلات الدولية تجعل من موضوع التوازن أمراً قائماً اليوم ويجب معالجته وخاصة في مثل هذه المناخات الساخنة.

ومن ضرورة التوازن ومن موقع رفض كل من فرضيات الطبيعيين والليبرالية الكلاسيكية تبرز ضرورة التدخلية IN-TERVENTIONISM. إن هذا المبدأ ينص على أن إقامة توازن حقيقي يصبح ممكناً فقط بفضل التدخل الهادف والواعي في اداء النظام العالمي - إن هذه الفرضية تتعارض والأفكار القائلة بامكانية حل أغلبية المشكلات العالمية بفعل «القوانين الطبيعية» أو العمليات العفوية بشكل كامل - إن هذه الأفكار ليست معزولة إطلاقاً وتمثلها العديد من فروع المعرفة البوروجوازية المعاصرة التي أطلقت المنافسة الحرة وقوانين السوق العفوية وما شابه ذلك.

إن التدخل في النظام العالمي يمكن أن يكون باشكال مختلفة. الشكل الأقصى يمكن أن يتطابق وإنشاء سلطة مركزية على النطاق العالمي من شأنها، ومن فوق، إقامة التوازن الضروري في كل المجالات. وستصبح مهمة هذه السلطة العالمية، على سبيل المثال، تسوية التفاوت الحاصل في التطور وكذلك إقامة المساواة في توزيع الدخل العالمي. إن حلولاً من هذا النوع، كما هو واضح، غير واقعية في الوقت الحاضر وفي ظل الاختلافات الكبيرة في أنظمة الدول والشعوب. أما الشكل الثاني للتدخل فانه يعتمد على إقامة سلطة غير مركزية للنظام العالمي تعتمد على نظام التفاهم المتبادل بين الدول وكذلك مجموعات الدول.

إذا كانت المناهج الثلاثة الأولى (المنهجية، الاعتماد المتبادل والدينامية) تتصف بكونها عامة، فإن المنهجين الآخرين يصوغان باحكام المداخل البحثية: فهما يفترضان البحث في المشكلات العالمية من وجهة نظر توازن عالمي وانساني شامل وكذلك الأخذ بنظر الاعتبار المطالب التدخلية.

إن استخدام المناهج المذكورة سابقاً وحدهافي البحث في المشكلات العالمية يتطلب فهم العلاقة بين فروع المعرفة. ويتطلب ذلك مساهمة في تحليل عدد من العلوم الاجتماعية مثل السياسة، الاجتماع، القانون، الاقتصاد والتاريخ وكذلك فروعاً أكثر خصوصية مثل علم العلاقات الدولية، السبرنتيكا الاجتماعية والانثروبولوجي... الخ. ويطرح بعض الكُتاب حتى مسألة إنشاء فرع جديد لعلم يختص بالميكانيزم (الفعل الحركي) ذي الخصائص العالمية أسموه «موندولوجيا»(٤).

ومن أجل تقويم آفاق التغلب على المشكلات العالمية المعاصرة تحتل التوقعات التي تصف مستوى التكامل للنظام العالمي أهمية خاصة. وبتعبير آخر فإن من المهم الأجابة على السؤال الآتي: أية ميزة وأية قوة تمتلك تلك الروابط التي توحد العالم المعاصر؟ فاذا أخذنا التدخلية فبالامكان الافتراض أن فرصة تسوية المشكلات العالمية الأساسية ستكون أكبر كلما كان من السهل التنسيق على المستوى العالمي في مجال النشاطات التي تخدم هذا الهدف. إن نجاح النشاطات الموجهة إلى تسوية مختلف أشكال عدم التوازن يعتمد بدرجة كبيرة على شبكة الروابط بين دول وأقاليم العالم.

ومن الضروري القول أن تحديد درجة التكامل للنظام العالمي المشروط بآفاق البحث المستخدم. إن الكثير يعتمد على أي نوع من المعرفة يُتخذ باعتباره ملزماً. فعلى سبيل المثال في الغرب هناك مدخلان رئيسيان إلى بحث النظام العالمي: المدخل العقلاني

٤ - طرح هذه الفكرة عالم الاجتماع الأميركي البرت بير جينسين في مقاله: نظام الموند. نقلاً عن «مجلة الشؤون الدولية» وارسو، العدد ١، ١٩٨٥، ص ١٠٧.

السياسي والمدخل العالمي الذي يسمى أحياناً بمدخل الاعتماد الشامل[٥]. فاذا كان الأول منهما (ممثلاً باحسن ما يكون في أعمال هانس موركينتو) يطابق بين العلاقات الدولية والصراع حول السلطة وان موضوع النشاط الوحيد هو الأنظمة الحكومية، ففي الثاني ليست هناك أهمية جوهرية لمسألة السلطة، وان الدولة ليست إلا واحدة بين عدد من الأشخاص المعنويين الذين ينشطون على المسرح العالمي. وان ما يميز المفهوم الآخير هو التحليل للعلاقات ليس فقط بين الدول بل وبين الشعوب وبين الحكومات ايضاً، أي تلك العلاقات التي تتصدى حدود الدول وأطرافها ليست بالضرورة الهيئات الحكومية. ونعني هنا على سبيل المثال، النشاط الدولي للشركات، النقابات، والحركات الأجتماعية.. الخ.[٦] إن المفهوم الثاني بلا شك أكثر تكاملاً.

وتظهر في العالم الاشتراكي أيضاً اختلافات في النظرة إلى درجة التكامل للنظام العالمي. وهكذا فإن قسماً من الكتاب يؤكدون على الخواص المتغايرة وفقدان الوحدة لهذا النظام (وذلك بسبب اختلاف الأنظمة)، بينما يؤثر الآخرون فرضية ان العالم المعاصر يشكل وحده من مختلف المترابطات.

وبعيداً عن المفاهيم النظرية فان نظرة قريبة إلى النظام العالمي تشير إلى وجود العديد من الروابط العالمية، منها ما يحمل صفة العفوية ويتشكل بطريقة طبيعية، ومنها ما أنشئت وخطط لها بوعي مثل المنظمات التكاملية الأقليمية على شاكلة السوق الأوربية المشتركة ومجلس التعاضد الاقتصادي أو منظمة حلف شمال الأطلسي.. الخ. ففي داخل هذه المنظمات يمكن إيجاد ثلاثة أنواع من الروابط على الأقل: اقتصادية وثقافية وسياسية.

الروابط الاقتصادية: تعتبر الروابط العالمية ذات الصفة الأقتصادية نسبياً أكثر الروابط استمراراً وهي من الناحية التاريخية أقدمها. فقد كتب عالم الاجتماع البولوني لودفيك كشيفينسكي عام ١٩٢٣ يقول أنه قبل الحياة الفكرية للشعوب وقبل الطموحات السياسية للدول، كانت الروابط الاقتصادية تبسط نفوذها وتوحد (العالم) في نظام عالي المستوى - التبادل الدولي وتقسيم العمل الدولي[٧].

واليوم يخلق الاقتصاد العالمي نظاماً متكاملاً، يضم مجتمعات مختلفة ترتبط مع بعضها بروابط وثيقة ناتجة عن المشاعية العالمية لاستغلال الطبيعة اقتصادياً. إن الرابط الرئيسي لهذا النظام هو الطريقة الخاصة في توزيع العوامل الأساسية للانتاج على الكرة الأرضية وما يرتبط بذلك من خاصية تقسيم العمل الدولي.

إن النظام الاقتصادي العالمي تشكل خلال فترة طويلة. أما مراحل تطوره اللاحقة فقد كانت مدفوعة بالتغييرات الحاصلة في التكنولوجيا وفي تنظيم الانتاج والتصنيع والثورة في مجال النقل والمواصلات وقيام السوق العالمية.. الخ. وقد لعب تطور الأشكال الرأسمالية للاقتصاد وظهور الحضارة الصناعية دوراً مهماً في هذه العملية[٨]. ومن المميزات الأساسية للاقتصاد العالمي النقص في القدرة في التنظيم الذاتي وكذلك السعي نحو الزيادة وليس التوازن[٩].

ويُظهر النظام الاقتصادي العالمي في الواقع بعض صفات النظام الهادف غير أنه لا يمتلك الآلية التنظيمية - التنسيقية الملائمة التي من شأنها ضمان - على سبيل المثال - تقسيم أكثر عدلاً على النطاق العالمي للخيرات المادية، إن تحليل هذا النظام في وضعه الأفقي - بغض النظر عن التقسيم إلى دول أو مجموعات - يقود إلى نتيجة هي أن ما يميز الاقتصاد العالمي هو عدم التوازن. وأكثر من ذلك فان آلية الاقتصاد العالمي تعمق من عدم التوازن أي توسع من التفاوت في التطور الاقتصادي للدول والأقاليم. وعلى اساس من هذه الخلفية تزداد التعارضات التي من شأنها ان تحد من تكامل الاقتصاد العالمي. وبالارتباط مع هذه الحالة فقد ظهرت الحاجة إلى تحريك وتقوية الآليات التي من شأنها أن تحد

٥ - حول هذا الموضوع أنظر:
Maghroori, B. Ramberg (ed.): Globalism Vs. Realism. International Relations — Third Debate. Boulder (Colorado) 1982.

٦ - من الداعين إلى هذا المدخل هما العالمان الأميركيان:
Robert Koehane, N. Nye: Power and Interdependance: World Politics in Transition, Boston, 1977.

٧ - لودفيك كشيفينسكي: كتابات مختارة، وارشو ١٩٧٨ ص ٨٨١. (النص باللغة البولونية).

٨ - من أجل تفاصيل أكثر أنظر:
ب. كامينسكي و م. اوكولسكي: النظام الاقتصادي العالمي، مشكلات التطور، وارسو، ١٩٧٨.

٩ - ي. كلير: التوازن وعدم التوازن في الاقتصاد العالمي، وارسو، ١٩٨٣، ص ١٧، ٢٠.

من تعميق حالة عدم التوازن . إن مبدأ التدخل يجد في هذا المكان تبريراً كافياً .

الروابط الثقافية : لا شك أن هناك بعض الروابط العالمية ذات الصفة الثقافية على الرغم من صعوبة الحديث عن ثقافة عالمية واحدة. فكما في الماضي فانه في الحاضر ايضاً توجد على الكرة الأرضية ثقافات متعددة تختلف عن بعضها ليس فقط بالأسلوب بل ونظام القيم. وكثيراً ما تربط بعضها ببعض درجات معينة من القربى، وكثيراً ما ترتبط ببعضها بعلاقات غير أنه من الصعب رؤية ثقافة عالمية .

ومن الجدير بالملاحظة أنه في التطور التاريخي للبشرية، أعلنت عدد من الثقافات عن طموحها للعالمية. فمن التاريخ القديم يمكن تعداد الرؤية الرومانية Mundum Romanum . والفكرة الصينية «الدولة الوسطى» أو الفكرة الاسلامية. وفي العصور الحديثة فان محاولات التوسع الثقافي العالمي جرت من قبل الفرنسيين تحت شعار Missio Civilisatrice وكذلك الانكليز والأميركان مستغلين لهذا الغرض نظرية الأنكلوسكسون Anqlosaxon Hertitage . وبعد الحرب العالمية الثانية ظهر عدد من المفاهيم الجديدة تدعو إلى ثقافة عالمية من شأنها أن تقوم ليس على أساس املاء ثقافة قومية واحدة بل عن اتحاد عدد من الثقافات. إن العملية هذه ـ وحسب هذه النظرية ـ من شأنها أن تقود إلى مشاعية حقيقية مدفوعة (أعني العملية) اليوم بزيادة الاعتماد الدولي المتبادل، والضعف التدريجي للتعصب القومي وكذلك الزيادة السريعة في تطور وسائل الاتصال الجماهيري .

ومن بين المفاهيم المعروفة لهذه المحاولات يمكن درج نظرية مارشال ماكسلوهان «القرية العالمية» وفكرة كوينسي رايت «الثقافة المشتركة» ومفهوم وليم كوبلين «الثقافة العالمية» وغيرها. إن الكاتب الأخير يحدد حتى الهيكل الداخلي لهذه الثقافة العالمية، واراد لها أن تتكون من مجموعات القيم الثلاث التالية: الثقافة التكنولوجية، الثقافة السياسية الدولية والثقافة الاجتماعية العالمية التي تضم الأيدولوجية، المبادىء الأخلاقية، المؤسسات والقانون وما شابه[10] .

ليس من الصحيح في الوقت الراهن نفي الثنائية في الثقافة العالمية. إن الروابط الثقافية التي تظهر اليوم على النطاق العالمي ليس بامكانها القضاء على العديد من المتضادات في هذا المجال .

يشار خاصة إلى التضاد القوي الذي يفصل قيم الثقافات الشرقية (أولوية الحدس والتأمل «الروحي والديني») وقيم الحضارة الغربية (أولوية العقلانية والدينامية) .

ويظل ثمة سؤال ينتظر الجواب : هل من المطلوب أن تتجانس الثقافات القومية المختلفة وأن تتكامل في ثقافة عالمية واحدة ؟ إذا أعتبرنا أن حديث الثقافات ـ نظراً لقيمة مثل هذه النشاطات الطموحة والحية عاملاً مهماً للتطور الاجتماعي فمن الصعوبة الاعتراف بان هذه العملية مطلوبة .

الروابط السياسية : ساعد توسع العلاقات المتبادلة بين الدول ومجموعات الدول وزيادة وظائف واتساع المنظمات الدولية وتبلور الأشكال فوق الوطنية (كالأقليمية) للتكامل السياسي، ساعد كل ذلك على التطور العالمي للروابط السياسية، ومن الطبيعي أن هذه العملية تصطدم ببعض الحدود الجامدة في الوقت الراهن ـ ومن الضروري أن نتذكر أن ما يميز المجتمع الدولي المعاصر هو الانقسام السياسي الواضح. وجدير هنا ـ خاصة ـ الأخذ بالحسبان التقسيم الأساسي للعالم إلى نظامين عالميين : الرأسمالي والاشتراكي. وعدا هذا الانقسام الأساسي هناك أيضاً صراعات أيديولوجية (دينية مثلاً) والمصالح المتعارضة وحواجز قومية وثقافية تحد من التكامل السياسي العالمي .

إن هذه الظروف تجعل بدأ فرضية قيام «الدول العالمية» أو أي مؤسسة سلطوية ذات سيادة تعمل على المستوى العالمي أمراً غير واقعي[11] .

ففي المنظمات الدولية لا توجد أية منظمة حتى ولا الأمم المتحدة من هي في وضع يمكنها من فرض قرارات أو حلول معينة على الدول ذلك أنها لا تملك سلطة ولا جهاز تنفيذ كتلك التي

١٠ ـ أنظر مقال ك. لشيشتوفيك : «الاتصالات الدولية، الاعلام، الثقافة، وسائل الاتصال الجماهيري»، مجلة الشؤون الدولية، وارشو، ١٩٨٣، ع ، ص ١٦٢ ـ ١٦٧ .

١١ ـ في رده على سؤال أحد طلابه : متى سيكون بالأمكان قيام الدولة العالمية ؟ رد البروفيسور والتر بيرنس من جامعة يال الأميركية بصورة مختصرة وذات مغزى «بعد قيام دولة إسرابيا بقليل». كان ذلك عام ١٩٥٧ . مجلة «الشؤون الدولية، وارسو، العدد ١، ١٩٨٥، ص ١١٠ .

تملكها أية منظمة حكومية. إن مهمة منظمة الأمم المتحدة التي تعتبر أهم منظمة عالمية، يمكن أن تكون في أحسن الأحوال عاملاً مساعداً في توسيع مجال المصالح المتقاربة للدول الأعضاء وتسعى وراء حلول من شأنها خدمة هذه المصالح على أفضل شكل وفي نفس الوقت تكون مقبولة للمجموعات الرئيسية في هذه المنظمة(١٢).

إن تفاقم مختلف أشكال عدم التوازن على النطاق العالمي يتطلب في المستقبل تعزيزاً مهماً للروابط السياسية العالمية إذ بدون ذلك لا يمكن التدخل الناجح في آلية النظام العالمي. ومن الممكن أن نتوقع أن العملية هذه سترتبط بتبلور شكل جديد نوعياً للنظام العالمي، والذي يمكن تسميته بالنظام العالمي المتعاون.

نستطيع من الناحية النظرية أن نضع لكل جماعة ـ ومنها أيضاً المجتمع العالمي ـ أربعة مفاهيم أنموذجية للنظام الاجتماعي:

١ ـ نظام «العروض الجماعية» حيث تعتمد الحياة الاجتماعية على الانسجام وتكون منظمة بواسطة المثل والمباديء التقليدية (يظهر هنا غياب تداخل القرارات وتنسيق النشاطات).

٢ ـ نظام تعددية المراكز حيث يمكن فيه تحقيق التوازن الاجتماعي تلقائياً بفضل «القوانين الطبيعية» للتفاعل، ونتيجة القرارات غير المتسقة (على أي حال هنا تحترم بعض القواعد العامة للعبة).

٣ ـ نظام المركز الواحد حيث تنظم الحياة الاجتماعية بمساعدة القرارات المتخذة والمراقبة من قبل مركز سلطوي واحد.

٤ ـ نظام الاتفاقات حيث التدخل المتعدد المراكز يؤدي إلى نشاطات منسقة للجماعة على نطاق كامل وهو ما يسمى (بالنشاطات المنظمة)(١٣).

إن النموذج الأول يفترض غياب النشاطات المتبادلة بين أعضاء المجتمع الدولي وهذا أمر مبالغ فيه تاريخياً وما عاد قائماً. إن تدويل مختلف مجالات الحياة الاجتماعية وتصاعد الأعتماد الدولي أدى إلى أن يصبح الرجوع إلى مثل هذا النظام اليوم أمراً بعيد الاحتمال.

أما النموذج الثاني فهو الأكثر صدقاً في عكس ما كان سائداً في العالم حتى وقت قريب من نظرة لموضوع الأشكال المطلوبة للنظام العالمي. خاصة ان هذا النوع من النظام يشكل مثالية المبدأ الليبرالي التي تجعل من مبدأ التطور العفوي على رأس القائمة. وبالنسبة إلى المشكلات العالمية مباشرة فان العديد من ممثلي التيار المحافظ الجديد الأمريكي على سبيل المثال يعتقدون بانه يمكن التغلب عليها عن طريق توسيع آليات السوق حسب فضلاً عن زيادة المنافسة الحرة على المستوى العالمي(١٤). وفي الوقت ذاته فان التجربة التاريخية ترينا أن استخدام هذه المبادىء يقود إلى تعميق مختلف أشكال عدم التوازن في النظام العالمي. كما تظهر الفوضى، وعليه فان هذا النموذج للنظام الدولي بعيد وغير ملائم للتطور البشري في المرحلة الحالية. أما النموذج الثالث للنظام العالمي فهو قريب جداً من فكرة الحكومة العالمية. وكانت حيوية جداً وخاصة في أثناء قيام عصبة الأمم. لقد كان العديد من المؤسسين والآباء الروحيين لهذه المنظمة ومن بينهم ودرو ولسن رئيس الولايات المتحدة الأميركية، يرون فيها نواة الحكومة أو البرلمان العالمي. إن الأفكار المثالية اليوم هي أقل بكثير تجاه منظمة الأمم المتحدة. حيث يسود شك واقعي فيما يخص إمكانية قيام سلطة مركزية ذات أبعاد عالمية في المستقبل المنظور. فالمركز الواحد للنظام العالمي على الرغم من كونه يستطيع أن يضمن أفضل الظروف للتغلب على المشكلات العالميةالحالية إلا أن نقصاً أساسياً يعتوره فهو غير واقعي اليوم. وأخيراً... فان المفهوم الرابع للنظام الاجتماعي هو ـ كما نعتقد ـ الأكثر إثارة للاهتمام من وجهة نظر البحث الجاري حالياً عن اسلوب لأقامة علاقات عالمية. إن حل أهم المشكلات العالمية ممكن اليوم عن طريق الانسجام بين تعددية مراكز الحياة الدولية والتدخل الفوقي العقلاني والمخطط حسب. ونستطيع الاقتراب من تلك الأفكار عن طريق هذا الشكل من النظام العالمي الذي يعتمد على شبكة من الاتفاقات المحددة طويلة الأمد بين الدول وكذلك مجموعات الدول. فعلى المستوى السياسي ـ العسكري فان نموذج هذه الأتفاقية يمكن أن يكون إقامة نظام عالمي للأمن الجماعي، تحت

---

١٢ ـ أنظر ف. مورافيتسكي: الأمم المتحدة: الأهداف والواقع، وارسو، ١٩٧٠ ص ٢٠. وكذلك ف. آنيو: السياسة الاجتماعية لمنظمة الأمم المتحدة: مجلة «الشؤون الدولية» مصدر سابق، ع٣، ١٩٨٢.

١٣ ـ س. اوسوفيسكي: حول خواص العلوم الاجتماعية، وارسو، ١٩٨٣، ص ٨٠ ـ ١٠٥.

١٤ ـ أنظر اراء واحداً من ممثلي التيار المحافظ الجديد الأميركي على سبيل المثال:
George Gilder: Wealth and Poverty, New York, 1981.

إشراف منظمة دولية عامة أو بدون إشراكها .

وعلى المستوى الاجتماعي ـ الاقتصادي يمكن عقد شبكة من الاتفاقات العالمية الشاملة، التي من شأنها حل مشكلات مثل أزمة البيئة والفجوة المتسعة في التطور التكنولوجي التي تفصل بين الدول ضعيفة التطور والدول المتقدمة وما شابه ذلك، إن عقد مثل هذه الاتفاقات من شأنه أن يؤدي إلى تحقيق العديد من الفرضيات المعلنة اليوم من قبل الدعاة إلى فكرة النظام الاقتصادي العالمي الجديد، والنظام الاعلامي العالمي الجديد وغيرها من مفاهيم إعادة بناء النظام العالمي المعاصر. لقد أطلق على النظام العالمي الذي يراد أن يتشكل على أساس من المبادىء السابقة النظام التعاوني Synergistic حيث أن جوهره الأساسي هو التعاون العقلاني والمنظم للدول ومجموعات الدول ويهدف إلى التغلب على المشاكل العالمية القائمة[١٥]. ولأقامة مثل هذا النظام تلعب القرارات ذات الصفة السياسية ـ القانونية دوراً أساسياً مثل العمل على تطوير ما يسمى بحقوق التضامن عن طريق المفاوضات العالمية للاتفاقات المتعددة الأطراف. وبشأن هذه الحقوق أن تعترف بأولوية المجتمع البشري ككل. وقائمة هذه الحقوق تتضمن : الحق في التطور، الحق في السلام، الحق في البيئة، حق التملك المشترك للارث البشري وحق الاتصال وما شابه[١٦].

إن النشاطات الموجهة من أجل التغييرات السياسية ـ القانونية يجب أن ترافقها تغييرات ذات مساس بالوعي. وهذه الوحدة تعكس الاعتماد الجدلي للعنصر الأيجابي والسلبي في عملية تشكيل النظام التعاوني الدولي. إن تطور العقل إلى مستويات وحدة النوع البشري أمر لا بد منه .

ويمكن عملياً القول ان المصالح القومية والوطنية (حيث الأنظمة المختلفة التي تجزيء العالم المعاصر) تتغلب بوضوح في الوعي الاجتماعي على المصالح العالمية لمجموع البشرية. غير أنه يمكن أن نلاحظ من خلال التطور التاريخي بعض عمليات التغيير الذي يعتمد توسع الجماعة تدريجياً. ففي المراحل الأولى من تطور النوع البشري كان الانسان يفكر بنفسه حسب، ثم وسع من انتمائه بوعيه بالانتماء إلى العائلة، بعد ذلك جاء الوعي بالانتماء إلى عشيرة ثم إلى قبيلة وفي النهاية إلى شعب ودولة. وبناء على ذلك فليس هناك أسس للادعاء أنه لن يكون في المستقبل تطور يشعر فيه الانسان أن المبدأ الأساسي لانتمائه هو الانتماء إلى النوع، إن هذه العملية لا يمكن أن تُسرع بطريقة اصطناعية. إذ أن ذلك قد يؤدي إلى زيادة حدة مختلف الصراعات القومية والأيديولوجية غير أنه من المفيد ملاحظة هذه الآفاق التاريخية .

إن تزايد الشعور بالخطر يكمن وراء هذه التحولات في الوعي العالمي ـ كما نعتقد ـ وهو ذاته الذي كان وراء القحولات في المراحل السابقة للعملية المذكورة ـ ولكنه في هذه المرة يظهر ليس على مستوى العائلة أو الشعب بل هو قبل كل شيء على نطاق البشرية جمعاء. إن الشعور الجماعي هو عادة نتيجة لحجم المخاطر. وهكذا فكما أن الصراعات الطبقية ليست قادرة على إنهاء الوحدة القومية كذلك فان الصراع بين محاور الدول ذات الأنظمة المختلفة هو الآخر غير قادر على الغاء الوحدة العالمية. وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هو : حول أي القيم العامة يمكن للمجتمع الدولي أن يتعاضد في البحث عن نظام عالمي متعاون[١٧]. فكما هو معروف فان كل نظام اجتماعي ومنها النظام العالمي أيضاً يفرز ضرورتان رئيسيتان : ضرورة الاستمرار وضرورة التطور. فاذا كانت الضرورة الأولى ترتبط على المستوى الدولي بتحقيق مُثلٍ كالسلام والأمن السياسيين فإن الثانية تتلائم وقيم مثل العدالة في العلاقات الاقتصادية الدولية، ديمقراطية المبادىء التي تحكم العلاقات بين الدول، الرفاهية المادية للمجتمعات، الانسجام في علاقات الانسان بالطبيعة، الحق في الحصول على الموارد الطبيعية والتكنولوجية والعلمية وما شابه ذلك .

١٥ ـ لقد عُرف اصطلاح Synergistic بأنه «التعاون، تعاون العناصر، هو أكثر فعالية من مجموع نشاطهم كل على حده». أنظر ف. كوباليتسكي : قاموس الاصطلاحات والجمل الأجنبية، وارسو ١٩٨٣ ص ٤٠٩ .

١٦ ـ من أجل تفاصيل أكثر حول «حقوق التضامن» أنظر :
ك. دجفيتسكي : «الجيل الثالث لحقوق الأنسان» مجلة الشؤون الدولية. مصدر سابق. ١٩٨٣ العدد ١٠ .

١٧ ـ يقول الكاتب البولوني يوزيف بايستكا أن جدول الأهداف المشتركة لكامل المجتمع العالمي يتضمن أربعة عناصر أساسية : ١ ـ الحفاظ على السلام العالمي. ٢ ـ القضاء على التفاوت الاجتماعي ـ الاقتصادي المخيف على النطاق العالمي. ٣ ـ الحفاظ على التوازن بين الانسان والبيئة. ٤ ـ إقامة نظام أوسع وأكثر عدالة في العلاقات الاقتصادية الدولية. أنظر
ي. بايستكا : اسلوب اداء الاقتصاد الاشتراكي، شروط التطور، وارسو ١٩٧٩ ص ٢٨ ـ ٢٩ .

إن القيم التي أشرنا اليها وبالرغم من التفسيرات المختلفة، تتصف عامة بانها فوق أشكال الأنظمة[18]. إن الاختلافات الأيديولوجية تظهر بوضوح على مستوى تحديد طرق وأساليب تحقيق هذه القيم حسب. فعلى سبيل المثال، فان من الصفات الطبيعية للنظام الرأسمالي هي العفوية والأحادية والتطور غير المتوازن والسيادة الواضحة للربح على عمليات الانتاج وفي الوقت نفسه فان واحدة من المسائل الحساسة تماماً لتحقيق القيم مارة الذكر وكذلك من أجل فض المشكلات العالمية هي أولوية المصالح طويلة الأمد والتي تتوائم والبشرية جمعاء على المصالح القصيرة الأمد والتي تحمل، عادة، صفة ضيقة وأنانية..

أما المتطلبات الرئيسية الأخرى لتحقيق هذا الهدف فهي قبول النشاطات الواعية والمخططة تجاه العمليات الاجتماعية والاعتراف بعلوية عادات التوازن الديناميكي على عادات التطور الكمي. إن التطور البشري يجب أن يضمن توازن ملائم بين الانسان والآلات التي يستخدمها والبيئة الطبيعية والاجتماعية التي يعيش في كنفها. إن هذا يدعو إلى الاعتقاد بأنه قد يصبح اشباع الحاجات الاجتماعية بشكل كامل وشامل تحت هذا الاعتبار هدف رئيسي لتطور البشرية الشامل.

١٨ ـ إن هناك قبول عام من لدن المشتركين ـ ومنذ عشر سنوات ـ في البرنامج العالمي للبحث حول «أشكال النظام العالمي» لأربعة من القيم الرئيسية للنظام العالمي هي :ـ ١ ـ السلام. ٢ ـ الرفاهية الاقتصادية. ٣ ـ العدالة الاجتماعية. ٤ ـ توازن البيئة. أنظر
R. A. FALK : A Study of Future Worlds, Boston, 1975, pp.11-30.

بحوث التاريخ
العربي الاسلامي

المخابرات الأيوبية في مواجهة الصليبيين

أ. د.صلاح الدين البحيري
جامعة القاهرة

لقد ذكرنا في بحث سابق[1] أن العصر الأيوبي كان قد امتاز بالحركة التاريخية المتجددة بسبب الصراع بين الشرق الاسلامي والغرب الأوربي الذي خرجت منه الحملات الصليبية التي كانت وما تزال ميدانا لاهتمام الباحثين. وكان من الطبيعي - مع وجود هذا الصراع - أن ينتفض الجسد الاسلامي انتفاضات متتابعة تهدف إلى لفظ هذه الأجسام الغريبة الصليبية التي زرعت فيه والتي ما كانت خلاياه وأنسجته لتتقبل الوجود الأبدي لهذه الكيانات الفرنجية التي فرضت عليه ولذلك تميز هذا العصر بالتاريخ المتحرك تبعا لحركة الصراع بين الجانبين. ومن خلال هذه الحركة وبسببها ازداد الابتكار الفكري الانساني المتجدد خصوبة، فظهرت الحلول للمشاكل التي كانت تتجدد بفعل الحرب والحرب المضادة من الجانبين.

والذي يدرس الجيش الاسلامي الأيوبي سرعان ما يكتشف أن بناءه البشري وتركيبته العسكرية والخدمات المختلفة المتعلقة به قد صيغت بطريقة مبتكرة وحديثة على عصره ذاته، وتعكس هذه الطريقة تفاعل الذهن البشري الاسلامي مع الأحداث المتجددة بفعل الحروب، مما أدى الى التوصل إلى حلول حديثة منبثقة من ميدان المشاكل الفعلية. إذ أن الحروب ولو أنها تؤدي إلى الدمار، إلا أنها تدفع الأنسان إلى الابتكار في كافة ميادين حياته التي يكرسها - بشريا واقتصاديا وعلميا - لخدمة هذه الحروب وذلك من أجل التفوق والغلبة على الخصوم[2]. ولعل ميدان جمع المعلومات عن الأعداء اعتبر - على مر التاريخ - من أهم شواغل ذهن مَنْ يقوم بالحرب، وهذا أمر طبيعي مع وجود جيش نظامي حديث له أهداف محددة مثل الجيش الاسلامي المعد لمواجهة الصليبيين. إذ كيف يستطيع هذا الجيش أن يقوم بتحقيق أهدافه دون أن تكون تحت تصرفه كل المعلومات الفعالة في كافة الميادين عن أعدائه ؟ أي لا بد من قيام كيان متخصص في امداد الجيش بالمعلومات اللازمة عن الأعداء في وقت السلم كما في وقت الحرب، وطبيعي انني لا أعني بهذا الكيان إدارة للمخابرات بالمعنى الحديث للمصطلح من ناحية الشكل بقدر أنني أقصد جوهر الموضوع من حيث طبيعة العمل وأهدافه، فلست أجهل بطبيعة الحال أن الوسائل التي يجدها الانسان المعاصر تحت تصرفه والتي يستخدمها في جمع المعلومات، وسائل متقدمة جدا تعكس لنا آخر ما تفتق عنه ذهن البشر في انتاج الاجهزة الالكترونية الدقيقة التي تفيد في هذا المجال الهام. ولكني أقول أن الاختلاف هنا يخص ادوات المهمة لا جوهرها، وعلى ذلك علينا أن ننسى الشكل الحديث لهذه الادارة، ونهتم بالاستمرارية التاريخية لجوهر مهام هذه الادارة التي يمكن تلخيصها في اهتمام الانسان بجمع أقصى قدر ممكن من المعلومات عن اعدائه حتى يكون في وضع أفضل عند حدوث المواجهة العسكرية معه.

والواقع أنه من السهولة ادراك أن هذه المشكلة قد شغلت ذهن الناس منذ ظهور أول بوادر للعداوة بين المجتمعات التي عاشت فوق كوكب الأرض، وهذا أمر طبيعي، فشعور الأنسان بعدم

---

١ - أنظر : صلاح الدين البحيري، الأعداد المعنوي للحرب الصليبية المضادة، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الحادي والعشرون ١٩٧٤م.

٢ - صلاح الدين البحيري، ديوان الجيش في الدولة الأيوبية، عدد الموسم الثقافي للجمعية التاريخية المصرية، القاهرة ١٩٧٨، ص ١٦٩، وانظر كذلك :
Piero Pieri, Dimensions de l'historie militaire, in Annales (économie, sociétés,civilisations) 18e année no4, juillet-août 1963.

الأمان، وانشغال باله بالحفاظ على مصالحه الحيوية ضد أطماع الغير، أو حتى اهتمامه بتحقيق طموحاته الشخصية مثل القبلية ثم أخيرا القومية، دفعت الانسان، فالقبيلة فالمجتمع القومي أخيرا إلى اتخاذ الاجراءات الوقائية التي تكفل الحاق الفشل بخطط خصومه، وكذلك تؤكد استغلال نقاط الضعف فيه. ونحن نعلم أنه حتى على النطاق الفردي حيث تتعارض وتتصارع المصالح بين البعض والبعض الآخر، نجد الانسان يصبح بالضرورة جاسوسا طبيعيا لأنه يهتم بجمع المعلومات عن أعدائه حتى يفسد خططهم ويحقق أهدافه الخاصة، وعلى ذلك هناك اعتقاد بأن الانسان لديه استعداد طبيعي ولد معه ألا وهو الرغبة الجامحة في معرفة كل ما يمت بصلة ـ سواء من قريب أو من بعيد ـ بأعدائه، وتظهر هذه الحقيقة الطبيعية البشرية منذ العصور التاريخية القديمة، وكانت الوسائل التقنية التي استخدمها الانسان في جمع المعلومات تتناسب بطبيعة الحال مع التطور الحضاري والتقني الذي تحقق في العصر الذي عاش فيه.

ولسنا بحاجة إلى القول بأنه لابد لأية دولة أن تقيم إدارة للجاسوسية، وللجاسوسية المضادة من أجل تأمين الأمن الداخلي والخارجي لهذه الدولة. واذا كان هناك قول قانوني مأثور باللغة اللاتينية يقول: "Ubi Societas ibi Jus" أي «حيث يوجد المجتمع يوجد القانون»، فنحن نقول كذلك «حيث توجد دولة توجد إدارة مخابرات».

واذا ما طبقنا هذه القاعدة على الدول الاسلامية، لوجدنا انها لا تمثل استثناءً وخروجاً عنها سواء كان ذلك خاصاً بجمع المعلومات عن أعدائها أو عن رعاياها. والذي يبحث في المصادر التاريخية الاسلامية سيجد شواهد كثيرة تدل على مدى اهتمام رجالات الدول الاسلامية بتحقيق الأمن لدولهم في الداخل وفي الخارج على حد سواء. وهذا الهدف كان دائما السبب في حتمية قيام إدارة لجمع المعلومات منظمة تنظيماً دقيقاً من أجل إحاطة الحاكم علماً أولاً بأول بكل المتجددات التي تتعلق بأعدائه حتى يستطيع أن يتخذ ـ على ضوء هذه المعلومات ـ القرارات والاجراءات المناسبة في الوقت المناسب. وكان من الطبيعي أن يعتمد قادة هذا الجهاز على الاستغلال الأمثل بقدر الامكان للغريزة الطبيعية التي يتحلى بها الانسان ونقصد بها الذكاء الفطري لدى الأفراد الذين يستخدمون في هذا المجال.

ولعل هذا الاهتمام يتضح بأجلى ما يكون في ان كتبا اسلامية عديدة ألفت عن كيفية الادارة السياسية والعسكرية للدولة قد احتوت على فصول خصصها مؤلفوها للحديث عن أعمال الجاسوسية. والذي يدرس هذه الفصول يتبين بوضوح كيف أن العرب والمسلمين عموما قد اهتموا منذ فجر الاسلام بهذا المجال الهام. ونذكر في هذا الخصوص اسم كتاب ذكره ابن النديم في كتاب «الفهرست»، وهو كتاب ترجم عن الفارسية تحت عنوان واضح الموضوع هو «كتاب أدب الحروب وفتح الحصون والمدائن، وتربيص الكمين وتوجيه الجواسيس والطلائع والسرايا ووضع المسالح، ترجمته مما عمل للأردشير بن بابك»[٣]. وبذلك نرى أن الاهتمام بمجالات الجاسوسية من نصب الكمائن وبث الجواسيس وارسال الطلائع والسرايا قد تبوأ مكانة بارزة في اهتمامات المسلمين منذ فجر الاسلام.

والمعروف أن نظم الدولة الأيوبية قد استقت معظم رحيقها مما كان معمولا به في الدولة السلجوقية، تلك الدولة التي اثبتت الشواهد التاريخية على أنها نظمت شبكة للجاسوسية على قدر كبير من الدقة وسعة المجال، وهذا لا يدهشنا اذا ما تذكرنا ان الذي وضع جوهر هذا التنظيم هو الوزير السلجوقي العبقري نظام الملك الذي ألف كتابا عظيما في السياسة والحكم هو كتاب «سياستنامه» الذي وضعه برسم السلطان السلجوقي ملك شاه، فنرى هذه العقلية الفذة قد خصصت الفصل العاشر من كتابه الذي ألفه باللغة الفارسية، للحديث بفصاحة منقطعة النظير عن الوسائل والاجراءات التي ينبغي أن يتخذها السلطان من أجل أن تكون تحت تصرفه كل المعلومات عن رعاياه وعن جيشه وعن جميع موظفي الدولة. فيقول نظام الملك في هذا الخصوص أنه ينبغي على الدولة أن «تتخذ كل الوسائل الممكنة للحصول على معلومات عن رعاياها وعن جنودها، وعن كل ما يجري قريبا منها أو بعيدا عنها، وعليها أن تعرف كل شيء يحدث صغر أو كبر. واذا لم يفعل السلطان ذلك سيكون عارا عليه ودليلا على أهماله،

٣ ـ (1) CF. M. Reinaud, De l'art militaire chez les Arabes au Moyen Age, P.5, dans J. A.; 1848.

وعلى النقص في عدالته. وسوف يقال عنه أنه واحد من اثنين: اما ان الملك يعلم أو لا يعلم بما يحدث في مملكته من اضطرابات ومظالم. فاذا كان قد احيط علما بها ولم يقم ببذل جهد من أجل القضاء عليها وازالتها، فسينظر اليه على انه مثيل للطغاة الذين تسببوا في هذه الحالة وانه يؤيد الطغيان، واذا لم يكن الملك يعلم بذلك، فهو بهذا يعطي دليلا على أهماله وجهله» ويواصل نظام الملك قائلا: «فالحكم عليه ـ في كلتا الحالتين ـ ليس في صالحه» ويختتم الوزير السلجوقي فصله هذا بحقيقة لابد منها بالنسبة لأية دولة وهي أن قيام الأمير أو الحاكم بتجنيد عملاء يقومون بأعمال الشرطة والتجسس لحسابه وحساب الدولة، يعتبر دليلا على توفر روح العدالة واليقظة والبصيرة. وسوف يستطيع الأمير ـ اذا ما توفر له ذلك ـ جعل مملكته تنعم بالازدهار والرخاء»[٤].

ولكن ما هي المهام التي كان ينبغي أن يقوم بتنفيذها الجواسيس طبقا لفكر الوزير السلجوقي نظام الملك؟ لقد رد على هذا التساؤل بدقة بالغة في الفصل الثالث عشر من كتابه سالف الذكر حيث قال ان من واجب الجواسيس أن يجوبوا باستمرار في الطرق الموصلة أقاليم المملكة بعضها ببعض، وعليهم أن يكونوا متنكرين في زي التجار أو الرحالة أو الصوفية أو حتى الدجالين والدراويش. ويجب عليهم أن يكتبوا تقاريرا عن كل ما يسمعون عنه ويرسلوها الى السلطان من أجل ألا يجهل أي شيء يحدث هنا أو هناك، وذلك بهدف اتخاذ الاجراءات الفورية المناسبة طبقا لما يرد اليه من معلومات، لأنه كثيرا ما اظهر ان هناك ولاة ومقطعين وموظفين وقادة عسكريين، يميلون نحو المعارضة والثورة، ووضعوا خططا ذات نوايا سيئة تجاه الحاكم الذي يجب أن يقوم ـ بمجرد وصول الجاسوس الذي يعلمه بهذه الأنباء السيئة ـ بركوب حصانه وقيادة قواته لمباغتة الثوار والقبض عليهم والقضاء عليهم نهائيا[٥].

واذا كان نظام الملك قد اهتم فيما سبق بالأمن الداخلي للمملكة، فانه لم يغفل عن الاجراءات الواجب اتخاذها تجاه الأخطار التي قد تحدق بها من الخارج. فمن رأيه انه ينبغي على السلطان أن يبث الجواسيس في خارج مملكته بهدف جمع كل المعلومات التي تجعله على دراية وعلم مسبق بكل المشروعات العدوانية التي ينوي أعداؤه تنفيذها ضده. وترتيبا على ذلك يكون السلطان ـ اذا ماحاول أي ملك شن هجوم ضد مملكته ـ قد اتخذ أهبته مسبقا لصد هذا الهجوم، على قول نظام الملك.

وفي الحق ان من يطالع كتاب سياستنامه خصوصا الفصول التي تتعلق بأعمال الجاسوسية وأساليبها سيتبين كيف ان الوزير السلجوقي قد اهتم اهتماما كبيرا بتنظيم «إدارة المخابرات السلجوقية». وهذا الاهتمام يتسق بطبيعة الأحوال مع منطق الظروف التي كانت تحيط بامبراطورية لها نظمها المعقدة بسبب اتساع رقعة البلاد التي كانت تحكمها.

ولسنا بحاجة هنا إلى تأكيد الحقيقة التاريخية القائلة بأن الزنكيين قد طبقوا نفس النظم السلجوقية، وذلك لأنهم كانوا يدورون في فلك الامبراطورية السلجوقية، ولدينا من الشواهد التاريخية التي تدل فعلا على أنهم طبقوا هذه النظم تطبيقا عمليا في الأقاليم التي خضعت لهم، ويذكر المؤرخ ابن الأثير في هذا الخصوص أن عماد الدين زنكي «كان له في كل بلد من يطالعه بالأخبار»[٦] وعلى ذلك نراه وقد طبق مبكرا مبدأ نظام الملك الخاص بأن يرسل الحاكم جواسيسه إلى جميع أقاليم مملكته. ويوضح لنا هذا المؤرخ أيضا كيف أن هذا الأتابك كان يهتم اهتماما بالغا بكل المعلومات حتى ولو كانت تخص الحياة الخاصة جدا لولاته على الأقاليم وانه كان ـ من أجل تحقيق هذا الهدف ـ ينفق الأموال الطائلة على جواسيسه[٧]. ويذكر ابن الأثير في معرض حديثه هذا أن عماد الدين كان يهتم بالحصول على أخبار السلاطين في قصورهم فيقول: «فمن آرائه الصائبة أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، ولا سيما دركاه السلاطين (أي قصورهم)، وكان يخسر على ذلك المال الجزيل، وكان يطالع ويكتب اليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم، وهزل وجد وغير ذلك، فكان يصل اليه في كل يوم من عيونه عدة قاصدين». كما يذكر ابن الأثير أنه سمع والده يقول أن عماد الدين زنكي كان مع اشتغاله بالأمور الكليات من أمور الدولة ولا يهمل الاطلاع على

٤ ـ نظام الملك، سياسة نامه، نشر شيفر، باريس ١٨٩٣، ص ص ٥٧ ـ ٥٨ من النص الفارسي، ص ص ٨٧ ـ ٨٨ من الترجمة الفرنسية.

٥ ـ المرجع السابق، ص ١٠٣.

٦ ـ ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل، نشر طليمات، القاهرة ١٩٦٣ ص ٤٧.

٧ ـ نفسه ص ٧٨.

الصغير، وكان يقول : اذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً، ولذلك كان الجواسيس يوافونه بكل الأخبار ساعة بساعة، حتى ولو كان بعضها يبدو تافها.[8]

ولم يغفلت أعداء عماد الدين زنكي من مراقبة جواسيسه، إذ أن الشواهد التاريخية التي عثرنا عليها تعرفنا مدى الاهتمام الكبير الذي أبداه الزنكيون لمعرفة كل المعلومات الخاصة بالأعداء، خصوصا في وقت الحرب. فقد كان يهمهم - فعلا - معرفة الحركات المشبوهة التي يقوم بها الأعداء، والجهات التي ينوون قصدها وخططهم الحربية التي رسموها، وكذلك الأنواع المختلفة لأسلحتهم التي سيستعملونها وهذا هو السبب في أن الجواسيس الزنكيين كانوا ملتزمين تماما بتوفير هذه المعلومات الضرورية التي لعبت دورا هاما في مسار معاركهم مع الفرنجة، فمثلا عندما كان يقوم عماد الدين زنكي بالهجوم على الفرنج في حصن بارين (بعرين) سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م وكان ينوي الاستيلاء على هذا الحصن عنوة ولذلك نراه وقد رفض العرض الذي قدمه له الفرنجة المحاصرون في الحصن، والذين أرادوا تسليم الحصن صلحا. ولكن عماد الدين غيّر موقفه هذا حينما أرسل اليه جواسيسه معلومات مؤداها أن فرنج الساحل في طريقهم لنجدة ذويهم في بارين، وعلى ذلك نرى أن هذه المعلومات قد أدت إلى أن يلين عماد الدين من موقفه ويقبل في النهاية تسلم الحصن صلحا[9]. ونذكر أيضا انه كان للمعلومات التي حصل عليها عماد الدين في سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م، حينما كان يترقب اللحظة المناسبة لمهاجمة امارة الرها الصليبية، دور كبير في نجاح مخططه، إذ جاءته أخبار جواسيسه لتعرفه بأن الأمير الصليبي جوسلين الثاني قد خرج من امارته (بعد أن خالت عليه خدعة عماد الدين بأنه لا ينوي قصده) مع عساكره وذويه إلى بلاده الشامية، وخلو الرها ممن يحميها، قرر عماد الدين مهاجمة الرها على وجه السرعة انتهازا لهذه الفرصة واستطاع فعلا الاستيلاء على أول أمارة صليبية تسقط في أيدي المسلمين وذلك بفضل التقارير الزاخرة بالمعلومات التي أرسلها له على وجه السرعة جواسيسه عن تحركات عدوه، وكذلك بفضل مبادرته فورا في اتخاذ القرار المناسب طبقا لهذه المعلومات[10].

وكان طبيعيا أن يسير نور الدين محمود على نفس سياسة أبيه، فيبدي اهتماما بالغا بأعمال المخابرات وجمع المعلومات، فنجد أنه جعل لجيشه الذي أرسله لمهاجمة مصر في عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م تحت قيادة أسد الدين شيركوه، جواسيسه المتخصصين في جمع المعلومات على جيوش الفاطميين والفرنج، وكان النصر الذي حققه جيش نور الدين في موقعة البابين يدين بالفضل اساسا للمعلومات التي حصل عليها جواسيس شيركوه[11].

واذا ما كان السلاجقة والزنكيون قد طبقوا في الواقع العملي لحياتهم السياسية والعسكرية نصائح نظام الملك وارائه المضمنة في كتابه «سياستنامه»، فاننا نجد أن الأيوبيين قد تأثروا هم أيضا بهذه الأفكار النظامية العظيمة، ولكننا نود الاشارة هنا إلى انه كان هناك كتب أخرى ألفت خصوصا لسلاطين الأيوبيين تضم بين طياتها فصولا هامة عن الجاسوسية. ونذكر في هذا الصدد على سبيل المثال لا الحصر الكتاب الذي ألفه عبد الرحمن بن عبدالله الشيرزي للسلطان صلاح الدين حيث نجد أن المؤلف ضمن الفصل العاشر فقرة هامة جدا يحث فيها السلطان على بذل كل ما في وسعه من أجل أن تتجمع عنده كل المعلومات عن رعاياه وعن أعدائه، فيقول الشيرزي في هذا الخصوص : «. . . وكذلك ينبغي للملك أن يكون بلطفه وحذق جواسيسه وعيونه محيطا بمعرفة أحوال رعيته وقواده وولاة ثغوره وأعماله وحاشيته وجنده عارفا بخبر أعدائه ونظرائه عالما بما يعملون وما يأتمرون بواسطة العيون الثقاة»[12]. ونرى المؤلف كذلك في الفصل الرابع عشر الذي خصصه لأمور سياسة الجيش، يعتبر موضوع قيام السلطان بالحصول على كل المعلومات عن جيوش الأعداء بمثابة الواجب الحادي عشر من واجبات السلطان تجاه

---

٨ - ابن الأثير، نفس المرجع ص ٧٨، أنظر أيضاً : ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب نشر المرحوم د. جمال الدين الشيال، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٠٢؛ ابو شامه كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، نشر د. محمد حلمي أحمد جـ١، القسم الأول ص ١١٠ - ١١١، القاهرة ١٩٥٦م.

٩ - ابن الأثير، نفس المرجع ص٦١، ابن واصل، نفس المرجع ص ٧٢ - ٧٣.

١٠ - ابن الأثير، نفس المرجع ص ٦٧ - ٦٩، ابن واصل : نفس المرجع ص ٩٣ - ٩٤، ابو شامه، نفسه ص ٩٤ - ٩٥.

١١ - ابن الأثير، التاريخ الباهر، المذكور سابقا ص ١٣٢ - ١٣٣، حيث يقول : «وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه. . . وكان قد أرسل اليهم جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعُددهم وجدهم في طلبه، فعزم على لقائهم وقتالهم. . . . ».

١٢ - عبد الرحمن الشيزري، المنهج المسلوك في سياسة الملوك، القاهرة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، ص ٨٩.

جنوده»[١٣]. وفي كتاب آخر ألفه المرضي بن علي بن المرضي الطرسوسي لصلاح الدين ايضا نرى فصلا مخصصا لنفس الموضوع يقول فيه: «ويجب على المقدم أن يبث العيون في عسكر عدوه»[١٤]. وكذلك نجد أن الشيخ تقي الدين أبو الحسن الهروي (٦١١هـ / ١٢١٥م) في نصائحه التي كتبها في كتاب باسم أحد السلاطين أو الأمراء الأيوبيين (نلاحظ أنه لم يحدد شخصيته) لم يهمل الاهتمام بأمر المخابرات والتجسس لصالح أمن الدولة. فهوولو انه خصص لهذا الموضوع الفصل الثاني عشر الا اننا نلاحظ انه لم يتوقف قط عن الاشارة الى موضوع الجاسوسية واهميتها في فصول كتابه الاخرى. ويرى هذا الشيخ أنه «يجب على السلطان أن يكون له جواسيس قد عرف عنهم الثقة والدين والأمانة مقتنعين بما يفيض عليهم من انعامه ويصل اليهم من احسانه، ولا يحدثون انفسهم بطلب المناصب وحرص المكاسب فينشرهم في البلاد ويرسلهم على العباد شرقا وغربا وقربا ليطالعوه بالأخبار من جميع الأمصار لئلا ينكتم عنه حال ولا ينطوي عنه مقال وليضم الى ما يوردونه عليه ويرسلونه اليه التماس الأخبار من المسافرين والتجار وذلك لئلا يتم عليه زلل ولا يداخل الملك خلل ويسأل من الوارد والصادر والبادي والحاضر وليكتم أمره ويتجسس ويخف نفسه ويتجسس لتشمل الناس هيبته ويخافوا سطوته ويحذروا شره ولا يأمنوا مكره»[١٥].

وبعد أن ذكرنا هذه النماذج من النصائح التي كتبها رجالات الدولة وكتّابها لسلاطين وأمراء السلاجقة والزنكيين والأيوبيين يرى القارىء مدى التشابه الكبير بين الخطوط العريضة لسياسة المخابرات التي كان لابد من أن يطبقها هؤلاء الأمراء.

أما فيما يتعلق بالمخابرات الأيوبية فسوف يرى القارىء أنني لم أعتمد فقط على النصائح التي تضمنتها النظريات السياسية أو الفقهية في هذ الموضوع فهذا أمر يسير، ولكني انتهجت منهجا صعبا جدا في دراستي وهو انني درست هذا الأمر من خلال الحياة التطبيقية فعلا وليس من خلال الرؤى النظرية التي قدمت نماذجا لها فيما سبق، وسيلاحظ القارىء انني بذلت جهدا كبيرا من أجل تكوين تصور هيكلي للمخابرات الأيوبية وقت السلم كما في وقت الحرب وذلك من خلال المعلومات المتناثرة في المصادر المختلفة التي اضطررت الى مسحها مسحا شاملا لعلي أجد هنا أو هناك معلومة تساعدني على بناء هذا الهيكل التنظيمي للمخابرات الأيوبية. وذلك لأنني أوقن من خلال دراساتي لهذا العصر أنه كان عصرا خلاقا في ميدان النظم بصفة عامة والنظم العسكرية بصفة خاصة، وذلك لأن الحروب كان لها دائما ضغوطها الذهنية على فكر المسئولين الأيوبيين جعلتهم يستغلون القدرات الخلاقة الطبيعية لدى الأنسان من أجل ايجاد الحلول للمشاكل المختلفة التي كانت تثيرها معاركهم مع الأعداء.

وهذا هو السبب في انني أقول دائما انه لَدَيّ اعتقاد راسخ بان العصر الأيوبي كان عصرا مجددا في ميدان النظم العسكرية.

وفيما يتعلق بنظم المخابرات الأيوبية فنحن نميل إلى الاعتقاد، بناء على ما كشفنا عنه من معلومات ان هذه النظم - مثلها في ذلك مثل بقية النظم العسكرية - لم تخرج عن هذه القاعدة. ففي الحق، أن سياسة الحرب التي فرض على الايوبيين انتهاجها دفعتهم الى خلق «نظم دولة» أو ادارة تابعة للدولة تختص بالتجسس على الصليبيين. إذ أنه كان لابد على الأيوبيين - تحت وطأة ظروف هذه الحروب - ان يجتازوا مرحلة ان تكون سياسة الجاسوسية عندهم مجرد اتباع نصائح يكتبها بعض الوزراء أو الفقهاء إلى مرحلة اخرى تبلور فيها هيكل تنظيمي لهذه السياسة. فلم يعد الأمر بعد ذلك مجرد دعوة هذا الفقيه أو ذاك

١٣ - نفس المرجع ص ١٠٦.

١٤ - أنظر: Cl. CAHEN, Un traité d'Armurerie composé pour Saladin P.24, in B. E. O., Tome XII — 1947-1948.

ويلاحظ أن المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بدمشق قام بنشر وترجمة هذه المخطوطة عام ١٩٦٨، أنظر:

Antoine Boudot-Lamotte, Contribution à l'étude de l'archerie musulmane, I.F.D., Damas 1968.

١٥ - أنظر: Janine Sourdei-Thimine, Les Conseils du Sayh Al-Harawi à un prince ayyubide, in B.E.O., Tome XVII, 1961-1962, PP. 255-256.

وانظر كذلك صفحات ١٣، ١٤، ٢٣ من النص العربي من نفس المرجع. ويسرني أن ألفت النظر إلى أن أحد السوريين واسمه مطيع المرابط قد قام بعد ذلك بعشرة سنوات تقريبا بنشر كتاب «التذكرة الهروية» في دمشق عام ١٩٧٢ دون أن يذكر من قريب أو من بعيد إلى نشرة معهد الدراسات الشرقية الفرنسي بدمشق سنة ١٩٦١، وهذا شيء يدعو إلى الاستغراب، وقد رجع هذا المحقق السوري أن يكون المؤلف قد ألفه للملك الظاهر ابن صلاح الدين بحلب. أنظر: مطيع المرابط، التذكرة الهروية في الحيل الحربية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٢م.

لسؤاله عن نصيحته في هذه المجالات انما اصبح للدولة الأيوبية نظم عسكرية مستقرة ومحددة تجعلنا نعتقد فعلا بأن الأيوبيين قد أقاموا فعلا إدارة للمخابرات هدفها الأساسي جمع المعلومات عن الفرنج يمكن تقسيم مجالاتها الى ما يلي :

أولاً : الاهتمام بتحقيق أمن الدولة :ـ

تدل كل الشواهد التاريخية التي حصلنا عليها على أن الأيوبيين قد اهتموا اهتمام بالغا بتأكيد أمن دولتهم. فكانوا يدركون جيدا حتمية أن تكون الدولة بغير مسام تتسرب منها أية معلومات قد تفيد الأعداء وكان هذا هو مفهوم أمن الدولة لديهم ولم يكونوا هم أول من طبق هذا المفهوم فقد سبقهم أساتذتهم السلاجقة والزنكيون في تطبيق سياسة مشددة في هذا الشأن، فيقول نظام الملك في معرض حديثه عن الاحتياطات الواجب اتخاذها بمناسبة زيارة الرسل الأجانب للبلاد مثلا : «عندما يأتي السفراء الأجانب للبلاد، فلا بد من ألا يعلم بهم أحد حتى يصلون إلى درگاه السلطان ويجب الا يتصلوا بأحد من الرعية طوال رحلتي الذهاب والأياب ولا أن يحصلوا على أية معلومة في أثناء ذلك، والا سيكون هذا بمثابة الاهمال وعدم الحذر. كما أنه يجب التنبيه على الموظفين الموضوعين على الحدود، بانه بمجرد ان يتقدم واحد من هؤلاء اليهم، عليهم ان يرسلوا فورا فارسا الى البلاط لاحاطة من فيه علما باسم الشخص، والمكان الذي أتى منه، وعدد من معه من الفرسان والرجالة، وما معه من الحاجيات وما هو الهدف من رحلته، وعليهم أن يقوموا بعد ذلك بتعيين رجل ثقة لمرافقة هؤلاء الزائرين ويقودهم عبر خط سير محدد لهم حتى أول مدينة حيث يسلمهم الى زميل آخر له يرافقهم حتى المدينة التالية وهكذا في كل مدينة ومنطقة حتى يصلون الى بلاط السلطان. وفي كل مرحلة من مراحل الرحلة كانوا يزودوا بما يحتاجون اليه من غذاء وماء، وكانوا يعاملون باحترام حتى يعودون وهم يشعرون بالرضى، ويتم تطبيق نفس هذا الاسلوب في رحلة العودة. وذلك لأنهم اذا عوملوا معاملة طيبة، أو سيئة فان ذلك ينظر اليه، (في عرف العلاقات الدولية) على أن سلطانهم قد عومل نفس المعاملة[١٦]. ويفسر نظام الملك اسباب اتخاذ كل هذه الاجراءات الوقائية قائلا «انه من الضروري ان نعرف ان الملوك حينما يرسلون سفراءهم، لا يهدفون فقط من وراء ذلك تسليم كتاب أو تبليغ رسالة يعلنون عنها انما هم يهدفون الى معرفة اشياء كثيرة يخفونها في انفسهم ويرغبون في تحقيق رغبات اخرى عديدة ومتنوعة. فهم يريدون في الحقيقة الحصول على معلومات عن حالة الطرق والشعاب، وعن الأماكن التي بها مجاري المياه، والآبار والمساقي، وكذلك يرغبون في معرفة ما اذا كانت الطرق صالحة لمرور الجيش، واين الأماكن التي بها الأعلاف والأماكن التي ليس فيها علف، وأيضا من هم الولاة الذين يمارسون السلطة، وما مدى قوة قوات الأمير وما هي كمية مؤنتها من الأسلحة الهجومية والدفاعية. انهم يريدون ان يستعملون عن طريق حياة الملك الخاصة، عن مائدته (أو خوانه) وعن اجتماعاته الخاصة جدا، عن تنظيم بلاطه (أي الدركاه) وعاداته : هل يلعب لعبة المطرقة؟، هل يخرج للصيد؟ انهم يتمنون معرفة أخلاقه وسيرته. . . هل هو عجوز أو شاب، مثقف أم جاهل ؟ وكذلك هل مملكته خربة أم مزدهرة، وهل أفراد جيشه يشعرون بالرضى أم بالسخط، وهل رعاياه أغنياء أم فقراء، وهل هو يقظ أم غافل في الأمور، بخيل أم كريم، وما اذا كان وزيره كفء أم لا، وهل هو متديِّن وحسن السيرة أم لا ؟ وهل لدى قادة جنده الخبرة اللازمة ؟ وما اذا كان ندماؤه علماء أذكياء أم لا. وترغب الملوك في معرفة ما يحب وما يكره ؟ وهل يصبح ـ اذا ما شرب ـ صريحا ومرحا، وهل الشفقة تجد سبيلها الى قلبه، أم لا يبالي بها ؟ وهل ميله الطبيعي يجذبه أكثر نحو الحب والكلمات الخليعة أو نحو الغلمان والنساء ؟ وذلك حتى اذا ارادوا في وقت ما الهجوم عليه أو معارضة مشروعاته أو نقد عيوبه، فتكون لديهم حينئذ كل المعلومات التي تخصه، ويستطيعون بذلك اتخاذ الاجراءات المناسبة في هذه الظروف ـ فهم يعرفون مزايا وعيوب الملك، ويتصرفون وفق هذه المعلومات»[١٧].

وليس غريبا أن نرى الزنكيين وقد طبقوا هذه التعليمات في ادارتهم السياسية تطبيقا دقيقا، فكل الشواهد التاريخية تدل على أن عماد الدين زنكي كان تلميذاً نجيباً للمدرسة السلجوقية في النظم. ويستبين منها أنه كان دائم القلق على تحقيق الأمن

١٦ ـ نظام الملك، سياستنامه، ص ٨٧ من النص الفارسي من طبعة شيفر.

١٧ ـ نفس المرجع ص ١٢٩ ـ ١٣٠، ويلاحظ انه توجد ترجمة انجليزية لكتاب سياستنامة قام بها : Hubert Darke, The Book of Government, London 1960 وكذلك ترجمة عربية مصرية قام بها الدكتور السيد محمد العزاوي، دار الرائد العربي القاهرة ١٩٧٦م.

لأراضيه. وفي هذا الخصوص يذكر ابن الأثير أن عماد الدين لم يكن يسمح ابدا لمبعوثي الملوك الأجانب بوضع أقدامهم في أراضيه دون الحصول مسبقا على اذن صريح منه. واذا ما حدث وأعطى تصريحا بالمرور الى سفير من السفراء راغب في عبور بلاده، فكان يشترط عليه عدم التخاطب - تحت أي ظرف من الظروف - مع مواطنيه، ولهذا السبب كان لا بد من أن يقوم حراس ثقاة بمرافقة الأجانب الذين كانوا يدخلون بلاده ويخرجون منها دون أن يعرفوا عنها أي شيء حتى ولو كان تافها[١٨]. ولعل هذا ييسر لنا فهم عبارة قالها ابن الأثير تعبر فعلا عن مفهوم عماد الدين للأراضي الوطنية التي تضمها بلاده. يقول ابن الأثير: «ومن آرائه (أي آراء عماد الدين) أنه لا يمكن أحد خدمه من مفارقة بلاده، وكان يقول: ان البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فاذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم اليها. فمن ذلك أنه هرب منه أمير كبير يقال له أبو بكر - وكان مقدم البكجية، وهو مقطع نصيبين - فهرب منه الى حسام الدين تمرتاش بماردين، فأرسل الشهيد يطلبه فلم يسلمه اليه، فنازل ماردين وحصرها فلما عجز حسام الدين عن منعه سيره الى دركاه السلطان مسعود فلما بلغ الشهيد الخبر أرسل الهدايا للسلطان والوزير، فَسُلّم اليه فسجنه وكان آخر العهد به[١٩]. ونلاحظ أن مؤرخين آخرين قد ذكروا نفس هذه المقولة نذكر منهم المؤرخين الكبيرين ابن واصل وابو شامه[٢٠].

أما بالنسبة للأيوبيين فنلاحظ أن اهتمامهم بمشكلة أمن الدولة قد ازداد اتساعا وتعمقا، وذلك بسبب ظروف الحرب والحرب المضادة التي كانت سائدة في عصرهم. ولقد عثرنا على شواهد تاريخية عديدة تدل على استمرارية هذا الاهتمام طوال العصر الأيوبي. ومن هذه الشواهد ما يخرج من وثائق الجنيزا القاهرية من أدلة تبين كيف أن الحكم الأيوبي كان في عصر صلاح الدين يهتم ببصيرة بالحفاظ على أمن دولته. فتحكي إحدى الوثائق أنه حدث في أيام صلاح الدين، ان استطاع ثلاثة من الأجانب التسلل خفية إلى البلاد حيث عاشوا مختبئين، ولما وشي بهم، قبض عليهم على الفور وأودعوا السجن بوصفهم أعداء للسلطان وقضى اثنان منهم نحبهما في السجن. وفي خطاب آخر من أوراق الجنيزا يعود تاريخه الى نفس هذه الفترة، ومرسل من الاسكندرية الى عدن، عبر كاتبه عن مخاوفه من ألا يمنحه ناظر الميناء تصريحا بالابحار بسبب انه يشك فيه لمجرد انه وصل الى الاسكندرية على سفينة فرنجية[٢١]. ومن هذا نتبين كيف ان وثائق الجنيزا القاهرية قد سجلت ان زيارات واسفار الأجانب لم تكن على اطلاقها بل كانت مقيدة في الزمان والمكان، خصوصا في الفترات التي شهدت الحروب بين الشرق والغرب. بل انني اتذكر هنا نصا آخر كتبه برنارد الناسك Bernard Le Moine الذي أراد السفر الى الاسكندرية في اواخر عصر الدولة الفاطمية وحدثت له حادثة كتبها باللغة اللاتينية ودرسها لنا بالسوربون استاذنا كلود كاهن في الستينات، يقول برنارد الناسك فيها، أنه تقدم الى والي أمير المؤمنين في جزيرة صقلية يطلب منه تصريح مرور الى الاسكندرية فارسل هذا الأخير الى مصر وحصل له على هذا التصريح بعد مدة، وأبحر اليها ولكن عندما وصل الى الميناء شك فيه موظفو الديوان، فأودعوه السجن بصفة احتياطية ريثما يرسلون تصريح المرور الذي كان معه الى العاصمة ليتحققوا من شرعيته، ولما جاء التصريح وثبت انه صحيح اطلق سراحه، وهذه الحادثة ان دلت على شيء فانما تدل على مدى الحرص على التأكد من شخصيات الاجانب تأكيدا للأمن القومي خصوصا في زمن توترت فيه الأحوال. ويؤكد هذا الحرص من جانب الأيوبيين ما ذكره الرحالة الأيوبي ابن جبير من تعرض المسافرين - حتى المسلمين منهم والقادمين على ظهر سفن جنوية الى ميناء الاسكندرية - تعرضهم لاستجوابات موظفي الديوان وايضا للتفتيش قبل الدخول. وكذلك نفهم من المخزومي ان الموظفين في الميناء كانوا يقومون

---

١٨ - انظر ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص ٤٧، حيث يقول «ان عادة الشهيد زنكي انه لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره، واذا استأذنه رسول في العبور في بلاده، أرسل اليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم فكان الرسول اليه يدخل بلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحواله شيئا البتة».

١٩ - ابن الأثير، نفسه ص ٧٩ - ٨٠.

٢٠ - ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١ ص ١٠٣، أبو شامه، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، جـ١، ص ٤٣، من طبعة القاهرة ١٨٧٠، وجـ١٠، القسم الاول ص ١١١ طبعة القاهرة ١٩٥٦.

٢١ - S.D. Goitein, A Mediterranean Society, Vol. 1., P. 59, California, U.S.A., 1967.

بالتحقق من اسم وجنسية كل من قائد السفينة ومن معه من التجار والمسافرين ونوعيات وكميات ما تحمله سفينته من سلع وخلافه[٢٢]. وهذا بطبيعة الأحوال بسبب ظروف الحروب الصليبية فقد جاءت حملتان من الحملات الصليبية في عصر المخزومي. ومع ذلك فاننا نجد ان وثائق الجمهوريات الايطالية خصوصا ما يخص منها تجار أمالفي Amalfi في القرن العاشر، وكذلك تجار بيزا Piza وجنوة في القرن الثاني عشر الميلادي تبين لنا كيف ان هؤلاء الايطاليين كان لهم بعد دخول الاسكندرية الحق في التنقل داخل مصر، بل وتبين هذه الوثائق أنهم كانوا يملكون في القاهرة مقرا لهم غير ذلك الكائن في الاسكندرية ولكن يبدو ان هذا الفندق قد اختفى بعد ذلك بسبب تطورات ظروف الحرب، التي أدت الى أن يصدر الملك العادل تصريحا للبيزيين بالاستمرار في التنقل داخل مصر، ولكن في اوقات السلم فقط، أما في أزمنة الحرب فيحظر على الأجانب القيام بأية تنقلات[٢٣]. وهذا ليس بغريب اذا ما علمنا ان العلاقات التجارية بين الأيوبيين وتجار الجمهوريات الايطالية كانت قائمة على الرغم من الحروب الصليبية بسبب الحاجات الاستراتيجية لبعض السلع اللازمة للحرب.

وسنرى فيما يلي كيف قام الأيوبيين بترجمة اهتمامهم بتحقيق الأمن القومي لبلادهم - بهدف منع افشاء اسرارهم وتسريب المعلومات عنهم الى الخارج - كيف قاموا بانشاء مؤسسة محددة المعالم مختصة باعمال المخابرات الحربية بكل ابعادها حتى في ميدان المعارك. إذ أن ظروف حالة الحرب كانت تستلزم التفكير المتواصل من الأيوبيين من أجل العثور على الأساليب الأكثر مواءمة للحصول على أدق المعلومات عن أعدائهم في وقت السلم كما في وقت الحرب على حد سواء.

ثانياً: المسئولون عن جمع المعلومات في ميدان المعارك: - أي المخابرات الحربية:

لقد كان من الضروري بطبيعة الحال أن يكون تحت تصرف الجيش الأيوبي أولا بأول كل ما يمكن جمعه من معلومات ومتجددات عن جيش خصمه، فكان ينبغي ان يقوم جواسيسه بامداده بالاخبار التي تكشف له خطط العدو الاستراتيجية، وتعرفه بمواطن نقاط الضعف فيه، وكم عدد جنده وما هي حالتهم المعنوية، وما هو تحت تصرفه من مؤن وذخيرة، وما هي أنواع الأسلحة التي يتسلح بها، وكيفية تحركاته بل وكذلك أوقات الراحة التي ينعم بها جيش عدوه. ولنا ان نتصور انه من أجل حصول الجيش الأيوبي على كل هذه المعلومات المتنوعة عن جيش عدوه، كان لابد من ان تتوفر للجيش الأيوبي الوسائل الفعالة التي يمكنها تحقيق هذا الهدف الهام اذ انه على ضوء ما يتوفر له من معلومات عن العدو، كان هذا الجيش يقوم بوضع خططه العسكرية دفاعية كانت أو هجومية.

فما هي اذن الوسائل التي كان يستخدمها الجيش الأيوبي في ميدان المعركة من أجل أن يكون على أفضل درجة من العلم عن أخبار عدوه؟ ان الأجابة على هذا السؤال لا يجدها الباحث جاهزة في أي مصدر من المصادر الأيوبية، انما اضطرتنا الى بذل جهد كبير للبحث عن ضالتنا من خلال معلومات متناثرة جمعناها من المصادر المتنوعة، تماما كما يفعل الطائر الذي يبني عشه قشة قشة، حتى استطعنا أخيرا الكشف عن وجود وحدات عسكرية في الجيش الأيوبي تخصصت في مجال المخابرات الحربية، أسميناها بالوحدات الخاصة التي كان من أهم واجباتها الرئيسية في أثناء المعارك جمع المعلومات عن الأعداء وتضمينها في رقاع (أي تقارير) ترسلها أولا بأول الى القادة العسكريين الأيوبيين، وذلك من خلال ما تتحصل عليه من أخبار أثناء قيامها بمهمات عسكرية خاصة تسهل لها عملية اختراق صفوف الأعداء لاماطة اللثام عما اختفى من أخبارهم. ولعلنا نجد أنه من المناسب ان نتحدث عن دور كل وحدة من هذه الوحدات في هذا المجال[٢٤].

٢٢ - Claude CAHEN, Douanes et commerce dans les Ports Méditerraneens de l'Egypte mediéval d'après le minhàdj d'al-Makhzumi, PP. 222 – 223, in J.E.S.H.O., Vol. VIII, Part. III, November, 1964.

٢٣ - نفس المرجع ص ٢٦٥.

٢٤ - عن فرق الجيش الأيوبي ووحداته الخاصة انظر كتابنا باللغة الفرنسية (الفصل الثالث من الجزء الأول):
Salah Elbeheiry, Les Institutions de L'Egypte au temps des Ayyubides, éd. P.U.L., France 1972.

١ ـ دور وحدة الطلائع العسكر :

لقد دللت الشواهد التاريخية المتناثرة في المصادر الأيوبية[٢٥] على أن الجيش الأيوبي كان يضم بين وحداته الخاصة وحدة مكونة من الجنود المراقبين المعروفين باسم «طلائع العسكر» واتضح لنا أن الأفراد المجندين في هذه الوحدة كان يتم تدريبهم خصيصا على القيام بمهمات الاستخبارات عن الجيش المعادي على أرض المعارك التي تقوم بين الفريقين وفي أثنائها فكان ينبغي على أفراد هذه الوحدة جمع أقصى ما يمكن من معلومات عن طبوغرافية الأرض التي يتوقع أن تدور عليها المعارك من حيث المرتفعات فيها ومصادر المياه والبساتين والحقول الزراعية القريبة منها، وكذلك كل المعلومات الخاصة بتحركات جيوش الأعداء من حيث عددها وعُددها واسلحتها المختلفة بل وايضا المعلومات الخاصة بالمناطق الاستراتيجية المحيطة بها[٢٦]. فكانت طلائع العسكر تختص بجمع كل هذه المعلومات وارسالها في رقاع مفصلة الى قائد الجيش الأيوبي الذي كان يتخذ على ضوئها الاستعدادات والقرارات المناسبة.

ويذكر ابن واصل مثلا في معرض حديثه عن متجددات الأخبار العسكرية الخاصة بحصار صلاح الدين لحصني صفد وكوكب، ان الفرنج بصور كانوا قد أظهروا قدرا كبيرا من القلق بسبب هذا الحصار، فأرسلوا مائتي فارس من أفضل فرسانهم للقيام بشن هجوم مفاجيء من الخلف ضد المحاصرين الأيوبيين، ولكن هذه المهمة قد باءت بفشل تام بسبب يقظة «طلائع العسكر» الأيوبية التي ارسلت أخبار هذا الهجوم «المفاجيء» المزمع القيام به من طرف الفرنج، الى السلطان صلاح الدين في الوقت المناسب، وذلك حينما لاحظ جندي من الطلائع تحركات هذه الفرقة الصورية، فعاد مسرعا لابلاغ قائده المباشر صارم الدين قايماز النجمي، وبذلك وبناء على هذه المعلومات أصيبت الحملة الفرنجية بفشل ذريع[٢٧]. ولهذا نرى أن هناك ما يدعو الى الاعتقاد بان جنود «طلائع العسكر» في الجيش الأيوبي كانوا بمثابة رصد مهمتهم المراقبة اليقظة والدقيقة لتحركات جنود الأعداء، وابلاغ معلوماتهم الى قادتهم الذين كانوا يقومون بدورهم باتخاذ القرارات المناسبة لتجنب الخطر.

وقد أشار الهروي في نصائحه الى أميره الأيوبي، أنه يجب على السلطان «ارسال الطلائع لكشف الأخبار واختيار المنازل، وان يستعين على اموره بالكتمان. . . حتى لا ينقل احد اخباره الى عدوه فلسان العاقل في قلبه وقلب الجاهل في فيه، وعليه ألا يكذب خبرا وان يسمع جميع ما ينقل اليه، ولا يعمل به الا بعد الكشف عن صحته والبحث عن حقيقته[٢٨]. ويذكر الشيخ الهروي أيضا أنه اذا ابلغت الطلائع السلطان، بأن العدو يقصده، ويعلم انه قادر على لقائه فليتجرد للقائه وليبادر بالخروج من بلده بجيشه وحشده ولتتقدمه الجواسيس الثقاة ليكشفوا له الاخبار ويختاروا له المنازل ليعلم اذا سار اين ينزل، ولئلا يبقى حائرا ولئلا ينزل اتفاقا فربما نزل بأرض قليلة الماء والعلف فيحيط به العدو فيهلك. وليسبق المياه العذبة ولينزل على المواضع المرتفعة والأراضي السهلة القليلة المدر، وليستقبل الشمال ان أمكنه ذلك ولا ينزل في المواضع المنخفضة خوفا من السيل ولا يباعد بين الخيم. . . فربما كبس عدوه طائفة من عسكره فنال منهم مراده ويداخل باقي العسكر الخوف ويملكهم الفزع. . . الخ».

ونرى أن الأيوبيين كانوا يهتمون كذلك بشن الحرب النفسية على الأعداء ولا يكتفون بجمع المعلومات عنهم، فكانوا يزورون الكتب على ألسنة أمرائهم وأكابرهم ومقدميهم وبطارقتهم ويظهرونها في عسكره لتنطق بها الألسنة ويتسع بها الكلام[٢٩]، بل ذهب الأيوبيون إلى أبعد من ذلك فلجأوا إلى نشر الاشاعات والأكاذيب بين الأعداء كأن يرسلوا المرجفين إلى عسكرهم ليزعجوا قلوب الجند بالأراجيف على بلادهم وخراب ضياعهم وموت أهاليهم وهلاك البطارقة، وخلف الأساقفة وكثرة الأراجيف المزعجة، فان ذلك يوهن شوكتهم ويشوش هممهم

---

٢٥ ـ ابن واصل، مفرج الكروب، أبو شامة، كتاب الروضتين. . ، العماد الاصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، وابن الأثير. . . الخ.

٢٦ ـ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٨٧ ، جـ٢ ص ٣٨.

٢٧ ـ نفس المرجع جـ٢ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

٢٨ ـ أنظر : Janine Sourdel-Thomine, Les Coseils du Sayh Op. Cit., P. 252.

٢٩ ـ نفسه ص ٢٥٤ ـ ٢٥٣.

ويضعف قلوبهم كما يقول بحق الشيخ الهروي[٣٠]. كما كانت طلائع العسكر تقوم، بقطع الأخشاب والجسورة وجميع ما ينتفع به العدو، وكذلك بطم الآبار وتخريب المصانع والصهاريج والقاء الجيف المسمومة فيها وكذلك المياه القاتلة والزرانيخ المصعدة. وكانوا ايضا يلقون في منزلة العدو الميتة والجيف كالجمال والخيل والبغال والكلاب والقاذورات ويجعلونها على مهب الرياح لأن ذلك يؤدي الى الوباء والمرض وتغير الهواء على الأعداء[٣١].

٢ ـ دور فرقة اليزك:

لقد برزت كلمة اليزك في مفردات العسكرية الأيوبية لأول مرة في عام ٥٧٠هـ / ١١٧٤م[٣٢]. وهي مصطلح فارسي يعني مقدمة العسكر أو البصاص أو مقدمة القراول[٣٣] ويقول ابن خلف التبريزي ان هذا المصطلح يأتي بمعنى نفر قليل يسير في مقدمة العسكر وانها تعني بالتركية قراول، وأنها وردت كذلك بمعنى الجاسوس[٣٤]. وقال عنها كاترمير[٣٥] انها تعني حرسا في مقدمة الجيش أيضا. ولكننا ـ رغم هذه التفسيرات اللغوية ـ نفسر هذا المصطلح من خلال السياق الذي ورد به في مختلف المصادر، إذ أن الذي يهمنا هو الاستخدام العملي لهذه الكلمة، وليس المعنى اللفظي واللغوي فقط. وفي الحق ان الاستعمال العسكري الأيوبي لهذا اللفظ كان بمعنى فرقة عسكرية تختص اساسا باعمال المخابرات الحربية وتمارس مهامها في مقدمة الجيش الأيوبي فعلا. ولم يكن الأيوبيون هم أول من استعملوا هذه الكلمة بهذا المعنى فقد سبقهم الزنكيون في استخدامها كذلك[٣٦] ولن أتناول هنا موضوع اليزك الا من زاوية دوره الذي كان يلعبه في مجال المخابرات الحربية الأيوبية، وذلك لاننا قمنا من قبل بدراسته بوصفه فرقة عسكرية[٣٧].

وفي الحق لقد كانت المهمة الأساسية لليزك في الجيش الايوبي هي جمع المعلومات عن الأعداء أثناء المعارك. فمن خلال العمليات العسكرية الخاصة التي كان يقوم بها كان يهدف أساسا الحصول على المعلومات الضرورية حتى يكون الجيش الأيوبي في وضع يمكنه به وضع خططه الاستراتيجية لمجابهة العدو. وتدل الشواهد التاريخية الوافية التي استطعنا الحصول عليها، على دور اليزك في مجالات المخابرات الحربية ففي سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م قام اليزك ـ وفقا لما ذكره بهاء الدين بن شداد ـ بأعمال التجسس المختلفة لحساب الجيش الأيوبي[٣٨]، وكذلك في يوم ١٧ جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ ٣ يوليو ١١٨٩م قام اليزك بامداد صلاح الدين بمعلومات تتعلق بقيام الفرنج بقطع الجسر بين صور وصيدا، وكان ذلك أمر خطير يستوجب من السلطان اتخاذ بعض الاجراءات لمواجهة عواقب هذا الوضع[٣٩]. وكانت الفرنج تعرف تماما دور اليزك في مجال الجاسوسية ولذلك فانهم كانوا اذا ما أرادوا إجراء مفاوضات مع المعسكر الاسلامي، فان ذلك كان يتم بواسطة ضباط من فرقة اليزك. ومثال ذلك ما حدث في عام ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م حينما جاء الى صلاح الدين أحد أفراد اليزك.

واسمه قايماز الحراني وذكر له ان العدو يطلب منه ايفاد من يصل اليهم ليسمع منهم حديثا في سؤال الصلح، وذلك لضعف حلّ بهم[٤٠]، وكذلك حدث أن طلب العدو الفرنجي من اليزك الايوبي ارسال من يتحدث معه وذلك في سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، «وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان بن جندر، في هذه النوبة، فلما مضى اليهم من يسمع كلامهم طلبوا الملك العادل حتى يتحدثوا معه...»[٤١].

وفيما يتعلق بالوظيفة الأساسية لليزك، فان جميع الشواهد

٣٠ ـ نفسه ص ٢٤٤.
٣١ ـ نفسه ص ٢٤٥.
٣٢ ـ بهاء الدين بن شداد، سيرة صلاح الدين، نشر جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٢ ص ٥٢.
٣٣ ـ راجع فرهنك فارسي تأليف د. محمد معين جـ٥ ص ٥٢٥٦، طبعة تهران سنة ١٣٥٧ هـ. ش
٣٤ ـ ابن خلف التبريزي، قاموس برهان قاطع، طبعة بيروز، ص ١٢٣٣.
٣٥ ـ ويفسر Quatremère هذه الكلمة بأنها تعني حرس في مقدمة الجيش، انظر:
Hist. Des Sultans Mamluks..., tome I, 1ére partie, P. 225, note no. 101, Paris 1840.
٣٦ ـ ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص ١١٧، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، جـ٨ قسم ١ ص ٢٢٤.
٣٧ ـ انظر كتابنا الفرنسي عن النظم المصرية في عهد الأيوبيين الذي سبقت الاشارة اليه.
٣٨ ـ ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص ٥٢.
٣٩ ـ بهاء الدين بن شداد، سيرة صلاح الدين ص ٩٨، حيث يقول «..بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا» انظر ايضا ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص ٢٨٤.
٤٠ ـ بهاء الدين، السيرة، ص ١٣١.
٤١ ـ نفسه ص ١٨٢.

التاريخية تبين بوضوح تام انه كان ينبغي على **اليزك الأيوبي** ان يرسل الى القائد الأعلى للجيش الأيوبي (**أي السلطان نفسه**) تقارير أو رقاع بها معلومات مفصلة عن كل **ما كان يجري** بين جنود الأعداء ومما ذكره مثلا بهاء الدين بن شداد **في هذا** الخصوص العبارات التالية :

« . . . وكان نزول العدو على الآبار. . . وباتوا **تلك الليلة**، واليزك حولهم جميع الليل، فلما طلع الصبح جاء من اليزك من أخبره ـ رحمة الله عليه ـ بأنهم قد تحركوا للركوب» . «**وكان اليزك** قد انفذ الى السلطان واعلمه بركوب القوم ووقوفهم» وعبارة ثالثة : «وقد رتب حول الفرنج يزكا يبيتون حوله **يرقبون أمره**» . «ويزك الاسلام حوله يواصلون بالأخبار المتجددة لهم . .» «ووصل عن اليزك الاسلامي من أخبر أن العدو **رحل يريد يافا**» ، «ثم وصل بعد ذلك من اليزك من أخبر أن الفرنج قد انتشر منهم راجل كثير، وخرجوا عن الأسوار التي لهم . . »[٤٢] ولن نستطيع بطبيعة الأحوال أن نسترسل هنا في ذكر كل العبارات التي تتضمن شواهد على دور اليزك البالغ الأهمية في مجال المخابرات الحربية . ولكن نجد لزاما علينا أن نسجل هنا أهم ما استطعنا استخلاصه عن أبعاد دور اليزك في هذا المجال ونقول انه استطاع في مرات متعددة أن يسرب جواسيسه (أي جواسيس اليزك) في داخل معسكر الأعداء وأن جواسيس اليزك كانوا أكثر ما ينجحون في العودة من عندهم وفي جعبتهم معلومات على أعلى درجات الأهمية كانت ذات أثر بالغ ومباشر في سير المعارك[٤٣] .

وكان «جواسيس» اليزك «ومخبروه» **(هكذا تذكر المصادر) بعد** انتهائهم من مهامهم بنجاح يعودون الى فرقتهم ويضعون بين يدي قائدهم (وهو قائد فرقة اليزك) كل المعلومات التي استطاعوا الحصول عليها. وكان قائد هذه الفرقة يقوم بالتالي بكتابة تقارير أو رقاع بها كل هذه المعلومات ويرسلها الى السلطان نفسه .

ولقد عثرنا ـ لحسن الحظ ـ على نماذج من هذه التقارير السرية التي كتبها قائد اليزك في المصادر الأيوبية . ومنها ما كان يتضمن ـ بشكل يدعو الى الدهشة ـ تفاصيل ملفتة للنظر حتى عن النوايا التي يكنها الأعداء. ومن هذه التقارير نذكر هناتقريرين أوردهما بهاء الدين بن شداد، وهي من وجهة نظرنا على جانب كبير من الأهمية، كتبهما عز الدين جورديك قائد يزك الجيش الأيوبي في أثناء الحملة الصليبية الثالثة، وأرسلهما الى صلاح الدين يوم ٢٠ جمادى الآخر سنة ٥٨٨هـ / ٣ أيلول ١١٩٢م .

وكان التقرير الأول مختصرا جدا، يمكن اعتباره بمثابة برقية عاجلة، وسريعة لتحذير بقية الجيش الأيوبي. فكان عبارة عن «رقعة» احتوت على جملتين فقط هما «أن القوم ركبوا بأسرهم، ووقفوا في البر على ظهر ثم عادوا الى خيامهم، وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم»[٤٤] ويفهم من هذه «الرقعة» ان اليزك كان يداوم مراقبة الأعداء، وانه لاحظ بعض التحركات للجيش المعادي، دون أن يعرف بعد الدافع اليها حتى لحظة كتابة هذا التقرير العاجل، وهذا هو السبب في أنه أبلغ قيادته بهذه التحركات، وفي نفس الوقت قام بارسال جواسيسه الى صفوف الأعداء ليتجسسوا حول أسباب هذه التحركات حتى يلقون الضوء عليها .

أما التقرير الثاني الذي أرسله، عز الدين جورديك الى صلاح الدين فنراه وقد تضمن أخبارا مفصلة عن هذه الواقعة، جاءت بها الجواسيس بعد القيام بمهمتهم بنجاح. وللقاريء الحق في أن يندهش من المعلومات المفصلة التي ضمنت في هذا التقرير، عن المداولات والمحادثات التي كانت تدور بين القادة العسكريين الصليبيين أنفسهم. بل اننا نرى من خلال هذه المعلومات الواردة في هذا التقرير كيف أن جواسيس اليزك قد استطاعوا حتى الكشف عن النوايا الدفينة لدى الفريقين الانجليزي والفرنسي في معسكر الفرنج، وذلك فيما يختص بنيتهم في عدم مواصلة الحرب وفي رغبتهم في عقد اتفاق سلام مع صلاح الدين، ورحيلهم الى بلادهم. وبطبيعة الحال حينما علم صلاح الدين بهذه المعلومات بلور لنفسه الموقف الضروري المناسب والواجب اتخاذه تجاه أعدائه. ولعل من المفيد هنا أن نذكر نص هذه «الرقعة» أو التقرير كي يتبين المرء أهمية الدور الذي كانت تلعبه فرقة اليزك وجواسيسها، لأن من يقرأ التقرير يتبين فورا مدى الانقسام الذي كان موجودا بين وجهتي نظر الانجليز والفرنسيين في معسكر الأعداء .

---

٤٢ ـ نفسه ص ١٤٧، ١٧٤، ١٧٦، ١٨١، ١٨٦، ٢٠٤ .

٤٣ ـ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ص ٣٨٩، أبو شامة، كتاب الروضتين جـ٢ ص ١٩٩ .

٤٤ ـ سيرة صلاح الدين ، ص ٢١٧ .

تقول المصادر الأيوبية[٤٥] «وصلت رقعة (جورديك) الأخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود الى القدس، والرحيل الى بلادهم، فذهب الفرنسيسيه الى الصعود الى القدس، وقالوا : «نحن انما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه» وقال الانكتار (أي الانجليز) : «ان هذا الموضع قد افسدت مياهه، ولم يبق حوله ماء اصلا فمن أين نشرب ؟» فقالوا له : «نشرب من مان نقوع وبينه وبين القدس مقدار فرسخ» فقال : «كيف نذهب الى السفن ؟» فقالوا : نقسم قسمين : قسم يركب الى السفن مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في المنزلة، ويكون الشرب في اليوم مرة» فقال الانكتار : «إذاً يأخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب، ويخرج عسكر البلد على الباقين ويذهب دين النصرانية» فانفصل الحال على أنهم حكّموا ثلاثمائة من أعيانهم، وحكموا الثلاثمائة اثنى عشر منهم، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم، وقد باتوا على حكم الثلاثة، فما يأمرونهم به يفعل، فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل، فلم يمكنهم المخالفة، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخر ٥٨٨هـ / ٤ يوليو ١١٩٢م راحلين نحو الرملة، وعلى أعقابهم ولله الحمد ناكصين، ووقف عسكرهم شاكا في السلاح الى ان لم يبق في المنزلة الا الآثار. ثم نزلوا بالرملة، وتواتر الخبر بذلك».

ولعلكم تلاحظون معي ان هذا التقرير يمكن اعتباره وثيقة هامة جدا بما تضمنه من أخبار مدهشة، وتفاصيل عجيبة عن المناقشات التي كانت تدور بين الملك رتشارد قلب الأسد، والملك فيليب اغسطس. وهذه المعلومات تفرض علينا رأيا يقول ان جواسيس اليزك الأيوبي لا بد وانهم قد اختلطوا بالفرنجة انفسهم حتى تكون هذه الأخبار على مسمع منهم، وهذا يدفعنا الى ان نتساءل هل كان لليزك جواسيس من الفرنجة أنفسهم حتى لا ينكشفوا حينما يختلطون بهم ؟ وحتى يكونون ايضا على دراية بلغتهم ؟ أم هل كان هؤلاء الجواسيس مسلمين يتزيون بزي الفرنج ويتحدثون لغتهم بطلاقة ؟ انها مجرد تساؤلات فرضتها علينا المعلومات التي وردت في التقرير السابق ذكره، وعلى أية حال فلدينا بعض المعلومات الواردة في المصادر الأيوبية نستدل منها على أن «المستأمنين» من الفرنج كانوا يتعاونون مع العسكريين الأيوبيين في مجال الجاسوسية. ويذكر بهاء الدين بن شداد في هذا الصدد في أكثر من موضع أن المستأمنين والجواسيس كانوا يجمعون الأخبار والمعلومات لحساب الأيوبيين عن الخطط العسكرية للفرنجة ويقول ايضا : «هكذا أخبر الجواسيس المستأمنون عنهم» أو «وكثر ذلك الحديث على ألسنة المستأمنين والجواسيس» وكذلك : «ولم تزل الأخبار. . . تتواصل على ألسنة الجواسيس المستأمنين»[٤٦]. ونحن نفهم من المصادر الأيوبية أن المستأمنين هم الفرنجة الذين طلبوا الأمان من السلطان الأيوبي ثم عملوا لحسابه بعد ذلك هذا فضلا عن اننا نعتقد ان العلاقات العسكرية بين الفرنج والأيوبيين كانت تستوجب وجود عناصر في الجانبين تفهم لغة الآخر، وترتيبا على ذلك هناك ما يدعو الى الاعتقاد بان الجواسيس «الرسميين» الأيوبيين كانوا يفهمون اللغات الأجنبية حتى يقومون بواجباتهم خير قيام».

ومن واجبات اليزك في هذا المجال ايضا القيام بطم الآبار والصهاريج التي ينتظر وقوعها في أيدي الأعداء. وذلك بإلقاء الحيوانات النافقة والمسمومة والمياه القاتلة. . الخ.[٤٧].

وهناك مهمة اخرى لليزك، وهي قيامه بشن هجمات فجائية على معسكر الأعداء وذلك بهدف استكشاف أرض ميدان المعارك لحساب معظم الجيش الأيوبي. وكان اليزك يستطيع بهجماته الخاطفة أن يستخبر عن أحوال الجيش المعادي فيكشف طرقه التكنيكية وأعداده، وأنواع أسلحته المختلفة، ونظامه العسكري ايضا. وفوق هذا كله يستطيع اختبار الحالة المعنوية لجنود المعسكر المعادي، وان يتعرف على مَعْدَنِهم كمقاتلين[٤٨].

وأخيرا كان يهتم اليزك ايضا بتدمير الروح المعنوية بين صفوف الأعداء وذلك بنشر الأكاذيب والاشاعات المزعجة بينهم كما ذكرنا في موضع سابق.

بل كانوا ينشرون بينهم اخبارا عن مدى قوة الجانب المسلم (الأيوبي) واستعداده للفداء والقتال وانه لا قبل للفرنج بهم. وكل

٤٥ ـ بهاء الدين بن شداد، سيرة صلاح الدين ص ٢١٧ ـ ٢١٨، ابن واصل، مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٨٩، أبو شامة، كتاب الروضتين جـ٢ ص ١٩٩ سبط ابن الجوزي مرآة الزمان، جـ٨ القسم الأول ص ٤١٧.

٤٦ ـ سيرة صلاح الدين، ص ١٣١، ١٤٠، ١٤٤.

٤٧ ـ انظر التذكرة الهروية، المذكورة آنفاً ص ٢٤٥.

٤٨ ـ أنظر : Salah El beheiry, Les Institutions de l'Egypte au Temps des Ayybides PP. 130 – 141.

ذلك بهدف تدمير الروح المعنوية لديهم وكان اليزك يقوم ايضا بأسر الفرنج ويقوم باستجوابهم لانتزاع المعلومات منهم[٤٩]، وكان يشار اليزك في القيام بهذه المهمة فرق اخرى مثل الطلائع وغيرها.

مما سبق يتضح لنا مدى أهمية الدور الذي كان يلعبه اليزك الأيوبي في مجال المخابرات الحربية.

٣ ـ الدور الذي كانت تقوم به فرقتي الحرافشة واللصوص :ـ

ومن الفرق الخاصة التي كانت تقوم بمهمات معينة لحساب المخابرات الحربية فرقة الحرافشة، وفرقة اللصوص. وفي الحق لقد وجدنا ان طبيعة الأعمال التي كانت تقوم بها هاتان الفرقتان في ميدان القتال تدفعنا الى الاعتقاد بتبعيتها للمخابرات الحربية للجيش الأيوبي. بل اننا نرى أن نشاط فرقتي الحرافشة واللصوص لم يكن محددا في اطار جمع المعلومات عن الأعداء وحسب، ولكنهما كانتا علاوة على ذلك تقومان بأعمال ومهام الغرض منها تعريض جنود الجيش المعادي لصدمات نفسية عميقة وفجائية، من أجل الحاق الشلل بهم من هول المفاجأة الخاطفة، فكان ينبغي على افراد هاتين الفرقتين ـ بتنفيذ مهماتهم ـ بذر بذور الاضطراب والفوضى والذعر والخوف بين صفوف الأعداء. ومن أجل القيام بذلك بنجاح كان لا بد من اتخاذ اسلوب رجال حرب العصابات وطرق الفدائيين في الهجوم. وكثير من الشواهد التاريخية تثبت ان افراد هاتين الفرقتين كانوا يقومون بخطف قادة الصليبيين، وبقتل بعضهم احيانا، وبأسر جنودهم وهم نائمين بمعسكرهم، ولا يخفى علينا ما لهذه الأفعال الجريئة من أثر نفسي أكيد في نفسية أفراد الجيش المعادي، خصوصا اذا ما حرمت فرقة أو كتيبة من الجيش الصليبي من قادتها سواء بالخطف أو بالقتل، وكذلك اذا ما استيقظ هذا الجيش في الصباح ليرى عددا من جنوده وقد قتلوا بسبب هجوم خاطف ليلي يقوم به اللصوص والحرافشة الأيوبيون الذين كانوا يتسللون تحت جنح الظلام الى معسكرهم، فلا بد من أن يؤدي ذلك الى تدمير معنويات الأعداء باصابتها في الصميم.

ويذكر المؤرخون أن صلاح الدين قد استخدم فعلا في جيشه أفراد هاتين الفرقتين للقيام بأعمال حرب العصابات والفدائيين. ونذكر في هذا الخصوص مثالا طيبا عندما كان صلاح الدين يحاصر حصن بيت الاحزان، قام الحرافشة الذين كانوا في جيشه بتسلق اسوار الحصن من أعلاها وهتفوا هتافات عالية مثل (الله اكبر) بطريقة أدت الى اعتقاد الأعداء المحاصرين بان جنود الأيوبيين قد نفذوا فعلا الى الداخل مما أدى الى نشر الذعر والفوضى بينهم حتى انهم اعتقدوا ان المسلمين قد ملكوا فعلا الحصن، وبسبب هذا القى الأعداء أسلحتهم وسلموا الحصن الى صلاح الدين[٥٠] وفي الحق لقد ذكر ابن واصل في الجزء المخطوط من كتابه (المحفوظ بالمكتبة الاهلية بباريس) ان الفرنج قد قاسوا الامرين من الحرافشة المسلمين الذين كانوا يمارسون عليهم عمليات الخطف والقتل لقادتهم، لدرجة نشرت الفزع والخوف بينهم منهم، فيقول في هذا الخصوص ان الفرنج كانوا يلقون بأنفسهم في الماء اذا ما علموا بوجود حرافشة على مقربة منهم وذلك في معرض حديثه عما قام به حرافشة الجيش الأيوبي ضد جيش لويس التاسع سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م. ويذكر هذا المؤرخ كذلك ان الحرافشة كانوا لا يترددون في استخدام كل الحيل الممكنة من أجل خطف وأسر الفرنج مثل الحيلة الشهيرة الخاصة بقيام أحد الحرافشة بتفريغ بطيخة ولبسها على رأسه وعام في النيل على مقربة من الشاطيء الذي عليه الفرنج حتى اعتقد أحدهم أنها بطيخة عائمة فنزل لأخذها ولكنه للأسف وجد نفسه مأسورا بعد خطفه ونقله الى الشاطيء الآخر للنيل[٥١].

وكذلك القول بالنسبة لفرقة اللصوص التي كانت بالجيش الأيوبي والتي يذكر عنها المؤرخون انها كانت مكونة من ثلاثمائة فارس مختارين من العرب ومسجلين في سجلات جيش صلاح الدين اذ يقول بهاء الدين بن شداد وابو شامه ان صلاح الدين كان قد دَيَّوَن ثلاثمئة لص من شلوخ العرب[٥٢]، وانه جعلها فرقة متخصصة في القيام بعمليات محدودة خاطفة ضد معسكرات الأعداء، يتم خلالها التسلل خفية الى صفوف الأعداء، وكانت لأفرادها ولخيلهم صفات صحية خاصة تمكنهم من التسلل في

٤٩ ـ ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص ١٩٣.

٥٠ ـ ابن واصل، مفرج الكروب جـ٢ ص ٨٠، أبو شامه، الروضتين، جـ٢ ص ١١ ابن الأثير، الكامل في التاريخ جـ٢ ص ١٧٢.

٥١ ـ ابن واصل، مفرج الكروب، مخطوط رقم عربي ١٧٠٣، ورقة ٨٠ ـ أ بالمكتبة الأهلية بباريس.

٥٢ ـ ابن شداد ـ سيرة صلاح الدين، ص ١٩٢ وأبو شامه، الروضتين، جـ٢ ص ١٨٦.

صمت تام ودون أن يحس بهم الأعداء، وتتلخص مهمات أفراد هذه الفرقة في خطف قادة الصليبيين المهمين واحضارهم أحياء الى السلطان الذي يستخدمهم بعد ذلك كوسيلة ضغط على العدو في اثناء المفاوضات معه، أو يقوم باستجوابهم لانتزاع كل ما في جعبتهم من معلومات عن ذويهم. ومن مهامهم ايضا نهب أو «سرقة» كميات هائلة من مؤنتهم والقيام بتدمير وافساد ما لا يستطيعون حمله معهم، وهذا هو السبب في تسمية الأيوبيين لهذه الفرقة باسم «اللصوص» أو «الحرامية[٥٣]» كما يسميهم أسامة بن منقذ، ويذكر ابن شداد[٥٤] في عبارات واضحة أهم العمليات التي كانت تقوم بها هذه الفرقة فيقول: «وكان صلاح الدين قد دَيْوَن ثلاثمائة لص من شلوخ العرب يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم، ويسرقون الرجال أحياء، وذلك انه يكون الواحد منهم نائما فيوضع على حلقه الخنجر، ثم يوقظ فيرى الشلخ والخنجر في يده وقد وضعه في نحره، فيسكت ولا يتجاسر ان يتكلم، فيحمل وهو على هذا الوضع الى ان يخرج من الخيمة،

ويؤخذ اسيرا، وتكلم منهم جماعة فنحروا فصار من اصابه ذلك سكت واختار الاسر على القتل»، ومن اليسير علينا ان ندرك مدى الاثر النفسي السيء الذي تتركه مثل هذه العمليات في معنويات الأعداء بما تسببه من فوضى وارتباك بسبب غياب القادة المخطوفين، ومن نقص في الاقوات والأسلحة المسروقة أو المدمرة، ومن ذعر في نفوس بقية جنود معسكر العدو، ونعتقد في وجود عدد من المستأمنين الفرنج في هذه الفرقة حتى يساعدونها سواء بارشاد افرادها الى خيام القادة أو الى الأماكن التي بها الأهداف المقصودة، أو حل مشكلة التفاهم اللغوي معهم،

والواقع ان المؤرخ ابن واصل قد أورد عبارة صريحة في هذا الشأن حينما قال: «واستأمن من الفرنج.. خلق عظيم، وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكيس ونكسب من العدو، ويكون المكسب بيننا وبين المسلمين»[٥٥]. وليس معنى ذلك ان فرقة اللصوص كانت دائما تستخدم الفرنج في كل عملياتها، وذلك لأن أبو شامه قد أشار إلى أن افراد فرقة اللصوص كانوا يتفاهمون في هذه الحالة مع الفرنج بالاشارة[٥٦].

ومن الحق علينا ان نتساءل عن السبب في اختيار افراد هذه الفرقة من بين العرب، ونحن نميل الى الاعتقاد بان ذلك كان بسبب ما عرف عن العرب من خفة الحركة وحدة البصر وغريزتهم الطبيعية النابعة من بيئتهم الصحراوية وتعودهم على نهب القوافل في الصحراء، ولذلك لا نعجب ان نرى اسامة بن منقذ وقد سماهم ايضا «النهابة» أو «نهابة المسلمين»[٥٧].

مما سبق نتبين انه من الثابت تاريخيا أن الأيوبيين قد اهتموا اهتماما كبيرا بخطف قادة الأعداء من أجل تحقيق كل الأهداف التي ذكرناها آنفا. ولعل من المفيد ان نذكر مثلا آخر على هذه العمليات حدث في اواخر الحكم الأيوبي يوضح بطريقة صريحة استمرار عمليات التصفية الجسدية لقادة الأعداء، طوال العصر الأيوبي وحتى في الفترة التالية له. ومن هذا المثال نتبين كيف استخدم بيبرس مثل هذه الأساليب في أعمال الجاسوسية المضادة من أجل افشال المؤامرة التي حاكها ضده أحد الفرنج من جبلة Giblet ويسمى أرناط Arnaud بهدف الأستيلاء على مصر لحساب هولاكو الذي كان قد استولى على حلب. فنجد أن بيبرس يستغل علاقة صداقة كانت بين أرنو وأحد المسلمين اسمه شاهين كان يقيم على حدوده فقام بيبرس باجبار شاهين هذا على الاشتراك في مؤامرة تهدف الى قتل ارناط هذا وذلك باتهام شاهين امام بعض الرسل الفرنجه الذين اتوا لمقابلته في غزة سنة ١٢٦٠، بالتجسس لصالح الفرنج وقام بالقائه في السجن ثم كتب رسالة باسم شقيق شاهين الى ارنو يتوسل اليه القيام باخراج اخيه من السجن وقام بارسال شقيق شاهين نفسه الى هذا الفرنجي بالرسالة ومعه خنجر مسموم. كما ارسل ايضا رسالة اخرى الى فرسان المعبد يطلب منهم ارسال سفينة الى ميناء جبلة لالتقاط الضيعة».

٥٣ ـ أبو شامه، كتاب الروضتين جـ٢، ص ١٨٤ حيث يقول: «وكان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون».

٥٤ ـ سيرة صلاح الدين، ص ١٩٢ ـ ١٩٣. أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، طبعة برنستون ١٩٣٠ ص ١٣٨ حيث يقول: «وشاهدت يوما بنابلس وقد أحضروا اثنين للمبارزة، وكان سبب ذلك أن حرامية المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلا من الفلاحين وقالوا «هو دَلّ الحرامية على الضيعة».

٥٥ ـ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣٤٧ كان ذلك في ذو الحجة ٥٨٦هـ / يناير ١١٩١م.

٥٦ ـ أبو شامه، الروضتين.. جـ٢ ص ١٨٦ حيث يقول «... واللصوص يدخلون عليهم، ويسرقون أقمشتهم ويأخذون الرجال في عافية بأن يجثو الى الواحد وهو نائم فيضع على حلقه السكين ويوقظونه ويقولون له بالاشارة ان تكلمت ذبحناك، ويحملونه ويخرجون به الى عسكر المسلمين».

٥٧ ـ اسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٣٨.

شخص سيخرج من القلعة في الليلة الفلانية وتذهب به الى نهر الكلب حيث يتسلمه عملاء بيبرس ليذهبون به الى دمشق .

واستطاع فعلا شقيق شاهين الدخول على ارنو وقتله، ولكن الفرنج استطاعوا القبض عليه والفتك به[٥٨] .

وهذا المثال ان دل على شيء فانما يدل على مدى تقدم وسائل الجاسوسية المضادة التي كانت تستخدم في احيان كثيرة وسائل التصفية الجسدية لقادة الأعداء .

ثالثا ـ مصادر المعلومات خارج ميدان المعركة :ـ

(أي المخابرات العامـة) .

١ ـ السفراء الأجانب :

استخـدم الأيوبيون كل الـوسـائـل المتـاحـة للحصول على المعلومات عن أعدائهم لدرجة أن الشواهد التاريخية تدل على أن أمـراء هذه الاسرة كانوا يستغلون الى أقصى درجة ممكنة وجود مبعوثي الملوك والقادة الأعداء من أجل انتزاع المعلومات التي قد تفيدهم في أثنـاء المعارك أو حتى في خلال المفاوضات . ويذكر المؤرخ أبو شامه في هـذا الخصوص نقلا عن القاضي الفاضـل ان صلاح الـدين قد استخـدم جواسيس مسيحيين من مصر لاكتشاف النوايا الحقيقية للفرنج الذين كانوا قد اشتركوا في سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م في مؤامـرة ضده تهدف الى اعـادة النـظام الفاطمي . اذ أن الفرنج كانوا قد ارسلوا الى صلاح الدين مبعوثا لم يكن هدفهم من ارسـالـه مقـابلة صلاح الدين بقدر ما كان الهدف الاساسي الاتصال بالمتآمرين المصريين الفاطميين (الذين كان منهم الشاعر عمارة اليمنى) للاتفاق معهم على خطوات تنفيذ المؤامرة. الا ان صلاح الدين قام باحاطة هذا المبعوث بعملاء له يثق فيهم من بين المسيحيين المصريين الـذين حصلوا بصفتهم هذه على ثقـة المبعوث الفرنجي الذي كشف لهم عن تفاصيل المؤامرة فقاموا هم على الفور بابلاغ صلاح الدين بها[٥٩] .

ومن ناحية اخـرى نذكر من الشواهد التاريخية ما يذكر عن وصول مبعوث خاص ارسله رتشارد قلب الأسد الى صلاح الدين لاجراء مفاوضات تهدف الى عقد اتفاقية سلام بين الجانبين . فقد فصل المؤرخون مراحل هذه المفاوضات التي نرى من خلالها كيف كان صلاح الدين يقوم بمحاولة معرفة نوايا ريتشارد قلب الأسد الحقيقية من خلال اسئلة معينـة كان يواجههـا الى المبعـوث الفـرنجي . وتتبين فعلا كيف استطاع صلاح الدين النجاح في الوصول الى هدفه حينما اجبر المبعوث من خلال مفاوضات طويلة ومضنية على ان يكشف عن ان مليكه انما يهدف بادعاءاته الخاصة بالقدس، الى تحقيق مكسب سياسي تكتيكي وهو الحصول على أقصى ما يمكن من المفـاوضـات، وان الملك الانجليزي كان يخفي رغبته في العودة على عجل الى انجلترا التي كانت ظروفها الداخلية تستلزم عودة الملك سريعا اليها[٦٠] ولعل من اليسير أن نتصور النتائج التي ترتبت على الكشف عن مثل هذه المعلومات والتي كانت اكيدا في صالح صلاح الدين وساعدته خصوصا في مرحلة المفاوضات الخاصة بمسألة تدمير تحصينات عسقلان[٦١] .

وتـدل الشـواهـد التـاريخية على أن الأيوبيين كانـوا يقدرون ويهتمون بمثل هذه المصادر للمعلومات حتى من خلال المنازعات التي قامت بين أمراء البيت الأيوبي والمفاوضات التي جرت بينهم . فمثلا في أثناء النزاع الذي قام بين الملك العزيز والملك الأفضل (ولـدي صلاح الـدين) وعندما جرت مفاوضات بين الأخوين وكـان عماد الـدين الكاتب على رأس الوفد الذي ارسله الملك الافضل اراد الملك العزيز الاجتماع على انفراد مع عماد الدين، ولكن الاخـير أصر على بقـاء أحـد افـراد وفده وهو تاج الدين الكندي، لحضور هذه المقابلة خوفا من ان تحوم حوله الشبهات من طرف سيده[٦٢] .

ولعـل هذه الشـواهـد التاريخية الثلاثة السابق الاشارة اليها تكفي للدلالة على مدى الأهمية التي كان يعلق عليها الأيوبيون بالنسبة للمبعوثين بوصفهم مصادر هامة جدا للمعلومات المفيدة . .

٥٨ ـ Cl. CAHEN, La chronique de Kirtay et les Francs de Syrie, in Journal Asiatique, Janvier-Mars 1937, PP. 140–145.

٥٩ ـ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ١ ص ٢٢١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ، ص ٢٤٥ .

٦٠ ـ ابن شداد ، سيرة صلاح الدين، ص ٢٢٠ حيث يقول : « . . . وأخبرنا الرسـول من عند نفسه مناصحة : قد نزلوا عن حديث القدس ما عدا الزيارة، وانما يقولون ذلك تصنعا، وانهم راغبون في الصلح، وان الانكتار لا بد له من الرواح الى بلاده» .

٦١ ـ نفسه ، ص ٢٢٠ ـ ٢٣٦ .

٦٢ ـ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ص ٣٣ حيث نقرأ نقلا عن عماد الدين نفسه ما يلي : « . . . . ولما خرجنا من عند الملك العزيز، ردني اليه . . فرددت معي تاج الدين الكندي لئلا اتفرد بالخلوة معه فتظن بي الظنون» .

٢ ـ أسرى الحـــرب :

اهتم الأيوبيون كذلك باسرى الحرب من الأعداء للاستفادة مما لديهم من معلومات عن ذويهم وعن جيوشهم، وفي الحق لقد عثرنا في المصادر التاريخية على شواهد كثيرة بها أمثلة عن الدور الهام الذي لعبه هؤلاء العملاء المجبرين في مجال تزويد الجانب الأيوبي بمعلومات على درجة عالية من الأهمية عن الفرنج. فكان الأيوبيون يقـومـون ـ في الـواقـع باخضـاع هؤلاء الاسرى لاستجوابات مضنية ومتعمقة، وخصوصا اولئك الذين كانوا من بينهم يتبؤون مراكز القيادة في جيوشهم الفرنجية. بل ان هناك من المؤرخين من يذكـر ان صلاح الدين كان يحضر بنفسه احيانا جلسات الاستجواب التي كانت ترتب لأسرى الفرنج. فيذكرون ان صلاح الدين قد استدعى مرة اسيرين من الفرنجة ليستجوبهما بنفسه عن ذويهما، وانهما قاما بتزويد صلاح الدين بمعلومات غاية في الاهمية عن تحركـات جيش الفـرنـج، وعن مشروعـات التحصينـات التي كان ينـوي القيام بتنفيذهـا، وعن رجالهم وأسلحتهم وعُـدَدِهم[٦٣]. وفي الحق، لقـد كان اسرى الحرب يتعرضـون دائما لمثل هذه الاستجوابات التي كانت تهدف الى الحصـول على المعلومات عن الأعداء وبطبيعة الأحوال كان في امكـان الأعـداء تطبيق نفس هذا الأسلوب على اسـاوى المسلمـين[٦٤] وهـذا الاسلوب في الـواقـع، يعتـبر حق طبيعي لاطراف النزاع لا يمكن استهجانه، بل هو حق شرعي تتمسك به كل الجيوش حتى في العصر الحديث.

٣ ـ الأشخاص الذين يزاولون مهنا حقيقية أو غير حقيقية :ـ

المعروف انه نتج عن الحملات الصليبية ازدياد حركة السفر بين اوربا والأراضي المقدسة. ومن المنطقي ان ندرك ان الرحالة يعتبرون دائما مصدرا غنيا للمعلومات التي تكون احيانا على درجة عالية من الأهمية والجودة بسبب مشاهداتهم في البلاد التي يمرون عبرهـا وكـذلك من خلال ما يسمعونها أو هناك من اخبار تهم الاطـراف المتحـاربة. وكذلك القول بالنسبة للحجاج وللتجار سواء كانوا حقيقيين أو صوريين فقد كانوا يستطيعون القيام بدور خطير في مجال المخابرات والمعلومات، بل ان الشيخ الهروي الذي ذكرناه مرارا في هذا البحث كان واحدا من هؤلاء.

ونحن نعلم من المصادر ان الدولة الأيوبية كانت تقوم بارسال عملائها السريين تحت أغطية مختلفة الى أراضي الأعداء للقيام بمهمات تجسسية معينة، فمثلا يذكر لنا أبو شامه وابن واصل في هذا الخصوص نقلا عن القاضي بهاء الدين بن شداد ان الدولة الأيوبية قد أرسلت جواسيسهـا الى الأراضي البيزنـطية سنـة ٥٨٥هـ/ ١١٩٠م للتجسس على جيش فريدريك بربـاروسا الذي كان في طريقه الى الأراضي المقدسة[٦٥].

كما أننا نجد أيضا في مذكرات سعد الدين بن حموية الجويني فقـرة تاريخية تشهـد على أن الأيوبيين استخدموا جواسيس من الصـوفية ومن القسيسـين للقيام بأعمال المخابرات لصالحهم، مستغلين صفـاتهم الـدينية حتى لا ينكشف امرهم، ومن هذه القصص ما حكاه سعد الدين بن حموية لسبط بن الجوزي من انـه حدث اثناء ما كان في عام ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م حاكما على حصني الشوبك من قبل الملك المعظم انه كان هناك راهب يعيش في عزلة في منطقة جبلية مجاورة، وانه تلقى رسالة من الملك المعظم يأمره فيها باساءة معاملة هذا الراهب علنا ثم القيام بطرده من مكانه. فقام بتنفيذ هذا الامر وظل الراهب غائبا لمدة عام، ثم جاءته بعد ذلك رسالة من المعظم يدعوه فيها الى اعادة تسكين الراهب في مكانه، والى ان يعامله احسن معاملة ممكنة، وشرح له في هذه الرسالة قصة هذا الراهب التي تتلخص في انه كان عميلا للمعـظم الذي ارسله الى الساحل (أي بلاد الفرنج) كي يقوم بالتجسس لصالحـه على الامبراطور فريدريك الثاني، وانه قام بطرده ونفيه حتى لا يشك فيه الصليبيون ويثقون فيه، وانه كافأه على ذلك بمنحه قطعة أرض له، وضمن له معاشه واعطاه علاوة على ذلك الف دينار[٦٦].

---

٦٣ ـ ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص ١٨٦ حيث يقول «... واتى (صلاح الدين) باثنين من الفرنج فسألهم عن أحوال القوم، فذكر انه ربما أقاموا بيافا اياما، وفي أنفسهم عمارتها واشحانها بالرجال والعدد.

٦٤ ـ انـظر مادة «حرب» في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الجديدة) النسخة الفرنسية جـ٣ ص ١٨٦ التي كتبها Cl. CAHEN

٦٥ ـ ابوشامه، الروضتين، جـ٢ ص ١٥٠، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢ ص ٣١٠، حيث تقرأ: «... ورد في كتاب الملك الظاهر صاحب حلب الى ابـيه الســلطان يخبره انــه صح ان المــلك الألمــاني قد خرج من القسطنطينية... وبثثنا بالارسال الى بلاد الروم عيونا وجواسيسا».

٦٦ ـ Cl. CAHEN, Une source pour l'histoire des croisades: Les Mémoires de Sacd ad-Din Ibn Hamawiyya Juwaini, P. 323, dans Bulletin de la Faculté des Lettres de Stransbourg, 1949-1950.

وتدل الشواهد التاريخية التي ذكرناها على أن الأيوبيين قد قاموا ببث عملائهم من الجواسيس والمخبرين والعيون الذين عهدوا اليهم بمهام تختص بجمع أقصى قدر ممكن من المعلومات من كل الجهات وعلى كل أحوال الأعداء.

ولم يهمل الأيوبيون كذلك أهمية الدور الذي كان من الممكن ان تلعبه القبائل البدوية العربية في الصحراء، ففي الحق كان هؤلاء البدو يستطيعون القيام بخدمات جليلة في مجال المخابرات، وذلك بوصفهم أدلاء يدلون الجيش الأيوبي في دروب الصحراء أو حتى كجواسيس لحساب هذا الجيش. فنحن نعلم أن هؤلاء الاعراب كانوا يعرفون جيدا المناطق التي يمكن العيش فيها في الصحراء، والمسالك التي تؤدي الى ابار المياه فيها، ولهذا السبب اهتم الأيوبيون بهذه القبائل العربية مثل الكنانية الذين هاجروا من عسقلان الى دمياط سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٣م. ففي الحق لقد كان لأفراد هذه القبيلة فائدة جليلة لصلاح الدين حينما قاموا بارشاده عبر الصحراء وهو على رأس عسكره في طريقه نحو غزة وعسقلان سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م(٦٧).

وهكذا يرى القاريء انني حاولت في هذا الجزء الأول من البحث تكوين صورة هيكلية للمخابرات الأيوبية بقدر ما سمحت به المعلومات المتناثرة في المصادر والوثائق الأيوبية. واتضح لنا بما لا يدع مجالا للشك ان ملوك الاسرة الأيوبية قد استفادوا من الاسس التي وضعها السلاجقة والزنكيون في هذه المجالات ولكنهم قد طوروها بحيث انهم استطاعوا تطويعها لظروف عصرهم المتجددة، والتي دفعتهم الى ابتكار نظام متطور للمخابرات الحربية والهامة حتى يكون جيشهم على مستوى الأحداث التي شهدها عصرهم.

٦٧ - Gibb, The Armies of Saladin, in Cahiers de l'histoire égyptiènne, Le Caire 1951.

نلاحظ ان هذا البحث قد اعيد طبعه في كتاب

Studies of the civilization of Islam, London 1962.

في الفكر الاقتصادي العراقي
دراسة في كتاب الخراج لابي يوسف

د. امل عبد الحسين السعدي
معهد الدراسات القومية والاشتراكية
الجامعة المستنصرية

المقدمـــــــة

تعبر السياسة الزراعية في الدولة العربية الاسلامية عن مدى ارتباط الواقع الاقتصادي بالسمة السياسية العامة وفق السبل الكفيلة التي تضمن مصلحة الدولة والمزارعين على خد سواء.

ان الزراعة في أي بلد ما هي الا هبة من الخالق عز وجل نحوابناء ذلك البلد او هذا. واذا نظرنا الى العراق نرى ان الله قد حباه بوجود كل مستلزمات قيامها، اراضي خصبة، مياه وفيرة، سواعد متينة، عقول نيرة، وسلطة رشيدة. وتشكل الايرادات المستحصلة من القطاع الزراعي المحور الاساس لخزينة الدولة، والمعول عليها في تلبية متطلبات الانفاق على امور مختلفة سيما العسكرية ومستلزمات الاعمار الاقتصادي منها.

وبناء على ما تقدم فقد تبنى الفكر الاقتصادي العراقي بيان الضرورات الاساسية التي يجب ان تعتمد في تنظيم وتنفيذ مشاريع التنمية الزراعية التي اتخذت مسارين. يقع الاول ضمن اختصاص الجهات الرسمية، ويمثل الثاني الجهود الفردية الخاصة المتوجهة نحو استثمار الاراضي الزراعية التي تأتي عن طريق التعاقد مع الدولة او تلك التي يجري تمليكها للذين يقدمون على احيائها وفق الضوابط والتعليمات الصادرة بهذا الخصوص.

كان الفقيه العراقي ابي يوسف (ت ١٨٢ هـ/١٧٠١م) اول من تصدى لتحليل وتنفيذ مفردات السياسة الزراعية بناء على طلب وجه اليه من الخليفة هارون الرشيد. وتبنى خطة اقتصادية رصينة قوامها الواقع التطبيقي لما هوموجود من ناحية، ولمستجداته المستقبلية من ناحية أخرى. فجاء كتابه الخراج انموذجا الاكثر دلالة على مفردات الفكر الاقتصادي العراقي في مجال التخطيط والتحليل في جدولة وتنفيذ سياسة الدولة الزراعية، وارساء قواعد أسس متينة لها في هذا المجال.

لم نقتصر في بيان جوانب الفكر الاقتصادي الزراعي عند ابي يوسف من خلال كتابه الخراج فقط، بل واعتمدنا كذلك على ما اورده الفقيه البغدادي البصري الماوردي (ت، ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م) الذي اورد في ثنايا كتابه الموسوم الاحكام السلطانية تفسيرات لبعض الجوانب الفكرية المطروحة في كتاب الخراج.

لقد ارتأينا ان نقدم في هذا البحث ملامح عن الفكر الاقتصادي العراقي فقط كما جاء ذلك من المقترحات والتوجيهات التي ادلى بها الفقيه ابويوسف. ومن هذا المنطلق تم التركيز على هذه المضامين فقط. واما المضامين الاخرى التي وردت في كتاب الخراج والتي ترجع الى تنظيمات اقرت في الدولة العربية الاسلامية قبل ذلك وفق اسانيد الروايات الواردة في هذا الكتاب، فلم نطرحها في هذا البحث على اعتبار انها تطبيقات سابقة لحدود الفترة التي شملها كتاب الخراج الذي نحن بصدده.

١. ابويوسف نبذة عن حياته وكتابه

ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم فقيه عراقي مشهور ولد في الكوفة، ونشأ على محبة العلم، حيث شغف منذ صغره على الانضمام الى الحلقات العلمية التي كان يعقدها الفقهاء والمحدثين مما اضطره الى العمل منذ صغره ليتسنى له أمر الاستزادة من العلم والتعلم وشراء الكتب، حتى اضحى فقيها ومحدثا حافظا للتفسير والحديث والمغازي وايام العرب. ووصف بأنه «افقه اهل عصره ولم يتقدمه احد في زمانه، وكان النهاية في العلم والحكم والرياسة والقدر»(١).

لقد تقلد ابويوسف مناصب قضائية هامة ابان الخلافة العباسية حيث

١. الخطيب البغدادي، احمد بن علي، تأريخ بغداد، جـ ١٤ (بيروت، لا. ت) ص ٢٤٦.

عهد اليه الخليفة المهدي (١٥٨ ــ ١٦٩ هـ/٧٧٥ ــ ٧٨٥م) عام ١٦٦ هـ/ ٧٨٢ م تولي قضاء مدينة بغداد، وقد بقي يتقلد هذا المنصب في خلافة موسى الهادي (١٦٩ ــ ١٧٠ هـ/ ٧٨٥ ــ ٧٨٦م) الى خلافة الرشيد(٢) (١٧٠ ــ ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ ــ ٨٠٩م) حيث تم تطور مهم في عهده حين قام باستحداث منصب قضاء القضاة واضحى ابو يوسف اول قاضي قضاة في الدولة العربية الاسلامية، و يتولى صاحب هذه الوظيفة مهمة تولية ومراقبة وعزل قضاة الاقاليم والامصار(٣) وانه كان «يستنيب في سائر الاقاليم التي يحكم فيها الخليفة»(٤).

وكانت احكامه ومناظراته في القضاء مشهورة ومعروفة اعتمد فيها على الحديث والاجتهاد وشهد مجلس الرشيد الكثير من هذه المناظرات(٥). كما حرص بعض العلماء على متابعة حضور مجالس قضاء ابو يوسف التي تحولت الى مجالس علمية يناقش و يناظر العلماء فيها مختلف القضايا المطروحة بما في ذلك الدعاوى المقدمة الى حضرة قاضي القضاء لغرض الفصل فيها(٦)....

وكان لمنصب قاضي القضاة أثر كبير في تشكيل مفردات تفكيره الاقتصادي لما يتطلبه صاحب هذا المنصب من التعرف على طبيعة الدعاوى المقدمة الى القضاة فتكونت عنده مادة واسعة عن عدد كبير من المسائل المركزية التي تخص الاقتصاد الوطني. وبناء على ذلك فقد تبلورت في ذاكرته صورة متكاملة للنواحي المالية والادارية ورسم طريق تقويمها للخليفة هارون الرشيد عندما طلب منه تقديم دراسة شاملة بمقتضاها. ونجد معالم هذه الدراسة في كتابه الخراج موضوع البحث هنا. حيث نجده مجتهدا في ناحية وعارضا ومستخلصا اراء الصحابة وما اتفقت عليه جموع الأمة من ناحية اخرى. فجاء كتابه هذا عرضا شاملا للفكر الاقتصادي العربي الاسلامي بصورة عامة وطرحا لبعض ميزات وسمات الفكر الاقتصادي العراقي من خلال تبيان منظور الاقتصاد العربي الاسلامي حول ضرورة إيجاد مستجدات رصينة نحو آفاق تطوير روافد تنمية الاقتصاد الزراعي وارساء قواعد المؤسسات الادارية المرتبطة بها. و يتضح ذلك من الابواب والفصول التي يضمها كتابه الخراج. فقد بين جهود الرسول (ص) والخلفاء الراشدين في وضع اللبنات الاولى لمؤسسات الدولة الاقتصادية والاجراءات المالية المستجدة المرتبطة بها مثل معاملة اراضي السواد والشام والجزيرة، وفرض العطاء والكيفية التي تعامل بها اراضي الصلح والعنوة والقطائع والموات واحكام الصدقات والعشور. كما وضح ابو يوسف للخليفة مسائل اجتماعية كثيرة يستشف منها على طبيعة المجتمع العربي الاسلامي وروح التسامح والعدل والمساواة السائدة فيه والتي تجسدت في معاملة العاملين في القطاع الزراعي واستحصال الضرائب وصيانة ممتلكات اهل الذمة واحترام شعائرهم الجارية في الكنائس والبيع والصلبان.

كما وخصص ابويوسف فصلا لتوضيح احكام قضائية خاصة المفروضة على اصحاب الجنايات وما يجب فيها من الحدود مستشهدا باجراءات الرسول (صلى الله عليه وسلم) والصحابة واراء الفقهاء ازاء هذه الامور.

و بناء على ما تقدم فاننا نجد بين ثنايا كتابه الخراج تفنيد ومعالجة مسائل متفرقة لمختلف الجوانب، نخص بالذكر منها الخطة الاقتصادية التي رسمها للخليفة حيث طرح فيها افكار ومستجدات وسبل رصينة الى مضامينها هنا باعتبارها نقطة البحث المركزية التي تبرز اصالة الفكر الاقتصادي العراقي.

٢. اصلاح نظام الجباية

يعبر كتاب الخراج عن جوهر الفكر الاقتصادي العراقي الذي يسمو الى ايجاد مدلولات تطبيقية لمنهجية تبتغي اعتماد مسائل مركزية ذات صفة وابعاد اقتصادية بمفهوم انساني ازاء انماط النشاط الزراعي من حيث الاستثمارات الجارية في ظل التطور الطبيعي المتميز للمجتمع العربي الاسلامي ابان القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي وما بعده. وقد جاء الكتاب بمثابة تصحيحا جديدا لبعض المسارات وتحديد مدلولات لمؤشرات معينة افردت من واقع المجتمع وانماطه المتباينة. فأرتأى واقع الحال الى التزام سياسة تتخذ مفهوم التوازن الاقتصادي كأساس للتعديلات التي تبتغي اتخاذها الدول العربية الاسلامية وفقا للمفاهيم المستنبطة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة التي تدعو الى سيادة مبدأ المساواة والعدالة الاجتماعية.

من هذا المنطلق اعتبرت الدولة العربية الاسلامية بأن منهاجها ودستورها يجب ان يكون مبنيا على دراسة واصلاح واقع المجتمع وفقا للمستجدات المرافقة للتطور الذي شهده المجتمع العربي الاسلامي. من بين هذه المستجدات هو التصدي لدراسة الاوضاع الاقتصادية من خلال اصلاح نظم الجباية فيها. حيث أرتأى الخليفة هارون الرشيد دراسة

٢. ابن خلكان، احمد بن محمد بن ابي بكر، وفيات الاعيان وابناء الزمان، ج ٦، (بيروت، لا. ت)، ص ٣٨٢.

٣. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري، الطبقات الكبرى، ج ٣ (بيروت، ١٩٦٠م)، ص ٣٣١.

٤. وكيع، محمد بن خلف بن حيان، اخبار القضاة، صححه وعلق عليه عبد العزيز مصطفى المراغي، ج ٣ (بيروت، لا. ت) ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦.

٥. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٦/٣٧٩.

٦. وكيع، اخبار القضاة، ٣/٢٥٦.

النظم دراسة علمية تطبيقية للوصول منها الى تحديد الجوانب السلبية والايجابية لتلافي الاولى وترصين الثانية. وتبدو هذه الصورة واضحة من خلال المقدمة التي كتبها الفقيه ابو يوسف حيث قال(٧): «ان امير المؤمنين ايده الله تعالى سألني ان اضع له كتابا جامعا يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به، وانما اراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لامرهم». فالمقصود هنا الوصول الى تحديد دائرة مفهوم الحياة الجديدة لتلك الفترة، والوصول منها الى قرارات تطبيقية وخطة عمل شاملة لارساء قواعد الدولة وتثبيت كيانها حيث وجد ان ذلك مرهون باصلاح الرعية و«اقامة الحدود ورد الحقوق الى اهلها بالتثبت وللامر البين واحياء السنن التي سنها القوم الصالحون»(٨). ان سمة هذه السياسة لنراها واضحة ومثبتة بين ثنايا الكتاب.

ففي فصل «ما ينبغي ان يعمل به في السواد»(٩) ابتدى ابو يوسف التعبير عما اعتمده من دراسة وتحليل ميداني لعملية الجباية وسبل استحصال مبالغها حيث قام بمحاورة المختصين من «اهل العلم بالخراج» حول مدى ملائمة احكام الجباية ومطابقتها للظروف الانية والمستقبلية التي كانت وسوف تكون. وقد اجمع هؤلاء على انه لا يجوز العمل بهذه الاحكام ويجب التفكير باتخاذ بدائل اكثر اقتصادية وفعالية وواقعية جريا على السياسة المعتمدة في هذا الجانب في ان تكون الضريبة على قدر الطاقة والاحتمال. وعلى هذا تم ارساء منهجية واحكام جديدة تقوم على ربط برنامج الدولة المالي بأسس جباية قوامها «مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولاهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل»(١٠).

لقد حلل الماوردي مسألة قدر الطاقة والاحتمال وقال ان استثمار الأراضي وادوارها للغلة تتفاوت من ارض الى أخرى، ومعيار هذا التفاوت تتحدد بثلاثة امور منها درجة خصوبة الارض «من جودة يزكو بها زرعها او داء يقل بها ريعها». والمعيار الثاني اصناف الزروع فقد تكون حبوب او ثمار تختلف في مقدار انتاجيتها واسعارها، فمنها ما تكون باهضة الثمن وأخرى دونها وهكذا تختلف في مؤونتها وكلفتها. و يقسم الماوردي وسائل الارواء الى اربعة «اولها: ما سقاه الآدميون بغير آلة كالسيوح من العيون والانهار يساق اليها فيسيح عليها عند الحاجة ويمنع عنها عند الاستغناء وهذا اوفر المياه منفعة واقلها كلفه. والثاني: من المطر والندى. والثالث: ما سقته الارض بنداوتها وما استكن من الماء في قرارها فيشرب زرعها وشجرها بعروقه». اما الوسيلة الرابعة فهي اكثر الوسائل كلفة وعناء وهي السقي بآلة من نواضح ودواليب ودوالي(١١).

وعلى قدر الطاقة والاحتمال قام ابو يوسف بتحديد الوظيفة الخراجية المفروضة على الارض الزراعية التي اعتمد في تقريرها اولا على الطرق الاروائية المستعملة يسرها وعسرها، وعلى نوع المحاصيل الفصلية شتوية وصيفية ثانيا. فقدرت نسبة المقاسمة على الخمسين (٤٠٪) على الارض المزروعة حنطة وشعير المروية سيحا وعلى الخمس ونصف (٣٠٪) في حالة استعمال الدوالي. هذا في الشتاء، اما في فصل الصيف فقد احتسبت المقاسمة على الغلال المزروعة في اثنائها على نسبة الربع. وقدرت نسبة الثلث على بساتين النخيل والكروم والرطاب. والتفت ابو يوسف هنا الى الكيفية التي يتم بها تقدير المقاسمة غلة كانت ام نقدا بحيث لا يكون فيها «حمل على اهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر»، وبما هو اخف فيها على اهل الخراج. فان كانت غلة قدرت كيلا. وقسمت. وان كانت نقدا بيعت الغلة وقسم الثمن بينهم و بين الجهات الرسمية المسؤولة له عن استيفاء مبالغ المقاسمة(١٢).

واذا ما انتقلنا الى المفكر العراقي الماوردي فنجده يرى ان الوظيفة الخراجية المفروضة وفقا لمبدأ قدر الطاقة والاحتمال تستحصل بثلاثة اوجه على مساحة الارض وعلى مساحة الزرع او على المقاسمة. وكل وجه من هذه الوجوه الثلاثة يثبت لها ميقات خاص على حسب ظروف الزرع والحصاد. فهو معتبر بالسنة الهلالية عند مساحة الارض. ووفق السنة الشمسية على مساحة الزرع. اما المقاسمة فيجري تحديدها عند نضوج الغلة وحصادها(١٣).

ان اعتماد مبدأ قدر الطاقة والاحتمال في تقدير وظيفة الارض معرضة للزيادة والنقصان كل بحسب تغير الظروف او استمرارها وارتباطها بوسيلة الري المستخدمة من جهة وتشجيع عمارة الارض واستثمارها من جهة اخرى. فاذا وجد ان الزيادة في عائدية الارض قد حصل بسبب شق انهار او استنباط مياه. او كان على العكس من ذلك ان حصل نقصان في هذه العائدية بسبب قصور مستثمري الارض وانصرافهم عن عمارتها. فهنا في هذه الحالتين لا تزاد مقدار الوظيفة ولا تنقص وانما يأخذون

٧. الخطيب البغدادي، تأريخ بغداد، ١٤/٢٤٣.

٨. ابن كثير، اسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ج ١٠ (بيروت) ١٩٧٤ م) ص ١٨٠ ــ ١٨١.

٩. الخطيب البغدادي، تأريخ بغداد، ٤/٢٤٦.

١٠. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٦/٣٨٢.

١١. ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠/١٨١.

١٢. الخراج، تحقيق محمود الباجي، تونس، ١٩٨٤، ص ٥.

١٣. م. ن. ص٧.

العمارة لئلا يستديم خرابها. اما اذا حصل النقصان من جراء حدوث بثوق او انسداد في مجاري الانهار التي تروي هذه الارض او تلك. وتدخل هذه الامور ضمن اختصاصات بيت المال، فالخراج ساقط عن الارض المتضررة منها الى ان تؤخذ التدبيرات الواقية لها. وان تعذر امر اصلاحها فيمكن ان تحول هذه الاراضي من الزراعة الى مصايد ومراعي، وتوظف الضريبة وفقا للنسب المقررة على هذه الانواع من الاستثمارات (١٤).

واذا حصلت زيادة في العائدية بسبب زيادة الامطار استغنى خلالها عن الدوالي والدواليب والنواضح التي كانت تستعمل في ارواء تلك الاراضي. نظر الى هذا الامر نظرة مستقبلية ومنطقية. فان كانت عرضا لا تزاد الوظيفة، وان كانت مستديمة، فالزيادة في الوظيفة مرهونة برغبة السلطات المختصة التي تنظر الى هذه المسألة تبعا لمصلحة الاطراف المعنية المزارعين من جهة، وتأثيرها على عوائد ايرادات بيت المال. وعلى هذا الضوء تقرر الزيادة او البقاء على النسبة السابقة (١٥).

وعالج أبو يوسف كذلك مسألة الوظيفة المالية المفروضة على القطائع فهي على العشر عند اعتماد السيح في اروائهم على ان يكون ذلك مشروطا بنوع ومواصفات الغلة المزروعة من حيث قابليتها للخزن أو عدمه، فقد تكون سريعة التلف اذ قال: «ولست ارى العشر الا على ما يبقى في ايدي الناس وليس على الخضر التي لا بقاء لها ولا على الاعلاف ولا على الحطب عشرا». وشمل الصنف الاول وهي القابلة للخزن محاصيل الحنطة والشعير والذرة والارز والحبوب والسمسم واخرى غيرها. اما الصنف الثاني السريعة التلف التي شملت البطيخ والقثاء والخيار والقرع والباذنجان والجزر والبقول والرياحين (١٦).

وحددت المقاسمة على القطائع المروية بالدالية والغرب والسانية على نسبة نصف العشر بحكم ارتفاع حجم كلفة هذه الوسائل (١٧).

واذا ما وقفنا وقفة تأمل في أسس هذه التشريعات المالية، لتجلت لنا سمات الفكر الاقتصادي العراقي التي تقوم عند نقطة مركزية هامة قوامها المرونة والموضوعية وتوفير القدرات المالية في التحكم بالقرارات الاقتصادية بمستوى اتجاه المتغيرات الحاصلة في دائرة التطبيقات العملية في الزراعة بصورة خاصة، وواقع العمل الاقتصادي على وجه العموم فيها. ووفق سياق هذا المنظور نجد ان جهود ابي يوسف قد انصبت على تحليل واقع الاقتصاد الزراعي من خلال دراسة نظم الجباية المالية دراسة قائمة على الادراك العقلي والعمل الميداني. فقد تبين ان مسألة الاعمار مسألة متواصلة تتطلب التخطيط والمثابرة والجهد المتواصل كي تتحول في سياقاتها النهائية الى برامج سياسية للدولة العربية الاسلامية. اذ لاحظ اقتران احكام الجباية بسياسة الاعمار الزراعي، وان قصور الاولى عن مجارية المستجدات الحاصلة في هذا النشاط قد انعكست على عملية الاعمار بسبب محدودية القدرات المالية التي يمتلكها القائمين على زراعة الارض ومستثمريها. وقد بين هؤلاء ان «ما تعطل منذ مائة سنة او اكثر واقل فليس يمكن عمارته ولا استخراجه في قريب، ولمن يعمر ذلك حاجة الى مؤونة ونفقة لا تمكنه فهذا عذرنا في ترك عمارة ما قد تعطل» (١٨). وبناء على ذلك ولمواصلة الانتاج والابداع والنهوض باقتصاديات السواد، فقد ارتأى ابو يوسف التزام نظام جديد في الخراج يقوم على مبدأ المقاسمة كيلا او دراهم مسماة، وهذه مرهونة بحسب ما تخرجه الارض من الحاصل، ويجري تقسيمها حسب نسب معينة جرى تثبيتها كما بينا آنفا.

لقد كانت للمقاسمة مردودات ايجابية على خزينة الدولة ومستثمري الاراضي، اذ جعلت بين الطرفين علاقة ودية ثابتة مقترنة بأسس معينة لا يقع عليها أي تأثير من جراء التذبذب الحاصل في اسعار المواد الغذائية. وقد اكد ابو يوسف على هذه المسألة تأكيد المفكر الخبير بمعالم هذه الامور قائلا: «اما وظيفة الطعام (مقاسمة الغلة) فان كانت رخصا فاحشا لم يكتف السلطان بالذي وظف عليهم ولم يطلب نفسا بالحط عنهم ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور واما غلاء فاحشا لا يطيب السلطان نفسا بترك ما يستفضل اهل الخراج من ذلك (١٩).

وازاء على ما تقدم فقد اضحى المنهج المالي للدولة العربية الاسلامية وليد امرين متلازمين الجباية والاعمار من جهة، وارساء قواعد العدل الاجتماعي من جهة اخرى. وهذه واضحة من خلال المناظرات التي تمت بين فقيهنا ومجموعة من المختصين حول بيان الاسباب والمبررات التي تقف وراء هذه التغيرات الجوهرية لواقع الاحتسابات الضريبية لانماط الاستثمارات الزراعية، بعد ان كان الامر جاريا ومنذ خلافة عمر بن الخطاب (رض) (١٣ — ٢٣ هـ/ ٦٣٤ — ٦٤٤ م) على اقتران الخراج بمساحة الارض ونوع المحصول، وبغض النظر ان زرعت الارض ام تركت، حيث كان السؤال الموجه اليه: «لم رأيت ان يقاسم اهل الخراج ما اخرجت من الارض من صنوف الغلات وما اثمر النخل والشجر والكرم على ما قد وضعته من المقاسمات ولم تردهم الى ما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضعه على ارضهم ونخلهم وشجرهم وقد كانوا بذلك راضين وله محتملين». فأجاب ابو يوسف ان هذه المسألة عندما جرى تحديدها وتطبيقها آنذاك كانت الاسس فيها تسير وفق مجريات الامور وطبيعة الظروف السائدة فيها ولم تأخذ في اقرارها جانب

---

١٤. م. ن. ص ٤٩.

١٥. م. ن. ص ٥١.

١٦. الاحكام السلطانية والولايات الدينية (بيروت، ١٩٧٨)، ص ١٤٩.

١٧. الخراج، ص ٥ — ٥٢.

١٨. الاحكام السلطانية، ص ١٤٩.

١٩. م. ن. ص ١٥٠.

الاستمرارية والحتمية والالتزام بمقرارتها، بل روعي فيها المرونة ومستجدات الاحداث. فاذا ما تغيرت ظروف الاحتمال والطاقة وتغيرت احكام الجباية وعلى الامام ان «يختار فيجعل على كل ارض من الخراج ما يحتمل و يطيق اهلها». لان اتخاذ مبدأ الاحتمال والطاقة بنظر الاعتبار تحل كثيرمن المشاكل التي ترافق عملية استثمار الارض الزراعية. اذ قد يحدو ببعضهم عند استفحالها الى الجلاء عن ارضهم وتركهم لها، فتتركز الملكية حينئذ بين فئة قليلة ويحرم من نعمها الكثيرين. واستشهد ابو يوسف في ذلك باعمال وتطبقات الرسول صلى الله عليه وسلم في معاملته لاهل خيبر حين جعل مساقاتهم بالنصف. ثم هناك الأسس التي اعتمدها الخليفة عمر بن الخطاب (رض) عند تقرير ضريبة الخراج على المساحة وقوله لخبراء مسح سواد العراق «لعلكما حملتما الارض مالا تطيق دليل على انهما لو اخبراه انها لا تطيق ذلك الذي حملته من اهلها لنقص مما كان جعله عليهم من الخراج». واشار ابو يوسف كذلك الى اجراءات الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ــ ١٠١ هـ/ ٧١٧ ــ ٧٣٠) المالية التي طبقها في هذا الميدان وقوله لعامل العراق: «انظر الخراب فان اطاق شيئا فخذ منه ما اطاق واصلحه حتى يعمر ولا تأخذ من عامر لا يعتمل شيئا وما اجدب من العامر من الخراج فخذه في رفق وتسكين لأهل الارض»(٢٠).

٣. تنظيم الملكية

لقد تصدى الفكر الاقتصادي الى مسألة الملكية وتحديد ضوابطها وأسس العمل بموجبها. والذي نعنيه هنا الملكية الخاصة على اعتبار ان الملكية العامة قد جرى حسمها منذ ايام الخليفة عمر بن الخطاب (رض) حين اعتبر السواد فيئا عاما للمسلمين، ومنع تقسيمه على المزارعين في استثمارها وفق ضوابط محددة يلزم المزارعين بدفع ضريبة مقررة جرى اعتمادها طبقا لطاقة الارض الاستثمارية، وما استجد من ذلك من امور تطرق الى تفنيدها والقاء الضوء عليها في بداية البحث.

لقد نظر الفكر الاقتصادي العراقي الى الملكية الخاصة نظرة مستقبلية باعتبارها جزء من خطط التنمية العامة الجارية في الدولة العربية وكوسيلة من وسائل دعم الايرادات. اذ قال ابو يوسف بهذا الصدد: «ولا ارى ان يترك ارض لا ملك لاحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الامام فان ذلك اعمر للبلاد واكثر للخراج»(٢١). لان الملكية الخاصة قد حددت بصنف الاراضي المتروكة بحكم الموات يصعب استثمارها اما لكونها مغمورة بالمياه او ملحية او هناك صعوبات خاصة تكمن بعملية اروائها. ومن منطلق تشجيع عملية الاستثمار الزراعي فقد تقرر تحديد الاصناف التي يجرى تمليكها، واتخذت الاحكام اللازمة بازائها. منها ان تكون «غير عامرة ولا في يد أحد ولا ملك احد ولا وارثة ولا عليها اثر عمارة»(٢٢). حيث لا يجوز ان تمنح قطيعة يعرف مالكها اذ سوف تصبح بحكم المال المغتصب، وهذا ما ينافي احكام احيائها. ثم انه يجري اقطاعها للشخص المقتدر على زراعتها وتمسي هذه القطعة ملكا خاصا له ولاولاده من بعده ولا يجوز استردادها وله حق التصرف بها وزراعتها او بيعها. وقد وضع ابو يوسف هذه المسألة قائلا: «فلا يحل لمن يأتي بعدهم من الخلفاء ان يرد ذلك ولا يخرجه من يدي من هو في يده وارثا او مشتريا فأما ان اخذ الوالي من يد واحدا ارض واقطعها آخر فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحدا واعطى آخر»(٢٣).

وضمن سياق تعبئة جميع الطاقات لمنفعة الاقتصاد الوطني والتركيز على نقطة مركزية رصينة تدعو الى دعم احياء الاراضي نجد العمل على تشجيع استثمار الجزائر التي تتكون في دجلة والفرات بفعل تراكم الترسبات. وتتلخص عملية استثمارها بتحصينها حتى ينصب الماء عنها وقطع ما فيها من القصب ثم العمل على زراعتها بالسبل التي تكفل نجاح عملية استثمارها وزيادة عائدية الانتاج الزراعي من دون ان يشكل استثمارها اية اضرار على اصحاب الاراضي المجاورة. ويجب ان يأخذ بذلك مسبقا موافقة المسؤولين عليها. وقد حددت الدولة مواقع الجزر المسموح باستغلالها، والاخرى غير المسموح بها. اذ منعت التعليمات الصادرة بهذا الخصوص من استغلال واستثمار الجزر الواقعة ضمن حدود المدينة منها على سبيل المثال تلك الجزر الواقعة على الجانب الشرقي من مدينة بغداد والجزر الاخرى المجاورة لبستان موسى في بغداد ايضا. اذ لوحظ ان عملية تحصينها وزراعتها تشكل ضررا بالغا على اهل المنازل الكائنة في تلك المنطقة حيث انها تعرقل عملية وصول المياه الى اصحاب تلك الدور. وقال ابو يوسف بصدد ذلك: «ولا يسع الامام ان يقطع شيئا من هذا ولا يحدث فيه حدثا»(٢٤).

وعلى العكس من ذلك الجزر الواقعة خارج المدن حيث اعتبرت بمنزلة الاراضي الموات التي يجوز احياءها وفق الشروط المحددة قانونيا ورسميا. وضمن هذا السياق تم تشجيع احياء اراضي البطيحة وحددت شروط استغلالها بحبس المياه عنها وقطع قصبها واتخاذ مسنات لها. وكذلك

---

٢٠. م. ن. ص.

٢١. ابويوسف، الخراج، ص ٥٣.

٢٢. م. ن. ص٥٣.

٢٣. م. ن. ص ٥٠.

٢٤. م. ن. ص.

انظر قدامة، ابن جعفر الكاتب، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق محمد حسين الزبيدي (بغداد، ١٩٨١) ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣.

شملت هذه الاحكام كل من «عالج من اجمة أو من بحر او من بئر» (٢٥).

لقد وضعت ضوابط خاصة الزم القانون الاشخاص بمقتضاها على اتخاذها بنظر الاعتبار قبل الاقدام على احياء هذه الجزر من ذلك ان لا تكون ملكا لأحد او بيد احد. اذ لا يجوز ان تنتزع ملكيتها من يد من اقدم اولا على استصلاحها وان ايه محاولة للاستحواذ عليها من قبل شخص آخر تعتبر غير قانونية وتلغى حيازتها وترد الى الشخص الاول جريا على مبدأ الاسبقية في استغلالها حيث قال ابو يوسف: «... ولو ان رجلا احيا من ذلك شيئا قد كان له مالك قبله رددت ذلك الى الاول ولم اجعل للثاني فيه حقا» (٢٦).

كما واشارت التعليمات الى تشجيع اصحاب الدور والاراضي المجاورة لتلك الجزر من القيام باحيائها اذا ما رغبوا في ذلك وهم احق من غيرهم بحيازتها وقد وضح فقيهنا هذه المسألة قائلا: «واذا نضب الماء عند جزيرة في دجلة او الفرات وكانت بحذاء منزل رجل وفنائه فأراد ان يصيرها في فنائه و يزيدها فيه فليس له ذلك ولا يترك ذلك فاذا جاء رجل فحصنها من الماء وزرع فيها وادى حق السلطان فهي بمنزلة ارض الموات يحييها الرجل فان اراد هذا الذي هي بحذاء فنائه ان يعتملها و يؤدي عنها حق السلطان فهو احق بها وهي له» (٢٧).

وحددت الضوابط بعدم جواز اقامة اية مسناة على اية جزيرة نضب الماء عنها اذا ما ثبت ان ضرب هذه المسناة يشكل ضررا على حركة الملاحة النهرية في دجلة والفرات «وخاف المارة في السفن الغرق من ذلك». حيث اعتبرت الضوابط ان هذه الجزيرة بمنزلة الطريق العام لا يحق التجاوز فيه «ولا ينبغي لأحد ان يحدث شيئا في طريق المسلمين مما يضرهم ولا يجوز للامام ان يقطع شيئا من طريق المسلمين مما فيه الضرر عليهم ولا يسعه ذلك... وكذلك الجزائر التي ينضب عنها الماء في الفرات ودجلة... فان كان في ذلك ضرر لم يقطعها ومن احدث فيها حدثا وكان فيه ضرر ردت الى حالها الأولى» (٢٨).

اما الالتزامات الضريبية المترتبة على هذه الاراضي التي يجري استصلاحها فهي تسير وفق ضوابط حددت بمقتضاها عشر او خراج على حسب السبل التي اتخذت عند تحريرها صلحا او عنوة. وقد وضح ابو يوسف هذه الضوابط حيث قال: «... ومن احيا مواتا مما كان المسلمون افتتحوه مما كان في ايدي اهل الشرك عنوة وقد كان الامام قسمها بين الجند التي افتتحوها فهي ارض عشر.. فيؤدي العشر... وان كان الامام حين افتتحها تركها في ايدي اهلها ولم يكن قسمها بين اهلها فهي ارض خراج يؤدي عنها الذي احيا منها شيئا الخراج..» (٢٩). والامر الثاني الذي يتحدد بمقتضاه حجم الوظيفة هو سبل الأرواء المستعملة فيها. فاذا كانت الارض قريبة من احد الانهار او ضمن نطاق الاراضي المستفيدة من احد مشاريع الخراج العامة الكائنة في المنطقة والمنجزة من قبل الدولة فهي على حساب الخراج سواء ساق الماء اليها ام لم يسقه. واذا كانت على خلاف ذلك بعيدة عن هذه المشاريع و يستلزم الارواء حفر بئر فيها او استنباط عين منها فهي على نسبة العشر.

ان هذه الضوابط الضريبية قد شكلت القاعدة الرصينة والصالحة لعملية الانتاج والدليل العملي لتشجيع احياء الاراضي على صعيد تعبئة كافة الموارد الاقتصادية والبشرية. حيث حددت النسبة الضريبية وفق حجم الكلفة. فكلما زادت هذه الكلفة انخفض حجم الضريبة واضحت على نسبة العشر من ايرادها. ونعني بالكلفة هنا هي الاموال المصروفة على استصلاحها وتوفير مياه اروائها من بئر او عين ماء وحدد ابو يوسف هذه المسألة في باب تعدية للقطائع: «... انما يؤخذ منها العشر لما يلزم صاحب الاقطاع من المؤنة في حفر الانهار و بناء البيوت وعمل الارض وفي هذه مؤنة عظيمة على صاحب الاقطاع» (٣٠).

٤. عملية الارواء

كانت مسألة زيادة الانتاجية المقترنة بعملية تشجيع الاستثمار الزراعي تتطلب الجهد والعناية بتوفير المياه اللازمة لارواء الاراضي. وقد اولاها المسؤولون جل اهتمامهم حتى اضحت جزء مكملا وركنا من اركان سياسة الدولة الاقتصادية. ولغرض اتخاذ سبل التنسيق المطلوبة ازاء تنفيذها فقد قام الفقيه ابي يوسف بتحديد نوعية هذه المشاريع من ناحية الجهة المسؤولة عنها بما يتفق ومتطلبات مسيرة التنمية وظروف الاحياء. حيث جعل بعضها من ضمن المهام التي انيط أمر تنفيذها على عاتق الدولة لكونها مشاريع ضخمة تتطلب رصد اموال طائلة يتعذر على اية جهة اخرى من تمويلها وتنفيذها. هذا من جهة ومن جهة اخرى ان الاستفادة منها عامة وشاملة وتروي اراضي واسعة كتلك المشاريع المقرر اقامتها على دجلة والفرات او المنجزة منها والتي تتطلب الكرى والادامة. الى جانب هذه المشاريع هناك مشاريع اخرى الزم فيها اهل الخراج بوجوب تمويلها وادامتها. ولبيان وجه عائدية هذه المشاريع كان لا بد ان تخضع هذه المشاريع الى دراسة وتخطيط للوقوف على مدى الاستفادة منها بالسبل التي تكفل تحقيق زيادة العوائد الانتاجية الزراعية — لقد قدم ابو

٢٥. ابو يوسف، الخراج، ٨٧ — ٨٨.

٢٦. م. ن. ص ٦٣.

٢٧. م. ن. ص ٦٢.

٢٨. م. ن. ص ٦٣.

٢٩. م. ن. ص ٩٥.

٣٠. م. ن. ص ٩٤ — ٩٥.

يوسف في خطته مقترحا للخليفة بشأن اجراء دراسة تطبيقية لبعض هذه المشاريع منها وعلى سبيل المثال البت في الطلبات المقدمة من قبل اصحاب الاراضي المتضمنة احياء بعض الانهار القديمة المندثرة اذ انهم «ان استخرجوا لهم تلك الانهار واحتفروها واجرى الماء فيها عمرت هذه الاراضي الغامرة وزاد في خراجهم»(٣١). لقد اوصى ابويوسف بتأليف هيئة استشارية لدراسة هذه الطلبات مؤلفة من «أهل الخبرة والبصيرة به ومن يوثق بدينه وامانته من اهل ذلك البلد و يشاور فيه غير اهل ذلك البلد ممن له بصيرة ومعرفة ولا يجر الى نفسه بذلك منفعة ولا يدفع عنها به مضرة». يوكل الى هذه الجهات امر دراسة المشروع دراسة ميدانية لتغطية جوانبه على ان تأخذ بنظر الاعتبار حجم الاستثمارات والنتائج الاقتصادية المتحققة من هذا المشروع. فاذا ما توصلت اللجنة الى ان طبيعة المشروع المقترح كفيل بتحقيق هذه النتائج قدمت توصية بآرائه واتخذت الترتيبات اللازمة لتنفيذه وكلف بيت المال برصد النفقات عليه من باب المصروفات المخصصة لاقامة مثل هذه المشاريع.

وضمن سياق مسؤولية الدولة، تدخل قضية رصد المبالغ لصيانة مشاريع الري ومعالجة البثوق والمسنيات والبريدات الواقعة على دجلة والفرات والانهار المتفرعة منها. حيث ان الاهمال في معالجتها سوف يلحق اضرارا بليغة بالاقتصاد الوطني. وقد فسر ابويوسف هذه القضية التي تهم عامة المسلمين و بين ابعادها المستقبلية حيث قال: «انه امر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال لان عطب الارضين من هذا وشبهه، وانما يدخل الضرر من ذلك على الخراج... فتغرق ما للناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم»(٣٢).

هذا بخصوص المشاريع التي تولها الدولة، اما المشاريع الاخرى التي تقع حدود الاستفادة منها ضمن نطاق الارض الزراعية الخاصة ولا تتعدى الى حدود الاراضي الاخرى المجاورة لها مثل تلك الانهار التي يحفرها اهل الخراج «الى ارضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم و بساتينهم ومباقلهم». فقد جعل نفقة كريها واستصلاحها على عاتق الشخص القائم باستثمارها لكونه الطرف الوحيد المستفيد منها.

ثم تطرق ابويوسف الى مشاريع ارواء اخرى اقتضت طبيعة الاستفادة منها الى الانفاق المشترك بين الدولة واهل الخراج، باعتبارها مشاريع لا يجوز البت فيها من قبل اهل الخراج لئلا تتضارب مصالحهم فيتم كرى قسم من النهر وترك القسم الآخر كل بحسب ما يرتئيه صاحب الارض و بالسبل التي تحقق الارواء التام لارضه وعندما تتدخل الدولة هنا يضحى حكم الاستفادة من هذه المشاريع حكم عام وشامل لجميع الاراضي الواقعة ضمن حدود هذا المشروع. وقد وصف ابويوسف هذا النوع من المشاريع الاروائية قائلا: «واذا احتاج اهل السواد الى كرى انهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال واهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج»(٣٣).

٥. المشاركة الزراعية

نعني بالمشاركة هي عملية استقطاب الجهود من اجل تحقيق افضل انتاجية زراعية. وتحدد المشاركة بين مالك الارض واطراف اخرى وفق شروط يتفق عليها مسبقاً. لقد اتخذت لانماط هذه المشاركة خمسة وجوه ارتأى منها توفير القدرة العالية في الاستثمار والتوظيف الكامل للطاقات البشرية نحو طريق الانتاج والابداع والنهوض بالزراعة وتطوير انتاجية الارض كما ونوعا بالوسيلة التي تخدم المسيرة التنموية التي اعتمدها الفقيه ابويوسف في بيان فكره الاقتصادي. الوجه الاول للمشاركة هي العارية وقد فسرت على انها المشاركة التي «ليس فيها اجازة». وتعني معاملة الارض على سبيل الاعارة لكي يفسح المجال في استثمارها من قبل طرف آخر يجد فيه الكفاءة المطلوبة نحو تحقيق انتاجية اعلى فيما لو اعتمد على نفسه في زراعتها، وكانت تحدوه الرغبة في تركها لعدم توفر لديه الامكانات الكافية لزراعتها و يسير هذا العمل التعاوني وفق شروط محددة هي:

١. لا يلتزم الزارع بدفع بدل ايجار عنها.

٢. يلتزم الزارع بالصرف من ماله الخاص على انجاح العملية الزراعية مثل شراء البذور والبقر وامور النفقات الاخرى. ولا يلتزم صاحب الارض بدفع اية التزامات او اموال من هذا النوع فهي على عاتق المستعير للارض فقط.

٣. يتحمل زارع الارض كل النتائج المترتبة عن العملية الزراعية من ربح او خسارة.

٤. يلتزم صاحب الارض بدفع الضريبة المقررة اذا كانت خراج وعلى الزارع اذا كانت عشر(٣٤).

والوجه الآخر للمشاركة هي المناصفة. ونعني بها انفاق صاحب الأرض مع طرف آخر حول زراعة الأرض حيث يتعهد الطرفان بالانفاق مناصفة على متطلبات العمل الزراعي أي كل بنسبة ٥٠٪ من الكلفة. وكذلك تحدد هذه النسبة في توزيع عوائد الأرض من ربح أو خسارة اما

٣١. م. ن. ص ٩٥.
٣٢. م. ن. ص ٩٥ ــ ٩٦.
٣٣. م. ن. ص ٩٦.
٣٤. م. ن. ص ٦٩.

الضريبة المقررة على الأرض فهي على صاحب الأرض اذا كانت خراجا وعلى الطرف الآخر ان كانت ارض عشر.

وهناك المؤاجرة وهي الاتفاق على بدل ايجار ثابت ومحدد في المبلغ والفترة بأن يكون «بدراهم مسماة سنة او سنتين». وتتضمن هذه المشاركة التزام رب الارض بدفع النسبة الضريبية المقررة عليها سواء كانت خراجية ام عشرية.

والوجه الرابع للمشاركة هو المزارعة بالثلث والربع كل بحسب ما يجري الاتفاق عليه على ان يتعهد رب الارض بدفع الضريبة الخراجية «والعشر عليها جميعا في الزرع».

والمشاركة الاخرى هو ان يمتلك رب الارض كل مستلزمات استثمارها بقر و بذور واموال، الا انه غير قادر بمفرده على اكمال عملية الحرث والزراعة فيستعين بطرف آخر يتعهد على القيام بهذه المهام على ان يكون «الزرع... لرب الارض وللأكار أجر مثله والخراج على رب الارض والعشر في الطعام» (٣٥).

وضمن سياق المشاركة الجماعية، فقد اجازت الضوابط والتعليمات عملية المشاركة الجماعية في احياء الاراضي واستصلاحها بتظافر جهود الاطراف المتعاقدة نحو تعبئة كامل الطاقات في هذه العملية الانتاجية على ان يتم التعاقد واجراء تنفيذ المشروع قبل ان يقدم اي طرف على عملية استصلاح مفردة مهما كانت نوعيتها و بخلاف ذلك تعتبر الشركة باطلة اذ قال ابويوسف بهذا الصدد: «وان كان نضب الماء عنها حين دخل معه في الشركة باطلة وان كان لم ينضب عنها فالشركة جائزة» (٣٦).

٦. الضوابط الادارية والمالية

تصدى الفقيه ابويوسف لمعالجة الامور الجارية في مؤسسات الدولة الادارية والمالية واعتبرها ظواهر ذات نتائج سلبية على ايرادات الدولة وخزينتها. وقد عالج هذه المسألة من خلال محورين مركزيين الاول نظام التقبل الجاري في استحصال التزامات الضريبة المفروضة على الاراضي الزراعية. ولتدارك هذه المسألة فقد تم اعتماد دراسة ميدانية رصينة مبنية على أساس ما هو قائم فعلا. وحددت لها ضوابط اخذت بنظر الاعتبار عائدية الارض الزراعية وسياسة القائم بالضمان واراء اهل الخراج في ذلك. فتوصلت الدراسة الى نتائج اساسية تقضي بعدم صلاحية هذا النظام لتعارضه مع السياسة العامة للدولة العربية الاسلامية الرامية الى تحقيق التوافق بين الازدهار الاقتصادي والعدالة الاجتماعية بما يتفق وروح الدين الاسلامي. حيث وجد ان استمرار جباية الخراج بطريق الالتزام والضمان ــ الذي ذكر بصيغة التقبل ــ يؤدي الى «خراب البلاد وهلاك الرعية». لجملة اعتبارات لكون قيام المتقبل بابتزاز الخراج وعدم التقيد بالتعليمات الرسمية الصادرة بهذا الصدد، اذ كانت الايرادات التي يستحصلها المتقبل من ارباب الخراج تفوق النسب المقررة دون النظر الى الضوابط المقررة بشأن تقدير الضرائب المفروضة على الارض الزراعية كل بحسب صنفها وطاقتها الاستثمارية. ثم ان «المتقبل اذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف اهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم... والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح امره في قبالته ولعله ان يستفضل بعد ما يتقبل به فضلا كبيرا» (٣٧). ان هذه الامور تقود المتقبل الى اتخاذ اجراءات تتسم بالشدة والعنف واكراه المزارعين على دفع مبالغ اضافية تفوق حدود طاقتهم الفعلية، مما يؤدي الى عزوف بعضهم عن العمل الزراعي، وعدم استغلال الارض بالشكل الاكمل وكما هو يجب عند الالتزام بزراعتها. قال ابويوسف في توضيح هذا الامر: «وانما اكره القبالة لاني لا امن ان يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس عليهم... فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا و يدعوه فينكسر الخراج وليس يبقى على الفساد شيء ولن يقل مع الصلاح شيء» (٣٨).

واذا اقتضت ظروف العمل الزراعي الابقاء على هذا النظام فينبغي هنا ان تأخذ السلطات المختصة بنظر الاعتبار رأي ارباب الخراج في كل منطقة من حيث مدى ثقة المتقبل المسؤول عنها. والامر الثاني ان يقترن اختيار المتقبل بموافقة ارباب الخراج ومعرفتهم المباشرة به ليكونوا على بينة من ثقته وامانته على ان يكون ذلك مشفوعا بموافقة الخليفة لكي يكون المتقبل على بينة من عمله وذو معرفة تامة بحدود مسؤوليته والضوابط التي يجب الالتزام بها. وقد اجمل ابويوسف هذه المسألة قائلا: «وان جاء اهل طسوج او مصر من الأمصار ومعهم رجل من البلد المعروفة موسر فقال انا اتضمن... خراجهم ورضوا هم بذلك فقالوا: هذا اخف علينا نظر في ذلك فان كان صلاحا لأهل البلد... قبل وضمن واشهد عليه...» (٣٩). وقدم ابويوسف شرطا آخرا يقضي بوجوب تعين رقيب على المتضمن يقوم الخليفة بتعيينه ويحدد له راتب من بيت المال لصيانة حقوق الرعية والايرادات وبما هو «اصلح لاهل الخراج واوفر على بيت المال» (٤٠).

وتطرق ابويوسف الى قضية مهمة اخرى تتعلق بسمة ولاة الخراج، حيث اكد على وجوب اتصافهم بالثقة والامانة، وان يجري اختيارهم من بين الفقهاء والعلماء من اهل الصلاح والدين والامانة لكي تكون جبايته

٣٥. م. ن. ص ٦١.
٣٦. م. ن. ص ١١٣.
٣٧. م. ن. ص ١١٤.
٣٨. م. ن. ص ١١٣ــ١١٤.
٣٩. م. ن. ص ٩٣.
٤٠. م. ن. ص ٩٣ــ٩٤.

«للخراج كما يرسم له وترك الابتداع فيما يعاملهم به والمساواة بينهم في مجلسه ووجهه» (٤١). وعلى ان يرافق هؤلاء جماعة من الجند المعروفين بحسب السيرة والسلوك ومن له «الفهم واليسر والنعمة منهم» (٤٢).

اما المحور الثاني الذي أكد عليه ابو يوسف، فهو قضية رواتب بعض الفئات الوظيفية وصفة الجهات التي تتحمل دفعها. وقد نظر اليها من خلال مبدأ المنفعة، ونوعية الخدمة المقدمة من قبل اصحاب هذه الوظائف، ومدى فعاليتها في خدمة المصلحة العامة من جهة، ومدى كفاءة القائمين بهذه الوظيفة او تلك من جهة اخرى من هذه الوظائف التي جرى التأكيد عليها هي وظيفة القضاة والولاة وعمال الصدقة والامناء الموكل اليهم امر حفظ اموال اليتامى، ثم متولي الخراج. ومن خلال الأسس والضوابط التي اعتمدها في تقييم هذه الخدمات الوظيفية، فقد ارتأى بأن يجري على القضاة والولاة والعمال من بيت مال المسلمين لكون خدماتهم ذات علاقة بمجموع الامة. ولم يثبت رواتب موحدة لهذه الوظائف انما ارتأى ان تحدد نسبتها من بيت تلك المدينة. وكان للخليفة صلاحيات تامة بشأن زيادة نسبتها او تخفيضها كل بحسب ظروف المصلحة العامة لتلك المدينة. ووفق السبل التي يصلح بها امر الرعية. اي يجب ان يتناسب الراتب المدفوع مع نوع الخدمة لاختلاف المدن من حيث عدد سكانها وزخم اعمالهم وتنوع مشكلاتهم التي سوف ينعكس امرها على طبيعة عمل العامل والقاضي. اما عمال الصدقات فقد جرى احتساب رواتبهم وفق الاحكام التي جاءت في القرآن الكريم بخصوص الصدقات لقوله تعالى: «انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين في سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم» (٤٣). وجماعة العاملين عليها الوارد ذكرهم في هذه الآية الكريمة انما هم عمال الصدقات لكون واقع عملهم ذات ارتباط باستحصال اموال الصدقات.

وبخصوص الوكلاء والامناء المكلفين بحفظ اموال اليتامى وادارتها فيتم استيفاء رواتبهم من حصيلة الاموال كل بقدر ما تتحمله تلك الاموال بحيث «لا يجحف بمال الوارث فيذهب به و يأكله الوكلاء والامناء و يبقى الوارث هالكا» (٤٤).

اما ولاة الخراج ومن في معيتهم من الاعوان والجند فقد ارتأى ابو يوسف ان تحال رواتبهم الشهرية الى دواو ينهم المختصة بطبيعة اعمالهم، ومنع ان يتحمل ارباب الخراج اية جزء منها. وقد فند ابو يوسف هذه المسألة من باب انصاف الرعية من ابتزاز عمال الخراج حيث قال: «بلغني انه قد يكون في حاشية العامل والوالي جماعة منهم من له حرمة ومنهم من له أية وسيلة وليسوا بابرار ولا صالحين و يستعين بهم و يوجههم في اعماله... فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه انما مذهبهم اخذ شيء من الخراج كان او من اموال الرعية.... وربما وظف له اكثر مما يطلب به الرجل من الخراج» (٤٥). وسوف تترتب على هذه المعاملة انعكاسات سلبية على اهل الخراج والايرادات معا.

واشار ابو يوسف في كتابه الى مسألة تعزيز الايرادات ليس بزيادة نسبة الوظيفة الضريبية بل بمتابعة القائمين على ادارة بعض الممتلكات التي تدخل ايراداتها في خزينة الدولة، وحدد الضوابط التي يجب ان يلتزم بها كل من يوكل اليه هذا الواجب. واخص بالذكر منها ممتلكات كل من مات من المسلمين ولم يترك وريثا. فبحكم التعليمات الصادرة بهذا الخصوص ان ايرادات هذه الممتلكات من نخل وشجر ومزارع تكون من حصة بيت المال الى ان يدعي مدع منها شيئا بميراث يرثه عن بعض من مات وتركها و يأتي على ذلك ببرهان و بينة فيعطى منها ما يجب له (٤٦). الا انه لوحظ عند التدقيق عن وجوب تصرف شخصي في ايرادات هذه الممتلكات. منها على سبيل المثال ما كان جاريا في البصرة حول وجود اراضي واسعة تحت تصرف قاضيها الذي عهد بادارتها الى عدد من الوكلاء «يجري على الواحد منهم الفا والفين واقل وليس احد يدعي فيها دعوى وان القاضي ووكلاءه يأكلون ذلك.....» (٤٧). فأوصى ابو يوسف بمتابعة الموضوع عن طريق التحرى والتحقيق عن مقدار المبالغ التي استحصلها هذا القاضي من هذه الممتلكات ووجوب اعادتها الى بيت المال عند ثبوت ذلك. وامر باتخاذ الاجراءات اللازمة التي تكفل الغاء كيفية التصرف بهذه الايرادات على أن توكل الى اشخاص من اهل العدل والثقة والامانة و يتم اختيارهم من قبل الخليفة و يبلغوا بمجمل غلات هذه الاراضي الى بيت المال الذي سوف يتولى ادارتها وتدقيق حساباتها لحين ظهور وريث مستحق لها شرعا» (٤٨).

---

٤١. م. ن. ص ٩٤ ــ ٩٥.
٤٢. م. ن. ص ١٠٩.
٤٣. م. ن. ص ١٠٩.
٤٤. م. ن. ص ١٠٩ ــ ١١٠.
٤٥. م. ن. ص ١١٠.
٤٦. م. ن. ص ١١٠ ــ ١١١.
م. ن. ص ١١١
٤٧. سورة التوبة، اية ٦٠.
٤٨. م. ن. ص ١٨٧.

* الخلاصة *

يمثل كتاب الخراج طرحا لاحد الجوانب التي ركز عليها الفكر الاقتصادي العراقي، وهي مسألة وضع الخطوط المركزية للمالية العامة في الدولة العربية الاسلامية التي اتخذت مسار التوجيه والتخطيط. حيث ارتأى ابو يوسف (ت، ١٨٢ هـ/ ٧٠١م) في كتابه الموسوم الخراج تقديم خطة اقتصادية رصينة طرح للدراسة فيها الجوانب السلبية الكائنة في القوانين والتعليمات الجارية بخصوص الخراج والري وسبل معالجتها التي تكمن اما بالغاء بعضها او اجراء التعديل على البعض الآخر منها، مفندا وجه هذا الالغاء او التعديل. فقد وضح ان واقع الزراعة السائد في العراق والمرتبطة بالظروف الطبيعية تحتم اجراء تعديل الضريبة المفروضة على المحاصيل التي تتفاوت في فصول زراعتها، وطرق اروائها، وقابليتها للخزن. وهذه الامور لها ارتباطات واضحة بنوع الانشطة الاقتصادية السائدة في اسواق العراق والتي ستحدد بدورها عمليتي العرض والطلب فيها. وقد بين ان هذه الوظيفة ينبغي ان تتحدد على مبدأ قدر الطاقة والاحتمال المبني على اساس المقاسمة التي تراوحت بين الخمسين والربع كل حسب ظروف منطقتها. كما وفند ابو يوسف قضية مساهمة الدولة في تمويل انشاء وصيانة المشاريع الاروائية ذات السمة المعينة من ناحية كلفتها العالية وطبيعة موقعها. كما واشار الى الكيفية التي يتم بها تشجيع عملية احياء الاراضي واستصلاحها وسيكون هذا الامر مرتبطا الى حد كبير باصدار القرارات التي تقضي بتقليل نسبة الوظيفة المالية المترتبة عليها.

واخيرا ينبغي على الباحثين الذين سيتوجهون لتصدي موضوع التخطيط الاقتصادي ان يعتمدوا على خطة ابي يوسف المطروحة في كتابه الخراج، باعتبارها منهجا اقتصاديا تطبيقا لواقع الحياة السائدة في الخلافة العباسية ابان تلك المرحلة.

المصادر

الخطيب البغدادي، احمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م) تأريخ بغداد (بيروت، لا. ت).

ابن خلكان، احمد بن محمد بن ابي بكر (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٣ م) وفيات الاعيان وابناء الزمان، (بيروت، لا، ت).

ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٣٣٠ هـ/ ٨٤٤م) الطبقات الكبرى (بيروت، ١٩٦٠ م).

قدامة، ابن جعفر الكاتب (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م) الخراج وصناعة الكتابة شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي (بغداد، ١٩٨١ م).

ابن كثير، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٣ م) البداية والنهاية (بيروت، ١٩٧٤ م).

الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م) الاحكام السلطانية والولايات الدينية (بيروت، ١٩٧٨ م).

وكيع، محمد بن خلف بن حيان ((ت ٣٠٦ هـ/ ٩١٨م) اخبار القضاة، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي (بيروت، لا. ت).

ابويوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م) الخراج، تحقيق محمود الباجي (تونس، ص ١٩٨٤ م).

الدولة القراخانية

د. حسين علي الداقوقي
كلية التربية ــ جامعة بغداد

الدولة القرا خانية أول دولة تركية ظهرت في التاريخ في اواسط القرن العاشر، وحكمت حتى أواخر القرن الثاني عشر. انتزعت خلال هذه الفترة من السامانيين بلاد ما وراء النهر فامتدت حدودها في آسيا الوسطى من قانصو الى سواحل بحيرة آرال من جهة، والى حوض بحيرة بلكاش من جهة أخرى (١).

لم يدرس تاريخ الدولة القراخانية دراسة علمية وافية تتناسب وأهميتها، سواء تاريخها السياسي أم تاريخها الحضاري سوى جوانب محدودة جداً من تاريخها الفكري. ومن الممكن تعليل ذلك بالاسباب التالية :

أولاً : بعد الدولة القاصية من حواضر العالم الاسلامي، وصعوبة معرفة حدودها والامارات التي تضمنتها، فان المعلومات المتوفرة على النقود ايضاً لا تحل مشاكل تواريخ هذه الدولة (٢).

ثانياً : قلة المراجع المتوفرة عنها بحيث اننا لا نعلم شيئاً عن ظهور الأسرة الحاكمة فيها، وقيام الدولة و بداياتها الاولى، كما اننا لا نعلم كيف ومتى دخلت الاسرة الحاكمة في الاسلام علم اليقين.

اما المصادر فانها تبدأ بتقديم معلومات مهمة منذ النصف الثاني من القرن العاشر. وتدور هذه المعلومات حول العلاقات السياسية بين القراخانية والسامانية، وتوضح استيلاء الحاكم القراخاني بقراخان هارون بن موسى على ما وراء النهر ٩٩٢ م، و بالتالي القضاء على الدولة السامانية عام ٩٩٩ م من قبل ايلك خان (نصر بن علي).

ثالثاً : قلة الاهتمام بتاريخ هذه الدولة بسبب فقدان كثير من المراجع التي تتناول هذه البلاد. وليس من المستبعد ان يكشف المستقبل عنها من بين التراث العربي الاسلامي الذي يزخر بكم هائل من المؤلفات المخطوطة المكتوبة في فترات تاريخية مختلفة والمنتشرة في شتى مكتبات العالم.

ومما يؤسف له ان المراجع المفقودة وهي الأسس المهمة في تاريخ هذا الاقليم، وهي التي استقى منها النقلة من مؤلفي القرن الرابع عشر وما بعده، وافادوا منها في هذا الصدد. نذكر عدداً منها على سبيل المثال :

١. كتاب نجم الدين ابو حفص عمر بن محمد بن أحمد النسفي السمرقندي الحنفي (٤٦١ ــ ٥٣٧ هـ / ١٠٦٩ ــ ١١٤٢ م) فصل في ترجمة ابن النجار في مخطوطته.

ولد في نسف عام ٤٦١ هـ ودرس على علماء مدينته وعلماء ما وراء النهر في فترة استغلها وقصد الحج وخلالها مرّ ببغداد في ٥٠٧ هـ. ودرس الحديث والفقه على بعض علماء بغداد. ثم عاد الى بلده واستقر في سمرقند حيث وافاه الأجل في ١٣ جمادي الاول ٥٣٧ هـ / ٤ تشرين الثاني ١١٤٢ م.

اشتغل ابو حفص بالفقه والحديث والكلام والتاريخ والأدب وموضوعات متنوعة وكتب فيها مؤلفات. وله كتاب القند في معرفة علماء سمرقند يبحث عن الذين درسوا في هذه المدينة ودرسوا فيها خاصة علماء الحديث. وفي رواية انه الف هذا الكتاب ذيلاً لكتاب ابي سعيد عبد الرحمن الادريسي (٣).

يشير المؤرخ التركي رمضان شيشن في مقال له انه عثر على نسخة ناقصة من هذا الكتاب في مكتبة السليمانية ــ تورهان والده رقم (٧٠) يبدوانه الفه عام (٥٣٠) هـ. هذا بينما يذكر الاستاذ مدرس رضوي في مقدمة تاريخ بخارى للنرشخي : «ان تاريخ بخارى وسمرقند المعروف باسم القند يقع في (٢٠) مجلد الفه ابو حفص النسوي وذكره السمعاني و

١. N. S. Banarb, Türk Edebiyate Tarihi 11218

كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، نقله الى العربية، بدر الدين القاسم، (دار الحقيقه للطباعة والنشر في بيروت). المجلد الاول، ص ٣٤٦.

٢. لين بول، دول اسلامية، ترجمة واضافة خليل ادهم (استانبول ١٩٢٧)، ص ١٨٠.

٣. مخطوطة ابن النجار، تاريخ بغداد، مكتبة الدراسات العليا رقم ٥٧٥ .Tarih Dergisi, Anart 1967

الذهبي في العبر واستفاد منه مؤرخون غيرهما (٤).

أما مختصر هذا الكتاب فموجود بباريس B.N. Ar. Mss يقول الاستاذ زكي وليدي في كتابه المشهور (أصول البحث في التاريخ) ـ بالتركية ـ ان كتاب ابي حفص الأصلي بقيت منه منتخبات في كتابه موجود في لينغراد / المتحف الاسيوي N.Aa 574 ag, Abb 574 ag وفي مكتبة جامعةلنينغراد(c) N.859 نشر بارتولد اقساماً منه (٥).

٢. ابو سعد (سعيد) عبد الرحمن بن محمد الادريسي (ت ٤٠٥ هـ/ ١٠١٥ م). الاكمال لمعرفة الرجال بسمرقند والذيل عليه، القند لابي حفص النسفي، ومنتخب القند لتلميذه محمد بن عبد الجليل السمرقندي ٥٣٧/١١٤٢ (٦).

٣. ابو العباس جعفر بن محمد المستغفري النسفي (٤٣٢ هـ/ ١٠٤٠ م) تاريخ سمرقند، استفاد منه النسفي وكذا للمستغفري النسفي كتاب تاريخ نسف (٧).

كذلك ثمة مؤلفات وضعت كتواريخ سمرقند المذكورة منها:

١. مسلمة بن قاسم، تاريخ بخارى وهو ذيل تاريخ بخارى لابي عبد الله محمد بن اسماعيل الحافظ صاحب تاريخ بخارى (ت ٢٥٦ هـ).

٢. مسعد (سعيد) بن جناح، تاريخ بخارى، ذكره ابن فندق في مقدمة تاريخ بيهق.

٣. محمد بن أحمد سليمان المعروف بـ (غنجار) البخاري (٣٣٧ ـ ٤١٣ هـ) استفاد منه ياقوت في ارشاد الاريب والذهبي في العبر (٨).

كذلك بين المراجع المفقودة كتاب مشرف الزمان مجد الدين محمد بن عدنان السرخكتي، تاريخ ما وراء النهر وتاريخ تركستان. وكان مجد الدين طبيب البلاط القراخاني في بخارى الف كتابه لقليج طمغاج خان ابراهيم بن حسين (٥٧٤ ـ ٥٩٧ هـ) (٩). ومن التواريخ المهمة التي نفتقدها ايضا كتاب ابو الفتوح عبد الغافر بن الحسين الالمعي الكاشغري وهو صاحب تاريخ كاشغر.

ولعل الكتب المؤلفة المفقودة حول تاريخ منطقة خوارزم، وهي منطقة متداخلة مع بلاد ما وراء النهر، من المراجع المفيدة للأخيرة نذكر منها:

١. السري بن دلويه، تاريخ خوارزم في مجلدين كبيرين (١٠).

٢. مطهر الدين الكاشي، تاريخ خوارزم (١١).

٣. محمد بن محمد بن ارسلان الخوارزمي، تاريخ خوارزم (١٢).

ولا نعلم شيئاً عن محتوى كتاب (مفاخر الاتراك) المؤلف باسم السلطان سنجر السلجوقي (١٣).

المسكوكات:

وصلتنا من العهد القراخاني مقادير جيده من المسكوكات التي تلقي ضوءاً على القاب الحكام ومواقع الضرب ومراكز المناطق و حواضرها (١٤).

الوثائق: منها ما عثر عليه البروفسور زكي وليدى توغان وكتب عنه مقالة ضافية (١٥).

أ. وثيقة عثر عليها ضمن نسخة خطية لكتاب في الفقه لبرهان الدين بن مازه البخاري المتوفي في (٥٧٠ هـ/١١٧٤م) في قسم العقود و«الشروط» من كتابة الكبير المرسوم بـ (المحيط). مكتبة السليمانية، رقم ٦٠١.

وتدور الوثيقة حول منشآت من مدرسة ومسجد ودار للطلبة ومستشفى

٤. النرشخي، تاريخ بخارى، مقدمة مدرس رضوي. الترجمة العربية.

٥. Z.V. Togan, Umumi Türk Tarihine Giris S.207 .

٦. الصفدي، الوافي، الجزء الاول، حاجي خليفه، كشف الظنون، ص ٢٩٦.

٧. الصفدي، ٤٨/١، حاجي خليفة، ص ٢٩٦.

٨. الصفدي، نفس الصفحة، حاجي خليفه، ص ٢٨٦.

٩. شرف الزمان مروزي، طبائع الحيوان، ص ١٥٧.
ابن الاثير لباب الالباب، ١٧٩/١٠ ـ ١٨١، سديد الدين محمد عوفي، منتخب جوامع الحكايات ولوامع الروايات، تحقيق د. بانومصفا كريمي ٣٢٤ الجزء الأول من القسم الثالث.

١٠. البيهقي، تاريخ بيهق، ص ٣٣، اللباب ١٩/٣.

١١. الصفدي، ٤٨/١.

١٢. ياقوت، ارشاد الاريب ٤٤/٥. ابن قاضي شهبه، طبقات النحاة و اللغويين، نشره محسن غياص النجف.

١٣. القائني، تتمة صوان الحكمية، ص ١٣٤، عمر خيام، نوروزنامه، تحقيق نبوي ١٣٠، تاريخ بهيق ٤١٩.

١٤. توجد في مكتبة دائرة الآثار القديمة العامة مجموعة كاملة من النقود الاسلامية نشرها لين بول بينها النقود القراخانية:
Catalogue of Oriental Coins in The British Museum
London, 1876, 11, 120-126, 1889, IX, 193-197.
أما ما نشره A. Markov فقد اطلعنا عليه بواسطة البروفسور اوميليان والبروفسور كنج.
كذلك أفدنا مما نشره احمد توحيد، موزه همايون مسكوكات قديمة اسلامية كاتالوغي، استانبول ١٣٩، ص ١ ـ ٣٦.

١٥. «Z.V. Togan, Karahanblar Tarihine Ait Baze
Kayitlar» Turk Yurdu, Cilt, 5, Sayi, 11.

اقامها طمغاج/خان ابراهيم (١٠٤١ ــ ١٠٦٨ م) في جانب من سمرقند القديمة ووقف عليها اوقافاً غنيه. والوثيقة وقفية تحوي معلومات حول اوقاف هذه المباني. راجع ص ٧ ــ ٨ من المجلة.

ب. الوثيقة الثانية وتدعى بـ (الرسالة البهائية) الموجودة في ورقة 65b من مخطوطة كتاب (نوادر الاصول) للحكيم الترمذي. يرجع تاريخ تأليف هذا الكتاب الى ما قبل العهد القراخاني بكثير والنسخ المتوفرة منه في مكتبات استانبول لا تضم هذه الوثيقة سوى هذه النسخة.

اما الوثيقة فانها وضعت من قبل الحاكم شمس الملك نصر بن طمغاج خان ابراهيم وخلفه (١٠٦٨ ــ ١٠٨٠ م) حول اوقاف من مسجد ومدرسة ومؤسسات خيرية تعرف جميعاً بـ (رباط ملك). راجع الرسالة البهائية، قيصرى، مكتبة رشيد افندي رقم ١١١٠، الورقة ٦٥b.

جـ. وثيقة اخرى موجودة في مدخل كتاب في الطب محفوظ في مكتبة مغنيسا العامة برقم ١٧٩٥ الفها هبة الله بن محمد الطبري، قدمها الى أمير قراخاني اسمه توغان تكين مأمون. راجع ص ٩ ــ ١٠ من مقالة وليدي في نفس المجلة.

وبالاضافة الى هذه الوثائق فهناك غيرها عثرت عليها صدفة عام ١٩١١ م قرب موقع (ياركند) وهي مكونة من (١٥) سجلا بالعربية والتركية تضم قرارات المحكمة حول سندات بيع البساتين. ثلاث سندات منها بالعربية نشرها P. Pelliot وفيها معلومات جيدة حول القاب مدنية وعسكرية ومعلومات حول نظام القضاء. وسند واحد من المجموعة العربية نشره بارتولدمع الترجمة الانكليزية في مجلة B.S.O.S S المجلد الثالث لسنة ١٩٢٣ من ص ١٥١ ــ ١٥٨. وثلاثة سندات منها وهي بالعربية نشرها كليمان هيوار في مجلة B A المجلد الرابع لسنة ١٩١٤ ص ٦٠٨ ــ ٦٢٧. كذلك نشر البروفسور شناسي تكين خمسة سندات منها وهي باللغة التركية الاوليغوريه و بالحروف العربية في مجلة الدراسات السلجوقية الصادرة بالتركية في انقره، المجلد الرابع سنة ١٩٧٥، ص ١٥٧ ــ ١٨٦.

الكتب:

يأتي كتاب (قوتاد غوبيليك) الذي ألفه يوسف خاص حاجب عام (١٠٦٩/١٠٧٠ م) في المرتبة الأولى بين مراجع هذه الفترة. ولد يوسف في مدينة بلاساغون و يبدو انه تلقى تعليماً جيداً وغدا مثقفاً من الطراز الأول في زمانه. أكمل كتابه في مدينة كاشغر وقدمه إلى حاكمها طفغاج بغرا قراخاقان أبو علي الحسن بن سليمان فاكتسب مودة الحاكم وثقته به حتى غدا حاجبه الأول في البلاط. شرح المؤلف في هذا الكتاب النظم الادارية السائدة هناك والنظم العسكرية ونظام الحسبة والقضاء مع تقديم نصائح لرجال الدولة موضحاً حالة المجتمع الجديد الذي دخل في حوزة الحضارة الاسلامية. سنفرد لدراسة هذا الكتاب فصلا مستقلا في نهاية البحث.

ومصدر آخر يرجع تاريخه الى هذا العهد ايضا و يأتي في مقدمة المراجع هو (ديوان لغات الترك). والكتاب معجم واسع بل خزانة كبيرة للغة التركية وثقافتها بما فيها التاريخ والجغرافيا والقصص والاساطير والعادات والاعراف والمآكل والملابس والمساكن والاسلحة ومختلف صنوف المواد الثقافية المادية و معلومات حول الحياة الاقتصادية في ذلك المجتمع آنذاك. وكتاب (تاريخ بخارى) للنرشخي (٣٤٨/٩٥٩ هـ) له موقعه في تاريخ ما وراء النهر. قدمه مؤلفه الى الحاكم الساماني نوح بن منصور (٩٤٣ ــ ٩٥٤ هـ). وفي سنة ١١٢٨ أضيفت اليه معلومات جديدة من جانب أحمد بن نصر القباوي. ثم اضيفت اليه في القرن الثاني عشر معلومات أخرى من قبل محمد بن زفر. وفي عام ١١٧٨ م ترجم الى الفارسية. وفي هذا الكتاب معلومات مفيدة حول حركة العمران عند القراخانيين مضافاً اليها بعض المعلومات الادارية في هذا العهد(١٦).

ومن المفيد ايضاً مراجعة كتابي (لباب الالباب) و(جوامع الحكايات ولوامع الروايات)(١٧) لمحمد عوفي الذي كان رئيس ديوان الانشاء في آواخر فترة القراخانيين عندما كان قليج ارسلان خان عثمان بن ابراهيم لا زال ولي عهد الدولة. استفاد عوفي من الكتب المعاصرة مثل كتاب (اغراض السياسة في علم الرياسة)(١٨) وهو كتاب سياسة واخلاق الفه كاتبه باسم الحاكم القراخاني مسعود الثاني (ت ١١٧٨ م).

ولا نغالي في القول اذا ذكرنا ان كتاب الانساب للسمعاني (ت ٥٦٢ هـ/١١٦٦ م) موسوعة مفصلة عن رجال الحركة الفكرية في العهد القراخاني فقد فصل في التراجم او اختصر احيانا واورد مؤلفات

١٦. ترجم قسم من الكتاب الى الفرنسية من مثل Cn. Schafer
Chrestomathie Piersane, Paris, 1883
ثم اعاد شفر نشره كاملا.
ونرجم الى العربية ترجمة جيدة على اساس ترجمة شفر و بالمقارنة مع نشرة رضوي (١٣١٧ ش). باسم تاريخ بخارى، ترجمة امين عبد المجيد بدوي ــ نصر الله مبشر الطرازي، القاهرة، ١٩٦٥.

١٧. محمد عوفي، لباب الالباب، نشره سعيد نفيس، طهران ١٣٣٥ ش، محمد عوفي، جوامع الحكايات ولوامع الروايات. المجلد الاول من القسم الثاني ــ الثالث.

١٨. محمد بن علي بن محمد الحسن الظهير الكاتب السمرقندي، كتاب اغراض السياسة في علم الرياسة. مخطوطة محفوظة في مكتبة ايا صوفيا (استانبول) رقم ٢٨٤٤. معظمه عبر وحكم سياسية شرحها بالفارسية.

العلماء واخبارهم و بذلك يلقي ضوءاً ساطعاً على الجوانب الثقافية بوجه خاص (١٩). اضف الى ذلك كتاب (التحبير) فهو الآخر مصدر مهم لتحقيق هذا الغرض ومن مؤلفي القرن السادس نظامى من عروض سمرقندي صاحب كتاب (جهار مقالة) الفه في (٥٥١ ـ ٥٥٢ هـ/١١٥٦ ـ ١١٥٧ م) للأمير الغورى الى الحسن حسام الدين علي. وفي هذا الكتاب معلومات عن بعض شخصيات النشاط الفكري خلال هذه الفترة. كما ان الباحث يستفيد من تعليقات القزوتي على عدد من النقاط المهمة (٢٠).

أما عز الدين بن الأثير الجزري (ت ٦٣٠/١٢٣٢) صاحب كتاب الكامل (٢١) في التاريخ فهو بحق أعظم مؤرخي العصور الوسطى. ويمتاز عن غيره في انه توسع فيما اعتاد غيره الاختصار او عدم الخوض فيه. وبالنسبة لموضوعنا فهو أكمل كتب التاريخ المعروفة لدينا حتى ذلك الوقت. يهتم ابن الأثير بالنشاط السياسي والعسكري كثيراً دون ان يترك الاشارة الى علماء هذا العصر. لذا فقد غدا مصدراً لعديد من المؤرخين الذين أتوا من بعده فقد عمد بعض هؤلاء الى تلخيص ما ذكره الكامل عن تاريخ هذه الفترة. ومما هو جدير بالذكر ايضا ان كتابه اللباب (٢٢) هو الآخر كنز لتاريخ الحركة الفكرية خلال هذا العصر.

ولا يخلو كتاب (سياست نامه) للوزير السلجوقي نظام الملك من فوائد أصيلة كاشاراته الى بعض القبائل التركية وعلاقات السلاجقة بالقراخانية. اما ما ذكره عن أصل القراخانية فهو جملة يلفها الغموض لم يشرحها ناشروه وكذا مترجمة الى العربية (٢٣).

ثمة مؤلف مهم آخر يردده الكُتّاب خلال ابحاثهم ذلك ابو الفضل جمال القرشي الذي نقل في ١٢٨٢ كتاب الصراح في اللغة للجوهري الى الفارسية. وفي اواخر القرن الثالث عشر أضاف الى اول الكتاب اضافة سماها ملحقات الصراح اعطى فيها معلومات قيمة جداً حول العلماء والشيوخ وحول الجانب السياسي. والمهم في هذا الكتاب ايضا انه ينقل عن كتاب تاريخ كاشغر (المفقود في الوقت الحاضر) للكاشغري (٢٤).

وفي تاريخ العلاقات بين القراخانية والغزنوية يستفاد بوجه خاص من تاريخ الغزنويين الفه ابو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي باسم السلطان محمود الغزنوي سماه تاريخ اليمين (٢٥). وفي الكتاب فوائد كثيرة حول اواخر العهد الساماني بالاضافة الى ما ذكر.

أما كتاب ابو الفضل البيهقي (ت ١٠٧٧/١٠٧٨ م) الموسوم بتاريخ بيهقي (٢٦) ففيه معلومات عن القبائل التركية و يعطي معلومات واسعة عن السلطان مسعود الغزنوي وعلاقاته الخارجية. كذلك اشتهر كتاب زين الأخبار لابي سعيد عبد الحي بن ضحاك الكرديزي (٢٧) بمكانته بين مصادر الفترة القراخانية يسرد معلومات عن التاريخ السياسي و يذكر اشارات الى التاريخ الاجتماعي.

أما المؤرخ العثماني منجم باشي فمشهور بكتابه جامع الدول (٢٨) ومنه ثلاث نسخ في مكتبات استانبول. أدقها ما في مكتبة طوبقيو. ألفه عام (١٠٩٢ = ١٦٨١). فهو مؤلف قيم في التاريخ السياسي و يذكر رواية ينفرد بها وهي ان عدد الاسرة المالكة المؤسسة للقراخانية كان (٢٠) شخصاً دون ان يبين القبيلة التي ينتمون اليها.

ولا يستغني الباحث من الرجوع الى مصادر تاريخ الدولة

---

١٩. السمعاني، الانساب. تصحيح عبد الرحمان اليماني، حيدراباد، الدكن، ١٩٦٢.
ـ التحبير في المعجم الكبير، تحقيق منيرة ناجي سالم، بغداد ١٩٧٥.

٢٠. النظامي العروضي السمرقندي، جهار مقاله (المقالات الاربع) وعليه حواشي، القزويني، نقله الى العربية: عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٩.

٢١. ابن الأثير، الكامل، طبقات عديدة.

٢٢. اللباب في تهذيب الانساب. مكتبة القدسي ١٣٥٦.

٢٢. نظام الملك، سير الملوك ياسيا ستنامه باهتمام البروفسور محمد الطاي كومن، انقره ١٩٧٦. وهو أحدث طبعة لنسخة جيدة. وقد سبقته طبعة باريس سنة ١٨٩١ وطبعة مرتضى مدرس ١٣٣٤ ش وغيرهما.
ونقله الدكتور يوسف حسين بكار الى العربية بعنوان: سياستنامه، سير الملوك، بيروت.

٢٤. بارتولد، تركستان نقله عن الروسية إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت ١٩٨١.

٢٥. العيني، تاريخ يمين (مع شرح الشيخ أحمد بن علي المنيني ١١٧٢) الجزء ١ ـ ٢، القاهرة.

٢٦. ابو الفضل البيهقي، تاريخ البيهقي، نقله الى العربية: يحيى الخشاب وصادق نشأت. مكتبة الانجلو المصرية.

٢٧. كرديزي، زين الاخبار، طهران ١٣٤٧ ش. الترجمة العربية بقلم الطنجي.

٢٨. منجم باشي، جامع الدول. ترجمة الشاعر نديم الى التركية بعنوان صحائف الاخبار، استانبول ١٢٨٥، وهي مطبوعة ومتوفرة بخلاف النسخ المخطوطة.

السلجوقية (٢٩). حيث يجد اخباراً واسعة في العلاقات بين السلاجقة والقراخانية.

وتعتبر كُتب الطبقات والتراجم و بوجه خاص طبقات الحنفية كنزاً في تاريخ العلوم والآداب خلال هذه الفترة فلا يمكن دراسة الحركة الفكرية في اقاصي الشرق الاسلامي الا بالاستعانة بهذه المؤلفات الكثيرة.

ولا يخفى ان المصادر الجغرافية تقدم لنا مادة غنية جدا فيما يتعلق بمنطقة حكم هذه الدولة ومدتها وانهارها وجبالها و بأحوال السكان لا سيما كتب الجغرافية العربية من القرن الرابع أي عن الفترة ما قبل قيام هذه الدولة. اما كتاب الشريف الادريسي ٥٤٨/١١٥٤ (كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق) ــ نسخة كوبرولو باستانبول ــ ففيه معلومات غنية عن هذه البلاد الا انه بحاجة الى تدقيق لأجل التوصل الى المعلومات المعاصرة لتلك الفترة (٣٠).

ولا ننسى بهذه المناسبة الاشارة الى معجم الادباء لياقوت (ت ٦٠٦/١٢٢٩) الكتاب الذي لا يستغني عنه الباحث في اعداد اية دراسة علمية لهذا العهد.

ومصدر آخر لم يلتفت اليه الا مؤخراً ذلك كتاب تلخيص معجم الآداب لابن الفوطي (٣١) (٦٤٢ ــ ٧٢١) حيث توجد تراجم وأخبار انفرد بذكرها لانه استقاها من مصادر غير متوفرة لدينا في الوقت الحاضر. وننوه بهذه المناسبة القسم المطبوع بالهند فانه مشحون كباقي الاجزاء بالفوائد للباحثين.

كذلك تحوي كتب الأدب معلومات متناثرة ولكنها غنية عن الحياه الثقافية وتقدم لنا صوراً عن كثير من الشخصيات الادبية وغيرها ككتاب يتيمة الدهر للثعالبي (ت٤٢٩/١٠٣٧) وغيره سيرد ذكرهم اثناء البحث.

ونستطيع القول بوجه عام ان تاريخ الشعوب الاسلامية كافة خلال العصر الوسط مدين الى حد بعيد في تدو ينه وتوضيحه الى التراث التاريخي العربي بل ان قسماً غير قليل من اوروبا ايضا خارج نطاق الخلافة الاسلامية تناوله الكتاب العرب بالدرس والتدو ين.

الدراسات الحديثة:

تناول عدد من المستشرقين موضوع القراخانية بالدرس والبحث منهم:

Sir Henry Howorth

Afrasyabi Turks; and RAS 1898 pp 467-502

لخص في مقاله ما كتبه عدد من المصادر العربية. ومن هؤلاء ايضا

M.F. Grenard

في مقالة له بعنوان:

La Legende de Satok Boghra Khan at

L histoire (and A, 1900, XIV, s.5. 79)

اسطورة ساتوق بغراخان والتاريخ. وهو دراسة تجدر الاهتمام بها في التاريخ السياسي.

ومن الدراسات التي لا زالت تحافظ على جدتها وفائدتها الفصل الذي كتبه بارتولد في كتابه الشهير (تركستان حتى الغزو المغولي). كان الباحثون قبل الترجمة العربية يرجعون الى الترجمة الانكليزية حيث الصفحات من ٢٥٤ ــ ٣٢٢ مخصصة لموضوعنا. اما اليوم فيستغني القارىء العربي من مراجعة الترجمات الاخرى لهذا الكتاب بعد ما تيسرت لديه ترجمة عربية جيدة. ولبارتولد كتابات في هذا الصدد كتبها في دائرة المعارف الاسلامية مثل (علي تكين) و(بوري تكين) و(بغراخان)، وكذلك معلومات اوردها في كتابه المشهور (تاريخ الترك في آسيا الوسطى) لا يستغني عن مراجعتها الباحث.

ان اكثر المستشرقين انصرافاً لدراسة الدولة القراخانية وأغزرهم كتابة واستيعاباً لهذا الموضوع هو Omeljam Pritsak الذي نشر حول هذه الدولة أبحاثاً عدة منها:

Karachanidische Streetfragen 1-4 Coriens 1950 III /2, 209-228

Von den Karluk zu den Karachaniden

(ZD M G, 1951, 1, 270-300)

وله في دائرة المعارف الاسلامية الصادرة باللغة التركية باستانبول مادة (القراخانية)، فهي دراسة مفصلة في التاريخ السياسي مترابطة ومتماسكة، صرف في اعدادها الكاتب جهداً عظيماً. والمقالة نفسها منشورة بالالمانية في مجلة

Der Islam XXX1, 1953-54, 17-68

كذلك لعدد من العلماء الشرقيين فضل في هذا الموضوع امثال: فؤاد

٢٩. نشر الاستاذ علي سويم من مرآة الزمان لسبط بن الجوزي (ت ٦٥٤/١٢٥٧) احداث سنوات ١٠٥٦ ــ ١٠٨٦ المتعلقة بالتاريخ السلجوقي، القرة ١٩٦٨. والمراجع السلجوقية الاخرى معروفة.

٣٠. مخطوطة مكتبة كوبرولو رقم ٩٥٥ وهي نسخة جيدة جداً.

٣١. ابن الفوطي، تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب، كتاب اللام والميم. نشره محمد عبد القدوس القاسمي في الهند ١٩٤٠. ونشر المرحوم مصطفى جواد قسماً آخر في دمشق، وزارة الثقافة.

كوبرولو(٣٢) في كتابه (توركيا تاريخي) و(تورك أدبياتي تاريخي، واستانبول ١٩٢٦). وفي الكتاب الثاني فصل قيم عن المتصوف والشاعر الشعبي الشيخ أحمد يسوي.

كما ان البروفسور زكي وليدي توغان تطرق الى هذا الموضوع في كتابه (تاريخ الترك العام) باشارات لا يستغني عنها الباحث وله دراسات اخرى أصيلة سنشير اليها اثناء البحث.

و ينبغي الا ننسى قبل الانتهاء من الدراسات الحديثة الاشارة الى النقاط المهمة التي كتبها المرحوم أحمد آتش في كتابيْ (ترجمان البلاغة) و(سندباد نامه)، وعلينا ايضا ان نذكر جهود باحثين حديثين كتبا عن القراخانية تناول الاول وهو الدكتور يوسف ضياء قاواقجي (٣٣) تاريخ الفقه والفقهاء، وكتب الثاني وهو البروفسور رشاد كنج عن (نظم الدولة القراخانية) و يتسم الكتابان بالدقة والمنهجية التاريخية السليمة. وأخيراً لا بد من التنويه بما نشرته الباحثة التركية أمل أسين (٣٤) حول تاريخ ما وراء النهر ولا سيما في موضوعات الفنون والعمارة الاسلامية.

أصل الاسرة القراخانية ونشأتها :ــ

أطلقت لفظة القراخانية في الشرق وفي اوروبا منذ عام ١٨٧٤ على حكام أول دولة تركية اسلامية في التاريخ (٨٤٠ـ١٢١٢)، حين نشر المؤرخ المستشرق V.V. Grigorev (١٨١٦ ــ ١٨٨١) مقالته حول القراخانية فيما وراء النهر. فذاع بعدئذ تعبير (Karachanidem) في الاوساط التاريخية بينما كان يستخدم قبل ذلك تعبير خانات الاوليغور في تركستان.

يتكون تعبير القراخانية من (قرا) الوارد خلال اسماء حكام هذه الدولة مثلا : قراخان، قراخاقان ، ارسلان قراخاقان، طمغاج بغرا قراخاقان ...الخ.

و يفهم من الدراسات التي جرت مؤخراً عند أقوام الطاي والصينيين بان الالوان الاربعة (الاسود والأحمر والازرق والابيض) استخدمت للاشارة الى الجهات الأربعة. فكانت لفظة (قرا) التركية تشير الى جهة الشمال، كما انها كانت تفيد معنى الرفعة والعظمة في الرموز الحقوقية عند الاتراك.

وللدلالة على هذه الدولة استعملت ايضا لفظة ايلك ــ خان Iek-Han استخدمها كل من C. and Tornberg (١٨٠٧ ــ ١٨٧٧) والعالم B.Dorn (١٨٠٥ ــ ١٨٨١) المختصين بعلم النقود وذلك لورود التعبير على المسكوكات (٣٥).

اما المصادر العربية الاسلامية المعاصرة فتسمي هذه السلالة بالخاقانية أو الخانيه، (الكاشغري ١٤/١، ابن الاثير ٣١٤/٩، هلال الصابي The Eclipse III 374 وفي جهار مقالة (الترجمة العربية) ص ٣٦، ٥٣.. الخ. آل خاقان، الخاقانيون، وفي ص ١٢٧ الخانية).

و يرد في الكاشغري ٣٠/١ وفي الكامل لابن الأثير ٧٧٢/١٠ الملوك الخانية. وفي ابن الأثير ايضا ٥٤/١١، والجو يني ٨٨/٢ يرد تعبير آل افراسياب، يقول بارتولد : «ليس بين المصادر التاريخية مصدر واحد يدلنا على الجماعة التي ينتمي اليها القراخانيون. فانهم كانوا يسمون انفسهم بـ (الترك)، ابناء افراسياب (٣٦). وافراسياب البطل الاسطوري عند الاتراك. اما محمود الكاشغري فقد عنى بحاضرهم وليس بماضيهم (٣٧). وتاريخ كاشغر من القرن الحادي عشر مفقود ينقل عنه جمال قرشي الذي نشر نصوصه الموجودة بارتولد في الجزء الاول من تاريخ تركستان، وهو الآخر لا يمدنا بمعلومات حول هذا الصدد. وعلى اساس نقص المعلومات في المصادر حول نشأة هذه الدولة فقد ذهب العلماء في تلك مذاهب شتى أبرزها :

١. الرأي القائل انهم من الاو يغور واشهر انصاره دوكيني (١٧٥٦) وكلابروث (١٨٢٦) وفراهن (١٨٢٦) ورينو (١٨٤٩) وفامبري (١٨٧٠) ورادلوف (١٨٩١) وماركوارت (١٩١٢).
٢. الرأي القائل انهم من التركمان وممن يراه : هامر برغشتال ١٨٣٥ و وابل ١٨٥١.
٣. ومن قائل انهم من قبيلة يغما : مينو يسكي ١٩٣٧ وكينج ١٩٨٢.
٤. أو انهم من قارلوق : غرينارد ١٩٠٠ وشافن ١٩٠٣ ومحمد فؤاد كو برولو ١٩٢٣ وقفس اوغلو ١٩٦٨.
٥. وقيل انهم من قارلوق ــ يغما : كو برولو ١٩٢٣ ــ ١٩٣٩ فهو يميل الى

---

٣٢. محمد فؤاد كو بريلي زاده، توركيا تاريخي. استانبول ١٩٢٣، تورك ادبياتي، تاريخي، ١٩٢٦.

٣٣. Dr. Yusuf Ziyo Kavakci, xi ve xii Asirlarda Mavara, al-Nahr Islam Hukuk culare (Ankara 1976)

٣٤. Prof. R. Genc, Karahanb Devlet Teskilate (xi. Yuzyel)

٣٥. مقالات عديدة اشرنا اليها ثناء البحث Emel Esin,

٣٦. «مادة القراخانية» بقلم Pritsak في دائرة المعارف الاسلامية، طبعة استانبول ونرمز اليها بـ IA.

٣٧. بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، الترجمة العربية، ص ١٠٦، والترجمة التركية، ص ١٤٢، نفس الكتاب منقول الى التركية من نسخة ثبت فيها بارتولد مراجعة في الحواشي.

V.V. Barthold, Osta Asya turk Taribi Hakkemda,

trc. Dersler. Dr. K.Y. Kopraman, Dr, A.I. Aka

هذا الرأي والى الرأي السابق معاً .

٦ . وقيل ايضا انهم من عشيرة جكيل : يميل اليه والى (يغما) بارتولد ١٩٢٧ .

٧ . كذلك قيل أنهم من Tu chue ومن انصاره زكي وليدي توغان ١٩٣٩ وآخر ما يذكر عن البروفسور توغان انه ينسب القراخانية الى أصل اسينا Asena وهو سلالة الخاقانيين التي ينتسب اليها حكام دول نشأت وانقرضت في أنحاء السهوب امثال (كوك تورك) و(توركيش) و(طوقوز اوغوز)» . ووردت الكلمة في كتاب (حدود العالم) لمؤلف مجهول من القرن الرابع (ط . بارتولد) باسم (انسا) .

ان هذه الافتراضات مساقها مؤلفون في فترات مختلفة واحياناً غير مؤلف من هؤلاء رأيه خلال فترات اخرى (٣٨) .

ان اختلافاً يبدو حتى عند مؤلف كتاب حدود العالم الذي الف كتابه عام ٣٧٢ هـ عندما يذكر ما نصه : «كاشغر من بلاد الصين بيد انها تقع على الحدود بين يغما وتبت والقرغيز والصين . وحكام كاشغر في القديم كانوا من خلخ [القارلوق] أو من (يغما) (٣٩) .

أما المؤلفات التي تفصل في اصناف الترك واحياناً توزيعهم الجغرافي فانها كذلك لا تمدنا بمعلومات شافية في هذا الصدد . وفي كتاب ابن الفقيه (مخطوطة مشهد رقم ٥٢٢٩) ١٧٥ يذكر ان قبيلة «(الكيماك) هم الملوك وهم اوغل في بلادهم وأعزهم عند جميع الترك» . بيد انه لا توجد في المخطوطة اشارة الى علاقة حكام الكيماك بحكام كاشغر قبل الخانية (٤٠) .

واذا التفتنا الى الجغرافي العربي الكبير السيد الادريسي وهو معاصر لهذه الدولة ، فلا نخرج من تدقيق مخطوطيه بفوائد في هذا الشأن ومما يجدر الانتباه في دراسة كتاب (مجمل التواريخ والقصص) تأليفه في ٥٢٠ هـ انه ينسب الخانيين الى نسل افراسياب ويذكر ان حاكم قبيلة يغما يدعى بـ (بغراخان)، وهو اللقب الموجود في هذه الدولة ، ويذكر ايضا ان حاكم كاشغر يلقب بـ (الخان) ولفظة الخانية هي الشائعة كما ذكرنا عند الكتاب العرب (٤١) . ففي الكتاب الاخير ما يقرب القاريء من الافتراض القائل ان هؤلاء الحكام من قبيلة (يغما) (٤٢) .

الخواقين ونظام الخاقانية :

يؤكد القاضي أحمد الغفاري وكثير غيره ان خواقين الترك حكام تركستان وما وراء النهر من سلالة افراسياب . وهم سلالة ملكية توارثت الحكم خلفاً عن سلف (٤٣) . أما المؤرخ العثماني الشهير منجم باشي فيذكر في كتابه جامع الدول على ان خواقين تركستان يدعون

٣٨ . يذكره الشاهنامه بافراسياب و يذكره محمود الكاشغري في كتابه (ديوان لغات الترك بـ (الب أرتونغا) وهو افراسياب نفسه كما يقول الكاشغري ١/٤٤ ، ٩٤ ، ١٨٤ في طبعة ١٣٣٣ .
راجع عنه مادة افراسياب بقلم S.M. Slem في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية . وراجع مقالة R. Devereux بعنوان «A Note On Afrasiyabs» نشرتها مجلة
1963 The Muslim World
اما أوسع دراسة علمية حديثة عن هذا البطل الاسطوري فقد نشرتها E. Esin بعنوان «On Kasgari s Version of the Afrasiab»
في مجلة Journal of Turkish Studies مجلة حديثة تصدرها جامعة هارفارد 1986, 97 — 109.

٣٩ . نفس المادة في IA وراجع Z. V. Togan,
Bugunku Türkili Türkistan ve Yakm Tarihi (ist. 1942),
1947, 1 97- 101.

٤٠ . مجهول ، كتاب حدود العالم من المشرق الى المغرب . الفه عام ٣٧٢ ، ص ٥٠ من نسخة طبعت على نشرة بارتولد في (لينغراد في ١٣٥٢ هـ) . ترجمه الى الانجليزية مينو يسكي ١٩٣٧ وعلق عليه تعليقات قيمة ، راجع ص ٩٦ .

٤١ . مخطوطة مشهد برقم ٥٢٢٩ . ما يتعلق بالترك يقع في ١٥ صفحة من الورقة ١٦٨a ـــ a ١٧٥ . و يقصد المؤلف بـ (الكيماك) أتراك الالسطاي والأ ريتش

٤٢ . مؤلف مجهول، مجمل التواريخ والقصص ، تأليفه في (٥٢٠ هـ) أي أن المؤلف معاصر لهذه الدولة، نشر بتصحيح ملك الشعراء بهار. طهران ١٣٨ ش. راجع الصفحات، ٤٠٨، ٤٢٠، ٤٢١ .

٤٣ . لم نجد في مخطوطي السيد الادريسي ما يسعفنا في هذا الصدد :
١ . مخطوطة كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة كوبرولو، استانبول رقم ٩٥٥ .
٢ . مخطوطة انس المهج وروض الفرج ، مكتبة حكيم اوغلو، استانبول رقم ٦٨٨ تألبفه ٥٨٨ هـ.
كذلك لم نعثر في الكتاب التالي على اشارة لهذا الموضوع :
محمد علي الشبنكارة (كان حيا سنة ٧٣٣) ، أحد مؤرخي القرن الرابع عشر، مخطوطة مجمع الانساب والتواريخ فرغ منه في ٧٣٣ مخطوطة مكتبة (بن جامع)

انهم من سلالة افراسياب وعددهم عشرون شخصا (٤٤).

ولعل من أبرز خصائص الحكم الخاقاني هو الازدواجية في الحكم او الحكم الثنائي. فكان الخاقان الكبير والخاقان المشارك. اما الخاقان الكبير فكان يقيم في شرقي البلاد ويحمل لقب «ارسلان خان» وتحت سيادته «بغراخان». ومع الخاقان الكبير خان ثان او حاكم آخر مشارك يدير الجانب الغربي من البلاد (٤٥).

وجماعة بغراخان يستخدمون لقب تمغاج (طفغاج، تابغاج) خان. ثم يليهم في المرتبة أمراء من العائلة المالكة وهم جماعة (ايلك) و«تكين». وبين الأخيرين كانت توجد مراتب اخرى امثال نيال تكين، بيغان تكين. فمن درجة تكين يكون المرتقى الى ايلك (او ايليغ) ثم الى مرتبة بغراخان و بالتالي الى مرتبة ارسلان. و بهذه الطريقة كانوا يتولون ادارة دفة البلاد من حواضر المناطق امثال: (بلاساغون واوزكنـــــد وكاشغر وسيرام وايلاق و بخارى وسمرقند.. الخ) و يكون تحت ادارة كل منهم مجموعة من القوات العسكرية. و يقومون بسك النقود بموافقة من الحكومة المركزية للخاقان نائب يقيم في مركز البلاد يتلقب بلقب «أركين»، ساغون.. الخ.

ومما يستلزم ذكره ايضا ان حكم الخاقان لا يكون شرعيا الا بتقليد يأتيه من الخليفة. وباسم الخليفة نقرأ الخطبة و يكتب اسمه على النقود و بهذه الامور كانوا يضفون على حكم الخاقان الشرعية المستمدة من الخليفة العباسي. فاستأثرت الخواقين بالنفوذ في آسيا الوسطى فقوى شأنهم واتسعت اطراف دولتهم في فترات قوتهم. وفي الوقت نفسه بدأوا يقتربون من الحضارة العربية و يغترفون من منابعها بسرعة كبيرة فاتخذ حكامهم اسماء والقابا عربية منذ ان تولى الحكم ساتوق بغراخان اول حاكم مسلم منهم (٤٧). مثلهم مثل سلاطين السلاجقة فكان للسلطان السلجوقي اسمان اسم عربي واسم تركي (راجع الورقة ٢٨٢ من ابن العديم، بغية الطلب، الجزء الثاني من مخطوطة مكتبة فيض الله افندي باستانبول رقم (١٤٠٤). وهكذا نظم القراخانيون دولتهم ووضعوا رسومهم ونظمهم وساروا عليها في تعيين حكامهم وادارة بلادهم.

يذكر القرشي ان اول حاكم قراخاني من الممكن تثبيته هو (بيلكه كول قدرخان). وقد حكم منذ ٨١٩ وناوء السامانيين وحاول توسيع رقعة بلاده على حسابهم (٤٧). و يذكر جمال قرشي ايضا ان منطقة الشاش (طشقند) قد اعتنقت الاسلام في عهد هذا الحاكم. كذلك نعلم ان هذا الحاكم خلف ولدين يدعى الاول بـ (بازير ارسلان خان) و يسمى الثاني بـ (اوغولجاق قدرخان) (٤٨).

وتبعاً لنظام الالطاي وبموجب الاعراف التركية القديمة أقام الاول في بلاساغون بصفة الخاقان الكبير بينما استقر الثاني وهو الخاقان المشارك في طراز. غير ان الثاني لم يطل عهده في طراز مدة طويلة لان الأمير الساماني اسماعيل بن أحمد (٨٧٤ ـــ ٩٩٢) حاصر هذه المدينة وسيطر عليها بعد حصار طويل (مارت ـــ نيسان ٨٨٣) فانتقلت قاعدة الحكم على أثر هذا الحادث من طراز الى كاشغر و بدأ الحاكم بعد ذلك يوجه حملات على المناطق السامانية (٤٩).

يقول Grenard ان ساتوق بغراخان ولد في عام ٩٠٠م او ٩١٠

٤٤. قاضي أحمد غفاري، تاريخ جهان آرا، ص ١٦٢.
ضمن مكتبة السليمانية في استانبول، رقمها ٩٠٩ ومنه نسخة في المتحف الاسيوي.
INA 372 d 566 Rieu, pers, Mass, Voi. I
استطعنا من تدقيق النسخة الخطية الاولى فقط.
بدر الدين العيني (ت ٨٥٥/ ١٤٥١)، السيف المهند، حققه فهيم شلتوت (القاهرة، ١٩٦٧). وله الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر خط، تحقيق هارنس ارلست (١٩٦٢ القاهرة).
أما مخطوطة كتاب اغراض السياسة للظهير السمرقندي من عهد القراخانية فلا يجد فيه الباحث سوى اشارات قليلة الى بعض القبائل. ومعظم صفحات الكتاب عبر وحكم سياسية. (مكتبة ايا صوفيا رقم ٢٨٤٤).

٤٥. منجم باشي، صحائف الاخبار، ترجمة الشاعر نديم، ص ٥٠٩.

٤٦. وردت في بعض المراجع اشارات الى ازدواجية الحكم عند الأتراك. فكان عندهم الملك الاكبر والملك الاصغر، راجع مثلا:
١. ابو حنيفة الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٨١. تحقيق عبد المنعم عامر. وراجع من المتأخرين.
٢. احمد بن محمد القدسي الشهير بابن ابي غريبة (ت ٨٥٦هـ/١٤٥٢م) شرح قصيدة نظم الجمال. (مخطوطة في مكتبة اسعد أفندي) (استانبول) رقم ٢٣٠٦ الورقة ٩٨ ـــ ٩٩.
٣. مجهول، كتاب عجائب الدنيا وما فيها من الجزائر والعجايب. مخطوط في مكتبة حسين جلبي بورسه) رقم ١٨. الورقة ٦٤b.
ووردت كلمة (القاغان بمعنى الخاقان في التركية الأورخونية. راجع ص ١١٩ ـــ ١٢٠ من 9.R.A.S. والخان هو رئيس الدولة، الدينوري ٨١ وابن رسته ص ١٤٠ وابن فضلان ١٦٩ ـــ ١٧٠، الاصطخري ٣٢٣، المسعودي ٢٠٣/١، حدود العالم ص ١١٠، الكاشغري (ديوان) ١١٥/٢.

٤٧. Prof. 1. Kafesoglu, Turk Milli Külturü, (Ankara 1977), S. 299

٤٨. بريتساك، نفس المادة في IA.

٤٩. Genc، ص ٣٨، وللبروفسور E. Mercil خلاصة قيمه عنهم ضمن كتاب (Turk Dunyase El Kitabe) ص ٧٩٤، وراجع Larousse ـــ Meydan المجلد السادس ص ٩٣٠ ـــ ٩٣١.

وقد وردت لفظة ايلك ضمن مجموعة اسمائه (٥٠).

أما اذا امعنا النظر في قصة اسلامهفسيتبين لنا ان اعتناقه الاسلام كان في ٣٣٣هـ (٩٤٤/٩٤٥) (راجع Grenard) (٥١) وهي السنة التي استولى فيها على الحكم. اما وفاته فانها بالنسبة لجمال قرشي كانت في ٣٤٤ (٩٥٥/٩٥٦) (٥٢).

يذكر عن ساتوق بغراخان انه اتخذ اسم (عبد الكريم) الاسلامي بعد مدة من دخوله الاسلام وانه خطا خطوات واسعة في سبيل نشر الدين الاسلامي عندما استعاد مدينة بلاساغون الى حوزة بلاده وحارب في سبيل نشر الاسلام معتضداً في جهاده بالمجاهدين المسلمين واعلن الاسلام ديناً رسمياً للدولة لذلك يرد اسمه عند القرشي بالمجاهد او الغازي لانه غزا كثيراً مناطق الترك الوثنيين خارج حدود العالم الاسلامي.

دفن عبد الكريم في قرية (ارتوج) شمال مدينة كاشغر وقبره الان موضع احترام وتعظيم بين الاتراك في المنطقة (٥٣).

تولى الحكم بعد ساتوق بغراخان، موسى تونغا ايلك (٥٤) الذي لم يستمر حكمه طويلا حتى حل محله سليمان (بيتاش) ارسلان خان. وقد استطاع هذا في عهده ان يدخل جميع المناطق التابعة له الى دار الاسلام. وتذكر المصادر العربية عن هذه الفترة دخول جماعات من الترك في الاسلام عام ٣٤٩ (٩٦٠) يربو عددها (٢٠٠) الف خركاه (٥٥). وهم ــ كما يذكر برتيساك ــ من القبائل التركية الضاربة في انحاء دولة القراخانيين من اليغما والقارلوق وجكيل وتوخسي، وان مناطق اخرى متاخة للقراخانيين دخلت تحت لواء الاسلام مثل ختن في (٩٧١ تقريبا) (٥٦). الا ان Grenard يدعى ان ختن دخلت في حوزة الاسلام بعد سنة (١٠٠٦م) و يذكر النويري (جزء ٢٥) ان ختن كانت في ٩٩٣/٣٨٣ من جملة املاك شهاب الدولة هارون بن سليمان ايلك المعروف ببغراخان.

توفي بيتاش في اواخر شهر المحرم من عام ٣٨٨ (تشرين الثاني ٩٩٨) وتولى العرش بعده ابنه ابو الحسن علي (ارسلان خان بن بيتاش) الذي لا نعلم عن عهده سوى اليسير. فانه يذكر في المراجع بالخارق والشهيد مما يدل على أنه جاهد في سبيل نشر الدين الاسلامي كثيرا في جبهة الشرق. وكذلك يفهم من المسكوكات المضروبة خلال ٢٤٧ ــ ٣٦٧ (٨٦١ــ ٨٦٢)، ٩٧٧ ــ ٩٧٨ انه استولى على منطقة فرغانه من السامانيين في فترة كانت الدولة السامانية تنحدر نحو الانهيار (٥٧) وفي عهد ابو الحسن على ارسلان خان كان أخوه شهاب الدولة قليج بغرا خان هارون ابو موسى الحسن بن بيتاش سليمان خاقانه المشارك و يبدو انه كان يدير القسم الغربي ومركز حكومته بلامساغون وهو الذي أحرز انتصارات مهمة على السامانيين في الجانب الغربي من البلاد.فاستولى على اسفيجاب عام ٩٩٠/٣٨٠ وفرض حكمه على سمرقند في ٣٨٢/ مايس ــ حزيران ٩٩٢ و بعدها غدت بخارى حاضرة للقراخانيين عندما هرب منها الامير نوح بن منصور الساماني (٥٨). وكان يشاطر قليج في انجازاته هذه الوالي الساماني على خراسان ابو علي بن محمد سيمجور فقد اتفق الاثنان على تقسيم الدولة السامانية فيما بينهما على ان يكون جيحون الحد الفاصل بين ممتلكات الاثنين. فصارت خراسان لابي علي (مادون النهر) وصار ما وراء النهر تحت حكم هارون بن سليمان. بيد ان اقامة بغراخان هارون في بخارى لم تستمر طويلا فلم يلبث ان غادرها وارتحل عنها راجعا نحو بلاده بسبب مرض ألمّ به. يقول ابن الاثير: «لما نزل بغراخان ببخارى وأقام بها استوخمها فلحقه مرض ثقيل

---

٥٠. بارتولد، تركستان، الترجمة العربية ص ٣٨٩.
وتذكر بعض المصادر العربية ان سبب اسلامهم هو ان جدهم الاول ساتوق قراخاقان رأى في منامه ان رجلا نزل من السماء فقال له بالتركية ما معناه: اسلم تسلم في الدنيا والآخرة فاسلم في منامه فاصبح واظهر اسلامه. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت المجلد الخامس ص ١٣٨ ــ ١٣٩، النويري، نهاية الارب، ص ٣٦١ المجلد الخامس والعشرون. تحقيق د. جابر عبد العال الحيني، القاهرة ١٩٨٤.
وراجع حول حكام هذه الاسرة: زامباور معجم الانساب، والاسرات الحاكمة، اخرجه د. زكي محمد حسن وحسن احمد محمود. (مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٢)، ج ٢و ٣١٢.

٥١. نفس المقالة في المجلد ١٥
نقلها الى التركية البروفسور عثمان توران ونشرها ضمن كتاب له باسم Selcuklular ve Islamiyat

٥٢. جيرارد، نفس المقالة وراجع بريتساك و ز. وليدي توغان.

٥٣. Genc ص ٣٩ ــ ٤٠

٥٤. نجيب عاصم ومحمود عارف، عثمانلي تاريخي (استانبول ١٣٣٥) ص ٨٣، وتوغان، ص ١١.

٥٥. يذكر جمال قرش أن بيتاش ارسلان خان هو ابن ساتوق بغراخان الا أن الشاعر عمعق البخاري بـ (تونغا ايلك). توغان نفس الصفحة.

٥٦. خركاه: ضرب من الخيم المدورة ومنهم من يسميها «الخرقاهه» (مقالة د. مصطفى جواد في التراث العربي ٢/٢٥٨). ولعل ابن واضح اليعقوبي (ت ٢٨٤) افضل من عرفها في كتاب البلدان ط. النجف.. جاء في ص ٦٠ منه «القباب التركية المضلعة ومسافيرها سيور من جلود الدواب والبقر واغشيتها لبوده وهم احذق قوم بعمل اللبود لانها لباسهم».

٥٧. Genc ص ٤٠ ــ ٤١

٥٨. بريتساك، نفس المقالة، Genc ص ٤١ ــ ٤٢.

فانتقل عنها نحو بلاد الترك وفي الطريق ادركه أجله فمات. وكان دينا خيرا عادلا حسن السيرة محباً للعلماء وأهل الدين مكرما لهم وكان يحب ان يكتب عنه مولى رسول الله (١٦١/٧). فكانت وفاته في طريق عودته الى كاشغر في موقع يدعى (قجقار) كوجكارباشي سنة ٩٩٣ وعاد نوح الى بخارى. ومما يذكر ايضا عن هذا الحاكم انه كان يحمل لقبين عربيين: شهاب الدولة وظهير الدعوة، الا ان البيروني يرى ان هذا اللقب لم يمنح له من قبل الخليفة انما اضافه هو الى القابه الاخرى لانه لم تكن في هذه الاثناء صلات رسمية بين الخليفة وبين (الاثار الباقية. بيبزك ١٩٢٣ ص ١٣٤) ومما يؤيد هذا الموقف مسكوكات لهارون مضروبان في ايلاق عام ٣٨٢ (٩٩٢ـ ٩٩٣).

ويحدثنا الثعالبي في اليتيمه عن حليف آخر لبغراخان يدعى ابو محمد عبد الله بن عثمان الواثقي الذي يعد نفسه من سلالة الخليفة الواثق العباسي والذي حرض بغراخان على اكتساح ما وراء النهر (بارتولد، تركستان ص ٣٩٤).

استمرت الدولة على مناوءة السامانيين عندما تولى السلطة نصر بن علي (ايلك خان) من اولاد علي ارسلان خان. ويبدو انه حكم باسم ابيه حتى عام ٩٩٨ ثم حكم باسم اخيه ابو نصر احمد بن علي (توغان خان ٩٩٨ ـ ١٠١٦/٧) في منطقة الغرب. ويذكر عنه انه اول حاكم من بين الحكام القراخانيين اعترف بالخليفة العباسي ومنذ ذلك الوقت صار اسم الخليفة يسك في النقود وصار ذلك من مقتضيات السيادة للحاكم القراخاني كما أخذ القراخانيون بالقاب دينية مع اسمائهم الاصلية (٥٩).

اما الخاقان الكبير ابو نصر أحمد بن علي ٣٨٨ ـ ٩٩٨/٤٠٧ ـ ١٠١٦، ١٠١٧ الملقب بـ: ناصر الحق وسيف الدولة وقطب الدولة وناصر الملة قد تلقب منذ سنة ١٠١٥/٤٠٦ ـ ١٠١٦ بشمس الدولة ومؤيد العدل وقد اختلط أمره على كثير من المؤرخين من المسلمين والأوربيين.

لا نعلم عن اعمال هذا الخاقان الكبير في الشرق غير اننا نستطيع ان نتتبع اعمال أخيه ايلك نصر في الغرب بشيء من الوضوح وهو المعروف بفاتح ما وراء النهر.

كان ايلك نصر (ت ١٠١٢ / ١٠١٣) في البداية مقيماً في جهات فرغانه ثم استقر في اوزكند حيث أخذ ينتهز الفرص من نضعضع حكم السامانيين ويستغل الصراع بين ثلاث شخصيات كانوا يشغلون أرفع المناصب في هذه الدولة وهم: فائق وابو علي سمجور (٦٠) وسبكتكين ففي ٩٩٦ هاجم ايلك نصر بتحريض من فائق على اراضي الدولة السامانية الا ان الدولتين لم تلبثا ان اصطلحتا فاعطى بموجب هذا الصلح منطقة سير دريا (سيحون) حتى سهول قطوان الى القراخانيين كما تقرر أن يكون فائق واليا على سمرقند. وبعد حوالي عام واحد من عقد هذا الصلح حمل ايلك نصر في ٩٩٧ على بخارى دون ان يحقق من وراء ذلك نصراً يذكر فاعاد الكرة في أواخر عام ٩٩٩ ودخل بخارى دون ان يلقى فيها مقاومة جادة وكان هدفه الاساسي تصفية حكم الدولة السامانية لذلك نقل أمراء ومنتسبي السامانية جميعاً الى اوزكند واعتقلهم هناك. وفي اوزكند استطاع واحد من المعتقلين ان يفلت من محبسه ذلك هو أبو ابراهيم اسماعيل الذي اتجه نحو جهات خوارزم وأخذ يجمع حوله بقايا القواد والاجناد السامانيين ويرمي من وراء ذلك الى بعث الحياة في السامانية ليحكم في انحائها. وقد استطاع فعلا ان يوفق في مساعيه ويجمع حوله جمعاً غفيراً وارسل حاجبه ارسلان بالو على رأس جيش لاسترداد بخارى من القراخانيين فتمكن الأخير من الغلبة على القوة القراخانية الرابضة هناك فعاد اسماعيل على أثر هذا النصر الى بخارى واعتلى عرش الأمارة وتلقب بلقب المستنصر. الا ان هذا النصر كان مؤقتاً لم يؤت ثماره امام قوات

---

٥٩. راجع للتفصيل:

كرديزي، زين الأخبار، ص ٤١، هلال الصابي، التاريخ ومحمد بن علي العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء (لايدن ١٩٧٣)، ابن الأثير، الكامل ١٦١/٧، أبو الفداء المختصرة ١٢٩/٢، ابن الوردي، تاريخ ٣١١.

تركستان لبارتولد ص ٣٩٤ و.Turk Ensik الترجمة الانكليزية من Great Soviate Enc الطبعة الثالثة، المجلد الحادي عشر ٤٩/١١، وGenc ص ٤٢.

٦٠. Genc ص ٤٧ و Mercil نفس المقالة

كبيرة جمعها ايلك خان ضد الحاكم الساماني(٦١) الذي اضطر على مغادرة بخارى ومني بعدها بهزائم اخرى في خراسان حتى اضطر في ١٠٠١ ان يستنجد بقبائل الغز الذين وعدوه بالمساعدة(٦٢).

لم يحقق المستنصر ما يصبوا اليه بالرغم من مساعدة الغز فقد قتل في عام ١٠٠٤(٦٣) وبذلك صار ايلك خان الحاكم الاوحد في اقليم ما وراء النهر. وفي هذه الاثناء كان السلطان محمود الغزنوي مسيطراً على خراسان ومستقراً فيها فاتجهت الاسرتان القاراخانية والغزنويه الى المصالحة وانعقدت بينهما مصاهرة فدامت الحالة على ذلك حتى افسدت السعاه ذات بينهما وكتم ايلك خان ما في نفسه فلما سار يمين الدولة محمود الغزنوي الى بولستان، اغتنم ايلك خلو خراسان عن حاكمها الكبير فسير سباشي تكين صاحب جيشه الى نيسابور وطوس في معظم جنده وسير اخاه جعفر تكين الى بلخ في عدة من الامراء. ولما عبر سباشي تكين الى خراسان سار ارسلان الجاذب احد اكابر امراء الغزنويين الى غزنه فانتقلت الاخبار الى السلطان محمود وهو بالهند واسرع بالعودة الى غزنه بسرعة كبيرة واستطاع هو وأخوه ان يلحق الهزائم بالقراخانيين واسترجع منهم خراسان(٦٣).

لم يترك ايلك دعوى خراسان. ففي هذه المرة راسل حاكم ختن يوسف قدرخان لقرابة بينهما واستنصره، واستنفر الأخير الترك من اقاصي بلادها، فاجتمعت القوات القراخانية على مسافة اربعة فراسخ في ارض منبسطة من بلخ عام ١٠٠٨ امام القوات الغزنويه التي كانت معززة بعدد

من الفيلة و بجمع من الترك الغزية والخلج(٦٤) والهند والافغانية والغزنويه ونظم السلطان جيشه وعين اشخاصاً مناسبين في مواقعهم المناسبة ووضع في القلب ٥٠٠ فيل. ووقف ايلك خان نفسه في المقدمة وقدرخان في الميمنة وجعفر تكين في الميسرة وكان امام جيش ايلك (٥٠٠) من رماة الترك فوقعت معركة ضارية الحقت من جرائها بالجيش القراخاني هزيمة نكراء(٦٥) كما افضت الى الانشقاق بين افراد الاسره القراخانية عندما وقف ايلك خان ضد الخاقان الكبير توغان خان (احمد بن علي) الذي لم ينجده في معركته امام السلطان محمود الغزنوي. ولما أخذ ايلك خان يدعو الى الاستقلال عن الخاقانية الكبيرة والاستغناء عنها عندئذ اتفق الخاقان الحاكم من عاصمته كاشغر مع السلطان محمود وعقد معه حلفا مما دفع ذلك ان يقوم ايلك نصر في شتاء عام ١٢/١٠١١/٤٠٢ بحمله على كاشغر فشلت وهي في الطريق من جراء الثلوج المتراكمة في الطريق. و بعد كل ذلك بادر الاخوان القراخانيان بمراجعة السلطان محمود ليحل الازمة المستحكمة بينهما. و بتوسط من السلطان انحلت المشكلة وعقد صلح قصير الامد توفي اثناءه الفاتح الحقيقي الثاني لما وراء النهر نصر بن علي ايلك خان في عام ١٠١٢/٤٠٣ـــ١٠١٣. اعتلى العرش فيما وراء النهر عقيب حكم ايلك خان اخوه منصور (ارسلان ايلك) الذي غدا من أشهر حكام الاسرة القراخانية خلال فترة قصيرة من الزمن. و يبدو انه استغل فرصة توغان خان أحمد ونشر نفوذه على انحاء طلس والشاش وتونجس وبلنجس وفرغانه واوزكند وخجند واشروسنه و بخارى وان اخاه الآخ

٦١. وجدنا تفصيلا وافياً عن (فائق) عند بن الفوطي غير متوفر في المراجع الاخرى المتيسرة في الوقت الحاضر.
عميد الدولة ابو الحسن فائق الخاصة ابن عبد الله الردمي الساماني أمير الجيوش. ذكره الحاكم ابو عبد الله ابن البيّع في «تاريخ نيسابور» قيل ص ٩٣٥. له «الخامة»، لاختصاصه بالأمير السديد منصور بن نوح فانه رباه. قال: وولي اكثر مدن خراسان نيفاً واربعين سنة، ولم يزل عنده مجمع أهل الحديث للرواية ومجالس النظر، عقد له الاملاء ببخارى سنة خمسين وثلاثمائة وانتصبت عليه الفوائد من أصوله ببخارى سنة خمس وخمسين. قال في تاريخه: احضرت مجلس عميد الدولة وبين يديه شاعر ينشده مديحاً فيه.
ففاق الناس كلهم جلالا فسمى فائقاً ودعى جليلا وكانت وفاته يوم الاثنين ثالث عشر شهر رمضان سنة ٣٨٩، ص ٩٣٦. الجزء الرابع من تلخيص مجمع الآداب الفه كمال الدين عبد الرزاق ابن الفوطي (٦٤٢ـــ٧٢٣) القسم الثاني حققه د. مصطفى جوا. المظفر ابو علي سمجور النيسابوري الامير قائد الجيش. ذكره الحاكم ابو عبد الله في تاريخ نيسابور قال: كان كامل العقل عادلا قرأ القرآن المجيد وعقد المجلس للاسلام وذكر له ترجمة كبيرة واستشهد في رجب سنة ٣٨٨. راجع ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب طبعة الهند ص ٥٩٥ وطبعة دمشق ٦٥١/٤. وراجع الكرماني، نسائم الاسحار ص ٣٦، ابن سعيد الاندلسي (٦١٠ـــ٦٨٥) المقتطف من ازاهر الطرف. تحقيق سعيد حنفي حسنين مه ١٩٨٤. «مؤسس الاسرة السيمجورية هو سيمجور الدولة. لا يعرف معن سيمجور ولا يقطع في المصادر أصل الكلمة. يرى Justi أن الكلمة فارسية معنا الفصة أو الحمار الوحشي». و يعتقد فرأي و بارتولد و بوزورث أن الأسرة تركي بيد أنه لا يوجد أي دليل أو أية اشارة في المراجع الى أصل الكلمة أو الاسرة.
er dim and Justi Iramchnes Namenbush. (Marburg- 1896 , 301)

٦٢. ابن الاثير، ٢٠٥/٧ يقرأ بارتولد كلمة بالوبـ (يالو) لان الكتابة غير واضحة راجع تركستان. وكنج ص ٤٤.

٦٣. ابن الاثير، ٢٠٥/٧.

٦٤. العتبي، الفتح الوهبي، ٧٦/٢، ٨٤ـــ٨٥، ٩٢، ابن الاثير ٢٢٨/٧ــ ٢٢٩، ا الفداء، المختصر ١٢٩/٢، روضة الصفا ٣٢/٤ كذلك راجع منش كرما (٧٢٥ هـ) نسائم الأسحار ص ٣٨، خواندمير، جيب السير ١٣٣٣ ش. دائ معارف البستاني ٤٠٣/٤ (بيروت ١٨٨٠) Mercil ص ٧٩٥.

٦٥. الخلج صنف من الاتراك، وقعوا في قديم الزمان الى الارض التي بين الهن ونواحي سجستان في ظهر الغور وهم أصحاب نعم على خلق الترك وزيه ولسانهم الأمطري. ص ١٤١ النسخة المحققة.

محمد بن علي هو الآخر كان يعترف بسيادته (٦٦) وفي عهده أ فاض الأ بن والدعة على بلاده.

لم يبق حاكم كاشغر توغان خان أحمد مكتوف الايدي تجاه الاخوين انما جرد حمله عليهما وقد اعتضد في حملته بحاكم ختن يوسف قدر خان الذي كان يصحبه في الا تفاق على تكين. جرت المعركة بين الطرفين، لكننا لا نعلم النتائج الحاسمة التي اسفرت عنها سوى ان علي تكين وقع اسيراً بيد ارسلان ايلك منصور و يبدو أن توغان خان أحمد لم يكن موفقاً في معركته (٦٧)

لتوغان خان مأثرة تاريخية يشيد بها كتاب المراجع جميعاً. فيذكر العيني انه خرج من الصين عدد هائل يزيدون على (١٠٠) الف خركاه (وفي ابن الا ثير ٣٠٠ الف خركاه) من البداة غير المسلمين بينهم الخطا لانهم سمعوا بمرض توغان خان وطمعوا في البلاد وساروا وغنموا وسبوا و بقي بينهم و بين بلاساغون ثمانية ايام. فلما علم توغان خان بأمرهم جمع العساكر واستنفر الناس فاجتمع اليه من المتطوعة (١٢٠) الفا ولما علم هؤلاء الرحالة ذلك عادوا الى بلادهم فسار الخان خلفهم نحو ثلاثة اشهر وقتل منهم اعداداً كبيرة وغنم الغنائم الوفيرة وعاد الى بلاساغون حيث ادركته الوفاة عام ٤٠٨ (١٠١٧ ــ ١٠١٨). وكان عادلا خيراً يحب العلم وأهله ويميل الى أهل الدين و يصلهم و يقربهم (النويري ٥٣/٢٦) (٦٨). و يبدو من النقود انه ترك ياركند وكاشغر منذ ١٠١٤/١٠١٥ الى يوسف قدرخان (٦٩). ومن المحتمل انه اقتصر في حكمه في اواخر ايامه على منطقة بلاساغون (٧٠).

و بعد توغان خان احمد كان اخوه المنصور أقوى شخصية بين افراد الاسرة غير ان يوسف قدرخان لم يعترف بحكم ذلك وادعى ان الحق بجانبه ولهذاالغرض تحالف مع السلطان محمود الذي اجتازما وراء النهر بحجة مساعدة يوسف قدر خان ثم تراجع لاسباب نجهلها.

والآن نلاحظ ان يوسف قدر خان عقد اتفاقاً مع المنصور للاستيلاء على المناطق العائدة لمحمود والتقت القوات الحليفة على مقربة من بلخ مع قوات محمود وجرت معركة رهيبة منيت بها القوات الحليفة بهزيمة ساحقة (١٠١٩/٢٠) وتراجعت بغير انتظام غرق منهم اعداد كبيرة عند عبور نهر جيحون. يقول ابن الا ثير (٢٩٦/٧) ان من غرق منهم اكثر ممن نجا).

و بعد مدة قصيرة جرى الا تفاق بين قدر خان والسلطان محمود. وفي هذه الا ثناء ايضا سيطر علي تكين (وهو علي بن الحسن الملقب ببهاء الدولة وقطب الدولة ونصر الملة وعضد الدين) على بخارى عام ٤١١ (١٠٢٠/٢١) بمساعدة بني سلجوق، بعد ان استطاع الافلات من قبضة ارسلان ايلك منصور بن علي. وقد حدث في ٤١٥ (١٠٢٤/١٠٢٥) ان تنازل الخاقان القراخاني الكبير منصور ــ وكان ذا نزعة صوفية ــ عن العرش تاركاً مكانه الى يوسف قدر خان الذي كان قبل مدة ــ كما اسلفنا ــ حاكماً على ختن ثم غدا يحكم بخارى وسمرقند فترة من الزمن.

تشكل بعد هذه الحادثة تحالف ضد يوسف تتكون من اخويه أحمد وعلي تكين (٧١). فاعلن أحمد نفسه الخاقان الكبير و بدأ يحكم بلاساغون وخميز وفرغانه لذلك جدد يوسف قدر خان حلفه السابق مع السلطان محمود الغزنوي الذي بدوره لم يكن مرتاحاً الى مجاورة علي تكين فضلا عن انه كان يضمر الطمع في ربوع الخاقانيين. وعلى هذا التقى السلطان محمود مع حليفه يوسف قدر خان القادم من كاشغر، عند مشارف سمرقند عام ١٠٢٥. ودارت بينهما مباحثات وتبادلا وجهات النظر في حل المشاكل واتفق الطرفان على عقد روابط المصاهرة بين الأسرتين تفصيل اللقاء في كتاب الكرديزي). جاء في كتاب روضة الصفا: «أن علي تكين اشتهر في سمرقند بايلك خان حيث تطاول على من هو أرفع منه درجة فقد تجاوز حده ودعا الى المساواة مع خانات تركستان بل انه تطاول الى اكثر من ذلك. أما قدرخان فكان معروفاً بين سلاطين الترك بالمهابة والابهة فقد استنكر من علي تكين هذه الفعال واستشار اصحابه لدفع علي تكين وابعاده عن الميدان واتفقوا على التحالف مع السلطان محمود لأجل تحقيق هذا الغرض. وتحرك الطرفان نحو منطقة علي تكين والتقيا عند سمرقند فاضطر علي تكين واصحابه ان يغادروا المدينة مولين وجوههم نحو فيا في تركستان يضربون فيها و وقعت سمرقند تحت حكم قدر خان ثم عاد السلطان وقدر خان كل الى بلده (٧٢).

يستدل من الاحداث المقبلة ان محموداً لم يكن يرغب في ازاحة علي تكين عن مسرح السياسة في صورة نهائية كما انه لا يريد ان يكون قدر

٦٦. راجع للتفصيل: العتبي، ص ٢٢١ وما بعده.

ابن الاثير ٢٣٠/٧، ٢٣٢/٧ وروضة الصفا ٣٢/٤، ٣٥/٤ حيث وردت تفاصيل كبيرة، حمد الله مستوفي، تاريخ كزيده نشره براون ١٩١٠ ص ٣٩٧. في رواية روضة الصفا (٥٠٠) مثل. عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ الاسلام في جنوب غرب آسيا في العصر التركي ــ الدولة الغزنوية ص ٩٢ ــ ٩٧ حيث معلومات مفيدة حول العلاقات بين القراخانيين والغزنويين.

٦٧. برتيساك، كنج ص ٤٦.

٦٨. برتيساك، كنج، نفس الصفحة.

٦٩. العيني، ٣٢٠/٢، ٣٢٥، ابن الاثير، ٢٩٦/٧ والنويري نفس المادة الجزء ٢٦. تحقيق محمد فوزي الغتيل. القاهرة ١٩٨٥، النجوم الزاهرة ٢٣٥/٤.

٧٠. ورد في ٣١٥/٢ من اليمين: «قدر خان بكسر القاف و الدال هذا رأيته في نسخة معتمدة».

٧١. بارتولد، تركستان ص ٤٢٢.

٧٢. كنج ص ٤٨.

خان الحاكم الاوحد لتركستان بدون منازع، يدل على ذلك ان علي تكين قد عاد الى سمرقند عقيب مغادرة محمود الى غزنه محافظاً على مكانته خلال السنوات التالية، مجداً لتوسيع نطاق حكمه نحو مناطق تابعة لقدر خان. فسيطر هو واولاده في ٤١٦ (١٠٢٥ ـ ١٠٢٦) على اوزكند ثم استولى في ٤١٧ (١٠٢٦ ـ ١٠٢٧) على بلاساغون.

أما فيما يتعلق بالصلات القائمة بين القراخانية والدول الغزنويه فانها تجمدت فترة قصيرة بسبب وفاة السلطان محمود عام ١٠٣٠ أرسل بعدها السلطان مسعود وفداً الى البلاط القراخاني لتقويم الروابط بين الجانبين، الا ان انتكاسة جديدة برزت في هذا الميدان بوفاة يوسف قدر خان.

دفن يوسف قدر خان في مقبرة الخواقين. بكاشغر(٧٣). وكان حاكماً عادلا حسن السيرة، كثير الجهاد، دينا كثير الصلاة. تولى الحكم بعده ولداه:

١. سليمان ارسلان خان: حكم كاشغر وختن و بلاساغون ولقبه شرف الدولة ذكرته الروايات انه كان تقيا مكرما للعلماء وأهل الدين فقصدوه من كل حدب وصوب فوصلهم وأحسن اليهم (٢٩٦/٧ ابن الا ثير).

٢. محمد بغراخان بن قدر خان، تبعته بلاد طراز واسبيجاب(٧٤). وفي عهد هذين الحاكمين بدأت الاحداث تتعاقب بحيث تمهدت الطريق لانشطار الدولة الى شطرين: شرقي وغربي. وسنوجز القول في ذلك كمايلي:

استعان السلطان مسعود قبل ان يتولى العرش، في صراعه ضد اخيه محمد بالحاكم القراخاني علي تكين على ان يمنحه مقابل هذه المساعدة منطقة (ختل). غير انه لم يبر بوعده بعد ان جاء الى الحكم بل أخذ يعمل جاهداً على مساعدة محمد بغراخان (من اولاد يوسف قدر خان) كي يسيطر على ما وراء النهر. الأمر الذي وسع شقة الخلاف بين الغزنويه وعلي تكين فأخذ الغزنويون بدورهم يستعدون عليه خوارزمشاه التونتاش الا ان هذه المحاولة تستحق الاهتمام. وبعد حوالي عامين تحالف علي تكين مع خوارزمشاه (هارون) واتفقا على تجريد حملة على الاراضي الغزنويه. وفي هذه الاثناء مات علي تكين في شتاء ٤٢٦ (١٠٣٤ ـ ١٠٣٥) وحل محله ابنه يوسف وهو صغير السن ولكن بالرغم من ذلك جرى التحالف بين الطرفين وحوصرت صفانيان وترمذ وخلال هذا الوقت توفي هارون (١٠٣٥) و بقي يوسف وحيدا امام العدو مما اضطر ازاء هذا الموقف على الانسحاب نحو الوراء ومن جانب آخر برزت في المنطقة قوة جديدة بعد وفاة علي تكين يقودها ولدا نصر بن علي ايلك خان وهما محمد عين الدولة الب تكين ويحكم اسبيجاب وطراز واستطاع ان يقيم حكمه في اوزكند على أسس رصينة ويحمل لقب والده (المؤيد العدل) ٤٢٨ (١٠٣٦ ـ ١٠٣٧)(٧٥). و يتلقب بالخاقان الكبير (ارسلان خان خاقان).

اما الابن الثاني ابراهيم بن نصر (بوري تكين) ٤٠٩ ـ ٤١١ (١٠١٨ ـ ١٠٢١) ويحكم ايلاق كخاقان مشارك.

وازاء هذه الاحوال اضطر يوسف ان يستنجد بالسلطان مسعود وعرض عليه انه صرف النظر عن (ختل) وطلب منه ان يتوسط للصلح بينه و بين سليمان ارسلان خان بن يوسف قدر خان ١٠٣٢/١٠٥٦ ـ ٧.

و بسبب الحملات التي وجهها ابراهيم على (وخش) و(ختل) أرسل عليه السلطان مسعود قوة لم تحرز على نصر يذكر في ١٠٣٨/١٠٣٩. ثم استعان ابراهيم بالتركمان واستولى على ما بيد اولاد علي تكين من كش وصغد و بخارى الواحدة تلو الاخرى. عندئذ التجأ اولاد علي تكين الى اولاد يوسف قدر خان فكان الخاقان الكبير آنذاك محمد وكان ابراهيم الخاقان المشارك. واستقرت الحالة بعد ذلك على ان اولاد ايلك نصر غدوا حكام الجانب الغربي من الدولة محتفظين بسيطرتهم على ارجاء ما وراء النهر بكامله. ومنذ حوالي ١٠٤١/١٠٤٢ انفصل اولاد ايلك نصر عن اولاد يوسف قدرخان فصارت دولتان قراخانيتان: غربية وشرقية.

يضم القسم الغربي بلاد ما وراء النهر حتى خجند وفرغانه. وكانت قاعدة الدولة في البداية (اوزكند) ثم تحولت الى سمرقند. اما القسم الشرقي فكان يشتمل على مناطق بلاساغون واطلس واسيجان والشاش و يدى صو وفرغانه الشرقية وكاشغر و ياركند وختن وقاعدة الدولة بوجه عام كانت بلاساغون وكاشغر. ومدينة كاشغر هي مهد القراخانيين المسلمين وظلت مركزاً دينيا وفيها مقبرة هذه الأسرة(٧٦).

الدولة القراخانية الغربية:

عندما انشطرت الدولة الى دولتين، صار الحكم في جانب الغرب بيد محمد الاول بن نصر (ارسلان قراخان) وهو الخاقان الكبير المقيم في اوزكند ولقبه مثل والده مؤيد العدل. وصار ابراهيم الأول بن نصر خاقانه المشارك يحكم سمرقند وما وراء النهر.

٧٣. روضة الصفا، ٨٧/٤.

٧٤. بريتساك، كنج ص ٤٩.

٧٥. ابن الاثير، ٢٩٦/٧.

٧٦. ابن الاثير ٢٩٧/٧.

وبعد وفاة محمد (٣/١٠٥٢) ولي الحكم ابراهيم بن نصر (طمغاج او طفغاج وصار الخاقان الكبير والحاكم الاوحد خلفاً لمحمد و يعرف بـ (بغرا قراخاقان ابو اسحق ابراهيم بن نصر ٤٤٤ ــ ٤٦٠/١٠٥٢ ــ ١٠٦٨. فلم يتحول هذا الخاقان الى اوزكند لذلك بقيت سمرقند قاعدة للدولة الغربية حتى نهايتها.

يرد اسم ابراهيم في المصادر الاسلامية بطفغاج خان وهو أشهر الخواقين الغربيين. و يذكر عوفي: انه حاكم مثالي يتميز بالعلم و يبت شخصياً في القرارات الخاصة بأسس ادارة الدولة ويحكم بالعدل، ويحرص على مصالح الرعية و يضع حداً لجشع القصابين... الخ.

و يذكر ابن الأثير طفغاج خان ابو المظفر ابراهيم يلقب عماد الدولة.. وكان متديناً لا يأخذ مالا حتى يستفتي الفقهاء، ومات سنة ٤٦٠. وكان السلطان السلجوقي الب ارسلان قد قصد بلاده ونهبها ايام عمه طغرلبك فلم يقابل الشر بمثله. وارسل رسولا الى القائم بأمر الله سنة ٤٥٣ يسأله التقدم الى الب ارسلان بالكف عن بلاده واجيب الى ذلك وارسل اليه الخلع والالقاب(٧٧). وجاء في كتاب ابن الفوطي: «هو عماد الدولة ابو المظفر ابراهيم بن ايلك نصر المعروف بطفغاج التركستاني. ذكره ابو الحسن محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه قال: حدثني ابو المجد محمد بن عبد الجليل الكاشغري [قال]: كان ابوه يعرف بايلك وكان زاهداً بيده فرغانه وسمرقند، ولما مات قام مقامه ولده طفغاج. وكان متدينا لا يقتل احداً ولا يأخذ مالا حتى يستفتي الفقهاء. وكان يرسل في كل سنة رسولا الى القائم بامر الله. ولقب من دار الخلافة بعماد الدولة وتاج الملة، وعز الامة وكهف المسلمين وملك الشرق والصين طفغاج بن بغراخان سيف أمير المؤمنين. وفلج سنة ستين واربعمائة. وكانت وفاته شهر رمضان سنة سبعين واربعمائة»(٧٨).

يقول البروفسور وليدي توغان: ان ابراهيم طمغاج خان قام بالتوفيق بين نظام الضرائب في بلاده و بين الشريعة الاسلامية، كما انه تعقب العصاة وقطع يد كل شخص قطف وردة من بستان شخص آخر.

كذلك كان يقرب العلماء والشيوخ ــ وكما اسلفنا ــ لا يقر ضريبة الا بعد استفتائهم لذا يستغرب بارتولد قائلا:

«ولا علم لنا بالاسباب التي حملت هذا الخان التقي على الاصطدام برجال الدين وان يأمر بقتل احد المشايخ وهو الامام ابو القاسم السمرقندي»(٧٩).

أغار ابراهيم طمغاج خان على حدود القراخانية الشرقية واستولى على الشاش وايلاق وتونحس وقسم من فرغانه(٨٠). و بسبب اصابته بالفلج في اواخر ايامه ترك الحكم لابنه نصر (شمس الملك ابو الحسن نصر الثاني بن ابراهيم) و يبدو ان ابنه الثاني شعيب توغان خان (أو شعيث) كان والياً على الشاش وتونحس قد عارض هذا الاجراء لكن الامور سارت في صالح شمس الملك في حياة ابيه(٨١).

اما المعارك بينهم و بين السلاجقة فقد استمرت في عهد شمس الملك (١٠٦٨ ــ ١٠٨٠) ففي خريف عام ١٠٧٢ قام السلطان الب ارسلان على رأس (٢٠٠) الف فارس وراجل لأجل السيطرة على ما وراء النهر ونهب فعلا مقدمة بخارى(٨٢). غير ان السلطان في هذه الاثناء قتل ١٠٧٢ على يد احد الاسرى اراد السلطان قتله بيده فلم تسفر الحملة عن نتائج تذكر.

لم يقدر شمس الملك تعاظم سلطة السلاجقة التي ادت الى اضعاف القراخانية فاستغل فرصة مقتل الب ارسلان واغار على ترمذ واستولى عليها ونهبها ثم تقدم الى بلخ ونهبها لذلك اراد السلطان السلجوقي ملكشاه ١٠٧٢ ــ ١٠٩٢. وهو كما يقول ول ديورانت «اعظم سلاطين السلاجقة على الاطلاق»(٨٣) ان يضع حداً لتصرفات شمس وتهديده(٨٤). واستولى على ترمذ ولما اقترب السلطان من سمرقند توسط الوزير نظام الملك لدى السلطان الذي عفا عن شمس الملك وابقاه في حكمه.

اشتهر شمس الملك كابيه بالعدل والانصاف وحسب علمنا انه اشهر خواقين القراخانية في اعمار البلاد و بنائها. ومن بقايا منشآته بناية (رباط ملك) قرب قرية خرجنك بناها في ٤٧١ (١٠٧٨ ــ ١٠٧٩) وله رباط آخر بناه على الطريق بين سمرقند وخميذ يعرف بـ (آق كوتل) و يبدو انه مدفون هناك. و يرجع الى شمس الملك ايضا تشييد قصر شمس

٧٧. ابو الفضل البيهقي، تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ص ٥٧١ ــ ٥٧٣ ابن الفوطي ١١٤١/٤، برتيساك، بارتولد، تركستان ص ٤٣٩، أردوغان، نفس المقالة.

٧٨. برتيساك، كنج ص ٥١، وارد دوغان، نفس المقالة.

٧٩. ابن الاثير، الكامل، ٢٩٧/٧.

٨٠. ابن الفوطي، ٦٥٠/٤ ــ ٦٥١.

٨١. بارتولد، تركستان، ص ٤٦١. K avak,ce, 5.3

٨٢. كنج واردوغان.

٨٣. ابن الاثير، ٢٩٧/٧.

٨٤. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، نشره البروفسور علي سويم (انقره ١٩٦٨)، ص ١٦٥. وراجع حول العلاقة القديمة بين السلاجقة والقراخانية كتاب: الشيخ المكين ابن العميد، تاريخ المسلمين. (طبع ١٦٢٥) ص ٢٦٧.

باد (قرب بخارى) و بناء المسجد الجامع في نفس المدينة (٨٥).

توفي شمس الملك حوالي ٤٧٣/١٠٨٠ وفوض ملك البلاد الى اخيه (ابو شجاع الخضر او قدر) الذي لا نكاد نعلم عن فترة حكمه سوى ما ذكره النظامي العروضي السمرقندي في كتابه (جهار مقالة) حيث يقول: كان ملك الخاقانيين ايام السلطان خضر بن ابراهيم عظيم الشأن وبلغ حسن سياستهم ومهابهم الاوج. وكان هذا السلطان عاقلا عادلا وكان زينة الملك فيما وراء النهر. ساد الأمن والأمان في تركستان.

و يذكر المؤلف ايضا غنى الخاقان وثرواته الوفيرة وانه كان صديقاً عظيما للشعراء. فكان في خدمته شعراء فطاحل (ص.٥٣) ينالون منه صلات ثمينة وتشريفات غالية (ص ٥٤ ــ ٥٥) (٨٦).

تولى الحكم بعد خضر (قدر) خان ابنه احمد خان ٤٧٣ ــ ٤٨٢ (١٠٨١ ــ ١٠٨٨) وكان شاباً صغيراً لم يلبث ان ثار بينه و بين العلماء خلاف فاعدم قاضي القضاة ابي احمد نصر بن سليمان الكاساني.

كان أحمد خان ابن اخي عائشة تركان خاتون الخاقانية زوجة السلطان ملكشاه. وكان ذميم الخلقة قبيح الفعل كثير المصادرات. فنفر الرعية منه وكاتبوا السلطان السلجوقي ملكشاه واستغاثوا به فعبر السلطان ما وراء النهر في سنة ٤٨٢ (٨٧) ودخل سمرقند خلال مدة قصيرة والقى القبض على احمد خان وبعثه الى اصفهان ثم تقدم الى اوزكند وفي هذه الاثناء دان كل من حكام طلس، اسفيجاب و بلاساغون بالطاعة وأتمروا بامره وقرر خاقان كاشغر بغرا قراخاقان الحسن بن سليمان ان تكون الخطبة باسم السلطان ملكشاه وكذا يكتب اسمه على السكة. و بعد ان دخلت كاشغر في طاعة السلطان عاد الى خراسان.

و بعد حوالي عام واحد جرد السلطان حملة ثانية على ما وراء النهر بسبب نزاع نشب بين نائب سمرقند و بين عين الدولة رئيس عساكر جكيل صاحب النفوذ في الجيش القراخاني مما اضطر النائب ابو طاهر ان يفر الى خوارزم.

بدأ عين الدولة بدعوة حاكم مدينة (اتباش) يعقوب تكين ــ وهو اخو حاكم كاشغر ــ الى سمرقند. الا ان يعقوب عندما شرع بالعمل قتل عين الدولة و بذلك تعرض الى خنق جماعة جكيل. ولما علم يعقوب بعودة ملكشاه الى بخارى ولى هاربا عن طريق فرغانه الى مدينته اتباش. فدخل السلطان سمرقند ثم تابع سيره حتى بلغ اوزكند للمرة الثانية. وقد قضت الخصومات الداخلية بين خانات تركستان على كل خطر يأتي من جانبهم. الموقف الذي مكن ملكشاه العودة الى خراسان مطمئنا (٨٨).

ولاسباب غير معروفة اعاد ملكشاه اثناء حملته أحمد خان الى بلاده، بذلك ارتبطت القراخانية الغربية بالدولة السلجوقية. وعندما عاد احمد خان الى الحكم لم يدم في السلطة طويلا اذ انه اتهم من قبل العلماء بالزندقة، وقد كرهه عسكره واتهموه بفساد الاعتقاد. و بعد اجراء محكمة علنية حكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم عام ٤٨٨ هـ/ ٢٤ حزيران ١٠٩٥ م.

وقصة ذلك ان السلطان ملكشاه لما فتح سمرقند واسر أحمد خان قد وكل به جماعة من الديلم بينهم ملاحدة فحسنوا له معتقدهم. فلما عاد الى سمرقند كان يظهر منه اشياء تدل على انحلاله من الدين فشهدوا عليه بالزندقة والانحلال فافتى العلماء بقتله فخنقوه واجلسوا مكانه ابن عمه مسعود خان و اطاعوه (٨٩). ومسعود هذا هو ركن الدين قليج طمغاج خان مسعود الاول بن محمد وقد حكم فترة قصيرة من الزمن ١٠٩٥ ــ ١٠٩٧ لا نعلم عنها شيئاً.

و بعد ذلك عين السلطان السلجوقي بركياروق على العرش القراخاني الغربي ثلاثة حكام الواحد تلو الآخر. مات الاول وهو سليمان تكين بن داود كوج ــ تكين حفيد طمغاج خان ابراهيم. وكان الثاني محمود تكين ابو القاسم محمود خان الاول (١٠٩٧ ــ ١٠٩٩).

والحاكم الثالث الذي تولى الحكم من قبل بركياروق كان جبرائيل بن عمر هارون تكين (اختلط الأمر على ابي الفداء ٢/٢٠٦).

وحاول هذا الحاكم ان يستغل فترة ضعف السلاجقة و يستولي على خراسان فسيطر على ترمذ لكنه اندحر نفس السنة امام (سنجر) السلجوقي في خراسان خلال معركة دارت حول ترمذ فالقى القبض على جبرائيل ونفذ فيه الاعدام في ٢٢ مايس/ ١١٠٢. و بعد هذا النصر الذي احرزه سنجر اراد ان يعيد تنظيم ما وراء النهر من جديد فرفع ارسلان خان محمد الثاني بن سليمان بن داود بغراخان ــ ابن اخته ــ ١١٠٢ ــ ١١٣٠ الى سدة الحكم في سمرقند ليكون الخاقان الكبير ففي النقود التي ضربها ارسلان خان محمد يرد اسم سنجر.

اشتهر ارسلان خان بغزواته على الاتراك الوثنيين فعرف باسم (غازي) و يقصد به المجاهد. ومن جملة اعماله المشهورة انه نصب على الحنفيه في بخارى صهره عبد العزيز بن مازه المروزي بلقب الصدر وقصد

٨٥. ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران رقم ١٣، ص ٣١٥.

٨٦. احمد بن محمد (٩٧٧/١٥٦٩)، سلجوق نامه، ص ١٢٦، ١٢٨ اعده للنشر اردوغان مرجيل.

٨٧. بارتولد، تركستان، ص ٤٦٤.

٨٨. النظامي العروضي السمرقندي، جهار، مقالة، الترجمة العربية ص ٥٣ ــ ٥٥، راحة الصدور ١/١٢٧ الترجمة التركية ابن الوردي ٢/٤، مجمل التواريخ والقصص ص ٤٠٨.

٨٩. النويري، المجلد ٢٦/٥٦، تسائم الاسحار ص ٢٧، عباس اقبال، وزارت درعهد سلاطين بزرك سلجوقي ص ١٠٠. للتفصيل راجع كتاب البروفسور.

1. Kabesoglu, Ameliksah and Zamamn

بذلك انهاء الخلافات بين القراخانية وعلماء الدين.

والخلاصة ان القراخانية الغربية دخلت نهائيا في فلك الدولة السلجوقية لذلك كان سنجر يذكر محمد الثاني بـ (نائبنا) وموظف حدودنا. وكذا الذين جاءوا من بعده كانوا نوابا للسلاجقة حتى جاء شعب قادم من جوف آسيا لم يلبث ان غلب على ما وراء النهر كما سوف نرى (٩٠).

الدولة القراخانية الشرقية:

تولى الحكم في البلاد القراخانية بعد وفاة يوسف قدر خان ابنه سليمان ارسلان خان (١٠٣٢ـ ١٠٥٦). وسبق لنا ان اسلفنا بايجاز ان ربوع القسم الغربي من الدولة صارت نتيجة للاحداث الجارية فيها لاولاد ايلك خان نصر. واكتفى اولاد قدر خان بما كانوا يملكون من بلاد الشرق. وعلى هذا الاساس صار شرف الدولة ابو شجاع سليمان ارسلان خان ١٠٣٢ ــ ١٠٥٦/٧ اول خاقان كبير للدولة الشرقية. وفي عهده جردت حملات واسعة على الاتراك الوثنيين، بحيث نظمت قصص وملاحم تجد اشارات اليها، وقطعاً منها باقية في كتاب ديوان لغات الترك لمحمود الكاشغري. يستدل منها ان القاراخانيين اغاروا على قبائل ضاربة في الشمال الغربي امثال: ياباكو، و ياسميل وجومول ومن المحتمل قسم من يماك (٩١). وفي عام ٤٣٥/١٠٤٣ اعتنق اتراك القراغيز الاسلام وكان يربو عددهم (١٠) الاف خركاه وهم قبائل رعوية كانوا يقيمون صيفاً قرب بلاد البلغار. واذا حل الشتاء يضربون خيامهم قرب بلاساغون (٩٢).

جاء في تاريخ المنصوري انه: «في ٤٣٥/١٠٤٣ أسلم في كافر ترك اكثر من عشرين الف خركاه وضحوا بعشرين الف رأس غنم وخيل» (٩٣).

و يقول ابن الأثير بتفصيل أوفى: «في سنة ٤٣٥ أسلم من كفار الترك الذين يطرقون بلاد الاسلام بنواحي بلاساغون وكاشغر و يغيرون و يعينون عشرة الاف خركاه. وضحوا يوم عيد الاضحى بعشرين الف رأس غنم. وكانوا يصيفون بنواحي بلغار و يشتون بنواحي بلاساغون فلما اسلموا تفرقوا في البلاد... وكان صاحب بلاساغون و بلاد الترك شرف الدولة» (٩٤).

كان شرف الدولة سليمان حاكماً عادلا متسامحاً مع الاتراك غير المسلمين كي يعيشوا ضمن حدود الاسلام ليدخلوا في الاسلام بسهولة و يسر (٩٥). و يبدو انه عمل على تقسيم اداري جديد للبلاد ترأس لهذا الغرض ولغيره اجتماعاً عائلياً ضم اولاد قدر خان في ٤٣٥/١٠٤٣ ــ ٤٤ قرروا التساند والتعاون فيما بينهم وحددوا مناطق نفوذ كل واحد منهم. فصارت ادارة بلاساغون وكاشغر تابعة لسليمان ارسلان خان مباشرة وهو خاقان الجانب الشرقي. وصارت ادارة طراز واسفيجاب لاخيه محمد خان بصفة بغراخان. اما اخوه الآخر محمود خان ارسلان تكين فظل يدير مناطق في اقصى شرق الدولة. وكانت حصة عمه طغان خان أحمد بن الحسن منطقة فرغانه باسرها (٩٦).

تذكر المصادر ان سليمان خان كان حاكماً عادلا ومتدينا وكان صديقاً للعلماء حامياً لهم لذلك كانوا يفدون اليه من كل جانب. ولاسباب نجهلها اختلف مع اخيه محمد ووقع اسيراً بيد اخيه في معركة نشبت بينهما فحبسه محمد واعلن نفسه الخاقان الكبير. لكن هذا الحكم الجديد لم يستمر سوى (١٥) شهراً (١٠٥٧ ــ ١٠٥٨) فقد حل محله ابنه الكبير (حسين). كما ان الحكم الاخير هو الآخر لم يدم لان ابنا آخر لمحمد خان يدعى ابراهيم لم توافق أمه على هذا الاجراء فدست السم لزوجها ولعدد كبير من افراد الاسرة الحاكمة ليكون الحكم لابنها ابراهيم. و بذلك تحقق ما ارادت وتولى الحكم ابراهيم بن محمد خان (١٠٥٧ ــ ١٠٥٩) خلاله انتهز الحاكم القراخاني الغربي طمغاج خان ابراهيم فرصة التفرقة بين اعضاء الاسرة الشرقية فاغار على فرغانه والشاش وتونحس.

و بعد وفاة ابراهيم جاء الى الحكم في الدولة الشرقية الابن الثالث لسليمان خان المذكور وهو طغرل قراخان محمود (١٠٥٩ ــ ١٠٧٥) واتفق هذا مع حاكم كاشغر ابو علي الحسن بن سليمان وحملا على شمس الملك في الغرب لاستعادة الاراضي التي خسرتها دولتهم فاسفرت المعركة عن

٩٠. الذهبي، العبر ٢٩٩/٣، محمد بن محمد الحسيني، العراضة في الحكاية السلجوقية، تحقيق عبد المنعم حسنين ود. حسين امين (بغداد ١٩٧٩)، ص ٦٣، وتركستان ص ٤٦٤ ــ ٤٦٦. وكتاب البروفسور ابراهيم فقس اوغلو، ملكشاه وعصره ١٢٢ ــ ١٢٣.

٩١. ابن الاثير، الكامل، ١٧٥/٨، ابو الفداء ٢٠٦/٢، الذهبي، العبر ٣١٨/٣.

٩٢. ترجمة راحة الصدور ١٦٥/١، السبنداري. كتاب تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٤٠، تركستان ٤٦٧ ــ ٤٧١. كنج ص ٥٨، اردوغان، عباس اقبال، وزارت ص ١٠٠.

٩٣. كنج ٦٠.

٩٤. Basthobd, Four Studies, p. 99 والبروفسور اردوغان نفس المقالة.

٩٥. محمد بن علي الحموي، التاريخ المنصوري، نشرة بطرس غرياز تيو بيج، (موسكو ١٩٦٠) ص ١٥٢.

٩٦. ابن الاثير، الكامل ٣٨/٨ وفي كتاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣/١٢٣٥)، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس: «وفي ٤٣٥ اسلم من كفار الترك ثلاثون الف خركاه وضحوا بثلاثين الف رأس من الغنم»، ص ١٣٧.

٩٧. اردوغان نفس المقالة.

صلح اتفق عليه الطرفان وبموجبه صار نهر سيحون الحد الفاصل بين الدولتين وعادت منطقة فرغانه كلها الى الدولة الشرقية.

لا نملك معلومات اخرى حول طغرل قراخان محمود. فقد جاء بعد موته إلى الحكم ابنه طغرل تكين عمر الذي لم يدم حكمه أكثر من شهر أو شهرين وقع بعد ذلك اسيراً بيد حاكم كاشغر أبوعلي الحسن كما انضم جيشه الى جيش كاشغر بعد أن أقسم يمين الولاء والاخلاص لهذا الحاكم. وعلى ذلك تربع طغفاج بغرا قراخان أبوعلي الحسن على عرش الدولة الشرقية عام (١٠٧٥) ودعي بالخاقان الكبير. يقول بريتساك أن كاشغر غدت فى هذه الفترة مركزاً مهماً للعلوم والنشاط الثقافي.

تلقب أبوالحسن بن سليمان بلقب ناصر الحق والدين وعز الدين ن وكان خاقانه المشارك طفقاج بغرا قراخاقان مقيماً في كاشغر.

في هذه الفترة من النشاط الثقافي في عام ٤٦٢/١٠٦٩ ــ ١٠٧٠ أتحف وزير البلاط يوسف خاص حاجب البلاساغوني مؤلفه الشهير للخاقان، وهو اقدم كتاب اسلامي الف باللغة التركية بعنوان كتاب (قوتاد غوبيليك). وصادف في نفس الفترة بان الامام ابا الفتوح عبد الغافر بن الحسين (ت ٤٨٦/١٠٩٣) الف تاريخه المشهور بـ (تاريخ كاشغر). وسنفرد فصلا خاصاً بالحركة الفكرية نتناول فيه هذين المؤلفين وغيرهما شيء من الاستيفاء.

استمر طفغاج بغراخان ابوعلي الحسن في الحكم حتى عام ٤٩٦/١١٠٢ ــ ٣(٩٨). وفي عام ١٠٨٩ عندما قدم ملكشاه السلجوقي الى اوزكند دخل ابوعلي الحسن في طاعة السلطان. وفي الحملة الملكشاهية الثانية ايضا انتظم فيمن دانوا له بالطاعة، ونعلم عن سيرته ايضا بانه وقع أسيراً بيد طغرل بن ينال احد امراء العائلة المالكة لكننا نستشف من الروايات بانه استطاع ان يتخلص من الاسر ويعود الى الحكم من جديد. وكذلك يبدو من سجلات محكمة ياركند ٤٧٤ او ٤٩٤/١١٠٠ ــ ١١٠١ ان ابنه جاغري تكين ابوموسى هارون كان يحكم باسّمه في ياركند واطرافها.

يعرف عن خلفه أحمد خان انه أرسل وفداً في ١١٠٥ الى الخليفة العباسي المستظهر بالله التمس منه التقليد فاجابه الخليفة و بعث اليه بخلعة ه ولقبه بنور الدولة. غلب أحمد على أمره في ١١٢٨ أمام زحف القرا خطاي. وفي عهد ابنه ابراهيم وخلفه سيطر القراه خطاي على بلاساغون وصارت الدولة القراخانية تحت سيطرة هؤلاء(٩٩).

كان القراخطاي في صراع مع المسلمين وملوكهم يعرفون بـ (كورخان) خرجوا من شمال الصين وهم بوذيون وكونفوشيوسيون واشتبكوا مع السلطان سنجر في معركة ضارية قرب سمرقند تعرف بمعركة قطوان ١١٤١ (موضع من محال سمرقند). استطاعوا فيها ان يتغلبواعلى سنجر الذي جاء للدفاع عن بلاد المسلمين امام هؤلاء البداة. وفي الوقت الذي كان السلطان السلجوقي سنجر يحكم دولة تمتد حدودها من كاشغر الى اواخر اليمن والى مكة والطائف وفكران وعمان واذربيجان الى حدود الروم، فانه لم يقو على دحرهم. فتسلطوا على ما وراء النهر باسرها وكان آخر الملوك الخانية نصرة الدين عثمان خان بن ابراهيم. حكم في سمرقند من ٦٠٠ ــ ٦٠٩ بلقب سلطان السلاطين(١٠٠).

---

٩٨. ابن الاثير، الكامل ٣٩/٨، ابو الفداء ١٦٧/٢.

٩٩. برتيساك، نفس المادة.

١٠٠ Basthold, ((The Bughsa Kham Amantored in The Qutad, are Nibik,)) Bsos, III, 1923

ونشر مع المقالة بعضا من سجلات محاكمة ياركند بالعربية. راجع ص ١٥٠ ــ ١٥٨ من المجلة.

١٠١ برتيساك، راجع حول نهاية القراخانية:

تاريخ المنصوري، ص ٢٥٩، وابن الاثير الكامل، والنويري، ٥٧/٢٦ ــ ٥٨، منجم باشي ٦٥ ــ ٦٦.

١٠٢ راجع عن هذه الفترة مايلي:

راحة الصدور ١٦٧/١، الخزرجي، العسجد المسبوك ٢، نسخة مصورة في مكتبة الدراسات العليا ــ كلية الآداب، بغداد النسوي، سيرة السلطان جلال الدين ص ٩٧.

مخطوطة الذهبي، المجلد الثامن من تاريخ الاسلام ففيه معلومات نادرة عن ملك الخطا كورخان، الورقة ٣١ والورقة ٢٥ ــ ٢٦ فيها عن الرقعة بين سنجر والخطا سنة ١١٤١ مكتبة الاوقاف، بغداد رقم ٥٨٩٢.

تاريخ جهار نكشاي عطا ملك الجوني، البذاري، تاريخ السلاجقة، ص ٢٥٤، ابن الساعي الخازن، الجامع المختصر. تحقيق مصطفى جواد وعباس اقبال، تاريخ مغول، الجزء الاول، ص ١١، وراجع:

E. Bsatchneides, Amedieral Resoarches prom Eastesr Ariatic Sources,(London 1937) Vol, I, 226 - 235

تشجيع الحكم المستنصر للحركة العلمية في الأندلس

د. خليل ابراهيم الكبيسي
كلية الآداب/ جامعة بغداد

شخصية الحكم المستنصر العلمية :

برز الحكم المستنصر [٣٠٣ــ ٣٦٦هـ] في العالم العربي الاسلامي في مقدمة الذين خدموا الحركة العلمية وهيأوا لها مقومات النجاح، وقدموا الكثير من الفكر والجهد والمال في سبيل دفعها خطوات واسعة الى الأمام، حتى صارت النهضة العلمية في عصره من أبرز السمات التي امتازت بها قرطبة والأندلس بخاصة والعالم العربي الاسلامي بعامة.

كان الحكم المستنصر على درجة كبيرة من المعرفة وسعة الاطلاع تتلمذ على نخبة من علماء الأندلس، منهم على سبيل المثال لا الحصر، قاسم بن اصبغ (١) وزكريا بن خطاب (٢) وسعيد بن جابر (٣) ومحمد بن اسماعيل النحوي (٤)، وغيرهم (٥).

نشأ الحكم شغوفاً بالعلم، يكثر من مجالسة العلماء و يؤثرهم على من سواهم و يبالغ في تقديرهم واحترامهم (٦)، حريصاً على اقتناء الكتب يبعث فيها الى الأقطار والبلدان و يبذل في اعلاتها ودفاترها أنفس الأثمان (٧).

لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كان نظاراً فيما اجتمع لديه من كتب، كثير الاهتمام بها والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها، وقلما تجد كتاباً في خزانته إلاّ وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فنون العلم : يقرؤه و يكتب فيه ــ اما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه ــ نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به و يذكر أنساب الرواة له و يأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد الآ عنده، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن، وكان موثوقاً به مأموناً عليه. صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ينقلونه من خطه ويحاضرون به (٨). والمتتبع لكتب التراث الأندلسي كثيراً ما يقرأ عبارة : رأيت أو قرأت بخط الحكم المستنصر مما يؤكد أن تعليقاته وهوامشه كانت حجة عند أهل العلم وهذا ما صرح به أكثر من واحد من علماء الأندلس (٩). ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن الفرضي في ترجمة فضل الله بن سعيد من أهل قرطبة، أنه تولى قضاء فحص البلوط يوم السبت لانسلاخ جمادى الأولى سنة ثلاثين وثلاثمائة وقال : رأيته بخط المستنصر بالله رحمه الله (١٠)، كما ذكر في ترجمة قاسم بن ثابت بن حزم «قرأت بخط المستنصر بالله رحمه الله؛ توفي قاسم بن ثابت رحمه الله سنة اثنتين وثلاثمائة بسرقسطة» (١١) وذكر ابن الفرضي أيضاً أنه قرأ في كتاب دفعه اليه أحمد بن عبد الرحيم كان فيه الحاق ــ بخط أمير المؤمنين المستنصر بالله فيه ذكر القضاة بالأندلس (١٢). ومن هذا القبيل ما ذكره الحميدي في ترجمة أحمد بن محمد بن عبد ربه «توفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة لاثنتي عشر ليلة بقيت من جمادى الأولى ومولده سنة ست واربعين ومائتين لعشر خلون من شهر رمضان فاستوفى احدى

---

* القى هذا البحث في حلقة دراسية انعقدت في كلية الآداب/ قسم التاريخ/ جامعة بغداد في ١٩/٤/١٩٨١ وقبل للنشر منذ عام ١٩٨٤.

١. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ٣٦٦/١ (ترجمة : ١٠٧٠)

٢. أيضاً ١٥٠/١ (ترجمة : ٤٤٤)

٣. أيضاً ١٦٧/١ (ترجمة : ٤٩٤)

٤. أيضاً ١٣٣٢/٢ (ترجمة : ١٢٣٢)

٥. أيضاً ١/ ٢٩٩ (ترجمة : ١٠٤٣)، ثم انظر، احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ٤٣.

٦. عياض، ترتيب المدارك، ٤٠٦/٤، ٥٦٣، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ٦٧/٢ (ترجمة : ١٢٨٧)، ٧٢/٢ (ترجمة : ١٣٠١).

٧. ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٠٠/١ــ ٢٠١.

٨. أيضاً ٢٠٢/١.

٩. انظر : الحميدي، جذوة المقتبس، ١٠١ (ترجمة : ١٧٢)، ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٠٢/١.

١٠. تاريخ علماء الأندلس، ٣٥٤/١ (ترجمة : ١٠٤٧)

١١. أيضاً، ٣٦١/١ (ترجمة : ١٠٦٢)

١٢. أيضاً، ١٣٤/٢ (ترجمة : ١٤٣٢)

وثمانين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام، ومدح الأمير محمد والمنذر وعبد الله وعبد الرحمن، هذا آخر ما رأيته بخط الحكم المستنصر، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا لأنه كان عالماً ثبتاً» (١٣) وربما كانت هذه الثقة والمكانة عند أهل العلم، هي التي جعلت بعض الرواة ينسبون رواياتهم الى الحكم المستنصر بحجة رؤيتها بخطه (١٤).

وفي العموم يتضح مما تقدم دقة معلومات الحكم المستنصر وسعة اطلاعه وحرصه على اضافة ما لديه من المعلومات على الكتب التي يطالعها سواء أكان ذلك على شكل هوامش أم ملاحق أو تعلقيات، كما تتضح مكانته العلمية في حرص العلماء والكتاب على الاعتداد بهذه المعلومات واعتبارها حجة في كتاباتهم (١٥). ليس ذلك فحسب، بل ان بعضهم عمل على تتبع ملاحظات الحكم وما سجل على الكتب وجمعها للاستفادة منها فيما يكتب، وفي هذا يقول ابن الأ بار «اجتمع لي من ذلك جزء مفيد مما وجدته بخطه ووجدت أنه يشتمل على فوائد جمة في أنواع شتى» (١٦) أن محاولة ابن الأ بار هذه شهادة لعلمية الحكم المستنصر، يعتد بها في الحقل العلمي لأنها آتية من شخص خبر التراث الأندلسي وله فيه باع واسع ومشهود له بالمقدرة العلمية.

ومن خلال النصوص التي وصلت الينا والتي يشار الى وجودها بخط الحكم المستنصر، نلمس اهتمامه بالتراجم، كما نلمس اهتمامه بالأنساب وانشغاله بها. فقد ذكر ابن حيان أن الحكم المستنصر «قد قيد كثيراً من أنساب أهل بلده وكلف أهل كور الأندلس أن يلحقوا كل عربي أخمد ذكره قبل ولايته وأن يصحح نسبهم أهل المعرفة بذلك، ويؤلف من الكتب [كذا] و يردُّ كل ذي نسب الى نسبه» (١٧) ومما يؤكد اهتمام الحكم المستنصر بالأنساب، أن العلاّمة ابن حزم كثيراً ما كان يرجع في كتابه عن الأنساب، الى ما وجده بخط الحكم المستنصر ويعتمده لاثبات نسب أحد الرجال، وفي بعض الأحيان كان يصرح بأنه لا يعرف من نسب هذا الشخص أكثر مما وجدته بخط الحكم المستنصر (١٨)، الاّ أن ابن حزم لم يذكر لنا أين وجد هذه المعلومات بخط المستنصر، فهل كانت أنسابه مقيدة في صحف أو كتاب كما جاء في نص ابن حيّان أعلاه؟ أم أنها كانت على هوامش الكتب التي طالعها الحكم وضمها الى مكتبته؟

اضافة الى ما تقدم فقد ذكر أن للحكم شعراً منه قوله:

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت
وكيف أثنت عند الفراق يدي معي
فيا مقلتي العبرى عليها اسكبي دماً
و يا كبدي الحرّى عليها تقطعي (١٩)

و بعد هذا الاستعراض لشخصية الحكم العلمية، فانه يستحق لقب عالم، وأن يترجم له بين علماء الأندلس، وقد كان ابن الآبار على حق عندما أخذ يتعجب من ابن الفرضي وابن بشكوال، أنهما لم يترجما للحكم في كتابيهما عن علماء الأندلس (٢٠).

فلا غرو بعد ذلك أن ينذر الحكم المستنصر نفسه لخدمة الحركة العلمية ويجعل ذلك هاجسه الدائم، ليمدها بمقومات الحياة والنمو، عن طريق الاشراف المباشر المستمر، والتخطيط المنظم والمتعدد الجوانب والمتمثل بالجوانب الآتية: —

١. حث العلماء وتشجيعهم على القدوم الى الأندلس:

بذل الحكم المستنصر جهوداً مشكورة في استقدام العلماء الى الأندلس فأقام لهم سوقاً نافعة، وأنزلهم المنازل الرفيعة وأغدق عليهم العطاء (٢١)، قال ابن حيان عند ذكر الحكم المستنصر: «كان من أهل الدين والعلم راغباً في جمع العلوم الشرعية من الفقه والحديث وفنون العلم... مستجلباً للعلماء ورواة الحديث من جميع الافاق» (٢٢). فمن بين العلماء الذين وفدوا الى الأندلس بتشجيع من الحكم المستنصر: علي بن محمد بن اسماعيل المعروف بأبي حسن الأنطاكي الذي نزل مصر وأقرأ بها فوجه اليه الحكم المستنصر من يدعوه الى المجيء الى الأندلس، فلبى طلبه ودخل قرطبة في شعبان سنة ٣٥٢هـ (٢٣)، وكان أبو الحسن هذا عالماً بالقراءات رأساً فيها لا يتقدمه أحد في معرفتها في وقته، بصيراً بالعربية والحساب وله حظ من الفقه (٢٤)، ومنهم «أبو الحسين بن الفارس وهو من أهل حلب روى بالمشرق عن جماعة من الشاميين والبصريين ووفد على المستنصر بالله فأجرى عليه وتوسع له، وقرأ عليه الناس كثيراً شيوخاً وشباباً وقرأ عليه أبو بكر الزبيدي — رحمه الله — ومن

١٣. جذوة المقتبس، ١٠١ (ترجمة: ١٧٢)
١٤. انظر: ابن الابار، التكملة، ٧١١/٢ (ترجمة: ١٨٠٥)، المقري، نفح الطيب، ١١/٣.
١٥. لمزيد من المعلومات انظر: ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ٨١، ٢٩٢، ٣٧٥، ٣٨٤ ابن الأ بار، التكملة، ٣٦١/١ (ترجمة: ٩٧٢)، ٧١١/٢ (ترجمة: ١٨٠٥)، التباهي، المرقبة العليا، ٦٥، المقري، نفح الطيب، ١١/٣، ٦٦.
١٦. الحلة السيراء، ٢٠٢/١.
١٧. ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٠٢/١ — ٢٠٣.
١٨. جمهرة انساب العرب، ٨، ٨١، ٢٩٢، ٣٧٥، ٣٨٤، ٣٩٨.
١٩. ابن الأ بار، الحلة السيراء، ٢٠٣/١.
٢٠. المقري، نفح الطيب، ٣٩٥/١.
٢١. المقري، نفح الطيب، ٧٥/٣.
٢٢. ابن الأ بار، الحلة السيراء، ٢٠١/١.
٢٣. الجزري، طبقات القراء، ٥٦٥/١.
٢٤. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ٣١٦/١ (ترجمة: ٩٣٤)

قرأ على الزبيدي ومات سنة ٣٧٦» (٢٥) ومن أبرز العلماء الوافدين الى الأندلس: أبو علي القالي الأديب واللغوي المعروف والذي ذكر أن الحكم المستنصر هو الذي «كتب اليه ورغبه في الوفود عليه» (٢٦) عندما كان ولياً للعهد، فدخل الأندلس سنة ٣٣٠هـ أيام خلافة أبيه الناصر، فتلقاه الحكم بالجميل وحظي عنده وقربه وبالغ في اكرامه (٢٧)، وباسمه طرز أبو علي كتاب الأمالي وهو المسمى بكتاب النوادر (٢٨)، وكان القالي اماماً في علم اللغة متقدماً فيها متقناً لها، فاستفاد الناس منه وعولوا عليه واتخذوه حجة وكانت كتبه في غاية التقييد والضبط والاتقان (٢٩)، أن قدوم القالي الى الأندلس كان يمثل نهضة في الدراسات اللغوية والأدبية، وعنه تلقى الكثير من الأندلسيين (٣٠)، حيث كان يملي أماليه على طلبته في الزهراء وقرطبة كل يوم خميس، ثم زاد فيه فبلغه ستة عشر جزءاً للعامة، ثم زاد فيه فبلغه عشرين جزءاً لأمير المؤمنين أي الحكم المستنصر — (٣١) وقد جلب القالي معه جملة كبيرة من الدواوين والمجموعات الشعرية وكتب الأخبار، ذكرها لنا بأسمائها ابن خير الاشبيلي في كتابه (٣٢).

ومن العلماء الذين يرجح أن الحكم المستنصر قد استدعاهم الى الأندلس وشجعهم بالوفود اليه، محمد بن يوسف أبو عبد الله التاريخي الوراق الذي ألف له كتاباً ضخماً في «مسالك افريقيا وممالكها» (٣٣)، ومن الوافدين الى الأندلس — ربما تشجيع من الحكم المستنصر — من أهل المشرق علي بن بندار بن اسماعيل الذي ذكر المقري: أن الحافظ ابن حزم نقل ترجمته عن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله المعتني بهذا الشأن (٣٤).

ان هؤلاء العلماء وغيرهم من الوافدين الى الأندلس كان لهم ولا شك، مكانتهم المتميزة في النهضة العلمية التي عرفتها الأندلس في عصر الخلافة.

٢. حث الأندلسيين على التأليف وغيره من النشاط العلمي :—

من العلامات البارزة في شخصية الحكم المستنصر العلمية حث العلماء الأندلسيين وتشجيعهم على مواصلة العطاء العلمي واضعاً تحت أيديهم كل امكاناته المادية والمعنوية، يشاورهم في خطط البحث ويشاركهم الرأي ويقترح العمل، منهجاً أو موضوعاً، ولم يؤثر في هذا حقلا علمياً على آخر، أو فئة اجتماعية على أخرى، فكثر التأليف وجاء العطاء في ميادين العلوم كافة، يقول الخشني في معرض حديثه عن جهود الحكم المستنصر في حث العلماء على التأليف: «فتحرك أهل العلوم بما حركهم اليه الأمير الموفق فاستحفظوا ما أضاعوا من غرر الأخبار وقيدوا ما أهملوا من عيون المعارف واتصلت بجميعهم بركة الأمير أبقاه الله في ذلك» (٣٥) وكان الخشني نفسه من بين الذين كلفهم الحكم في مجال التأليف حيث أمره «بتأليف كتاب القضاة مقصوراً على من قضى للخلفاء رضي الله عنهم بأرض المغرب في الحاضرة العظمى قرطبة» (٣٦) وهذا هو عين الكتاب الذي وصل الينا واستقينا منه العبارات أعلاه. ان طلب المستنصر أن يكون الكتاب في قضاة قرطبة يتمشى مع ما ذكرنا سابقاً من أن الحكم كان يتدخل في تحديد مناهج الكتب وموضوعاتها، ولم يكن هذا الكتاب هو الوحيد الذي صنفه الخشني للحكم المستنصر، فقد ذكر أنه الف له كتباً كثيرة (٣٧)، وفي هذا الخصوص يقول ابن الفرضي: «بلغني أنه الف له مائة ديوان» (٣٨) وقد عَدَّ ابن فرحون منها أربعة عشر كتاباً في موضوعات شتى (٣٩)، من بينها كتاباً في رجال الأندلس، اعتمده ابن الفرضي كمصدر أساس من مصادره في كتابه «تاريخ علماء الأندلس» (٤٠). كما جمع اسحاق بن سلمة الذي كان حافظاً لأخبار أهل الأندلس معتنياً بها، كتاباً في أخبار الأندلس، بأمر من الخليفة الحكم المستنصر (٤١)، والخالد بن سعد كتاباً في «رجال الأندلس» ألفه للمستنصر بالله، وقد صرح ابن الفرضي أنه اتخذ هذا الكتاب مصدراً من مصادره التاريخية (٤٢)، وقد أشار ابن الفرضي أيضاً الى أنه اعتمد على كتاب مختصر كان قد جمع للحكم المستنصر (٤٣). ومن الكتب التي ألفت بأمر من الحكم المستنصر كتاب «أنساب العلويين والطالبين القادمين الى المغرب» (٤٤). وما هو جدير بالذكر أن ابن الأبار

٢٥. ابن خير الأشبيلي، فهرسة ما رواه عن شيوخه، ٤٠٨.
٢٦. الحميدي، جذوة المقتبس، ١٦٥ (ترجمة : ٣٠٣)
٢٧. أيضـــاً.
٢٨. المقري، نفح الطيب، ٣/ ٧٢، احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ٤٤.
٢٩. الحميدي، جذوة المقتبس، ١٦٥ (ترجمة : ٣٠٣).
٣٠. احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ٤٤، البير حبيب مطلق، الحركة اللغوية بالأندلس، ٩١.
٣١. ابن خير الاشبيلي، فهرسة ما رواه عن شيوخه، ٣٢٥.
٣٢. أيضاً، ٣٢٥ وما بعدها.
٣٣. الحميدي، جذوة المقتبس، ٩٧ (ترجمة : ١٦٠) ابن الأبار، التكملة ١/ ٣٦٦ (ترجمة : ٩٦٦)
٣٤. نفح الطيب، ٣/ ٦٦.
٣٥. قضاة قرطبة، ١، ثم انظر، احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ٤٨ — ٤٩.
٣٦. ايضـــاً
٣٧. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ٣/ ١٠٠٢
٣٨. تاريخ علماء الأندلس، ٢/ ١١٣ (ترجمة : ١٤٠٠)
٣٩. الديباج المذهب، ٢/ ٢١٣
٤٠. ٢/ ١١٣ (ترجمة : ١٤٠٠)
٤١. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ١/ ٧٣ (ترجمة : ٢٣٨)
٤٢. أيضاً، ١/ ١٣١ (ترجمة : ٣٩٨)
٤٣. أيضاً، ٣
٤٤. ابن الأبار، التكملة، ٢/ ٧٢٨ (ترجمة : ١٧٤١)

الذي أورد هذا النص لم يذكر لنا من هو مؤلف هذا الكتاب، الا أن المقري يشير في احدى رواياته الى أن الكتاب من تأليف الحكم المستنصر(٤٥)، ومع اهتمام الحكم بالأنساب، الا أننا نرجح عدم نسبته اليه، اذ أن مؤرخي الأندلس المتقدمين لم يذكروا أن للحكم كتاباً بهذا الاسم ولا سيما الذين تحدثوا عن جهوده العلمية وافردوا له ترجمة خاصة، كما فعل ابن الأ بار نفسه في كتابه الحلة السيراء، والذي أشار صراحة الى أنه تتبع تعليقات الحكم وما كتبه بخطه فتجمعت لديه منها جزء مفيد، ولم يذكر ابن حزم أن له كتاباً بهذا الاسم وهو الذي ألف في أنساب العرب واعتمد في أكثر من موضع من كتابه في الأنساب على ما رآه بخط الحكم المستنصر في هذا المجال، وحتى المقري الذي أورد الخبر لم يذكر لنا ذلك، عندما تحدث عن الحكم وجهوده العلمية، وأن نسبة الكتاب الى المستنصر جاءت عرضاً في حديثه عن هاشم بن الحسين من أولاد الحسين بن علي بن أبي طالب، وليس من المستبعد أن يكون الحكم المستنصر قد أضاف اسم هاشم بن الحسين العلوي الى كتاب أنساب العلويين والطالبيين القادمين الى المغرب، مما أوقع الوهم عند المقري أو ممن أخذ عنه المقري.

وفي أيام أبيه الناصر قصد الحكمَ من كتلونية مطران جيرون المسمى غودمار (Godmar) والف له تاريخاً لبلاد فرنسا في زمن قلوزيه (كلوفيس Clovis) الى ذلك العهد(٤٦). وقد أمر الحكم المستنصر بجمع شعر أحمد بن محمد بن عبد ربه حيث رأى منه الحميدي ما يزيد على العشرين جزءاً(٤٧)، ونتيجة لهذه الجهود فقد جمعت له كتب كثيرة في أخبار شعراء الأندلس وقد رأى منها ابن حزم «أخبار شعراء البيرة» في نحو عشرة أجزاء(٤٨)، ولم يكن الحكم يدع فرصة تفوته اذا امكنته في تشجيع التأليف، وله في هذا الباب أخبار تدل على استغراق شديد واندماج نفسي في هذا الأمر، من ذلك أنه أراد الغزو مرة (٣٥٢هـ) فاعتذر عن مصاحبته عبد الله بن مغيث المعروف بابن الصفار لضعف جسمه فأرسل اليه أحمد بن نصر وقال: قل له انه ضمن لي أن يؤلف في أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصولي في أشعار خلفاء بني العباس أعفيته من الغزاة، فلما اختار ابن الصفار التأليف على الغزو، خيره أن يكتب الكتاب في بيته أو في دار الملك، فاختار دار الملك ليكفل الانقطاع والوحدة، ولما كمل الكتاب في مجلد واحد لم يبقه أحمد بن نصر الى حين عودة الحكم من غزاته بل حمله اليه ليسره به، فلقيه بطليطلة عائداً، وتلقى الحكم الكتاب مسروراً(٤٩)، والف له أحمد بن محمد بن فرج الجياني، كتاب الحدائق عارض فيه كتاب الزهرة لأ بي بكر محمد ابن داود الأصفهاني(٥٠)، ونحن مدينون للحكم لأنه حفز الزبيدي الى كتابة مؤلفه القيم في طبقات النحويين واللغويين في المشرق والأندلس، وفيه من تراجم اللغويين والنحويين الأندلسيين ما أصبح معتمداً لكل مؤلف في هذا الموضوع من بعد، وتدل مقدمة الزبيدي لهذا الكتاب، أن الحكم لم يقف عند حد الاقتراح بل حد للزبيدي الشكل الذي سيتخذه تأليفه وأمده بعنايته وعلمه وأوسعه في روايته وحفظه(٥١).

وقد شجع الحكم التأليف في الفقه، ولا سيما فقه الامام مالك، ولنا في قصة تأليف كتاب الاستيعاب خير دليل على ذلك، فقد سقط الى الحكم كتاب من رأي الإمام مالك ابتدأه بعض أصحاب اسماعيل القاضي ويوبه وقدره ديواناً جامعاً لقول مالك خاصة، أنجز منه مؤلفه مقدار خمسة أجزاء أو نحوها، واخترمته المنية عن تمامه، فلما رآه الحكم أعجبته بساطته وحرص على اكمال الفائدة به، فذاكر به قاضيه ابن السليم وسأله هل عندهم من يكمله على الرغبة؟ فقال له نعم: بشرط اباحة أمير المؤمنين خزانة كتبه للبحث عن أقوال مالك حيث كانت، فقبل الحكم بشرطه، فسمى له الفقيهين، أبا بكر المعيطي القرشي وأبا عمر بن المكوى، ممكنهما من الأسمعة وما جانسها فاقتدرمنها على ما أراداه، وألفا كتاب الاستيعاب الكبير في مائة جزء، بلغا فيه النهاية(٥٢) ورفع الى الحكم فَسُرّ بذلك ووصلهما بجائزة كبيرة، وقدمهما الى الشورى في أيام القاضي محمد بن اسحاق بن السليم(٥٣).

وقد ندب الحكم المستنصر، الفقيهان أبا عبد الله محمد وأبا محمد عبد الله ابنا آيان بن عيسى الى اختصار الكتب المبسوطة من تأليف يحيى ابن اسحاق بن يحيى فاختصراها وقرباها(٥٤)، كما طلب من الفقيه محمد بن عبد الله بن سيد أن يبوب له مستخرجه العتبي(٥٥). أن مثل هذه الطلبات تدل تفهم الحكم للقيمة العلمية للتبويب والاختصار في تذليل الصعوبات أمام القراء على اختلاف مستوياتهم.

---

٤٥. نفح الطيب، ٣/٦٠.

٤٦. الزركلي، الأعلام، ٢/٢٩٥

٤٧. جذوة المقتبس، ١٠١ (ترجمة: ١٧٢)

٤٨. المقري، نفح الطيب، ٣/١٧٤

٤٩. احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ٤٩ نقلا عن الحميدي، جذوة المقتبس ٢٥٢ ــ ٢٥٣ (ترجمة: ٥٣٣).

٥٠. الحموي، معجم الأدباء، ٤/٢٣٧، الحميدي، جذوة المقتبس، ١٠٤. (ترجمة: ١٧٦).

٥١. البير حبيب مطلق، الحركة اللغوية بالأندلس، ٨٧.

٥٢. عياض، ترتيب المدارك، ٤/٦٣٤.

٥٣. ابن بشكوال، الصلة، ١/٢٣ (ترجمة: ٣٨)؛ ابن فرحون، الديباج المذهب ١/١١٠٧ مخلوف، شجرة النور الزكية، ٩٩ (ترجمة: ٢٤٢).

٥٤. عياض، ترتيب المدارك، ٤/٥٥٧.

٥٥. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ٢/٧٣ (ترجمة: ١٣٠٩)، عياض، ترتيب المدارك ٤/٥٧٢، الضبي، بغية الملتمس، ٧٩ (ترجمة: ١٦٦). والضبي هو: محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي عتبة».

كما شجع الحكم أيضاً التأليف في الحديث والعمل على جمع المسانـد، من ذلك تكليفه لمحمد بن أحمد في جمع مسند حديث قاسم بن اصبغ (٥٦)، كما الف له يعيش بن سعيد بن محمد الوراق مسند حديث ابن الأحمر (محمد بن معاو ية القرشي) (٥٧).

وحتى التنجيم لم يعدم المستنصر من يكلفه في التأليف فيه، فقد الف له ابن زيد الأسقف كتاب «تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان» فيه من ذكر منازل القمر وما يتعلق بذلك ما يستحسن مقصده وتقريبه (٥٨).

وأخيراً أرى من اللازم الحديث عن جهد آخر بذله الحكم المستنصر، عندما كان وراء تكليف العالم قاسم بن اصبغ وقاضي النصارى وترجمانهم بقرطبة (٥٩)، في ترجمة كتاب هروشيوش (٦٠)، وهو أحد كتابين ارسلهما ملك القسطنطينية للخليفة عبد الرحمن الناصر، وقد الفه باللاتينية باولوس اورسيوس Paulus Orosius المؤرخ الاسباني الذي عاش في القرن الرابع والخامس بعد الميلاد (٦١)، أما الكتاب الثاني في هدية رومانوس امبراطور البيزنطيين، فهو كتاب ديسقوريدس في النبات الذي ترجم هو الآخر ولكن بجهد من الخليفة الناصر.

وفي العموم فان حركة الترجمة كانت ضعيفة جداً في الأندلس ولا سيما اذا ما قارناها بما كان يجري في بغداد، وقد كان بامكان الحكم ان يستورد الكتب المترجمة من المشرق، وهذا ما حدث بالفعل (٦٢).

وفي ختام حديثي عن جهود الحكم المستنصر في حث العلماء على التأليف اسجل الملاحظات الآتية :ـ

١. ان الحكم لم يكره أحداً من العلماء على التأليف، فقد كان يترك لهم حرية القرار، فعندما اراد أن يكمل كتاب الاستيعاب، كما ذكرنا سابقاً، سأل قاضيه هل عندهم من يكمله على الرغبة (٦٣)؟. ومن هذا القبيل ما فعله مع ابن الصفار عندما خيره بين الغزو و بين التأليف، فاختار التأليف، كما خيره في أن يكون التأليف في بيته أم في دار الملك؟ فاختار دار الملك.

٢. حرص الحكم على تعميم الفائدة لجميع الناس، فقد طلب من القالي عند وفادته الأندلس أن ينشر ما يحمله من علمه في الناس، واشاعة اسماعهم وتأليف ما التقط من منثور ما اعيا عليهم (٦٤).

٣. لم يختص الحكم المستنصر بفئة من العلماء دون أخرى، ولا يعلم دون آخر فقد شملت جهوده علوم الشريعة واللغة وآدابها، والتاريخ والجغرافية والعلوم الفعلية وغيرها.

٣. جهود الحكم المستنصر في مجال المكتبة :

للحكم المستنصر في هذا المجال العلمي باع واسع، وجهد متميز، يقف المرء أمامه خاشعاً ليكبر فيه هذه الروح المثابرة في توسيعه لمكتبته، أصبحت بحق من أغنى وأكبر المكتبات في العالم الاسلامي، ضمت مئات الآلاف من المجلدات وبمختلف أصناف العلوم. وفي هذا يقول ابن حزم: «كان [الحكم] رفيقاً بالرعية سمياً في العلم، ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم وأخبرني تليد الفتى وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس، ان عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب اربعة وأربعين فهرسة في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين فقط» (٦٥)، في حين يذكر المقري عند حديثه عن الحكم: «كان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه وكان ذا غرم بها، وقد آثر ذلك على لذات الملوك» (٦٦).

ان اهتمام الحكم المستنصر في طلب العلم وجمع الكتب بدأ منذ أن كان شاباً وفي عهد ابيه الناصر، فقد ذكر أن الأمير الحكم وأخاه عبد الله كانا «يتباريان في طلب العلم و يتناغيان في جمعه و يتبادران الى اصطناع أهله واختصاص رجاله وإدناء منازلهم والاحسان اليهم» (٦٧). وقد اتهم عبد الله بن الناصر بالتآمر على أبيه فأمر بقتله «فتصيرت كتبه الى أخيه الحكم» (٦٨)، الذي آلت اليه مكتبة والده بعد وفاته فجمع بذلك مكتبات ثلاث (٦٩). لم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمل الحكم

٥٦. الحميدي، جذوة المقتبس، ٤٠ (ترجمة: ١٠)، الضبي، بغية الملتمس، ٣٨ (ترجمة: ١٤)

٥٧. أيضاً، ٣٨٦ (ترجمة ٩١٦)، أيضاً، ٥٠٠ (ترجمة: ١٥٠٦)

٥٨. المقري، نفح الطيب، ١٨٦/٣.

٥٩. اسمه وليد بن حيزون، انظر، احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ٤٧.

٦٠. ابن خلدون، التاريخ، ١٦٩/٢.

٦١. انظر مقدمة كتاب، طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل، (كط)، وقد وصلت الينا نسخة من الكتاب باللغة العربية وهي محفوظة بمكتبة جامعة كولومبيا بنيو يورك تحت رقم X, 8, 3 ,712.

٦٢. انظر: البير حبيب مطلق، الحركة اللغوية بالأندلس، ٨٨

٦٣. عياض، ترتيب المدارك، ٦٣٤/٤.

٦٤. المقتبس، ٤٨٠/٥

٦٥. جمهرة أنساب العرب، ١٠٠، ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٠٣/١، المقري، نفح الطيب، ٣٨٥/١، ٣٩٤، الا أن المقري يذكر أن في كل فهرسة عشرين ورقة.

٦٦. نفح الطيب، ٣٩٥/١

٦٧. ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٠٦/١.

٦٨. أيضاً ٢٠١/١.

٦٩. خوليان ريبيرا، المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الاسلامية، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الرابع، الجزء الأول، ١٩٥٨، ٨٦.

جاهداً من أجل توسيع مكتبته حيث «كان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ورجال يوجههم الى الآفاق [بحثاً] عنها. ومن وراقيه ببغداد محمد بن طرخان» (٧٠) وفي البصرة عمر بن محمد بن ابراهيم حيث أقام بها عشرين سنة تولى خلالها للحكم ابتياع الكتب والذخائر هناك، و يقال أنه مرت على يده من النفقات هناك من هذه الوجوه مقدار مائة الف وعشرين الف دينار (٧١) و يبدو أن للحكم وراقون في أماكن أخرى من المشرق الاسلامي والأندلس (٧٢)، وقد أغدق الحكم العطايا على البعيدين من العلماء والأدباء والفقهاء، لكي يولفوا من أجل خزانته أو يضيفوا كتبهم الى ما فيها (٧٣)، ومن وصلتهم عطاياه وصلاته، أبو اسحاق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر وأبوعمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي وغيرهما (٧٤). وعندما وصلت اليه أخبار كتاب الأغاني بعث الى مؤلفه أبي الفرج الأصبهاني القرشي المرواني الف دينار من الذهب الخالص، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذي الفه في الأغاني، فارسل اليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم (٧٥)، كما ألف له أيضاً كتاباً في أنساب قومه بني أمية موشحة بمناقبهم وأسماء رجالهم وأرسله الى قرطبة مع قصيدة يمدحه بها و يذكر مجد قومه بني أمية، فجدد له الحكم المستنصر الصلة الجزيلة (٧٦). ومثلما فعل الحكم مع أبي الفرج، فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي وطلب منه أن يرسل اليه شرحه لمختصر ابن عبد الحكم (٧٧).

كما استعان الحكم بعدد من البارزين في مجال الوراقة والنسخ والتجليد وفي هذا يقول ابن خلدون: «جمع في داره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد» (٧٨)، من بينهم اسحاق ابن محمد بن اسحاق الذي كان من وراقيه قبل ولايته الخلافة (٧٩)، ومنهم عباس بن عمرو الوراق الذي اتصل به فتوسع له في الورق وصار من جملة وراقيه (٨٠)، ومنهم أيضاً أحمد بن سعيد (٨١)، ومن الوافدين الى الأندلس ممن استخدمهم الحكم المستنصر في الوراقة، ظفر البغدادي الذي «كان من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط كعباس بن عمرو الصقلي و يوسف البلوطي وطبقتهما» (٨٢) ولم يخل قصره أيضاً من الرسامين ليزينوا الكتب التي ينسخها أمهر الناسخين بالحليات البديعة (٨٣).

لم يكن الحكم في جمعه للكتب كحاطب ليل، بل كان حريصاً على الحصول على الكتاب الجيد، مادة ونسخاً وتدقيقاً، وقد وظف لهذه الغاية موظفين أو كلف علماء مختصين غايتهم مقابلة الكتب الواردة الى المكتبة وتدقيقها من التحريف والتصحيف، وممن كلفه الحكم بهذه المهمة القاضي أبو بكر بن السليم الذي «استخدمه في المقابلة لدواوين بيت حكمته الذي حوى من كتب العلم ما لم يحوه بيت ملك» (٨٤)، ومنهم محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي النحوي المعروف بالرياحي استخدمه «المستنصر بالله في مقابلة الكتب وتوسع له في الجراية» (٨٥)، وممن وظفه الحكم في مقابلة الكتب وأجرى له على ذلك رزقاً، أحمد بن يوسف (٨٦). ليس ذلك فحسب، بل أن الحكم قد جعل المقابلة خطة رسمية من خطط الدولة (٨٧)، يتقاضى العاملون بها راتباً. الا أن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل كان الحكم المستنصر حريصاً على مقابلة ما يستنسخ له من كتب على النسخة المجلوبة الى الأندلس، من ذلك ما فعله مع عبد الملك بن ادريس الذي أدخل الى الأندلس كتاب «الوقوف والابتداء» وكتب للأمير الحكم منه وقوبل معه في رمضان سنة ٣٤٨هـ (٨٨)، كما كان يستعين بذوي الخبرة والاختصاص ليقف على نص صحيح دقيق اذا ما أدرك أو وصل الى اسماعه أن في نسخ بعض الكتب تصحيف أو تحريف، وقصته مع كتاب العين خير دليل على ذلك. فقد جمع الحكم ذات مرة نخبة من أبرز علماء اللغة بالأندلس وهم، محمد بن أبي الحسين وأبو علي القالي وابنا سيد وطلب اليهم مقابلة نسخ كتاب العين الموجودة في مكتبته، ومنها نسخة القاضي منذر بن سعيد البلوطي، التي كانت أشد النسخ تحريفاً، فصححوا الكتاب على أكمل وجه وفي ذلك قال أحدهم في قصيدة يذكر الحميدي قصتها:

٧٠. ابن الأبار، الحلة السيراء، ١/٢٠٢.
٧١. عياض، ترتيب المدارك، ٤/٥٧٣.
٧٢. ابن الأبار، الحلة السيراء، ١/٢٠٢، الحميدي، جذوة المقتبس، ١٣، ابن خلدون التاريخ، ٤/٣١٧.
٧٣. احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ٤٥
٧٤. ابن الأبار الحلة السيراء، ١/٢٠١
٧٥. ايضاً، ١/٢٠١ـــ ٢٠٢، ثم انظر، ابن خلدون، التاريخ، ٤/٣١١ والمقري، نفح الطيب، ١/٣٨٦.
٧٦. ابن الأبار، الحلة السيراء، ١/٢٠٢.
٧٧. المقري، نفح الطيب، ١/٣٨٦، ابن خلدون، التاريخ، ٤/٣١٧.
٧٨. التاريخ، ٤/٣١٧، ثم انظر: المقري، نفح الطيب، ١/٣٨٦.
٧٩. ابن الأبار، التكملة، ١/١٩٢ (ترجمة: ٥٠٨)
٨٠. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ١/٢٩٩ (ترجمة: ٨٨٦).
٨١. أيضاً ١/٤٩ (ترجمة: ١٦٥).
٨٢. ابن الأبار، التكملة، ١/٣٤٧ (ترجمة: ٩٣٦) نقلا عن ابن حيان، ثم انظر: المقري، نفح الطيب، ٣/١١١.
٨٣. خوليان ربيرا، المكتبات، ٨٦.
٨٤. عياض، ترتيب المدارك، ٤/٥٤٣
٨٥. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ٢/٦٩ (ترجمة: ١٢٩٢)
٨٦. عياض، ترتيب المدارك، ٤/٥٤٥.
٨٧. ايضاً، ٤/٥٦٦
٨٨. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ٥/١٣.

بهم صح الكتاب وصيروه من التصحيف في ظل احترازي (٨٩)

و بهذه الجهود و بغيرها مما ذكرنا سابقاً «جمع [الحكم] من الكتب ما لايحد ولا يوصف، كثرة ونفاسة، حتى قيل أنها كانت اربعمائة الف مجلد» (٩٠). كيف لا وقد حملت اليه من كل جهة، والملك سوق ما نفق فيها جلب اليها، على حد تعبير ابن الأبار، فغصت بها بيوته وضاقت عنها خزائنه (٩١).

وقد شاع بين رعاياه أن خير وسيلة للحصول على عمل أو نيل حظوة لديه هي تقديم كتب لا توجد عنده، وهكذا كانوا يهدون اليه أعمالهم أو يقدمون اليه نسخاً من مؤلفات نادرة، لدرجة أن أسقفاً من الأساقفة في قرطبة أهدى اليه تقويماً للأعياد المسيحية الاسبانية، وهو كتاب طريف حقاً قدر له أن يصل الينا لحسن الحظ (٩٢).

ومن الملاحظ أيضاً أن الخليفة الحكم كان متنوراً لم يقتصر في تشجيعه للحركة العلمية على علم دون آخر، وهذا ما لمسناه فيما مضى من البحث، وصرح به صاعداً حين قال: «واستجلب من بغداد ومصر وغيرها من ديار المشرق عيون التواليف الجليلة والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم مدة ملكه من بعده ما كان يضاهي ما جمعته ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة، وتهيأ له ذلك لفرط محبته للعلم وبعد همته في اكتساب الفضائل وسمو نفسه الى التشبه بأهل الحكمة من الملوك، فكثر تحرك الناس في زمانه الى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم» (٩٣).

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن، هل كانت هنالك مبالغة في تقدير مكتبة الحكم؟ الرأي عندي ليست هنالك مبالغة في التقدير، ولا سيما اذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الملاحظات الآتية: —

١. شخصية الحكم العلمية ورغبته الشديدة في جمع الكتب وارساله فيها الى الأقطار البعيدة وتكليفه العلماء بالتأليف، وجهوده المبذولة في خدمة المكتبة وغير ذلك مما ذكرنا في ثنايا البحث، يرجح عدم المبالغة في التقدير.

٢. كثرة النصوص التي وصلت الينا، مما ذكرنا في هذا البحث، والتي يشير اصحابها صراحة الى ضخامة المكتبة، ومنهم من كان قريب من عصر الحكم المستنصر ولا سيما ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ).

٣. ان مكتبة الحكم بالأصل، مكتبات ثلاث، مكتبته عندما كان ولياً للعهد، ومكتبة أخيه عبد الله المعروف باهتمامه بالعلم وجمعه للكتب، ومكتبة أبيه الناصر حيث شكل ذلك كله نواة كبيرة لمكتبة أكبر فيما بعد.

٤. ان المكان الذي شغلته المكتبة في الأصل، صار يضيق بها لكثرة الكتب الواردة اليها، الأمر الذي استدعى عملية نقلها الى مكان آخر يتسع لها، وقد استغرقت عملية النقل فقط، ستة أشهر (٩٤)، ان في ذلك دليل يضاف الى غيره من الأدلة التي تؤكد ضخامة المكتبة وصحة تقدير العلماء لكتبها.

٥. أشرنا فيما سبق الى نص يحدد عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب، وفي عملية حسابية بسيطة يتبين أن عدد أوراق الفهارس كانت ٢٢٠٠ ورقة. وفي هذا دليلا محسوباً بلغة الأرقام، يؤكد صحة التقدير، ولا سيما اذا أخذنا بنظر الاعتبار أن بعض الكتب تقع في أجزاء كثيرة، مثل كتاب الاستيعاب الذي يقع في مائة جزء، وأن عدداً من الكتب يوجد منها أكثر من نسخة في المكتبة، مثل كتاب العين. واذا ما علمنا أن هذه الكتب يشار اليها بالفهرسة بالاسم فقط، كما اشرنا سابقاً، دون الأجزاء أو أعداد النسخ، فليس من المستبعد أن تصل كتب المكتبة الى ٤٠٠ الف مجلد كما ذكر المقري.

٦. جرت في صدر خلافة هشام بن الحكم المستنصر، عملية جرد وتنظيم وتفتيش للمكتبة قام بها جملة من الفقهاء يساعدهم في ذلك طائفة من الفتيان. وقد طالت مدة عملهم في ذلك لكثرة الكتب و وفور خزائنها حولا كاملا وفوقه (٩٥). وفي هذا دليلا جديداً يضاف الى الأدلة السابقة يؤكد صحة الروايات التي وصلت الينا عن ضخامة المكتبة.

---

٨٩. جذوة المقتبس، ٥١ — ٥٢ (ترجمة: ٣٩)، ثم انظر: الضبي، بغية الملتمس ٦١ (ترجمة: ٩٤)، القفطي، أنباء الرواة، ٣/٧١ — ٧٢.

٩٠. المقري، نفح الطيب، ١/٣٩٥

٩١. الحلة السيراء، ١/٢٠١.

٩٢. خوليان ربيبرا، المكتبات وهواة الكتب، ٨٨.

٩٣. طبقات الأمم، ٦٦

٩٤. المقري، نفح الطيب، ١/٣٩٥

٩٥. عياض، ترتيب المدارك، ٤/٦٣٨.

قائمة المصادر والمراجع

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٩ هـ)

١. التكملة لكتاب (جزءان) تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني (القاهرة ١٩٥٦م)

٢. الحلة السيراء، (جزءان) تحقيق: د. حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٣) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف (ت ٥٧٨ هـ).

٣. الصلة (قسمان)، (القاهرة ١٩٦٦)

الجزري، شمس الدين (ت ٨٣٣ هـ)

٤. غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره، ج. برجستراسر (القاهرة ١٩٣٢م) طبعة الأوفست، مكتبة المثنى، بغداد.

ابن جلجل، أبو داود سليمان (ت ٣٧٧ هـ).

٥. طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد (القاهرة ١٩٥٥).

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ)

٦. جمهرة انساب العرب، تحقيق: محمد عبد السلام هارون (القاهرة ١٩٧٧م) الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي (ت ٤٨٨ هـ)

٧. جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (القاهرة ١٩٦٦)

الحموي، ياقوت (ت ٦٢٦ هـ)

٨. معجم الأدباء (القاهرة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٨)

ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (ت ٤٦٩ هـ)

٩. المقتبس، الجزء الخامس، نشره: ب. شالميتا وآخرون (مدريد ١٠٧٩) الخشني، أبو عبد الله محمد بن الحارث (ت ٣٦١هـ)

١٠. قضاة قرطبة (القاهرة ١٩٦٦)

ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ)

١١. العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ العلامة ابن خلدون) المجلد الرابع (بيروت ١٩٦٨م) ابن خير الاشبيلي، أبو بكر محمد (ت ٥٧٥ هـ).

١٢. فهرسة ما رواه من شيوخه، تحقيق: الشيخ فرنسشكه، وزاره زيدين وتلميذه خليان (الطبقة الجديدة) منقحة عن الأصل المطبوع في مطبعة قوس، سرقسطة ١٨٩٣م.

الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين (ت ٧٤٨هـ)

١٣. تذكرة الحفاظ (طبعة بيروت المصورة عن الطبعة الهندية، حيدراباد الدكن «١٣٠» ربيرا، خوليان.

١٤. المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الاسلامية، ترجمة الدكتور جمال محمد محرر مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، المجلد الرابع والخامس ١٩٥٨، ١٩٥٩، الزركلي، خير الدين.

١٥. الاعلام، قاموس تراجم.

صاعد، أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢هـ)

١٦. طبقات الأمم، تحقيق: الأب لويس سيخو اليسوعي (بيروت ١٩١٢م) الضبي، أحمد بن يحيى بن عميرة (ت ٥٩٩ هـ).

١٧. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (مجريط ١٨٨٤م) عباس، احسان.

١٨. تاريخ الأدب الأندلسي ــ عصر سيادة قرطبة ــ (بيروت ١٩٦٠م) ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٧٠٣ هـ).

١٩. الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، (السفر الخامس، (بيروت ١٩٦٥) عياض، أبو الفضل عياض بن موسى البحصبي السبتي (ت ٥٤٤ هـ).

٢٠. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك، تحقيق: الدكتور أحمد بكير محمود (بيروت ١٩٦٨).

ابن فرحون، برهان الدين بن ابراهيم بن علي (ت ٧٩٩هـ).

٢١. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور (القاهرة ١٩٧٤).

ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي (ت ٤٠٣ هـ).

٢٢. تاريخ علماء الأندلس (القاهرة ١٩٦٦).

القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٢٤هـ)

٢٣. أنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٥٠م) ابن مخلوف، محمد بن محمد.

٢٤. شجرة النور التركية في طبقات المالكية (القاهرة ١٣٤٩هـ)

المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ).

٢٥. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب تحقيق: الدكتور احسان عباس (بيروت ١٩٦٨م).

النباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن (ت ٧٩٣هـ)

٢٦. المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشر ليفي بروفنسال، (القاهرة ١٩٤٨م).

مطلق، البير حبيب.

٢٧. الحركة اللغوية بالأندلس (بيروت ١٩٦٧م).

نظرات في منهجية إعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي

د. محمد جاسم حمادي المشهداني
معهد الدراسات القومية
الجامعة المستنصرية

التاريخ محصلة تجربة الأمة، عبر الزمن، وهو المحصلة النهائية التي تقررها ارادة الأمة منذ القدم والى آخر حلقة من حلقاته في تاريخها المعاصر، وفلسفته تعني دراسة ماضية الحي بما يجعل حقيقة ذلك الماضي حاضرة في الأذهان قريبة من الأبصار رغم بعدها الزماني والمكاني عن تاريخنا المعاصر، وأن الأمة التي تمتلك مؤهلات ديمومية حركة التاريخ، والقدرة على صنعه على مر العصور هي أقدر من غيرها على فهم واستيعاب تلك الحقيقة والمقدرة على تفسيرها واستلهام معانيها واستذكار واستحضار كل عوامل القوة والخير الكامنة فيها ولذلك كان الرواد الأوائل من المؤرخين العرب قد وضعوا منهجاً علمياً دقيقاً في تدوين التاريخ ونقده معبرين بذلك عن خصوصية الأمة ودورها في حركة التاريخ. وكان لتلك المنهجية أثرها في انتقاء الحدث وتدوينه وإنتقاده فأصبح للتاريخ من خلالهم وبهم مكانة متميزة من بين المعرفة الانسانية التي اختص بها تاريخنا العربي الاسلامي:

لقد ترك لنا المؤرخون الرواد ارثاً حضارياً عظيماً نحن أولى وأحق به من أي فرد أو جماعة كانت، وفي غفلة من الزمن اتيح لأعداء الأمة من مستشرقين واستعماريين غربيين وشعوبيين، اتيح لهم فرصة زمام المبادرة والمبادءة من خلال حركة الاستعمار الحديث التي ابتليت بها الأمة في مختلف شرائحها ومكوناتها والتي كان التاريخ أحد عناصرها، ولذلك اصبحت كتابة التاريخ العربي معضلة كبيرة بحق اختلفت الآراء واجتهدت العقول في المنهجية التي يمكن من خلالها كتابته، بما يحقق الهدف والغاية المرجوة من تلك الكتابة، وكانت هذه المعضلة قد ولدت كنتيجة من مخلفات الغزو الفكري السياسي الغربي، وأصبحت المعضلة وكأنها مستعصية، ذلك لأن الغربيين أحكموا تعقيدها، لادراكهم بأن ضرب الأمة وتحطيمها لا يأتي فقط عن طريق القوة العسكرية، بل يأتي بأساليب كثيرة وعديدة ومن أبرزها سلاح ضرب التاريخ العربي وتشويه صورته الرائعة في نفسية العربي، لأنهم كانوا يخشون من التاريخ ومن التذكير به ولذلك انبرى دعاة الغرب من المستشرقين وغيرهم الى وضع وتطبيق نظرياتهم الفلسفية الغربية، على تاريخنا وتراثنا في محاولة مقصودة لتشويه هذا التاريخ وطمس ايجابياته وتصويره وكأنه عامل معرقل لحركة تطور الأمة العربية ونهضتها. لذلك كان من نتيجة ذلك أن أصبحت كتابة التاريخ العربي الاسلامي معضلة معقدة تبحث على أسرار حلها، ولقد تناسى الأعداء بأن سر حركة تاريخنا وسر ديمومته، وسر تفسيره، وتحليله وتعليله يكمن في ذاتية التاريخ نفسه وفي منهجية الرواد الأوائل من المؤرخين العرب الذين وضعوا أرقى منهجية في كتابة التاريخ وتدوينه ونقده وتوثيقه ولذلك فنحن بحاجة الى استيعاب مفردات تلك المنهجية العربية الأصيلة التي تصلح لكل زمن ممتد في تاريخ امتنا، ومما يزيد في أهمية تلك المنهجية، في المرحلة الراهنة هو فقدان مدرسة عربية موحدة لفهم التاريخ وكتابته، لكي نجعل من التاريخ عاملا من عوامل نهوض الأمة ووحدتها، ذلك لأن منهجية دراسة التاريخ وانتقاء احداثه قد اختلفت وجهات النظر فيها باختلاف العصور، حيث ترتبط تلك النظرة بطبيعة المفاهيم الفكرية المعاصرة التي يؤمن بها المؤرخ، تلك المفاهيم التي تنتج عنها فلسفته الخاصة في النظر الى التاريخ وأحداثه ولذلك اختلفت نظريات المؤرخين وفلسفاتهم في تعليل وتحليل واستنتاج الوقائع التاريخية، الأمر الذي يؤكد جسامة المسؤولية على عاتق المؤرخين فدراسة التاريخ ليست هواية أو رغبة عابرة، انما هي هدف وغاية نبيلة، فالأمة العريقة تبحث في تاريخها لمواجهة كل ما يعتريها من مشكلات وصعاب مما يزيد أبنائها على مواجهتها ومعالجتها بقدرة عالية، واختيار أنجع الحلول المناسبة لمواجهتها وبذلك يستطيع الانسان أن يواجه مشكلات حاضرة، ويخطط في مستقبله في ضوء تجارب سابقة وفي ضوء ما يقدمه التاريخ من دروس ذات مغزى كبير في معالجة المشكلات (١)، فيرفد التاريخ الحياة بروافدها العديدة من أجل بلوغ مستقبل أفضل حيث تصب دراسة التاريخ نتائجها في الحاضر، ويرفده بكل مكوناته الأساسية ويدفعه نحو المستقبل، وهو يحمل أكثر من هذه المكونات (٢)، ولعل أبرز معضلات

١. د. عز الدين غربيه، لماذا ندرس التاريخ؟ بحث مقدم للنشر، ص ٥ — ٦.

٢. نفسه، ص ٦ — ١٠.

كتابة التاريخ العربي التي نعاني منها تكمن بما يلي :

اعتماد كثير من المؤرخين العرب على أسس وقواعد منهجية في البحث التاريخي مستمدة جذورها وأصولها من الفلسفة الغربية والاستشراقية في كتابة التاريخ، ولعل هذه من أبرز تعقيدات كتابة التاريخ العربي، وهذا يجانب تماماً المصداقية التاريخية العربية، في خلق التاريخ وكتابته ذلك أن القرن السابع عشر الميلادي قد شهد فترة تأسيس قواعد التاريخ والتعامل معه والكتابة فيه في القارة الأوربية (٣) ومذ أواخر القرن الثامن عشر كثر في الغرب التأليف في علم التاريخ وموضوعه ومناهجه وتفسيراته ومذاهبه (٤)، ومن ثم تحول علم التاريخ لديهم الى علم مستقل نبع الى حدّ ما من قيام القوميات والدول الكبرى في أوربا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فالأجيال التي قامت بانشاء هذه الدول شعرت بالحاجة الى معرفة الماضي (٥) وأغلب تلك الفلسفات في التاريخ لا تزال هي حتى اليوم (٦).

أما مؤرخوا القرن العشرين من الأوربيين فانهم كتبوا التاريخ متأثرين بنظريات فرويد، وانيشتاين، وماركس، حيث ابتعدوا عن الموضوعية التاريخية وابتكروا ما يعرف عادة بالنسبية التاريخية (٧)، وقد تصور كثير من المستشرقين أنهم وصلوا الى كبد الحقيقة في كل ما كتبوه، وخاصة ما تصوروه (٨)، ولقد اسقط المستشرقون من حساباتهم كلياً والى حد كبير الدور الضخم الذي قام به المؤرخون المسلمون في علم التاريخ، وهذا تجني فادح وانتقاص من الأمانة العلمية (٩)، ولقد أخطأ المستشرقون في نقد وتعليل وتحليل واستنتاج الروايات التاريخية لتاريخنا العربي الاسلامي، وأخطاؤا في فهم المصطلحات الواردة في أسانيد الروايات التاريخية وأن هذا الفهم الخاطيء يقود بالنتيجة الى استنتاجات خاطئة في معالجتهم لقضايا التاريخ العربي الاسلامي وبالتالي تؤدي تلك الاستنتاجات الى نتائج عكسية غير دقيقة، الأمر الذي يبعد الباحث عن الحقيقة التي يهدف لها من وراء دراسته للتاريخ، فهذا جولدزيهر يخطأ في فهم كلام الزهري المشهور عندما قال «وكنا نكره كتاب الحديث حتى اكرهنا عليه الأمراء، فرأينا أن لا نمنعه المسلمين» وقد علق جولدزيهر خطأ على هذا الخبر بقوله «وعلى هذا فقد اعترف الزهري في هذا الموضع بالذات أنه أتاح على هذا النحو للأمويين أن يعدوا لمصالح الأسرة الحاكمة وسائل عقدية (١٠). ولقد أهمل المؤرخون الغربيون والمستشرقون عن قصد فعاليات العرب المسلمين وانجازاتهم في حقل المعرفة التاريخية، وأنهم حينما تكلموا عن الأسس التي قامت عليها الكتابات التاريخية والحوافز التي دفعتها وطورتها فصوروا الأمر على ظهورها في أوربا سواء كان ذلك عند القدماء من الاغريق والرومان، أم في العصر الوسيط، أم عصر النهضة والعصر الحديث (١١). كما أن الحاجات التي أدت الى ظهور أنماط مختلفة من الكتابات التاريخية في التفكير التاريخي عند الغربيين كان يقابلها عند العرب كتابات وأشكال مختلفة متباينة عن تلك التي عندهم،

ذلك لأن المدارس الغربية فسرت الوقائع والحقائق التاريخية للتاريخ العربي من خلال وجهة نظرها ومن خلال العقيدة التي آمن بها روادها، ولذلك جاءت تفسيراتهم للتاريخ العربي مغالطة تماماً لروحية ذلك التاريخ وجوهره، وأن ترسيخ الذهن بمغالطات تجاه تاريخ الأمة العربية منذ البداية يجر بالنتيجة الى مغالطات في النهاية، اضف الى ذلك فان المدارس الغربية لفلسفة التاريخ ارتبطت بالحركة الاستعمارية التي استهدفت اذلال العرب، واخضاعهم من خلال ترسيخ المفهوم الغربي الذي يؤكد على انتقاد الأمة لدورها في التاريخ، واعتبار الأمة العربية امة مقلدة، وليست مبدعة، كما أن تلك المدارس ابرزت في دراساتها الحالات السلبية في التاريخ العربي والتي كانت من افرازات الغزو الفكري والسياسي والعسكري الأجنبي الذي تعرضت له الأمة العربية في مراحل مختلفة من تاريخها من أجل أن ترسخ في النفس العربية حالات التخويف والترهيب والتردد والانكسار وكذلك من خلال ابرازها والتأكيد عليها والتذكير بها، كما كانت دراساتهم بالاتجاة الذي يعمق حالات التجزأة والتفرقة بين أبناء الأمة وتعميق حالة الانكسار النفسي والمعنوي وفقدان الثقة واليأس والقنوط عن مواجهة الغزاة ولذلك عمدت المدارس الاستشراقية الى حالة طمس الحقائق الايجابية في تاريخ الأمة وتغيير أحداثه من خلال تشويه تلك الأحداث، وتشويه صورة الرجال الذين خلقوها وصنعوها، ويكتفي أن نشير الى وصف أحدهم للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم «بأنه قاطع طريق» كما اشاعوا مفاهيم خاطئة في كتابة التاريخ، من أجل أن يشوهوا الحقائق ولذلك استخدموا مصطلحات من نسيج خيالهم وتفكيرهم وصارت تلك المصطلحات من الوسائل الكتابية التي استخدمها المؤرخون والباحثون العرب في كتاباتهم، وكأنها حقائق لا تقبل النقاش ومنها على سبيل المثال لا

٣. كارل ج. فابر، ما هو التاريخ ؟ بحث منشور ضمن مجلة الفكر العربي، العدد ٢٧، م ١ (بيروت، ١٩٨٢) ص ١٥.

٤. د. شكري النجار، تطور فكرة التاريخ عند المؤرخين، بحث منشور ضمن مجلة الفكر العربي، العدد ٢٧، م ١ / ٣٠.

٥. نفسه، ٢٧/م ١ / ٣٢.

٦. كارل. ج. فابر، المقال السابق، ٢٧/م ١ / ١٥.

٧. د. شكري النجار، المقال السابق، ٢٧/م ١ / ٣٣.

٨. نفسه، ١ / ٣٣.

٩. نفسه، ١ / ٣٤.

١٠. د. فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة : د. محمود فهمي حجازي، المجلد الأول/ج ٢ (الرياض، ١٩٨٣) ص ٤٧.

١١. د. بشار عواد معروف، اصالة الفكر التاريخي عند العرب، بحث منشور ضمن بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ (بغداد، ١٩٧٤) ٨٧٦.

الحصر (مسألة الساميين) وما اصطلحوا عليه (بنكبة البرامكة) و «الفترة المظلمة» ...... وغيرها من الاصطلاحات الخاطئة، اضافة الى تصويرهم للتاريخ العربي وكأنه تاريخ صراع بين الحكام والشعب، وتاريخ للنزاعات الطائفية والعنصرية، ولقد استغل هؤلاء المستشرقين الوضع السياسي العربي في العقد الرابع والخامس من القرن العشرين لترسيخ تلك المفاهيم، ولعدم وجود من يرد عليهم، والأنكى من ذلك أن العرب كانوا يدرسون قواعد وأسس ومناهج البحث التاريخي في تلك المعاهد الغربية، الأمر الذي أدى الى استسلام معظمهم الى تلك النظريات والفلسفات التي نقلت الى تلاميذهم في المدارس والمعاهد والجامعات العربية، ولذلك عندما نطالب بمدرسة عربية لفهم التاريخ العربي وكتاباته فاننا يجب أن لا يسقط من حساباتنا تلك النظريات الاستشراقية الغربية فحسب بل يجب علينا أن نفندها ونبطل فعلها ودورها في تفسير تاريخ الأمة العربية وقد ولى زمن التبعية الفكرية القاتلة لفكر الأمة، وأتى زمن الحقيقة الصادقة المعبِّرة عن واقع الأمة وتاريخها وتراثها وذلك لأن اولئك المستشرقين مهما اجتهدوا ومهما عرفوا فانهم يظلون عاجزين تماماً عن فهم روح التاريخ العربي و يظلون قاصرين عن الغوص الى أعماقه، فضلا عن تصوراتهم الخاطئة والمسبقة للتاريخ العربي قبل الشروع في دراسته، وذلك لأن المستشرق والمؤرخ الغربي يعوزه القدرة على الخروج من الحتميات الشخصية، وتبني حتميات الأمم التي يؤرخ لها.

ولذلك فان عدم مغادرة المؤرخ والمستشرق الغربي لما في ذهنه من تصورات تجاه التاريخ العربي الاسلامي يعني فشله في إنشاء الصورة التاريخية، التي هو بصدد انشاءها الأمر الذي يبعده عن الموضوعية، لكون حركة الاستشراق غزو للتاريخ والحاضر والمستقبل (١٢).

وفي الحقيقة هذه من أبرز المعضلات التي تواجه الأمة في كتابة تاريخها فعلينا أن نغادر كافة الفلسفات الغربية التي وضعت لتفسير وكتابة التاريخ العربي ولا نكتفي بالمغادرة فقط وانما يجب علينا أن نرد عليها ونصحح ما أشاعوه من بذور التشويه والخلاف والدس والتزوير، وأن نجعل المنهج والفلسفة عربية خالصة نابعة من ذاتية التاريخ. ومن بين المعضلات التي تواجه كتابة التاريخ العربي هو المؤرخ العربي المعاصر ذلك أن كتابة تاريخ الأمة العربية يستوجب توفر شروط دقيقة خاصة وأخرى عامة بمن يتولى القيام بهذه المهمة العظيمة ومن أبرز الشروط هو الايمان بالقيم والمبادىء التي نتج عنها ذلك التاريخ، والايمان بأن حركة التاريخ في هذه الأمة ستظل تسير بصورة سليمة لتكمل رسالتها للانسانية جمعاء والايمان التام بأن روح هذه الحركة هي التضحية والفداء والاستشهاد من أجل أن تتجسر تلك الحركة مع كل حقبة من تاريخ الأمة العربية عبر مساره الطويل، ولذلك فان من يؤمن بأن الحدث التاريخي حدث طارىء أو عارض فانه لا يؤمن بالحركة التاريخية للأمة ولذلك لا يصلح في أن يدون أو يفسر تاريخها فالايمان بالتاريخ كقيمة عليا من قيم الأمة والايمان بقدرة هذه القيمة على التطور والتواصل سيجعل من كاتب التاريخ أقرب لتشخيص الحقيقة الجوهرية لتلك القيمة، وسيجعله أقدر على تشخيص وتعليل حركتها و بالتالي سيمكنه أن يدرك بيقين صادق السر المحرك لتلك القيمة التاريخية الأمر الذي سيجعله قادراً على تحليل وتعليل واستنتاج واعادة كتابة الأحداث التاريخية للأمة العربية بروح نقية أصيلة وصادقة، وهذه المواصفات من العسير توافرها في أناس أو مؤرخين يضعون انفسهم خارج نطاق الحركة التاريخية للأمة، أو لا يؤمنون بأسرار تلك الحركة واندفاعها أو يؤمنون بالنظريات الاستشراقية المستوردة لكتابة التاريخ، ولذلك فاننا بحاجة الى مؤرخ واع من بين أبناء الأمة يؤمن ايماناً صادقاً بتاريخها ورجالها الذين صنعوا ذلك التاريخ، و يؤمن بأن حركة التاريخ العربي لا بد أن تعود الى مسارها السليم الذي بدأته وأن حالات الانحسار والانكسار ما هي الا عارض زمني سرعان ما يؤول الى الأفول بعد أن تأخذ عجلة التاريخ مسارها الصحيح، وأن تاريخ الأمة تجسده المبادىء والقيم التي بنته، وان فترات الركود واليأس والانحلال ما هي الا فترات محدودة ضيقة المساحة والزمن مهما رأيناها في أعيننا كبيرة، ولذلك فان تاريخ الأمة يتجسر مع بعضه لتجاوز تلك الفترات وهذا ما يجب عمله و يفرض علينا أن نؤمن به كحقيقة صادقة من حقائق انتمائنا لهذه الأمة، ويجب أن نضعه أمام أعيننا ونستحضره في أذهاننا عندما نفكر في وضع منهجية لمدرسة عربية في فهم التاريخ وكتابته، لأن هذه الحقائق احدى عناصرها الأساسية.

فالذي يؤمن بنظريات وفلسفات مستوردة و بعيدة عن جوهر الحركة التاريخية للأمة يكون عاجزاً بحق عن استلهام تاريخها ومعرفة اسراره وتعليل أحداثه فعلى باحث التاريخ ودارسه أن يميز بينه و بين التاريخ و بين نفسه بوصفه مدركاً و بين العالم بوصفه مدركاً فعليه أن يعالج المادة المدركة بعقل متدبر وليس بالأهواء والنزوات أو الاعتماد على أفكار استشراقية مستوردة (١٣).

أضف الى ذلك أن المفكرين العرب وضعوا شروطاً دقيقة لراوي الخبر والرواية التاريخية أبرزها «العقل، والضبط، والعدالة» ولو فقد منها شرط ردّت روايته وترك حديثه ولذلك يجب أن تتوفر في كتاب التاريخ

١٢. رضوان السيد، الغزو الصهيوني، مجلة الفكر العربي، ٢٧/م ١/ ٥.

١٣. كارل. ج. فابر، المقال السابق، ص ١٣.

ذات الشروط الواجب توفرها فيمن يرو يه لكي يستطيع أن يقوم أهل العقل والعدل والضبط من أجل أن يتعرف على حقيقة رواياتهم، خاصة وأن أغلب الروايات في التاريخ العربي الاسلامي كانت مسندة، فالمؤرخ فرد له ذاتيته التي لا يمكن الخروج منها كليّة مهما حاول أن يكون موضوعياً، ومهما بذل من جهد في استطلاع الوقائع التاريخية ذاتها ومهما لجأ الى العلوم المساعدة ليكشف ما يدعي الحقيقة التاريخية ومهما لجأ الى قوة النقد التي لديه وأن المؤرخ يستخدم حريته في انشاء الصورة التاريخية التي هو بصدد التاريخ لها وإن تكن هذه الحرية مقيدة بعض التقييد بالوقائع التي تشير اليها الآثار، والتي تتضمنها الوثائق(١٤).

وأن مؤرخ الأمة يهتم بماضي أمته قبل أن يهتم بماضي الأمم الأخرى، كما أن المؤرخ لا يستطيع دراسة الحقيقة التاريخية من دون شعوره بمعاصرة الحادثة التي يؤرخ لها، ولا بد له من أن ينتقل الى زمان الحادثة ومكانها بخياله ووجدانه وأن ينغمر في أجواء الحضارة والثقافة التي كان منغمراً فيها أبطالها وأن يعايش الأشخاص والجماعات في تقاليدهم وأعرافهم وتفكيرهم وأدبهم وسيرهم وأن ينفذ الى عقليتهم واسلوب حياتهم ليدرك كيف كانوا يندفعون و يفكرون و يريدون و يضع يديه على نوابض الحقيقة التي كانت تحرك مشاعرهم وتوجه سلوكهم فيتقدمون حيناً ويحجمون حيناً آخر(١٥). فهناك تفاعل بين حاضر المؤرخ وماضي الوقائع التاريخية تنشأ عنه رؤية الانسان المعاصر للانسان الماضي وهي رؤية ممتزجة بانفعالات المؤرخ ومطامحه ولا يمكن للمؤرخ أن يكون صادقاً الا اذا انتقل بكل شعوره ووجدانه الى العصر الذي يؤرخ له و يعايشه في أعمق أعماقه ويجند له خياله وثقافته وفكره، رغم أنه يشعر ببعد الزمن الذي يفصله عنه وفي هذا ما يجعل الصورة التي تنشأ عن الماضي صورة تحمل سمات عصر المؤرخ الذي رسمها(١٦).

ولا يستطيع أي مؤرخ غير عربي أن يصل الى هذه الحقيقة ولذلك فاننا بحاجة الى مؤرخ عربي يؤمن بهذا التاريخ ويحمل مواصفات دقيقة من الصبر والجلد والتقصي والتحليل والتعليل والاستنتاج بمصداقية عميقة تجعله يدرك أن عمله في هذا الاتجاه من قبيل الواجب المفروض عليه والذي سيحاسبه عليه التاريخ والزمن.

ومن بين المشاكل التي تواجه المؤرخ في كتابة التاريخ ودراسته هي طبيعة المادة التاريخية ذاتها من خلال اتجاهين، احدهما المادة التاريخية الموجودة في المصادر التاريخية القديمة وثانيهما المادة التي كتبها المؤرخون المحدثون والموجودة في المراجع الحديثة.

ففي ما يتعلق بالمصادر التاريخية العربية القديمة نجد أنها تتكون من مجموعة كبيرة من الروايات المسندة والتي تعود بدورها الى مجموعة كبيرة جداً من الرواة والاخباريين يتميز بعضهم بالثقة والأمانة والاتقان و يتميز آخرون بالضعف وعدم الدقة وعدم الاتقان بل يتهم بعضهم بوضع الروايات والافتراء والكذب؛ و بعض يعكس وجهات نظر سياسية أو دينية أو قبلية أو محلية تتميز بالانحياز وعدم الموضوعية، في حين كان للرواة الشعوبيين دوراً واضحاً في الدس وتشو يه الحقائق ولذلك كان لهم أثر سيء في تشو يه حقيقة التاريخ العربي الاسلامي من خلال ما أقدموا عليه من وضع روايات تتميز بالكذب والوضع والتزو ير. وكانت هذه الروايات بأنواعها المختلفة الموثوقة والموضوعة، محط أنظار كبار المؤرخين الذين جمعوها ودونوها في كتبهم الكبيرة التي وصلتنا كما نجده في كتاب (التاريخ) لخليفة بن خياط (ت، ٢٤٠) والبلاذري (ت، ٢٧٩) واليعقوبي (ت، ٢٨٤) والطبري (ت، ٣١٠) والمسعودي (ت، ٣٤٦) وابن الجوزي (ت، ٥٩٧) وكثير غيرهم.

حيث نقلت هذه الروايات من قبل المؤرخين الكبار ووضعت من أجل استكمال الصورة التي يقدمها المؤرخ عن الحدث التاريخي الذي يتحدث عنه بغضّ النظر عن طبيعتها، رغم أن كثير منهم انتقد مرو ياته، الا أن بعضهم لم يكن دقيقاً، والبعض الآخر كان يستخدم أسلوب الاسناد الجمعي لمجموعة من الأسانيد و بعضها في مكان واحد، كما أن بعضهم لم يهتم بسند الروايات وعمد الى حذفها أو اختصارها الأمر الذي عرضهم الى نقد شديد من قبل علماء الجرح والتعديل، ومن قبل المحدثين بصفة خاصة، وهذه الحقيقة أدت الى تشو يه الصورة الحقيقية التي كان عليها التاريخ العربي الاسلامي. ووضع حالة من الدس والافتراء على هذا التاريخ، بل أن بعضها تحمل من الأباطيل والمتناقضات ما يثير العجب ومما يشكك في الصورة الحقيقية للتاريخ العربي، وفي الحقيقة هذه معضلة كبيرة تواجه كتابة التاريخ، لكون الروايات كتبت في أحيان كثيرة في أزمان متباعدة أو قريبة من الحدث التاريخي، أو تكون قد كتبت من أناس لهم مواقف محدودة من الأحداث، كما أن أساليبها كانت متباينة، ومتنوعة، ولذلك يجب على المؤرخ أن يحسم أمر هذه الروايات و يشذ بها لكي تكون معبرة عن الحقيقة المنشودة أو قريبة منها.

أما فيما يتعلق بالمادة التاريخية التي كتبها المؤرخون المحدثون والموجودة في المراجع الحديثة فان أغلبها بحد ذاتها مشكلة قائمة من مشاكل كتابة التاريخ ودراسته ذلك أن أغلب الاختيارات المدروسة أو

١٤. تيسير في شيخ الأرض، الحقيقة التاريخية والصورة التاريخية، مجلة الفكر العربي، العدد ٢٧/م ١/ص ٥٥.
١٥. نفسه، ص ٤٩.
١٦. نفسه، ص ٥٤ ــ ٥٥.

المكتوبة في تاريخنا العربي تصب في اتجاهين أولهما: الاختيار المجرد للحدث، لكي يحقق الباحث هدفاً يسعى اليه من عملية الاختيار وليس من أجل مبدأ أو غاية تخدم أهداف كتابة التاريخ ذاتها، وتدخل تلك المواضع ضمن المواضيع السردية البحتة، وليست ضمن المواضيع الهادفة والمبرمجة، ولذلك فان ما تقدمه تلك الدراسات من فائدة قد تكون قليلة أو معدومة لكونها غير هادفة وغير ذات قيمة، اضف الى ذلك أن تلك الدراسات السردية تقتل روحية التاريخ والتي نحن بأمس الحاجة اليها في المواقف الصعبة التي تعاني منها الأمة في تاريخها المعاصر، فالأمة بحاجة الى توظيف روح التاريخ في مرحلتها الراهنة من أجل أن تساهم في تعزيز الثقة بالنفس واستلهام روحيته بدلا من استغراق الوقت والجهد في مواضيع سردية غير هادفة ولا تخدم التاريخ العربي وكتابته من قريب أو بعيد. أما الاتجاه الآخر المتعلق بالمواضع المكتوبة فان ذلك يدخل ضمن ما هو مكتوب ضمن المناهج التاريخية للتاريخ العربي الاسلامي والتي تدرّس على طلبة المدارس والجامعات حيث نجد فيها من المغالطات والافتراءات الكثيرة التي تجعل الطالب لا يستاء فقط من تاريخه بل لا يرغب حتى في قراءاته وسماعه، وهذا في الواقع أخطر مشكلة تواجه دراسة التاريخ وتدريسه، لأن تربية الأبناء يجب أن يكون للتاريخ نصيب فيها، حيث يتم من خلالها التأكيد على الرموز البارزة في تاريخ العرب الذين على أيديهم صنع التاريخ من أجل أن نعزز في نفس التلميذ قيم الايمان والصبر والشجاعة والاقدام لتهذيب النفس وتقويمها بما يجعل الابتعاد عن ما يشوه التاريخ ورموزه، عندما صوروا القادة العرب وكأن همتهم اشباع رغباتهم ونزواتهم، من أجل أن تضيع في عيون الأطفال والتلاميذ صورتهم العظيمة والخالدة، ولذلك يجب أن تعاد كتابة تلك المناهج كتابة تتوافق وتنسجم مع حالات الابداع العظيمة لهذه الأمة التي وصلت راياتها من حدود الصين شرقاً والى سواحل المحيط الأطلسي غرباً. فيجب أن تبرز حقائق هذا الخلق التاريخي الكبير لهذه الأمة العظيمة، بما نجعل من درس التاريخ ومادته في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا درساً للتعليم والمبادىء وللصبر والشجاعة، والفخر والاعتزاز واحترام الزمن...

وبعد أن عرضنا أبرز معوقات كتابة التاريخ العربي نود أن نشير الى أن أبرز أهداف كتابة التاريخ ودراسته تتمثل في تعميق الوعي بالتاريخ لدى المواطن العربي كي نعمق في نفسه الايمان التام بكونه وريث لكل الحالات الابداعية المشرقة في تاريخ الأمة وبطريق تجعل المواطن يتمثل روحية تلك الحالات التي تعزز الكرامة والشرف والنخوة، وتثير فيه كل عوامل الخير الكامنة في النفس، وتزيل عنه كل عوامل التخلف والتردد والانكسار لأن أبرز حالة أكدت عليها العناصر المعادية للأمة هو كسر نفسية المواطن العربي واذلال واضعاف الروح المعنوية لديه من أجل أن تجعل من المجموع حالة متقبلة وليست معطاء، ولذلك يجب أن تتركز كتابة التاريخ على تعزيز جانب الثقة بالنفس من أجل خلق الشخصية العربية القادرة على مواجهة الصعاب فالغربيين لم يقتحموا بلادنا بعساكرهم فقط، بل اقتحموها بسلعة الفكر الغربي الذي أكد على تفتيت الشخصية القومية، مما مكنهم من الاستحواذ العسكري والفكري، واذا ما عززنا في نفسية المواطن العربي هذه الحالة فان الأمة تضمن البناء السليم لأ بنائها فتكون المدرسة العربية لفهم التاريخ وكتابته تتسع رحاب الماضي وتتسع رحاب التاريخ بالتالي فلا يعود تاريخاً محدداً لماضي انتهى بل يظل رؤية لأحداث لم تكتمل بعد(١٧). كما تهدف تلك المدرسة الى خلق منهجية تمنع التراجع في الوعي التاريخي العام كي تجعل من التاريخ صورة ذات معنى لأ بناء العصر وهذا المعنى وتلك الأهمية ما يعبر عنه المؤرخون بارتباط التاريخ بالحاضر، فاذا لم يكن الحدث التاريخي الماضي ذات أثر في الحاضر فلا قيمة حقيقية له، فالمؤرخ هو ناقد يكتب كلاماً حياً، يخاطب عقول الناس في كل عصر(١٨). فالانسان يحيا في عالم التاريخ، بل هو جزء منه ويؤثر ذلك على ادراكه وتحليله لتلك الأحداث التاريخية التي هو بصدد تحليلها واعادة كتابتها فالمدرسة التي ننشدها تبتعد عن منهجية الكتابة السردية المجردة غير الهادفة فنحن في الوقت الذي نسعى فيه الى معالجة كافة أحداث تاريخنا العربي الاسلامي فاننا بحاجة أكبر وأعمق الى ابراز روحية تلك الأحداث لنأخذ من التاريخ روحيته وليس مجرد حدثه، فنحن بحاجة الى الروح التي خلقت الانتصار في واقعة بدر، وبحاجة الى روح واقعة الخندق، واليرموك، والقادسية، ونهاوند وعمورية ونحن بحاجة الى الاستدلال وابراز الاستشهاد وروح الصبر والاقدام التي تميز بها تاريخ العرب الذين خلقوا أعظم ما في تاريخ البشرية والذين قهروا الأعداء واستهانوا بالطبيعة وظروفها وقساوتها فنحن اليوم بأمس الحاجة الى روحية الحدث التاريخي، ولا يمكن لأحد أن يستل من الحدث روحه الا ذلك المؤرخ الذي يؤمن بتاريخ أمته، وبالروح المحركة لذلك التاريخ،

لأن روحية التاريخ العربي لا يمكن أن تفهم وتستوعب وتستلهم الا من قبل أبناء الأمة، ولا يمكن لأي مؤرخ أجنبي أو عربي مؤمن بنظريات استشراقية، أن يكون قادراً الى ابراز روحية التاريخ مهما اجتهد في عمله، لأن استخراج روح التاريخ العربي تمثل هاجسنا وواقعنا الأول والأخير

١٧. رضوان السيد، المقال السابق، ص ١٠.

١٨. د. شكري النجار، المقال السابق، ص ٣٣.

من دراسة التاريخ وكتابته، لأن هذه الروحية لا يمكن أن نتلمسها الا من خلال الايمان بها، والحرص على ابرازها فنحن لسنا، اليوم بحاجة الى سرد حوادث تاريخية بقدر ما نحن بحاجة الى روحية تلك الأحداث، رغم قلة الدراسات الوجدانية لتاريخ الأمة وتجاربها في شتى حقول المعرفة الانسانية.

في وقت نحن أحوج ما نكون فيه اليها، اذ هي الركيزة التي تقدم الغذاء للنفس العربية المتوثبة المنطلقة.. نحو ايجاد مكانتها ووجدانها في الفكر العالمي وأن فهم التاريخ في هذه الحالة لا يساعد على فهم احداثه ووقائعه فحسب ولا تتوقف عند استحضاره، بل تتجاوزه الى صنعه من جديد، ومن هنا كانت تجربة الزمان الماضي التي لا تختلف جوهرياً عن تجربة الزمان المستقبل الأمر الذي يخولنا الانتقال من معايشة التاريخ الذي كان إلى صناعة التاريخ الذي سيكون لأن نرى المستقبل دائماً من خلال الماضي وهذا لنضمن أن الوجدان التاريخي وأن بنيته تاريخية، تربط الماضي بالمستقبل من خلال الحاضر، ربطاً يساعده على التوجه في التاريخ واكتساب التجربة التاريخية واستلهام روح الماضي بايمان وتفاؤل نحو مستقبل مشرق ومنفتحاً على آفاق العالم وعلى التجربة الانسانية ومن هنا كان التوافق الصادق بين الوجدان وروح التاريخ حيث تنشأ التجارب التاريخية على محور الذات (١٩) ولذلك فنحن نهدف من كتابة التاريخ الى الكشف عن روحيته وابرازها واستلهامها لكي تكون عاملا من عوامل وحدة الأمة وقوتها ومن أجل أن تعزز عامل الثقة بالنفس، وبذلك تصبح كتابة التاريخ ودراسته هادفة نافعة وليست مجرد دراسة سردية عامة خالية من الهدف، ويجب أن تكون دراستنا شاملة لكل حالات التاريخ واتجاهاته وبالأخص الحالات الايجابية المشرقة منه، مع التأكيد على التوافق والتآزر بين الرعية والحاكم في عملية توافق تاريخي لم يشهد له مثيل وازالة ما علق في الذهن من كون تاريخ الأمة هو تاريخ حكام أو ولاة وقادة، مع التأكيد على دور العرب في الفكر العسكري، وبالأخص في ميدان الفتوحات التي أكدت على رسالة العرب في التاريخ وليس كما يصوره الغربيون من أنها كانت لغير أهدافها، مع ابراز دور العرب في التراث الفكري العلمي والأدبي وأهمية هذا الدور في الحركة الفكرية الإنسانية.

وبعد أن تطرقنا الى معوقات كتابة تاريخ الأمة، وابراز الأهداف التي نطمح اليها من كتابته نود أن نشير هنا الى المنهج الذي نطمح الى تحقيقه وتطبيقه في عملية اعادة كتابة التاريخ بما يعزز الأسس التي ننشدها لبناء مدرسة عربية لفهم التاريخ وكتابته.

ان الأسس المعتمدة في كتابة تاريخ الأمة العربية تفرض علينا أن نشير الى أن المؤرخين العرب قد وصلوا في علم التاريخ الى شأن يضارع أحسن ما وصل اليه المؤرخون الغربيون من ناحية المنهج والأسلوب. ولكي ندرك ما نهدف اليه في كتابة التاريخ لا بد لنا من تبيان وتوضيح الأسس التي قام عليها الفكر التاريخي العربي من أجل أن تساهم هذه المعرفة في عملية تحليل وتعليل واستنتاج واستلهام الحدث التاريخي وروحيته، وذلك لأن أصول وقواعد منهج البحث التاريخي العربي قد نشأت عند العرب مع نشأة علم التاريخ وتطورت تلك الأصول والقواعد مع تطور هذا العلم واتساعه وتعدد اتجاهاته وأغراضه وتبلور منهجية مدارسه المتعددة.

فلقد أثر الحديث النبوي الشريف تأثيراً كبيراً في الاسناد والتدوين عند المؤرخين فقد كان الحديث النواة الأولى للعلوم والمعارف الاسلامية ومنها علم التاريخ حيث تفرعت منه الكثير من العلوم وساعد على تطور علوم أخرى كما أن السند يعتبر من الأسس المهمة التي يرتكز عليها علم الحديث والذي انتقلت أهميته بدورها الى علم التاريخ وغيره ورغم استقرار وتبلور التدوين في القرن الثالث الهجري، وفي مختلف جوانب المعرفة الانسانية، بعد الازدهار الحضاري العظيم، الذي بلغته الحضارة العربية الاسلامية (٢٠)، فان المراحل التي مرت بتدوين الحديث أثرت في التدوين التاريخي، ولعل أعظم تأثير للدراسات الحديثة في العلوم العربية الاسلامية يظهر في نشأة التأليف التاريخي عند العرب وتطوره، وتوضح الدراسات الحديثة الاتجاهات الأساسية للكتابة التاريخية عند العرب.

ومن هنا نشأت الأسس الأولى للمنهج العربي الصحيح لنقد الروايات التاريخية وتمحيصها ولذلك قال سفيان الثوري ((لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ)) وقال حفص بن غياث ((اذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين يعني سنه، وسن من كتب عنه، وقال حماد بن زيد: لم نستعن على الكاذبين بمثل التاريخ)) (٢١). وذكر السيوطي ((من فوائد التاريخ معرفة الأجيال وحلولها، وانتقاء العدد، وأوقات التعاليق ووفيات الشيوخ ومواليدهم، والرواة عنهم، فنعرف بذلك كذب الكاذبين وصدق الصادقين)) (٢٢).

١٩. تيسير شيخ الأرض، المقال السابق، ص ٥٣.
٢٠. د. محمد المشهداني، أثر دراسة التدوين والاسناد في الحديث على نشوء وتطور الفكر التاريخي، العدد ٢٣ (الرياض، ١٩٨٣) ٢٦٥.
٢١. السيوطي، الشماريخ في علم التاريخ، نشره د. ابراهيم السامرائي (بغداد، ١٩٧١) ١٣.
٢٢. نفسه، ١٣.
٢٣. الكافيجي، المختصر في علم التاريخ، منشور ضمن كتاب روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: د. صالح العلي، (بغداد، ١٩٦٣) ص ٢٣٦.
ـــ السخاوي، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، منشور ضمن كتاب روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح العلي، ٤٩٩ ــ ٥٠٠.

كما اشترط في المؤرخ ذات الشروط التي وجب توفرها في المحدث. قال الكافيجي ((و ينبغي أن يشترط في المؤرخ. ما اشترط في رواة الحديث من أربعة أمور ـ العقل، والضبط، والاسلام، والعدالة))(٢٣). وأن القواعد التي استخدمها المحدثين في نقد رجال الحديث استعملت في التاريخ ايضاً ومما ساعد ذلك الروايات التاريخية كانت تتصدرها الأسانيد كما هو شأن الأحاديث، و بذلك أمكن تطبيق قواعد نقد الحديث في نقد الروايات التاريخية أيضاً، وفي الحقيقة أن العناية بالاسناد تعبير عن الصدق والأمانة والتواضع عند العلماء لأنها تجعل الراوي يصرح بمصدر أفكاره فلا يدعيها أو ينسبها لنفسه وهو معيار لتقدير غير مباشر لمكانة العلماء الأقدمين وابداعاتهم كما أنها ضرورية في الأزمنة التي كانت الوسيلة الكبرى لنقل المعرفة هي المحاضرات الشفهية والسماع(٢٤)، وهو وسيلة يدافع بها الشخص عن صدقه بطريقة غير مباشرة و ينفي عنه مسؤولية الكذب(٢٥)، ومن هذه البداية يجب أن ننطلق اذا كنا ننشد القيمة التاريخية للروايات التي وصلت الينا في المجالات التاريخية المختلفة، وهذا جانب انفردت به الحضارة العربية الاسلامية ولا نعرف له نظير في الحضارات الأخرى وهذا هو السبب الأساسي الذي جعل الغربيين عن هذه الحضارة يسيئون فهم علم التاريخ العربي وقواعده وأصوله. ولقد اهتم المؤرخين بمنهجية نقد الروايات التاريخية التي وجدوها و بينوا السقيم من الصحيح منها.

و بعد هذه العجالة لا بد لنا من التأكيد على دراسة المنابع الأولى للروايات التاريخية العديدة، والتي تغافلت عن تحليلها أو تجاهلتها أغلب الدراسات التاريخية المعاصرة، ناهيك عن المدارس الفلسفية الغربية التي تجاهلتها تماماً، باستثناء ما أشار اليه المستشرق جولدزيهر Goldziher وشبرنجر واللذين أكدا على أهمية دراسة الأسانيد الا أنهما لم يوفقا في ذلك ولذلك ينبغي هنا أن نهتم بدراسة الأسانيد و بالعبارات الواردة في سلسلة الاسناد، والتي تشير في واقع الأمر الى مصادر الرواية التاريخية الواردة في السند، بغض النظر عن كونها شفوية أو مدونة وذلك لقرب اولئك الرواة في ذلك الوقت المبكر من المصادر أو الحدث التاريخي، حيث عرف اولئك مصادرهم الأساسية وعرفوا معظم الكتب اعتماداً على الأسماء المذكورة في الأسانيد، وأن هذه المنهجية تقودنا الى دراسة أحوال رواة الأسانيد دراسة مستفيضة من خلال تبني قواعد وأسس الجرح والتعديل التي وضعها علماء الجرح والتعديل لكونها مجدية ونافعة جداً للدراسات التاريخية وذلك لأننا بحاجة ماسة في دراستنا الى ظاهرة النقد التاريخي بنوعية النقد الخارجي والباطني وما ينتج عنهما من حقائق ايجابية أو سلبية حيث يوصلنا النقد الخارجي الى معرفة الطريق الموصل الى الحدث الذي يتضمنه متن الرواية ولا يمكن أن نحقق هذا الهدف بدون الرجوع الى معرفة دقيقة لأسانيد الروايات التاريخية، فليس منطقياً أن يعتمد الباحث في عملية النقد على حالة نقد جامع الروايات التاريخية وعدم نقد سند الروايات التي أوردوها خاصة اذا كان المؤرخ الجامع للروايات بعيد عن زمان ومكان الحدث ولذلك لا يمكن على الاطلاق الاستغناء عن سند الرواية الموصل الى متنها، لأن نقدها يحقق عدة أمور تخدم هدف الدراسة التاريخية لعل من أبرزها، معرفة قرب أو بعد الراوي من الحدث ومعرفة مدى الارتباط الزمني لسلسلة الرواة مع بعضهم من شخص لآخر ومن زمن لآخر ومكان حدوثها الى جامعها الذي وصلت الينا الرواية من خلاله، و يتم ذلك من خلال دراسة رواة السند كافة، دراسة مستفيضة تتناول اسمه ونسبه من أجل التعرف على أصل الرواة فيما اذا كانوا عرباً أم من الأعاجم، ومدى انعكاس ذلك على طبيعة الروايات التي أوردوها كما يتم التركيز على دراسة زمن ولادة ووفاة الشيخ أو الراوي لنتبين مدى ارتباط راو بشيخه الذي سبقه، وتلميذه الذي يليه، ولنتبين كذلك مدى قربه أو بعده من زمن الحدث التاريخي الذي تحدث عنه، فيجب تتبع تواريخ ولادة ووفاة رجال السند لمعرفة معاصرة الراوي لشيخه من جهة ومعاصرة تلميذه له من جهة أخرى وقد قال حسان بن زيد ((لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ، ونقول للشيخ سنة ولدت؟ فاذا أقر بمولده عرفنا صدقه من كذبه...))(٢٦).

و يتطلب الأمر كذلك دراسة عقيدة الراوي لأنها تعد من المسائل المهمة والجوهرية التي تنفع في التعرف على مدى أثر تلك العقيدة على شخصيته وميوله واتجاهاته و بالتالي موقفه من الحدث الذي أورده، و يتبين أثر ذلك واضحاً بالأخص عند اولئك الرواه الذين ينتمون الى طائفة أو فرقة من الفرق الغالية أو السياسية أو غيرها، الأمر الذي ينعكس أثره على طبيعة أو حقيقة المعلومات التي يوردها بالأخص رواة الشعوبية الذين كان لهم دور سيء في تشويه حقائق التاريخ العربي، و يتبع ذلك أيضاً دراسة المكانة العلمية للراوي بما في ذلك توثيقه أو تجريحه، وهذه مسألة مهمة لمعرفة صدق الرواة أو كذبهم و بيان مستوى توثيقهم أو تجريحهم و يتم ذلك من خلال الرجوع الى كتب الجرح أو التعديل، وكتب الرجال المختصة بهذا النوع من الدراسات وهي مسألة أساسية وجوهرية للتعرف على حقيقة الرواة وحقيقة ما دونوه في مرو ياتهم كما يتم التعرف على سر انتقاءهم للمادة التي أوردوها.

كما أن هذه المنهجية تقودنا لضرورة التعرف على مؤلفات

٢٤. د. صالح العلي، الرواية والأسانيد، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي، جـ١، م٣١ (بغداد، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠) ٣٣.

٢٥. نفسه، ٢٧.

٢٦. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٧ (القاهرة، ١٣٤٩هـ/١٩٣١) ص ٣٥٧.

ومصنفات اولئك الرواة. و بالأخص معرفة اسمائها وعناو ينها لكونها تدلل لنا على طبيعة الاتجاهات الفكرية لأصحابها ومواقفهم السياسية ومدى انسجامها مع التخصصات التي تتناول معالجة الحدث التاريخي فيعطينا هذا العمل انطباعاً واضحاً عن مصدر الرواية سواء كان كتاباً في السياسة أوالأدب أو الفقه والشريعة أوالتاريخ بمعناه الدقيق، ذلك لأن لكل من هذه الأصناف اتجاهات محدودة خاصة بها، تختلف عن الأخرى.

أن هذا النوع من المنهجية الدراسية في البحث التاريخي رغم صعوبته ورغم المشاق التي تواجه الباحث فيه الا أنها ضرورية جداً في ميدان الدراسات التاريخية البحثية النقدية العميقة في كتابة التاريخ والابتعاد عن الدراسات الأفقية السطحية في كتابته، لأن التعمق والغوص في نقطة محدودة تتيح لنا ادراكاً اكثر عمقاً، وأوسع اطلاعاً وأكثر دقة لحقيقة المعلومات التاريخية التي يوردها الراوي أن هذه العملية النقدية الدقيقة لأسانيد الروايات التاريخية ليست بالأمر الهين البسيط خاصة اذا علمنا بأن أغلب المؤرخين لم يتبعوا منهجاً موحداً في ذكر اسماء شيوخهم وأسانيد رواياتهم وأساليب عرض معلوماتهم فهم تارة يذكرون اسمه كاملا وأخرى يكتفون بذكر التسمية في النسب أو الكنية أو اسم الأب أو اللقب لأن هذه الأسماء هي التي تحدد مصادر المعلومات، وان عدم تدقيقها ومعرفة صحيحها يؤدي الى متاهات لا حصر لها، اضافة الى ذلك فان ضبط الأسماء كاملة ليس بالأمر الهين، وهو يتطلب دراسة قوائم كثيرة من الشيوخ والتلاميذ لمعرفة ما يتفق منها أو ما يفترق عن بعضها (٢٧).

وأن أهمية هذه المنهجية، ودقتها وصعوبتها يجب أن لا تجعلنا نتردد في اعتمادها في نقد وتحليل وتعليل واستنتاج الروايات التاريخية.

ذلك أن كثيراً من رجال أسانيد الروايات التاريخية من مؤلفين وغيرهم كانوا من الاخباريين الذين لم يعنوا العناية الكافية بالتاريخ وروايته، وقد تكلم في كثير منهم المحدثين بكلام تجريحي فوصفوا بعضهم بالضعف أو الترك كما امتدحوا في عين الوقت معرفتهم بالأخبار والأنساب. ووصفوهم بالعلم والمعرفة نحو وصف الذهبي وهو شيخ المؤرخين وشيخ المجرحين والمعدلين لهشام بن محمد الكلبي (ت، ٢٠٤) بالضعف والترك، (وقوله عنه أنه كان اخبارياً علامه) (٢٨)، و بانه كان (حافظاً علامه) (٢٩)، وما قاله عنه ابن سعد بأنه كان ((عالماً بالنسب وأحاديث العرب وأيامهم)) (٣٠)، وما قاله عنه ابن كثير وهو مؤرخ ومحدث: ((أحد علماء التاريخ)) (٣١)، علماً بأن علماء الجرح والتعديل من المحدثين قد ضعفوه، كما أن بعض الروايات التاريخية تتميز بانفراد رواتها ومما تجدر الاشارة اليه أن علماء المحدثين لا يقبلون بانفراد الراوي بخبر لا يتابعه عليه آخرون.

وهو ما يعرف عندهم بـ((الأعراب)) ولما كان الكثير من الروايات التاريخية ينفرد بها بعض اخباريين فقد اعتبرها المحدثون مما أعرب بها ذلك الراوي، فضعفوه لأجل هذا الأمر (٣٢) ولذلك يجب أن تتسم الدراسة بالدقة والحيطة والحذر..

وبما أن أساس هذه الدراسة هو تحليل لسند الرواية التاريخية لذلك يتطلب الأمر التأكد من العبارات الواردة في ثنايا سلسلة الاسناد لكونها تشير في واقع الأمر الى مصادر معلومات تاريخية رغم أنها تظهر للقارىء أو الباحث أنها تدل على رواية شفوية وترجع منشأه هذه المصطلحات الى النصف الثاني من القرن الأول الهجري و يطلق عليها في كتب اصول الحديث اسم ((الألفاظ)) كما أن حرف الجر ((عن)) يأتي كثيراً في الأسانيد ودون فصل وهذا يؤدي وظيفتين، فهو يعبر عن الرواية بطريقة الاجازة، كما في عبارة ((قرأت على فلان عن فلان)) والتي تعني قرأت عند فلان الذي تلقى حق الرواية بطريق الاجازة عن فلان، كما انه ينبه من ناحية أخرى الى عدم اتصال الاسناد من جانب آخر كقوله ((حدثنا وكيع عن علي بن المبارك عن يحيى بن معاذ بن جبل)) وهنا تربط كلمة عن الثانية اثنين من الرواة توفي أحدهما بعد آخر بمائة وخمسين عاماً، و يطلق على هذا السند اصطلاح ((المقطوع)) أو ((المرسل)) وهذا معناه من ناحية التأليف استخدام كتاب ذي اسناد غير كامل (٣٣) ولذلك تتوجب الدراسة الالمام الكامل بطرق تحمل الرواية كالسماع، والقراءة، والاجازة والمناولة، والمكاتبة، والاعلام، والوصية، والوجادة، وغيرها وما نستنتج عنها من الفاظ تحملية كحدثني، وحدثنا، وأخبرني، وأخبرنا، وذكرلي وقال، وروى، وقرأت عليَّ، وسمعت، وقرأت على، وقرأ لي، وناولني وسمعت وأنباني، وأنبأنا، وقال لي، وكذلك الاسناد الجمعي والفاظه ومنها (قالوا...) «وذكروا، حدثوا».. ان للاسناد أهمية في الروايات التاريخية في دقته حتى أن محمد بن سيرين قال عن الاسناد، : ((أن هذا الأمر دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)) (٣٤).

٢٧. د. محمد المشهداني، موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف، ج ١، (مكة المكرمة، ١٩٨٧) ١٨ — ١٩.

٢٨. الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١ (حيدرأباد، ١٩٥٥) ٣٤٣.

٢٩. الذهبي، العبر في خبر من عبر، ج ١ (الكويت، ١٩٦٠) ٣٤٦.

٣٠. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١ (لايدن، ١٣٢١) ٢٥٠.

٣١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١ (القاهرة، ١٣٢٨) ٢٥٥.

٣٢. د. محمد المشهداني، الموارد، ١/ ٢١.

٣٣. د. فؤاد سزكين، تاريخ التراث، ج ١/ ٤٧ — ٤٨.

٣٤. الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج ١ ( ) ١٥.

حتى أنهم اعتقدوا بأن ((قرب الاسناد قربه الى الله)) كما روى عن مسلم في الجامع (٣٥)، وأن ضعف رجال الاسناد يؤدي بالضرورة الى ضعف المتن المروي وكان أغلب الروايات في تاريخنا العربي الاسلامي مسنده ومن الجدير بالذكر أن المؤرخين الكبار كانوا جامعين و بعضهم جامعين وناقدين للروايات التاريخية التي أوردوها حيث كانت تلك المناهج تمثل الأسس والأصول الأولى في عملية النقد التاريخي، وذلك قبل أن يعرفها الأوروبيون بمئات السنين حيث استخدم كثير منهم مصطلحات نقدية علمية لتوثيق أو تضعيف الكثير من الروايات التاريخية التي أوردوها حتى أنهم كانوا يتابعون مصادرهم في أغلب الروايات التي أوردوها، مما يدلل على انتقاءهم لما رأوه حرياً بالانتقاء والتدوين، واسقاط الكثير من الروايات الغير موثوقة، مع نقد علمي دقيق لتلك الموارد، أو ترجيح بعضها على بعض، فعلى سبيل المثال قول بعضهم ((الأول قول ابن الكلبي والأول أثبت... وقال الكلبي والشرقي واثبت ذلك قول الشرقي)) وقول الكلبي أثبت الأقاويل، و((ذكر غير الواقدي وقول الواقدي أثبت)) و يروي أبو الحارث وهو أصح ((واثبت معرفة)) ونحو ذلك من الألفاظ الترجيحية الكثيرة التي تعج بها مصادرنا التاريخية ((كالأول اثبت)) ((وأصح وأثبت)) ((أثبت وأشهر)) و((أثبت قولا)) ((وذلك أثبت)) وهذا أثبت ما روى ((وذلك الثبت عند العلماء)). كما يجب على المؤرخ الباحث أن يكون ملماً بالألفاظ التضعيفية أو التمريضية التي أطلقها كبار المؤرخين العرب على مروياتهم كقولهم ((وزعم بعض الناس)) ((وزعم قوم.... وليس ذلك بثبت.... والثبت أنه)) ((وزعم أبو اليقظان)) ((وزعم الهيثم بن عدي)) وقال ((أبو اليقظان وذلك باطل)) و((هذا باطل)) وزعم ابن دأب وليس ذلك بثبت و((قوم يزعمون)) ((و بعض الرواة يزعم)) وقد زعم بعض من لا علم له)) و((ذلك غلط)) ((أو ذلك باطل)) ((ذلك وهم)) كما يجب الالمام بالاصطلاحات الترجيحية لأصحاب المصادر التاريخية لمروياتهم (٣٦) كقولهم ((وقال بعضهم وأحسبه الهيثم بن عدي)) (٣٧).

كما أن بعض كبار المؤرخين كانوا غير متأكدين من صحة ودقة المعلومات التي كانوا يوردونها كقولهم ((والله أعلم... (٣٨))) ويجب الالمام بالألفاظ التي تشكك بدقة المعلومات التي أوردوها كقولهم ((قيل)) ((و يقال)) ((وقوم ينكرون)) (٣٩) مع ضرورة التأكيد من المرويات القبلية التي تتحدث عن معارك أبناء القبائل العربية في الفتوحات وغيرها، لاحتمال احتواها عنصر المبالغة وعدم الدقة كما فيه الى ذلك البلاذري بقوله عن معارك النخيلة ((وكان على الناس فيما تزعم بجيله وفيها تقول ربيعة... (٤٠))) ولذلك يجب على المؤرخ أن يكون واعياً ومدركاً لما مقصود بالاسناد، والراوي وأنواع الرواية وطبقة الرواه، ورواية الأكابر عن الأصاغر، ورواية القرين عن قرينه، ورواية الأبناء عن الأباء والسابق واللاحق وغيرها ؟ وما هو اصطلاح تعديل الرواة، وكيفية وجوب التثبت من الراوي وكيف أصبح التجريح للرواة بعد تدوين الكتب، ومن هم علماء الجرح والتعديل وما هي الشروط الواجب توفرها في عالم الجرح والتعديل ؟ وما هي ضوابط وأسباب تعارض الجرح والتعديل ؟ وما هو المجهول ؟ وما هو المستور؟ وأحكام الرواية عنهم ومعرفة من خلط في آخر عمره من الثقات ؟ وما هو التدليس وما هي مواطن الرواة و بلدانهم واسمائهم والقابهم وكناهم وأنسابهم ؟ ومن هم الموالي والأعاجم من الرواة وأنواع الولاء، والمعتقد الذي يؤمنون به، كما يجب الالمام بمعاني الفاظ الجرح والتعديل وهي كثيرة جداً للتعرف على كنهها وحقيقتها من أجل تقييم أولئك الذين نطبق عليهم تلك الألفاظ ومنها مثلا ((ثقة)) ((وثقة متفق)) ((وثقة حجة)) ((وثقة حافظ)) ((وثقة ثبت)) ((أوثق الناس)) ((وثبت)) ((ثبت ثبت)) ((أثبت الناس)) ((واليه المنتهى في التثبت)) ((لا أحداً ثبت منه)) ((وحجة)) ((يحتج به)) ((متقن)) ((صدوق)) ((محلة الصدق)) ((صدوق يهم)) ((صدوق له أوهام)) ((صدوق تغير بآخره)) ((صدوق سيء الحفظ)) ((وصدوق انشاء الله)) وحدثني ((أصدق من أدركت من البشر)) ((صالح الحديث)) ((وصويلح)) ((حسن الحديث)) ((وجيد الحديث)) ((وشيخ وسط وعدم ضابط)) ((وشيخ يروى حديث و يعتبر به)) ((يساءل عنه)) ((لا أعرف له نظيراً في الدنيا)) ((ولا بأس به)) ((وأرجو لا بأس به)) ((وما أعلم به بأساً)) ((وسط مقارب)) ((و يكتب حديثه أو ينظر فيه)) أو ((يكتب للاعتبار....)) الخ كما يجب عليه أن يكون ملماً بالفاظ جرح الرواة وتضعيفهم ومنها ((لين)) ((ليس يقوى)) ((ضعيف)) ((متروك كذاب))، زنديق، متهم بالشعوبية واه، ساقط، فيه مقال، فيه تعرف وتنكر، ليس بذلك، ليس بحجة، ليس بعمد، ليس بمرض، ومنها فيه خلف، تكلموا فيه، مطعون فيه، سيء الحفظ، ليس بذاك، فيه ضعف،

٣٥. الامام مسلم، صحيح مسلم، ج ١ (القاهرة، ١٩٧٢) ١٣.

٣٦. لمزيد من التفاصيل، انظر كتابنا عن موارد البلاذري، ج ١/ ١٣٩ — ١٤٧.

٣٧. البلاذري، انساب الاشراف، نشره مسلمون دون جولتاين، ج ٥ (القدس، ١٩٣٦) ٢٩٦ — ٢٩٧.

٣٨. البلاذري، الأنساب، نشره الدكتور محمد حميد الله، ج ١ (القاهرة، ١٩٥٩) ٥، ٧، ١٥، ١٩١.

٣٩. البلاذري، فتوح البلدان، نشره رضوان محمد رضوان، (بيروت، ١٩٧٨) ٢٤٢.

٤٠. نفسه، ٢٥٠ — ٢٥١.

في حديثه ضعف، ضعيف الحديث، منكر الحديث حديثه منكر واه، ضعفوه، مضطرب، لا يحتج به، مجهول، رد حديثه وردوا حديثه، مردود الحديث، ضعيف جداً، طرحوا حديثه، مطروح الحديث ارم به، لا يساوي شيىء، ليس شيء، فيه نظر، لا تعتبر به، سكتوا عنه.

لا يعتبر بحديثه ليس ثقة، غير مأمون، متهم بالكذب، متهم بالوضع، وضاع يضع، وضع حديثاً (٤١).

بهذه المنهجية رغم صعوبتها كما يبدو الا أنها الطريقة المثلى في معالجة وتدقيق الروايات المتعلقة بتاريخنا العربي الاسلامي، وهو المنهج العلمي الدقيق الذي يمكننا من غربلة تلك الروايات وابرازها الحالات المشرقة والايجابية في تاريخنا العربي واسقاط الرواة الشعوبيين ورواياتهم من التاريخ من أجل أن يظل النقاء هو الصورة الحقيقية التي نطمح الى انشائها عن طريق هذه الدراسات و بذلك نستطيع أن نرجع الى الأصول العربية في المنهج والتدقيق عند دراستنا المعاصرة ونبعد كل الفلسفات الأجنبية الدخيلة للرواية التاريخية العربية نبعدها فلسفة واصطلاحاً جملة وتفصيلا مع نظرة متوازنة بين الحديث واختياره ونتائجة، بما يخدم هدف دراسة التاريخ وكتابته وبما يخدم هدف التاريخ ومنهجيته ونحن أقدر على ذلك لاننا اولى من غيرنا بكتابه تاريخنا ولاننا أبناء ذلك التاريخ وأن ما يصيبه من الدس والتشويه يصيبنا في ذاتنا ونحن أقدر على ذلك لكون علم التاريخ متجذّر في حياتنا وهو ارث لنا ونحن أولى وأحق به من غيرنا، ولذلك فان ايجاد مدرسة عربية لفهم التاريخ وكتابته أمر مرهون بنا ولدينا من الأسس والمنهجية في تاريخنا ما يمكننا ايجاد أرضية مشتركة لأعظم مدرسة عربية تتولى مهمة فهم هذا التاريخ وكتابته وغربلته وأخيراً لا بد أن نشير الى أمر هام له علاقة بكتابة التاريخ يتمثل باعادة تدو ين المصادر الأساسية للرواة والرواة الأ وائل الذين اعتمد عليهم المؤرخون الكبار وفي ذلك نرى ضرورة اعادة تكوين مادة كتبهم الكبيرة كابن سعد وخليفة بن خياط، البلاذري، الطبري، حيث اعتمدوا على مرو يات الاخباريين والرواة الأ وائل الذين كانوا هم المؤلفين الحقيقيين للمعلومات التاريخية التي عاصروها أو كانوا قريبين منها كمرو يات المدائني، وابن الكلبي، وأبو مخنف، وسيف بن عمر، والواقدي، وابن عمارة الأنصاري، حيث يتم جرد كافة الأسانيد الواردة في المصادر التاريخية الكبيرة، بما في ذلك كتب ((الأنساب، المغازي والفتوح،

والسير وكتب التاريخ العام، وكتب الثقات، والضعفاء، وكتب الرجال، والمثبتة والتراجم العامة وحتى كتب الأدب، وغيرها من المصادر التي تتناول جوانب مختلفة من تاريخ امتنا العربية، يتم تصنيف روايات كل راو على جهة، ثم على أساس الراوي الأ ول القريب من الحدث أو الذي يبدأ به السند، حيث يمكن اعتباره المؤلف الحقيقي للمعلومات التاريخية التي أوردها ينتهي سندها عنده و بذلك تبدأ عملية جمع أسانيد كل كتاب على بطاقات خاصة، وذلك بتدو ين سند كل رواية كاملا مع نص الرواية ثم ترتب المادة التاريخية لكل راو ترتيباً زمنياً، ونحصل بذلك قدر الامكان على كتاب تاريخي للرواة الأ وائل الواردين في أسانيد الروايات التاريخية حيث يشار في الهامش الى مصدر السند والرواية التي وصلتنا من خلال الرواية، كابن سعد، خليفة بن خياط أو البلاذري، أو الطبري، غير أننا عند استخدامنا لهذه الروايات بعد جمعها وتدو ينها بأسماء رواتها انما نشير الى الراوي الأ ول وليس الى خليفة أو البلاذري أو الطبري وانما نقول مثلا قال ابان بن عثمان، أو قال المدائني أو قال عمر بن شبه، نذكر في الهامش صفحات خليفة أو البلاذري أو الطبري الذي أورد نص الرواية وسندها و بذلك سنحصل من خلال هذا العمل على مؤلفات تاريخية موثوقة وتكون هي المعول عليه في دراستنا وأبحاثنا، و بالمقابل ستظهر عندنا مجموعة من المصنفات التاريخية القديمة وغير الموثوقة يمكن أن يتجنبها الباحثون والدارسون مستقبلا وسيؤدي عملنا هذا الى التعرف على أمهات المصادر التاريخية الأساسية التي استخدمها المفكرون والمؤرخون في ذلك الوقت المبكر وذلك نتيجة قربهم من المصادر عندما اكتشفوها هم و وقفوا عليها، واستطاعوا أن يتعرفوا على معظم الكتب والمصنفات بالاعتماد على الأسماء الواردة في الأسانيد و بذلك نستطيع اعادة ترتيب وتنظيم بعض المصادر الأساسية المبكرة في تاريخنا العربي الاسلامي....

٤١. د. محمد المشهداني، آراء تحليلية في منهج اعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي، مجلة المؤرخ العربي، م ٢٦ (تونس، ١٩٨٥) ٩٧ ـ ١٠١.

جند الشام في الأندلس والتأثيرات الشامية
(زمن الأمير عبدالرحمن الداخل)

د. يونس شنوان
كلية الآداب / جامعة الملك عبدالعزيز

انصب اهتمام المؤرخين العرب بصورة عامة، على الحديث عن الحروب والحوادث الجسيمة، وقلّما تحدثوا بالتفصيل عن التنظيمات الادارية والمالية في الدولة العربية، وأصبح من العسير على الباحث اعطاء صورة متكاملة عن هذه التنظيمات. والاندلس في هذا لا تختلف عن المشرق بل لعل الأمر فيها أشد صعوبة وأكثر تعقيدا. ويحار الباحث في تفسير هذه الظاهرة، ولعل تفسير ذلك يكمن في أن العرب عندما دخلوا الأندلس وجدوا تقسيما اداريا، ونظاما ماليا مقبولا، فلم يضطروا للبحث عن تقسيم ونظام جديدين. وقد تمتعت الأندلس حتى سقوط الخلافة، في القرن الخامس الهجري، باستقرار اقتصادي بشكل عام؛ فلم يدخل العرب نظامهم المالي الى الأندلس عندما فتحوها، يقول ابن حزم[1] : « هذا مع مالم نزل نسمعه سماع استفاضة موجب للعلم الضروري أن الاندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله فيما فتح، ولا استطيبت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح، بل نفذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت، ووقعت فيها غلبت البربر والأفارقة والمصريين فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة، ثم دخل الشاميون في طالعة بشر بن عياض فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم » .

جنـــد الشـــام :

كلمة جند تعني جماعة مسلحة. وكان هذا المصطلح يطلق في عهد بني أمية، بشكل خاص، على تلك الحاميات العسكرية، وعلى الأقاليم، التي استقر فيها المحاربون العرب، بحيث يمكن تعبئتهم وتحريكهم في الحملات الفصلية، أو الغزوات التي تستمر وقتا أطول. ومصطلح جند، يطلق على جند الشام بشكل خاص. ويبدو أنه يوافق التقسيمات البيزنطية. وكان الجند كلهم من العرب الذي يأخذون عطاء منتظما، وهذا العطاء هو في العادة ـ ثمرة ضريبة الأراضي. ويبدو أن هؤلاء الجند كانوا يفيدون في أغلب الأحوال من الاقطاعات التي كانت تعطى لهم. ولكن شروط اعطاء هذه الاقطاعات واستغلالها بقيت دون تحديد حتى الآن. كان الخليفة أبو بكر قد شكل في الشام أربعة أجناد : جند حمص، وجند دمشق، وجند فلسطين (حول القدس وعسقلان، وفي وقت متأخر حول الرملة) وجند الأردن حول طبرية»[2]. وصف ابن عبدربه تقسيم الشام الى مناطق فقال[3]: «أول حدّ الشام من طريق مصر أمج، ثم يليها غزة، ثم الرملة. رملة فلسطين، ومدينتها العظمى فلسطين وعسقلان، وبها بيت المقدس، وفلسطين هي الشام الأولى، ثم للشام الثانية، هي الأردن، ومدينتها العظمى طبرية، وهي التي على شاطيء البحيرة، والغور وبيسان بين فلسطين والأردن، ثم الشام الثالثة الغوطة، ومدينتها العظمى دمشق، ومن سواحلها طرابلس، ثم الشام الرابعة وهي أرض حمص، ثم الشام الخامسة وهي قنسرين». لقد خفف الانتماء الى هذه المجموعة العسكرية من حدة العصبيّة القبلية، وان لم يلغها يقول ابن خلدون[4]: «كان الناس في صدر الاسلام ينتمون الى المواطن، فيقال جند قنسرين، جند الشام وجند العواصم، وانتقل ذلك الى الاندلس.

ولم يكن ذلك لاطراح العرب أمر النسب، وانما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها، وصارت لهم علاقة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم».

جند الشام في افريقيه :

ندب الخليفة هشام بن عبد الملك كلثوم بن عياض القشيري ليقود جند الشام في افريقية . وجعل ولي عهده ان هلك ـ وكان شيخا كبيرا ـ ابن اخيه بلج بن بشر، فان هلك بلج فثعلبة بن سلمة العاملي . وأخرج ثعلبة على جند الأردن وندب من أجناد الشام، من كل جند ستة الآف، ومن أهل قنسرين ثلاثة الآف؛ فأخرجهّ من الشام في سبعة وعشرين ألفا، ثم أقبل الى مصر فأخرج من أهلها ثلاثة آلاف، فتم بعثة ثلاثين ألفا من أهل الديوان، سوى من تبعهم من الناس. وانظم الى هؤلاء الجند جند افريقية، وبعض المطوعة. دارت في افريقية معارك طاحنة بين هؤلاء الجند وبين البربر بقيادة ميسرة، وقد هزمهم ميسرة هزيمة شنيعة، وقتل قائدهم، وألجأ قائد جند الشام الى الاعتصام في مدينة سبته في أقصى شمال الغرب. وظل البربر يضيقون الخناق عليهم حتى اشرفوا على الهلاك[٥].

جند الشام في الأندلس :

كتب جند الشام الى والي الاندلس عبد الملك بن قطن يستغيثونه، فتغافل بهم، وسره هلاكهم، وخافهم على سلطانه. ولكن تحالف البربر في الأندلس ضد الوالي والعرب على شاكلة ما حدث في افريقية، كان يشكل تهديدا حقيقيا له، فلذلك قبل عبد الملك مضطرا دخول جند الشام الى الاندلس عام ١٢٣هـ في رواية مؤلف اخبار مجموعة، ويقدر ابن القوطية عددهم بعشرة آلاف. منهم الفامولي وثمانية آلاف عربي.

وجد جند الشام، في الأندلس، فرصة مواتية للانتقام من البربر ودارت بين الطرفين معركة كبيرة بالقرب من طليطلة، وهزم البربر هزيمة شنيعة، وثأر جند الشام لهزيمتهم في افريقية. وقد حاول والي الأندلس اخراج جند الشام من الأندلس، الا أنهم رفضوا ذلك رفضا قاطعا. وأصبح جند الشام عنصرا جديدا من عناصر الخصومة في الأندلس. وتحوّل الصراع الى صراع بين العرب البلديين الذين استوطنوا الاندلس منذ الفتح، وبين الجند الشاميين. يقول ابن القوطية[٦]: «وبقي عرب الاندلس وبربرها يحاربون الامويين والشاميين . . ويقولون لأهل الشام بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا».

ويبدو أن المقصود بقوله : «بلدنا» قرطبة : لأن أبا الخطار رأى أن يبعد خطر هؤلاء الجند عن قرطبة يقول ابن القوطية : «ونظر (أبو الخطّار) في انزال الشاميين في كور الاندلس، وتفريقهم عن قرطبة، اذ كانت لا تحملهم. فأنزل أهل دمشق بالبيرة، وأهل الأردن بريّـه، وأهل فلسطين بشذونه وأهل حمص باشبيلية، وأهل قنسرين بجيّان، وأهل مصر بباجة وقطيعا منهم بتدمير، وكان انزالهم على أموال أهل الذمة من العجم».

بين الأندلس والشـــام :

يظهر أن أبا الخطار، راعى في هذا التوزيع، المشاكلة بين مواطن هؤلاء الجند الاصلية، وبين هذه المدن الاندلسية، وقد أطلق جند الشام أسمـاء مدنهم الاصلية على هذه المواطن الجديدة. وبقيت هذه الأسمـاء مرافقة للأسمـاء الأصلية لهذه المدن، فعندما يحدثنا كتاب الاندلس أو شعراؤها عن حمص الاندلس فهم يقصدون غرناطة وهكذا.

ووجه الشبه بين الشام والاندلس واضح للعيان، وقد لاحظ ذلك المؤرخون القدماء، فالأندلس كما يقول أبو عامر السالمي : «من الأقليم الشامي، وهو خير الأقاليم، وأعدلها هواء، وهو أوسط الأقاليم، وخير الأمور أوسطها. ويقول أبو عبيد البكري[٧] : «الاندلس شاميّة في طيبها وهوائها».

يقول المقري[٨]: «ان غرناطة نزل بها أهل دمشق، وسموها باسمها لشبهها بها في القصر والنهر، والدوح والزهر، والغوطة الفيحاء، وهذه مناسبة قوية العرى شديدة».

وقال أحد الأندلسيين يشيد بتين أشبيلية[٩] :

وحمص لا تنسى لها تينها   واذكر مع التين رياحينهـــا

لأن حمص الأندلس هي اشبيلية.

زار المقري، مؤلف نفح الطيب، دمشق، واستقبل استقبالا رائعا. وكان المسجد الأموي يغص بالناس الذي يأتون لسماع دروسه عن الأندلس، وعن مجد أجدادهم فيها. وهم الذين طلبوا من الشيخ المقرّي بالحاح أن يؤلف كتابا، يخلد فيه مآثر أهل الأندلس، فكتب كتابه الضخم «نفح الطيب» الذي يعد، بحق، دائرة معارف أندلسية. ولفت انتباه المقرّي وجه الشبه الكبير بين الأندلس والشـام، وكيف أن الشام ذكرّته مواطن أهله وأجداده في الأندلس والمغرب يقول[١٠] : «وعند رؤيتي لتلك الأقطار (يعني الشام)، الجليلة الأوصاف العظيمة الأخطار، تفاءلت بالعود إلى أوطان لي بها أوطار، إذ التشابه بينهما قريب، في الأنهار والأزهار، ذات العرف المعطار».

وأكد المقرّي مرات عدة على دور الشاميين، في فتح الأندلس، وفي ترسيخ الحضارة فيها يقول : «ان الفاتحين للاندلس هم أهل الشام، ذوو الشوكة الحديدة، وان أغلبية أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالاندلس وطنا مستأنفا وحضرة جديدة».

وكان جند الشام في الأندلس يتمتعون بمنزلة اجتماعية متميزة، حتى أنهم كانوا يسمون بالسادة، وكانوا يأخذون عطاء منتظما، ضعف ما يأخذه الجندي العادي، وأصبح عرفا سائدا في المجتمع الاندلسي ان يتقدّم الشاميون على البلديين يقول ابن حيّان في ترجمة الأمير عبدالله بن محمد[١١] :

«ومن مشهور شعره ما وقع به الى الوزراء في قصة موسى بن حدير وعيسى بن أحمد بن أبي عبده اذ اراد كل واحد منهما أن يكون مجلسه فوق الآخر، فسخا لما كان قد رتبه والده الأمير محمد بن عبد الرحمن من رفع الموالي الشاميين على البلديين، إذ وقّع على الكتاب :

موالي قريش من قريش فقـدّمـوا
موالي قريش لا موالي معـتّـب
اذا كان مولانـا يساويه عنـدنـا
سواه فمـولانـا كآخـر أجنـب

عبد الرحمن الداخل في الأندلس :

بثّ الداخل دعاته في الأندلس، وأفاد كثيرا من الأحسن التي كانت بين اليمنية والمضرية، فاستمال اليمنية وأكثر المضرية، وكان كما قال عنه ابن حيّان، مؤرخ الأندلس، مصورا حنكته السياسية قد[١٢] : «اقتحم جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته».

ونجح مولى عبد الرحمن الداخل بدر في كسب تأييد موالي الأمويين وأشياعهم في الأندلس في البداية، فاجتمع بهم وبثوا له في الاندلس دعوة ونشروا له ذكرا ومهد بذلك لدخول عبد الرحمن الى الاندلس، وكانت الموالي المروانية المدوّنة بالاندلس في ذلك الأوان ما بين الاربعمائة والخمسمائة، ولهم جمهرة، وكان رياستهم الى شخصين : أبي عثمان عبدالله بن عثمان. وعبدالله بن خالد وكانا كما يقول المقرّي[١٣] : « يتوليان لواء بني أمية يعتقبان حمله ورياسه جند الشام النازلين بكورة البيرة ».

عبر الداخل البحر الى الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة، ونزل بساحة المنكّب، وأتاه قوم من اشبيلية فبايعوه، ثم انتقل الى كورة ريّـة فبايعه عاملها عيسى بن مساور، ثم الى شذونه فبايعه عتّاب بن علقمة اللخمي، ثم الى مورور فبايعه ابن الصباح،

ونهد الى قرطبة فاجتمعت اليه اليمنية. . . وارتحل عبد الرحمن من المنكّب، فاحتل بمالقة فبايعه جندها، ثم بشريش كذلك، ثم باشبيلية، فتوافت اليه جنود الامصار، وتسايدت المضرية اليه[١٤].

استطاع الداخل بعد جهاد متواصل أن يحقق ما كان يبدو معجزة الا وهو اعادة دولة بني أمية من جديد، في هذا الركن القصي من العالم الاسلامي، وتمكن من القضاء على خصومه واحدا تلو الآخر، حتى استحق بحق اسم، مقر قريش. واستمر الحكم في نسله متوارثا كما تنبأ هو في أبيات من الشعر الى أن انتهت الخلافة في قرطبة.

وقد صوّر لنا الداخل جهاده وعصاميته وتجنيده للجند وتمصيره للامصار في أبيات طريفة يرد فيها على قائل زعم أن نجاح الداخل كان بفضل جهوده. قال الداخل[١٥]:

لا يلف ممتن علينا قائل ... لولاي ما ملك الأنام الداخل
سعدى وحزمى والمهند والقنا ... ومقادر بلغت وحال حائل
ان الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا ... أيريد تدبير البرية غافل
ويقول قوم : سعده لا عقله ... خير السعادة ما حماها العاقل
أبني أمية قد جبرنا صدعكم ... بالغرب رغما والسعود قبائل
ما دام من نسلي امام قائم ... فالملك فيكم ثابت متواصل

كان القاضي في قرطبة قبل قدوم الداخل يسمى قاضي الجند اشارة الى الطابع العسكري للدولة والى أن القاضي كان يختار من الجند وأصبح اسم القاضي فيما بعد قاضي الجماعة وكأن ذلك يشير الى الاستقرار وتوطيد أركان حكم الداخل وبداية انحسار الطابع العسكري[١٦].

التأثيرات الشامية في الأندلس :

كان أول قاض للأمير عبد الرحمن الداخل هو معاوية بن صالح الحمصي وقد أرسله الداخل الى الشام ليأتيه بأخته أم الأصبغ، فأبت عن الانتقال وقالت[١٧]. «كبرت سني، وأشرفت على انقضاء أجلي، ولا طاقة بي على شق البحار والقفار وحسبي أن أعلم ما صار اليه من نعمة الله».

وبدأت التأثيرات الشامية تفد الى الاندلس مع سفارة معاوية بن صالح الحمصي فقد كتب عن وجوه أهل العلم هناك[١٨] «ثم صار معاوية الى الأمير عبد الرحمن وادخل اليه تحف أهل الشام، وكان في تلك التحف من الرمان المعروف اليوم بالاندلس بالرمان السفري، فجعل جلساء الأمير من أهل الشام يذكرون الشام ويتأسفون عليها، وكان فيهم رجل يسمى سفر بن عبيد الكلاعي من جند الأردن، فأعطاه (الداخل) من ذلك الرمان جزءا فراقه حسنه وخبره فسار به الى قرية بكورة ريّة، فعالج عجمه واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجرا أثمر وأينع، فزع الى عرقه، وأغرب في حسنه، فجاء به عما قليل الى عبد الرحمن، فاذا هو أشبه شيء بذلك الرصافي، فسأله الأمير عنه، فعرّفه وجه حيلته، فاستبرع استنباطه، واستنبل همته، وشكر صنيعه، وأجزل صلته، واغترس منه بمنية الرصافة وبغيرها من جناته، فانتشر نوعه، واستوسع الناس في غراسه، ولزمه النسب اليه، فصار يعرف الى الآن بالرمان السفري».

توزعت بعض الأسر الشامية بين الشام والاندلس ولكنها بقيت على صلة مستمرة لم تنقطع. وقد توطدت الصلة بين الشاميين الاندلسيين والشاميين المشارقة عن طريق الرحلة التي لم تنقطع بين الشام والاندلس، اما للحج أو لطلب العلم، أو عن

طريق المراسلة، أو عن طريق هجرة بعض الشاميين الى الأندلس. وقد شجع الداخل هذه الهجرة وحث من تبقى من الأمويين في الشام على القدوم الى الأندلس، وكان الداخل يرتاح، لما استقر سلطانه بالاندلس، الى أن يفد عليه فلّ بني مروان، حتى يشاهدوا ما أنعم الله تعالى عليه، وتظهر يده عليهم، فوفد عليه من بني هشام بن عبد الملك أخوه الوليد بن معاوية وابن عمه عبدالسلام ابن يزيد بن هشام.

وذكر الحجازي أن الداخل كان يقول[19]:

«أعظم ما أنعم الله تعالى به عليّ بعد تمكني من هذا الأمر القدرة على ايواء من يصل الي من أقاربي، والتوسع في الاحسان اليهم، وكبري في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم بما منحني الله تعالى من هذا السلطان الذي لا منه علي فيه لأحد غيره».

ويبدو أن بعض من كان يفد على الداخل لم يقابل احسانه باحسان بل أن بعضهم فكّر في الثورة عليه. وكتب الى بعض من وفد عليه من قومه يسأله الزيادة في رزقه، واستقل ما قابله به وذكّره بحقه بهذه الأبيات[20]:

شتان من قام ذا امتعاض منتضى الشفرتين نصلا
فجاب قفرا وشق بحرا مساميا لجة ومحلا
دبّر ملكا وشاد عزا ومنبرا للخطاب فصلا
وجنّد الجند حيي أودى ومصر المصرحين اخلى
ثم دعا أهله اليه حيث انتأوا أن هلم أهلا
فجاء هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتلا
فنال أمنا ونال شبعا ونال مالا ونال أهلا
ألم يكن حق ذا على ذا اعظم من منعم ومولى

ابتنى عبد الرحمن الداخل في قرطبة قصرا أطلق عليه اسم «الرصافة» تيمنا برصافة جده هشام في الشام، واستجلب له غرائب المزروعات والأشجار يقول المقرّي[21]: «كان هما ابتبناه عبد الرحمن بن معاوية في أول أيامه لنزهة وسكناه أكثر أوقاته: منية الرصافة التي اتخذها بشمال قرطبة منحرفة الى الغرب، فاتخذها قصرا حسنا، ودحا جنانا واسعة، ونقل اليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولاه الى الشام من النوى المختار والحبوب الغريبة، حتى نمت بيمن الجد وحسن التربة في المدة القريبة أشجارا معتمّة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الأندلس، فاعترف بفضلها على انواعها، قال: وسماها باسم رصافة جده هشام بأرض الشام الأثيرة لديه».

عبد الرحمن الداخل شاعرا:

وصلتنا مقطوعات شعرية للداخل تدل على حس شاعري متميز، تصور تعلقه بموطنه الأصلي، الشام يقول[22]:

أيها الراكب الميمم أرضي أمّز من بعض السلام لبعضي
ان جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض
قدّر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

والأبيات، كما هو واضح، تصور احساسه بالغربة في هذا الموطن الجديد. فهو موزع بين مكانين: جسمه في الأندلس، وقلبه في المشرق.

والطريف أن نرى الداخل، الذي يضرب به المثل في عصاميته، ضعيفا مستسلما عندما يتحدث عن أشجان نفسه. ويلاحظ أن هذا الأحساس يتكرر في المقطوعات الشعرية التي وصلتنا للداخل.

طلب الداخل احضار شتلة نخل من المشرق، يقال انها أول نخلة تزرع في شبه الجزيرة الايبيرية. ومنها انتشر النخل بعد ذلك في مناطق عدة من أوروبا، نظر الداخل يوما من شرفة الرصافة فرأى النخلة حزينة وحيدة غريبة، تشبهه في غربته ووحدته «وكل غريب للغريب نسيب» فنظم الأبيات التالية(٢٣):

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسحّ ويستمري السماكين بالوبل

يلفت الانتباه في هذه الابيات كثرة الكلمات التي تشير الى الغربة: تناءت، وأرض الغرب، والتغرب، والنوى، وطول التنائي، وغريبة، والاقصاء، والمنتأى وما الى ذلك الا صدى لاحساس الداخل العميق بالغربة في هذا الوطن الجديد. فالنخلة أرض عربية، ترمز الى المشرق، والشاعر والنخلة مشرقيان في أرض المغرب.

وقال في النخلة ايضا في ابيات يغلب عليها الطابع العاطفي(٢٤):

يا نخل أنت غريبة مثلي ... في المغرب نائية عن الأصل
فابكي، وهل تبكي مكيسة ... عجماء لم تطبع على خبل
لو أنها تبكي اذن لبكت ... ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها ذهلت وأذهلني ... بغضي بني العباس عن أهلي

واضح مما سبق أنه اذا لم يكن بمقدور الداخل الذهاب الى المشرق فقد أراد أن يحضر المشرق امامه من خلال رموزه: الرصافة والنخلة وغيرهما.

المراجع والمصـــــادر

٠١ انظر : ابن حزم، **رسائل ابن حزم**، جـ٣ ص ١٧٥ .

٠٢ انظر : دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الفرنسية، جـ٣ ص ٦١٦، ياقوت، **معجم البلدان**، جـ١ ص ١٠٣ مادة أجنـــاد .

٠٣ انظر : ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، جـ٦ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

٠٤ انظر : ابن خلدون، **المقدمـة**، ص ١٠٣ .

٠٥ انظر : ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الاندلس**، ص ٢، أخبار مجموعة لمؤلف مجهول في صفحات متفرقة .

٠٦ انظر : ابن القوطية، **تاريخ**، في صفحات متفرقة .

٠٧ انظر : المقري، **نفح الطيب**، جـ١ ص ١٢٦ .

٠٨ انظر : المصدر السابق جـ١ ص ١١٧ و ص ١٧٧ .

٠٩ انظر : المصدر السابق جـ١ ص ١٥١ .

١٠ انظر : المصدر السابق جـ١ ص ٦٦ ـ ٦٧ .

١١ انظر : ابن حيان، **المقتبس**، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .

١٢ انظر : المقري، **نفح الطيب**، جـ١ ص ٣٣١ .

١٣ انظر : المقري، **نفح الطيب**، جـ٣ ص ٢٩ .

١٤ انظر : **تاريخ ابن خلدون**، جـ٤ ص ١٢ .

١٥ انظر : المقري، **نفح الطيب**، جـ٣ ص ٤٢ ـ ٤٣ .

١٦ انظر : الخشني، **قضاة قرطبة**، جـ١٤ .

١٧ انظر : المصدر السابق ص ١٥ ـ ٢١ .

١٨ انظر : المقري، **نفح الطيب**، جـ٣ ص ٤٦٨ .

١٩ انظر : المصدر السابق جـ٣ ص ١٦ .

٢٠ انظر : ابن الأبار، **الحله السيراء**، جـ١ ص ٣٦، الحميدي، جذوة المقتبس ص ١٠، المقري، **نفح الطيب**، جـ٣ ص ٣٨ .

٢١ انظر : المقري، **نفح الطيب**، جـ١ ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧ .

٢٢ انظر : الحميدي، **جذوة المقتبس**، ص ٩، الضبي، **بغية الملتمس**، ص ١٣، ابن الأبار، الحلة السيراء جـ١ ص ٣٦ .

٢٣ انظر : ابن عذاري، **البيان المغرب**، جـ٢ ص ٦٠ .

٢٤ انظر : المصدر السابق .

ملامح من خطط صلاح الدين الأيوبي العسكرية في ضوء المفاهيم العسكرية الحديثة

د. سوادي عبد محمد
كلية الآداب / جامعة البصرة

مقدمـــة :

لا مراء في أن صلاح الدين الأيوبي كان قد أودع كقائد عسكري ميداني تراثاً غنياً من الخطط والموضوعات العسكرية في سجل العصور الوسطى يمكن فهمها على أنها خلاصة تصميمه الفكري والعملي الذي سبق بدؤه بأعداد أي عمل عسكري وتنفيذه له ليقترن باسمه وقد توضحت في ذهنه واصبحت هدفه النهائي الذي تلاشت فيه أغراضه الخاصة أو الجزئية كافة كما أنها مثلت تصوراته الأساسية التي امتلكها وتصرف على أساسها وبهذا المعنى يكون من المفيد جداً استلهامها في الوقت الحاضر أو في الأقل اكسابها أهمية خاصة للعمل من بين خطط القادة العسكريين العرب الذين ظهروا في التاريخ الاسلامي بسبب أنها جدية وظلت تحتفظ بموضوعيتها كما أصبح أغلبها أساساً للبناء العسكري في كثير مما اتخذته الجيوش في مصر وبلاد الشام والعراق وبلدان المغرب الاسلامي خلال الفترات اللاحقة للحكم الأيوبي.

وعلى الرغم من الاختلاف بين طبيعة القوات والجيوش في العصور الوسطى والجيوش الحديثة من حيث التكوين والتسليح والوسائل فانه يمكن أن تفيد المدرسة العسكرية المعاصرة من هذا التراث الذي أورثه صلاح الدين الأيوبي في مهمات تنظيم الجيش ووحداته وتشكيلا ته ومتطلباته في الاعداد للمعارك وفي طرائق الهجوم ووسائله والدفاع وادارة المعارك التقليدية وادامتها وفرض الحصار ووضع الكمائن وفي التنوع في أساليب القتال وأساليب تجحفل القوات أو انتشارها أو تأمين مواقعها وخطوط مواصلاتها وكذلك فيما يتعلق بحشد القوى في المعركة بزج الامكانات المتوفرة للحصول على التوافق الذي يمكن به تحقيق النصر والمباغتة والمبادرة وسرعة الحركة والتعرض والكتمان والتيقظ والحذر وتعاون التشكيلات والأمن وتجديد الخطط وخلق المواقف المعجزة للعدو.

ولعل من المفيد أن نذكر في البداية أن ما أشار اليه القاضي الفاضل المستشار الأول الى صلاح الدين الأيوبي من تنبؤات حول ظهور هذا القائد يمكن فهمها على أساس شهرته كقائد عسكري من الدرجة الأولى (والجهاد أنت رضيع دره وناشئة حجره.. فشمر له عن ساق من القنا وخض فيه بحراً من الظبى وأسل الوهاد العدى وأرفع برؤسهم الربى حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأ يامك وشهوداً لك يوم مقامك) (١) كما أن الانتصارات التي أحرزها صلاح الدين الأيوبي في تقليص مناطق احتلال الصليبيين لبلاد الشام والأراضي المقدسة واقتصارها على مدن ثلاث هي صور وطرابلس وانطاكية مع بعض قلاع متناثرة وفي غضون فترة لا تزيد عن السنتين ترجع الى صفاته العسكرية وامتلاكه فضائل شخصية ذات مرتبة رفيعة بهذا الخصوص فضلا عن صفاته المعنوية التي يراها الاستاذ جب أنها لا تشترك مع المواهب الاستراتيجية الا في القليل (٢).

وينبغي التأكيد هنا أن هذه المواصفات جعلته ينهمك في الضرورة في سلسلة من النشاطات العسكرية التي وجهها نحو فرض ارادته على النظام العسكري الاقطاعي السائد وتحويله الى الأداة التي تطلبها غرضه (٣) أما من الناحية الموضوعية فان انتصاره كان بسبب صفاته العسكرية بدرجة رئيسية اذ لا بد من القول أن انتصار أحد طرفين متحاربين في الوقت الحاضر يعود بالدرجة الأولى الى ممارسة القادة العسكريين لقدراتهم وصفاتهم المتفردة التي تقوم على مجموعة من المواهب العسكرية (٤).

ويمكن القول أن الخطط التي رسمها صلاح الدين الأيوبي مع قادته وامرائه تقوم على مجموعات ثلاث الأولى في مرحلة ما قبل حطين

---

١. كما جاء في: أبو شامة ــ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (دار الجيل ــ بيروت) جـ١، ص ١٦١.

٢. السير هاملتون جب ــ صلاح الدين الأيوبي (ترجمة: يوسف ايبش بيروت ١٩٧٣) ص ١٥٠.

٣. المصدر نفسه، ص ١٥١ (ينقل جب عن وليم الصوري أنه في عام ٥٧٤هـ/١١٧٥م عندما وافق الصليبيون على الشروط مع حلب قال (ان صلاح الدين الأيوبي كان رجلا حكيم المشورة وباسلا في الحرب) وسيشار الى المصدر نفسه مختصراً بحرفي (م. ن).

٤. الموسوعة العسكرية (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ص ١ ــ ١٩٧٧) و ١ ص ٢٩٤.

وهي الخطط التي مهدت للاشتباك بالصليبيين في بعض حصونهم ومعاقلهم بغية انتزاع بيت المقدس من بين أيديهم وجعل الظروف أكثر ملائمة لذلك والثانية تتعلق بخوض معركة حطين نفسها والعمليات التي تمخضت عنها أما المجموعة الثالثة فهي الخطط المكلفة بالانقضاض على الصليبيين في جميع المشرق العربي أي مرحلة القفزة الأخيرة على مواقعهم وذلك حسب المفهوم الحديث (٥).

معارك ما قبل حطين:

تظهر مواهب صلاح الدين الأيوبي العسكرية لأول مرة عندما علم بنية الصليبيين غزو مدينة دمياط المصرية سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م لتكون لهم موطىء قدم ونقطة انطلاق برية وبحرية للانتشار في مصر واحتلالها ((فاستصبحوا المنجنيقات (٦) والدبابات (٧) والجروح (٨) وآلات الحصار)) (٩) حيث وضع خطته العسكرية لمجابهتهم ومنعهم من تحقيق أهدافهم وبدأ كما يفعل أي قائد عسكري في الوقت الحاضر ((بالاستطلاع)) (١٠) واتخاذ مجموعة من التدابير لجمع المعلومات الدقيقة عن تحركات العدو واكتشاف نواياه، بواسطة استخدام المشاة الذين توغلوا وزودوه بهذه المعلومات (١١)، ويشير ابن شداد الى خطته هذه في المبادرة والمباغتة أنه: ((أنقذ الى البلد وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات وازعاج العدو عنهم أن نزل عليهم)) (١٢).

ولعل اجراءاته هذه هي عملية استنفار لقواته كما هو الحال الآن عندما يكون من الضرورة نقل القوات كلياً أو جزئياً من حالة السلم الى حالة الاستعداد للقتال أي الى الحالة التي تستطيع فيها التحرك بكامل تعدادها وسلاحها وذخيرتها المعركة فور تلقي أمر التعليمات (١٣).

وفي ٥٦٨هـ/١١٧٢م بدأ صلاح الدين الأيوبي يضع خططه لنقل قواته الى بلاد الشام عن طريق ((الكرك)) ((لأنها أقرب اليه وكانت في الطريق تمنع يقصد الديار المصرية)) (١٤) وذلك لتحقيق هدفين عسكريين الأول منع تسرب قوات الغزو الصليبي الى مصر بالحيلولة دون سلوك هذا الطريق في المستقبل والثاني استخدامه وسائط الحرب المتاحة لديه الى معركة حقيقية ضد الصليبيين وقد جرى بالفعل في نهاية هذا العام محاصرة بين الكتائب الصليبية بغية ارغامها على الاستسلام ولكن ليس بمفهومه الحالي بانهاء حالة الحرب بينه وبين الصليبيين حتى تحرير جميع الأراضي المقدسة من احتلالهم.

ولعل اخفاق الصليبيين في حملتهم ضد مصر بالتمركز في مدينة دمياط دفعهم لغزو مصر بحملة بحرية وذلك بهدف الاستيلاء على ثغر الاسكندرية ((فجردوا العساكر وتأهب لتحركاتهم فأمد الاسكندرية بالعساكر بصورة عاجلة وبتوجيه القتال في خطة الدفاع في البحر استطاع أن يفشل مساعيهم في الغزو إذ أنهم ((لما أحسوا بحركة صلاح الدين نحوهم ما لبثوا أن خلفوا مناجيقهم ورائهم وآلتهم)) (١٥) ويبدو على أقرب الاحتمال أن المقصود بحركة صلاح الدين الأيوبي هنا هو الانتشار في المفهوم العسكري الحديث الذي يعني تسخير القوى والوسائط على مسرح العمليات وفق مخطط يحقق أفضل الظروف للمحافظة على كفاءة القوات حتى دخولها المعركة ثم الاستمرار بتنفيذ الواجب باتخاذ التشكيلات التي تتلائم والموقف الراهن (١٦) وقد شعر الصليبيون بهذا الموقف ففروا من المعركة وخلفوا سلاحهم وآلتهم وأثقالهم.

وغني عن البيان فان صلاح الدين الأيوبي كان قد حضر الى بلاد الشام والأراضي المقدسة بقواته وهو مزود بخطة استراتيجية عسكرية تتفرع عنها بالضرورة خطط تكتيكية تقوم على توزيع قواته واستخدامها لمختلف الأسلحة وتنفيذ التحركات اللازمة للهجوم أو الدفاع وتوجيه القتال اذا استدعت الضرورة في البر أو في البحر (١٧) وذلك لمواجهة الاشتباك بالصليبيين وتحقيق أهداف سياسية (١٨) في الانتصار عليهم وطردهم من بلاد الشام والأراضي المقدسة.

ومن الجدير بالاشارة الى أن موقعة ((الرملة)) سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م) كانت أول اشتباك لقوات صلاح الدين الأيوبي بالجيوش الصليبية في بلاد الشام ولأهميتها فقد عمد الى تعبئة جيوشه وقواته ((تعبية

٥. الموسوعة العسكرية جـ١، ص ١٣٢.

٦. وهو آلة من آلات الحصار في العصور الوسطى يقوم مقام المدفع الحالي وان كانت قذائفه من الحجارة (ابن شداد ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ((سيرة صلاح الدين)) (تحقيق: د. جمال الدين الشيال ط ـ مصر ١٩٦٤) ص ٢٦ هامش (٤).

٧. آلة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن لينقبوه وسميت بذلك لأنها تدفع فتدب (ابن شداد ـ المصدر السابق ص ٤٢ هامش (١)).

٨. نوع من القوس الرامي الذي ترمي عنه النشاب أو النفط (ابن شداد المصدر السابق، ص ٤٢ هامش ٢)

٩. ابن شداد، ص ٤٢.

١٠. الموسوعة العسكرية، جـ١، ص ٧١.

١١. المصدر نفسه، ص ٤٣

١٢. ابن شداد، ص ٤٣

١٣. الموسوعة العسكرية، ص ٧٣

١٤. ابن شداد، ص ٤٥

١٥. المصدر نفسه، ص ٤٠

١٦. الموسوعة العسكرية، ص ١٢٠

١٧. م. ن. ص ٢٩٤

١٨. م. ن. ص ٦٦

الحرب)) (١٩) من حيث تجميع القوى البشرية واستنفار مختلف فئات الاحتياط وتنظيم الوحدات المستنفرة كما هو الحال في المصطلح العسكري الحديث (٢٠) وفقاً لما تفرضه هذه الموقعة فضلا عن خلق وحدات مقاتلة جديدة اضافها الى جيشه غير أنه لما اقتربت قوات الطرفين من بعضهما لم يستوعب بعض القادة الميدانيين في العسكر الأيوبي الخطة التي كان قد وضعها قائدهم الأعلى صلاح الدين الأيوبي حيث رأوا ((أن تعبر الميمنة الى جهة الميسرة والميسرة الى جهة القلب)) (٢١) لكي يجعلوا تلال الرملة في مناطق خلفية لقواتهم لئلا يستخدمها العدو ضدهم وقد نجم عن هذا الخلل الذي أشار اليه ابن شداد بقوله: ((وجرى خلل في ذلك اليوم)) (٢٢) وخاصة في تطبيق خطة الاشتباك السريع واتخاذ قرار عاجل تحرك قوات العدو في هجوم مضاد على العسكر الأيوبي فانكسروا كسرة عظيمة ولم يكن لهم حصن قريب يأوون اليه فظلوا في الطرق وتبددوا (٢٣) و يبدو أن هذه الهزيمة المحدودة التي منيت بها القوات الأيوبية اتخذت تبريراً من قبل بعض الفئات للهجوم على سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام غير أن تخبط أهل الشام أمام الهجمات الصليبية ارغم صلاح الدين الأيوبي الى العودة من الديار المصرية لاستئناف مواجهة الغزو (٢٤). وسارع حال وصوله الى بلاد الشام الى الاغارة على بعض المواقع الصليبية.

و ينبغي التوضيح هنا أن اغارته هذه جاءت عنها تفصيلات مهمة في المصادر الأولية وهي في مفهومنا الآن تقوم على عامل المباغتة في توجيه ضربة مفاجئة للقوى الصليبية وتنفيذ هذه المهمة بسرعة قبل أن يتمكن الصليبيون من اتخاذ ردود فعل منظمة (٢٥)، وعلى الأرجح فان موقعة الرملة زودته بدروس اضافية في أحكام الخطط العسكرية التي كان ينصرف الى اعدادها فقد جعل قواته في المرحلة التالية في حالة تسمح لها بالاشتباك بصورة شبه فورية مع صليبيي بيروت حيث جدّ في الوصول الى منطقة بيروت ونازلها (٢٦)، ليدخل في روع الصليبيين حقيقة اقتداره في تهديد حصونهم وتعريضها في أي وقت يشاء للاكتساح.

وترتبت على العمليات العسكرية التي خطط لها صلاح الدين الأيوبي على منطقة ((عين جالوت)) (٢٧) سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، نتائج كان لها أكبر الأثر في طرد الكتائب الصليبية واجبارها على النزوح والانسحاب من المنطقة وتحريرها وتستأثر هذه العمليات بالاهتمام من حيث أنها كانت جزءاً من حرب تشتيتية في المفهوم الحديث تستهدف تحويل انظار الصليبيين عن اتجاه الجهد الرئيسي لعمليات جيوش صلاح الدين الأيوبي مجتمعة لوحملهم على تخفيف الضغط من تلك الجبهة الى جبهة أخرى، كما أن هذه العمليات تستهدف كذلك استنزاف قوات الصليبيين بصورة بطيئة واعداد الظروف المناسبة لتحويل الموقف لصالح قوات صلاح الدين الأيوبي الذي استنهض عساكره فخرجوا يتبعونه حتى وصل الى حماة ثم واصل مسيرته بين المنازل فدخل دمشق وأقام بها فترة وجيزة واندفع بقواته عابراً نهر الأردن على جسر من الخشب ثم رحل باتجاه العدو و بدأ يعبيء جيشه بتجميعه واستنفاره حتى وصل الى ((بيسان)) وشارف على منطقة الجالوت فخيم بها (٢٨).

ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين الأيوبي كان طيلة سلوكه هذا الطريق بقواته قد اتبع اسلوب ((الأرض المحروقة)) مظهراً قوته وتفوقه و بث ارصاده واستخباراته لتزوده بالمعلومات عن الصليبيين وقواتهم وتحركاتهم ((فوصل الخبر ان الافرنج قد اجتمعوا في صفورية)) (٢٩)، فبدأ وكأنه يستهدف خوض معركة حاسمة معهم فرسم خططه لتعبئة قواته بخلق وحدات مقاتلة جديدة ممن انضم اليه وعمد الى تنظيم قواته بتقسيم جيشه الى قطعات كبرى يسميها المؤرخون ((الأطلب أو الأطلاب)) (٣٠). أي الكتائب وجعلها في الميمنة والميسرة والقلب وسار حثيثاً لمواجهة الصليبيين (وهذا الاجراء يسمى ((التنظيم العسكري)) في المفهوم الحديث تقسيم الجيش الى قطعات حسب الظروف والسلاح ليسهل اعداده وتدريبه وحركته)) (٣١)، ولكن قبل أن يلتقي بسراياهم أمر بتقدم ((الجاليش)) أي طليعة الجيش وقلبه وهو يحمل ((راية الجهاد)) التي كان قد اتخذها صلاح الدين الأيوبي لتتقدم جيوشه وقواته ورائها وتمضي الى الأمام مكتسحة العدو أمامها و يذكر أن تعداد هذه الطليعة كان خمسمائة رجل وقد جرت المعركة فانسحب

١٩. ابن شداد، ص ٥٣ ابن واصل ــ مفرج الكروب في اخبار بني أيوب (تحقيق: د. جمال الدين الشيال ــ القاهرة ــ ١٩٥٧) جـ٢ ص ٥٩.
٢٠. الموسوعة العسكرية، ص ٢٨٦
٢١. ابن شداد، ص ٥٣. ابن واصل، ص ٥٩
٢٢. م. ن. ص ٥٣
٢٣. م. ن. ص ٥٤
٢٤. م. ن. ص ٥٤
٢٥. الموسوعة العسكرية، ص ٩٧
٢٦. ابن شداد، ص ٥٦
٢٧. و يسمى ((عين جليات)) الجبار في أسفار العهد القديم بالقرب من الناصرة.
٢٨. ابن شداد، ص ٦١
٢٩. م. ن. ص ٦٢.
٣٠. ومعناه قائد الكتيبة أو الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال وكان أول من استعمل هذا اللفظ في مصر أيام صلاح الدين الأيوبي ثم عدل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة من الجيش (ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٤ هامش (٣) ابن واصل، المصدر السابق ص ٥٩ هامش (٣).
٣١. الموسوعة العسكرية، ص ٣٢٣

الصليبيون غير أن صلاح الدين الأيوبي ((نزل حولهم)) أي أنه قام بعمليتين عسكريتين في آن واحد بمفهومنا الآن هما المناورة في تقدم قواته في اتجاه جنبات العدو ومؤخرته (٣٢)، والثانية التطويق وهو احاطة قوات العدو بسلسلة متماسكة من القوات تستطيع أن تقطع خطوط مواصلاته وضربه من جميع الجهات واجباره على تشتيت جهوده بالقتال جبهياً وعلى جبهة معكوسة بآن واحد (٣٣)، والظاهر أن الصليبيين شعروا بحراجة موقفهم في هذه المعركة ((فلم يخرجوا لخوفهم)) (٣٤) ولما رأى صلاح الدين الأيوبي ((أنهم لا يخرجون)) عمل على استدراجهم نحو الطور وهو أرض مكشوفة بغية الحيلولة دون تمركزهم من موقع محدد مسبقاً وعدم اتاحة الفرصة لهم لمتابعة القتال في هذا الموقع وقد نجح من فرض الموقف لصالح قواته مما أدى الى انسحابهم وتسلل جندهم وتفاديهم الاشتباك معه للوصول الى بقعة تجمعها وهي منطقة ((الفولة)) التي يتعذر عليهم فيها الاستمرار في القتال (٣٥)، فيما راح صلاح الدين الأيوبي يدمر مواقعهم ومعاقلهم وتحصيناتهم مستهدفاً حسب الاصطلاح العسكري الحالي اعاقة حركة الصليبيين وتقدمهم واتخاذهم لمواقع قتالية متقدمة ومحتملة في المستقبل.

ولعل من البديهي القول أن ما أشار اليه ابن شداد حول الغنائم التي حصل عليها جند صلاح الدين الأيوبي في معاركه هذه وتركهم ما كان من ثقيل الأقمشة والغلال والأمتعة والسلاح ((وحرقوا ما لم يمكن أخذه)) (٣٦) له ما يماثله في الجيوش الحديثة حيث توضع الخطط في تدمير كل ما يمكن أن يفيد منه العدو وكذلك المعدات المعادية التي يتم الاستيلاء عليها في الاغارات اذا تعذر سحبها)) (٣٧).

وتقدم لنا معركة الكرك سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٣م (٣٨) ويجعلها أن واصل سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤م (٣٩) نموذجاً لعمليات الحصار والمناوشات التي كانت تهدف بحسب التعريف الحديث الى احاطة مدينة أو قلعة أو موقع محمي أو محصن بقوات عسكرية ومحاصرته والتمركز امامه أو الاحاطة به بتقصد ارغام المحاصرين على الاستسلام (٤٠) فزحفت القوات الأيوبية الى هذا الموقع ونازلته ونصبت عليه تسعة مجانيق أمام بابه فهدمت السور المقابل لها كما ردمت الخندق الواسع والعميق الذي كان الصليبيون قد احتفروه وهو أشبه بواد هائل ((فعد ذلك من الأمور الصعبة)) (٤١) وأمر صلاح الدين الأيوبي بضرب اللبن وجمع الأخشاب وبناء الحيطان المقابلة لربض المدينة حتى الخندق وتسقيفها وتلفيق ستائرها فأصبحت طرقاً واسعة يمكن سلوكها ثم اجتمعوا رجال العسكر على طم الخندق، مما اتاح للقوات الأيوبية عدم التعريض لرماة الصليبيين.

ولعل من الجدير بالذكر أن الجهد الذي بذلته القوات الأيوبية في الردم وتصنيع اللبن وجمع الأخشاب وفي الأعمال الانشائية كابتناء الحيطان والتسقيف وتسوية الطرقات والسكك والدروب والمسالك الى جانب قيامها بالعمليات الميدانية القتالية يشابه الى حد كبير ما تقوم به الجيوش الحديثة في الجهد الهندسي بتدمير منشآت العدو الحيوية من مصانع ومحطات وسدود ومطارات يستخدمها في العمليات العسكرية وتدمير مواقع العدو القتالية قبل المعركة أو خلالها من معاقل وتحصينات ومرابض أسلحة ومقرات قيادة واتصال ومعدات العدو الحربية لمنعه من استخدامها (٤٢).

وليس أدل على نجاح الخطط والموضوعات التي ترسمها صلاح الدين الأيوبي في هذه المعركة من شعور الصليبيين بالهزيمة من جراء اصرار هذا القائد الذي كان يشرف بنفسه على جبهة الحرب ((فكتبوا الى ملوكهم وفرسانهم يستنجدونهم و يعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن)) (٤٣).

ولا يخفى أن صلاح الدين الأيوبي بما امتلكه من حس القائد الميداني وتوقعاته واحتمالاته للظروف التي تحيط به ومعايشته المعركة بتفصيلاتها وملابساتها استطلع عن تحركاتهم واكتشاف مواقعهم قبل المعركة وخلالها وبعدها (٤٤). وذلك كما يفعل القادة الميدانيون في الجيوش الحديثة فيذكر أنه ((سار حتى نزل منطقة ـ البلقاء ـ بقرية يقال لها (حسبان) ثم رحل عنها الى (عين ماء) وعسكر فيها منتظراً خروجهم من المكان الذي هم به ليتمكن منهم)) (٤٥)، وذلك لارغامهم على الاستسلام ونتيجة للمعلومات التي حصل عليها عن تحركاتهم فان خطته تضمنت نقل معظم قواته الى مواقع اخرى بغية الاشتباك معها وابقاء قوة محدودة للمرابطة هناك ومراقبتهم واطلاعه أولا بأول عن نشاطهم غير أن أكثر تعزيزاتهم التي كانت من صليبي الساحل تخفت تحت جنح الظلام للدخول الى الكرك الأمر الذي أتاح لصلاح الدين

٣٢. م. ن. ص ١٠٦
٣٣. م. ن. ص ٢٨٤
٣٤. ابن شداد، ص ٦٢
٣٥. بعد انتهاء المعركة أعطى صلاح الدين الأيوبي لجنده دستوراً من أثر السير أي جاز لهم الراحة لاستئناف القتال.
٣٦. المصدر السابق، ص ٦١
٣٧. الموسوعة العسكرية، ص ٢٦٤
٣٨. ابن شداد، ص ٦٣
٣٩. مفرج الكروب، جـ٢، ص ١٥٧
٤٠. الموسوعة العسكرية، ص ٨١٦
٤١. ابن واصل، ص ١٥٧
٤٢. الموسوعة العسكرية، ص ٢٦٤
٤٣. ابن واصل، ص ١٥٨
٤٤. الموسوعة، ص ٧٠
٤٥. ابن واصل، ص ١٥٨

الأيوبي أن يتصرف كقائد مرن في اتخاذ القرار الحاسم وذو دراية تامة ((بالجغرافية العسكرية)) للمنطقة من حيث الحركة أو القتال ولعل هذا التصرف هو نفسه الذي قد يصدر عن قائد عسكري لعمليات مماثلة في الوقت الحاضر فقد ((عزم على قصد الساحل)) (٤٦).

وليس من الآراء التي يمكن التسليم بها استنتاج بعض الكتاب والمؤرخين الغربيين المعاصرين من أن قوات صلاح الدين الأيوبي كانت تكثر ((النهب والسلب والحرق والتخريب)) وهي في طريقها الى معاقل الصليبيين ومراكزهم وهذا يتنافى — في زعمهم — مع مقومات الحرب ولكننا يجب أن نفهم ما تقوم به هذه القوات في ضوء المفهوم العسكري الحديث فالمقصود بالنهب والسلب والحرق والتخريب هو التدمير (٤٧)، الذي يتيح للمتحاربين القيام به لاعاقة العدو من التقدم وذلك بتدمير وسائله التي يستخدمها في الاستمرار في الحرب وأن مجرد وجود الصليبيين في المشرق العربي والأراضي المقدسة واستيطانهم معناه في نظر صلاح الدين الأيوبي هو الاستمرار في الحرب التي يجب عليه أن يخوض غمارها بكل الوسائل المتاحة لديه.

معركة حطين

وفي أوائل سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م التي نعتها ابن شداد (بالسنة المباركة) (٤٨) وابن واصل (بالسنة الغراء) (٤٩) بدأ صلاح الدين الأيوبي يعد العدة لمعركة حاسمة مع الصليبيين لانتزاع بيت المقدس أهم مركز ديني وسياسي وعسكري في الأراضي المقدسة وكان عليه قبل أن يخوض هذه المعركة الانصراف الى استكمال خططه التي رسمها بخصوص اعداد الظروف المناسبة لها ولعل آخر بند في هذه الخطط هو السعي لاسقاط معقل الكرك الذي كان يعتصم فيه البرنس ((رينالددي شاتيون)) صاحب الكرك وتسمية المصادر العربية ((الابرنس ارناط)) وكان صلاح الدين الأيوبي قد نذر دمه وأعطى الله عهداً أن ظفر به أن يستبيح مهجته)) (٥٠) نتيجة اصراره على عدوانه ونقضه لكثير من الاتفاقات والمعاهدات التي كان قد عقدها مع بعض القوى السياسية في المنطقة ولدى دراستنا للتفصيلات التي جاءت عن دك هذا الحصن تبين أن سقوطه اضعف بدرجة رئيسية صليبيي بيت المقدس وعجل في سقوطهم مما يجعل الخطط التي وضعها صلاح الدين الأيوبي بهذا الصدد تكتسب أهمية كبيرة في الوقت الحاضر وذلك لأن خطته بنيت على أساس احداث (الثغرة) التي هي شكل من أشكال المناورة الهجومية في المفهوم العسكري المعاصر وتطويرها الى عملية اختراق واحتلال مناطق تخدم أغراض عملياته العسكرية (٥١)، وكذلك تشتيت قوى العدو بتحويل انظاره عن الجهد الرئيس للعمليات وهو اسقاط بيت المقدس فضلا عن التفاف قواته وتقدمها بصورة مباغتة واحاطتها بنطاق من الكتمان والسرعة نحو مناطق حطين وعندئذ ستكون المعركة قد اتخذت ﷺفة المعركة التصادمية و يتم في حينها انقضاض القوات الأيوبية على أهدافها المرسومة لها.

ولتنفيذ خطة الكرك التي استتبعها تطبيق خطة ((الجهد الرئيس)) ارسل صلاح الدين الأيوبي الى القوى السياسية ((يطلب العساكر)) (٥٢) ((فجاءته من كل)) (٥٣) من حلب و يقودها ((بدر الدين دلدرم بن ياروق)) صاحب تل باشر ومن دمشق ارسل الملك الأفضل سرية على رأسها المقدم ((صارم الدين اقايماز النجمي)) وتقدم ((مظفر الدين كوكبري)) صاحب حران في قيادة العساكر الشرقية أي عساكر الموصل وديار بكر فيما قاد صلاح الدين الأيوبي نفسه قوات حرسه الخاصة متجهاً صوب الجنوب لشن حملة محدودة بالاشتراك مع العساكر المصرية (٥٤) أما الجيوش الأخرى فكانت تخضع للقيادة العامة التي كان على رأسها ابن صلاح الدين الأيوبي الملك الأفضل نور الدين علي حيث شنت ((غارة تظاهرية)) (٥٥) على أراضي طبرية وسحقت بعض الكتائب الصليبية حتى أن ابنه واصل يصف هذه الغارة بأنها ((مقدمة الفتوح)) (٥٦).

وتصرف صلاح الدين الأيوبي مستوعباً خطته واحتمالاتها كأي قائد عسكري في العصر الحديث يضع أمامه مخطط المعارك التي سوف تخوضها قواته مع العدو فكتب الى ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر وهو بحماه يأمره بسد الفراغ الذي ربما يحدث في جبهة منطقة حارم)) ((ليعلم العدو أن هذا الجانب غير مهمل)) (٥٧) كما أصدر أمره الى العساكر جميعاً أن توجه ضرباتها الى صليبيي الساحل وهي في طريقها الى

---

٤٦. م. ن. ص ١٥٨
٤٧. الموسوعة العسكرية، ص ٢٦٤
٤٨. المصدر السابق، ص ٧٤
٤٩. المصدر السابق، ص ١٨٦
٥٠. ابن واصل، ص ١٨٥
٥١. الموسوعة العسكرية، ص ٣٤٧
٥٢. ابن واصل، ص ١٨٦
٥٣. م. ن. ص ١٨٦
٥٤. يذكر الأستاذ جب — حجم هذه القوات بالأرقام ((قوات صلاح الدين الأيوبي.../ ١ فارس العسكر المصري.../ ٤ من الأجناد ومجموع دمشق والموصل وديار بكر وحلب.../ ٧ فارس فيكون المجموع ١٢/٠٠٠ رجل من الفرسان (صلاح الدين الأيوبي ص ١٧٠).
وللاستزادة من التفصيلات عن هذه القوات انظر: فصل ((جيوش صلاح الدين)) للمصدر نفسه.
٥٥. جب — المصدر السابق، ص ١٧٠
٥٦. مفرج الكروب، جـ٢، ص ١٨٧
٥٧. ابن شداد، ص ٧٤

صفورية فيقول ابن شداد ((وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارات على ما في طريقهم من البلاد الساحلية)) (٥٨). وهذا الأسلوب يندرج تحت ما يسمى في الوقت الحاضر ((بالتسلل)) حيث تتحرك القوات المهاجمة بمجموعات مناسبة حول عناصر المدافعة الأمامية للعدو بقصد الوصول الى بقعة تجمع مختارة ومعينة في خطوطه الجانبية أو الخلفية (٥٩)، وقد تحقق ما استهدفه صلاح الدين الأيوبي من تطبيق هذا الأسلوب على انهيار الروح المعنوية للعدو واضعاف مقاومته.

ويمضي صلاح الدين الأيوبي مطبقاً مخططه لرسم الأطر لميادين معاركة فيأمر ولده الملك الأفضل نور الدين علي بالمرابطة عند منطقة ((راس الماء)) فيما قاد هو بعض السرايا نحو منطقة (بصرى) مخيماً على (قصر السلامة) وأقام مرتقباً (قوافل الحجاج) التي كان من المقرر لها أن تجتاز تلك المنطقة ليحميها من غدر الصليبيين وخاصة ((البرنس ارنالددي شاتيون) الذي سبق أن قام بالعمل بنفسه بالاعتداء على قوافل الحجاج من حصنه بالكرك ولا شك في أن ذلك ينطبق مع المهمات التي توكل الى القوات المسلحة في الجيوش الحديثة لحماية المواطنين المدنيين أو المراكز الاقتصادية والاجتماعية والحضارية التي ربما تقع في نطاق العمليات الى جانب عملها الرئيسي في المعارك والقتال.

ولا غرو فان الحجاج قد أمنو غائلة العدو بفضل الاجراءات التي اتخذها صلاح الدين الأيوبي وعندئذ انصرف الى منطقة الكرك لمنازلتها وبدأ مناورته هناك بازالة ما يعترض سير العمليات من منشآت وعوارض وكذلك فعل في منطقة الشوبك تماماً كما تفعل القوات الحديثة في مسارح العمليات تمهيداً أرض المعركة قبل أن تبدأ الاشتباكات الفعلية وخلال انهماكه هناك وصلت طلائع الجيش المصري اليه فأمره ((بالانبثاث)) في أراضي الكرك والشوبك)) (٦٠) أي الانتشار في عرف المفهوم العسكري المعاصر بتوزيع القوات وفق المخطط الموضوع لفترة وجيزة.

وليس من شك في أن صلاح الدين الأيوبي كان يعير اهتماماً كبيراً لمفهوم ((تجحفل القوات)) (٦١) كما هو عليه الآن الذي يعني تفاوت القوات والوسائط والأسلحة ولمساندة سواء الموجودة عضوياً أو المؤقتة وذلك قبل أن يبدأ معركته الرئيسية وقد ذكر ابن شداد ما يشير الى أن صلاح الدين الأيوبي التقى جيوشه ((بعشترا)) واستعرضهم ((لأمر قد عزم عليه)) بالتأكيد فان هذا الأمر هو الخطة التي قررها مع قادته وامرائه وبعد أن أتم الترتيبات التي كانت تقتضيها ظروف ادارة معركته المقبلة توجه الى منطقة الأردن فنزل بثغر الأقحوان وهناك اشرف على بعض قطعاته ((وعين مواقف الأمراء وشعارهم)) ثم احاطت عساكره ببحيرة طبرية عند قرية تعرف ((بالصبيرة)) (٦٢) وهو ((سن النبرة)) وبدأ باستدراجهم حيث رحل بقواته الخاصة وعسكر غربي طبرية على سطح الجبل منتظراً أن ((الافرنج اذا بلغهم ذلك تصدوه فلم يتحركوا من منزلهم)) (٦٣) فغير من تكتيكه لمتطلبات المعركة فزحف على طبرية وأحكم السيطرة عليها ودمرت المرافق التي ربما تعود بالفائدة على العدو في المنطقة غير أن قلعتها امتنعت عليه فضرب الحصار حولها فيما ترك صلاح الدين الأيوبي أكثر قواته وجيشه بكتائبه وفصائله يجثم أمام العدو في جبهاته والظاهر أن صلاح الدين الأيوبي قد أعار اهتماماً في خطته لسقوط طبرية واعتبر ذلك ضرورياً للسقوط الساحل الصليبي فاشار المؤرخ عماد الدين الأصفهاني أحد كتاب صلاح الدين الأيوبي ومعتمديه الى أن صلاح الدين الأيوبي قال ((اذا صحت كسرتهم أي الصليبيين — فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع ولا عن فتحة وازع)) (٦٤) ومعروف أن ادارته لهذه المعارك اتسمت بمنتهى التبصر فلقد كان على وعي تام لتدبر ظروف المعركة وملابستها ويبدو ذلك واضحاً في التطورات اللاحقة فحالما بلغ العدو ما جرى لصليبيي طبرية ((لم يأخذهم الصبر دون اجابة الحمية)) (٦٥) فتحركت بعض كتائبهم لانجاد جماعتهم وهذا ما كان يطمح اليه صلاح الدين الأيوبي حيث انسحب بقواته وحول على الاشتباك بهم من الخلف كما تحرص القوات المتحاربة في الجيوش الحديثة على الظفر بواسطة عملية الالتفاف من المواقع الخلفية.

ولم يشأ الصليبيون الذين تحركوا لتخليص رفاقهم في قلعة طبرية أن وقعوا بين ((كماشة عسكرية)) حيث اطبقت عليهم عساكر صلاح الدين الأيوبي من جميع الجهات وتم تطويقهم فنجحت عملية الالتفاف وبدأت ابادتهم غير أن التعزيزات راحت تنهال عليهم من جميع الصليبيين في بلاد الشام فاستمر الصدام حتى اليوم الثاني وكان صلاح

٥٨. ابن واصل، ص ١٨٧

٥٩. الموسوعة العسكرية، ص ٢٦٩

٦٠. ابن واصل، ص ١٨٦

٦١. فيما جاء في قاموس المصطلحات العسكرية للفريق الركن محمد فتحي أمين ((أن ((تجحفل)) هو مصطلح يطلق على تخصيص الموارد لأغراض القيادة) ص ٨٢

٦٢. ويسميها ابن شداد ((الصنبرة)) المصدر السابق، ص ٧٦ ابن واصل ((الصنبرة)) المصدر السابق، ص ١٨٨ (وهو موضع بالأردن مقابل عقبة أفيق بينه وبين طبرية ثلاثة أميال (ياقوت — معجم جـ ٣، ص ٣٠٣).

٦٣. ابن شداد، ص ٧٦

٦٤. البرق الشامي كما جاء عند أبي شامة كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (دار الجيل — بيروت) جـ ٢، ص ٧٦.

٦٥. ابن شداد، ص ٧٦ لقد شكلت قلعة طبرية أهمية كبيرة بالنسبة للصليبيين حتى أن أحد قادتهم صرح بأهميتها قائلاً ((لا قعود لنا بعد اليوم واذا أخذت طبرية ذهبت منا البلاد بأسرها)) ابن واصل، ص ١٨٩.

٦٦. ويسميه ابن واصل ((جبل حطين)) مفرج الكروب، جـ ٢، ص ١٩٠

الدين الأيوبي يشرف على المعركة و يديرها و يوجه مسارها ونتيجة للضغوط التي تعرض لها الصليبيون في اليوم الثالث فقد تشرذمت قواتهم وابيد أكثرها على يد القوات الأيوبية التي أطبقت عليهم فيما اتجهت بعض فصائلهم التي كان يقودها صليبيوا بيت المقدس والكرك وطبرية الى ((تل يقال له.. تل حطين)) بغية الاعتصام به كما هربت بعض الكتائب الأخرى منهم وأخذت طريقها نحو صور(٦٧) ونجا بعضهم ((بحشاشة نفسه))(٦٨).

وفي ٢٥ ربيع الثاني سنة ٥٨٣هـ/٤ تموز (يوليو) سنة ١١٨٧م(٦٩) استخدم صلاح الدين الأيوبي امكاناته القيادية والميدانية في توجيه المعركة فأخذ ينسق قواته و يستعيد ترتيبها وقد أشار الى ذلك صاحب البيرق الشامي فقال ((أن صلاح الدين سهر تلك الليلة)) وهو يوضح خطته لكتائبه وجنده في القتال و يأمر ويملأ الجعاب وكنائنها بالنبال وكان ما فرقه من النشاب اربعمائة جمل كما خصص سبعين موضعاً للنشاب يأخذ من خلت جعابه منها»(٧٠).

لقد استأثرت معركة حطين باهتمام صلاح الدين الأيوبي الى أبعد الحدود واستطاع أن يطورها الى عملية شاملة ضد العدو الصليبي حيث تقدمت طلائع المعسكر الأيوبي وتحركت كتائبه واطبقت على جبل حطين ومما استرعى الانتباه في خطته انها استخدمت ما اصطلحت عليه العلوم العسكرية المعاصرة بالجغرافية العسكرية)) لأهداف تكتيكية(٧١) فقد استخلص هذا القائد كل ما يراه مؤثراً على سير عملياته الحالية أو المرتقبة فجاز على الصليبيين ماء البحيرة ورائهم ((فلم يبق للفرنج اليه وصول))(٧٢) فحجز عنهم مصدر من مصادر الاستمرار في المعركة ثم أمر باشعال النيران ((في حلفاء كانت هناك)) فارتفع لهبها فخلق لهم ظروفاً غير مواتية للتصرف والاستمرار في المعركة أيضاً، حتى قال المؤرخون أن حر الهاجرة وحر النهار وحر العطش والم الجراح اجتمعت عليهم(٧٣) ووصف ابن الأثير المعركة بقوله ((واشتد القتال عليهم من سائر الجهات))(٧٤) والظاهر أن اشتداد المعارك لصالح العسكر الأيوبي اجبر الصليبيين على تغير مواقع قيادتهم فيذكر ابن الأثير((أن الصليبيين لم يتمكنوا أن ينصبوا خيمة غير خيمة ملكهم في أعلى جبل حطين))(٧٥) مما أبعد هذه القيادة عن ادارة ــ المعركة كما تسبب ذلك في انحطاط معنويات الصليبيين وانهيارها.

و يروي ابن الأثير ما يدل على عمق وتقدير صلاح الدين الأيوبي للموقف في سير العمليات في هذه المعركة وعدم تسرعه في اتخاذ القرار وهو الموقف الذي يتميز به عادة القادة العسكريون الميدانيون الناجحون في الوقت الحاضر نتيجة لاستيعابهم ظروف المعركة التي يعيشونها فيذكر أن الملك الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين الأيوبي نظر الى أبيه وقد علته الكآبة وهو يتابع سير العمليات فلما رأى هزيمة الصليبيين أمامه صاح من فرحه ((هزمناهم، هزمناهم)) ولما أعاد الجيش الأيوبي الكرة على الصليبيين في الهجوم كرر قوله ((هزمناهم، هزمناهم)) فالتفت اليه صلاح الدين الأيوبي فقال ((اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة يعني خيمة ملك الصليبيين))(٧٦) أي أن سقوط الصليبيين رهين بانهيار قيادتهم وهذا ما استوعبه صلاح الدين الأيوبي حيث استطاع جنده بفضل مثابرة قائدهم الوصول الى مقر قيادة الصليبيين وأوقعوها في الأسر وكان فيهم الملك جاي ملك بيت المقدس وابرنس ارنالد دي شاتيون صاحب الكرك وغيرهم.

ويمكن الاستنتاج أن معركة حطين كانت نموذجاً لاستراتيجية الهجوم غير المباشر(٧٧) حيث لم يكن لقيادات الصليبيين دور حاسم في ادارة المعركة كما تعتبر حطين صورة للحرب التشتيتية وحروب الانتهاك فقد جرى استنزاف قدرة الصليبيين بهذه المجموعة من المعارك التي سبقت حطين وارغم الصليبيون على الالتزام بمواقعهم الدفاعية الى أن تم محاصرتهم والقضاء عليهم(٧٨) ولا مجانبة للحقيقة أن نقول بأن معركة حطين كانت ((دفاعية تكتيكية وهجومية استراتيجية))(٧٩) فضلا عن أنها أظهرت مدى الاهتمام بالتأمين الاداري للقوات وحرمان العدو من الموارد الحياتية والاستطلاع الدقيق للأرض والخصم وكذلك أظهرت

٦٧. ابن شداد، المصدر السابق، ص٧٧.
٦٨. ابن واصل، المصدر السابق، ص ١٩٠
٦٩. لعل أبلغ وصف عن هذه المعركة كان على لسان ابن واصل حيث قال بأنها ((مفتاح الفتوح)) أي أنها ستؤدي الى دخول بيت المقدس واسقاط الصليبيين في أخطر معقل لهم في الأراضي المقدسة (المصدر السابق، ص١٨٨) وقال عنها عماد الدين الأصفهاني بأنها ((السنة الحسنة المحسنة)) البرق الشامي في الروضتين جـ٢، ص٧٦.
٧٠. عماد الدين الأصفهاني ــ المصدر السابق، ص ٧٦
٧١. الموسوعة العسكرية، جـ١، ص ٤٤٩
٧٢. ابن واصل، ص ١٩٠
٧٣. ابن شداد، ص ٧٧ ابن واصل، ص ١٩٠ ــ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ١١ ص ٢١٧
٧٤. ابن الأثير، ص ٢١٨
٧٥. ابن واصل، ص ١٩٠
٧٦. ابن الأثير، ص ٢١٨
٧٧. بسام العلي ــ الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية (دار النفائس ــ بيروت ١٩٧٨) ص ١١٠
٧٨. المصدر نفسه، ص ١١١
٧٩. المصدر نفسه، ص ١١٢

الروح المعنوية العالية للعساكر الأيوبية والكفاءة القتالية لديهم والاستعداد الدائم للقتال واستثمار النصر لاضعاف القدرة القتالية للعدو وكانت خطة التطويق والابادة تعبيراً عن الرغبة لا في حسم الصراع هنا فقط لصالح الجيش الأيوبي وأهل المشرق العربي عموماً وانما من أجل اضعاف قدرة العدو القتالية بصورة كاملة في جميع بلاد الشام والأراضي المقدسة واعترف روسبايلت بالأهمية البالغة لمعركة حطين وعدها نصراً كاملا لكفاح صلاح الدين الأيوبي وقيادته المعززة بالقوة والاقتدار وأوضح جب في تحليله الذي لا يجانب الدقة الطابع الساحق للانتصار في حطين على الفور عبر مجموعة المدن والقلاع التي اسقطها صلاح الدين الأيوبي (٨٠).

معارك ما بعد حطين

لقد تهاوت المعاقل الصليبية على قرب من بيت المقدس وأولها ((قلعة طبرية)) (٨١) واستكمال الدخول في عكا التي وصفها ابن شداد بانها كانت مدينة ((الأموال والذخائر والبضائع والتجائر وأنها مظنة التجار)) (٨٢) ثم تحركت القوات الأيوبية لتدك حصون الصليبيين المتناثرة حول عكا مثل الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفوله والطور (٨٣)، واستسلمت تبنين بعد تضييق الحصار عليها كما تم اسقاط بيروت وصيدا وجبيل و يبدو أن صلاح الدين الأيوبي قد أسقط من خطته موقتاً دخول قواته في صور وذلك لأنها أصبحت مركز تجمع المقاومة الصليبية (٨٤)، وعليه أن يرسم الخطة بأحكام ودقة و ببصيرة القائد الذي يستنير بأراء قادته وأمرائه فاتجه لتنفيذ الفقرة التالية من هذه الخطة باسقاط عسقلان وفي طريقه نحوها اتمت قواته الدخول في مواضع كثيرة كالرملة و بينا و بيت لحم والخليل والدوران وغزة و بيت جبرين والنطرون (٨٥) و بات من الواضح الآن أن نتفحص بامعان الخطة التي سوف يسير بموجبها صلاح الدين الأيوبي وهو الاستمرار في عملياته العسكرية لتحقيق ما يمكن الاصطلاح عليه مهمة الجهد الرئيس في هذه العمليات وهو الدخول في بيت المقدس أكبر حصن للغزاة الصليبيين وذلك اذا ما عرفنا أن جميع الحصون والمعاقل والقلاع التي تمت السيطرة عليها هي أماكن تحيط بالقدس وليتصرف صلاح الدين الأيوبي كقائد عام لهذه العمليات كما ينبغي أن يتصرف العسكريون الذين يضعون الخطط لعملياتهم في الوصول الى هدف رئيس في الوقت الحاضر وذلك على الرغم من اختلاف الزمن والوسائل و يبدو أن ذلك كان واضحاً وجلياً في كثير مما شهده العالم الحديث والمعاصر وحروب عامة أو اقليمية ففي ٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م و بعد أن تم استحضار جميع المتطلبات للمعركة بما فيها استقدام الأسطول المصري (٨٦) لكي يتم الاجهاز عليها من البر والبحر لقد نزلت قوات صلاح الدين الأيوبي في الجانب الغربي للمدينة الذي حشد فيه الصليبيون جيشاً يقدره ابن شداد بستين الفاً (٨٧) وراح يطوف حول المدينة متطلعاً لكي يجد مواضع الضعف في المقاومة فلم يجد عليه موضع قتال الا من جهة الشمال فانتقل اليه (٨٨) ونصب عليه المجانيق ((وضائقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة)) حتى استطاع أن يحدث ثغرة في السور وقبل أن تدخل طلائع القوات الأيوبية المنتصرة الى المدينة طلب الصليبيون المفاوضة مع صلاح الدين الأيوبي لغرض الاستقرار على هدنة بين الطرفين وتسليم القدس وقد تم ذلك ودخلت جيوش هذا القائد المدينة ((وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم)) (٨٩) ورفعت الأعلام على الأسوار ورتب صلاح الدين الأيوبي على كل باب من أبواب البلد أميناً من الأمراء (٩٠) ولم يحدث ما يعكر صفو الأمن في المدينة أو حتى الاعتداء فكفه صلاح الدين (٩١).

أما المعارك التي خاضها العسكر الأيوبي بعد الدخول الى القدس وطرد الصليبيين منها فتتسم بأنها كانت ((معارك تطهيرية كما في المفهوم الحديث)) (٩٢) استهدفت تصفية بقايا مقاومة العدو في هذه المناطق وأولها معركة ((صور)) حيث نصبت حولها المناجيق والدبابات والستائر وحوصرت من البحر بواسطة الأسطول المصري الذي كان قد أمره صلاح الدين الأيوبي بالتجول في منطقة ساحل البحر المتوسط.

ويحدثنا عماد الدين الأصفهاني عن قيام معركة بحرية بين الأسطول المصري و بين الأسطول الصليبي تعرض فيها الأول الى فقدان بعض المراكب وازاء هذا الوضع اتخذ صلاح الدين الأيوبي قراراً بسحب بقية الأسطول الى بيروت والاستمرار في الحصار المضروب حول المدينة (٩٣).

---

٨٠. جب ـ صلاح الدين الأيوبي، ص ١٤٨
٨١. ابن شداد ص ٧٩ ـ ابن واصل، ص ١٩٥
٨٢. المصدر نفسه، ص ٧٩
٨٣. المصدر نفسه، ص ٧٩. ابن واصل، ص ٢٠٢
٨٤. المصدر نفسه، ص ٨٠ ـ ابن واصل، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩
٨٥. ابن شداد، ص ٨١ ـ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠
٨٦. ابن واصل، ص ٢١١
٨٧. المصدر السابق، ص ٨
٨٨. ابن واصل، ص ٢١٢
٨٩. ابن شداد، ص ٨٢
٩٠. ابن واصل، ص ٢١٥
٩١. المصدر نفسه، ص ٢١٦
٩٢. الفريق الركن محمد فتحي أمين ـ قاموس المصطلحات العسكرية ص ١١٠ ـ ١١١
٩٣. البرق الشامي في الروضتين جـ ٢، ص ١١٩ ابن واصل، ص ٢٣٤ ـ ٢٤٤

وعلى الرغم من أن العسكر الأيوبي لم يحقق النصر الكامل على صليبيي صور والساحل في هذه المعركة لكنه استطاع أن يحقق هدفه في عزل الصليبيين عن حلفائهم خاصة اساطيل المدن الايطالية جنوة والبندقية وبيزا التي كانت تقدم خدماتها الى الصليبيين لمصلحتها التجارية في البحر المتوسط ونتيجة لهذا الوضع انبرى صلاح الدين الأيوبي الى اتخاذ تكتيك جديد يقوم على تطهير الحصون والقلاع المجاورة ((لكي يضعف قلوب من في صور)) (٩٤) فبدا في ((كوكب)) سنة ٥٨٤هـ/١١٨٧م التي كان صليبيوها على ما يبدو على اتصال بصليبيي القلاع والحصون الأخرى (٩٥) فأوعز صلاح الدين الأيوبي الى قائده ((صارم الدين قايماز)) أن يرابط حول كوكب وهنا نلاحظ اعتماد صلاح الدين الأيوبي لمبدأ التعبئة في تجميع قدراته العسكرية واستنفارها الى حالة الاستعداد الكامل لخوض هذه الحروب التطهيرية وفضلا عن الحصار الذي ضربته قواته على صور وكوكب فانه وكل بعض كتائبه لمحاصرة صفد كما حاصر هونين عسكرياً واقتصادياً وبدأت هذه القلاع بفضل الخطة المدروسة التي انبثقت عن الانتصار في معركة حطين واسترداد بيت المقدس تتهاوى أمام ضرباته فسقط حصن هونين في أواخر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ثم دخلت طلائع عساكره في جبلة (٩٦) أما في اسقاط ((الطرسوس)) أو ((أنطرطوس)) فتطالعنا المصادر بما يشير الى قيام صلاح الدين الأيوبي بتطبيق مبدأ عسكري يرتدي أهمية بالغة في عمليات قوات الجيوش الحديثة وهو الرصد المباشر لتقدير الموقف واجراء الاستعداد في التنظيم وخاصة في مجال إدارة المعركة وتحليل اجوائها وأشكالها واتخاذ القرار في تحديد فاعلية القوات المشاركة واسلحتها ومعداتها وقدرتها على المقاومة (٩٧). فوقف على مشارف انطرسوس ينظر اليها فقرر الاستمرار في قتالها وعدل في ترتيب قواته فأمر بمرابطة الميمنة على جبهة ساحل البحر وبالميسرة على الساحل من الجانب الآخر فيما اتخذ مواضع لقواته الخاصة قريباً منهم ((فصارت العساكر محدقة بها من البحر الى البحر)) (٩٨).

وفي جبهة قلعة برزية التي تقع على جبل شاهل وتحيط بها الأودية من جوانبها استمر صلاح الدين الأيوبي على محاصرتها وتطويقها وذلك بعد رؤيتها (٩٩). وجد في تعزيزها بالمقاتلين والأسلحة مثل المنجنيقات وآلات الحصار فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها وبدأ يضرب أسوارها بالمنجنيقات بصورة متصلة ليلا ونهاراً ثم عمد أخيراً الى تقسيم عساكره والمرابطة حولها ((ثلاثة أيام ورتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الآخر بحيث لا يفر القتال عنها اصلا)) (١٠٠). أما في (شقيف ارنون) فكان يتابع رصده على بعد مناسب ((حيث أقام هو في ((مرج العيون))) بحيث يركب كل يوم يشارفه ويعود)) (١٠١).

ومن تكتيك صلاح الدين الأيوبي في قيادة العمليات العسكرية في المشرق العربي الذي يستأثر باهتمام الحاضر وهو توجيه العمليات نحو أهدافها بدقة وعدم تجاوزها بصورة تلفت انتباه القادة العسكريين وذلك على الرغم من عدم وجود وسائل للضبط العسكري كما هي عليه الآن والسيطرة على تصرفات الجند واندفاعهم وحماستهم ففي التوجيه الذي أصدره الى قواته لاسقاط حصني ((درب ساك وبغراس)) القريبين من انطاكية احدى اكبر معاقل الصليبيين عدم التحرش بكل ما يمس نفوذ صليبيي انطاكية والابتعاد عن حصونهم ليبعدهم عن الاشتراك في المعركة لصالح الصليبيين في المناطق الأخرى ولكي لا يقدم لهم مبرراً في الدخول الى الحرب ضده في الوقت الحاضر في الأقل حيث كان يحاول أن يعزلهم في خطته وهو يسعى الى اسقاط مدنهم وقلاعهم وحصونهم وقد راحت قواته تقاتل صليبيي ((درب ساك)) قتالا شديداً بالمنجنيقات والأسلحة الأخرى وضايقها مضايقة عظيمة حتى طلبوا التسليم واشترطوا مراجعة انطاكية (١٠٢) وكذلك اندفعت هذه القوات نحو بغراس وقاتلت مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان والتسليم على استئذان انطاكية (١٠٣) وارتفع علم صلاح الدين الأيوبي عليهما.

ومن الملاحظ في القرارات التي كان يصدرها صلاح الدين الأيوبي وخاصة فيما يتعلق بالأمور العسكرية أنها تستند على موضوعاته ورأى مستشاريه العسكريين وقادته في جيشه تماماً كما يفعل القادة العسكريون عندما يستنيرون بآراء أعضاء قياداتهم ومستشاريهم العسكريين في العصر الحديث في اتخاذ الخطط والتدابير أو تعديلها وادارة المعارك وفي التفصيلات التي تجري في ساحة العمليات ففي معركة عكا الثانية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م أشار جماعة يصفهم ابن واصل انهم من أهل الحزم على صلاح الدين الأيوبي بتخريب مدينة عكا واعفاء أثارها لئلا يعاود الصليبيون الاستيلاء عليها غير أنه لم يستجب لهم فعرض الأمر على قادته وامرائه وابنائه ومستشاريه في عسكره فقالوا له ((هذه مدينة كبيرة

٩٤. ابن شداد، ص ٨٤
٩٥. البرق الشامي ــ الروضتين، جـ ٢، ص ١٢٠.
٩٦. ابن شداد، ص ٨٦ ــ ٨٧
٩٧. الموسوعة العسكرية، ص ٢٩١ ــ ٣٢٣
٩٨. ابن شداد، ص ٨٧
٩٩. ابن شداد، ص ٩٢ ــ ٩٣
١٠٠. المصدر نفسه، ص ٩٧
١٠١. المصدر نفسه، ص ٩٨.
١٠٢. المصدر نفسه، ص ٩٣ ــ ابن واصل، ص ٢٦٧
١٠٣. ابن شداد، ص ٩٤ ــ ابن واصل، ص ٢٦٨

وعماراتها كثيرة والمصلحة تبقيها وان تعمر وتحصن)) (١٠٤).

وأخيراً يمكن القول أن صلاح الدين الأيوبي كان مثالا نادراً للقائد العسكري الإستراتيجي في تاريخ العصور الوسطى وظهوره يمثل ثمرة لنضوج القيادة العسكرية في هذه الفترة ولجميع القادة التاريخيين الذين ظهروا منذ بداية الاسلام حتى عصره. ان انجازات هذا القائد كان لها أكبر الأثر في تاريخ مصر والمشرق العربي فتحريره للقدس كان حدثاً بالغ الأهمية وقد جاء ليدعم الانتصار في حطين كما أنه أظهر بوضوح التحول الحاسم في مسيرة الصراع وانتقال القوى السياسية في المشرق العربي من الدفاع الاستراتيجي الى الهجوم الاستراتيجي لقد استطاع صلاح الدين الأيوبي في حطين والقدس و بعدهما أن يقدم أساليب جديدة للعمليات العسكرية يمكن أن يطلق عليها اسم ((التحرير الزاحف)) (١٠٥) التي تمثلت بتحرير المدن الداخلية وطرد الصليبيين نحو الساحل والمساعدة على تهجيرهم واعادتهم الى بلادهم مع خلق التناقضات التي استنزفت قدرتهم البشرية وذلك أن هؤلاء كمجتمع عسكري كانوا يعيشون على الحرب الأمر الذي لا يمكن تحقيق وحدة العناصر المتباينة الا عن طريق النصر (١٠٦) وفي هذا العصر تكاد المفاهيم والاصطلاحات العسكرية المعاصرة تقترب في معناها من انجازات هذا القائد وخاصة فيما يتعلق بالتصميم على بلوغ الهدف بخطة مستوعبة وناجحة وعزل الهدف عن كل امكانات التدخل الخارجي والموازنة بين غاية السلم وهدف الحرب و بالتنظيم الاداري لقواته والادارة المدركة للحرب وحشد القوى والوسائط الضرورية.

وطالما خلف صلاح الدين الأيوبي لأحفاده من القادة التاريخيين من تراثه العسكري المقتدر الذي بناه بتصميمه الأخلاقي ومواهبه الاستراتيجية ووحدة هدفه ومثاله الأعلى المتسم بالقوة والثبات فان النصر على الأعداء الجدد الذين شتركون في دوافعهم وأهدافهم مع الصليبيين الغزاة ستقرره الحتمية التاريخية وسيعالج هؤلاء الأحفاد تعصب الأعداء كما سبق لصلاح الدين الأيوبي أن سحق بتعصب الصليبيين الدخلاء على أرض المشرق العربي.

مصادر البحث

ملاحظـــــة:
رتبت المصادر بحسب ورودها في البحث والاستفادة منها:

أبو شامـــــة:
شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)
(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (دار الجيل ــ بيروت).

السير هاملتون جب:
(٢) صلاح الدين الأيوبي ((دراسات في التاريخ الاسلامي))
((ترجة: يوسف ايبش بيروت ــ ١٩٧٣)).

الموسوعة العسكرية:
(٣) جهرة من الباحثين والكتاب
(المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ص ١ ــ ١٩٧٧)

ابن شداد:
بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)
(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ((سيرة صلاح الدين))
(تحقيق: د. جمال الدين الشيال مصر ــ ١٩٦٤).

ابن واصل. جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)
(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (تحقيق: د. جمال الدين الشيال القاهرة ــ ١٩٥٧)

الفريق الركن محمد فتحي أمين:
(٦) قاموس المصطلحات العسكرية
ياقوت ــ شهاب الدين أبو عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)
(٧) معجم البلدان ٦ أجزاء (طهران ــ ١٩٦٥)

عماد الدين الأصفهاني ــ عبد الله محمد بن محمد* (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)
(٨) البرق الشامي كما جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة.

بسام العسلي
(٩) الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية (دار النفائس ــ بيروت ــ ١٩٧٨).

١٠٤. فرج الكروب، جـ٢، ص ٢٥٣
١٠٥. بسام العسلي، الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، ص ١٣٩.
١٠٦. بسام العسلي، ص ١٣٩.

ثورة النـاصر احمـد بن محمد بن قلاوون في العصر المملوكي ومظاهرها القومية

د. يوسف حسن غوانمة
كلية الآداب ـ جامعة اليرمـوك

مقدمة :

اعتاد المؤرخون والباحثون في التاريخ الاسلامي الوسيط سرد أحـداثه في منأى عن التاريخ العالمي في هذه الفترة، فهل كانت منطقتنا تعيش في معزل عن العالم واحداثه، وهل كنا في منـأى عما يدور حولنـا من تغييرات فكرية وحضارية واجتماعية واقتصادية وثقافية؟ وهل كانت علاقاتنا بالعالم محدودة، وهل كنا نعيش ونتحرك في اطار ضيق؟ أم كنا على علم بما يدور في العالم من حولنا، وان كنا كذلك فهل تأثرت منطقتنا ولو قليلاً ببعض التغييرات التي طرأت فيه، خصوصاً وان هناك دراسات عديدة اثبتت صلاتنا الوشيجة بهذا العالم فكرياً واقتصادياً وعسكرياً، وان حركــة الاتصـال والمواصـلات بيننـا وبينهم كانت قوية. فمنـطقتنـا العـربية كانت في قلب العـالم، ومنـه تمر اهم طرق المواصلات الدولية التي تربط الشرق بالغرب الاوروبي. ناهيك عن ان منطقتنا العربية وبلاد الشام بالذات كانت مجال اتصال لشعوب العالم المختلفة اغريقية ورومانية وبيزنطية وفرنجية. ثم لوجود الاماكن المقدسة في فلسطين والحجاز فقد أمها العديدون من شعـوب الـدنيا شرقـه وغـربـه. أضف إلى ذلك ان الدولة المملوكية قد شجعت السياحــة الـداخلية والخـارجية فاصـدر السلطان قلاوون أول مرسـوم سياحي يحض الناس على زيارة بلاده من الشرق والغـرب. أذن نحن كنـا في قلب العالم وعلى اتصال وثيق به ومع احداثه، ومن هنا فلم نكن نعيش في جزيرة نائية مغلقة، لذلك فأني ادعو ان تكون دراستنا لتاريخنا الوسيط شمولية بحيث تأخذ بعين الاعتبار العالم من حولنا، نحلل تلك الاحداث ونرى اثرها على معطيات الامور لدينا فكرياً واقتصادياً واجتـماعياً وعسكـرياً. من هذا المنطلق كان اهتمامي بالثورات العـديدة التي قامت في العصر المملوكي في مصر وبـلاد الشام ورفض المـواطنين لهذه الدولة. فلماذا كان هذا الرفض الشديد وهـذه الثـورات العديدة الضارية، وما مقدار تأثرنا بالاحداث العالمية من حولنا في نفس الفترة الزمنية؟ لذلك جاءت دراستي هذه لثورة كبيرة هامة اغفلها معظم الباحثين في تاريخنا الوسيط وهي ثورة الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون، حاولت أن اعطيها بعـداً جديداً من خلال الـظروف والمتغـيرات العـالمية والدولية وتأثيرها في منطقتنا.

الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون

هو أحمد بن محمد بن قلاوون الملك الناصر بن الناصر بن المنصور، ولد في القاهرة سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦م، وعند بلوغه سن العـاشرة ارسله ابوه إلى الكرك صحبة الامير سيف الدين بهادر عبدالله البدري «فأقام بها يربيه ويعلمه الفروسية»[١]. ثم تعهـده بعد ذلك الامير ملكتمر السرجواني نائب الكرك وزوج أمه[٢]، وأنضم اليه فيما بعد أخواه ابراهيم وابو بكر للأقامة هناك مع أخيهما «فربي ـ احمد ـ بالكرك وأحب اهلها وصارت له وطناً»[٣].

ثورة الناصر أحمد بالكرك

كانت دمشق وحلب والكــرك بؤرات ثورية ضد الحكم المملوكي، ولكن الذي يسترعي انتباه الباحث الثورات الكبرى التي قامت في الكـرك. فاولى هذه الثورات كانت ثورة السعيد

١ ـ ابن حجر العسقلاني، الدار الكامنة، دار الجيل، بيروت، ج١ ص ٢٩٤.
٢ ـ ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٧٢.
٣ ـ المصدر السابق.

والمسعود ابناء الظاهر بيبرس سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م اللذين ابعدا عن الحكم في القاهرة وأرسلا إلى الكرك، فاتخذاها منطلقاً لثورة كبيرة، وتوسعا نحو الشمال فضما منطقة البلقاء واجزاء من جنوبي حوران وساعدهما وايدهما سكان البلاد ورجال القبائل العربية في جنوب الشام(٤).

اما الثورة الثانية فكانت ثورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م الذي لجأ إلى الكرك واتخذها مركزاً لثورته فلقي كل مساعدة من أهالي الشام، وتمكن بهم من السيطرة على دمشق واستعادة سلطانه في القاهرة والقضاء على خصومه السياسيين من المماليك(٥).

والثورة الثالثة، ثورة الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م، اما الثورة الرابعة فهي ثورة السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩١م ووقوف أهالي البلاد إلى جانبه وتقديمهم المساعدة اليه من مال ورجال حتى تمكن من استعادة سلطانه في مصر(٦).

ولنا وقفة عند ثورة الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون، فوالده محمد بن قلاوون توفي في ١٢ ذي الحجة ٧٤١هـ (٨ حزيران ١٣٤٠م)، فتولى السلطنة بعده ابنه المنصور ابو بكر واصبح الامير قوصون مدبراً للدولة يشاركه في مهماته الامير بشتاك(٧). الا ان الخلاف نشب بين قوصون وبشتاك فالقى قوصون القبض على بشتاك وارسله إلى سجن الاسكندرية وقتله. ثم استأثر بالسلطة دون السلطان فعمد إلى خلع أبي بكر ونفاه إلى قوص بصعيد مصر وذلك في صفر ٧٤٢هـ / ٨ آب ١٣٤١م، وولى مكانه في السلطة أخاه الأصغر كجك ولقب بالاشرف ولم يتجاوز الخامسة من عمره، وأصبح قوصون والحالة هذه المتصرف الأول في شؤون الدولة(٨).

كان لعزل السلطان ابي بكر ونفيه هو وبعض أخوته تأثيره في نفوس الامراء الموالين للناصر محمد بن قلاوون، كما حز هذا التصرف في نفس الامير أحمد بن الناصر محمد المقيم في الكرك فثارت ثائرته وعزم على الانتقام من قوصون. ووقف إلى جانبه بعض نواب بلاد الشام وفي مقدمتهم سيف الدين طشتمر نائب حلب وطالب الناصر أحمد بحقه في السلطنه(٩).

ازاء ذلك تصدى قوصون للناصر أحمد بعدما فشل في استدراجه إلى القاهرة واخراجه من الكرك، فأخذ يشهر به ويدعي أنه سيء السيرة والأخلاق كي يكون ذلك ذريعة في ابعاده عن السلطنة وهو سلاح اتبعه المماليك ضد خصومهم(١٠). ثم اتبع ذلك بالتهديد والوعيد وارسل قوة عسكرية بقيادة طرغاي الجاشنكير لأحضار الناصر أحمد من الكرك ولكنه فشل في مسعاه(١١).

امام هذه الضغوط والتهديدات لم يكن امام الناصر احمد سوى اعلان الثورة في الكرك بعد أن جمع الأعوان من الشام وبعد أن تفهم أهالي البلاد موقفه، فالتفوا حوله وقدموا له كل عون ومساعده. اما رجال القبائل العربية فلم يكونوا بمنأى عن الأحداث بل عايشوها فايدوا اميرهم وناصروه. ازاء ذلك عمد قوصون إلى الأنتقام فقتل ابا بكر في قوص. وكان لهذا التصرف آثاره السلبية على موقف قوصون وساعد على نفور امراء الشام منه والتفافهم حول الناصر احمد(١٢). وكان في مقدمة هؤلاء الامير قطلوبغا الفخري الذي كان يحاصر الناصر أحمد بالكرك، فانضم بقواته اليه وبايعه بالسلطنة ولقبة بالملك الناصر أحمد(١٣).

وعندما شعر قوصون بأن الجبهة الشامية ضده ارسل إلى الامير الطنبغا الصالحي نائب دمشق يطلب منه محاربة طشتمر نائب حلب، فسار الطنبغا بقواته إلى حلب، فانتهز قطلوبغا هذه الفرصة وسار إلى دمشق فخرج اليه اكابر دمشق وقضاتها وأهلها

---

٤ ـ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩ لوحة ١٤٨ «مخطوط»، النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، لوحة ٦ «مخطوط» وعن ثورة السعيد والمسعود بالتفصيل انظر «يوسف غوانمة»: التاريخ السياسي لشرق الأردن في عصر دولة المماليك الاولى، ص ٨٩ ـ ١٠٨.

٥ ـ النويري، نهاية الارب ج٣٠ لوحة ٤٩ «مخطوط»
ابو المحاسن المنهل الصافي ج٣ لوحة ٢٤٧ «مخطوط».
المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥٦.
والمزيد من التفاصيل انظر للباحث: التاريخ السياسي لشرق الاردن في عصر دولة المماليك، ص١٦٤ ـ ١٨٤.

٦ ـ ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١١ ص ٣٥٤ وما بعدها.

٧ ـ المقريزي، السلوك ج١، ص٥٥١.
ابو المحاسن، ج١٠، ص٢.

٨ ـ المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٥٩٣.
ابو المحاسن، ج ١٠، ص٤٩.

٩ ـ ابن قاضي شهبه، الاعلام بتاريخ اهل الاسلام، ج١ لوحة ١٦ «مخطوط».

١٠ ـ ابن قاضي شهبه، المصدر نفسه ج١، لوحة ١٧ «مخطوط».

١١ ـ العيني، عقد الجمان، ج٢٤، ق١ لوحة ٥٤ «مخطوط».

١٢ ـ ابو المحاسن، ج١٠، ص٣٢.

١٣ ـ ابو الفداء، المختصر، ج٤، ص١٣٩، ابو المحاسن، ج١٠، ص٣٣.

وبايعوا للناصر أحمد بالسلطنة وخطب له على منابرها وذلك في ٢٠ جمادى الاخرة ٧٤٢هـ / كانون الأول ١٣٤١م[١٤]. وانضم إلى الناصر أحمد معظم امراء الشام وعرب آل فضل وعساكر دمشق وحلب وطرابلس وأصبحت بلاد الشام جميعها صفاً واحداً معه، تؤيده وترفده بالمال والرجال، وصارت الكتب السلطانية تخرج من الكرك وعليها توقيع «الملكي الناصري»[١٥].

وكان لنجاح ثورة الناصر بالكرك ووقوف أهالي الشام إلى جانبه أثر كبير في تخبط قوصون فكثر استبداده بأمور البلاد وبطشه بكل من يرتاب في اخلاصه، مما دعا الامراء الاتفاق بزعامة ايدغمش على قتل قوصون ونجحوا في ذلك وبويع للناصر أحمد بالسلطنة في ٢٩ رجب بعد خلعهم الطفل كجك. وارسلوا إلى الناصر احمد بالكرك يطلبون منه القدوم لاستلام السلطنة وفي مقدمتهم الخليفة ابو العباس احمد بن المستكفي[١٦].

قدم الناصر أحمد بقلة من اتباعه الكركيين إلى القاهرة، فوصلها في ٢٨ رمضان، ودخل القلعة ليلاً ولم يجتمع بغالب الامراء ولم يتكلم في شيء من الامور حتى وصل الشاميون[١٧] وفي يوم الأثنين ١٠ شعبان ٧٤٢هـ / ١٩ اذار ١٣٤٢م بويع الناصر احمد بالسلطنة وحضر البيعة النواب والقضاة وامراء مصر والشام معاً[١٨].

وكالعادة حجر الامراء الكبار على الناصر أحمد واستبدوا بالبلاد فاضطر إلى تفويض الأمور اليهم واحتجب عن سائر الناس[١٩]. ولكن الناصر أحمد اراد ان يطهر الدولة من هؤلاء الامراء بعد ان تمادوا وتجاوزوا حدودهم، فامر باعتقال طشتمر والفخري بالاضافة إلى عدد آخر من الامراء الكبار وزج بهم في سجن الاسكندرية[٢٠].

ثم ان مشاعر الشك والقلق بدأت تسيطر على الناصر أحمد فيمن حوله من الامراء المماليك، فلم يعد يثق بهم وأصبح في حالة نفسية شديدة لم يهنأ بطعام أو شراب. واقتصرت ثقته في خاصته من الكركيين، حتى انه لم يكن ليتقبل طعاماً أو شراباً الا بعد ان يتذوقه يوسف بن النصال وابو بكر البازدار الكركيان[٢١]، خوفاً من أن يدسوا السم له. ووجد ان لا راحة له الا بالانتقال من القاهرة إلى من يثق بهم ويأمن جانبهم، فقرر الانتقال إلى الكرك ونقل عاصمة ملكه اليها. خرج الناصر احمد من القاهرة فوصل الكرك في ذي الحجة ٧٤٣هـ / ١٧ ايام ١٣٤٢م مستصحباً معه شعائر السلطنة والخليفة وناظر الجيش وكاتب السر واصبحت مراسيمه تخرج من الكرك نافذة لجميع أنحاء دولته في مصر والشام. ولكن هذا التصرف لم يعجب الامراء في القاهرة فكثر الكلام وتشوشت الخواطر وايقنوا ان السلطان مقيم في الكرك، فأخذوا يعملون على استعادة سلطانهم ومصالحهم، ثم اجمعوا على قتل الامير اقسنقر السلاري نائب الغيبة في القاهرة وعزل الناصر أحمد وتولية غيره[٢٢]. فعقدوا اجتماعاً وقرروا عزله واختاروا اخاه اسماعيل وبايعوه بالسلطنة في ٢١ محرم ٧٤٣هـ ٢٧ حزيران ١٣٤٢م[٢٣].

رفض الناصر احمد هذا الاجراء واخذ الطرفان يستعدان للمواجهة، وقرر الامراء استعمال القوة ضد الناصر احمد، ولما كانوا يدركون مقدار حصانة قلعتها اتبعوا سياسة النفس الطويل، واتفقوا ان يرسلوا عسكراً يحصروه في القلعة، فاذا ملوا أرسلوا غيرهم وهكذا طائفة بعد طائفة إلى ان يتمكنوا منها[٢٤]. وبدأ حصار الكرك في صفر ٧٤٣هـ / حزيران ١٣٤٢م، فأرسلوا ثمانية جيوش تحاصر الكرك ليل نهار، حتى إنه لم يبق في مصر والشام أمير الا وتجرد إلى حرب الناصر مرة او مرتين، وقد قاس اهالي الكرك ورجال القبائل العربية في الشام الكثير من قسوة الحصار وشدته، ولكنهم ظلوا إلى جانب زعيمهم حتى انهكت قواتهم وقلت الاقوات والذخائر لديهم فاضطروا إلى تسليم القلعة، فألقى القبض على الناصر احمد بعد ان اصيب بعدة جراح في جسمه، فارسل الصالح اسماعيل الامير منجك اليوسفي إلى الكرك في مهمة خاصة، فدخل إلى الناصر أحمد

١٤ ـ ابن قاضي شهبه، ج١ لوحة ٢٠ «مخطوط».
١٥ ـ ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ٣٤.
١٦ ـ انظر نص الكتاب في القلقشندي، صبح الاعشى، ج٦، ص٤٢٦ ـ ٤٣٠.
١٧ ـ ابن قاضي شهبه، ج١ لوحة ٢٤، «مخطوط».
١٨ ـ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٨، ص٨٨.
١٩ ـ ابن قاضي شهبه، المصدر السابق، ج١ لوحة ٢٤ «مخطوط».
٢٠ ـ ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص٦٢.
٢١ ـ ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٥٩.
والبازدار هو الذي يحمل الطيور والجوارح لأغراض الصيد ثم اصبحت احدى وظائف ارباب السيوف (القلقشندي)، صبح الاعشى ج٥، ص٤٦٩).
٢٢ ـ ابن قاضي شهبه المصدر السابق ج١ لوحة ٣٧ «مخطوط» المقريزي، السلوك ج٢، ص٦١٧، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٦٩.
٢٣ ـ المقريزي، السلوك ج٢ ص٦١٨ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠ ص٧٠.
٢٤ ـ ابن قاضي شهبه، ج١ لوحة ٤٠ «مخطوط».

وخنقه في ليلة ٤ ربيع اول ٧٤٥هـ / ١٧ تموز ١٣٤٤م وقطع رأسه ووضعه في علبة وسار به إلى القاهرة[٢٥]. وقدمه إلى اخيه (السلطان الصالح اسماعيل)، وبمقتله اسدل الستار على اخطر ثورة واطول حصار واشرس قتال في تاريخ دولة المماليك دام سنتين وشهراً.

دراسة تحليلية لهذه الثورة

نشأ الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون وتربى في جنوب الشام، فلم يشعر بالغربة عن البلاد كبقية المماليك، فعندما اعتلى السلطنة في القاهرة استعان بعدد من رجالات جنوب الشام في ادارة الدولة وقد رفض المماليك هذا الاجراء، فالعرب سكان البلاد الاصليون في مصر والشام لم يكن من حقهم تسلم اي منصب كبير في الدولة، فالمناصب العسكرية والسياسية كانت من اختصاص طبقة المماليك فقط. لذا رفض المماليك هذا الاجراء وضيقوا عليه، فقرر نقل العاصمة من القاهرة إلى الكرك، وفعلاً نقلها وكانت مراسيمه تخرج من الكرك عاصمته الجديدة إلى جميع انحاء بلاد مصر والشام.

وهذا ما اثار عليه المماليك، فقرروا عزله، وعينوا سلطاناً مكانه، وجردوا اليه الجيوش وحاصروه في الكرك مدة سنتين كاملتين، وارسلوا اليه ثمانية جيوش، فكلما تعب جيش ارسلوا غيره. وما تجدر ملاحظته ان جيش الناصر احمد استخدم في هذه الحرب سلاح (المدافع) وهذا مما ساعده على الصمود للحصار الطويل وايقاع الخسائر في صفوف المهاجمين، وهي أول اشارة لاستخدام هذا السلاح في مصر والشام.

ومن خلال تحليلنا لأحداث هذه الثورة، نستطيع القول بأنها وقد أنطلقت من مكان متحضر، وشارك فيها العرب المسلمون والنصارى على السواء، اول مظهر لأنبعاث الروح القومية العربية ضد السيطرة المملوكية الأجنبية التي رفضها العرب السكان الأصليون في مصر والشام.

وهناك خلاف في (بداية القومية)، ففريق من الباحثين يعتبر ان الشعور القومي ظاهرة ملازمة للانسان منذ ان وجد المجتمع البشري، وان بعض سمات القومية قديمة قدم الانسانية نفسها. من هؤلاء (H. KOHN) الذي يرى أن التاريخ على مر العصور شهد بذور الشعور القومي في التمسك العميق من جانب الناس بأرضهم وتقاليدهم والسلطة القائمة في اقليمهم[٢٦]. وفريق اخر يرى ان القومية ظاهرة حديثة نسبياً ويختلف هؤلاء ايضاً في تأريخ بداية القومية في اوروبا، فمنهم من يرى ان المشاعر التي ظهرت في اواخر القرون الوسطى في الممالك التي توحدت في اوروبا او كانت في طريقها إلى الوحدة داخل حدود معينة هي البداية الحقيقية لظاهرة القومية. وآخرون يرون ان القومية بدأت تظهر قبل ذلك فـ (تيري) مثلاً يرى أن الروح القومية الفرنسية ظهرت منذ القرن التاسع الميلادي، ولكن (لونجتون) يقول ان بداية اليقظة كانت في اوائل القرن الثاني عشر، اما (رانكة) فيؤكد انها ظهرت في القرن الثالث عشر بينما يرى (جيزو وميشيلية) انها ظهرت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر[٢٧].

وهناك اجماع بين الباحثين للفصل بين (ظواهر قومية) و(القومية) فهم يقولون ان (القومية الحديثة) ظهرت في عهد الثورة الفرنسية[٢٨].

اذن استطيع القول ان (مظاهر القومية العربية) ظهرت مبكراً في الثورات التي قامت في مصر والشام ضد الحكم المملوكي، اما (القومية العربية الحديثة) فظهرت في (الثورة العربية الكبرى) أي منذ اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين.

كذلك فان القومية التي ترتبط بالدعوة إلى قيام (الدولة القومية) ذات السيادة التي تخص امة بعينها وتقسم المجتمعات البشرية إلى (جنسيات) مختلفة تسيطر كل منها على اقليم تمارس فيه سيادتها المطلقة. ما كانت لتنمو قبل أن تبدأ جماعات كبيرة من الناس في الاهتمام (بوطنها) او (بلادها) أو (مجتمعها)، واعتباره خاصاً بها لا يحق لغيرها ممارسة أية سيادة فيه. ولا شك ان هذا يتطلب قدراً معيناً من الاحاطة وسعة الافق، لا يتوفر لدى الناس عادة، الا بانتشار التعليم إلى حد ما. وقد كان التعليم حتى اواخر العصور الوسطى في اوروبا وقفاً في الغالب على رجال

٢٥ ـ الصفدي، الوافي بالوفيات ج٨، ص٩٠، المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٦٢ ابو المحاسن، النجوم الزاهرة ج١٠، ص٧١، ٩٣.

٢٦ ـ H. Kohn, Nationalism, U.S.A. 1955, P. 8.

٢٧ ـ عبدالكريم احمد، القومية والمذاهب السياسية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٨٧.

٢٨ ـ B. Russell, New Hopes for achanging world, London 1951, P. 67.

الدين المسيحي الذين يجنحون بطبيعة تفكيرهم ومحتوى عقيدتهم إلى (العالمية) في ظل السيادة الشاملة للدين، ولذلك لم تظهر البذور الأولى للقومية الا بعد ذلك، فالقومية لم يكن من الممكن ان تنمو حتى تعلم الناس المشاركة في الحياة العامة[٢٩].

ونستطيع القول اننا في منطقتنا العربية لم نكن في منأى عن الأحداث والتيارات الفكرية العالمية، كنا على اتصال بالعالم فكرياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً. كانت منطقتنا في قلبه تتفاعل مع أحداثه وافكاره وتياراته المختلفة تأخذ وتعطي. كان مجتمعنا مثقفاً متعلماً تطلع إلى حقه في ممارسته في الحياة العامة، والحياة السياسية الاخرى التي حرم منها في العصر المملوكي. فالعلماء (ورجال الدين) لم يكن لهم تأثيرهم الذي كان في السابق والذين كانت نظرتهم مستمدة من الاسلام (وعالمية الدولة)، لقد ضعف نفوذهم وتلاشى بسقوط (الخلافة العباسية) في بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ / شباط ١٢٥٨م.

اذن ظهرت البذور الأولى للقومية العربية في القرن الثالث عشر والرابع عشر، تماماً في نفس الفترة الزمنية التي ظهرت فيها في اوروبا. ففي هذه الفترة من العصر المملوكي ظهرت طبقة التجار الذين سموا (بياض العامة)، وكانوا على درجة من الغنى بسبب نشاط الحركة التجارية المملوكية وشاركوا في الحياة السياسية في مصر والشام، بل قدموا العون إلى بعض الثائرين على الدولة المملوكية[٣٠]. من منطلق حسهم القومي. ثم ان ضعف نفوذ علماء وفقهاء المسلمين، وانعدام السلطة الروحية الممثلة بالخلافة ووجود جنسيات مختلفة في الدولة نفسها تتمثل في الأتراك والجراكسة وغيرهم، وصراعهم على السلطة، حتى ان المؤرخ أبا المحاسن وصف هذا الصراع واسبابه قائلاً: (والجنسية علة الضيم)[٣١]. لكل هذا اخذ العرب المواطنون الأصليون في مصر والشام يفكرون في السلطة والمشاركة في الحياة العامة، خصوصاً وانهم كانوا مؤهلين لذلك. فالمجتمعات العربية انذاك بدأت ترنو إلى حقها في السيطرة على (وطنها او بلادها)، واعتبار هذا الوطن خاصاً بها (لا يحق لغيرها ممارسة أية سيادة فيه) وذلك بسبب أن انساننا العربي كان آنذاك على درجة من الثقافة والعلم والاطلاع لانتشار المدارس في جميع انحاء مصر وبلاد الشام[٣٢]. فكانت حلب ودمشق وبيت المقدس والقاهرة بؤر اشعاع فكري وحضاري في مصر وبلاد الشام، وهذا مما ساعد على قدرة شعبنا وتطلعه إلى ممارسة حقوقه كاملة في وطنه، وعلى ارضه. وبذا بدأت تظهر لديهم المشاعر القومية أو (الجنسية)، فأصبح الصراع والحالة هذه صراع الجنس التركي والجنس الجركسي ضد الجنس العربي، ومن هنا تولدت في هذه الحقبة التاريخية البذور الاولى لمظاهر القومية العربية.

ثم ان عدم نمو القومية العربية رغم التسليم بوجود كثير من عناصرها منذ عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والعباسية، هو وجود (الخلافة الاسلامية) بمفهومها العالمي الشمولي، باعتبار الخلافة تمثل السلطة الروحية والزمنية عند المسلمين، ويعتبر الخليفة رمزاً للمسلمين. وبانهيار الخلافة العباسية وتدمير بغداد، ضعفت شمولية الحكم الاسلامي العالمي، وبدأت تظهر اقليات سيطرت على البلاد في مصر والشام والعراق، وتمكنت هذه من تجميع قوتها لأنها تمثل سلطة عسكرية وحربية قوية. وعندما شعرت بقدرتها على التحكم، انقضت على السلطة الشرعية، فاسقطت الدولة الايوبية سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) بعد ان قتلت آخر سلاطينها (تورانشاه) وتحكمت في البلاد من مطلق اقليات جنسية[٣٣]. وقد سببت هذه الحالة ردة فعل لدى العرب وشعورهم بأن من حقهم المشاركة في الحكم وبأهليتهم لذلك، خصوصاً وان الدولة المملوكية احتكرت كل المناصب الكبرى في الدولة، وابعدت كل العناصر العربية الوطنية من تقلد اي منصب عسكري او اداري في مصر والشام، مما اثار سخط المواطنين.

ولم يكن بامكان المواطنين الثورة في العاصمة لوجود الدولة المركزية فيها، وان كنا قد رأينا حركات ثورية عديدة قام بها سكان

٢٩ - Mac Lver, The Modern state, London, 1946, P. 123.

٣٠ - ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٩، ص١٤٠.

٣١ - ابو المحاسن: حوادث الدهر، ج٢، ص٤٨٥.

٣٢ - بلغت مدارس حلب في عهد ابن شداد ٤٦ مدرسة اما مدارس دمشق فبلغت ٩٠ مدرسة، اما مدارس القدس فبلغت نيفاً واربعين مدرسة (الاعلاق الخطيرة ج١، ق١، ص٩٦ - ١٠٧، ١٩٩ - ٢٥٩) وانظر: يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بين المقدس في العصر المملوكي، ص ١٥٢.

٣٣ - لنا رأي في قيام دولة المماليك في مصر وهو ان قيامها لم يكن عفوياً كما يصوره بعض الباحثين، بل كان مخططاً مدروساً بعناية تامة حيث استدرجوا تورانشاه واتهموه بسوء السيرة والفساد وقتلوه صبراً واستولوا على السلطة بعد ان اسقطوا دولة اسيادهم الأيوبيين.

القاهرة وعرب الصعيد، ولكنها لم تكن منظمة فلم يكتب لها النجاح. اما ثورة الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون فقد كانت ثورة منظمة، لها قيادتها السياسية والعسكرية، ولها اهدافها القومية، ومن هنا ففي رايينا انها اول مظهر من مظاهر انبعاث الروح القومية العربية.

وقد يقول قائل بأن الصراع لم يكن قومياً فأقول: بأن المماليك كانوا ينظرون إلى العرب نظرة استعلاء وبأنهم اقل منهم درجة، فقد كانوا يشكلون الطبقة النبيلة الحاكمة، وتتميز بأنها طبقة اقطاعية عسكرية، استأثروا بالحكم وحيازة الاقطاعات الكبيرة. لم يندمجوا مع اهالي البلاد الاصليين فكانوا غرباء عنهم، لا تربطهم بهم رابطة الدم او الاصل او الجنس. لذا لم يشعروا في كثير من الاحيان بروح التجاوب مع الاهالي، والعطف على مصالحهم، والعمل من اجل رفاهيتهم. لقد نظر المماليك إلى بقية طبقات الشعب نظرة أدنى فلم يسمحوا لهم بالمشاركة في الحياة العامة، وان سمح للبعض فبقدر معين محدد[٣٤].

ولكن الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون بحكم نشأته بعيداً عن قلعة الجبل بالقاهرة وتربيته في جنوب الشام التي احب اهلها واصبح منهم فأبوا المحاسن يقول: (فربي بالكرك واحب اهلها وصارت له وطناً)[٣٥]، لم يكن يحفل بنوا ميس المماليك وعاداتهم باعتبار انهم يشكلون طبقة اجتماعية ممتازة منعزلة عن الشعب هي الطبقة الحاكمة والمتحكمة، التي تشغل كل المناصب الكبرى بالدولة. اما اصحاب البلاد الأصليون من العرب من مصريين وشاميين فلا حق لهم في تقلد هذه المناصب، لذلك خرج الناصر احمد على هذه التقاليد، وكسر نواميس المماليك وعاداتهم، فاتخذ من اهالي جنوب الشام اعوانه وخواصه وقلدهم المناصب الكبرى في ا لدولة. فجعل يوسف بن النصال وأبا بكر البازدار من مقدمي الدولة واتخذ من ابي بكر حاجبا[٣٦] واختص بهما.

ولم يعجب هذا الاجراء امراء المماليك فاحتجوا على ذلك، واشاعوا انها «حكما في الدولة وتكبرا على الناس»[٣٧]. ولم يكتف الناصر أحمد بذلك، بل جعل من (الرضى) احد نصارى الكرك كاتبه الخاص. وكان من المنطقي ان يرفض المماليك هذه السياسة وان يثوروا على الاوضاع الجديدة التي تتيح ادخال العنصر العربي في الوظائف الكبرى في الدولة، وكانت في الأصل وقفاً على طبقة المماليك، كما اعتبروه خطراً على الامتيازات التي يحتكرونها. وقد استهجن الامراء المماليك تصرف الناصر احمد هذا ونعتوه بأنه «يميل إلى العوام»[٣٨]. والعوام بمفهوم ذلك العصر هم الشعب.

ثم إذا كانت حرب المائة عام (١٣٣٧ - ١٤٥٢م) بين فرنسا وبريطانيا، قد تميزت بروح معينة، سرت بين اكثر المواطنين في البلدين، وهو اقرب ما نسميه (بالروح الوطنية) التي تستثير نخوة الناس للدفاع عن اقليم معين، لم تكن حدوده واضحة بعد وتدفعهم للتضحية من اجله، فلا شك ان هذه (الروح الوطنية) هي عنصر من العناصر التي تألف منها الشعور القومي في اوروبا وعلى هذا فان الروح الوطنية التي استثارت نخوة اهالي الكرك خاصة وبلاد الشام عامة للتضحية والبذل والدفاع عن منطقتهم ووقوفهم إلى جانب ثورتهم ببسالة وشجاعة مدة سنتين كاملتين، عانوا الكثير وقدموا الكثير، فلا شك ان هذا كله هو مظهر وعنصر من عناصر الشعور القومي في منطقتنا العربية. فثورة الناصر احمد حدثت في نفس الفترة الزمنية التي كانت فيها حرب المائة عام والتي بدأت تظهر فيها هذه المشاعر القومية في اوروبا.

اذن استطيع القول بان «بدايات القومية العربية» زامنت سقوط الخلافة العباسية وظهرت في كتابات المؤرخين واشعار الشعراء، ولكنها لم تأخذ طابع العنف السياسي والعسكري الا بعد سقوط الخلافة العباسية. فقد خضعت الخلافة لسيطرة بعض الأقليات في الدولة: كالبويهيين، والسلاجقة، اما بعد سقوط الخلافة وانتفاء شمولية وعالمية الخلافة، فلم يعد بالامكان قبول لتلك الاقليات بتسلم السلطة. فبدأت انتفاضات ثورية في مصر والشام لقيام الدولة المملوكية، وقفت في وجه هذه الاقليات الجنسية القومية الغريبة.

لا ادعي بأنني اتيت بجديد، ولكنها مجرد وجهة نظر قابلة

٣٤ - يوسف غوانمه، التاريخ الحضاري لشرق الأردن في العصر المملوكي ط٢، ١٩٨٢م، ص١٢٧.
٣٥ - ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٧٢.
٣٦ - المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٠٢.
٣٧ - المقريزي، ج٢، ص٦٠٤، ابو المحاسن، ج١٠، ص٦١.
٣٨ - ابن قاضي شهبه، الاعلام بتاريخ اهل الاسلام، ج١ لوحة ٦٧ «مخطوط».

للمنـاقشة، وعلى هذا النحو فأننا نرى ان هذه المشاعر القومية دفينة في ضمير انساننا العربي منذ القدم، وحتى في معركة اليرموك انحاز عرب الروم إلى جانب العرب المسلمين فكان لهم النصر فلا غرو ان تكون دمشق وبغداد وعمان، والقاهرة، ومكة بؤر ثورية في العصر الحـديث، تقف بقوة وحزم إلى جانب الثورة العربية الكبرى، التي تجسد آمال وطموح انساننا العربي في الخلاص من الاجنبي مهما كانت هويته، وسعيه إلى وحدة امته العربية، وبناء وطنه وتقدمه، والعمل على رفعته وتحريره في دولة عربية واحدة.

خاتمـــة

يدعي بعض البـاحثـين الغـربيين انتهاء القومية العربية خصوصاً بعد احداث ١٩٧٨م في العالم العربي، فهل حقيقة ان القومية العربية قد انتهت؟؟.

فاذا كانت القومية هي ضرب من العاطفة الاجتماعية التي تتبلور في الشعور بعاطفة روحية واحدة قد تنبثق عن الاشتراك في اللغـة، والأصـل، والـتراث الثقـافي والمصالح المشتركة والخطر المشترك، فهذه العوامل تلعب دورها في بعث العاطفة القومية، تلك العاطفة التي تكفل بقاء الكيان القومي للأمة.

ومن هنـا فان اسرائيل والامبريالية الغربية تحاول تحطيم هذه العـاطفـة القومية، كي تتمكن من تفتيت الكيان القومي للأمة العربية، وقد أدرك باحثوهم ذلك وعمل خبراؤهم في هذا المجـال. لذا اصبح هناك تشكيك في جدوى العمل القومي، خصوصاً وان امتنا العربية منذ الحرب العالمية الاولى وهي تعاني من الهزائم المتلاحقة وفقدان اجزاء من ترابها ووطنها وزرع دولة اسرائيل في قلبها. وقد أدى هذا إلى موت هذه العاطفة القومية وتبلد احـاسيس هذه الأمة، فلم يعد انساننا يهمه سوى حياته وعمله الخـاص، لا يعنيه المجـازر والمـذابـح والاعتـداءات المتواصلة، وحالة الذل والهوان التي وصلتها امتنا العربية، وفي اعتقـادي ان هذا حصلية عمـل متـواصـل وتخطيط مدروس. فالقومية في وجودها واصلها شعور، والأمة نتاج هذا الشعور، وفي المجتمعات القومية (كما يقول B. Russell) يكون بين الافراد وبين الوحدة القومية التي نسميها او (شعبا) نوع من الاتصال النفسي او الروحي، وليس هذا الاتصال الا ولاء يحسه الفرد نحو الجماعة التي يعيش فيها[٣٩]. وهذا ما يحاول اعداء أمتنا القضاء عليه، وهـو نزع هذا الـولاء للأمـة العربية الواحدة وللوطن الواحد، وتكريس الاقليمية والأقليات المذهبية والطائفية، فتفتيت الأمة يعني تفتيت لقـدراتهـا وقـوتهـا من جميع النـواحي العسكـرية والسياسية والاقتصادية والثقافية.

لذا فقد آن الاوان لكتابنا وباحثينا التركيز على الدراسات القومية ونشرها، والعمل على ابراز العلاقة الوشيجة بين الاسلام والعـروبـة فالاسـلام قضى على الوجود القبلي للعرب، وحقق كيانهم القومي، ووحدتهم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ولغويا، وكان انتشار العروبة مواكباً لانتشار الاسلام. فمفهوم العروبة في العصـور الوسطى كان ملحقاً بالمفهوم الديني اي الاسلام، ولم يكن للعروبة كيان منفصل عن الاسلام. وعلى هذا فعلينا المزج بين القومية والاسلام لأن كلا منهما مكمل للآخر ولا يجوز الفصل بين العـروبـة والاسـلام. واعتقد ان الظروف ملائمة في وقتنا الحـاضر لنشر مثل هذه الدراسات والافكار خصوصاً وان امتنا وصلت إلى حالة من اليأس والتفكك لا مثيل لها.

وهكذا أردت في دراستي هذه أن اتطرق إلى موضوع هام يتعلق ببـدايات القـومية العربية، فباعتقادي ان هذه البدايات تمثلت في الثورات التي قامت في العصر المملوكي وبالاخص ثورة النـاصر احمـد بن محمد بن قلاوون، ورفض العرب للاقليات المملوكية الحاكمة حتى ولو كانت مسلمة، خصوصاً بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد. فالصراع آنذاك كان صراعاً جنسياً أو (قـومياً) بين القـومية العـربية والقـوميات الاخرى التي دخلت مجتمعنا عن طريق الرق واستأثرت بالسلطة والاقطاعات وجارت وتحكمت في البلاد والعباد. لذا فلست مع الباحثين الذين يقولون

٣٩- B. Russell, Freedom and organization, London, 1936, P. 395.

ان (القومية العربية) لم تظهر في بلادنا الا في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر وانها كانت مستوردة من اوروبا. فانساننا لم يكن مجرداً من عواطفه القومية، ولم يكن في منأى عن كل التيارات الفكرية في العالم، فاذا كان هناك قبول للاقليات الجنسية في مجتمعاتنا العربية فمرد ذلك للخلافة الاسلامية التي تعني الشمولية، ولكن بسقوطها زالت هذه الشمولية واصبح الانسان العربي يرنو إلى المشاركة في الحياة العامة وحكم نفسه، وهذا ما حدث في ثورة احمد بن محمد بن قلاوون وردة الفعل الجامحة من المماليك ضدها. فكل الثورات التي حدثت في العصر المملوكي دخل فيها عنصر المفاوضات الا هذه الثورة، رفض المماليك المهادنة والمفاوضة واصروا على القضاء عليها وقتل قائدها وهم بذلك يودون القضاء على كل المشاعر القومية العربية التي من الممكن ان تظهر مستقبلاً. وقد تميزت هذه الثورة بوقوف اهالي بلاد الشام إلى جانب ثورتهم ومقدار تضحياتهم ومعاناتهم، فلو لم يكن هؤلاء مؤمنين بمبدأ وفكرة معينة فلماذا المعاناة وكل هذه التضحيات؟.

بحوث التاريخ القديم والآثار

دراســـات
في التصنيع والفكر العسكري الأشوري

د. فاروق ناصر الراوي

كليـة الآداب / جامعة بغداد

بنى العـراقيون القدماء حضارة أصيلة تمثلت في مدن وقرى وأرياف امتدت على طول الرافدين. وما كان لهذه الحضارة أن تنمو وتزدهر وتنتشر إلى بلدان وأقاليم دانية وقاصية، لولا أن كان عند العراقيين القدماء جيش قوي قادر على صد الطامعين والحاق الهزائم بهم كلما حاولوا دخول البلاد. لقد اثبتت الحقائق التأريخية بما لا يقبل الشك إن أكثر الأخطار تهديداً لأمن العراق وسلامته تكمن على الجبهتين الشرقية والشمالية الشرقية حيث كانت تستوطن أقوام مختلفة حضارياً لم تخف أطماعها بأرض العراق وخيراته. ولذلك فقدْ حظيت المؤسسة العسكرية باهتمام العراقيين منذ أيام السومريين في الألف الثالث قبل الميلاد. إذ تشير الكتابات المسمارية والمشاهد الأثرية إلى قيام الجيش السومري بحملات عسكرية واسعة امتدت من عيلام في ايران شرقاً، إلى ماري على الفرات غرباً.

وحققت المؤسسة العسكرية خطوة واسعة على صعيد التنظيم والسلاح خلال العصر الاكدي. فاعتماد المناورة وخفة الحركة، بدلاً من القتال بطريقة الصف ـ وهو الاسلوب التقليدي في عصر فجر السلالات ـ وكذلك استعمال القوس المركب لأول مرة كسلاح، كان من جملة الاضافات الجديدة التي أسهم بها الاكديون.

وفي العصر البابلي القديم حظيَ الجيش باهتمام كبير من لدن الملك حمورابي الذي خصص في قانونه ذائع الصيت مواد جديدة، حددت بصورة واضحة واجبات المواطن في الدفاع عن وطنه، كما حفظت له في الوقت نفسه حقوقه الاجتماعية والاقتصادية طيلة بقائه في الخدمة العسكرية. فقد فرض المشرع البابلي عقوبة الأعدام على كل من يتخلف عن الخدمة العسكرية وفرض نفس العقوبة على مأمور التجنيد إذا ما خالف تطبيق قوانين التجنيد، وحفظ للاسير ولعائلته حقوقهم والزم الدولة بدفع الفدية لمن يقع في الأسر من العسكريين.

ويعد العصر الأشوري الحديث بحق، العصر الذهبي للمؤسسة العسكرية في العراق القديم، سواء على صعيد السلاح أم على صعيد الصنوف والتنظيم. ويعود الفضل إلى الأشوريين أيضاً في تأسيس جيش نظامي دائم بدلاً من الجيش النظامي المؤقت الذي كان يسرح أفراده بانتهاء الحملة العسكرية. لقد كانت للآلة العسكرية الأشورية، المتطورة، وللشجاعة الفائقة التي اتصف بها الجندي الأشوري، وللايمان العميق بقدرة الاله اشور على تحقيق النصر على الأعداء، دور اساسٍ في نجاح الأشوريين في إقامة امبراطورية وطيدة الأركان واسعة الأرجاء مهابة الجانب مما مكنها احتلال مركز الصدارة بين كل دول العالم القديم.

لذلك، ولأهمية الدور الذي اضطلع به الجيش الأشوري في تأريخ العراق القديم يكون من واجبنا أن نعرض أهم القضايا الخاصة من حيث السلاح والصنوف والتنظيمات...

التصنيع العسكري :

استعمل الأشوريون الكثير من المواد في صناعتهم العسكرية. ولعل أكثر المواد شيوعاً والذي يدخل في معظم الصناعات، الخشب، فهو يدخل في تصنيع معظم آلات وأدوات الحرب. وتشير النصوص المسمارية إلى استخدامه في صناعة الأكباش

والقسي والسهام والعربات وغير ذلك[1] . . ومُثل في المرثيات الأشورية كثير من الاثاث التي ربما كانت مصنوعة من الخشب والتي استخدمتها الجيوش الأشورية عند ضرب الحصار حول مدينة ما، أو عند اعداد وترتيب المعسكرات المؤقتة . فالارائك التي تعرف بالاكدية باسم (ersu) والتي ربما تقابل كلمة (العرش) العربية كانت مخصصة للضباط . وغالباً ما كان الكتاب يشيرون اليها كأزواج من الارائك أو العروش، وعند ذاك يستخدمون الكلمة **(tapälu)** .

ومن الأثاث الخشبية التي وردت في النصوص المسمارية المناضد (في الاكدية Passûru) والكراسي (Kussû حيث ادغمت السين بالراء) والصناديق (quppû) والسلال (Sussûlu) [2] .

كما عمد الأشوريون إلى استعمال الجلد لصناعة الدروع التي تحمي الجسم من ضربات الأعداء وكقرب لحمل الماء والسمن والمؤن الاخرىٰ، هذا فضلاً عن استخدام الجلد في صناعة مختلف أنواع الأحذية للضباط والجند وكسروج للخيل ولباسها وللربط فيما بين أجزاء العربات والمركبات الحربية أو ربما صنعت من الجلود جعب لحمل السهام تسمىٰ ispatu .

ولعل أكثر المواد أهمية في مجال التصنيع العسكري الأشوري، النحاس (erû) والبرونز (Siparru والذي ربما يقابل الكلمة العربية الصفر) . وكانت تجلب على شكل مواد خام معمول على شكل اجر ولبن (Si-il-ta libnätum) أو كتل صغيرة وكبيرة تعرف بالاكدية باسم (Katinnu) . وتجرىٰ عليها عدت عمليات قبل البدء في استخدامها لعمل الأسلحة . وتصف النصوص تلك العمليات بالغسل (mesû) والصهر (baslu) والتقنية Sarpu والكبس hamusu والجلي silannu . [3]

بعد هذه العمليات تستخدم المواد النحاسية والبرونزية لعمل الدروع ورؤوس السهام والرماح، التي طالما ورد ذكرها من جملة الأعمال التي قام بها الحداد nappahum . وهناك إشارة في النصوص المسمارية تدريع الجسم بقماش معدني مادته الأساسية البرونز حيث وصف بأنه قماش للتدريع أكدي أو حلبي من الباب الأول أو الباب الثاني[4] . . ومن الجدير بالذكر أن الحداد اعتبر من أصحاب المراكز الاجتماعية المتميزة حيث تشير النصوص المسمارية إلى امتلاكه للعبيد والاماء واستلامه للجرايات وبكميات أكبر مما يأخذه غيره من الحرفيين .

وتشير بعض النصوص المسمارية وخصوصاً الرسائل التي عثر عليها في موقع مدينة كرانا (تل الرماح بالقرب من تلعفر)، إلى طلب الملوك الأشوريين أو أمرهم للحدادين بالقيام بصناعة الآلات الحربية البرونزية لا سيما الفؤوس ورؤوس الرماح والسهام، والأزاميل والمساحي وما إلى ذلك من أدوات الحرب الأخرىٰ ومما يدل على وجود مركز أو مراكز مخصصة لصناعة تلك الآلات والأدوات الحربية هو وجود الأفران المخصصة لصهر وعمل أو سباكة المعادن المشار اليها أعلاه في مدن كثيرة ولعل ما وجد في مدينة كرانا القديمة خير دليل على ذلك[5] .

ومما يعزز ما ذهبنا اليه الرسالة التي بعث بها الملك زمريلم ملك ماري إلى الحداد موكا نيشوم في مدينة كرانا والتي جاء فيها : «قل لمكانيشوم، هكذا يقول سيدك، بعد قراءتك الرسالة باشر بعمل ٥٠ رأس سهم وزن الواحد منها ٤٠ غم و (٥٠) رأس سهم وزن الواحد منها ٢٤ غم و١٠٠ رأس سهم وزن الواحد منها ١٦ غم و٢٠٠ رأس سهم وزن الواحد منها ٨ غم. أعطي لذلك الأولوية . وانجز العمل بسرعة فالظاهر أن حصار مدينة انداريك سيطول . ولهذا كتبت اليك بخصوص تلك السهام»[6] .

ومن الأسلحة الأخرىٰ التي ورد ذكرها في النصوص المسمارية ما يعرف في الاكدية tilpänum الذي يعتقد بعض من الباحثين انها نوع من العصي التي ترمى على الأعداء وقال البعض الأخر انها نوع من القسي إلا ان الدكتور جرمي بلاك يرهن على انها ما يعرف اليوم «باليومرنك» أي الخشبة التي ترمىٰ وترتد إلى راميها، وهي من الأدوات شائعة الاستعمال في صيد الكنغر في استراليا . والذي عزز من وجهة نظر الدكتور جرمي بلاك هو وجود زوج منها

١ ـ حول آخر الأعمال انظر :
Stephanie Dalley, Mari and Karana Two Old Babylonian Cities, London and New York, 1984, p. 57.

٢ ـ انظر : R.F.S. Starr, Nuzi, Vol. 1, Harvard University Press, 1939, PP. 536f.

٣ ـ المصدر السابق ص ٥٣٨ .

٤ ـ Stephanie Dalley, ap. cit., P. 63.

٥ ـ المصدر السابق ص ٦٣ .

٦ ـ لاحظ أن الشيقل الواحد يساوي ثمانية غرامات تقريباً .

عثر عليه في قبر أحد الفراعنة المصريين كان قد أرسل اليه من العراق .

آلات وأدوات الحرب وبعض المفاهيم السوقية :

عند ما تتحرك الجيوش الكبيرة، كان من أهم ما يواجهها من ناحية السوق توفير الطعام والسقاية وتشير بعض النصوص المسمارية إلى استحالة التقاء الجيوش أحياناً لغرض تعبئتها لعدم توفر الماء أو الطعام اللازمين . ونقرأ في رسالة من الملك زمريلم إلى الملك حمورابي : «اين ستجد قوات عظيمة من الرجال، الماء الكافي لسقايتها؟» . وعلى أية حال فانه من واجبات القرىٰ وحكام المقاطعات اطعام وسقاية الجند في المناطق التي تقع تحت ادارتهم . كما توجد رسائل عديدة أخرىٰ بعث بها الملك الأشوري شمشي ـ ادد إلى ولده يسمخ ـ ادد حاكم ماري حثه فيها على توفير الجرايات للجند بعد تدمير موقع ما أو مدينة ما، وضمان مثل تلك الجرايات لمدة شهر في الأقل .

وكان الأشوريون في عصرهم القديم ـ يطلقون على قادة الجيش اسم راب ـ اموريم rab Amurrim أي شيخ أو كبير الأموريين . وتشير الكتابات المسمارية إلى استلامهم الرواتب على شكل حلقات من الفضة[٧] أو جرايات وخلع من القصر . ويأتي بعد هؤلاء في المرتبة الثانية «صغار الضباط» قادة الوحدات والفصائل ثم «العرفاء» وقادة القرىٰ وكان لكل منهم جراية معينة ومقننة وفق ما يقدمه كل واحد منهم من خدمات للجيش وللملك الذي يعد رمزاً للبلاد . . . ولعل اقتسام الغنائم كان جزءً من الرواتب التي تقدم إلى الضباط والجنود على حد سواء .

وكان معظم الجند يستلم أسلحته من القصر . ومن بين الأسلحة التي يستلمونها القسي qastû والسهام qanû [٨] والفؤوس qalpû والتروس arîtû وهي من أكثر الأدوات شيوعاً . وفي رسالة من مدينة كرانا كتب الملك الأشوري شمشي ـ ادد إلى ولده يسمغ ـ ادد يطلب منه ١٠٫٠٠٠ رأس سهم برونزي ورماح Samrûtum يزن كل منها ٦ مثاقيل أي حوالي ٤٨ غم، ولكن لم يكن لديه كمية كافية من البرونز في مدينة ماري (تل الحريري قرب البوكمال) فعمد الملك الأشوري على تزويد ولده بالبرونز وكما اشرنا أعلاه فلقد استخدم الملك زمريلم رؤوس سهام أخف وزناً وسمى نوع منها (siltahum) يزن الواحد منها بين واحد وخمسة مثاقيل أي بين ٨ و ٤٠ غم .

ومن الأسلحة الأخرىٰ التي كانت تصنع في بلاد آشور المقلاع الذي يعرف بالاشورية باسم waspum . وهناك طلب على هذا السلاح من مختلف المدن . فاحد الرسائل من مدينة شاشورا (شمشارة) فيها طلب لثمانية مقاليع و٣٠ قوساً .

أما الرماح فكانت على أنواع (كما موضح في الرسم) ومن الطريف ذكره وجود اشارات عن نوع من اللباس العسكري ربما كان مدرعاً وسمي خيروم hirum . وهناك العديد من النصوص من مشاهد المرئيات التي تدل على وجود عدد من أنواع الخوذ أو أغطية الرأس ، كالخوذة التي الحقت بها أغطية للأذنين . أما الدرع المعدني أو البرونزي الذي يقي الجسم، فكان مصنوعاً من النسيج المعدني ويعرف باسم gurpisum .

ومن الصناعات العسكرية المهمة التي سبقت الاشارة اليها أنواعاً مختلفة من الفؤوس البرونزية يزن البعض منها ٦٥٠ غراماً ربما يمثل النصل فقط دون العصا الخشبية كما أمدتنا النصوص المسمارية ببعض التفاصيل بخصوص حملة الفؤوس لا سيما صنف البائيروم ba'irum . ومن الأسلحة العسكرية المعروفة منذ العصور القديمة في العراق وبلاد اشور، الشباك، هذا فضلاً عن الأسلحة الخفيفة الأخرى التي ربما تسمىٰ بالأسلحة الشخصية، كالخناجر والسيوف القصيرة والصولجانات وغيرها .

وعلى ضوء القرائن الأثرية والنصوص المسمارية نستطيع التعرف على أنواع عديدة من العربات narKabâtu الخفيفة وعجلات النقل التي تستخدم لنقل الأسلحة والمؤن والأسلحة الثقيلة وتعرف باسم narKäbätusaşêri أو şumbu . وكانت تجر تلك المركبات إما الثيران أو حمر الاخذر أو الحمير التي تشد إلى بعضها بواسطة النير nîrû . ومن الجدير التنوية عن عدم ركوب الجند في مثل هذه العربات . ولم تستخدم العربات للقتال المباشر أو الاشتباك السريع والقريب إلا بعد زمن طويل وبالتحديد بعد منتصف الألف الثاني ق . م . حيث ادخلت من

٧ ـ ربما تمثل هذه الاشارة اقدم مصدر على تقنين اوزان معينة من الفضة واستخدامها على شكل عملة أو « نقـد » .

٨ ـ ومنها ما يعـرف باسم labku أو labik أي « غير جيـد » أو ما يعـرف باسم la damqu « غير قوي » .

قبـل الحثيين والكشيين والخوريين كأحد أساليبهم المتطورة التي استـطاعـوا بواسـطتهـا غزو البلاد واجتياحها ولكن سرعان ما اكتسب الاشـوريون الفكـرة وطـوروهـا وبـرعـوا في صنـاعتها واستخدامها سوقياً وتعبوياً وبخاصة في عهد الانبراطورية الحديثة[٩] .

وتشـير النصـوص المسمارية الأشورية إلى تبادل التقارير بين القصر الملكي والجيش الذي يقوم بواجباته على مختلف الجبهات، فسعاة البريد والمبعوثين أو الرسل الذين يحملون آخر الأخبار كانوا في حركة دائمة بين العاصمة والجبهات . ومن الطريف ذكره وجود بعض الرسائل التي تشير إلى القبض على بعض السعاة للاستفادة منهم في مسائل تتعلق بالاستخبارات آنذاك ومن الأحداث المدونة في هذا الصدد والتي جاءتنا من مدينة كرانا، القبض على أحد السعاة والاستيلاء على أربع رسائل كانت مبعوثة إلى شوشه في عيلام، وجاء بتلك الرسالة : «جلبوا لنا أربعة رقم تعود لحاكم شوشه في عيلام . . . فتحت تلك الرقم . . . ولكن لا توجد فيها أخبار . . .» .

ومن الأساليب السوقية الأخرىٰ، استخدام الجواسيس أو كما تسميهم النصـوص «الـرجـال الملونـين» أو العيون الـذين ربما استخدموا كأدلاء أو خبراء ومرشدين . ولقد حذر الملك الأشوري شمشي ـ ادد ابنه من استخدام مثل أولئك الثرثارين[١٠]، وكان الأشوريون يستخدمون مثل هؤلاء الرجال عندما يخططون لهجوم مفاجيء في أرض غير معروفة من قبلهم أو عندما يقومون باعداد الكـمائن للأعداء. وهناك رسالة تشير إلى استخدامهم في أحد الكمائن جاء فيها : «عندما ذهبت قوة كبيرة في أحد الكمائن ضد حملة العـدو، لم يستـطيعوا إيجاد مكان مناسب للانتظار ولذلك عادت القوة المكلفة من غير تحقيق أي نجاح . ولم تستطع التحري عن حركة العدو ولم تهاجمه . الآن . ذهبت قوة صغيرة وتحرشت بحملة الأعداء، دعهم يأخذون معهم الجواسيس»[١١] .

لقـد كانت الكـمائن من الأعـمال السـوقية الشـائعـة لدىٰ الأشوريين لمناسبتها لخدمة العديد من الأغراض العسكرية تمثل الهجـوم على القـوافـل التجارية التي تزيد من الغنائم المختلفة والقبض على الحيوانـات الحية وذبحهـا لتزويد الجيش بالطعام الطازج . . ولتلافي مثل تلك الكمائن والأساليب فكان الأشوريون يعـمـــدون إلى ارســال قوىٰ استــطلاع أمــام مســير الحملة العسكرية . . وهناك العديد من الوثائق المسمارية التي تشير إلى الهجـوم على بعض التجمعات البدوية للحصول على الأغنام . وهنـاك أيضـاً اشارة طريفة عن تجريد رجال الأعداء حتى من ملابسهم ربـما لاستخـدامهـا والاختفـاء بين السكان المحليين لتقصي أخبارهم أو لاستعمالها لملابس بديلة عن ملابسهم التي كانت على أجسادهم منذ مدة طويلة وتحفل المرئيات بمشاهد قد تشـير إلى مثل هذه الأساليب ونخص بالذكر منها المرئيات التي خلفها لنا الملك اشور ناصر بال الثاني والملك سنحاريب والملك اشور بانيبال وغيرهم[١٢] .

بعض الأساليب التعبوية :

لعل من أهم فنون القتال والأساليب التعبوية خاصة، حصار المدن . الذي تطور خلال العصر الأشوري القديم وفي منطقة أشور بالذات . ودلت المخلفات الأثرية والنصوص المسمارية على أن المـدن والقـرىٰ الاشورية كانت محصنة بشكل جيد، فلكل مدينة سوران، سور خارجي والسور الداخلي يفصلان بخندق قد يملىء بالماء . وهناك البوابات abullātî الكبيرة المدعمة بالأبراج عند كل مدخل من مداخل المدينة . هذا فضلاً عن وجود القصور المحصنة التي غالباً ما تقع وسط المدينة . ولذلك فان الحصار قد يعني أيام أو أشهر أو حتى سنين . والذي يريد حصار مدينة ما كان عليه توفير العديد من صنوف الجيش والعدة المتنوعة . ومن أهم العـدد الـلازمـة أبـراج الحصار والسلالم الطول والأكباش المدرعة ذات الصرير الذي يشبهه الاشوريون «بخوار الثور» التي ترهب العـدو وتسـاعـد على هدم الجـدران التي غالباً ما كانت معمـولة من كتل اللبن الضخمة هذا فضلاً عن الحبال وآلات الصدم والجرف .

ونقرأ في أحد الرسائل : «كتب لي سيدي . بخصوص ارسال

---

٩ ـ للاستزادة ينظر بحثنا في الجيش والسلاح ، مجموعة من الباحثين العراقيين ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٧ ، الجزء الثاني .

١٠ ـ J.M. Sasson, The Military Establishment at Mari, Rome, 1989, PP. 39BB.

ويعرفون باسم ana / sa lisanim

١١ ـ Stephanie Dalley, Op. Cit., P. 150.

١٢ ـ ينظر بهذا الخصوص كتاب الاستاذ ساكز :

H.W.F. Saggs, The Might that was Assyria, London, 1984, PP. 243–268.

الحبال إلى ماري لأجل لفها حول أبراج وأكباش الحصار.» ويرد في رسالة اخرىٰ من مدينة ماري نفسها ما يشير إلى وجود مركزاً لصناعة الأكباش والسلالم الطويلة اللازمة للحصار[١٣]. وكان على الجيش الذي يضرب طوق الحصار على مدينة ما، ان ينشر الجند حول المدينة المحاصرة لرصد تحركات العدو أو محاولته لارسال المبعوثين للنجدات، كما كان الجيش يعمد إلى اسلوب تعبوي ناجح، وهو ارباك العدو المحاصر بواسطة قذف النيران إلى داخل المدينة واضرام الحرائق في بعض مرافقها العمارية، وقد يساعدهم على ذلك السقوف الخشبية أو المعمولة بالحصران.

ولدينا بعض الرسائل التي تخبرنا تفاض اشمي ـ داكان بضربة الحصار على بعض المدن وتدميرها حيث كتب إلى أخيه سمخ ـ ادد قائلاً: «عندما استوليت على مدن تاروم وخاتكا وشونخوم، توجهت إلى خورارا وحاصرت المدينة ثم وجهت عليها برجاً أو كبشاً لدكها. وفي غضون سبعة أيام استوليت على المدينة..» وفي رسالة اخرىٰ قال الأمير: «حالما وصلت مدينة قيردافات، نصبت برج الحصار وهدمت سورها بواسطة حفر الأنفاق في السور، وفي غضون ثمانية أيام استوليت على مدينة قيردانات...».

ان دراسة النصوص المسمارية ذات العلاقة باساليب القتال التعبوية تشير إلى أن الحصار هو الوسيلة الناجحة لاحراز النصر ضد الأعداء.. وللأسف لا توجد لدينا تفاصيل عن حركة الجيش في الميدان، لكننا نمتلك اشارات غزيرة عن حصار المدن والمفاوضات التي تجري بين الجيش المحاصر والمحاصرين... وعلى أية حال، غالباً ما كان ينتهي الحصار بتدمير اسوار المدن واسر اسيادها وبخاصة حكامها وتدمير ممتلكاتهم وأخذ الغنائم منهم. وتشير النصوص المسمارية بهذا الخصوص إلى تحويل المدن المحاصرة إلى «تلال من الأنقاض»[١٤].

ومن الأساليب التعبوية الأخرىٰ، كشف الطالع قبل الدخول بالمعركة أو الالتحام أو الأشتباك مع الأعداء. وكان الغرض من ذلك رفع الروح المعنوية لدىٰ الجند وحثهم على القتال ونيل النصر الذي لا بد منه في حالة العزم على ملاقاة الأعداء. أما في حالة عدم التأكد من النصر ولتلافي الاشتباك أو تأجيله لحين، فعندئذ تعد كشوفات للطالع مناسبة لمثل هذا الغرض. وهكذا نجد على رأس الجيوش الاشورية عدد من العرافة طالما ذكر أسماؤهم من قبل الملوك الاشوريين. ومن الجدير بالذكر، بخصوص أهمية الكهنة العرافة أن أحدهم وهو المدعو اقبا ـ خمّو Aqba-hammu استولىٰ على عرش كرانا.

جرت العادة أن يشتبك الجيشان عن قرب وبكل ما أتوا من قوة بشرية ومعدات. ولكن هناك بعض الاشارات القليلة التي ربما تشير إلى تلافي مثل هذا الاشتباك بواسطة أجراء نزال على شكل مبارزة فردية تجري بين قائدين أو حاكمين.. وجاءتنا مثل هذه الاشارة عبر نص فأل خاص بالتنبوء. وإذا ما صح ذلك فان اسلوباً تعبوياً آخر عرف في عصور لاحقة من التأريخ القديم والتأريخ العربي الاسلامي قد استخدمه قبل غيرهم.

واضطلع الاشوريون باساليب تعبوية اخرىٰ ربما كانت جذورها تعود إلى أجدادهم من الاكديين أو حتىٰ قبل ذلك، ونقصد في هذا المجال عقد المعاهدات بينهم وبين الحكام في الدول والبلاد الاخرىٰ. وهناك رسالة من شمشي ـ ادد إلى ابنه في ماري يخبره فيها عن ضرورة تعديل أحد بنود المعاهدة[١٥] التي ستبرم بينه وبين مملكة اشنونا. والتي سمح بموجبها مرور جيش كل واحد منهم في حدود الآخر. كما نصت على حق كل واحد منها بالتحالف سوياً لضرب الأعداء أو العدو المشترك هذا فضلاً عن الاشارة إلى كيفية توزيع الغنائم فيما بينها[١٦].

الخدمـــات:

لا شك أن العديد من الملوك قد يبالغ في تعداد جيشه أو كثرة معداته الحربية. ولكن الاشوريين غالباً ما عمدوا إلى عدم ذكر عدد جيوشهم أو نوع أو عدد معداتهم لأغراض تعبوية وسوقية، تحسباً لما قد يفيد العدو في هذا المجال. وعلى أية حال يمكن حصر العدد الصحيح من خلال سير الأحداث العسكرية فالملك سنحاريب، على سبيل المثال قتل في معركة واحدة ـ وهي المعركة

---

١٣ ـ H.W.F. Saggs, Op. Cit, Stephanie Dalley, Op. Cit.

١٤ ـ انظر: Stephanie Dalley, ap. Cit.

انظر كذلك: N. Stillman and N. Tallis, **Armies of The Ancient Near East**, A Wargames Research Group Publication, 1984.

١٥ ـ انظر المصدرين السابقين و: Sasson, Op. CCit. and Saggs, Op. Cit.

١٦ ـ انظر: بحثنا في الجيش والسلاح، الجزء الثاني، انظر كذلك: Stephanie Dalley, ap. cit., pp. 140—141.

المعروفة باسم خالولي ـ من العيلاميين ١٥٠ ألف رجل وهذا يعني أن جيشه يمكن أن يكون ضعف هذا العدد أو يزيد .

ولعل أكبر الارقام التي اعطيت خلال فترة العصر الاشوري القديم هو ٦٠٫٠٠٠ رجل كما أخبرنا بذلك الملك شمشي ـ ادد الذي يقول في كتابة أخرى أن ٢٠٫٠٠٠ رجل يشكلون جيشاً قوياً. وهناك اشارات عن جمع قوة تعدادها ستة آلاف مقاتل أو أربعة آلاف مقاتل أو ألفي مقاتل من بعض المقاطعات. وإذا ما عرفنا أن لدى الدولة الاشورية آنذاك عشرات المقاطعات فان العدد المشار اليه من قبل ملوكهم ليس بالكثير.

وفي عهد الامبراطورية الحديثة وصل العدد إلى مئات الالوف فشلمنصر الثالث ١٢٠٫٠٠٠ ألف مقاتل. وورد ذكر لتجهيز الجيش الاشوري بـ ١٥٠٠ فارس و ٢٠٫٠٠٠ من حملة القسي رماة النبال من قبل حاكم مقاطعة واحدة. هذا فضلاً عن الثكنات الدائمة التي تعرف باسم **ekal masarti** أي قصر السلاح أو بيت التدريب الذي تشير النصوص المسمارية إلى وجود مثله في نينوى ودور شروكين وكالغو وغيرها .

أما الرسائل والوثائق الادارية الاخرى فغالباً ما تشير إلى قوات تعدادها أقل من ذلك، ومثال ذلك ارسال حورابي إلى مدينة كرانا ١٫٠٠٠ رجل وهناك اشارات لمثل هذا العدد كقوة مرسلة من حليف أو ذاهبة لملاقاة عدو وهذا يدل على وجود قوة عسكرية تعدادها ألف رجل، قد تكون بمثابة اللواء في وقتنا الحاضر. أما أصغر الأعداد التي يشار اليها وهي قوة عشر رجال يقودهم ربما آمر حظيرة يمكن مقارنته في وقتنا الحاضر بضابط الصف.

وبخصوص تعبية الرجال فلقد كانت تتم بعد إجراء «التعداد العام» الذي يعرف بالاكدية باسم **tebibtum** والتي ربما تكون اصل كلمة تعبية العربية. وعلى أية حال فهناك من يعتقد أن الكلمة ذات مدلول ديني تخص التطهير أو ربما تخص احتفالاً ذات صبغة دينية لتعبية الرجال للقتال ضد الأعداء. وهناك رسائل تشير إلى صعوبة تعبية الجند في بعض الأماكن[١٧].

وعندما حاول أحد حكام منطقة أواسط الفرات إجراء التعداد رفض أهل التجمع من أجل تجنيدهم. فاقترح الحاكم أو الشيخ **(Sugägum)** على الملك الآتي : «إذا وافق سيدي، ليخرج أحد المجرمين من السجن ويعدم بقطع رأسه والتجوال به في المدينة. كي يخاف الرجال، وعندها سيجتمعون بسرعة . . ». وكان يعنى بأمر المتخلفين والهاربين رجال يدعون **bazahatum** . والذين يقبض عليهم كان يدفع بهم إلى الأشغال الخاصة بالقصر أو الدولة للعمل هناك إلى أن تتم مدة سجنهم. «والعدو في هذه السنة قد يكون صديقاً في السنة القادمة». على حد قولهم .

ويبقى لطبيعة الحال هناك تجنيد الشرائح الاخرى من المجتمع كالكهنة وحتى الكاهنات. فالقسم الأعظم منهم يجندون حملة للرايات الخاصة بالآلهة ـ آخرون يعنون بالعرافة وكشف الطالع أو التنبوء أو رفع معنويات الجند. وغالباً ما كان الكهنة يسيرون مع الجيش في الحملات، أما الكاهنات فكن يذهبن للعمل بالاشغال وبخاصة أشغال النسيج وعمل الألبسة أو يدربن على الغناء لاستقبال المنتصرين عند عودتهم أو لرفع الروح المعنوية لأهالي الجند[١٨].

ومجمل القول أن الاشوريين يستطيعون تجهيز جيش قوامه مئات الالوف من الرجال آخذين بنظر الاعتبار دوماً عاملين اساسيين؛ مسألة تدريب وتنظيم مثل هذا العدد الكبير.

لذا فقد كان الجيش الاشوري قوة ضاربة ذات تنظيم محكم واعداد جيد وفيه العديد من الصنوف. وبشكل يقسم الجيش الاشوري إلى :ـ

١ ـ الجيش الدائم وهو نواة الجيش وقوته الفاعلة.
٢ ـ المجندون من المقاطعات.
٣ ـ الحاميات الدائمة على الثغور.
٤ ـ المجندون من الحلفاء.

أما الصنوف فأهمها : ـ

١ ـ قوة حماية الملك **saqurbüte** أو «المقربون».
٢ ـ الرجال الأشداء **amëlüti rabûti** .
٣ ـ القيادة العامة **(musar Kisu)** .
٤ ـ المشاة **sa sëpë** .
٥ ـ المراسلون **Kalläpu** الذين يعنون بالبريد أو الذين يشرفون على الأعمال المتميزة[١٩].

---

١٧ ـ Stephanie Dalley, Op. Cit., P. 142.
Sasson, Op. Cit., P. 7 f.

١٨ ـ Stephanie Dalley, Op. Cit., PP. 147 ff.

١٩ ـ حول بعض الصنوف انظر :
J.N. Pastgate and Dalley, The Tablets from fort shalmaneser, London, 1984, PP. 27–47.

٦ ـ حملة القسي رماة النبال .
٧ ـ حملة المقاليع رماة الأحجار .
٨ ـ حملة السيوف .
٩ ـ صنف الفعلة «الهندسة» .
١٠ ـ صنف العربات بأنواعها .
١١ ـ رجال الدين .
١٢ ـ الادارة والتموين .
١٣ ـ المتخصصون بالابراج والاكباش والفعلة الملازمون لهم والعاملون على إنشاء القناطر والجسور والطوافات لعبور الأنهار والجداول العريضة والمعنيون بتسليك الطرق الوعرة .
١٤ ـ الخيالة والعاملون على حمايتهم .
١٥ ـ العيون «الاستخبارات»[٢٠] .

الآلهـــة والحـــرب :

إن معظم الحروب الاشورية ارتبطت بالآلهة شأنها في ذلك شأن النواحي الأخرى من الحياة وشأن المناطق الاخرى من بلاد وادي الرافدين . فالحرب يقودها الاله الرئيسي للبلاد .

وكان الغزو يعزى لخطيئة ارتكبت من قبل أهل البلاد الذين حلت عليهم الويلات . أو لغضب الاله عليهم ولذلك انزل بهم العقاب . وعلى أية حال فالاله دائماً منتصر وتحمل اليه أو بعبارة أدق إلى معبده الغنائم والاسلاب التي قد يحول البعض منها إلى الشعب الموالي له . ونقرأ في أحد النصوص المسمارية من مدينة ماري : «آه يا زمـريلم، أمتهم انـك سوف لن تتخلىٰ عني . وسأحـول فوقـك (في المعركة)[٢١] وامنحك القوة للقبض على أعدائك» . وهناك رسالة أخرى موجهة من إحدى الكاهنات في أحـد معـابـد مدينة كرانا تطلب فيها تنفيذ وعد الأمير المنتصر بارسال امة كهدية إلى معبد الاله الذي نصره في المعركة[٢٢] .

ومن الشائع لدى ملوك اشور كتابة رسائل إلى الاله وبخاصة اذا ما شعروا بأن أحد الآلهة غاضب عليهم أو متحول عنهم . وهـذا ما أقدم عليه الملك شمشي ـ ادد وابناؤه واستمرت هذه العـادة إلى آخـر أيام الامـبراطـورية الاشـورية الحديثة وأشهر الرسائل بهذا الخصوص هي رسالة الملك سرجون ورسالة الملك اشور بانيبال .

وفي نهاية هذه الالمـامة السريعة للتصنيع والفكر العسكري الاشوري نقول : لقد كان المجتمع العراقي القديم مجتمعاً دينياً ملتزماً بالشعائر والطقوس التي كانت الجزء الأساسي في حياته . لذا فهي (أي الطقوس والشعائر أو بعبارة أدق الايمان) قد تكشف وتسجـل سلوك المجتمعات القديمة بدقة ولا سيما عندما كانت الطقوس والشعائر ترتبط بالانشطة والفعل الانساني الواقعي .

واعتمد العراقيون القدماء الفكر والأدب على هذا الأساس، فالانشطة الانسانية المختلفة والمتصلة بالمجتمع والحياة الاقتصادية والسياسية أو ذات العلاقة بالسلم والحرب، انشطة طالما ارتبطت بالعقيدة من طقـوس وشعـائر دينية . ان الآلهة هي التي قدرتها ونفذتها منذ البداية . أما بالنسبة للبشر فعليهم العمل على تحقيق الصـالـح والجيد من فعـل الآلهـة . لأن عمل الخير والمبتكرات الحضارية والتطور وكل النعم هبة من الآلهة للانسانية .

ووفق هذا التصـور كتب شاعـرنا العراقي كابتي ـ ايلاني ـ مردوخ ملحمـة الاله البطل المحارب إيرا . التي ورد بضمنها ما يشير إلى ما ذهبنا اليه حيث نقرأ : «غيرت من الوهيتك لتصبح مثل البشر» **i-lu-ut-ka, tu-sá-an-ni-ma tam-ta-sal** . التي كانت رداً مكمـــلاً للفعـل العسكري الذي اضطلع به سكنة بـــلاد وادي الرافدين لا سيمـــا الاشوريون ضد تحديـات قبائل يار سو الفارسية الحاقدة .

تبـدأ الملحمـة بمقدمة يوضح لنا فيها الكاتب سمة الحربية للاله البطل المحارب الاله إيرا المتقاعس! الخامل! وكيف حُث على القتال من قبل حاجبه الاله ايشوم واداته الآلهة السبعة العظام والآتي ابيات من هذه الملحمة التي تجسد ارتباط الفنان بالاحداث الساخنة في البلاد ذلك الارتباط الذي انتج الروائع :

الآلهة السبعة تحث الاله إيرا للقتال :

٤٥ ـ اللوح الأول
انهم غاضبون، سيشرعون اسلحتهم

٢٠ ـ ينظر الجيش والسلاح ، وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٨٧ ، الجزءان الأول والثاني

٢١ ـ هناك العديد من مشاهد المرئيات الاشورية التي ترينا الاله آشور حائماً فوق رؤوس الملوك وهم في المعركة

٢٢ ـ Stephanie Dalley, Op. Cit. P. 137.

قالوا إلى إيراً انهض ! إلى العمل !
لماذا بقيت بالمدينة كالرجل العجوز ؟
لماذا تتسكع بالبيت كالطفل الضعيف ؟
مثل أولئك الذين يذهبون إلى سوح الوغى ، اعلينا اكل خبز النساء ؟
ماذا . . . انحن خائفون مرتجفون كمن لا يعرف أساليب القتال ؟
الذهاب إلى سوح الوغى عرس الشباب : انه كالعيد.
وحتى لو كان الاله إيرا، فالباقي بالمدينة لن يملأ بطنه الطعام!
سيحتقر من قبل شعبه ، ويستخف به .
كيف يمكن أن يمدّ يده لمن يذهب إلى سوح الوغى !
قد تكون قوة ذلك المتسكع بالمدينة عظيمة .
ولكن أيمكنه أن يكون أقوى من المقاتل ؟
خبز المدينة ، على الرغم من وفرته ، لا يمكن أن يقارن بارغفةٍ خبزت على جمر (المعركة)
ان جعة ـ نشبو الحلوة لا يمكن أن تقارن (بشرية) ماء من القربة .
والقصر القائم على مصطبة لا يمكن مقارنته بخص الراعي .
أيها البطل إيرا ، خذ الميدان ، لتسمع قعقعة سلاحك من جديد !
اصرخ بصوتٍ عالٍ ليرتجف منها كان في الاعلى أو فوق ومن كان في الاسفل أو تحت!
فلتسمع صرختك الايكيكي لتمجد اسمك .
ولتسمع صرختك الانوناكي وتخاف اسمك .
ولتسمعها الالهة وتركع امام عرشك .
وليسمعها الملوك وينحون أرضاً تحتك
ولتسمعها البلدان ويدفعون الجزية .
وليسمعها الجن كالو ويهربوا من امامك .
وليسمعها الرجل القوي ، ويعض شفته .
ولتسمعها الجبال ، فيضربها الخوف وتهمد قممها .
ولتسمعها البحار المزبدة وتهيج ، ولتخفي منتجاتها .
ومن دغل الاسل لتقلع الجذوع القوية .
ومن منابت القصب الكثيف ليتكسر القصب .
اجعل الرجال يخافون لتخفت اصواتهم .
فلترجف القطعان . ولتعد طيناً من جديد .
فلترى الالهة آباءك ، ولتمجد بطولتك .
أيها البطل إيرا ، لم تركت ساحة الوغى لتبقى في المدينة ؟
ان قطعان شاكان والحيوانات البرية ستوصمنا بالحقارة .
نحن نتحدث معك ، أيها البطل إيرا ، لتكن كلماتنا غير جارحة لك !
وقبل ان تغلبنا كل البلاد .
ومن المؤكد ستعيرنا اذناً لسماع كلماتنا[٢٣] .

وهكذا تمضي القصيدة الملحمية هذه إلى أن يبدأ الاله البطل المحارب إيرا بمجد شجاعته ويصمم على عقاب المعتدين الذين اوغلوا في غيهم فيصب عليهم عذاباً أليماً لا مثيل له .

٢٣ ـ يعكف الكاتب على ترجمة هذا النص الملحمي حيث شخص أحد الالواح التي عثر عليها في تل حداد منطقة حمرين وسيظهر عمله قريباً إنشاء الله .

دراســـة
عن الدمىٰ الفخارية النسوية من تل أسود

أحمــد مالك الفتيــان
كلية الآداب/ جامعة بغـداد

يجمع المختصون في اصول الحضارات على أن حضارة الوطن العربي هي أقدم حضارات العالم القديم، وانها حضارة أصيلة[١] وذات تطور دائم وقد أخذت أبعادها المعروفة لدينا في بلاد وادي الرافدين وبلاد وادي النيل[٢].

فابتكرت في بلاد وادي الرافدين عناصر حضارية كثيرة ومتميزة سادت البلاد ومن ثم انتشرت لتعم أقطار الشرق القديم ومنها إلى بقية أنحاء العالم المعروف آنذاك. وبعد الدراسات المستفيضة التي قام بها المعنيون بالآثار والتاريخ القديم استطاع الباحثون من تشخيص تلك العناصر الحضارية العراقية وقدموا الدراسات والبحوث المفصلة والمستفيضة التي تبين أثر حضارة وادي الرافدين على الأقوام والبلدان الدانية والقاصية[٣].

ولعل أبرز العناصر الحضارية التي يمكن التعرف على أصولها العراقية القديمة الفن بمختلف جوانبه وفروعه ومن المسلم به أن صناعة الفخار نشأت وتطورت في بلاد وادي الرافدين منذ فجر الحضارة وانتشرت لتعم العديد من بلدان العالم القديم فوصلت التأثيرات الفنية العراقية هذه إلى أوروبا عبر بلاد الأنضول وبحر ايجة وكذلك عن طريق سوريا بواسطة البحر المتوسط، كما انتشرت وأثرت بشكل جلي في بلاد ايران لا سيما لدى الأقوام المتاخمة لحدودنا الشرقية وعبر هذه البلاد وعبر الخليج العربي انتشرت تلك العناصر لتصل إلى بلاد وادي السند[٤].

ومن المعروف لدينا ان الانسان العراقي القديم قام بصنع الدمىٰ والتماثيل التي تمثل الآلهة التي تتحكم في حياة البشر منذ أن عرف الانسان الاستقرار فنحت ونقش لها أشكالاً مماثلة لهيئته وبذلك ربما عبر عن المقولة المشهورة «ان الانسان صنع الآلهة، ذكوراً وإناثاً، مشابهة له»[٥].

ولأجل التعرف على تلك الآلهة نحتاج أولاً إلى معرفة بعض الشيء عن دور الجنسين في بلاد وادي الرافدين، إلاّ أننا نفتقر إلى الأعمال الخاصة بذلك. ولذلك سنعطي بعض الاشارات التي يمكن أن تكون دليل عمل للخوض في مثل هذا الموضوع.

والظاهر ان النساء. بشكل عام، كن يعشن في البيت لتربية الأطفال وادارة شؤون المنزل وكانت رئاسة الاسرة بيد الرجل، مع ندرة سمو بعض النساء أو اعتلائهن المناصب العليا. ومن ذلك اعتلاء الكاهنات المناصب العليا في المعابد[٦]. وعلى أية حال يبدو أن الرجال هم الذين يختاروهن لمثل هذه المناصب، إلا أن المصادر والمباحث التاريخية تشير إلى اعتلائهن مناصب الملوكية[٧] في بلاد وادي الرافدين منذ الفترات المبكرة في التاريخ. وخلاصة القول أن دور النساء كان متبايناً في مختلف العصور.

ولأجل ولادة الآلهة والبشر يجب أن يكون هناك عنصراً انثوياً ولدى السومريين آلهة لهذا الغرض عرفت لدى المتخصصين باسم

---

١ ـ حول مفهوم الحضارات الأصيلة، أنظر: طه باقر، المقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، جـ١، بغداد، ١٩٧٣.
٢ ـ فاروق ناصر الراوي، الوطن العربي في العصور القديمة: عناصر حضارية مشتركة، دراسات في التاريخ والآثار، العدد الثالث، ١٩٨٧، ص ١٣٢ وما يتبع.
٣ ـ طه باقر، لمحات من تراث وادي الرافدين في الحضارة اليونانية، مجلة بين النهرين، ٢٩، ١٩٨٠، ص ٥، وما يتبع.
٤ ـ فاروق ناصر الراوي، الوطن العربي في العصور القديمة، الأرض والناس، بغداد، ١٩٨٨ (دراسة خاصة).
٥ ـ W. G. Lambert, "Goaldesses in The Pamtheon: A Reflection of Women in Society?", ERC, Paris, 1987, p. 135.
٦ ـ ثلما عقراوي، المرأة دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين، رسالة ماجستير، قسم الآثار، بغداد ١٩٧٥.
٧ ـ نخبة من الباحثين العراقيين، العـــراق في التاريخ، وزارة الاعلام، بغـداد، ١٩٨٣.

«الآلهة الأم» وتمثلت هذه الآلهة بالقصص الاسطورية بكونها الأرض، فامنا الأرض هي التي أنتجت النباتات والحيوانات . . . الـخ. ومن بين الآلهات السومريات الآلهة نيسابا Nisaba آلهة الحبـوب والكتابة. كما توجد آلهة أخرى مشهورة ومعروفة وهي الآلهة ايننا (عشتار)[٨]، سيدة السماء، والتي عرفت لدى اليونان القدماء (الاغريق) فينوس[٩].

وعلى الرغم من وجود آلهات أخريات عديدات لدى العراقيين القدماء، إلا أن هذه الآلهة عشتار اكتسبت شهرة أكثر من غيرها وتواصل ذكرها من قبل العراقيين القدماء وشاع صيتها وانتشرت عبادتها بأسماء مختلفة لدى أقوام العالم القديم الدانية والقاصية عن بلاد وادي الرافدين.

ومما تقدم يمكن التأكيد على أهمية دراسة الدمىٰ النسوية التي سبق وأن تناولنا بعض الـدمىٰ الكاملة منها في بحوث سابقة لنا[١٠]. والتي يمكن أن تعبر عن بعض جوانب الحضارة العراقية في عصر الاحتلال الفرثي كما يمكن أن تؤكد التأثير الحضاري لمثل هذه الصناعات التي بدأت في بلاد وادي الرافدين قبل عصر الاحتـلال الفـرثي بآلاف السنين، ولقد قدم الباحثون في هذه الفترة بحوثاً مستفيضة عن هذه الصناعة وأكدوا على انتقال هذه الصنعة إلى الأقـوام الاخرى من اخمينيين واغريق وفرثيين وغيرهم . .

وربما تمثل بقايا الدمى النسوية، موضوعنا هذا، إسهاماً يؤكد ما ذهبنا اليه باستمرار تمثيل مكانة العنصر النسوي في العبادات العراقية القديمة وانتقالها إلى الأقوام الاخرى كما تجدر الاشارة إلى تنوع أشكال الآلهة باختلاف الأقوام التي عبدتها وتباين صفاتها العامة ودقائق خواصها.

ويجب أن لا يفوتنا في هذا المجال أيضاً أن نؤكد على التباين الموجود في الفن الفرثي الذي تمثل بالاساليب التالية :

١ ـ الاسلوب المتـوارث الـذي اكتسبـه الغـزاة الفـرثيون عن العراقيين القدماء.
٢ ـ الاسلوب المتأثر بفنون الاغريق.
٣ ـ اسلوبهم الفني البدائي والساذج[١٢].

إن القـطع الفنية الآتية تمثل جانباً من جوانب ما ذهبنا اليه بخصوص الآلهة الانثوية أو ربما انعكاس ذلك على المجتمع أي الاهتمام ببيان دور المرأة في المجتمع العراقي القديم ابان حكم الغزاة الفرثيين.

والآتي وصف لتلك النماذج التي عثر عليها في تنقيبات قسم الآثار في تل أسود، والتي نقوم بنشرها لأول مرة. . وختاماً لا بد من توجيه الشكر والتقدير إلى رئاسة قسم الآثار للسماح لنا بنشر هذه الدراسة عن بعض المكتشفات الأثرية.

وصف النماذج وشرحها

١٩٧ ت س ٢

راس دمية فخـارية لامرأة ذات تقاطيع دقيقة يظهر فيها الشعر ملفوف على شكل عقال مسرح إلى الخلف

المادة : فخار أحمر

القياس : ٥ر٤سم × ٤سم

المعثـر : الوحدة النبائية ط ٦

١٩٨ ت س ٢

راس دمية فخارية لامرأة ذات تقاطيع يظهر فيها الشعر على شكل طوق مرتب ومرتفع قليلاً

المادة : فخار

القياس : ٤سم × ٣سم

المعثـر : الوحدة النبائية ط ٦

١٩٩ ت س ٢

راس دمية من الفخـار لامرأة شكل الشعر مرتب بشكل ينحدر إلى أسفل الرقبة

المادة : فخار

٨ ـ فاضل عبد الواحد علي، عشتار ومأساة تموز بغداد ١٩٨٨، (طبعة جديدة).
٩ ـ انظر لامبرت، المصدر السابق.
١٠ ـ الكاتب، سبع سنوات في تل أسود بغداد ١٩٧٩، وانظر : كذلك بحثنا الموسوم الفن الفرثي المقارن مجلة كلية الآداب ١٩٧٧.
١١ ـ واثق الصـالحي تمثـالان جديدان للآلهـة افروديت، آفـاق عربيـة، العـدد ١٢ لسنة ١٩٨٥.
١٢ ـ أحمـد مالك وزهير رجب، سبع سنوات في تل أسود، بغـداد سنة ١٩٧٩ ص ١١٦ (مصدر سابق).

القياس : ٤ سم × ٢$\frac{٣}{٤}$ سم
المعشــر : الوحدة النبائية ط ٦

٢٠٠ ت س ٢
راس دمية من الرخام الأبيض الشفاف متزينة بطوق
المادة : حجر الرخام
القياس : ٤ سم × ٣ سم
المعشــر : الوحدة النبائية ط ٦

٢١٣ ت س ٢
راس دمية من الفخار لامرأة يظهر الشعر فيها مصفف على الجانبين وخلفه يظهر قناع أو طاقية
المادة : فخار
القياس : ٥ سم × ٥ر٣ سم
المعشــر : ملتقط من سطح التل

٢١٤ ت س ٢
راس دمية من الفخار لامرأة تضع على رأسها غطاء مزين بنقوش جميلة
المادة : فخار
القياس : ٥ر٦ سم × ٤ سم
المعشــر : ملتقط من سطح التل

٢٣٩ ت س ٣
راس دمية من الفخار ذات تقاطيع دقيقة يظهر الشعر بارز إلى أعلى من الأمام وملفوف ومسرح من الخلف
المادة : فخار
القياس : ٥ سم × ٣ سم
المعشــر : الوحدة الجديدة دفن ط ٦

٢٤٠ ت س ٣
راس دمية لامرأة تظهر التقاطيع بصورة دقيقة وخصوصاً طوق الشعر المظفور
المادة : فخار
القياس : ٥ر٢ سم × ٢ سم
المعشــر : الوحدة الجديدة ط ٦

٢٤١ ت س ٣
راس دمية لامرأة من الفخار تظهر التقاطيع بصورة واضحة وشكل الشعر مرتفع فوق الجبين ويتكور من الخلف بشكل بارز ثم يظهر بتسريح واضح
المادة : فخار
القياس : ٥ر٢ سم × ٣ سم
المعشــر : المعثر السابق

٢٨٥ ت س ٣
دمية من الفخار غير دقيقة الصنع بها بعض السذاجة في العمل مجوفة لونها أسود نتيجة الاحتراق في الفخر لباس الرأس على شكل نصف نجمة
المادة : فخار
القياس : ٥ر٨ سم × ٥ سم
المعشــر : ط ٤

٢٨٦ ت س ٣
دمية من الفخار صناعتها غير دقيقة تظهر طيات الملابس بشكل واضح
المادة : فخار
القياس : ٥ر٨ سم × ٥ سم
المعشــر : ط ٤

٣١٠ ت س ٣
دمية لامـرأة من العـظم محززة بحـزوز بارزة ذات عيون واسعة تضع على رأسها طوقاً دائرياً
المادة : عظم
القياس : ٤ سم × ١$\frac{١}{٤}$ سم
المعشــر : الحفرة ٢

٣٢٠ ت س ٣
رأس دمية من الفخار لامرأة ترتدي غطاءاً على شكل تاج

ذو ثلاثة رؤوس ينحدر من الخلف
المادة : فخار
القياس : ٩ سم × ٤ سم
المعثــر : الطبقة الرابعة

٣٦٦ ت س ٤
رأس دمية من الفخار لامرأة صنع بواسطة القالب تغطي شعرها بغطاء مرتفع وبشكل ثلاثة شعب مع ترتيب الشعر بشكل جديلة حول الجبين
المادة : فخار
القياس : ٦ سم × ٤ سم
المعثــر : الوحدة النبائية السابعة

٣٦٧ ت س ٤
راس دمية من المرمر الأبيض يظهر الوجه باستطالة مع عدم التناسق. الشعر مظفور على شكل دائرة ويظهر على العنق حزوز
المادة : مرمر أبيض
القياس : ٩ سم × ٣ر٤ سم
المعثــر : الشارع الفاصل بين الحارة ٦ والحارة ٧ تحت الطبقة ٣

٥٢٦ ت س ٦
دمية من الفخـار لامـرأة تضع على رأسها غطاءاً مدرجاً ومحززاً على شكل ظفائر ينسدل إلى الخلف
المادة : فخار
القياس : الطول ١ر٦ سم
المعثــر : ط ٣

٥٣٥ ت س ٦
دمية من الرخام الأبيض لامرأة واضحة المعالم جميلة الصنع والشكل والشعر يظهر على شكل ظفيرة دائرية مع اعطاء طول في العنق
المادة : رخام
القياس : ٢ر٩ سم
المعثــر : ط ٤

٥٣٦ ت س ٦
دمية من الحجر لامرأة تظهر العيون بارزة في أسفل الدمية ثقب مجوف
المادة : حجر
القياس : ٨ر٩ سم
المعثــر : الوحدة النبائية ط ٤

٥٣٧ ت س ٦
دمية من الحجر غير واضح المعالم لوجود التهشيم وكذلك المعالجة القديمة لهذه الدمية مما تدل بقايا الجص على الحجر
المادة : حجر
القياس : ٧ر٦ سم
المعثــر : الطبقة الرابعة

٦٢٨ ت س ٧
دمية من الفخار تضع على رأسها غطاءاً مرفوعاً إلى الأعلى على شكل علامة الضرب
المادة : فخار
القياس : ٣ر٤ سم
المعثــر : الوحدة النبائية ط ٤

٦٥١ ت س ٧
دمية من الفخار لامرأة تضع على رأسها غطاءاً يشبه الخوذة الرومانية ويتدلى من تحتها خصائل شعرها
المادة : فخار
القياس : ٢ر٥ سم
المعثــر : الوحدة النبائية رقم ٢

٦٨٩ ت س ٧
دمية من الحجر تمثل امرأة سمجة الصنع تمثل الفن البدائي الفرثي لا تظهر فيها أي مسحة جمالية
المادة : حجر
القياس : ٨ سم الارتفاع ، ٥ر٥ سم العرض
المعثــر : ط ٤

٦٩٩ ت س ٧
دمية من الفخـار لامـرأة جميلة الصنـع تضع على رأسها غطاءاً على شكل طوق نصف دائري ويتدلى منه خصائل شعرها على الجانبين ملفوفاً إلى الخلف
المادة : فخار
القياس : الارتفاع ٦ر٩ سم ، العرض ٢ر٧ سم المعثــر : ط ٤

ب - صور لبعض النماذج
اللوح I

ت س ٣ ٢٤٠



ت س ٣ ٢٤١

ت س ٣ ٢٣٩

تحقيقات واستدراكات على الكتب

تحقيقات واستدراكات واضافات على ما ورد في معجم الانساب لزامباور على ضوء نقود المغرب والأندلس ما بين القرنين ٤ ـ ١٠هـ / ١٠ ـ ١٦م

الدكتور محمد باقر الحسيني
إتحاد المؤرخين العرب

هذا البحث يضم دراسة مركزة (تحقيقات واستدراكات واضافات على ما ورد في معجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور) على ضوء النقود العربية المكتشفة لملوك الطوائف في المغرب والأندلس التي عاشت ما بين القرنين الرابع والعاشر الهجري (١٠ ـ ١٦م) وهم بنو زيري وبنو حماد وبنو حمود والمرابطون والموحدون وبنو هود وبنو حفص وبنو زيان وبنو مرين وبنو نصر وبنو وطاس.

وقد اعتمدت في هذا التحقيق على النقود المنشورة في (الكتالوجات) المحفوظة في المتاحف العالمية، كما إستعنت ببعض المراجع العربية والأجنبية ذات العلاقة بالبحث وقد تكرر ورودها في البحث أذكر رموزها حسب استعمالها :ـ

أولاً : المراجع العربية :

١ ـ **زامباور** ـ أدوارد فون زامباور :ـ معجم الأنساب والأسرات في التاريخ الاسلامي ـ ترجمة الدكتور زكي محمد حسن وزملاءه ـ القاهرة (١٩٥١ ـ ١٩٦٢م).

٢ ـ **عبد الوهاب** ـ حسن حسني عبد الوهاب ـ النقود العربية في تونس ـ البنك المركزي التونسي ـ (تونس /١٩٦٨م).

٣ ـ **عنان** ـ محمد عبد الله عنان ـ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ـ ق٢ ط، الاول (القاهرة /١٩٦٤م).

ثانياً : المراجع الأجنبية :

1 – **MMT :** George C. Miles- Coins of the Spanish Muluk at. Tawa'if (N.Y. 1954).

2 – **HNA :** Harry W. Hazard - The Numismatic History of Late Medieval North Africa (N. Y. 1952).

3 – **La :** Henri Lavoix - Catalogue des Monnaies Musulmanes Bibliothque Vol. III (Paris 1896).

4 – **MU :** Heinrich Nutzel - Katolog Der oriental muzen Vol. II (Berlin 1902).

5 – **L :** Lane - Poole (s) - Catalogue of oriental Coins in British Museum Vol. IV VX (London 1860).

أولاً (أ) بنو زيري
(٣٦٢ ـ ٥٤٣هـ / ٩٧١ ـ ١١٤٨م)
افريقية والمغرب الاوسط ـ الحاضرة القيروان (شمال افريفيا)
عدد حكامهم ثمانية

١ ـ ذكر (زامباور) ص ١٠٩ أن لقب معز بن باريس (٤٠٦ ـ ٤٥٣هـ / ١٠١٥ ـ ١٠٦١م) (شرف الدولة) وذكر (HNA) كنيته (أبو تميم)، لم تردا على نقوده المضروبة في صبرا والمهدية ما بين (٤٣٩ و٤٥٢هـ) انظر (HNA) الأرقام (١ و ٢ و ١٥ ـ ١٧).

ـ ورد على نقود المعز القاب الخليفة الفاطمي معد (الثاني) بن علي (الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين) أو (الامام أبو تميم المستنصر بالله أمير المؤمنين).

ـ ذكر (زامباور) ص ١٠٩ أن المعز بن باديس أستقل بالأمر سنة ٤١٧هـ وكانت نهاية حكمه سنة ٤٥٣هـ. بينما ذكر كل من (HNA) ص ٩٠ و (عبد الوهاب) ص ١٣٣ نهاية حكمه سنة ٤٥٤هـ، رفع المعز شعاره على نقوده (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله) و (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلم يقبل منه) و (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون) و (علي ولي الله).

٢ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١٠٩ نقود لتميم بن المعز (٤٥٣ ـ ٥٠١هـ/ ١٠٦١ ـ ١١٠٧م) ذكر (زامباور) ص ١٠٩ كنية تميم

(أبو الطاهر) بينما أشار (HNA) ص ٩٢ كنيته (أبو يحيى) الأرقام (١٨ ـ ٢٣) لم تردا على نقوده المضروبة بالمهدية وانما ورد لقب الخليفة الفاطمي (انظر نقود والده) وكذلك لقب الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب (علي أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين).

أولاً (ب) بنو زيري بغرناطة الأندلس

(٤٠٣ ـ ٤٨٣هـ / ١٠٣٨ ـ ١٠٧٣م)

عدد الحكام خمسة

١ ـ لم يذكر (زامباور) ص ٨٧، نهاية حكم أسرة بني زيري بغرناطة، وانما اكتفى بذكر فتح غرناطة من قبل الموحدين، وأنا أعتبرت سنة ٤٨٣هـ (وهي سنة حكم تميم بن بلكين) نهاية حكمهم.

٢ ـ لم يذكر (زامباور) ص ٨٧، نقود لباديس بن حبوس (٤٣٠ ـ ٤٦٦هـ/ ١٠٣٨ ـ ١٠٧٣م) ولكنه ذكر لقبه (المظفر الناصر)، لم يرد له لقب أو كنية على ديناره الذهبي المضروب في غرناطة (لم تظهر السنة) بينما ورد عليه لقب ادريس (الثاني) بن يحيى (الامام العالي بالله أمير المؤمنين) أنظر (MMT) رقم ١٣٨.

ثانياً بنو حماد

ميلة/ طبنة/ اشير/ بجاية/ المغرب الأوسط الحاضرة قلعة بني حماد

(٣٩٨ ـ ٥٤٧هـ / ١٠٠٧ ـ ١١٥٢م)

عدد الحكام تسعة

١ ـ لم يذكر (زامباور) نقود لمنصور بن الناصر (٤٨١ ـ ٤٩٨هـ / ١٠٨٨ ـ ١١٠٤م)، ظهر له دينار ذهبي عليه لقب الخليفة علي بن أبي طالب (علي أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين) ولقب الخليفة الفاطمي معد (الثاني) بن علي (الامام) انظر (HNA) ص ٩٥.

٢ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٠ نقود ليحيى بن العزيز (٥١٥ ـ ٥٤٧هـ / ١١٢١ ـ ١١٥٢م) ظهر له دينار ذهبي ضرب في الناصرية سنة ٥٤٣هـ نقش عليه لقبه (يعتصم بحبل الله ـ الأمير المنصور) ولقب وكنية الخليفة العباسي محمد المقتفي لأمر الله (الامام أبو عبد الله المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين العباسي) ولقب والد يحيى (العزيز بالله)وشعار يحيى (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون).

ثالثاً (أ) ملوك الطوائف

بنو حمود بمالقه

(٤٠٧ ـ ٤٤٩هـ / ١٠١٦ ـ ١٠٥٧م)

عدد الحكام تسعة

١ ـ أشار (زامباور) ص ٨٦ بداية حكم علي بن حمود عام (٤٠٧هـ) بينما ورد في (MMT) ص ٣ هذه البداية في (٤٠٠هـ).

ـ وردت على النقود الفضية لعلي بن حمود (٤٠٧ ـ ٤٠٨هـ / ١٠١٦ ـ ١٠١٧م) المضروبة في سبته والأندلس في السنوات ٤٠٧ ـ ٤٠٨هـ القابه (الامام أمير المؤمنين الناصر لدين الله) انظر (MMT) الأرقام (١٥ و ٢٢ و ٣٦) ولقب يحيى بن علي (ولي العهد) على النقود الفضية المضروبة في سنتي (٤٠٥ و ٤٠٦هـ) انظر (الارقام السابقة)، كما ورد له اللقب (ولي العهد) على النقد الفضي المضروب في سبته والألقاب لهشام (الثالث) بن الحكم (الامام ـ أمير المؤمنين) انظر (MMT) الرقمين (١٠ و ١١) وظهر له نقد فضي ضرب في سبته سنة (٤٠٤هـ) أقتصرت القابه للخليفة الأموي في الأندلس سليمان بن الحكم بن سليمان (الامام ـ أمير المؤمنين المستعين بالله) انظر (MMT) الرقم (٩).

٢ ـ ذكر (زامباور) ص ٨٦ لقب القاسم بن حمود (٤٠٨ ـ ٤١٢هـ / ١٠١٧ ـ ١٠٣١م) (المأمون) وما ورد له على نقوده الفضية المضروبة في سبته والأندلس ما بين عامي (٤٠٨ و ٤١٠هـ) الألقاب (الأمام ـ المأمون أمير المؤمنين) واللقب (ولي العهد) لأبن أخيه يحيى بن علي. أنظر (MMT) الأرقام (٣٨ ـ ٣٩ و ٤٩ و ٥٩ و ٦٠).

ـ ذكر (زامباور) ص ٨٦ أن القاسم بن حمود حكم مرتين الأولى (٤٠٨ ـ ٤١٢هـ / ٤١٣ ـ ٤١٦هـ) بينما ذكر (MMT) ص ١٩ أنه حكم مرة واحدة ما بين (٤٠٨ و ٤١٤هـ).

٣ ـ ذكر (زامباور) ص ٨٦ لقب يحيى بن علي (٤١٢ ـ ٤٢٧هـ / ١٠٣١ ـ ١٠٣٥م) (المعتلي بالله) بينما وردت له على نقوده الفضية والذهبية المضروبة في سبته ما بين ٤١٤ و ٤٢٦هـ (الامام ـ المعتلي بالله أمير المؤمنين) كما ورد عليها (ولي العهد) لولده ادريس (الأول) انظر : (MMT) الأرقام (٧١ ـ ٧٢ و٧٣ و٧٥

و٧٨ و٨٠ و٨٣ و٨٥ و٨٨ و٩٢ - ٩٤).

- ذكر (زامباور) ص ٨٦ أن يحيى بن علي حكم مرتين الأولى (٤١٢ - ٤١٣هـ) والثانية (٤١٦ - ٤٢٧هـ) بينما أشار (MMT) ص١٩ أنه حكم مرة واحدة ما بين (٤١٣ و ٤٢٧هـ).

٤ - ذكر (زامباور) ص ٨٦ لقب ادريس (الثاني) بن يحيى (٤٣٤ - ٤٣٨هـ / ١٠٤٢ - ١٠٤٦م) (العالي بالله) بينما وردت له الألقاب على نقوده الفضية والنحاسية المضروبة في سبته والاندلس وغرناطة (الامام - العالي بالله أمير المؤمنين) ولقب (ولي العهد) أو (الأمير) لابنه محمد (الأول) انظر : (MMT) الأرقام (٩٥ - ٩٦ و٣٨ و١٣٣) وانظر (ل حـ٢) الرقمين (١٤٠ - ١٤٢) و (HNA) الأرقام (٨٧٢ - ٨٧٤).

- كما ورد لأدريس (الثاني) نقداً فضياً ضرب بمالقه ضرب في عام ٤٤٦هـ وعليه القابه (الامام - العالي بالله الظافر بالله أمير المؤمنين) ولقب (ولي العهد) ابنه محمد (الأول) انظر : (ل حـ٢) رقم (١٤١).

- ونقداً فضياً آخر ضرب بالاندلس عام ٤٤٥هـ وعليه القابه (الامام - العالي بالله الظافر بالله أمير المؤمنين) ولقب (وليس العهد) لابنه محمد (الأول) انظر (MMT) الرقم (١٣٤).

- ذكر (زامباور) ص ٨٦ أن ادريس (الثاني) حكم مرتين الأولى (٤٣٤ - ٤٣٨هـ) والثانية (٤٤٥ - ٤٤٦هـ) بينما اشار (HNA) ص ٢٣٤ أنه جكم مرة واحدة ما بين (٤٣٤ و ٤٤٦هـ).

٥ - ذكر (زامباور) ص ٨٦ لقب محمد (الأول) بن ادريس (الثاني) (٤٣٨ - ٤٤٤هـ / ١٠٤٦ - ١٠٥٢م) (المهدي بالله) بينما وردت القابه على نقوده الفضية المضروبة بالاندلس ما بين عام (٤٣٩ و ٤٤٤هـ) (الامام - أمير المؤمنين المهدي بالله) ولقب (الأمير) لولي عهده يحيى بن محمد (الأول) انظر : (MMT) الارقام (٩٩ و١٠٢ و١٠٥ و١١٤ و١٢٠ و١٣١ و١٣٢).

ثالثاً (ب)　　　بنو حمود بالجزيرة

(٤٣١ - ٤٥٠هـ / ١٠٣٩ - ١٠٥٨م)

عدد الحكام اثنان

١ - لم يذكر (زامباور) ص ٨٦ نقود لقاسم بن محمد بن القاسم (٤٤٠ - ٤٥٠هـ / ١٠٤٨ - ١٠٥٨م)، ظهر له نقد فضي ضرب بالاندلس عام ٤٤٥هـ وعليه لقبه (الأمير) كما ورد على النقد نفسه القاب محمد (الأول) بن ادريس الثاني (الامام - أمير المؤمنين المتدين بالله) انظر (MMT) الرقم (١٣٥).

- ذكر (زامباور) نهاية حكم القاسم ٤٥٠هـ بينما ورد ذكر (MMT) ص ٣٢ هذه النهاية وهو مستقل في عام ٤٤٦هـ أما (ل حـ٢ ص ٣٦) فانه لم يعتبر القاسم حاكما مستقلا على النقد انظر الرقم (١٥٥) وانما ادخله ضمن مجموعة نقود والده محمد بن القاسم.

رابعاً　　　حكام سبته (شمال افريقيا)

عدد الحكام اثنان

١ - لم يرد في (زامباور) اسم حاكم سبته سقوت بن المعز (٤٥٣ - ٤٧١هـ / ١٠٦١ - ١٠٧٨م) وهنا نضيف اسمه إلى معجم زامباور.

- وردت لسقوت نقود فضية ضربت في سبته ما بين عامي (٤٦٥ و ٤٦٧هـ) وعليها لقبه (المنصور) كما وردت عليها القاب الخليفة العباسي القائم بأمر الله (الامام - عبد الله أمير المؤمنين) والقاب اخرى لم اتوصل إلى معرفة صاحبه (الحاجب المنصور بالله أبو يحيى) و (الحاجب بهاء الدولة) انظر (HNA) الارقام (٨٨٠ - ٨٨٦) وانظر (ل حـ ٩) الرقم (١٥٥ جـ).

- ذكر (ل حـ٢) ص ١٤٥ حكم سقوت بن المعز ما بين (٤٦٢ و ٤٧١هـ) وذكر (HNA) أن سقوط أحد حكام بني حمود.

٢ - لم يرد في (زامباور) اسم حاكم سبته المعز بن سقوت (٤٧١ - ٤٧٦هـ / ١٠٧٨ - ١٠٨٦م) وهنا نضيف اسمه إلى معجم زامباور.

- ورد له نقد فضي (لم تظهر السنة والمدينة) عليه لقبه (ضياء الدولة) كما وردت القاب الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله (الامام - عبد الله أمير المؤمنين) والقاب اخرى لم نتوصل إلى معرفتها (الحاجب ضياء الدين) انظر (HNA) الرقم (٨٨٧).

خامساً　　　المرابطون (ضهاجه بمراكش)

(٤٤٨ - ٥٤٣هـ / ١٠٥٦ - ١١٥٨م)

عدد الحكام سبعة

١ - ذكر (زامباور) هامش ص ١١٣ أن المرابطين اتخذوا لقب (السيد) و (أمير المؤمنين) إلا أن نقودهم اقتصرت على

اللقب الثاني. وكان ذلك لأول مرة على نقود يوسف بن تاشفين (٤٨٠ ـ ٥٠٠هـ / ١٠٨٧ ـ ١١٠٦م) ثاني حكامهم.

٢ ـ تلقب أبـو بكـر بن عمر اللمتوني (٤٤٨ ـ ٤٨٠هـ / ١٠٥٦ ـ ١٠٨٧م) أول حكام المرابطين بلقب (الأمير) على دنانيره الذهبية المضروبة في سجلماسة، كما وردت عليها القاب الخليفة العباسي القائم بأمر الله والمقتدي بأمر الله مشتركة (الامام ـ عبد الله أمير المؤمنين) انظر (HNA) الارقام (٢٦ ـ ٥١) رفع أبو بكر شعاره على نقوده (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين).

٣ ـ ورد لقب (الأمير) لابراهيم بن أبي بكر (٤٦٢ ـ ٤٦٤هـ / ١٠٦٩ ـ ١٠٧٤م) على دنانيره الذهبية المضروبة في سجلماسة في السنوات (٤٦٢ و ٤٦٥ ـ ٤٦٧هـ) كما ورد عليهـا القـاب الخليفة العباسي المعاصر القائم بأمر الله (الامام ـ عبد الله أمير المؤمنين) أنظر (HNA) الأرقام (٥٤ ـ ٥٧).

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ نهاية حكم إبراهيم بن أبي بكر سنـة (٤٦٤هـ) بينـما اشـار (HNA) ص٩٩ إلى هذه النهـاية في (٤٦٧هـ) وأنا اعتمدت هذا التاريخ لظهور نقود باسمه.

٤ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٣ القاب ليوسف بن تاشفين (٤٨٠ ـ ٥٠٠هـ / ١٠٨٧ ـ ١١٠٦م) وعـلى دنـانـيره الذهبية المضروبـة في اغـمات وتلمـاسه (بلنسيه) وسبته وسجلماسه وفاس ومراكش ونول واشبيلية وبياسه ودانية وسنلوكه وشاطبه وغرناطه والقنـطرة (قنطرة السيف) ومالقا والماريا اللقب (الأمير) و (أمير المسلمـين) في سنوات حكمـه كافة ، كما وردت عليها القاب الخليفتين العباسيين المعاصرين له المقتدي بأمر الله والمستظهر بالله وهي (الامام ـ عبد الله أمير المؤمنين) كما وردت على بعضها لقب (ولي عهـده الأمـير) أو (الأمـير) لولي عهده علي بن يوسف بن تاشفين انظر (HNA) الصفحات (١٠٠ ـ ١٠٩).

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ أن يوسف بن تاشفين استقل عن عمه منذ (٤٥٣هـ) لم تصلنا منه نقود في هذه الفترة وما بعدها إلا في عام (٤٨٠هـ / ١٠٧٨م).

٥ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٣ القاب لعلي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ ـ ٥٣٧هـ / ١١٠٦ ـ ١١٤٢م) تلقب بـ(الأمير) و (أمير المؤمنين) و (أمير المسلمين وناصر الدين) و (أمير المسلمين ولي الله) على دنانيره الذهبية والفضية المضروبة في أغمات وبني تاودا وتلمسـان وسبتـه وسجلماسة وسلا وطنجة وفاس ومراكش ونـول لمطة وأشبيلية وغـرناطة وأغرناطه وبلنسية والجزيرة ودانية وقرطبة ولوشا ومالقا ومرسيه والمرية وشاطبة ومكناسة في سنوات حكمه كما وردت على نقوده القاب الخلفاء العباسيين المعاصرين له المستظهر بالله والمسترشد بالله والراشد بالله والمقتفي لأمر الله (الامام ـ عبد الله أمير المؤمنين) كما ورد اللقب (ولي عهده الأمير) أو (ولي عهده) أو (الأمير) لابنه وولي عهده (الأول) سيرين بن علي للفترة ما بين (٥٢٢ ـ ٥٢٣هـ)، كما وردت الألقاب نفسها لأبنه وولي عهده (الثاني) تاشفين بن علي للفترة ما بين (٥٣٣ ـ ٥٣٧هـ) انظـــر : (HNA) الصفحات (١٠٩ ـ ١٣٥ و ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٤١ و ٢٤٣ و ٢٤٧ ـ ٢٤٨).

ـ لم ترد على نقود علي بن يوسف الفضية اسم مدينة الضرب أو سنـة الضرب وأحيانـاً كليهـما، كما لم يرد عليهـا القاب لغير صاحبها علي بن يوسف، رفع شعاره على نقوده الذهبية (ومن يبتغ غير الأسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين).

٦ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٣ القاب لتاشفين بن علي (٥٣٧ ـ ٥٤٠هـ / ١١٤٢ ـ ١١٤٥م) تلقب بـ(الأمير) و (أمير المسلمين) و (أمير المسلمين ناصر الدين) و (ولي الله أمير المسلمين الأمير) على نقوده الذهبية والفضية المضروبة في اغمات وسجلماسه وفـاس ومراكش ونول لمطه واشبيلية وتلمسان والمرية في سنوات حكمه، كما ورد عليها القاب الخليفتين العباسيين له المقتف لأمر الله (الامام عبد الله أمير المؤمنين العباسي) أو (الامام عبد الله أمير المؤمنين) وكذلك لقب ولي عهده إبراهيم بن تاشفين وهو (الأمير) أو (ولي عهده الأمير).

ـ لم ترد على نقود تاشفين الفضية اسم مدينة الضرب والسنة التي ضربت فيهـا، وكـذلك لم ترد القاب لغير صاحبه تاشفين انظـــر : (HNA) الصفحـات (١٣٥ ـ ١٤٠ و ٢٥٦ و ٢٧٣ و ٢٧٤).

ـ رفع تاشفين شعاره على نقوده (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين).

٧ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ أن لابراهيم بن تاشفين (٥٤٠ ـ ٥٤١هـ / ١١٤٥ ـ ١١٤٦م) نقوده بينما نفى (HNA) ذلك في ص ١٤٠، وربما جاء هذا الاختلاف في أن إبراهيم نقش اسمه على نقود أبيه عندما كان ولي عهده مع اللقب (الأمير) و (ولي العهد) ومن ذلك اعتبر (زامباور) انها نقود مستقلة لابراهيم.

٨ ـ لم يذكـر (زامباور) ص ١١٣ القاب لأسحق بن علي

(٥٤٠ ـ ٥٤١هـ / ١١٤٥ ـ ١١٤٦م)، كما لم يذكر نهاية حكمه وانما أقتصر على عام ٥٤٠هـ.

ـ القابه (أمير المسلمين) على دنانيره الذهبية المضروبة في أغمات ومراكش ونول لمطه واشبيلية و غرناطة وقرطبة بين عامي (٥٤٠ ـ ٥٤١هـ) والقاب الخليفة العباسي المعاصر لأمر الله (الامام ـ عبد الله أمير المؤمنين العباسي) و (الامام ـ عبد الله أمير المؤمنين) انظر : (HNA) الارقام (٤٣٣ ـ ٤٤٠) باستثناء الرقم (٤٣٩). وعلى نقوده الفضية (خالية من السنة ومدينة الضرب) القابه (أمير المسلمين وناصر الدين) انظر : (HNA) رقم (١٠٣٩) و (الأمير) انظر : (HNA) الرقم (١٠٤٦) كما ظهر على النقد لقب والده اسحاق (أمير المسلمين وناصر الدين).

٩ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ اسم آخر حكام المرابطين يحيى بن غانية، بينما ذكر (HNA) ص ١٤٢ اسمه يحيى بن علي المعروف (بن غانية)، لقبه على نقوده الذهبية المضروبة في سبته وسجلماسه في عامي (٥٤٣ و ٥٤٤هـ) (أمير المسلمين) كما ورد عليها القاب الخليفة العباسي المعاصر المقتفي لأمر الله (الامام ـ عبد الله أمير المؤمنين) والقاب الموحدين محمد بن تومرت (المهدي الذي يشرك النبى) انظر : (HNA) الرقمين (٤٤٣ و ٤٤٤).

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ أن يحيى بن غانية توفي بالاندلس عام (٥٤٣هـ) بينما ظهر نقد باسمه عام (٥٤٤هـ).

١٠ ـ لم يرد في (زامباور) اسم آخر حكام المرابطين في سبته شمال افريقيا (يحيى بن أبي بكر بن علي بن يوسف). لم يظهر له لقب على ديناره الذهبي المضروب في قرطبة عام ٥٤٢هـ وانما اقتصر على اسمه، والقاب الخليفة العباسي المعاصر المقتفي لأمر الله (الامام ـ عبد الله أمير المؤمنين العباسي) ولقب اسرة تاشفين عامة (أمراء المسلمين) انظر : (HNA) الرقم (٤٤٦).

ـ لم يذكر (زامباور) أيضاً اسم حاكم المرابطين ميمون بن بادر (٥٤٩هـ / ١١٥٤م) الذي تنازل عن الحكم ٥٤٩هـ أنظر : (HNA) ص ١٤٢، لم يرد اسمه وحتى لقبه على ديناره الذهبي المضروب في غرناطة عام ٥٤٥هـ وانما وردت القاب الخليفة العباسي المعاصر المقتفي لأمر الله (الامام ـ عبد الله أمير المؤمنين) والقاب اسرة تاشفين (أمراء المسلمين) أنظر : (HNA) الرقم (٤٤٥).

سادساً : فترة الثغور

بين المرابطين والموحدين ـ العهد الثاني

(أ) قرطبة (عدد الحكام ثلاثة)

١ ـ ذكر (زامباور) ص ٩٢ لقب حمدين ين محمد بن حمدين (المنصور) بينما ورد على ديناره الذهبي المضروب في قرطبة عام ٥٤٠هـ لقب (أمير المسلمين) كما تقرأ القاب الخليفة العباسي المعاصر المقتفي لأمر الله (الامام ـ عبد الله أمير المؤمنين) انظر : (ل جـ٥) الرقم (٢٢٧).

ـ ذكر (زامباور) أن حمدين حكم مرتين الأول (٥٣٨ ـ ٥٣٩هـ / ١١٤٣ ـ ١١٤٤م) والثانية (٥٤٠ ـ ٥٤١هـ / ١١٤٥ ـ ١١٤٦م) ظهر لحمدين ديناره الذهبي في حكمه الثاني عام (٥٤٠هـ).

٢ ـ لم يرد لآخر حكام فترة الثغور (العهد الثاني) سدزاي بن وزير لقب على درهمه الفضي (لم تظهر السنة والمدينة) وانما اقتصر على القاب سيده حميدين بن محمد بن حمدين (المنصور بالله أمير المسلمين) انظر : (ل جـ٥) الرقم (٢٣٠)، ذكر (زامباور) ص ٩٢ أن الموحدين عزلوه عام (٥٤٦هـ).

سابعاً : الموحدون (زناته)

(٥١٥ ـ ٦٦٨هـ / ١١٢١ ـ ١٢٦٩م)

عدد الحكام ثلاثة عشر

١ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ لقب محمد بن تومرت (٥١٥ ـ ٥٢٤هـ / ١١٢١ ـ ١١٢٩م) (المهدي) بينما وردت القابه على الدينار الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) لأحد ولاة الموحدين في شمال افريقيا المضروب حوالي (٥٤١هـ) (الامام الحق المهدي امامنا) والدراهم الفضية المضروبة لولاة الموحدين أيضاً حوالي (٥٤٠هـ) (المهدي أمامنا) ضرب في سبته و (الامام المهدي امامنا) و (الامام عبد الله المهدي امامنا) لم تظهر السنة والمدينة على هذه النقود، واللقب (مهدي الدين الذي بشر به رسول الله) ضرب في سبته انظر : (HNA) الأرقام (٤٤٦ و ١٠٥٧ و ١٠٦٠).

٢ ـ يذكر (زامباور) ص ١١٣ أن عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ ـ ٥٥٨هـ / ١١٢٩ ـ ١١٦٢م) أول حكام الموحدين. اتخذ منذ عام (٥١٧هـ) لقب (أمير المسلمين). لم يرد هذا اللقب على

دنانيره الذهبية طيلة حكمه، وانما اقتصر على اللقب (أمير المؤمنين) وغيرها (لم يرد عليها سنة الضرب).

ـ القاب عبد المؤمن على دنانيره الذهبية المضروبة في بجاية وتدغه (؟) وتلمسان وتونس ورباط الفتح وسبته وسلا وفاس ومراكش ومكناسه ونول لمطة واشبيلية هي (الخليفة أبو محمد ـ أمير المؤمنين) كما وردت عليها ألقاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي امام الأمة القائم بأمر الله) أو (المهدي خليفة الله) والقاب محمد بن عبد المؤمن ولي العهد الأول (الأمير الأجل أبو عبد الله) ويوسف بن عبد المؤمن ولي العهد الثاني (الأمير الأجل) انظر : (HNA) الصفحات (١٤٣ ـ ١٤٦) كما ظهر لعبد المؤمن درهما فضيا (لم تظهر السنة والمدينة) عليه لقبه (أمير المؤمنين) ولقب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي امامنا) انظر : (HNA) الرقم (١٠٦٢).

٣ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٣ القاب ليوسف (الأول) بن عبد المؤمن (٥٥٨ ـ ٥٨٠هـ / ١١٦٢ ـ ١١٨٤م) وردت له على دنانيره الذهبية المضروبة في سبته ومراكش وأشبيلية (لم تظهر عليها سنة الضرب) كنيته ولقبه (أمير المؤمنين أبو يعقوب)، كما وردت عليها القاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي امام الأمة) أو (القائم بأمر الله) أو (المهدي خليفة الله) وكذلك القاب وكنية عبد المؤمن بن علي (والد يوسف) وهي (الخليفة أبو محمد ـ أمير المؤمنين) انظر : (HNA) الأرقام (٤٩٣ و ٤٩٨) بأستثناء الرقم (٤٩٥).

٤ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ لقب يعقوب بن يوسف (الأول)، (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ / ١١٨٤ ـ ١١٩٨م) (المنصور) لم يرد هذا اللقب على دنانيره الذهبية وانما ورد له على نقدين ذهبيين ضربا بفاس (لم تظهر السنة) اللقب والكنية (أمير المؤمنين أبو يوسف)، كما وردت القاب محمد بن تومرت (المهدي خليفة الله) و (المهدي امام الأمة القائم بأمر الله) والقاب وكنية جد يعقوب وهو عبد المؤمن (الخليفة ـ أبو محمد أمير المؤمنين) والقاب وكنية والد يعقوب وهو يوسف (أمير المؤمنين أبو يعقوب) كما ظهر اللقب (الأميرين) وهما عبد المؤمن بن علي ويوسف (الأول) والد وجد يعقوب انظر : (HNA) ص ١٥٠ الرقمين (٥٠٠ و ٥٠٣) كما ظهر ليعقوب درهماً فضياً (لم تظهر السنة والمدينة) لقب وكنية ولي عهده محمد الناصر بن يعقوب (ولي العهد الأمير أبو عبد الله) ولقب والد واجداد يعقوب (الأمراء) انظر : (HNA) رقم (١٠٧٥).

ـ شعار يعقوب على ديناره (HNA) رقم (٥٠٠) (الحمد لله وحده / والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم / وما بكم من نعمة فمن الله / وما توفيقي الا بالله).

٥ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ ان لقب محمد بن يعقوب (٥٩٥ ـ ٦١١هـ / ١١٩٨ ـ ١٢١٤م) (الناصر) كما ذكر (عنان) ق٢ ص ٢٥٠ أنه تلقب بـ(الناصر لدين الله). لم يرد هذا اللقب على ديناره الذهبي المضروب بفاس وانما ورد له (أمير المؤمنين أبو عبدالله) كما وردت القاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي امام الأمة القائم بأمر الله) والقاب عبد المؤمن الجد الثاني لمحمد (الخليفة أبو محمد أمير المؤمنين) والقاب يوسف الاول جد محمد (أمير المؤمنين أبو يعقوب) والقاب والد واجداد محمد (الخلفاء الراشدين) انظر : (HNA) رقم (٥٠٤).

٦ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ بداية حكم يوسف (الثاني) بن محمد الناصر (٦١١هـ / ١٢١٤م) بينما ذكر (HNA) ص ١٥١ ان هذه البداية كانت (٦١٠هـ).

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ لقب يوسف (الثاني) هو (المستنصر) وذكر (عنان ق٢) ص ٣٢٨ لقبه (المستنصر بالله) لم يرد هذا اللقب على دنانيره الذهبية وانما ورد (أمير المؤمنين ـ أبو يعقوب) على ديناريه المضروب احدهما في (فاس) والآخر (لم تظهر المدينة) ولكن وردت القاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي امام الأمة ـ القائم بأمر الله) والقاب وكنية الجد الثالث ليوسف هو عبد المؤمن (الخليفة أبو محمد ـ أمير المؤمنين) ولقب والد والجد الاول والثاني والثالث ليوسف (الخلفاء الراشدين) ولقب وكنية جد يوسف الثاني (أمير المؤمنين أبو يوسف) ولقب الجد الثالث والثاني ليوسف (الخليفتين) ولقب وكنية والد يوسف (أمير المؤمنين أبو عبد الله) ولقب الجد الاول والثاني والثالث ليوسف (أمراء المؤمنين) ولقب وكنية الجد الثاني ليوسف (أمير المؤمنين أبو يعقوب) انظر : (HNA) الرقم (٥١١).

٧ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٣ نقود لحاكم الموحدين أبو محمد عبد الله العادل (٦٢١ ـ ٦٢٤هـ / ١٢٢٤ ـ ١٢٢٦م)، ورد له ديناراً ذهبياً انظر : (HNA) ص ١٥٢ وعلق عليه نقلاً من مصدر آخر انه يحتمل قد ضرب هذا الدينار من قبل عبد المؤمن بن علي .

٨ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٣ نقود ليحيى بن محمد الناصر (٦٢٤ ـ ٦٢٦هـ / ١٢٢٦ ـ ١٢٢٨م)، ذكر (زامباور)

في الصفحة نفسها ما بين (٦٢٤ و ٦٢٦هـ) بينما ذكر (HNA) ص ١٥٣ حكمه ما بين (٦٢٤ و ٦٣٣هـ) وقسمه الى فترتين الاولى تدخل ضمن حكم ادريس (الاول) المأمون (٦٢٤ ـ ٦٢٩هـ) والثانية تدخل ضمن حكم عبد الرحمن المخلوع (٦٣٠ ـ ٦٣٧هـ).

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ أن لقب يحيى بن محمد الناصر (المعتصم بالله) بينما ورد له لقبه وكنيته على ديناره الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) هو (أمير المؤمنين ـ أبو زكريا) كما ورد على نقده لقب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي امام الأمة القائم بأمر الله) ولقب وكنية جده الثالث عبد المؤمن (الخليفة أبو محمد أمير المؤمنين) ولقب جده الثاني والثالث (الخليفتين) ولقب وكنية والده محمد الناصر (أمير المؤمنين أبو عبد الله) ولقب جده الاول والثاني والثالث (الخلفاء) ولقب وكنية أخاه يوسف الثاني (أمير المؤمنين أبو يعقوب) ولقب والده وجده الاول والثاني والثالث (الخلفاء) ولقب والده وجده الاول والثاني والثالث (الخلفاء الراشدين) انظر : (HNA) رقم (٥١٢).

٩ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ أن حكم ادريس (الاول) ما بين (٦٢٦ و ٦٣٠هـ) بينما اشار (HNA) الى حكمه ما بين ٦٢٤ و ٦٢٩هـ.

ـ كما ذكر (زامباور) ص ١١٣ لقب وكنية ادريس (الاول) هو (أبو العلى المأمون) بينما ورد على ديناره الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) ما يلي (المجاهد المأمون أمير المؤمنين أبو العلى) كما وردت على ديناره القاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي امام الأمة ـ القائم بأمر الله) ولقب وكنية جده الثاني عبد المؤمن (الخليفة أبو محمد ـ أمير المؤمنين) ولقب وكنية جده يوسف الأول (أمير المؤمنين أبو يعقوب) ولقب وكنية والده (أمير المؤمنين أبو يوسف) و (المنصور أمير المؤمنين) ولقب جده الاول والثاني (الخليفتين) و (الخليفتين أميري المؤمنين) ولقب وكنية أخاه محمد الناصر (أمير المؤمنين أبو عبدالله) ولقب والده وجده الاول والثاني (أمراء المؤمنين) ولقب وكنية ابن أخيه يوسف الثاني (أمير المؤمنين أبو يعقوب) ولقب أخاه ووالده والجد الاول والثاني (الخلفاء الراشدين) انظر : (HNA) رقم (٥١١).

١٠ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٣ اسم عمران بن يعقوب ابن يوسف الاول في جدول الحكام وانما ورد في شجرة النسب بشكل أبو موسى المؤيد، أما في (HNA) ص ٢٦٦ فقد ورد اسمه وله درهم فضي وفترة حكمه ما بين (٦٢٩ و ٦٣٠هـ / ١٢٣١ ـ ١٢٣٢م) وهو أمير وحاكم على سبته.

ـ لقب عمران وكنيته على درهمه الفضي (لم تظهر السنة والمدينة) هو (الأمير المؤيد بالله أبو موسى) وورد على نقده ايضا لقب والده وجده الاول والثاني (الأمراء الراشدين) انظر : (HNA) رقم (١٠٧٦) شعاره على نقده (الأمر كله لله) و (ولا قوة الا بالله).

١١ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ لقب عبد الواحد بن ادريس (الاول) (٦٣٠ ـ ٦٤٠هـ / ١٢٣٢ ـ ١٢٤٢م) (الرشيد) ورد لقبه وكنيته على دنانيره الذهبية (لم يرد عليها سنة الضرب) المضروبة في آزمور وسبته (أمير المؤمنين الرشيد أبو محمد) كما وردت على نقوده القاب وكنية والده وجده الاول والثاني والثالث ولقب امام الموحدين محمد بن تومرت (أنظر ما قبله) وانظر : (HNA) الارقام (٥١٣ ـ ٥١٥) وعلى نقوده ورد ايضاً شعار عبد الواحد (لا حول ولا قوة الا بالله / الله ربنا محمد رسولنا).

ـ كما وردت له دراهم فضية (لم يرد عليها سنة الضرب) ضربت في رباط الفتح وسجلماسه وعليها لقب (الرشيد بالله) او (الرشيد امامنا) انظر : (HNA) الارقام (١٠٨٤ و ١٠٧٨ و ١٠٧٩).

١٢ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٣ نقود لعلي بن ادريس (الأول) (٦٤٠ ـ ٦٤٦هـ / ١٢٤٢ ـ ١٢٤٨م) ذكر (زامباور) في الصفحة نفسها لقب وكنية (أبو الحسن السعيد المعتضد بالله) وما ورد على دنانيره الذهبية (لم تظهر السنة) المضروبة في سبته (لم تظهر المدينة على احداها) لقبه وكنيته (أمير المؤمنين الأسعد المعتضد بالله أبو الحسن) كما وردت على نقوده القاب وكنى أجداده الثلاث والقاب امام الموحدين محمد بن تومرت (أنظر ما قبله) وانظر : (HNA) الرقمين (٥١٨ و ٥٢٠).

١٣ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ لقب وكنية عمر بن اسحق بن يوسف (الاول) (٦٤٦ ـ ٦٦٥هـ / ١٢٤٧ ـ ١٢٦٦م) (ابو حفص المرتضى) وما ورد على ديناره الذهبي المضروب في سبته (لم تظهر السنة) لقبه وكنيته (أمير المؤمنين المرتضى لأمر الله أبو حفص) انظر : (HNA) رقم (٥٢٢) كما ورد له (أمير المؤمنين المؤمن بالله المرتضى أبو حفص) على دنانيره الذهبية المضروبة في سبته وسجلماسه (لم تظهر سنة الضرب) انظر : (HNA) الرقمين (٥٢٤ ـ ٥٢٨) كما ورد (أمير المؤمنين أبو حفص) على دنانيره الذهبية

المضروبة في سبته وسجلماسه (لم تظهر السنة) انظر : (HNA) الارقام (٥٢٦ و ٥٢٩ و ٥٣٦) ووردت كنى والقاب والده واجداده والقاب امام الموحدين محمد بن تومرت (انظر ما قبله).

١٤ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ كنية ولقب ادريس (الثاني) بن محمد (٦٦٥ ـ ٦٦٧هـ / ١٢٦٦ ـ ١٢٦٨م) (أبو العلاء الواثق بالله) وعلى دنانيره الذهبية (لم تظهر السنة والمدينة) وردت الكنية واللقب (أمير المؤمنين الواثق بالله أبو العلىٰ) انظر : (HNA) الرقمين (٥٣٧ ـ ٥٣٨) وورد له (أمير المؤمنين الواثق المعتمد أبو العلىٰ) على ديناره الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) انظر : (HNA) الرقم (٥٣٩)، كما ورد على نقوده السابقة كنى والقاب والده واجداده والقاب امام الموحدين محمد بن تومرت.

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٣ في عام (٦٦٨هـ) استولى بنو مرين على مراكش، كما ذكر أن انقسام دولة الموحدين عام (٦٦٧هـ).

ثامنــــاً : الفترة الأخيرة من السيادة الاسلامية

العهد الثالث

(أ) مرسيه (بنو هود) ـ عدد الحكام ستة

١ ـ ذكر (زامباور) ص ٩٣ لقب محمد بن يوسف بن هود (٦٢١ ـ ٦٣٥هـ / ١٢٢٤ ـ ١٢٣٧م) (المتــوكــل) كما ذكر (زامباور) في الصفحة نفسها بداية حكمه (٦٢١هـ) بينما يذكر (HNA) ص ١٥٨ أن هذه البداية (٦٢٥هـ).

ـ ورد على دراهمه الفضية المضروبة في اشبيلية ومالقا (لم تظهر السنة) القابه (المتوكل على الله أمير المؤمنين) والقاب الخليفة العباسي المستنصر بالله (العباسي امام الأمة) رفع شعاره على نقوده (والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم) و (الواحد الله / الشكر لله / والمنة لله / والمولى والقوة بالله) انظر : (HNA) ص ١٥٨ رقم (٥٤٠) وانظر : (ل جـ٥) الرقمين (٢٣١ و ٢٣٣).

ـ كما وردت له دنانير ذهبية ودراهم فضية لم يرد عليها القابه وانما اقتصرت على القاب الخليفة العباسي انظر : (HNA) الرقمين (٥٤٠ و ١١١٧).

٢ ـ لم يرد في (زامباور) اسم حاكم سبته ابو العباس اليناشتي وكذلك اسم الحاكم أبو القاسم إبراهيم بن أبي العباس الصفي حكم ما بين (٦٤٧ و ٦٥٤هـ) انظر : الصفحات (١٥٩ و ٢٧٢ و ٢٧٣).

٣ ـ ورد في (زامباور) ص ٩٣ لقب وكنية محمد (الثاني) بن محمد (٦٣٥ ـ ٦٣٦هـ / ١٢٣٧ ـ ١٢٣٨م) (أبو بكر الواثق) بينما ورد على درهمه الفضي المضروب في شاطبة (لم ترد سنة الضرب) ـ (الـواثق بالله المعتصم به أمـير المؤمنـين) وكذلك وردت القاب المستنصر بالله (الخليفة العباسي أمير المؤمنين) ولقب والده (أمير المسلمين) أنظر : (ل جـ٥) رقم (٢٣٥) كما ورد له نقد آخر فضي (لم تظهر السنة والمدينة) عليه لقبه (الواثق بالله المعتصم به ولي عهد المسلمين) وكذلك القاب المستنصر (الخليفة العباسي أمير المؤمنين) أنظر : (ل جـ٥) رقم (٢٣٦).

(ب) عدد الحكام واحد فقط

ـ لم يذكر (زامباور) ص ٩٣ القاب لموسىٰ بن محمد بن نصير ابن محفوظ (٦٥٠هـ / ١٢٥٢م) ورد على درهمه الفضي (لم تظهر السنة والمدينة) القابه (أمير الغرب المستعين بالله) ولقب الخليفة العباسي المعاصـــر المستعصم بالله (العباسي امامنا) أنظـــر : (ل جـ٥) رقم (٢٣٧).

تاسعـــاً : بنو حفص (تيونس)

(٦٢٥ ـ ٩٨٤هـ / ١٢٢٧ ـ ١٢٤٩م)

عدد الحكام أربعة وعشرون

١ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٥ كنية يحيىٰ (الاول) بن عبد الواحد (٦٢٥ ـ ٦٤٧هـ / ١٢٥٤ ـ ١٢٤٩م) (أبو زكريا)، ورد على دنـانيره الذهبية (لم تظهر السنة وقسم منها المدينة) المضروبة في بجاية وتلمسان وجزاير لقبه وكنيته (الأمير الأجل أبو زكريا) كما ورد عليها كنىٰ والقاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي خليفـة الله) و (المهـدي امـام الأمـة ـ القائم بأمر الله) وحاكم الموحدين عبد المؤمن (أبو محمد ـ أمير المؤمنين) ووالد يحيى (أبو محمـد) لم يستلم الحكم، وجـده عمر بن يحيى (أبو حفص) لم يستلم الحكم انظر : (HNA) الارقام (٥٤٢ و ٥٤٥ ـ ٥٤٩).

ـ لقب وكنية يحيى (الاول) ـ (الأمير الأجل أبو زكريا) ووردت على نقـوده ودنـانـير ولاتـه الـذهبية المضروبة بسبته وسجلماسه واشبيلية وغرناطة وغيرها (لم يرد عليها مدينة الضرب) انظر : (HNA) الارقام (٥٥٣ ـ ٥٥٦) رفع شعاره على نقوده (والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم / وما من اله الا الله / وما بكم من نعمة فمن الله / وما توفيقي الا بالله / وافوض امري الى الله)

و (الهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم / الواحد الله / الشكر لله / والمنة لله / والحول والقوة بالله) و (آمنت بالله وما بكم من نعمة فمن الله).

٢ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٥ كنية ولقب محمد (الاول) بن يحيى (الاول) ٦٤٧ ـ ٦٧٥هـ / ١٢٤٩ ـ ١٢٧٦م (ابو عبد الله ـ المنتصر) وما ورد على دنانيره الذهبية المضروبة في بجاية من كنى والقاب (لم تظهر السنة وبعضها لم تظهر المدينة) هي (الأمير الأجل ـ أبو عبدالله) و (أبو عبدالله المستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين) انظر : (HNA) الارقام (٥٥٧ ـ ٥٥٩ و ٥٦٢) شعاره على دنانيره (آمنت بالله) و (ثقتي بالله وحده عليه توكلت) و (الشكر لله) وغيرها .

٣ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٥ كنية ولقب يحيى (الثاني) بن محمد (الأول) ـ (٦٧٥ ـ ٦٧٨هـ / ١٢٧٦ ـ ١٢٧٩م) ـ (أبو زكريا ـ الواثق) بينما وردت له على ديناره الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) هو (أبو زكريا ـ الواثق بالله المؤيد بفضل الله أمير المؤمنين) كما وردت القاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي خليفة الله) ووالد يحيى واجداده الثلاث (الأمراء الراشدين) انظر : (HNA) رقم (٥٦٧) شعار يحيى على دنانيره (الشكر لله والحول والقوة بالله).

٤ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٥ كنية إبراهيم (الأول) بن يحيى (الاول) ٦٧٨ ـ ٦٨١هـ / ١٢٧٩ ـ ١٢٨٢م (أبو اسحٰق) بينما وردت له على ديناره الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) ـ (المجاهد في سبيل الله الأمير الأجل أبو اسحٰق) وورد على ديناره ايضا امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي خليفة الله) ووالده يحيى (الأمير الأجل أبي زكريا) وجده عبد الواحد (أبو محمد) لم يستلم الحكم، وجده الثاني عمر بن علي (أبو حفص) لم يستلم الحكم انظر : (HNA) الرقم (٥٦٩) كما ورد على الدينار نفسه شعار إبراهيم (الواحد الله / والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم).

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٥ بداية حكم إبراهيم (الاول) بن يحيى ٦٧٨هـ بينما ذكر (HNA) ص ١٦٤ هذه البداية ٦٧٧هـ.

٥ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٥ اسم أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة (الدعي) حكمه في رمضان ٦٨١هـ وقد حكم باسم الفضل ابن يحيى (الثاني) بن محمد (الاول) الذي لم يرد ذكره في جدول الحكام في (زامباور) ولكن اقتصر وروده في شجرة النسب ص ١١٧، إلا أن (HNA) ص ١٦٤ أورد اسمه مع ذكر نقد الفضل الذهبي المضروب بتونس (لم تظهر سنة الضرب) والذي حمل كنية ولقب الفضل (أمير المؤمنين المنصور بفضل الله القائم بحق الله أبو العباس) وكذلك القاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي خليفة الله) ووالد الفضل يحيى الثاني (أمير المؤمنين) انظر : (HNA) الرقم (٥٧٠) رقم شعاره على دنانيره (الشكر لله والحول والقوة بالله).

٦ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٥ كنية عمر (الاول) بن يحيى (الاول) (٦٨٣ ـ ٦٩٤هـ / ١٢٨٤ ـ ١٢٩٤م) (أبو حفص) بينما وردت على دنانيره الذهبية المضروبة في بجاية وتونس (لم تظهر السنة) الكنية واللقب (أبو حفص ـ المستنصر بالله المؤيد بنصر الله أمير المؤمنين) كما وردت القاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي خليفة الله) ووالد والجد الاول والثاني لعمر (الأمراء الراشدين). انظر : (HNA) الارقام (٥٧١ و ٥٧٢) مرفق رفع عمر شعاره على دنانيره (الشكر لله والحول والقوة بالله).

٧ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٥ لقب وكنية يحيى بن إبراهيم الاول (٦٨٣ ـ ٦٩٨هـ / ١٢٨٤ ـ ١٢٩٨م) ـ (أبو زكريا المنتخب لأحياء دين الله) بينما وردت على ديناره الذهبي المضروب في بجاية (لم تظهر السنة) ـ (الأمير المنتخب لأحياء دين الله أبو زكريا) والقاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي خليفة الله) ووالد والجد الاول والثاني والثالث ليحيى (الأمراء الراشدين) انظر : (HNA) الرقم (٥٧٤) كما ورد على النقد نفسه شعار يحيى (الواحد الله / الشكر لله / والمنة لله / والحول والقوة بالله / والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم).

٨ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٥ كنية ولقب محمد (الثاني) بن يحيى (الثاني) ـ (٦٩٤ ـ ٧٠٩هـ / ١٢٩٤ ـ ١٣٠٩م) ـ (أبو عبدالله أبو عصيده المنتصر) بينما ورد على ديناره الذهبي المضروب بتونس (لم تظهر السنة عليه) ـ (أبو عبدالله المنتصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين) كما وردت عليه القاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي خليفة الله) ووالد محمد (أمير المؤمنين) وجده (أمير المؤمنين) انظر : (HNA) الرقم (٥٧٧) رفع شعاره على ديناره (الشكر لله والحول والقوة بالله).

٩ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٥ نقود لخالد (الاول) بن يحيى بن إبراهيم (٧٠٩ ـ ٧١١هـ / ١٣٠٩ ـ ١٣١١م) ولكنه ذكر كنية خالد ولقبه (أبو البقاء ـ الناصر) وما ورد على ديناره

الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) من كنيه ولقب هي (أبو البقاء الناصر لدين الله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين) كما وردت على القاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي خليفة الله) ووالد واجداد خالد الأربع (الأمراء الراشدين) انظر : (HNA) الرقم (٥٨٠) رفع خالد شعاره على ديناره (الشكر لله والحول والقوة بالله).

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٥ ان خالد (الاول) حكم أول الأمر أميراً على بجاية (٦٩٩هـ) ثم انفرد بالحكم منذ سنة (٧٠٩هـ) وحتى (٧١١هـ) بينما ذكر (HNA) انه حكم مرة واحدة ما بين (٧٠٠ و ٧١١هـ).

١٠ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٥ نقود لزكريا اللمياني بن أحمد (٧١١ ـ ٧١٧هـ / ١٣١١ ـ ١٣١٧م) ظهر له دينار ذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) ورد لقب وكنية زكريا (أبو يحيى القائم بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين) كما وردت القاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي خليفة الله) ووالد واجداد زكريا الثلاث (الأمراء الراشدين) انظر : (HNA) الرقم (٥٩٢) وعلى النقد نفسه ورد شعار زكريا (المنة لله والهداية من الله والاستعانة بالله والتوكل على الله).

ـ كما ورد لزكريا دينار ذهبي آخر (لم تظهر السنة والمدينة) عليه لقبه (القائم بأمر الله أمير المؤمنين) ووردت القاب امام الموحدين ووالد واجداد زكريا الثلاث (انظر : النقد السابق) وانظر : (HNA) رقم (٥٩٣).

١١ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٥ نقود لمحمد (الثالث) بن زكريا (الاول) ـ (٧١٧ ـ ٧١٨هـ / ١٣١٧ ـ ١٣١٨م) ظهر له دينار ذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) عليه كنيته ولقبه (أبو عبدالله ـ الأمير المجاهد المؤيد) كما وردت القاب امام الموحدين ووالد واجداد محمد الاربعة انظر : (HNA) رقم (٥٩٤) وعلى النقد نفسه ورد شعاره (الواحد الله الحول والقوة بالله).

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ حكم محمد (الثالث) ما بين (٧١٧ ـ ٧١٨هـ) بينما اشار (HNA) ص ١٧٠ حكمه ما بين (٧١٧ و ٧٢٣هـ).

١٢ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ أن أبو بكر (الثاني) حكم أول الأمر أميراً على قسنطينة وبجاية (٧١١هـ) ثم حاكما مستقلا منذ (٧١٨هـ) وحتى (٧٤٨هـ) بينما ذكر (HNA) ص ١٦٧ حكمه مرة واحدة ما بين سنة (٧٠٠) وحتى (٧٤٧هـ).

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ كنية ولقب أبو بكر (الثاني) بن يحيى بن إبراهيم (٧١١ ـ ٧٤٧هـ / ١٣١١ ـ ١٣٤٦م) (أبو يحيى ـ المتوكل) ظهرت له دنانير ذهبية ضربت في بجاية وقسنطينة وقفصة (لم تظهر السنة) ـ (أبو يحيى الأمير الأجل المتوكل على الله المؤيد بنصر الله) انظر : (HNA) الارقام (٥٨١ و ٥٨٢ و ٥٨٧) وأبو يحيى المتوكل على الله المؤيد) لم تظهر السنة والمدينة انظر : (HNA) رقم ٥٨٣ و (أبو يحيى المتوكل على الله أمير المؤمنين) ـ (لم تظهر السنة والمدينة انظر : (HNA) رقم (٥٩٠) و (أمير المؤمنين أبو يحيى) لم (تظهر السنة والمدينة) انظر : (HNA) رقم (٥٩١) و (أبو يحيى المتوكل على الله المؤيد بنصر الله أمير المؤمنين) ضرب بجاية (لم تظهر السنة) انظر : (HNA) رقم (٥٨٤) وجميع النقود السابقة امام الموحدين محمد بن تومرت ووالد واجداد أبو بكر (الثاني).

١٣ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ نهاية حكم عمر (الثاني) بن أبو بكر (الثاني) ـ (٧٤٧ ـ ٧٥٠هـ / ١٣٤٦ ـ ١٣٤٩م) سنة ٧٥٠هـ بينما اشار (HNA) ص ١٧١ أن هذه النهاية كانت في عام (٧٤٨هـ)، وذكر (زامباور) ص ١١٦ أن الاحتلال المريني كان عام (٧٤٧هـ).

ـ كما ذكر (زامباور) ص ١١٦ كنية عمر (الثاني) هي أبو حفص، وما ورد على ديناره الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) هي (أبو حفص الناصر لدين الله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين) انظر : (HNA) رقم (٥٩٥) واللقب (أمير المؤمنين أبو حفص) انظر : (HNA) رقم (٥٩٦) كما وردت على نقده الاول القاب امام الموحدين (المهدي خليفة الله) ووالد عمر أبو بكر الثاني (أمير المؤمنين أبو يحيى) ـ رفع شعاره على دنانيره (الشكر لله والحول والقوة بالله).

١٤ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ اسم عبدالرحمن بن أبي بكر (الثاني) ـ (٧٤٩ ـ ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ ـ ١٣٤٨م) وانه حكم في قسنطينة سنة (٧٤٩هـ) بينما ورد هذا الاسم في (HNA) ص ١٧٢ (أبو زيد عبدالرحمن بن محمد) حكم في قسنطينة ما بين (٧٤٩ و ٧٥٥هـ).

ـ لم يذكر (زامباور) له نقود، ذكر كنيته (أبو زيد)، ظهر على ديناره الذهبي المضروب بقسنطينة (لم تظهر السنة) كنيته ولقبه (أبو زيد . . المظفر بالله . . المنصور بفضل الله) كما ظهرت القاب امام الموحدين محمد بن تومرت (المهدي خليفة الله) ووالد واجداد عبدالرحمن الأربع (الأمراء الراشدين). انظر : (HNA) رقم

(٦٠١) ـ شعاره على ديناره (الشكر لله والحول والقوة بالله) و (العزة لله) انظر : (HNA) رقم (٦٠٠).

١٥ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ اسم محمد بن أبي بكر (الثاني) حاكم بجاية في (٧٤٩هـ) بينما ورد في (HNA) ص ١٧٣ اسمه (محمد بن يحيى بن أبو بكر الثاني) حكم في بجاية ما بين (٧٤٩ و ٧٥٣هـ)، والاسمين وردا في شجرة النسب في (زامباور) ص ١١٧ وليس في الجدول، لقد ذكر (HNA) ص ١٧٣ أن لمحمد بن يحيى نقود وانه حكم للمرة الثانية ما بين (٧٦١ و ٧٦٧هـ) في الوقت الذي ورد في (زامباور) ص ١١٦ حكمه الثاني ما بين (٧٦١ و ٧٧٠هـ).

ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٦ له نقود في الوقت الذي وصلتنا منه دنانير ذهبية لم تظهر على احداها (السنة ومدينة الضرب) ورد عليها كنيته ولقبه (أبو عبدالله المستنصر بالله المؤيد بنصر الله / المنصور بفضل الله) وكذلك لقب امام الموحدين (المهدي خليفة الله) انظر : (HNA) رقم (٦٠٢) أما الدينار الآخر فضرب في بجاية (لم تظهر السنة) لقبه (أمير المؤمنين عبدالله المنتصر) وكذلك القاب امام الموحدين ووالده وجده انظر : (HNA) رقم (٦٠٣).

١٦ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ اسم (أبو العباس أحمد الاول الفضل) حكم أول مرة أميراً على بجاية سنة (٧٤٩هـ) ثم حكم مستقلا ما بين ٧٥٠ و ٧٥١هـ وذكر (HNA) ص ١٧١ اسمه (أبو العباس الفضل بن أبي بكر الثاني) حكم مرة واحدة ما بين (٧٤٩ و ٧٥١هـ) واعتقد أن الأسمين واحد نتيجة دراستي للألقاب.

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ كنية أحمد ولقبه (أبو العباس الفضل المتوكل) وما ورد على دنانيره الذهبية المضروبة في بجاية وطرابلس وتونس (لم تظهر السنة) ـ (أبو العباس الفضل المتوكل على الله المؤيد بنصر الله أمير المؤمنين) كما ظهرت القاب امام الموحدين (المهدي خليفة الله) ووالد أحمد وكنيته (أمير المؤمنين أبي يحيى) أو (أمير المؤمنين) انظر : (HNA) الارقام (٥٩٧ ـ ٥٩٩) كما ظهر له دينار آخر (لم تظهر السنة والمدينة) عليه لقبه وكنيته (الفضل أمير المؤمنين أبو العباس) والقاب امام الموحدين (المهدي خليفة الله) ووالد أحمد (أمير المؤمنين) انظر : رقم (٦٠٠) وورد على نقود أحمد شعاره (الشكر لله والحول والقوة بالله) و (والحمد لله / والشكر لله / والحول والقوة بالله / وما النصر الا من عند الله).

١٧ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ اسم ابو اسحق إبراهيم الثاني المستنصر حكم في تونس ما بين (٧٥١ و ٧٧٠هـ) بينما ورد في (HNA) أبو اسحق إبراهيم الثاني بن أبي بكر الثاني، والمصدران اتفقا في سنوات حكمهما ولكنهما اختلفا بالاسم وأنا اعتقد انهما واحد حيث انه (أبو اسحق إبراهيم الثاني بن أحمد (الثاني) بن أبي بكر (الثاني).

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ لقب إبراهيم الثاني وكنيته (أبو اسحق ـ المستنصر) وعلى دنانيره الذهبية المضروبة في طرابلس وقفصة ظهرت له كنيته ولقبه (أبو اسحٰق ـ المستنصر بالله المنصور بفضل الله) كما ورد عليها لقب امام الموحدين (المهدي خليفة الله)وجد إبراهيم (أمير المؤمنين أبي يحيى) انظر : (HNA) الرقمين (٦٠٤ و ٦٠٥) رفع إبراهيم شعاره على دنانيره (الشكر لله والحول والقوة بالله).

١٨ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ أن أحمد (الثاني) حكم مرة واحدة ما بين (٧٧٢ و ٧٩٦هـ) بينما ذكر (HNA) ص ١٧٤ أنه حكم مرتين الأولى ما بين (٧٥٥ و ٧٥٨هـ) والثانية ما بين (٧٦١ و ٧٩٦هـ).

ـ ذكر (زامباور) كنية ولقب أحمد الثاني (أبو العباس المستنصر) وعلى ديناره الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) ظهر له (أبو العباس المتوكل على الله المؤيد بنصر الله أمير المؤمنين) والقاب امام الموحدين (المهدي خليفة الله) ووالد أحمد وأجداده الستة (الأمراء الراشدين) انظر : (HNA) رقم (٦٠٨) كما ظهر له دينار ذهبي آخر عليه (أبو العباس ـ المتوكل على الله المؤيد بنصر الله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين) والقاب امام الموحدين (المهدي خليفة الله) ووالد أحمد وأجداده الستة (الأمراء الراشدين) انظر : (HNA) رقم (٦٠٩).

١٩ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ كنية ولقب عبدالعزيز (الثاني) بن أحمد (الثاني) ـ (٧٩٦ ـ ٨٣٧هـ / ١٣٩٣ ـ ١٤٣٣م) ـ (أبو فارس المتوكل) بينما ورد على دنانيره الذهبية (لم تظهر السنة) المضروبة في بجاية وبسكره وتونس والحامه وطرابلس وقسنطينة وقفصة (أبو فارس المتوكل على الله المؤيد بنصر الله المجاهد في سبيل الله أمير المؤمنين) انظر : (HNA) الارقام (٦١٠ ـ ٦١٢ و ٦١٦ ـ ٦١٩) وعلى دنانيره الذهبية المضروبة في تونس وقفصه وصدية (لم تظهر السنة) ـ (أبو فارس ـ أمير المؤمنين ـ المؤيد بنصر الله المجاهد في سبيل الله) انظر : (HNA) الارقام (٦١٥ و ٦٢٠ ـ

٦٢١) وعلى جميع دنانيره وردت القاب امام الموحدين (المهدي خليفة الله) ووالد عبدالعزيز (أمير المؤمنين أبو العباس).

٢٠ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٦ نقود لمحمد (الرابع) بن محمد بن عبدالعزيز (٨٣٧ ـ ٨٣٩هـ / ١٤٣٣ ـ ١٤٣٥م) ولكنه اشار في الصفحة نفسها إلى كنيته ولقبه (أبو عبدالله ـ المستنصر) ظهر له دينار ذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) وعليه (أبو عبدالله ـ المستنصر بالله المؤيد بنصر الله أمير المؤمنين) كما ورد عليه القاب امام الموحدين (المهدي خليفة الله) ووالد والجد التاسع لمحمد الرابع (الأمراء الراشدين) انظر : (HNA) الرقم (٦٢٦) رفع محمد شعاره على ديناره (الشكر لله والحول والقوة بالله).

٢١ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١١٦/١١٧ اسم حاكم بجاية في الوقت الذي ذكره (HNA) ص ١٧٧ وهو علي بن عبدالعزيز (الثاني) بن أحمد (الثاني) الذي حكم ما بين سنة ٨٣٩ و ٨٥٦هـ، ظهر له دينار ذهبي ضرب في بجاية (لم ترد السنة) عليه (أبو الحسن ـ المتوكل على الله . . .) كما ظهر عليه القاب امام الموحدين (المهدي خليفة الله) ووالد علي (أمير المؤمنين أبو فارس) انظر : (HNA) رقم (٦٢٧)، رفع شعاره على ديناره (الشكر لله والحول والقوة بالله).

٢٢ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ كنية عثمان بن محمد (الرابع) (٨٣٩ ـ ٨٩٣هـ / ١٤٣٥ ـ ١٤٨٧م) (أبو عمر) ظهر له دينار ذهبي ضرب في توزار عليه (أبو عمر ـ أمير المؤمنين . .) انظر : (HNA) رقم (٦٢٨) ودينار ذهبي آخر ضرب في طرابلس عليه (أبو عمر ـ أمير المؤمنين ـ المتوكل على الله الواثق بالله المجاهد في سبيل الله) انظر : (HNA) رقم (٦٢٩) ودينار ذهبي آخر ضرب في طرابلس عليه (أبو عمر ـ أمير المؤمنين ـ المتوكل على الله وحده) انظر : (HNA) رقم (٦٣٠)ودينار آخر ضرب في قسنطينة وعليه (أبو عمر ـ أمير المؤمنين المتوكل على الله المجاهـد في سبيل الله) انظر : (HNA) رقم (٦٣١) ودينار ذهبي آخر ضرب في الجزائر وعليه (أمير المؤمنين الملك السلطان أبو عمر المتوكل على الله المجاهد في سبيل الله المؤيد بنصر الله) انظر : رقم (٦٣٧) ونقدان ذهبيان آخران ضربا في تلمسان وتفاس وعليه (عبدالله أمير المؤمنين أبي عمر) انظر : رقم (٦٣٩ و ٦٤٠) وجميع نقوده السالفة لم تظهر عليه سنة الضرب، اضافة إلى ظهور القاب امام الموحدين (المهدي خليفة الله) ووالد واجداد عثمان التاسع (الأمراء الراشدين) باستثناء الرقم (٦٣٠).

٢٣ ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ لقب وكنية محمد (الخامس) بن الحسن بن مسعود (٨٩٩ ـ ٩٣٢هـ / ١٤٩٣ ـ ١٥٢٥م) ـ (ابو عبدالله ـ المتوكل) وعلى ديناره الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) تقرأ له (أبو عبدالله أمير المؤمنين المتوكل على الله) كما ورد عليه لقب أمام الموحدين (المهدي خليفة الله) ولقب والد محمد واجداده الثلاثة عشر (الأمراء الراشدين) انظر : (HNA) رقم (٦٤١) رفع شعاره على ديناره (الشكر لله والحول والقوة بالله) و (الشكر لله والحول والقوة بالله والأمر كله لله).

٢٤ ـ ورد في (زامباور) ص ١١٦ اسم (محمد الحسن بن محمد الخامس) بينما ورد في (HNA) ص ١٨١ (محمد السادس بن محمد الخامس) ذكر (زامباور) ص ١١٦ كنية ولقب الحسن (أبو عبدالله ـ الحسن) وعلى ديناره الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) ظهر له (أبو عبدالله ـ الحسن ـ أمير المؤمنين . . . السلطان . . .) وورد لقب امام الموحدين (المهدي خليفة الله) وكنية والد محمد (أبو عبدالله) انظر : (HNA) رقم (٦٤٤) وفع محمد شعاره على ديناره (الشكر لله والحول والقوة بالله).

٢٥ ـ ورد في (زامباور) ص ١١٦ اسم أحمد بن الحسن ولم يذكر له نقود، بينما ورد في (HNA) ص ٢٧٣ اسم أحمد (الثالث) بن محمد (السادس) ظهر على دراهمه الفضية المضروبة بتونس في السنوات (٩٥٢ و ٩٥٤ و ٩٥٥ و ٩٥٨هـ) ـ (مولانا السلطان) انظر : (HNA) الارقام (١١٢٤ ـ ١١٢٦ و ١١٢٨) وعلى درهم فضي آخر ضرب بتونس عام ٩٥٦هـ) ظهرت الألقاب (عز عبدالله المتوكل على الله مولانا السلطان) ولقب امام الموحدين (المهدي خليفة الله) انظر : (HNA) رقم (١١٢٧) وعلى درهم آخر ضرب بتونس عام ٩٦١هـ اللقب (سلطان) انظر : (HNA) الارقام (١١٣٠ ـ ١١٣٢) وعلى نقد نحاسي ضرب بتونس (لم تظهر السنة) الكنية (أبو العباس) انظر : (HNA) رقم (١١٧٣). رفع شعاره على نقوده (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره) و (الأمر كله لله لا قوة الا بالله).

ـ ذكر (زامباور) ص ١١٦ الفتح التركي الثاني عام (٩٧٧هـ).

٢٦ ـ ورد في (زامباور) ص ١١٦ اسم محمد (السادس)بن الحسن، بينما ورد في (HNA) ص ١٨١ محمد (السادس) بن محمد (الخامس) ورد في (زامباور) ص ١١٦ ان محمد (السادس) عامل اسبانيا، وفتح الاتراك تونس نهائياً عام (٩٨٢هـ).

بنو زيان بتلمسان (بنو عبد الواد)
(٦٣٣ - ٩٦٢هـ / ١٢٣٥ - ١٥٥٤م)
أ - الفرع الأكبر (بنو عبد اواد)

١ - ذكر (زامباور) ص ١١٨ كنية يغمر آسن بن زيان (٦٣٣ - ٦٨١هـ / ١٢٣٥ - ١٢٨٢م) - (أبو يحيى)، لم يذكر (زامباور) ص ١١٨ له نقود، ظهر له دينار ذهبي ضرب بتلمسان (لم تظهر السنة) كما لم تظهر عليه أي لقب أو كنية وانما اقتصرت على الآيات القرآنية والعبارات الدينية وشعاره (الواحد الله / والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم / الشكر لله والمنة لله والحول والقوة بالله / هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) انظر : (HNA) الرقم ٦٤٥ .

٢ - ذكر (زامباور) ص ١١٨ كنية موسى (الاول) بن عثمان (٧٠٧ - ٧١٨هـ / ١٣٠٧ - ١٣١٨م) - (أبو حمو) ظهر له دينار ذهبي ضرب بتلمسان (لم تظهر السنة) عليه القابه (عبدالله - أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين) انظر : (HNA) رقم (٦٤٦)

رج الله / والهكم اله

٣ - ذكر (زامباور) ص ١١٨ كنية عبدالرحمن (الأول) بن موسى (الاول) (٧١٨ - ٧٣٧هـ / ١٣١٨ - ١٣٣٦م) - (أبو تاشفين) ظهر له دينار ذهبي ضرب بتلمسان (لم تظهر السنة) عليه القابه (عبدالله المتوكل على الله - أمير المؤمنين) انظر : (HNA) رقم (٦٤٧) ودنانير ذهبية ضربت في تلمسان والجزائر (لم تظهر السنة) عليها لقبه (أمير المؤمنين) كما ورد لقب والد والجد الاول والثاني لعبدالرحمن انظر : (HNA) الرقمين (٦٤٨ - ٦٤٩) شعاره على نقوده (ولا غالب الا الله / والأمر كله لله / ولا قوة الا بالله / الحمد لله رب العالمين / والشكر لله على نعمته . . .) و (ما أقرب فرج الله / والهكم اله واحد / لا اله الا هو الرحمن الرحيم) .

٤ - ذكر (زامباور) ص ١١٨ كنية موسى (الثاني) بن يوسف بن عبدالرحمن (٧٦٠ - ٧٩١هـ / ١٣٥٨ - ١٣٨٨م) (أبو حمو) ورد له دينار ذهبي ضرب في تلمسان (لم تظهر السنة) عليه القابه (عبدالله - أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين) انظر : (HNA) رقم (٦٥٠) كما ورد له دينار ذهبي ضرب بتلمسان (لم تظهر السنة) عليه لقبه (عبدالله) انظر : (HNA) الرقم (٦٥١) .

٥ - ذكر (زامباور) ص ١١٨ كنية عبدالرحمن (الثاني) بن موسى (الثاني) (٧٩١ - ٧٩٥هـ / ١٣٨٨ - ١٣٩٢م) (أبو تاشفين) ظهر له دينار ذهبي ضرب بتلمسان (لم تظهر السنة) عليه (عبدالله - أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين) انظر : (HNA) رقم (٦٥٢) كما ظهر له دينار ذهبي ضرب بتلمسان (لم تظهر السنة) عليه لقبه (أمير المؤمنين) ولقب والده وأجداده الأربعة (الخلفاء الراشدين) انظر : (HNA) رقم (١٩٥) شعار عبدالرحمن على ديناره (الحمد لله وحده / والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم) .

٦ - ذكر (زامباور) ص ١١٩ أن محمد بن موسى (٧٩٦ - ٨٠٠هـ / ١٣٩٣ - ١٣٩٧م) هو (محمد الثالث) بينما ورد في (HNA) ص ١١٩ أنه (محمد الثاني) .

- لم يذكر (زامباور) له نقود بينما في (HNA) رقم (٦٥٣) ظهر له دينار ذهبي ضرب بتلمسان (لم تظهر السنة) عليها القابه (عبدالله - الغني بالله أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين) شعاره على ديناره (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) .

- يذكر (زامباور) ص ١١٩ نهاية حكم محمد (الثاني) ما بين (٨٩٦ - ٨٠٠هـ) وأن كنيته (أبو زيان) بينما في (HNA) ص ١٨٥ يذكر حكمه (٨٠٤ - ٨١٣هـ) ولم ترد له كنية على ديناره .

٧ - لم يذكر (زامباور) ص ١١٩ لعبدالله (الاول) بن موسى (٨٠٠ - ٨٠٣هـ / ١٣٩٧ - ١٤٠٠م) له نقود بينما ورد في (HNA) رقم ٦٥٤ له دينار ذهبي ضرب في تلمسان عليه القابه وكنيته (أبو محمد أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين) رفع عبدالله شعاره على ديناره (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا) .

٨ - ذكر (زامباور) محمد بن موسى (٨٠٣ - ٨١٤هـ / ١٤٠٠ - ١٤١٢م) انه محمد (الثاني) بينما ورد في (HNA) ص ١٨٥ انه (محمد الثالث) لم يذكر (زامباور) له نقود، بينما في (HNA) الرقم (٦٥٥) دينار ذهبي ضرب بتلمسان وعليه القابه (عبدالله - الواثق بالله أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين) ودينار ذهبي آخر ضرب بتلمسان ايضا عليه (عبدالله - الواثق بالله أمير المؤمنين) انظر : (HNA) الرقم (٦٥٧) رفع محمد شعاره على دنانيره (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) و (يأأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) .

٩ - لم يذكر (زامباور) ص ١١٩ نقود لعبدالرحمن (الثالث)

بن محمد (الثاني) - (٨١٤ - ٨١٤هـ / ١٤١١ - ١٤١١م) بينما ظهر في (HNA) الرقم (٦٥٨)دينار ذهبي ضرب بتلمسان وعليه الألقاب (عبدالله - المتوكل على الله) ورد شعاره على ديناره (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب).

- ذكر (زامباور) ص ١١٩ أن والد عبدالرحمن هو (محمد الثاني) بينما ورد في (HNA) ص ١٨٦ أنه عبدالرحمن (الثالث).

- ذكر (زامباور) ص ١١٩ حكم عبدالرحمن (شهران) في سنة (٨١٤هـ) بينما ورد في (HNA) ص ١٨٦ حكمه ما بين (٨١٣ و ٨١٤هـ).

١٠ - لم يذكر (زامباور) ص ١١٩ نقوداً عبدالرحمن بن موسى حكم مرتين (٨١٥ - ٨٢٧هـ / ٨٣١ - ٨٣٣هـ / ١٤١٢ - ١٤٢٣م / ١٤٢٧ - ١٤٢٩م) بينما ورد في (HNA) رقم (٦٥٩) دينار ذهبي (لم تظهر السنة) عليها القابه (عبدالله أمير المسلمين المتوكل على الله) رفع عبدالرحمن شعاره على ديناره (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا).

- ذكر (زامباور) ص ١١٩ بداية حكم عبدالواحد (٨١٥هـ) بينما ورد في (HNA) ص ١٨٧ إلى هذه البداية سنة (٨١٤هـ).

١١ - لم يذكر (زامباور) ص ١١٩ نقود لمحمد (الثالث) بن عبدالرحمن (الثاني) - (٨٢٧ - ٨٣٣هـ / ١٤٢٣ - ١٤٢٩م) بينما ظهر له دينار ذهبي في (HNA) الرقم (٦٦٣) ضرب تلمسان (لم تظهر السنة) وعليه القابه وكنيته (عبدالله المتوكل على الله أمير المسلمين أبو عبدالله) كما ورد في (HNA) دينار ذهبي آخر الرقم (٦٦٤) - (لم تظهر السنة) عليه القابه وكنيته (عبدالله المتوكل على الله أبو عبدالله) رفع شعاره على دنانيره (الحمد لله رب العالمين) و (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين).

- يذكر (زامباور) ص ١١٩ أن محمد هو (الثالث) بينما ورد في (HNA) ص ١٨٨ أنه (الرابع).

- يذكر (زامباور) ص ١١٩ حكمه ما بين (٨٢٧ و ٨٣٣هـ) وقد تخللتها فترة حكم عبدالواحد الفترة الثانية ما بين (٨٣١ و ٨٣٣هـ) بينما يذكر (HNA) ص ١٨٨ أنه حكم مرتين الأولى ما بين (٨٢٧ و ٨٣١هـ) والثانية ما بين (٨٣٣ و ٨٣٤هـ).

١٢ - ذكر (زامباور) ص ١١٩ حكم أحمد المعتصم بن موسى (٨٣٣ - ٨٦٦هـ / ١٤٢٩ - ١٤٦١م) وذكر (HNA) ص ١٨٨ بداية حكمه في سنة (٨٣٤هـ) ظهرت له دنانير ذهبية في (HNA) رقم (٦٦٥) ضربت بتلمسان (لم تظهر المدينة) عليها (عبدالله المعتصم بالله أبي العباس أمير المؤمنين) و (عبدالله أمير المسلمين المعتصم بالله) ولقب وكنية والده أحمد الأول (أمير المؤمنين أبي . . . .) انظر : (HNA) ص ١٨٨ و (عبدالله المعتصم بالله أبي العباس) انظر : (HNA) رقم ٦٦٦ و (عبدالله أبو العباس) انظر : (HNA) رقم (٦٦٨) رفع أحمد شعاره على دنانيره (من يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) و (الحمد لله / والشكر لله / وما بكم من نعمة فمن الله).

١٣ - ذكر (زامباور) ص ١١٩ حكم محمد (الرابع) المتوكل بن فلان بن يوسف (٨٦٦ - ٨٨١هـ/ ١٤٦١ - ١٤٧٦م) بينما ورد في (HNA) نهاية حكمه في (٨٧٣هـ)

- ورد في (زامباور) ص ١١٩ أن محمد هو (الرابع) بينما ورد في (HNA) ص ١٨٨ أنه محمد (الخامس)

١٤ - ذكر (زامباور) ص ١١٩ حكم عبدالله (الثاني) بن محمد (الرابع) (٩٣٤ - ٩٤٧هـ/ ١٥٢٧ - ١٥٤٠م) ذكر (HNA) ص ١٩٠ انه بن محمد (الخامس)، كان عبدالله (الثاني) منذ عام (٩٣٤) وحتى (٩٤٢هـ) أحد ولاة العثمانيين زمن السلطان سليمان الأول.

- لم يذكر (زامباور) له نقود بينما ذكر (HNA) له دينار ذهبي انظر: الرقم ٦٧٠ (لم تظهر السنة والمدينة) عليه (عبدالله المتوكل على الله أمير المسلمين) ولقبه وكنية السلطان العثماني سليمان (عبدالله أمير المؤمنين أبي الربيع).

١٥ - ذكر (زامباور) ص ١١٩ حكم محمد (السابع) بن عبدالله (الثاني) (٩٥٠ - ٩٥٧هـ/ ١٥٤٣ - ١٥٥٠م) ولكن تخللتها فترة حكم ابو زيان احمد (الثالث) للمرة الثانية (وهو عامل عثماني)، بينما ذكر (HNA) ص ١٩١ أن محمد حكم مرتين الأولى ما بين (٩٤٧ و ٩٤٩ هـ) والمرة الثانية ما بين (٩٤٩ و٩٥٠ هـ).

- ذكر (زامباور) ص ١١٩ أن محمد هو (السابع) بينما ذكر (HNA) ص ١٩١ أن محمد (الثامن).

- لم يذكر (زامباور) ص ١١٩ لمحمد (السابع) نقود بينما ورد في (HNA) الرقم (٩٧١) دينار ذهبي ضرب بتلمسان (لم تظهر المدينة) عليه القابه وكنيته (عبدالله المتوكل على الله أمير المسلمين أبي عبدالله) وألقاب وكنية السلطان العثماني سليمان القانوني (عبدالله أمير المؤمنين أبي الربيع).

- لم يذكر (زامباور) ص ١١٩ نقود للحسن بن عبدالله (الثاني) (٩٥٧ - ٩٦٢هـ/ ١٥٥٠ - ١٥٥٤م) بينما ورد في (HNA) الرقم ٩٧٢ دينار ذهبي ضرب بتلسمان عليه كنيته (أبو محمد).

- ذكر (زامباور) ص ١١٩ أن نهاية حكم الحسن (٩٦٢هـ) التي استولى فيها صلاح رئيس باشا العثماني على مدينة تلمسان نهائياً وبذلك انتهت دولة بني زيان بينما (HNA) ص ١٩٢ نهاية حكمه (٩٦٤ هـ).

أحد عشر بنو مرين بفاس (زناته)
(٥٩٢ - ٨٦٩هـ/ ١١٩٥ - ١٤٦٤م)
عدد المقام سبعة وعشرون

١ - لم يذكر (زامباور) ص ١٢٢ نقود لأبي يحيىٰ أبو بكر بن عبد الحق (٦٤٢ - ٦٥٦هـ/ ١٢٤٤ - ١٢٥٨م) ورد له دنانير ذهبية (لم يرد عليها السنة والمدينة إضافة إلى الكنىٰ والألقاب) انظر : (HNA) الرقم (٦٧٣) اقتصرت دنانيره على الآيات القرآنية والعبارات الدينية وهي شعارات له (الملك لله والحمد لله والشكر لله / وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) و (والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم/ الواحد الله/ القرآن كلام الله/ الشكر لله والمنّة لله والحول والقوة بالله/ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) و(لا حول ولا قوة الا بالله/ نصر من الله وفتح قريب) وغيرها من الشعارات.

٢ - لم يذكر (زامباور) ص ١٢٢ نقود لأبي يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ - ٦٨٥هـ/١٢٥٨ - ١٢٨٦م) ورد له دنانير ذهبية (لم يرد عليها السنة والمدينة) في (HNA) الرقمين (٧١٣ و٧١٤) ورد عليها القابه (أمير المسلمين - ناصر الدين القائم لله باعلاء دين الحق عبدالله) أو (أمير المسلمين - القائم لله باعلاء دين الحق عبدالله) شعاره على دنانيره السابقة (الأمر كله لله/ والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم/ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء قدير) و(الله خير حافظ وهو ارحم الراحمين ولله الحق وله الملك) وغيرها.

٣ - ذكر (زامباور) ص ١٢٢ لقب أبو يعقوب يوسف بن يعقوب (٦٨٥ - ٧٠٦هـ/١٢٨٦ - ١٣٠٦م) (الناصر لدين الله) لم يرد على ديناره المضروب في سبته (لم تظهر السنة) لقب أو كنية انظر : (HNA) رقم (٧١٥) وعلى دنانيره رفع الشعارات التالية (الأمر كله لله/ الملك لله وحده/ لاقوه الا بالله/ العظمة لله/ وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم/ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم/ والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم) وغيرها.

٤ - ذكر (زامباور) ص ١٢٢ حكم عثمان (الثاني) بن يعقوب (٧١٠ - ٧٣٢هـ/ ١٣١٠ - ١٣٣٤م) بينما ذكر (HNA) ص ٢٠١ نهاية حكمه في (٧٣١هـ).

ورد في (HNA) على دنانيره الذهبية القابه وكنيته (عبدالله ابي سعيد - امير المسلمين) المضروبة في زامور وسبتة وفاس الأرقام (٧٢٦ و٧٢٧ و٧٣٥) و (عبدالله ابي سعيد) المضروبة في سجلماسه ومراكش الرقمين (٧٢٨ و٧٤٤) و(عبدالله ابي سعيد - أمير المسلمين) واللقب (الخلفاء الراشدين) لوالد وجد عثمان الثاني المضروبة في سجلماسه انظر : الرقم (٧٣١) و (عبدالله المستنصر بالله أبي سعيد - أمير المؤمنين) المضروبة في سجلماسة انظر : الرقم (٧٢٩).

وعلى دنانير عثمان ظهر شعاره (الحمد لله/ وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) وغيرها.

٥ - لم يذكر (زامباور) نقود لأبي الحسن علي بن عثمان (٧٣٢ - ٧٤٩هـ/ ١٣٣١ - ١٣٤٨م) بينما ظهرت له دنانير ذهبية ضربت في أزمور وسجلماسه وفاس وتلمسان قد اقتصرت على الآيات القرآنية والعبارات الدينية وغيرها انظر : (HNA) (ص ٢٠٥ - ٢٠٨) منها (لا قوة الا بالله/ الحمد لله/ والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم)° و (الحمد لله والملك لله/ والمنة لله والعزة لله والشكر لله/ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) و(الأمر كل لله الشكر لله/ والمنة لله/ والعظمة لله/ ولا غالب إلا الله/ والأمر كله لله/ والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم) وغيرها.

- ذكر (زامباور) ص ١٢٢ حكم علي بن عثمان ما بين (٧٣٢ و٧٤٩هـ) بينما ورد في (HNA) ص ٢٠٥ حكمه ما بين (٧٣١ و٧٥٢هـ).

٦ - ذكر (زامباور) ص ١٢٢ حكم فارس بن علي (٧٤٩ - ٧٥٩هـ/١٣٤٨ - ١٣٥٧م) القابه على دنانيره الذهبية المضروبة في بجاية وتلمسان وسجلماسه وفاس ومراكش (عبدالله - أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين) انظر : (HNA) الأرقام (٧٦٩ و٧٧٢ و٧٧٤ و٧٧٦ و ٧٧٧) و(عبدالله المتوكل على الله - أمير المؤمنين) على دنانيره الذهبية المضروبة في بجاية وسجلماسة وفاس

ومراكش انظر : (HNA) الأرقام (٧٧٨ و٧٧٩ و٧٨٢ و٧٨٥) و(عبدالله ـ أمير المؤمنين) على ديناره الذهبي المضروب في سجلماسه انظر : (HNA) رقم ٧٨٠ و (مولانا ابي عثمان المريني) على الدينار الذهبي المضروب في مراكش انظر : (HNA) رقم ٧٨٦ (لم تظهر على جميع الدنانير السالفة سنة الضرب) وعلى دنانيره ظهر شعاره (الحمد لله وحده/ والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) و(نصر من الله وما بكم من نعمة فمن الله).

٧ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١٢٢ نقود لمحمد بن ابي عثمان (٧٥٩ ـ ٧٦٠هـ/١٣٥٧ ـ ١٣٥٨م) وورد على ديناره الذهبي المضروب بفاس القابه وكنيته (عبدالله المتوكل على الله الملك الرشيد ابي عبدالله السعيد) انظر : (HNA) رقم (٧٨٧) وعلى الدينار ورد شعاره (قل لن يصبنا الا ما كتب الله هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون قل هل تربصون).

ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٢ اسمه محمد بن أبي عنان بينما ورد في (HNA) اسمه محمد (الثاني) بن فارس بن علي.

٨ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١٢٢ نقود لابراهيم بن علي (٧٦٠ ـ ٧٦٢ هـ/١٣٥٨ ـ ١٣٦٠م) القابه وكنيته على ديناره الذهبي (لم تظهر المدينة بوضوح) ـ (عبدالله المستعين بالله أبي سالم) أمير المسلمين) انظر : (HNA) رقم (٧٨٨).

٩ ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٢ اسم محمد (الثاني) بن ابي عبد الرحمن وحكمه ما بين (٧٦٣ ـ ٧٦٨هـ/١٣٦٦ ـ ١٣٧٣م، بينما اشار (HNA) ص ٢١٣ نهاية حكمه ٧٦٧هـ ، وذكر (زامباور) ص ١٢٢ أن لقبه المنتصر، لم يرد هذا اللقب على دنانيره، وانما ظهرت القابه (عبدالله المتوكل على الله أمير المسلمين ـ السعيد) على دنانيره المضروبة في سلا وفاس (لم تظهر السنة) انظر : (HNA) الرقمين (٧٨٩ و٧٩٠) و(عبدالله المتوكل على الله ـ السعيد) انظر : (HNA) رقم (٧٩٢) كما ظهر على دنانيره شعاره (انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً).

ـ ورد في (زامباور) ص ١٢٢ اسمه محمد (الثاني) أبي عبدالرحمن، بينما ورد في (HNA) ص ٢١٣ أنه محمد (الثالث) بن يعقوب.

١٠ ـ لم يرد في جدول الحكام في (زامباور) ص ١٢٢ أسم أمير لبجاية (وانما اقتصر على شجرة النسب ص ١٢٤) والذي سبق حكم عبدالعزيز بن علي وهو عبدالمؤمن بن عمر (٧٦٤ ـ ٧٦٥هـ / ١٣٦٢ ـ ١٣٦٣م) ظهر له دينار ذهبي ضرب بسجلماسه (لم تظهر السنة) عليه القابه وكنيته (عبدالله أمير المسلمين أبو مالك) ولقب والده عمر بن عثمان الثاني (أمير المسلمين) لم يستلم الحكم انظر : (HNA) رقم ٧٩٣، وعلى ديناره ورد شعار عبدالمؤمن (الحمد لله وحده / والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم).

١١ ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٢ حكم عبدالعزيز بن علي (٧٦٨ ـ ٧٧٤هـ / ١٣٦٦ ـ ١٣٧٣م) ولقبه وكنيته (أبو فارس المستنصر) لم ترد على دنانيره، ظهرت له دنانير ذهبية ضربت بتلمسان وفاس (لم تظهر السنة) وعليها القابه (عبدالله أمير المسلمين) انظر : (HNA) الرقم (٧٩٤ و ٧٩٥) و (مولانا ـ أمير المؤمنين)على دنانيره الذهبية المضروبة في مراكش (لم تظهر السنة) انظر : (جـ٥ ل) الرقمين (١٦٦ و١٦٩) وعلى دنانيره ظهر شعاره عبدالمؤمن (الحمد لله وحده / والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم / هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم).

١٢ ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٢ حكم محمد (الثالث) بن عبدالعزيز ما بين (٧٧٤ ـ ٧٧٦هـ / ١٣٧٣ ـ ١٣٧٤م) كنيته ولقبه (أبو زيان السعيد) لم ترد على دنانيره.

ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٢ أنه محمد (الثالث) بينما ورد في (HNA) ص ٢١٤ أنه محمد (الرابع).

ـ ظهر له دينار ذهبي ضرب بفاس (لم تظهر السنة) عليه القابه (عبدالله أمير المسلمين ـ السعيد) ولقب اجداده (الخلفاء الراشدين) انظر : (HNA) رقم (٧٩٧) وعلى دينار آخر ضرب بفاس (لم تظهر السنة) ظهر (عبدالله ـ السعيد) انظر : (HNA) رقم (٧٩٩) وعلى دنانيره رفع شعاره (الحمد لله وحده / الهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم / هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) وغيرها.

١٣ ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٢ حكم أحمد بن إبراهيم (٧٧٦ ـ ٧٧٦هـ / ١٣٧٤ ـ ١٣٧٤م) ومعه عبدالرحمن أبي يفلوسن بمراكش حتى عام ٧٨٤هـ التي انفرد فيها، ظهرت له دنانير ذهبية ودرهم فضي ضربت بفاس ومراكش وسبته وازمور وتطوان، عليها القابه (عبدالله المستنصر بالله) و (مولانا المستنصر بالله) و (عبدالله المستنصر بالله مولانا) و (عبدالله ـ أمير المسلمين)

و (عبدالله المستنصر بالله أمير المسلمين) إضافة إلى لقب أجداد أحمد (الخلفاء الراشدين) و (عبدالله المستنصر بالله أبي العباس ـ أمير المؤمنين) انظر : (HNA) الأرقام (٨٠١ و٨٠٢ و٨٠٨ و٨٠٩ و٨٢٠ و ص ٢٧٨ و٨١٠ و٨١٨ و٨١٩ و٨٢١ و٨٢٨ و٨٢٠ و٨٢٧). شعاره على دنانيره (نصر من الله وفتح قريب) و (لا غالب الا الله / والهكم اله واحد / لا اله الا هو الرحمن الرحيم) و (الحمد لله رب العالمين) و (الحمد لله وحده / والهكم اله واحد / لا اله الا هو الرحمن الرحيم / هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) وغيرها.

١٤ ـ ذكر (زامباور) حكم عبدالرحمن أبي بفلوسن بمراكش (٧٧٦ ـ ٧٨٤هـ / ١٣٧٤ ـ ١٣٨٤م) انفرد بالحكم عام ٧٨٤هـ في مراكش، ظهر على ديناره الذهبي المضروب في مراكش (لم تظهر السنة) لقب (السيد) انظر : (HNA) رقم (٨٣١) و (المتوكل على الله) على ديناره الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) انظر : (HNA) رقم (١١٥٠) رفع شعاره على دنانيره (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره / وما توفيقي الا بالله / وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد) و (نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين / وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب) و (الأمر كله لله لا قوة الا بالله).

١٥ ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٢ حكم موسى بن أبي عنان المتوكل على الله أبو فارس (٧٨٦ ـ ٧٨٨هـ / ١٣٨٤ ـ ١٣٨٦م).

ـ لم يذكر (زامباور) ص ١٢٢ له نقود، ظهرت على ديناره الذهبي المضروب بفاس (لم تظهر السنة) القابه وكنيته (عبدالله بن فارس ـ أمير المسلمين المتوكل على الله) انظر : (HNA) رقم ٨٣٣ و (عبدالله أمير المسلمين المتوكل على الله) انظر : (HNA) رقم (٨٣٤).

١٦ ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٢ حكم محمد بن أحمد (٤٣ يوماً) (٧٨٨ ـ ٧٨٨هـ / ١٣٨٦ ـ ١٣٨٦م)، لم يذكر (زامباور) له نقود، ظهر له دينار ذهبي بفاس (لم تظهر السنة) عليه القابه (عبدالله المستنصر بالله ـ أمير المسلمين) والقاب أجداده (الخلفاء الراشدين) انظر : (HNA) رقم (٨٣٥) ظهر على ديناره (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم).

ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٢ أنه محمد (الرابع) بينما ورد في (HNA) ص ٢٢١ أنه محمد (الخامس).

١٧ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١٢٢ نقود لعبدالعزيز بن أحمد (٧٩٩ ـ ٨٠٠هـ / ١٣٩٦ ـ ١٣٩٧م). ظهرت القابه على دنانيره الذهبية المضروبة في فاس وسجلماسه ومراكش (لم تظهر السنة) ـ (عبدالله المستنصر بالله) و (مولانا) و (عبدالله أمير المؤمنين) و (أمير المؤمنين) و (خليفة الله) انظر : (HNA) الارقام (٨٣١ و٨٤٠ و٨٤٣ و٨٣٧ و٨٣٩ و٨٥٣ و ص ٢٢٥) رفع شعاره عليها (الحمد لله وحده / هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم / والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم) و (الحمد لله / والمنة لله / والشكر لله) و (ما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) وغيرها.

ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٢ حكم عبدالعزيز ما بين (٧٩٩ و ٨٠٠هـ) بينما ورد في (HNA) ص ١٢٢ حكمه ما بين (٧٩٦ و٧٩٩هـ).

١٨ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١٢٢ نقود لعبدالله بن أحمد (٨٠٠ ـ ٨٠١هـ / ١٣٩٧ ـ ١٣٩٨م) ظهرت له دنانير ضربت في أزمور وسجلماسه وفاس (لم تظهر السنة) وعليها القابه (عبدالله المستنصر بالله) انظر : (HNA) الارقام (٨٥٥ و ٨٥٧ و ٨٥٨) رفع شعاره على دنانيره (الحمد لله والمنة لله ولا قوة الا بالله).

ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٢ حكم عبدالله (٨٠٠ ـ ٨٠١هـ) بينما ورد في (HNA) ص ٢٢٥ حكمه ما بين (٧٩٩ ـ ٨٠٠هـ).

ـ لم يذكر (زامباور) ص ١٢٣ نقود لعثمان (الثاني) بن أحمد (٨٠١ ـ ٨٣١هـ /١٣١٨ ـ ١٤٢٧م) ظهرت له دنانير ذهبية ضربت في سبته وسجلماسه وفاس ومراكش (لم تظهر السنة) وعليها القابه (عبدالله المستنصر بالله) و (عبدالله أمير المسلمين) و (أمير المؤمنين) انظر : (HNA) الارقام (٨٦١ و ٨٦٤ و ٨٦٦).

ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٣ بداية حكم عثمان الثاني (٨٠١هـ) بينما ورد في (HNA) ص ٢٢٦ هذه البداية ٨٠٠هـ، ذكر زامباور ص ١٢٣ أنه لم يتول أحد من بني زيان منذ سنة ٨٢٣ وإلى سنة ٨٣١هـ ، ولي أبو مالك عبدالواحد بن موسى سنة ٨٣١هـ.

٢٠ ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٣ حكم عبدالحق بن عثمان (٨٣١ ـ ٨٦٩هـ / ١٤٢٧ ـ ١٤٦٤م) ظهر له درهم فضي (لم تظهر السنة) عليه لقبه (أمير المسلمين) انظر : رقم (١١٥١).

ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٣ بداية حكم عبدالحق ٨٣١هـ

بينما ورد في (HNA) ص ٢٢٧ و ٢٧٨ هذه البداية في عام ٨٢٣هـ. وفي (زامباور) أيضاً ذكر أنه لم يتول أحد من بني مرين منذ شهر رمضان ٨٦٩ - ٨٧٥هـ وانما ولي الامام أبو عبدالله محمد بن علي بن عمران الجوطي.

ثاني عشر **بنو نصر بغرناطة**

(٦٢٩ - ٧٩٧هـ / ١٢٣١ - ١٤٩١م)

عدد الحكام احدى وعشرون

١ - ذكر (زامباور) ص ٩٣ حكم محمد (الاول) بن يوسف بن نصر (٦٢٩ - ٦٧١هـ / ١٢٣١ - ١٢٧٣م) وقد ورد في ل جـ٢ ص ٤٥ حكم محمد ٦٣٥هـ.

- ورد في (HNA) ص ٢٢٨ أن محمد (الاول) كان من ولاة أو عمال بني حفص قبل أن يعلن استقلاله سنة ٦٤٧هـ لذا جعل ديناره الرقم (٥٥٦) في ص ١٦٢ ضمن نقود بني حفص ولكن (ل جـ٢ ص ٤٦) اعتبر مثل هذه الدنانير لمحمد (الاول) مستقلة).

- ورد لمحمد درهم فضي ضرب في غرناطة عليه لقبه (عبدالله الغالب بالله) أنظر : (ل جـ٢) رقم (١٧٠).

٢ - ذكر (زامباور) ص ٩٣ أن لمحمد (الرابع) بن اسماعيل (٧٢٥ - ٧٣٣هـ / ١٣٢٤ - ١٣٣٢م) ديناراً وذكر (ل جـ٩) رقم (١٧٠ ك) ديناره الذهبي عليه (الأمير عبدالله) ولقب والده اسماعيل (أمير المسلمين أبي الوليد).

٣ - ذكر (زامباور) ص ٩٣ أن ليوسف (الاول) بن اسماعيل (٧٣٣ - ٧٥٥هـ / ١٣٣٢ - ١٣٥٤م) ديناراً وذكر (ل جـ٢) رقم (١٧١) له نقداً ذهبياً آخر (لم تظهر السنة والمدينة) عليه لقبه (الأمير عبدالله) ولقب والده اسماعيل (أمير المسلمين أبي الوليد).

٤ - ذكر (زامباور) ص ٩٣ لمحمد (الخامس) بن يوسف (٧٥٥ - ٧٦٠هـ / ١٣٥٤ - ١٣٥٨م) ديناراً وذكر (HNA) له ديناراً ذهبياً (لم تظهر السنة) يحمل الرقم ٨٦٨ عليه لقبه (الأمير عبدالله الغني بالله) وكنية ولقب والده يوسف الاول (أمير المسلمين أبي الحجاج)، وعلى دنانير ذهبية (لم يرد السنة والمدينة) ذكر (ل جـ٢) الرقمين (١٧٢ و ١٧٣) و (ل جـ٩) الرقم (١٧٢) اللقب (الأمير عبدالله) ولقب والده محمد (مولانا أمير المسلمين) وجده (أمير المسلمين أبي الوليد) و (أمير المسلمين) و (مولانا أمير المسلمين أبي الوليد).

٥ - لم يذكر (زامباور) ص ٩٤ نقود ليوسف (الثالث) بن يوسف (الثاني) - (٨١٠ - ٨٢٠هـ / ١٤٠٧ - ١٤١٧م) **ورد في** (HNA) رقم ١٧٤ القابه (عبدالله الناصر لدين الله) **على ديناره** الذهبي المضروب في غرناطة.

- ذكر (زامباور) ص ٩٤ بداية حكم يوسف (الثالث) ٨٠٠هـ بينما ورد في (ل جـ٢ ص ٤٥) هذه البداية ٨٠١هـ.

٦ - ذكر (زامباور) ص ٩٤ نقود لمحمد (التاسع) بن نصر (٨٣١ - ٨٣٥هـ / ١٤٢٧ - ١٤٣١م) ورد في (ل جـ٢) رقم ١٧٦ دينار ذهبي ضرب بغرناطة (لم تظهر السنة) عليه لقب (عبدالله الغالب بالله) ولقب والده نصر (أبي الجيوش) لم يستلم الحكم.

٧ - ذكر (زامباور) ص ٩٤ نقود لعلي بن سعد (٨٦٦ - ٨٨٧هـ / ١٤٦١ - ١٤٨٢م) ورد في (ل جـ٢) رقم (١٧٩) دينار ذهبي ضرب في غرناطة عليه اللقب (عبدالله الغالب بالله).

- ذكر (زامباور) ص ٩٤ بداية حكم علي بن سعد (٨٦٦هـ) بينما ذكر (ل جـ٢ ص ٤٥) هذه البداية كانت في سنة ٨٦٧هـ.

بنو وطاس

(٧٣١ - ٩٥٧هـ / ١٤٢٧ - ١٥٥٠م)

عدد الحكام ستة

١ - ذكر (زامباور) ص ١٢٣ نقود لمحمد (الاول) بن يحيى بن زيان (٨٦٣ - ٨٧٥هـ / ١٤٥٨ - ١٤٧٠م) ورد في (HNA) دينار ذهبي رقمه (٨٦٩) مضروب في أزمور (لم تظهر السنة) عليه لقبه (عبدالله السعيد) كما ذكر (HNA) ص ٢٢٩ أن كنية محمد (الأول) هي (أبو عبدالله) لم ترد على نقوده.

- ذكر (زامباور) ص ١٢٣ حكم محمد (الاول) ما بين (٨٦٣ - ٨٧٥هـ) بينما ورد في (HNA) حكمه ما بين (٨٦٩ و ٩١٠هـ).

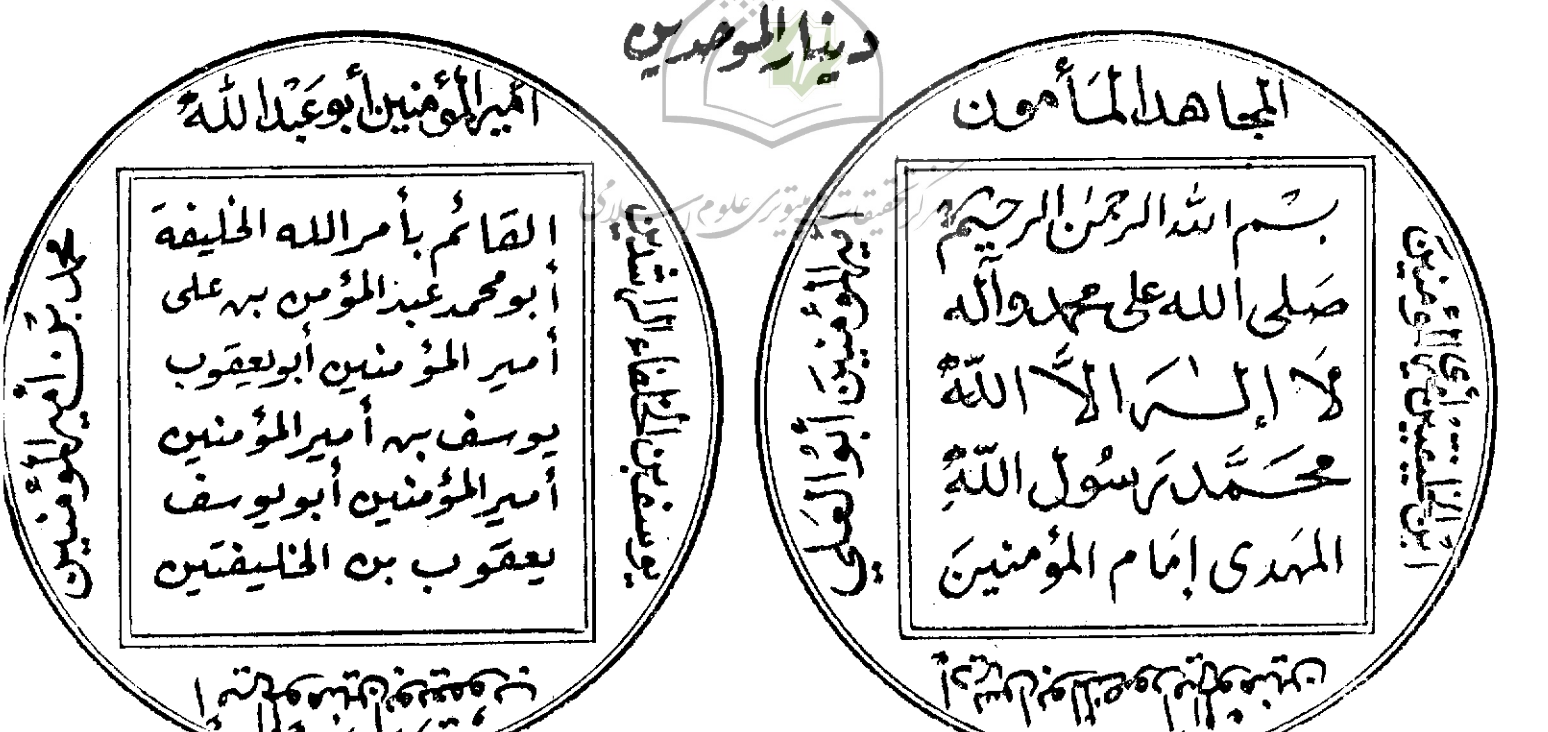
٢ - لم يذكر (زامباور) ص ١٢٣ نقود لمحمد (الثاني) بن محمد (الاول) ٨٧٥ - ٩٣١هـ / ١٤٧٠ - ١٥٢٤م، لقبه (أمير المسلمين) على ديناره الذهبي (لم تظهر السنة والمدينة) انظر : 67HNA رقم (٨٧٠) ورد شعاره على ديناره (الحمد لله رب العالمين) ولقبه (عبدالله أمير المسلمين) على درهمه الفضي (لم تظهر السنة والمدينة) انظر : (HNA) رقم ١١٥٤، رفع محمد شعاره على نقوده (الحمد لله رب العالمين).

ـ ذكر (زامباور) ص ١٢٣ حكم محمد (الثاني) ما بين ٨٧٥ و ٩٣١هـ بينما ورد في (HNA) ص ٢٢٩ حكمه ما بين ٩١٠ و ٩٣٢هـ.

٣ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١٢٣ نقود لأحمد بن محمد (الثاني) ـ (٩٣١ ـ ٩٥٧هـ / ١٥٢٤ ـ ١٥٥٠م) وأنه حكم مرة واحدة بينما ورد في (HNA) ص ٢٨٠ أنه حكم مرتين الأولى ما بين (٩٣٢ و ٩٥٢هـ) الثانية ما بين (٩٥٦ و ٩٥٧هـ) ظهر له درهم فضي في (HNA) رقم (١١٥٦) ـ (لم تظهر السنة والمدينة) عليه (عبدالله ـ أمير المسلمين) رفع شعاره على نقوده (الحمد لله رب العالمين).

٤ ـ لم يذكر (زامباور) ص ١٢٣ ـ ١٢٤ اسم (علي الثاني بن محمد الأول) في جدول تسلسل الحكام لبني وطاس، وإنما ورد في شجرة النسب، ذكر (HNA) ص ٢٨٠ أن علي (الثاني) حكم مرتين الأولى (٩٣٢ و ٩٣٢هـ) والمرة الثانية (٩٦١ و ٩٦١هـ).

ورد له درهم فضي في (HNA) رقمه ١١٥٥ (لم تظهر السنة والمدينة) عليه القابه (عبدالله أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين).



عـــروض الكتـــب

مراجعة كتاب
الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين

أ. د. محمد عدنان البخيت

بدأت قضية الموريسكيين ببعدها التاريخي تستحوذ على اهتمام الباحثين العرب بعد أن نالت عناية كبيرة من الباحثين الأوروبيين والأمريكان، وكان الاعتقاد السائد قبل ذلك أن الوجود العربي الاسلامي في الأندلس قد انقرض مع توقيع معاهدة التنازل عن غرناطة وجوارها الى ملك وملكة اسبانيا عام ١٤٩٢م، وحقيقة الأمر أن الوجود العربي الاسلامي امتد الى مطلع القرن السابع عشر حيث استطاع العرب المسلمون أن يحافظوا على تقاليدهم وشعائرهم الاسلامية بالرغم من حملة الاضطهاد المكثفة التي وجهت ضدهم، و يعتقد بعض الباحثين أن العرب المسلمين لم يكتفوا بالهجرة فراراً بدينهم الى الشمال الافريقي، بل هاجروا الى أمريكا اللاتينية أيضاً. والسؤال المطروح لدى الباحثين ما هو موقف الدولة العثمانية تجاه محنة المسلمين في الأندلس، ولماذا لم تجيش الدولة العثمانية قواتها البحرية من أجل رد هذه المصيبة التي مني بها المسلمون في الأندلس؟ لا سيما وأن عدداً من الاستغاثات قد أرسلت الى السلطان العثماني في استانبول طالبة النجدة منه.

ويحاول الزميل الدكتور عبد الجليل التميمي الأستاذ بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس من خلال خمس دراسات أعدها ونشرها في المجلة التاريخية المغربية وهي:
الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، ورسالة من مسلمي غرناطة الى السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٤١م، ورسالة من السلطان العثماني أحمد الأول الى دوق البندقية سنة ١٦١٤م حول الموريسكيين، وواقع ومستقبل الدراسات التاريخية: من مأساة الموريسكيين-الأندلسيين، والخلفية الدينية للصراع الاسباني-العثماني وقضية الموريسكيين، وأعاد الدكتور التميمي نشرها من جديد باسم الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين أن يسلط الضوء على ما لحق بالمسلمين وبخاصة النساء والأطفال من أذى خلال ما يزيد على قرن من الزمان، ومما يلفت النظر هنا دور المرأة العربية المسلمة في الحفاظ على استمرار العقيدة وعلى امتداد التقاليد العربية الاسلامية، كما أن الجاليات الموريسكية بما في ذلك التي هاجرت الى استانبول، قد لعبت دوراً في التعريف بأبعاد هذه النكبة الجديدة.

وتشمل هذه الدراسة ميزة خاصة هي الاعتماد على ما جاء في «دفاتر المهمة» من نصوص تتعلق بهذا الموضوع بما في ذلك مراسلات السلاطين العثمانيين من أجل تأمين سلامة المرور لهؤلاء المهاجرين مثل الرسالة التي كان قد أرسلها السلطان سنة ١٦١٤م الى دوق البندقية بتقديم العون للموريسكيين للالتحاق بأرض الدولة العثمانية.

ويلاحظ من خلال هذه الدراسات أن الدولة العثمانية كانت تمد يد العون وتسعى بكل جهدها للحفاظ على العروبة والاسلام في الشمال الافريقي الا أنه لم يكن في تخطيط الدولة العثمانية أن تتورط في نزاع مسلح مع القوة الكاثوليكية في اسبانيا من أجل الحفاظ على البقية الباقية من الوجود العربي والاسلامي في شبه الجزيرة الآيبيرية.

من هنا فان دراسة الأستاذ الزميل التميمي حرية بأن تكون موضع اهتمام الزملاء والباحثين العرب، لا سيما وأنه، ومنذ عدة سنوات، بدأ يعطي هذا الموضوع المزيد من عنايته، ونظم ندوة عالمية عالجت الموضوع من مختلف جوانبه.

دفتر مُفّصل لواء عجلون
طابو دفتري رقم ٩٧٠ ـ استانبول

منشورات الجامعة الأردنية ، عمـان ، ١٩٨٩ .

دراسـة وتحقيق وتـرجمة الاستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت والسيد نوفان رجـا الحمود

عرض أسامة يوسف شهاب
مركز اللغات ـ الجامعة الأردنية

يلمح الباحث أن عدداً كبيراً من الدارسين بدأوا بالتوجه نحو تاريخ الـدولـة العثـمانية، كدولـة، باعتبـارها تمثل آخر خلافة اسلامية، وككيان له علاقات وطيدة مع الأقطار المجاورة للدولة العلية العـالية السلطنة العثمانية، وأزعم أن التقصير واضحٌ في ابـراز علاقـة الـدولـة العثـمانية مع الأقطار العربية، وما زالت الدراسات محدودة موجزة في هذا المجال وأكاد أزعم بأنها معدودة على أصابع اليد !!.

ويفخـر المـرء بجهـود مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية في هذا الميدان الرحب، ويفخر المرءُ فخراً آخر بجهود الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، والأخ الأستاذ نوفان رجا الحمود في هذا المجال، فقد حققا ـ معاً ـ دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر وتوابعها ولواحقها التي كانت في تصرف الأمير طره باي سنة ٩٤٥هـ، منشورات الجامعة الأردنية، عمـان، ١٩٨٩ . كما درس الأستـاذ البخيت ناحية بني الأعسر في القـرن العـاشر الهجري، مجلة دراسـات، الجـامعـة الأردنية، عمـان، ع٧، ١٩٨٨، ص ١٤٩ ـ ٢٦٦ . وناحية بني جهمة في القرن العاشر الهجري/ السـادس عشر الميلادي، ونـاحية بني كنانة (شمالي الأردن) في القرن العاشر الهجري، منشورات الجامعة الأردنية، عمـان، ١٩٨٩ .

وضمن هذا الاطار الذي يهدف إلى نشر النصوص العثمانية وترجمتها إلى اللغة العربية مع دراسة تحليلية موجزة في عرضها، صدر من منشورات الجامعة الأردنية، «دفتر مفصل لواء عجلون» وهو من محفوظات أرشيف رئاسة الوزراء باستنبول، مصنف تحت رقم ٩٧٠، وقد بلغ عدد صفحات هذا الدفتر ١٢٧ صفحة، ولم يدون فيه تاريخ التحرير، ولكن كما جاء في مقدمة هذه الدراسة ـ من المرجح أن يكون تحريره قد تمّ في عهد السلطان سليمان القانوني، إذ يذكر هذا الدفتر عدد الاقطاعات التي كانت ممنوحة إلى الأمـير البـدوي طره باي، أمير لواء عجلون، واقطاع هذا الأمـير كما نصَّ عليه دفـتر رقم ١٩٢، يعود إلى سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م، والذي يحمل عنوان «دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر وتـوابعهـا، ولـواحقهـا التي كانت في تصرف الأمـير طره باي ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م، وقـد أشرت إليه فيما سبق. وقـد حاول المحققان جاهدين أن يخرج هذا العمل على أفضل وجه ممكن، على الرغم من أن بعض صفحات هذا الدفتر قد أصابها التلف، وبخاصة الأطراف العلوية منها، كما وردت فيه بعض الصفحات البيضاء التي قد تسبب أرباكاً للمحقق والمترجم عند درس وعرض مادتـه. وقـد ترجمـا النصـوص العثمانية الواردة في هذا الدفتر، ووضحـا المصـطلحات، وفسرا بعض الرموز، كما عرّفا ببعض المـواقع والأمكنة الواردة فيه، وزودا الدراسة بجداول احصائية دقيقة لاعطاء صورة واضحة عن وضع هذا اللواء، وتوخياً للدقة فقـد اثبتا النص الأصلي مع الترجمة العربية، وختما هذا الدفتر بخارطة توضيحية للواء عجلون في أواخر القرن العاشر الهجري، حبـذا لو كانت هذه الخـارطة ملّونة حيث يمكن الاستفادة من جهـود المـركـز الجغـرافي الملكي، وحبـذا ـ الاخرى ـ لو رسم المحققان خارطة أخرى للواء عجلون في العصر الراهن، لنرى مدى التغييرات التي حصلت في هذا اللواء بين أواخـر القـرن السادس عشر الميلادي، وأواخر القرن العشرين !!.

كان لواء عجلون بموجب هذا الدفتر تابعاً لولاية دمشق الشام

«شام شريف» وتنحصر حدود هذا اللواء بين نواحي بني كنانة وبني جهمة وبني الأعسر شمالاً، التي كانت تابعة للواء حوران، وبين وادي موسى جنوباً، ومن شريعة الأردن والبحر الميت ووادي عربة غرباً، إلى طريق الحج الشامي شرقاً. وهكذا جاءت اهمية هذا اللواء لسيطرته على جزء من طريق الحج الشامي، بالاضافة إلى أنه كان منطقة استقرار سكاني، ومنطقة انتاج زراعي كثيف، كان يمد الدولة بجزء رئيسي من حاجتها للمواد الغذائية، وبعدد لا بأس به من أفراد القوات العسكرية.

أما عن التقسيمات الادارية للواء عجلون فقد كان يتشكل من النواحي الادارية التالية :

أ . ناحية عجلون، وتضم عدة قرى، وتجمعات سكانية، انظر ص ١٠.

٢ . وناحية السلط، وتضم عدة قرى، انظر ص ١١.

٣ . ناحية علان، وهي احدى قرى ناحية السلط واكبرها وأكثرها سكاناً، وتتكون قرية علان من أربع محلات هي: محلة القاضي، ومحلة صالح بن محمد، ومحلة محمد بن صالح، ومحلة عبدالله ولد عليان.

٤ . طوائف عربان لواء عجلون.

٥ . ناحية الكرك وشملت خمس نواح صغيرة، انظر ص ١٢ ـ ١٣.

وقد بلغ تعداد سكان هذا اللواء ٦٧١٦ خانه، و٢٢٨ مجردا، و١٣٨ مؤذنا وإماماً وشيخ زاوية، و٣ أسياد وأعمى واحد. ويشير الدفتر إلى سكان قرية عجلون بأنهم من أهل الكسب وليسوا من الفلاحين وإن كان لبعضهم اشجار زيتون وتين ورمان. كما سكنها عدد من أهالي ادارعة (درعا) وهذا يشير إلى امكانية ترحل السكان بين نواحي الدولة. وعرض المحققان بصورة مفصلة نظام التيمار في اللواء (الاقطاعات) التي منحتها الدولة آنذاك للزعامة المحلية ولكبار موظفيها من العسكر (الزعماء والسباهية) في هذا اللواء.. كما عرضا للحياة الاقتصادية والزراعة والثروة الحيوانية، والجباية،.. والأوقاف : الوقف الخيري، انظر: ص ٢٢ ـ ٢٣، والوقف الذري، انظر : ص ٢٤.

وبدا الجهد واضحاً في تلك الجداول التي تبين عدد سكان قرى لواء عجلون دون طوائف العربان، وحصة الدولة أو من يمثلها من الحاصلات الزراعية، وحصة الدولة أو من يمثلها من رسوم الثروة الحيوانية، ومن الرسوم الأخرى، وأوقاف القرى والمزارع وقطع الأراضي.. ثم بدأ التحقيق والترجمة بعد ص ٥١ «قانون نامه لواء عجلون»، حتى ص١٦٨.

وقام المحققان بتعريف موجز للمواقع الواردة في الكتاب، ومصدر هذا التعريف، فعرّفا مثلاً بـ : الربض، وكفر عوان، وكفر ابيل، ودبين، ونحله، وبرمه، وعنجرا، وخنزيرية، وسموع، وكفر الما، وراجب، وعنبا، ودير يوسف، وساكب، وتبنه، والجزازة، ووادي سوف، وبيت يافا، وعرجان، وجرش، والصلت، وأم العمد، وعلان، والكرك، والطفيلة، والشوبك.. واثبتا في نهاية هذا الدفتر : المصادر، والمراجع العربية والانجليزية. كما فسرا بعض المصطلحات الواردة في الكتاب واثبتا فهرساً للأعلام وآخر للأماكن والمواقع، وآخر للجماعات والقبائل. وحبذا لو أجرى المحققان الفاضلان مقارنة بين عجلون العثمانية، وعجلون في هذا العصر، سيما وأن هنالك عدة دراسات جادة معاصرة تناولت هذه المدينة العربية وتاريخها منذ أقدم العصور حتى الآن، وذلك في مجال السكان، وأنواع الزراعة والمحاصيل، وأسماء القبائل والعشائر، وقد لمست عدة جذور في هذا الدفتر ما زالت ممتدة في أغصانها وأوراقها وثمارها حتى عصرنا الراهن.

وبعد... فإن هذا الجهد بارز واضح، وهو اضافة حقيقية للمكتبة عن عصر الدولة العثمانية.

الكشاف التحليلي للمؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام

المؤتمر الأول ـ المؤتمر الرابع (١٩٧٤ ـ ١٩٨٧)

اعداد محمد تيسير درويش ، عدول سلامه البخيت إشراف محمد عدنان البخيت .ـ

عمان : لجنة تاريخ بلاد الشام ، ١٩٩٠ ٢١٩ص ؛ ملاحق.

تعتبر الكشافات باشكالها المختلفة، ادوات توثيق هامة تساعد ذوي الاهتمام في الوصول الى المعلومات المطلوبة بيسر وسهولة. ونظراً لاهمية المؤتمرات الدولية المختلفة لتاريخ بلاد الشام بالنسبة للمتخصصين والباحثين والمعنيين لاحتوائها على العديد من الدراسات والبحوث التاريخية القيمة لمجموعة من المؤرخين والباحثين من مختلف انحاء الوطن العربي والعالم باللغة العربية وبعض اللغات الاجنبية الأخرى كالانجليزية والفرنسية، فقد وجد أن من المناسب أن يسجل لمؤتمرات تاريخ بلاد الشام التي عقدت حتى الآن (المؤتمر الأول وحتى المؤتمر الرابع) مسيرتها في كشاف تحليلي يتضمن الموضوعات التي طرحت ونوقشت والكتّاب والباحثين الذين ساهموا في الدراسات والابحاث التي طرحت ليكون في خدمة الباحثين والدارسين للجوانب المختلفة لتاريخ بلاد الشام.

وقد غطى هذا الكشاف التحليلي التراكمي جميع الأوراق والبحوث والدراسات التي طرحت ونوقشت في المؤتمرات الاربعة الأولى لتاريخ بلاد الشام التي عقدت خلال الفترة من عام ١٩٧٤ وحتى عام ١٩٨٧ والتي ظهرت في المطبوعات والمنشورات الصادرة عن المؤتمرات والمشار اليها في الكشاف حيث بلغ عددها تسعة عشر مجلداً.

وقد اشتملت المعلومات والبيانات الببليوغرافية عن كل مقال أو دراسة ما يلي :

- مؤلف المقال أو كاتبه
- عنوان المقال أو الدراسه
- صفحة البدء والانتهاء للمقال
- اسم المؤتمر متبوعاً برقم المؤتمر وتاريخ انعقاده ومكانه
- العنوان الموحد للمطبوع الذي ظهر المقال فيه
- رقم المجلد أو الجزء
- تفصيلات النشر : الناشر، ومكان النشر، وتاريخ النشر

وقد تم تنظيم الكشاف وترتيبه كما يلي :ـ

- كشاف المؤلفين :

حيث رتبت المقالات والدراسات هجائياً حسب أسماء مؤلفيها وتم تحديد كل مقال برقم متسلسل (الرقم المرجعي)

- كشاف العناوين :

يتضمن هذا الكشاف عناوين البحوث والدراسات مرتبة هجائياً، واتبع عنوان كل بحث أو دراسة باسم المؤلف أو الباحث والرقم المرجعي الخاص به

- كشاف الموضوعات :

ويتضمن الدراسات والأبحاث التي طرحت أو نوقشت في المؤتمر تحت رؤوس موضوعات جرى ترتيبها هجائيا. وتحت رأس الموضوع الواحد تم ترتيب المقالات هجائيا تحت اسماء المؤلفين أو الباحثين. كما تم ترتيب العناوين هجائيا للمؤلف أو الباحث الواحد واتبع العنوان بالرقم المرجعي لتسهيل الوصول اليه.

أما الاختصارات التي استخدمت في الكشاف فهي :

مج : تعني المجلد أو الجزء Vol. : Volume

ص : تعني صفحـــــة PP. : Page

وأما الرقم المرجعي فقصد به الرجوع إلى الرقم المتسلسل الخاص بالمؤلف. ويؤمل أن يكون هذا الكشاف عونا للباحثين والدارسين بحيث يمكنهم من الوصول إلى المعلومات المطلوبة بكل يسر وسهولة وأن يكون اداة ببليوغرافية تشكل حلقة اتصال بين مصادر المعلومات والباحثين

الـرسـائل الجامعية التي نوقشت في الجامعة الأردنية للعام الجامعي ١٩٨٩/١٩٩٠

قائمة بالرسائل الجامعية (درجة الماجستير)

التي نوقشت في الجامعة الأردنية خلال الفصل الأول
العام الجامعي ١٩٨٩/ ١٩٩٠

الطالب : محمود حسين شبيب هياجنة/ التاريخ
عنـــوان الرسالة : الوضع الزراعي في الأندلس منذ الفتح الاسلامي حتى سقوط دولة المرابطين .
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/٨/٢٩م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٨٩/٩/٥م .

الطالب : محمد ماجد صلاح الدين/ التاريخ .
عنـــوان الرسالة : العلاقات العربية العثمانية في بلاد الشام من ١٩١٤ ـ ١٩٧٦م .
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/٨/١٩م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٨٩/٩/١٠م .

الطالب : عوني عبد الكريم الذيب/ التاريخ
عنـــوان الرسالة : موقف الصحف العربية الفلسطينية من سياسة الانتداب البريطاني في قضيتي الهجرة والأراضي ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩م
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/١٢/٢٦م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٩٠/١/١٦م .

الطالب : خليل إبراهيم الحجاج/ التاريخ
عنـــوان الرسالة : التطور التاريخي ، التشريعية والنيابية في الأردن ١٩٢٠ ـ ١٩٥٣م .
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/١٢/٢٧م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٩٠/١/١٦م .

الطالب : غسان عبد الخالق الفطافطة/ اللغة العربية وآدابها
عنـــوان الرسالة : القضايا الأدبية في مقدمة ابن خلدون .
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/١٢/٣١م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٩٠/١/٨م .

الطالب : حميدي قناص المطيري/ علوم سياسية
عنـــوان الرسالة : الخيار النووي في الفكر الاستراتيجي الاسرائيلي .
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/٧/٢م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٨٩/٧/١٩م .

الطالب : خليل اسماعيل الحيه/ اصول الدين
عنـــوان الرسالة : الأحاديث الواردة في حقوق العمال ومسؤولياتهم .
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/٨/٢٠م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٨٩/٨/٢٦م .

الطالبة : سناء فضل حسن عباس/ اصول الدين
عنـــوان الرسالة : دراسة وتحقيق : سورة آل عمران والنساء، من مخطوط التحصيل لفوائد كتاب التفصيل .
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/٨/٢٦م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٨٩/٨/٣٠م .

الطالب : علي محمود الزقيلي/ القضاء الشرعي
عنـــوان الرسالة : تحقيق كتاب لسان الحكام في معرفة الاحكام للشيخ الامام أبي الوليد إبراهيم ابن محمد المعروف بابن الشحنة الحنفي (ت ٨٢٢هـ) من أول الكتاب الى بداية الفصل التاسع .
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/٩/٥م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٨٩/٩/٢٠م .

الطالب : عماد محمد رضا علي الحسن/ الفقه والتشريع
عنـــوان الرسالة : تحقيق : كتاب لسان الاحكام ـ للامام أبي الوليد إبراهيم المعروف بابن الشحنة (الحنفي المتوفي سنة ٨٨٢هـ) .
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/٩/٦م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٨٩/٩/٢٠م .

الطالب : شويش هزاع المحاميد/ الفقه واصوله .
عنـــوان الرسالة : عدالة الشاهد في القضاء الاسلامي .

تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/١١/٦م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٨٩/١٢/١٧م .

الطالب : فايز عبد الفتاح أحمد/ اصول الدين
عنــوان الرسالة : زوائد أبي داود الطيالسي .
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/١٢/١٦م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٩٠/١/٢٠م .

الطالب : عماد علي عبد اللطيف/ الفقه والتشريع
عنــوان الرسالة : الاشتراك في جريمة السرقة .
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/١٢/٣م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٩٠/١/٢٤م .

الطالب : عبد الرحيم فارس أبو علبه/ اصول الدين
عنــوان الرسالة : اسباب النزول ـ دراسة وتحليل .
تاريخ المناقشة : ١٩٨٩/١٢/٣١م .
تاريخ منح الدرجة : ١٩٩٠/١/٢٤م .

عناوين الرسائل التي أُقرت في الفصل الأول من العام الجامعي (٨٩/ ١٩٩٠)

الدكتــــوراة

الطالب (عبدالله نافع رويتع عنبر/ دكتوراة لغة عربية)، وعنوان الرسالة : «نظرية النظم عند العرب في ضوء مناهج التحليل اللساني الحديث».

الماجستير :

الطالبة (وعد محمد مفلح عربيات/ لغة عربية وآدابها)، وعنوان الرسالة : «النمر بن تولب ـ حياته وشعره».

الطالب (عبد الكريم محمد الزبن/ لغة عربية وآدابها)، وعنوان الرسالة : «الطبرسي ومنهجه في التفسير دراسة لغوية بيانية».

الطالب (حسام عمر التميمي/ لغة عربية وآدبها)، وعنوان الرسالة : صورة اللاجيء الفلسطيني في الشعر العربي الفلسطيني الحديث/ من ١٩٦٧ ـ ١٩٨٩م».

الطالب (محمد سهيل جواد عفانه/ لغة عربية وآدابها)، وعنوان الرسالة : «الصورة الفنية في شعر خليل حاوي».

الطالب (خالد اللوزي/ علم اجتماع)، وعنوان الرسالة : «مدى تمثل المهاجرين لاسلوب الحياة الحضرية : دراسة استطلاعية على عينتين من المهاجرين الريفيين المقيمين في مدينتي عمان واربد».

الطالب (وائل محمد توفيق حمدان/ آثار)، وعنوان الرسالة : «انماط استيطان العصر الحجري الحديث في الاردن وفلسطين».

الطالبة (كفاية عزت عابدين/ آثار)، وعنوان الرسالة : «المجوهرات والحلي في العصر الحديدي في الأردن وفلسطين».

الطالب (جيمس فان كليف/ فلسفة)، وعنوان الرسالة : «تجريبية أ. ج. آير : من الظاهرية الى الواقعية».

الطالب (محمد هاني خليل السيد أحمد/ فلسفة)، وعنوان الرسالة : «مبدأ اللاحتمية عند كارل بوبر».

الطالب (محمد مصطفى علي مسفقة / فلسفة) ، وعنوان الرسالة : «اشكالية النهضة عند مالك بن نبي».

الطالب (عبد الرحمن حسين عبد الرحمن أبو شندي/ فلسفة)، وعنوان الرسالة : «مفهوم التراث في فكر حسين مروة».

الطالب (حسام محمد اسماعيل الناطور / تاريخ) ، وعنوان الرسالة : «البرامكة ودورهم في العصر العباسي الأول».

الطالب (زيد صالح عبد الله أبو الحاج / تاريخ) ، وعنوان الرسالة : «ابن سعد ومنهجه في كتابة التاريخ».

الطالب (إبراهيم أحمد الشياب/ تاريخ)، وعنوان الرسالة : «النفخة المسكية في الرحلة المكية [لعبد الله السويدي] : دراسة وتحقيق».

الطالبة (فاطمة سهيل محمد المهيري/ تاريخ)، وعنوان الرسالة : «النشاط التجاري العربي في الخليج في القرن الثامن عشر».

الطالب (يحيى أحمد عبد الهادي حسين / تاريخ) ، وعنوان الرسالة : «التنظيمات الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي الأخير (٥٧٥ ـ ٦٥٦هـ)».

الطالب (محمود عبد العزيز عبد الكريم/ تاريخ)، وعنوان الرسالة : «جامعة الدول العربية والقضية الفلسطينية».

الطالب (خالد بني عبدالرحمن/ تاريخ)، وعنوان الرسالة : «يزيد ابن معاوية قبل الخلافة وبيعته».

الطالبة (سحر عبدالمجيد المجالي/ تاريخ)، وعنوان الرسالة : «الجيش العربي في الأردن من ١٩٣٩ - ١٩٧٤».

الطالب (عمر عارف الشلبي/ تاريخ)، وعنوان الرسالة : «سياسة عبد الرحمن الثاني (الأوسط) الداخلية والخارجية للأندلس ٢٠٦ - ٢٣٨هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢م».

الطالب (يحيى أحمد عبد الهادي حسين / تاريخ) ، وعنوان الرسالة : «الفتوة في بغداد في العصر العباسي الأخير ٥٧٥ - ٦٥٦هـ».

الطالبة (منوه سالم عبدالله/ تاريخ)، وعنوان الرسالة : «مؤرخو فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين».

الطالب (خيرالدين يوجه سوى/ تاريخ)، وعنوان الرسالة : «تطور الفكر السياسي عند أهل السنة - حتى الثلث الأول من القرن الرابع الهجري».

الطالب (عليان عبد الفتاح محمد الجالودي/ تاريخ)، وعنوان الرسالة : «قضاء عجلون من ١٨٦٤ - ١٩١٨م».

الطالب (اسماعيل محمد حسن بريشي/ القضاء الشرعي)، وعنوان رسالته : «تحقيق الفصول : الأول، والثاني، والثالث، والرابع، والخامس، من كتاب فصول الأحكام في اصول الاحكام المعروف بالفصول العمادية، لأبي الفتح بن أبي بكر بن عبد الجليل الميريغناني السمرقندي».

الطالب (عبدالله الديرشوي/ الفقه واصوله)، وعنوان رسالته : «الرأي ومدى المسؤولية عنه في التشريع الاسلامي».

الطالب (يحيى محمد ملحم/ الفقه واصوله)، وعنوان رسالته : «تحقيق الفصول : السادس، والسابع، والثامن، والتاسع والعاشر، من كتاب فصول الأحكام في اصول الاحكام، المعروف بالفصول العمادية لأبي الفتح عبدالرحيم بن أبي بكر بن عبد الجليل الميرغيناني السمرقندي».

الطالب (مختار عيسى سليمان مصطفى/ الفقه والتشريع) وعنوان رسالته : «كتاب معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام للأمام علاء الدين أبي الحسين علي بن خليل الطرابلسي الحنفي (ت ٨٤٤هـ)».

الطالب (صالح مصلح الرواشدة/ القضاء الشرعي)، وعنوان رسالته : «تحقيق الفصول : الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، من كتاب فصول الأحكام في اصول الأحكام، المعروف بالفصول العمادية لأبي الفتح بن أبي بكر بن عب الجليل الميرغيناني السمرقندي».

الطالب (عبد إبراهيم البشايرة/ القضاء الشرعي)، وعنوان رسالته : «تحقيق الفصول : السادس عشر، والسابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرين، من كتاب فصول الأحكام في اصول الأحكام، المعروف بالفصول العمادية لأبي الفتح بن أبي بكر بن عبد الجليل الميرغيناني السمرقندي».

الطالب (سعيد بن عبدالله بن محمد العبري/ الفقه واصوله)، وعنوان رسالته : «أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي وأثره في الفقه».

الطالب (شحاده سعيد إبراهيم السويركي/ القضاء الشرعي)، وعنوان رسالته : «حركة التقنين الوضعي والتنظيم القضائي في عهد الدولة العثمانية في عهد السلطان القانوني حتى نهاية الدولة العثمانية».

الطالب (خلف إبراهيم الهميسات/ علوم سياسية)، وعنوان رسالته : «البعد الاسلامي في الصراع العربي الصهيوني (١٨٩٧ - ١٩٤٨)».

الطالب (أحمد حمود الدويهيس/ علوم سياسية)، وعنوان رسالته : «سياسة الكويت الخارجية للفترة ١٩٦٣ - ١٩٨٩».

مطبوعات الجامعة الأردنية
ومنشوراتها خلال (١٩٨١ ــ ١٩٨٩)

الأرشيف العثماني
ترجمة : صالح سعداوي صالح
القياس : ١٧×٢٤
عدد الصفحات : ٥٢١
الطبعة الأولى : ١٩٨٦
السعر : ٣٠٫٠٠ $

كشاف احصائي زمني لسجلات المحاكم الشرعية
اعداد : د. محمد عدنان البخيت وآخرون
القياس : ١٧×٢٥
عدد الصفحات : ٢٩٣
الطبعة الأولى : ١٩٨٤
السعر : ٦٫٠٠ $

فهرس المخطوطات العربية المصورة جـ ١
جمع واعداد : محمد عدنان البخيت ونوفان الحمود
القياس : ٢٤×٣٤
عدد الصفحات : ٢٢٨
الطبعة الأولى : ١٩٨٥
السعر : ١٥٫٠٠ $

فهرس المخطوطات العربية المصورة جـ ٢
جمع واعداد : محمد عدنان البخيت ونوفان الحمود
القياس : ٢٤×٣٤
عدد الصفحات : ٢١٦
الطبعة الأولى : ١٩٨٥
السعر : ١٥٫٠٠ $

فهرس المخطوطات العربية المصورة جـ ٣
جمع واعداد : محمد عدنان البخيت ونوفان الحمود
القياس : ٢٤×٣٤
عدد الصفحات : ٢٤٨
الطبعة الأولى : ١٩٨٦
السعر : ١٥٫٠٠ $

الفارابي : رسالة التنبيه على سبيل السعادة
دراسة وتحقيق : د. سحبان خليفات
القياس : ١٧×٢٤
عدد الصفحات : ٢٦٠
الطبعة الأولى : ١٩٨٧
السعر : ٩٫٠٠ $

رسائل أبي الحسن العامري وشذراته الفلسفية
دراسة وتحقيق : د. سحبان خليفات
القياس : ١٧×٢٥
عدد الصفحات : ٥٧٦
الطبعة الأولى : ١٩٨٨
السعر : ١٢٫٠٠ $

مقالات يحيى بن عدي الفلسفية
تحقيق : د. سحبان خليفات
القياس : ١٧×٢٤
عدد الصفحات : ٤٧٢
الطبعة الأولى : ١٩٨٨
السعر : ١٢٫٠٠ $

بيوت عمان الأولى
اعداد : د. طالب الرفاعي وربا كنعان
القياس : ٢٤×٣٤
عدد الصفحات : ١٣٦
الطبعة الأولى : ١٩٨٧
السعر : ٩٫٠٠ $

سوف : دراسة معمارية في البيئة المحلية
إعداد : د. سليم الفقيه و د. فكري مرقص
القياس : ٢٤×٣٤
عدد الصفحات : ٨٧
الطبعة الأولى : ١٩٨٩
السعر : ٧٫٥٠ $

عراق الأمير والبردون، دراسة الملامح المعمارية للقرية الاردنية
إعداد : د. طالب الرفاعي وربا كنعان

القياس : ٢٤×٣٤
عدد الصفحات : ٧٨
الطبعة الأولى : ١٩٨٨
السعــــر : ٩٫٠٠ $

كتاب الواضح لأبي بكر الزبيدي
تحقيق : د. عبد الكريم خليفة
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٢٩١
الطبعة الأولى :
السعــــر : ٦٫٠٠ $

المسائل العسكريات
تحقيق : اسماعيل احمد عمايره
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ١٨٦
الطبعة الأولى : ١٩٨١
السعــــر : ٦٫٠٠

ملامح الشخصية العربية في سيرة الأميرة ذات الهمة
تأليف : د. هاني العمد
القياس : ٢٤.×١٧
عدد الصفحات : ٢٠٠
الطبعة الأولى : ١٩٨٨
السعــــر : ٦٫٠٠ $

أصول الحكم في نظام العالم
تأليف : حسن كافي الأقحصاري
تحقيق : نوفان رجـــا الحمود
القياس : ١٤×٢٤
عدد الصفحات : ٥٣
الطبعة الأولى : ١٩٨٦
السعــــر : ١٫٥٠ $

Proceedings of the First International Conference On Bilad al-Sham 20-25 April 1974 Vol. : 1.
القياس : ١٧×٢٥
عدد الصفحات : ٢٥٠
الطبعة الأولى : ١٩٨٤
السعــــر : ١٥٫٠٠ $

المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام «فلسطين»
المجلد الأول : القـــدس
القياس : ٢٥×١٧
عدد الصفحات : ٣٤٤
الطبعة الأولى : ١٩٨٣
السعــــر : ١٧٫٠٠ $

المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام « فلسطين »
المجلد الثاني : جغرافية فلسطين وحضارتها
القياس : ٢٥×١٨
عدد الصفحات : ٥٩٤
الطبعة الأولى : ١٩٨٣
السعــــر : ١٧٫٠٠ $

المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام « فلسطين »
المجلد الثالث : تاريخ فلسطين
القياس : ١٧×٢٥
عدد الصفحات : ٨٤٢
الطبعة الأولى : ١٩٨٣
السعــــر : ١٧٫٠٠ $

The Third International Conference On Bilad al-Sham: Palestine/ 19-24 April, 1984, Vol. : 1, Jerusalem.

القياس : ٢٤×١٨
عدد الصفحات : ١٨٣
الطبعة الأولى : ١٩٨٣
السعــــر : ١٥٫٠٠ $

The Third International Conference On Bilad al-Sham, Palestine 19-24 April on 1980, Vol.II, Geography and Civilization of Palestine.

القياس : ١٧×٢٤
عدد الصفحات : ٢١٥
الطبعة الأولى : ١٩٨٤
السعـــر : ١٧٫٠٠ $

The Third International Conference On Bilad al-Sham, Palestine 19-24 April, 1980, Vol.III, History of Palestine.

القياس : ١٧×٢٤
عدد الصفحات : ١٢٨
الطبعة الأولى : ١٩٨٤
السعـــر : ١٧٫٠٠ $

بلاد الشام في العهد البيزنطي
الندوة الأولى من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام/ القسم العربي - المجلد الأول
تحرير : د. محمد عدنان البخيت و د. محمد عصفور
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٢٨٦
الطبعة الأولى : ١٩٨٦
السعـــر : ١٥٫٠٠ $

Proceedings of the Symposium On Bilad al-Sham During the Byzantine Period Vol.II, (English Section), Edited by: Muhammad Adnan Bakhit and Muhammad Asfour.

القياس : ١٨×٢٥
عدد الصفحات : ٢٥٦
الطبعة الأولى : ١٩٨٦
السعـــر : ١٥٫٠٠ $

Proceedings of the Second Symposium On The History of Bilad al-Sham During the Early Islamic Period up to 40 A.H/ 640 A.D. (English and French, Vol.I).

تحرير : د. محمد عدنان البخيت
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٢١٧
الطبعة الأولى : ١٩٨٧
السعـــر : ١٥٫٠٠ $

بلاد الشام في صدر الاسلام
النـدوة الثـانيـة ، من أعـمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام/ المجلد الثاني
تحرير : د. محمد عدنان البخيت ، د. احسان عباس
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٦٣٦
الطبعة الأولى : ١٩٨٧
السعـــر : ١٥٫٠٠ $

بلاد الشام في صدر الاسلام
المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام من أوراق الندوة الثانية/ المجلد الثالث
تحرير : د. محمد عدنان البخيت
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٦٣٧
الطبعة الأولى : ١٩٨٧
السعـــر : ١٧٫٠٠ $

المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام « بلاد الشام في العهد الأموي » القسم العربي : المجلد الأول
تحرير : د. محمد عدنان البخيت
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٦٢٨
الطبعة الأولى : ١٩٨٩
السعـــر : ١٧٫٠٠ $

The Fourth International Conference Of Bilad al-Sham During The Umayyad Period. Proceedings of the Third Symposium English Section-Vol. II. Edited by M. Adnan Bakhit and Robert Schick.

القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٢٧٧
الطبعة الأولى : ١٩٨٩
السعـــر : ١٧٫٠٠ $

تحولات جذرية في فلسطين
ترجمة : د. كامل العسلي
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٤١٣
الطبعة الأولى : ١٩٨٨
السعـــر : ١٥٫٠٠ $

تقارير عن شرقي الأردن لعام ١٩٣٥
اعداد وجمع : د. محمد عبدالقادر خريسات
تقديم : د. محمد عدنان البخيت
القياس : ٢٥×١٧
عدد الصفحات : ٨٧
الطبعة الأولى : ١٩٨٦
السعـــر : ٦٫٠٠ $

تقارير عن شرقي الأردن لعام ١٩٣٤
اعداد وجمع : د. محمد عبدالقادر خريسات
تقديم : د. محمد عدنان البخيت
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٢١٢
الطبعة الأولى : ١٩٨٧
السعـــر : ٦٫٠٠ $

تقرير التفتيش السنوي « للجيش العربي الأردني » الأمن العام (١٩٣٨)
إعداد : د. محمد عبدالقادر خريسات
تقديم : د. محمد عدنان البخيت
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ١٥٠
الطبعة الأولى : ١٩٨٨
السعـــر : ٦٫٠٠ $

دراسات في النشاط التجاري والسياسي الأوروبي في آسيا
تأليف : د. عبدالأمير محمد أمين
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ١٣٨
الطبعة الأولى : ١٩٨٧
السعـــر : ٦٫٠٠ $

السياسة والتغيير في الكرك ـ الأردن
ترجمة : د. خالد الكركي ، مراجعة : د. محمد عدنان البخيت
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٢١٠
الطبعة الأولى : ١٩٨٨
السعـــر : ١٠٫٥٠ $

سيرة ومسيرة
الجامعة الأردنية في عيدها الفضي
جمع واشراف : د. محمد عدنان البخيت و حامد الزغول
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٧٢٤
الطبعة الأولى : ١٩٨٧
السعـــر : ١٥٫٠٠ $

الشمال الشرقي الافريقي في العصور الوسيطة المبكرة وعلاقاته بالجزيرة العربية
ترجمة : د. صلاح الدين عثمان هاشم
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٤٩٦
الطبعة الأولى : ١٩٨٨
السعـــر : ١٥٫٠٠ $

المكاييل والأوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري
ترجمة : د. كامل العسلي
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ١٣٤
الطبعة الثانية : ١٩٨٢
السعـــر : ٤٫٥٠ $

ناحية بني كنانة (شمالي الأردن) في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي
تأليف : د. محمد عدنان البخيت
القياس : ٢٤×١٧
عدد الصفحات : ٢٠٨
الطبعة الأولى : ١٩٨٩
السعـــر : ٧٫٥٠ $

The Arab Historian Quarterly

Address :
Union of Arab Historians
P.O.Box : 4085
Baghdad — Iraq
Telex :
Telephone :

Subscription Card.

Please enter my subscription for

One Year $ 150.00 for Institutions
$ 60 for Historians
$ 30 for Students of History

Please bill me ....
Check enclosed for $ ....
Name ....
Address ....
City .... Country ....
Date ....

المؤرخ العربي

مجلة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

العنـــوان :
اتحاد المؤرخين العرب
ص.ب (4085)
برقيا مؤرخين بغداد
هاتف : 4434236
بغداد : الجمهورية العراقية

قيمة اشتراك

ارفق طيا صكا/ حوالة مصرفية بمبلغ .... مدفوعة لأمر اتحاد المؤرخين العرب/ الامانة العامة/ عن قيمة اشتراك بنسخة واحدة أو.......... نسخ، لمدة سنة واحدة على ان ترسل الى العنوان الآتي :

الاسم : ....
العنوان : ....
رقم التلكس .... رقم الهاتف ....

المشاركات
50 دينارا داخل العراق و 150 دولارا في الاقطار العربية ..

The Arab Historian

AL-MUARRIKH AL-ARABI

A quarterly issued by;

The Union of Arab Historians
Baghdad

No : 41 , 42 , 1990

Eleventh Year (1409) A.H. 1989

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS

Office of the general secretary

Iraq - Baghdad - P.O.Box 4085
Cable: MOARKHEEN Baghdad

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS

Office of the general secretary

Iraq - Baghdad - P.O.Box 4085
Cable: MOARKHEEN Baghdad